جان جاك شفالييه

المؤلفات السياسية الكبرى

من ماكيافل إلى أيامنا

ترجمة

الياس مرقص





دار الحقيقة - بيروت

المؤلفات السياسية الكبرى

من ماكيافيل إلى أيامنا

الطبعة الثانية
١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م

جان جاك شفاليه

المؤلفات السياسية الكبرى

من ماكيافل إلى أيامنا

ترجمة

الياس مرقص

دار الحقيقة

للطباعة والنشر في بيروت

هذه ترجمة كتاب

Jean - Jacques Chevallier

Les Grandes œuvres Politiques de Machiavel à nos jours

préface de André Siegfried

Armand Colin, Paris,

استغنينا عن مقدمة أندره سيغفريد ، وهي رسالة فيها مشروع برنامج دروس الادب السياسي لمعهد العلوم السياسية ، الذي عد"له شفالييه في هذا الكتاب . سيغفريد يثني على شفالييه لكونه تدارك النقص الفادح في مشروعـــه : لوك ، سييس ، برك ، فيخته ، لينين ؛ يبدي أسفه لكون شفالييـــه حذف «الدرس السياسي الذي يخرج من قصائد لافونتين la Fontaine » . سيغفريد أورد ايضا في مشروعه كبنود مستقلة ، عن القرن ١٦ : رسائل وخطب هنري الرابع ملك فرنسا ، عن القرن ١٧ : **وصية** ريشوليو ، **مذكرات** الكاردينال دو رتز Retz ، **مشروع الضريبة الملكية** لـ فوبان Vauban ، **تيليماك** فينلون Fénelon ، عن القرن ١٨ : **رسائل** فريدريك الثاني ملك بروسيا ، **مراسلات** ميرابو و دو لا مارك ، **رسائل** و **افكار** نابوليون ، عن القرن ١٩ : **السياسة الوضعية** لـ اوغست كونت ، جوزيف دو ميستر ، سان سيمون وفوريه وبرودون ، لو بلاي Le play ، **الفرد والدولة** لـ هربرت سبنسر H. Shencer ، **الاصلاح الفكري والخلقي** لـ رينان Renan ، البابا ليون ١٣ (الكاثوليكية الاجتماعية) ، وعن القرن ٢٠ : هـ.س. تشمبرلين (نظرية العرقية) . ان معظم هؤلاء داخلون (بشكل رئيسي احيانا) فـــي صلب فصول كتاب شفاليه المتركزة على آخرين .

استغنينا ايضا عن قائمة المراجع التي يجب ان تقرأ بالفرنسية .

فكرنا اول الامر بعرض منهجي ومقتضب لتاريخ اوروبـــا الحديث ، يوضع في بداية هذا المجلد غير الصغير . ولكن صرفنا النظر عن عرض كان من الصعب ان يكون مقتضبا . نامل ان لا نكون قد اخطانا . الشروح الملحقـة مقسومة حسب أجزاء وفصول الكتاب . افترضنا في القارىء العربي انه يجهل تاريخ أوروبا من القرن ١٦ الى القرن ١٨ وانه اكثر اطلاعا على الحقبة اللاحقـــة «الازمنة المعاصرة» ، وحاولنا في حدود استطاعتنا التوفيق بين شروح من النـوع التقليدي ومشروع المقدمة التاريخية المنهجية الذي تخلينا عنه .

المترجم

مقدمة

التاريخ تعلّمه ليس فقط الاحداث السياسية الكبيرة ، بل ايضا بعض المؤلفات السياسية الكبيرة التي اسهمت ، اكثر من مرة ، بعد حين طويل او قصير ، في تهيئة هذه الاحداث . سيجد القارىء في هذا الكتاب ، نوعا ما ، «لوحات» هذه المؤلفات الكبرى ، من عصر النهضة (مع امير ماكيافل) حتى ايامنا : رواق طويل يمتد على اكثر من اربعة قرون . هذا الاطار ، الواسع هكذا بما فيه الكفاية ، يستبعد بالتالي **جمهورية** و **شرائع** افلاطون ، **سياسة** ارسطو في العصر القديم ، كما و المؤلفات السياسية الممثلة للعصر الوسيط المسيحي .

مؤلفات سياسية كبيرة . ـ سياسية ، في كون موضوعها الاولي ، الدور الاول الذي يشغل فيها المسرح دوما ، هو **الدولة** . الدولة ، تنظيم المجتمع ، وقبل كل شيء تنظيم السلطة في المجتمع ، التنظيم المطلوب وصفه ، تسويغه ،مدحه أو نقده. الدولة ، شخص قوي جشع ، طامع بالجوهر في التعدي على ميدان الفرد وعلى ميدان الجماعات الوسيطة بين الفرد وبينه . ولكن ، بالضبط ، ما هو هذا الميدان المشروع ، بل هل له وجود ؟ هذا السؤال وحده يكفي لتبيان ان عملا من الاعمال السياسية يجد نفسه منساقا الى اتخاذ موقف من معضلات طبيعة الانسان وشرطه (١) ومصيره : معضلات أخلاقية ، فلسفية ، دينية . ان تاريخ الافكار السياسية ، حيث الاعمال التي سنتكلم عنها تندرج بوصفها حلقات شديدة اللمعان في سلسلة طويلة ، هو دائما في جزء منه تاريخ للافكار وحسب .

---

١ ـ شرطه ، شرط الانسان ، Sa condition ، بمعنى حاله (ونوعا ما نصيبه ، قدَره) .

مؤلفات **كبيرة** . كبيرة بمعنى انها وسمت بعمق روح المعاصرين او روح الاجيال التالية وانها ، سواء إبان صدورها ، او فيما بعد نوعا ما ، رجوعا ، كانت **محطات تاريخية** . بقول آخر ، كسبت ، مباشرة او بعد حين ، ما يمكن تسميته **الطنين** التاريخي او **الحظ** التاريخي . هذا لا يعني البتة انها جميعا كبيرة داخليا ، كبيرة بحد ذاتها ، قيمة مطلقة ، بثروة وجهات النظر ، والفهم الصافي للآليات الفردية والاجتماعية ، والسيطرة على البناء ، ووضوح وقوة التعبير . بين الاعمال التي سنرى ، اكثر من واحد ناقص ، متفاوت ، قبّحه او خرّبه الهوى المنحاز ، وفي بعض وجوهه على الاقل ــ وأحيانا في جوهره ذاته ــ الفظيع . لكن هذه الشوائب او حتى هذه العيوب لم تمنعه ، بالعكس ، من احراز **الطنين** التاريخي ، من مصادفة **الحظ** التاريخي : لان هذا العمل وجد نفسه يستجيب بشكل خاص للشواغل ، للاهواء السياسية في اللحظة المعنية او في لحظة من اللحظات . في الاتجاه المعاكس ، ولسوء الحظ ، قد يحدث ان يهجر الحظ التاريخي بعناد مؤلّفا سياسيا كبيرا بذاته . ذلك حال كتاب كورنو Cournot ، الصادر عام ١٨٧٢ ، **نظرات على مسيرة الافكار والاحداث في الازمنة الحديثة** . كان يستحق ، من حيثيات عديدة ، ان يكون محطة تاريخية . هذا لم يحدث . ان هذه **النظرات** القوية والنافذة والجدية لا تدخل بالتالي في اطارنا .

بعد تعريف فكرة العمل السياسي الكبير على النحو المذكور ، اليكم في كل مرحلة من التاريخ الاعمال التي بدت لنا تستجيب للتعريف . لدينا بادىء ذي بدء ، كمعالم على طريق مسيرة الدول الكبرى الحديثة الى النظام المطلق absolutisme الملكي : **الامير** لـ ماكيافل Mackiavel ، **الجمهورية** لـ بودان Bodin ، **لوياثان** Léviathan لـ هوبز Hobbes ، **السياسة المأخوذة من الكتاب المقدس** لـ بوسويه Bossuet (*) . ثم تأتي ، واسمة انطلاق وخطوات حركة معاكسة ، حركة رد ظافر ضد الملكية المطلقة : الـ **محاولة عن الحكومة المدنية** لـ لوك Locke ، **روح القوانين** لـ مونتسكيو Montesquieu ، **العقد الاجتماعي** لـ روسو Rousseau ، **ما الطبقة الثالثة ؟** لـ سييس Siéyes : هذا العمل الاخير يقودنا الى عتبة الثورة الفرنسية بالذات . ثم ثلاثة أعمال ، ذات إلهامات متنوعة متخالفة عدا ذلك ، توافق ما يمكن تسميته التوابع «المباشرة» لهذه الثورة (التي ما تزال توابعها البعيدة قائمة) ، هي من ١٧٩٠ الى ١٨٤٨ : **التأملات عن ثورة فرنسا** لـ برك Burke ، **خطابات الى الامة الالمانية** لـ فيشته Fichte ، **الديموقراطية في اميركا** لـ الكسي دو توكفيل Alexis de tocqueville . اخيرا ،

(*) **الوصية السياسية** للكاردينال دو ريشليو Richelieu ، وهي عمل سياسي عظيم لا شك ، صدرت للتو في طبعة نقدية ، هي الاولى ويمكن اعتبارها نهائية ، بفضل المأسوف عليه لوي اندره مع مقدمة من السيد ليون نويل . لذا فضّلنا الا نورد في هذا المؤلف فصلا مخصصا لهذه **الوصية** الشهيرة والتي نادرا جدا ما قرئت حتى الان .

المرحلة الطويلة والدراماتيكية ، التي بدات في ١٨٤٨ ، التي وسمتها حربان عالميتان وخلالها نبتت الاشتراكية والقومية مثل نباتات عملاقة ، هذه المرحلة رات تعاقب مؤلفات لم تستنفد شحنتها الانفجارية ، الانفعالية اكثر ايضا مما هي فكرية : **البيان الشيوعي** لـ ماركس و انجلز ، **التحقيق عن المونارشية** لـ موراس Maurras ، **تاملات عن العنف** لـ ج. سوريل G. Sorel ، **الدولة والثــورة** لـ لينين ، **كفاحي** لـ هتلر . هذا لا يعني ، بالطبع ، ان اختمار الافكار السياسية المعاصر لـم ينتج منذ ١٩٢٧ ـ منذ الصفحات الحاقدة والحارقة لعصبي «العرق الاري» ـ اكثر من مؤلف جدير بالذكر كما سنرى . ولكن الحظ التاريخي لم يَسم او لم يسم بعد احدها بإصبعه الحاسم .

لقد وجهوا للنقد المعاصر لوم المبالغة في «الإسنادات التاريخية والظرفيــــة» (اندره روسو André rousseaux وتغطية التماثيل الادبية بهذه الاسنادات لدرجة «لاأتعود معها **تُرى**» . ان صاحب هذا الكتاب كان ليستحق لوما معاكسا ، وليس أقل خطورة ، لو لم يكن قد اسند كلا من المؤلفات المذكورة أعلاه بتقديـــم مقتضب ، ولكن ايضا موحٍ قدر الامكان ، للبيئة التاريخية التي فيها وُلد . ولكنه اراد ان يتلافى ايضا اللوم الاول ، ولذا فان القارىء سيجد في الصفحات التي تلي شواهد عديدة وواسعة كي «**يراها**» ، كي يرى هذه المؤلفات ـ المحطات ، كي يتلقى مباشرة ، بلا وسيط ، صدمتها الذهنية .

من جهة اخرى ليس ما أرشد المؤلف في اختيار هذه النصوص ـ الشواهد هو همّ المعرفة الواسعة الدقيقة و«اللون المحلي» بقدر ما هو هم الثقافة السياسيــة الكبرى . بتعبير آخر ، بدون أن نهمل ما في كل مؤلف هو خاص بزمنه وبشخصية الكاتب ، فقد اكدنا على الصفحات التي تسهم في انارة المعضلات السياسيــــة الرئيسية ، المطروحة منذ قرون على الذهن البشري . مهما بلغ عمق ارتباط مؤلف من المؤلفات ، في اصله ، بظروف التاريخ ، فان أجوَد ما فيه وأقواه فكرا وتعبيرا يتجه دوما الى التحرر ، حسب عبارة الروائي الانكليزي الكبير تشارلس مورغان ، من «موضوع اللحظة» ، ليأخذ عبر الزمن طيرانه المستقل .

الجزء الأول

في خدمة النظام المطلق

«الخلاص بات يتوقف على ملك سيد ملك كي يصون
كل شيء يمسك كل شيء في يده» .
كورني ، Corneille
في مسرحية سينا Cinna

الايطالي **ماكيافل** ، الفرنسي **بودن** ، الانكليزي **هوبز** ، **بوسويه** الاسقف الكبير زينة كنيسة فرنسا : اي رابط فكري يستطيع اذاً ان يوحد هؤلاء المؤلفين المختلفين ، عبر فروق الزمان والمكان التي تفصلهم ؟ هذه الرابطة موجودة ، وهي قوية جداً : انها رابطة القضية التي خدموها جميعا ، في النهاية ، بطرق مختلفة. هذه القضية هي قضية سلطة واحد بلا شطر : الحكم المطلق الملكي .

المكابح الرئيسية التي كانت ، في تصور أوروبا العصر الوسيط المسيحيـــة والاقطاعيـــة ، تعارض هذا النظام المطلق ، حاول هؤلاء المؤلفون المختلفون فكها او حذفها (لنلاحظ مع ذلك ، كي لا نعود الى هذا بعد الان ، انه في تمام ظفر الحكم المطلق يفترض بقاء السلطة خاضعة لبعض المكابح التي تبقى وتشد بقوة) . ماكيافل يستبعد ، فيما يخص الدولة ، أوامر الاخلاق العادية ، ويعلن **استقلال السياسة**. بودن ، وريث المشرّعين الملكيين القدامى ، يردّ المزاعم التاريخية من انواع شتى المدعية مشاطرة **السيادة** . هوبز يبرر عقليا الحكم المطلق ذهابا من تصور مادي محض لطبيعة الانسان ، الاناني والخائف . بناؤه القوي ، مع استعارته بعـــض

الإحجار عن ماكيافل ، وخصوصا عن بودن ، بناء أصيل بالجوهر والاساس . مثل ماكيافل ، هوبز بمثابة أستاذ غير معترَف به لدى جميع عبـــدة السلطة . بصورة غير مباشرة او مباشرة ، بوسويه يستلهمه . يستخدم الكتاب المقدس لتمجيد الملكية المطلقة ، الوراثية من ذكَر الى ذكر ومن بِكر الى بكر . يستنشـــق في كل صفحة فرح الطاعة . ولئن كان يحفظ دوما ، بالطبع ، حقوق الله في وجه السلطة ، الا انه على الاقل يؤوّل قدر ما يستطيع قواعد الكنيسة الحذقة في اتجاه ملائم لخضوع الرعايا خضوعا غير مشروط .

الفصل الأول

«الأمير» ، لـ ماكيافل (١٥١٣)

«فالقوة عادلة حين تكون ضرورية»
ماكيافل

الديكور والظرف

ماكيافل ، ـ هذا الاسم العلَم المعروف كونيا ، الذي كان له ان يعطي اللغة اسما مصدرا ، «ماكيافيلية» ، وصِفة ، «ماكيافيلي» ، يذكّر بعصر ، النهضة ؛ بأمة ، ايطاليا ؛ بمدينة ، فلورنسا ؛ واخيرا بالرجل نفسه ، الموظف الفلورانسي الجيد الذي كان ، بكل براءة وبجهل تام للمستقبل العجيب ، يحمل هذا الاسم : ماكيافيل ، الذي سيحظى بالشهرة الاكثر سطوعا والاشد التباسا .

النهضة ، بالمعنى الضيق للكلمة ، حركة فكرية تبدأ في أواخر القرن الخامس عشر ، تتفتح اثناء الربع الاول من القرن السادس عشر ، وترمي الى زعزعة **الضوابط** الفكرية للعصر الوسيط ، للرجوع الى العالم القديم الكلاسيكي ، المدروس

من مصادره مباشرة على يد الانسانيين humanistes (١) ، وليس عبر النقل المسيحي كما كانت الحال . ولكن النهضة ، بالمعنى الواسع للكلمة ، أكثر من ذلك بكثير . انها هذه الواقعة الكبيرة ، الا وهي ان السلطة المزدوجة للبابا في الروحي، وللامبراطور (٢) في الزمني ، تنهار نهائيا . في الزمني ، تتوطد الدول الملكية الموحّدة العظمى ، فرنسا ، انكلترة ، اسبانيا ، التي يمضي ملوكها قدما في اعتبار مزاعم البابا والامبراطور المتخاصمة او الموفّقة مزاعم تافهة . بينما اكتشاف اميركا على يد كولومب واكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح سيقلبان الاقتصاد العالمي . في الروحي ، ان اقتصاد ــ ان صح التعبير ــ الروح الانساني يقلبه تدريجيا اكتشاف الطباعة : في أواخر القرن الخامس عشر ، كل المدن الكبيرة لها مطبعتها .

ان **ازمة الوجدان الاوروبي** (التي يدرسها بول هازار Paul Hazard في كتاب سيد مموقعا اياها بين ١٦٨٠ و١٧١٥) لن تكون سوى نمو وانبساط البذور الفتاكة المغروسة آنذاك في الاذهان والقلوب : هوى البحث والاكتشاف ؛ المطلب النقدي والفحص الحر ، المتعطشان الى طعن كل دوغما وتمزيق كل سكولاستيكا ؛ الغرور الانساني المستعد لمجابهة الإلهي ، لمعارضة الاله الخالق بالانسان المكتفي بذاته ، الانسان الذي صار إلها للانسان ، الممارس سلطته الخالقة الخاصة على طبيعة باتت مقطوعة عن جذور دينية وعادت وثنية . «عهد التقنيات»، في خدمة الانسان وعمله ، يحل محل العهد الوسطوي ، «عهد التأمل» ، الموجّه والمسيطر عليه من قبل الله . الفرد ، المؤطر من قبل الجماعات ، من العائلة الى الحرفة ، اللواتي كان ملكا لهن بمرسوم من العناية الالهية ، الذي تقوده الكنيسة الى ملكوت السماء ، الى خلاصه الابدي ، سينعتق شيئا فشيئا من هذا الانضباط الكاثوليكي الطويل ، انضباط العصر الوسيط ، ليبحث عن طريقه وحده ، في

---

١ ــ **الانسانوية** humanisme في عصر النهضة : تأكيد على الانسان ، عودة الى اليونان وروما (بعث العصر القديم الكلاسيكي ضد العصور الوسطى المسيحية) .

٢ ــ **الامبراطور** : امبراطور النمسا ، آل هابسبورغ الذين احتفظوا منذ ١٩٣٨ بتاج «الامبراطورية المقدسة » . ــ

هذه «الامبراطورية المقدسة» : وريثة امبراطورية روما القديمة مسيحيا ، والامبراطورية الرومانية الغربية كاثوليكيا ، حلم رواد اوروبا المسيحية الكاثوليكية في العصور الوسطى (وعارض تكوّن الامم والدول التي هزمته جيدا) . كان شارلمان (ق ٨) قد اقام «امبراطورية الغرب الثانية» ، التي توزعت بعد وفاته . وفي ق ١٠ ، توّج ملك جرمانيا أوتو الاول او الكبير امبراطورا لـ «امبراطورية روما الغربية» التي اصبحت تدعى فيما بعد «**الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة**» ... وعاشت وسميا (وصوريا) حتى سنة ١٨٠٦ ، حين خلفتها «امبراطورية النمسا» (الحقيقية غير الوهمية) . ــ «الامبراطور» : خليفة كاثوليكي ، اذن مبدئيا بدون سلطة روحية ، فالسلطة الروحية تتمثل في البابا.

عزلة خصبة او عقيمة .

في ايطاليا اكثر من اي مكان آخر ، هذا الفرد المجدّد ، ما ان يحس بقوته وطاقته وقيمته (بكل هذا الذي يترجمه المصطلح الايطالي Virtu ، الذي تخونه الكلمة الفرنسية Vertu) حتى ينفلت ، ينفجر ، يتمتع عدوانيا بانعتاقه . ساخرا من ملكوت السماء ، لا يفكر الا بامتلاك ملكوت الارض بجشع ، مع كل متعه : الجسدية ، الاستيطيقية ، الفكرية . الفرد ، كما يقول باعجاب شارل بنواست Charles Benoist في دراساته عن الماكيافيلية ، «الفرد الحر والمطلق العنان ، رافسا تحت ضربات الحظ ، الحيوان المرن والرائع ، ثعلب وأسد ، المتربص دوما بالفريسة او المنقض عليها» . لقد تعرّفنا هنا على وحوش النهضة الايطالية الكبار ، عائلة بورجيا Borgia ، بنفنوتو شيليني Benvenuto Cellini ، وهم ليسوا أسوأ من آخرين يتحدث عنهم التاريخ اقل ، ولكنهم اقدر على جرائم أجمل (اذ ان فكرة الجريمة الجميلة ، الاستيطيقا في الجريمة ، تأتي من عصر النهضة). تعرّفنا ايضا على مسودة اولى لـ سوبرمان نيتشه Nietzsche . وظهر من الان ان السوبرمانية ، الـ فوق ـ انسانية ، ليست غالبا سوى القناع الفاخر للإنسانية ، كي لا نقول لاسوأ حيوانية .

حالة ايطاليا السياسية كانت صالحة لهذا الانفلات للافراد اصحاب الـ Virtu ، لتفتحهم فيما وراء الخير والشر . شعور الطليانية ، الغامض عند الغالبية ، الواضح عند بعض الاذهان النادرة ، مع الاعتزاز بالميراث الروماني ، كان يخنقه غبار من امارات عابرة . حول اربعة أقطاب ثابتة ، روما ، البندقية ، ميلانو ، فلورنسا ، جمهرة من دول «غزيرة ، متكاثرة ، متعفّنة ، تقوم ، تنفك ، تقوم ثانية» ، غالبا بمساعدة الغرباء ، فرنسيين وإسبان ، الذين اجتاحوا ايطاليا . روما ، روما البابوية ، التي كانت تقدم (لاسيما في ظل اسكندر السادس بورجيا) أقل المشاهد أخلاقية ، اقل المشاهد انجيلية ، كانت تستخدم ، في المناسبات ، جيوشا اجنبية ، كما اي وسيلة اخرى تصلح لتوسيع سلطتها الزمنية او أملاك ابناء وإخوة وانسباء رئيس الكنيسة . القادة الكوندوتييري Condottieri ، الذين كانوا يؤجّرون لمن يدفع اكثر عصاباتهم من المرتزقة ، الذين يقاتلون بشكل سيء ويخونون بشكل افضل ، كانوا يتدبرون امرهم لإطالة الحروب وللنهب ايضا اثناء السلم . هكذا كانت ايطاليا اواخر القرن الخامس عشر ، تفتك بها خلافات وجرائم ، وسط اروع ازدهار فني عرفته البشرية منذ الازمنة القديمة .

فلورانس التي لا تضاهى ، ذات الربيع العذب ، والهواء الجاف الخفيف ، الملائم للافكار الواضحة والاحكام البصيرة ، كانت قد فتكت بها اكثر من اي مدينة اخرى مشاجرات الاحزاب ـ الشلل ، الى ان استولى آل ميديشي Médicis ، وهم عائلة من اصحاب البنوك الاثرياء ، على السلطة ، اعتبارا من سنة ١٤٣٤ مع كوسم Cosme . لوران (لورنزو) ، مع استحقاقه لقب الفاخر او الرائع ، بتذوقه للفنون (وقد كان هو نفسه شاعرا) والصيد والخمور الرفيعة والنساء ،

كان قد أجهز على الحريات العامة القديمة العزيزة على قلوب الفلورانسيين . وقد فشلت مؤامرة (مؤامرة الـ باتسي Pazzi) ضده في سنة ١٤٧٧ . واستطاع الناس ان يشاهدوا ــ وماكيافل الذي كان في التاسعة من العمر استطاع ان يشاهد ــ «جسدي أسقف بيزا ، سالفياتي ، وفرانسوا باتسي ، يترجّحان على نوافذ قصر الاسياد ، بينما كان نهر الآرنو Arno يجرف جثة ياكوبو باتسي التي كان الاولاد قد جروها معلقة بحبل في شوارع المدينة» (غوتيه فينيال Gautier Vignal . لوران يموت في سنة ١٤٩٢ ؛ خلفه بيار Pierre يهرب في ١٤٩٤ امام الشعب الثائر على الاتفاق الذي عقده مع ملك فرنسا شارل الثامن .

تعود الجمهورية في فلورنسا . ولكن لتسقط خلال ثلاث سنوات في أيدي الراهب الدومينيكي جيرولامو سافونارولا Savonarole ، وهو نبي زاهد ، نحيل وعنيف ، كان ، وهو يعظ على موضوعات رؤيا وقيام للساعة ، يحرك «يدين جميلتين شفافتين» . تبشيره سحَر اهل المدينة الخفيفين . لم يكونوا يفكرون الا بالحياة والمتعة ، سافونارولا لا يحدثهم الا عن الموت ، ويتبعونه ؛ النساء يتخلّين عن المجوهرات ، عن الزينة ؛ الجمهور في صيام ١٤٩٧ . يقذف الى النار، تكفيرا ، ما لا يُعَدّ من الكتب وروائع الفن . الراهب ، سيد فلورنسا بدون لقب رسمي (كما فيما بعد كالفن Calvin في جنيف) ، يؤسس فيها ديموقراطية ثيوقراطية (٣) وطهرانية . تقشف ، تحت طائلة العقاب ؛ فرَق من الاولاد يتجسسون في البيوت ويفضحون الخطاة . روح الاصلاح Réforme «انتفاضة الوجدان المسيحي» ، ولكنه اصلاح يُجرى داخل الكنيسة على يد رهبان زاهدين ، تنفخ في هذا الـ سافونارولا المبالغ ، الذي يأكله الحقد على الرذيلة . يلعن جشع وفسق روما البابوية ؛ يرفض قبعة الكاردينالية ويشتم البابا اسكندر السادس بورجيا ؛ ويصيح انه لا يريد سوى «ما اعطي لجميع القديسين ، الموت ، قبعة حمراء ، قبعة من دم» . وبالفعل ، ستنتهي مغامرته بالموت ، بعد فصول دراماتيكية ، محاكمة وتعذيب . يُشنق ويُحرق مع اثنين من حوارييه ، في ٢٣ ايار ١٤٩٨ ؛ الفلورنسيون كانوا قد تخلوا عنه . هذا الفصل الغريب كان ليشفيهم نهائيا من اية نوبة صوفية .

رمزيا ، بعد موت الراهب الدومينيكي بأيام قليلة ، في ١٥ حزيران ١٤٩٨ ، يدخل نقولا ماكيافل ، وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، يدخل رسميا في الحياة العامة ، كسكرتير للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنسا . انه ينتمي الى عائلة ممتازة من البرجوازية التوسكانية (٤) ، وابوه فقيه رصين . لا يلبث ، بدون

---

٣ ــ ثيوقراطية = إلهوقراطية ، حكم الله (وكتابه) .

٤ ــ فلورنسا (بالايطالية فيرنتسه) مركز منطقة توسكانا في شمالي وسط ايطاليا ، عاصمة النهضة قبل روما . توسكانا لعبت دورا بارزا في تاريخ الامة الايطالية (الصناعة ، اللغة ، الآداب والفنون ، السياسة) .

ان يترك المستشارية الثانية ، أن يوضع كسكرتير تحت تصرف عشرة الحرية والسلام ، وهم قضاة منتخبون مكلفون بخدمات عامة متنوعة وخصوصا بالمراسلات مع ممثلي فلورنسا في الخارج .

تافهة حالة نقولا ماكيافل وبخسة الأجر ، وتافهة حياته . حياة موظف ، حياة بروقراطي ، ينفذ اوامر ، يتخبط وسط دسائس مسكينة من زملاء وهموم مالية. ليست البتة ، كما يعتقد احيانا ، حياة دبلوماسي ، «سفير» ، كما قيل بابّهة وخطأ . الخلط جاء لا ريب من كون ماكيافل ، كما يحدث لكبار مستخدمي الوزارات ، قد كلّف بشكل متواتر بمهمات ، إما في الخارج واما في ايطاليا نفسها . كان على العموم يؤدي المهمة على نحو عجيب ، الامر الذي اتاح له اخذ نفوذ شبه ـ رسمي اكيد على الديبلوماسية الفلورانسية . وفضلا عن ذلك ، بما انه كان مفتوح العينين على نحو ممتاز وكان يعرف ملاحظة عمق الاشياء تحت الاقنعة المتنوعة التي ترتديها ، فقد كان مدينا لهذه المهمات ببصيرة نادرة في مضمار الامزجة القومية ، والعلاقات من شعب الى شعب . عرف هكذا فرنسا لويس الثاني عشر ، المانيا الامبراطور ماكسيميليان ، المرموقة بثراء مدنها والروح العسكرية لسكانها : «جنودهم ، على حد قوله ، لا يكلفونهم شيئا ، ما دام جميع السكان مسلحين ومدربين» . ان مسألة جيش قومي هذه كانت تسكن ماكيافل، وقد نال من العشرة ان يكلّف بتنظيم ميليشيا فلورانسية ، من شأنها ان تتيح للجمهورية ان لا تكون بعد الان تحت رحمة المرتزقة .

في ايطاليا نفسها ، احدى مهمات ماكيافل وضعته على صلة في سنة ١٥٠٣ مع قيصر بورجيا ، دوق فالنتينوا ، ابن البابا اسكندر السادس . قيصر ، الذي نصّب كاردينالا في السادسة عشر من عمره ، كان ، وهو فاقد تماما الدعوة الدينية ، قد تنازل عن القابه الكنسية ليحاول ان يكوّن في ايطاليا الوسطى ملكا اميريا واسعا . ولما كان النموذج الكامل لوحش النهضة الكبير ، وحشا ساحرا ، فقد أحدث على ماكيافل انطباعا لا ينسى («هذا السيد رائع وفاخر تماما ...») .

حياة السكرتير الفلورانسي كانت في طريق جيد بعد ١٤ سنة من الخدمات الذكية والمخلصة ، حين تبدل نظام فلورنسا من جديد (١٥١٢) . الجمهورية ، مأخوذة في تقلبات الصراع بين البابا جول الثاني وملك فرنسا لويس الثاني عشر، رات ميليشياها موضع فتك ودمار (عمل ماكيافل لم يستجب ، لسوء الحظ ، بتاتا لما كان ينتظره منه) على يد قوى العصبة البابوية . وانتهز انصار آل ميديشي فرصة الكارثة ليعيدوا «آل ميديشي الرائعين في كل القاب ومراتب اجدادهم» . ماكيافل ، موظف الجمهورية ، طرد من كل مناصبه ونفي من فلورنسا .

«كل شيء ضاع ـ يقول شارل بنواست ، ولكن كل شيء كسب . ماكيافل فقد مكانه ، ولكن كسبنا ماكيافل» . لنفهم ان السكرتير الفلورانسي ، كما سيبقى اسمه الى الابد ، لولا فقدانه الحظوة ، لما وجد وقت وفرصة كتابة عمله . هذا العمل يشمل ، بالدرجة الاولى ، الـ Biscorsi او الخطب عن السنوات العشر

الاولى من تيت ـ ليف Tite Live (٥) : ماكيافل ، بمناسبة التاريـــخ الروماني («تاريخ شعب طموح») ، ألف هنا كتابا حقيقيا في العلم السياسي ، غير ناجز ، عن الحكومة الجمهورية . ثم **تاريخ فلورنسا** ، وال **كتاب عن فن الحرب**. بدون ان ننسى ، بطبيعة الحال ، هذا المؤلف الصغير ، «الكتيّب» كما ينعتـــه صاحبه ، المكتوب نوعا ما على هامش ال **خطب** : **الامير** («تاريخ رجل طموح») ، وعنوانه الحقيقي هو «في الامارات» . ولنهمل هنا ال **ماندراجور** ، وهي كوميديا خفيفة جدا ، وحياة **كاستروشيو كاستراكاني** ، وهي قصة كوندوتيير من مدينة لـــوك Lucques كتبت بأسلوب رومانسي روائي .

ماكيافل ، وقد فقد عمله الرسمي ، يعيش في بيت ريفي متواضع يملكه ، قرب سان كاشيانو ، في جوار فلورنسا . انه تحت وطأة الحاجة ؛ عنده زوجة وأولاد عليه ان يطعمهم ؛ يملؤه الحقد والضجر . حقد كونه غير معترَف به من قِبل أسياد فلورنسا الجدد ، هؤلاء ال ميديشي ، الذين هو على اتم الاستعداد ليخدمهم بولاء رغم كونه بالاساس جمهوريا بقلبه . ضجر كونه مُبعَدا عن الشؤون العامة ، التي كرس لها كل ذكائه طيلة ١٤ سنة . انه يسكب قلبه في رسائله الى صديقه البارز فِتوري Vettori ، سفير فلورنسا في روما ، الذي يعلم قيمته والذي يعير انتباها كبيرا للآراء التي يبديها له عن المسائل السياسية الدقيقة . احدى هذه الرسائل ، وتاريخها ١٠ ديسمبر ١٥١٣ ، شهيرة ، وتستحق أن تكون . سنرى الان لماذا .

ماكيافل يصف ايامه الكئيبة . انه ينصب أفخاخا للسمّن ، يشرف على قطع اشجار حرشه ويتحدث مع الحطابين ، ثم يقرأ دانتــــه Dante ، بترارك Pétrarque ، او الشكاوي العاطفية لـ تيبول Tibulle ، لـ أوفيد Ovide (ذاكرا ان «هيجاناته العشقية» تذكره بهياجاته) (٦) . المقهى ـ الفندق يعده بين

---

٥ ـ تيت ـ ليف Tite Live (ق ١ قبل الميلاد) مؤرخ لاتيني كبير ، صاحب تاريخ لروما حتى ايامه ، معجب بروما ويجعل كتابة التاريخ عملا وطنيا .

دانته Dante (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) اول وأعظم شعراء اللغة الايطالية ، مؤلف «الكوميديا الالهية». لعب دورا سياسيا في مدينته ، فلورنسا .

بترارك Pétrarque (ق ١٤) : شاعر ايطالي كبير ، مؤرخ ، عالم آثار ، باحث مخطوطات قديمة ، اول كبار إنسانويي النهضة .

تيبول ، اوفيد : شاعران لاتينيان (ق ١ ق‌م) .

٦ ـ لويس الثاني عشر ملك فرنسا من ١٤٩٨ الى ١٥١٥ ، اقام السلطة المونارشية نهائيا ، قام بعمل اصلاحي (ضرائب ، قضاء ، تجـــارة) ، وسّع رقعة الدولـــة القومية الفرنسيـــة المونارشية ، ... لكن خاض حروبا في ايطاليا . كانت الحروب التي دخلها (وبعض أسلافه وخلفائه في ايطاليا) جهدا ضائعا من وجهة نظر تاريخ الامة والدولة الفرنسية .

الفائه ؛ هنا يستعلم لدى الزبائن المارين عن البلاد التي يأتون منها ؛ وهنا يتلاسن وهو يلعب طاولة الزهر ، بتعزيز كبير من شجارات وكلمات ضخمة ، مع صاحب الفندق والطحّان واللحام وعاملين في فرن الكلس .

ولكن مع هبوط الليل يتغير الديكور : ماكيافل ينسحب في غرفة عمله ، بين كتبه ، كنوز أعمال من العصر القديم .

> اضع على العتبة الالبسة الموحلة لكل الايام ، ارتدي ثوبي كما من أجل الظهور في البلاطات وأمام الملوك ... بهذا اللباس المناسب ادخل البلاطات القديمة لرجال الماضي، يستقبلونني بود ؛ الى جانبهم أتغذى بالطعام الوحيد الذي هو طعامي والذي من اجله وُلدت . اجرؤ بلا خجل كاذب على التحدث معهم وسؤالهم عن اسباب أفعالهم ؛ وكبيرة انسانيتهم بحيث هم يجيبونني ، ولاربع ساعات طويلة لا اعود أشعر بأي ضجر ، انسى كل التعاسات ، لا أخشى الفقر ، الموت لا يخيفني ، امضي بكليّتي فيهم .

و ، بما ان دانته قال انه لا يوجد علم اذا لم نحفظ ما سمعنا ، يسجل ماكيافل في هذه الكتب المقدسة ، المحادثات الخالدة للرجال العظام ، كل ما يظهر له ذا اهمية ما : «ألّفت منها كتيّبا ، **عن الامارات** ، حيث اغطس بقدر ما استطيع في اعماق موضوعي ، باحثا ما هو جوهر الامارات ، ما عدد انواعها في الوجود ، كيف يُحصل عليها ، كيف يحافَظ عليها ، ولماذا تُضيَّع» . هذا ، يفكر ماكيافل، نوع من حلم سيعجب فيتوري ، ولكنه «بشكل خاص لا بد ان يناسب اميرا **وبخاصة اميرا جديدا**» . لذا فهو يضع إهداءه الى سناء جوليان دو ميديشي Julien de Médicis ، شقيق البابا ليون العاشر . هذا الكتاب الصغير يظهر بوصفه الورقة الاخيرة للموظف السابق الذي يتمنى بشغف العودة الى الحظوة :

> انني اهتلك في هذه العزلة ، ولا استطيع ان ابقى هكذا طويلا دون ان أسقط في البؤس والاحتقار . أرغب اذاً ان يوافق الأشراف ميديشي على استخدامي ، ولو من اجل دحرجة صخرة ... . اذا ما قرأ المرء هذا الكتاب لرأى فيه كيف انني خلال الـ ١٥ سنة التي فيها أتيحت لي فرصة دراسة فن الحكم لم اقضِ وقتي في النوم او اللعب ، ولا بد أن يتمسك كل واحد بخدمة رجل استطاع ان يكتسب هكذا على حساب الغير كل هذه الخبرة .

كيف يمكن الشك في ولاء رجل هو ، في سن الثالثة والاربعين ، فقير ، بعد ان خدم الدولة مدة طويلة ، وهو ، وقد صان دوما الى هنا الامانة والوفاء ، لن

يمضي الان الى تعلم الخيانة ؟

دفاع ملحّ «عن قضيته» ، نداء ملح من رجل له حاجات ، وله في الوقت نفسه الشعور بقيمته ، ويخشى في آن معا البؤس والاحتقار . ليس أوضح (بتحدي كل تأويلات المستقبل الرومانطيقية) من الاسباب التي دعت ماكيافل ، وقد جمع في مجلد صغير الثمرة الجزئية لقراءاته المتأملة ، الى اهدائه لرجل من آل ميديشي — هو في ١٥١٣ جوليان ، ويصير في ١٥١٦ ، بعد وفاة جوليان ، لوران ، دوق أوربينو ، ابن شقيق البابا ليون العاشر . جوليان ولوران كان أمامهما ، بوصفهما ميديشي وقريبَين مباشرَين لرئيس الكنيسة ، مستقبل اقليمي رائع ، مستقبل أمراء جدد .

إهداء **الامير** ، وهو موجّه في الاخير الى لوران ، يتكمل على نحو ممتاز الرسالة الى فِتوري . ماكيافل ، بهذا المجلد الصغير ، بهذا «الكتيّب» ، يريد ان يضع تحت تصرف لوران «معرفة أفعال الرجال العظام ، المعرفة التي حصل عليها **إما بخبرة طويلة لشؤون الازمنة الحديثة واما بدراسة مجدّة لخبرة الازمنة القديمة.** وطوعِا ، كي «يستمد الكتاب كل رونقه من جوهره بالذات» ، من تنوع المادة وأهمية الموضوع ، فقد عرّاه الكاتب من «المحاكمات الكبيرة» و«الجمل المفرطة» والمطنبة ، من كل الزينات الغريبة عن المسألة . فليتفضل لوران من موقعه العالي ولينظر نحو «الاماكن الدنيا» التي فيها يتعذب المؤلف ، كي يرى كم هو ظلما يقاسي «من تعذيب القدر تعذيباً شديدا ودائما» ! دعوة واضحة الى الامير الجديد ، الحريص على صون ما سيكون حصل عليه بالحظ او القوة او المكر ، تناشده ان لا يحرم نفسه اكثر مما فعل من الخدمات الامينة التي يقدمها رجل بمثل هذا النفاذ السياسي وأن يعيد الى فلورانس السكرتير الفلورانسي .

تلك هي ولادة «الكتيب» الذي عنوانه الحقيقي ، كما رأينا ، هو : **في الامارات** De principatibus ، اي في الحكومات الاميرية او الامارات او الاميريات. والحال يعلم الجميع ان العنوان الذي ظفر بلا نقاش هو **الامير** ، Le Prince ، بالايطالية Il principe . هذه الملاحظة البسيطة جدا تقدم افضل خيط قائد لتحليل الكتاب — الذي هو مؤلّف سياسي عظيم اذا كان ثمة مؤلّف سياسي عظيم في التاريخ ، وان كان بعيدا جدا عن الكمال بتأليفه المهمل كما وعن العظمة بالمعنى المادي بفصوله القصيرة الستة والعشرين .

الامارات

ماكيافل ، كما قال لنا بنفسه في الرسالة الثمينة الى فِتوري ، اراد ان يبحث **«ما هو جوهر الامارات ، ما عدد انواعها في الوجود ، كيف يتحصل عليها ، كيف يحافَظ عليها ، ولماذا تضيَّع»** .

الامارات تعارض الجمهوريات ، التي هي موضوع الـ **خطب** عن تيت — ليف . من المناسب ان نميز بين هذه الامارات : بعضها وراثية ، الاخرى جديدة . **وراثية:** عندئذ تكون مهمة الامير سهلة بحيث ان ماكيافل ، اذ يتسلط عليه عدم استقرار

الانظمة السياسية لايطاليا زمنه ، لا يهتم او قليلاً ما يهتم بهذه الانظمة الوراثية ، البالغة الاستقرار ، البالغة السهولة ، حيث يكفي للامير «ان لا يتجاوز الحدود التي وضعها أسلافه وأن يستأني مع الحوادث» ؛ ان طاقة عادية ستسمح له بأن يبقى على العرش . الصعوبات الحقة ، سواء من اجل الحصول او من اجل المحافظة ، تصادَف في الامارات **الجديدة** . ولكن بين هذه الاخيرة يجب ان نميز : بعضهـــا جديدة تماما ؛ الاخرى مضافة الى الدولة الوراثية ، مثلما أضيفت مملكة نابولي الى مملكة اسبانيا ؛ عندئذ الامارة الجديدة والدولة الوراثية تشكلان معا جسماً يمكن ان يدعى **مختلطا** . هذه الحالة تطرح سلسلة مسائل معقدة يقترح لها ماكيافل حلوله ، شائدا مجموعة صغيرة كاملة من القواعد العملية للالحـــاق . الامارات **الكنسية** تشكل ايضا صنفا على حدة . يجب اخيرا في تقدير الصعوبات اقامـــة حساب أسلوب الحكم : إما استبدادي despotique ، واما ارستقراطي ، واما جمهوري ، وهو أسلوب حكم الامارات المشتهاة .

القارىء الذي قد يتوقع نقاشا أوليا عن مسألة الحـق ، مسألة شرعيـــة الحصول ، يجهل ماكيافل : ذلك ميدان غريب جذريا عن مؤلّف **الامير** . فهذا لا يتحرك الا في ميدان الواقع اي القوة . اذ ان ظفر الاقوى هو الواقع الجوهــري للتاريخ البشري . ماكيافل يعلم ذلك ، ويقوله بلا رحمة . ولنلاحظ من جهـــة اخرى ان لا ماكيافل في كتابته **الامير** ولا معاصروه في قراءتهم اياه كانوا يشعرون بهذا الانطباع من لا رحمة ؛ كان وكانوا هنا في محض معاينة واقع طبيعي وعادي تماما . الامارات التي يدرسها ماكيافل هي بوجه عام وفيما عدا بعض الاصنـــاف ـ التي تهم المؤلف اقل ـ «إبداعات من القوة» (رنوديه Renaudet) . بعد تعداده الاخطاء الستة التي ارتكبها لويس الثاني عشر (٦) ، الامير الوراثي ، في سياسته الايطالية ، في الفصل الثالث وعنوانه «في الامارات المختلطة» ، ماكيافل يصدر هذا الحكم البارد : «ان رغبة الحصول هي لا ريب شيء عادي وطبيعي ، ومن يسلّم لها حين تكون له وسائلها ينمدح اكثر مما يُدان ؛ ولكن من يصمم على ذلك دون قدرة على تنفيذه انما يعرّض نفسه للوم ويرتكب غلطة . اذا كانت فرنسا تملك قوى كافية من اجل مهاجمة مملكة نابولي كان عليها ان تقوم بذلك ، واذا لم تكن تملك هذه القوى كان عليها ان تمسك» . امتلاك قوى كافية ، المسألة كلها هنا ، من اجل الحصول كما من اجل المحافظة . العلة الاولى والاخيرة لسياسة الامير هي استخدام هذه القوى ، اذاً الحرب :

الحرب ، المؤسسات والقواعد التي تخصها ، هي الموضـوع الوحيد الذي يجب على الامير ان يعطيه أفكاره واجتهاده والـــذي يجدر به ان يجعله حرفته ؛ الحرب هي المهنة الحقيقية لكل من يحكم ؛ وبها ليس فقط الذين وُلدوا أمراء يستطيعون البقاء ، ولكن ايضا الذين ولدوا اشخاصا عاديين كثيرا ما يستطيعون ان يصيروا

امراء . لانهم اهملوا الاسلحة وفضلوا عليها عذوبات الرخاوة رأينا ملوكا يفقدون دولهم . احتقار فن الحرب اول خطوة نحو الهلاك ، امتلاكه تماما وسيلة الارتفاع الى السلطة .

بالنسبة لاية دولة ، قديمة او جديدة او مختلطة ، «القواعد الرئيسية هي قوانين جيدة واسلحة جيدة» ، ولكن لا يمكن ان توجد قوانين جيدة ، حيث لا توجد اسلحة جيدة ، والعكس بالعكس «توجد قوانين جيدة حيث توجد اسلحة جيدة» . ولكن ما الذي يسميه ماكيافل اسلحة جيدة ؟ ليس بالتأكيد المرتزقة ، وقد رآهم عن كثب قيد العمل في ايطاليا ، قوات «منقسمة ، طمّاعة ، بلا انضباط ، غير امينة ، جبانة ضد الاعداء» ؛ تعرّي الامير اثناء السلم ، تلوذ بالفرار اثناء الحرب . وحدها اسلحة جيدة ، وحدها قوات جيدة ، تلك التي هي خاصة بالامير ، المؤلفة من مواطنيه ، من رعاياه ، من صنائعه . وحدها قوات جيدة ، بكلمة ، القوات **القومية** . كذلك ، احد فصول ال **خطب** معنون : «كم يستحقون اللوم ، الامراء الذين ليس عندهم جيش قومي» .

ذلك واضح تماما : الحق ، صياغة مجردة ، مستبعَد بوصفه دخيلا ، غريبا تماما عن المعضلات المطروحة . عندئذ تحضر اربعة اساليب للحصول ، يمكن ان توافقها اساليب مختلفة للمحافظة ... او الاضاعة . يحصل المرء بما يملك من Virtu (أي من قدرة ، نابض ، تصميم ، مهارة ، قيمة عنيدة وعند اللزوم وحشية) ، اذن **باسلحته الخاصة** ؛ او هو يحصل **بالحظ واسلحة الغير** . فضلا عن ذلك ، لكي يكون تاما ، ماكيافل يحسب ايضا حساب حالات الحصول بال **«وغدنة»** ، وحتى حالات الحصول **بموافقة وإنعام مواطنيه** .

ماكيافل يعنى خاصة بالاسلوبين الاولين . تمييز الحظ وال Virtu عزيز عليه . يجب من جهة اخرى ان يعدّل هذا التمييز بواقع انه ما من شخص ، مهما ملك من ال Virtu ، معصوم تماما عن هذه القوة العمياء التي هي الحظ ، الـ fatum ، القدّر . التمييز يرتبط بتصور العالم الذي هو تصور المؤلف ، وهو تصور بدائي بما فيه الكفاية من وجهة النظر الفلسفية ، ولكن لا ينقصه بعض البروز الدراماتيكي . ان فصلا بالكامل (الخامس والعشرين) ، ال قبل ـ الاخير ، مكرّس لمناقشة العلاقات بين الحظ وال Virtu : ماذا يستطيع رجل في مواجهة النصيب ؟ أحقا من المفيد ان يبذل المرء شجاعة ، حمية ، مهارة ، اذا كان سير كل الاشياء مضبوطا خارجنا ؟

> اذ لا يسعني قبول تقليص تحكيمنا الحر ، تخييرنا ، الى لا شيء ، فانني اتصور انه قد يكون صحيحا ان الحظ يتصرف بنصف افعالنا ولكنه يترك تقريبا النصف الآخر في قدرتنا . أقارن الحظ بنهر طحوم حين يفيض يطغى على السهول ، يقلب الاشجار

والابنية ، يقتلع الاراضي من جهة وينقلها الى جهة اخرى : كل شيء يهرب امام فتكه ، كل شيء يسلّم لغضبه ، لا شيء يستطيع معارضته . مع ذلك ، ومهما بلغت قوته وخطورته ، فان البشر لا يفتؤون بعد انتهاء العاصفة يبحثون عن امكان التأمين ضدها بسدود وموانع وأعمال اخرى ؛ بحيث ، عند حدوث فيضانات جديدة ، تجد المياه نفسها محتواة في قناة ولا تستطيع الانتشار بهذا القدر من الحرية وإحداث هذا المقدار من الخراب . كذلك الحظ ، الذي يبدي بشكل خاص قدرته **حيث لم تهيا اية مقاومة** ، ويحمل غضباته حيث يعلم انه لا يوجد عائق مستعد لايقافه .

اذاً فبإمكان الانسان ومن واجبه ان يقاوم الحظ وأن يهيىء له بما يملك من Virtu حواجز قوية ؛ بل من الجيد ان يبدي أمامه طحمة . فالحظ «امرأة»، مستعدة للتسليم للذين «يستخدمون العنف» ويعاملونها بخشونة ، للشبان «الغاضبين» ، الجريئين ، المتسلطين ، اكثر منها للرجال الناضجين الرصينين الوقورين .

الذين يصيرون امراء بما يملكون من Virtu **ومن اسلحة خاصة بهم** يصادفون مصاعب كثيرة للاقامة في امارتهم والتجذر فيها ، ولكنهم من بعد يجدون سهولة كبيرة في المحافظة عليها . اكبر صعوبات البدء هذه هي في اقامة مؤسسات جديدة . .هذا مشروع اجباري لتأسيس الحكومة الجديدة وأمن الامير الجديد ، ولكنه مليء بالاخطار والتقلبات . «من يسلك هذا الدرب له كأعداء جميع الذين كانوا يستفيدون من المؤسسات القديمة ، ولا يجد سوى مدافعين فاترين في الذين تكون المؤسسات الجديدة نافعة لهم» . فاترون ، لانهم يخافون من السابقين ؛ فاترون لانهم ، مثل جميع الناس ، غير مصدّقين ، وما كان للتجربة ان تقنعهم بصلاح الاشياء الجديدة . لدرجة انه بمجرد ان يمضي السابقون ، الذين كانوا يستفيدون من المؤسسات القديمة ، الى الهجوم ، «فانهم يفعلون ذلك بكل حرارة الروح الحزبية» ، بينما الثانون يدافعون عن انفسهم بشكل رخو .

ان نجاح مشروع بهذه الوعورة يتطلب اذاً ان يكون للامير وسائل الاقناع ، أن يكون قادراً على القسر . ماكيافل ، متذكرا سافونارولا وفشله المأساوي ، يفصح عن هذه الحكمة التي كثيراً ما ردّدت : «كل الانبياء المسلحين انتصروا ، غير مسلحين أهلكوا أنفسهم» . على ذلك يجب ان يضاف «ان الشعوب بطبيعتها غير ثابتة ، ولئن كان من السهل اقناعها بشيء ما فمن الصعب تثبيتها في هذا الاقتناع: ينبغي بالتالي ان تكون الامور مرتبة بحيث انه حين تكفّ الشعوب عن الايمان يكون ممكنا جعلها **تؤمن بالقوة** Croire par force » . موسى ، كورش ، رومولوس

Romulus ، تيزيه Thésée (٧) ، الانبياء ، المؤسسون ، المشرّعون، الذين نجحوا في تأسيس مؤسسات ، لم يتمكنوا من ابقائها إلا لانهم كانوا مسلحين . لو كانوا منزوعي السلاح ، «لاصابهم ما أصاب في ايامنا الاخ جيرولامو سافونارولا الذي هلكت جميع مؤسساته ما ان بدأ العدد الكبير يفقد ايمانه به ، نظرا لانه لم يكن عنده وسيلة تعزيز ايمان الذين كانوا ما زالوا يؤمنون ، ولا إجبار الكفرة على الايمان» .

ولكن بعد نجاح المؤسسين ، اعتمادا على القوة مبقية العقائد ، في اجتياز هذه الحواجز والتغلب على هذه الصعوبات القصوى ، «وبعد بدء نيلهم الاحترام **وتخلصهم من اقرانهم الذين كانوا يحسدونهم** ، فانهم يظلون أقوياء ، هادئين ، محترمين ، وسعداء» .

بالنسبة **للامارات الجديدة ، المحصول عليها باسلحة الغير ، اذا بالحظ** ، القاعدة بالعكس : سهولة الحصول ، صعوبة المحافظة . ما من صعوبة توقف في دربهم الامراء الجدد ، انهم يطيرون فيه . الصعوبات تظهر حين يكونون قد وصلوا ؛ صعوبات بحيث ان هؤلاء الامراء سينتهون بشكل محتوم تقريبا الى فقدان دولتهم . فهم اكثر مما يجوز رهن ارادة وحظ الذين خلقوهم ـ وهما متغيران . كذلك ليس عندهم قوات مرتبطة بهم وامينة لهم ؛ ثم هل باستطاعتهم ان يأمروها ؟ «فيما عدا ان يكون الرجل ذا روح كبيرة وقيمة كبيرة ، فمن غير المرجح بتاتا ان يستطيع هذا الرجل ، وقد عاش دوما كفرد عادي ، ان يأمر» . فضلا عن ذلك ، فان دولا تشكلت فجاة انما تنقصها جذور عميقة ، وأول عاصفة لتهدد بالاطاحة بها .

فيما عدا ان . . . ، فيما عدا ان يكون الامير ، وقد خدمه الحظ ، متمتعا بهذه الروح الكبيرة وبهذه القيمة الكبيرة المطلوبتين المذكورتين آنفا ، وأن يعلم الاستعداد في الحال للمحافظة على ما الحظ وضع في يديه ! ثمة هنا فرضية استثنائية يمتنعُ ماكيافل عن استبعادها لانه يفكر بهذا الامير الاستثنائي ، قيصر بورجيا ، الذي ادهش خياله الامر الذي جعله يميل الى تحويل هيئته نورانيا . ولكن ، وكأنه

---

٧ ـ **كوروش** : كوروش الثاني او الكبير (ق ٦ ق‌م) ، ملك فارس ، واصبح سيدا على امبراطورية واسعة شملت آسيا الغربية .

رومولوس : حسب الاسطورة : مؤسس مدينة روما واول ملوكها (ق ٨ ق م) .

تيزيه Thésée بطل يوناني في جزيرة كريت : بفضل خيط موجِّه اعطته اياه آريان ، بنت مينوس ملك كريت ، سار في المتاهة ، وصل الى **المينوتور** ، وهو غول كان يتغذى باللحم البشري ، وقتله . ثم مات بعد حياة كلها خض وحركة . حكم عليه ملك الجحيم بأن يبقى جالسا الى الابد . ـ اسطورة تمثل الانتقال من كريت وحضارتها نصف ـ الشرقية الى اليونان واوروبا (الانسان ، الفهم ، الحرية ، المأساة ...) .

شرح بياني لفكرة ماكيافل ، تقريبا رغما عن ماكيافل ، هذا الامير الموهوب الى هذا الحد قد اضاغ مع ذلك دولته وانتهى نهاية كئيبة . هل نقول انه ارتكب اخطاء ، انه لم يستحق ؟ بتاتا . كل ما يمكن ويجب لامير كبير ، وصل الى السلطة السيدة بملاءمة الحظ وبأسلحة الغير ، ان يعمله لكي يبقى وسط صعوبات ملازمة لهـــذا الاصل ، عمله قيصر بورجيا . ماكيافل يأخذ على عاتقه ان يبرهن ذلك .

قيصر يصبح اميرا بحظ والده ، الذي هو بابا ويتدبر امره ، باستدعاء لويس الثاني عشر ضد دوق ميلانو ، ليقيم ابنه في الرومانيا Romagne (٨). قيصر يفهم بسرعة انه لا يستطيع ان يتثبت ما لم يجعل نفسه مستقلا عن مرتزقة جيشه الخاص ، ثم عن ملك فرنسا . يبدأ بذبح الكوندوتييري معا جميعا ، بجذبهم في فخ سينيغاليا ، الكوندوتييري ـ قادة العصابات ، شركائه السابقين ، الذين كان يعلم انهم فيسبيلهم الى خيانته . «ما ان اهلك هؤلاء القادة وكسب انصارهم» ، حتى اخذ يسعى الى ربط رعاياه في الرومانيا ، الذين كانوا الى ذلك الحين فريسة اعمال السطو واللصوصية والعنف من شتى الانواع ؛ يسيّر هذه العملية علـــى مرحلتين . المرحلة الاولى : يعيد النظام على يد رجل ظالم وسريع ، راميرو دوركو R. d'orco ، منحه قيصر اوسع السلطات . المرحلة الثانية : بعد ان أعيـــد النظام ، لم تعد سلطة بهذه القسوة ضرورية ، بل وكان من شأنها ان تجعل اسم قيصر كريها شنيعا ، فتدبر قيصر الامر بحيث ذات صباح رأى الناس في ساحة عامة راميرو دوركو «مقطوعا الى قطعتين والى جانبه ساطور دام» . لم يبق لقيصر الا ان يهز تبعيته ازاء ملك فرنسا : بالتالي يشرع في البحث عن صداقات جديدة، يتحايل على الفرنسيين ويتقرب من الاسبان ؛ بل كان عازما على وضع الفرنسيين «خارج امكان معاكسته» .

ولكن ها هنا يفسد كل شيء . البابا اسكندر السادس بورجيا يموت قبـــل الاوان ، قبل ان يتاح لابنه وقت ان يجعل ذاته سيدا على توسكانا Toscane ، الامر الذي كان سيجعله «قويا بحيث يستطيع الصمود بنفسه لصدمة اولى» . خطة حملة قيصر كانت جاهزة ، والتنفيذ كان مسألة شهور ؛ بالنسبة للباقي ، كان قيصر مستعدا للمستقبل ، لحال تغيُّر البابا . اسكندر السادس يموت قبل الاوان بثلاثة شهور : في آب ١٥٠٣ ، فجاة . قيصر ليس آنذاك متينا الا فـــي الرومانيا . يجد نفسه بين الجيش الاسباني والجيش الفرنسي ، وكل منهما عدو ممكن ، انه غير «قادر على الصمود بنفسه لصدمة أولى» . وطفحا لسوء الطالـــع يصاب بالمرض ؛ يفكر بأنه سيموت من الحمى الرومانية : «لذا كان يقول لي انه فكّر في كل ما يمكن ان يحدث اذا مات والده ووجد دواء لكل شيء ؛ سوى انه لم يتخيل ابدا انه في هذه اللحظة سيجد نفسه في خطر الموت» .

---

٨ ــ الرومانيا Romagne اقليم (قديم) في وسط ايطاليا على بحر الادرياتيك ، كان جزءا من دولة البابا .

قيصر ، وقد هزمته «معاكسة من الحظ غير عادية ولا حد لها» ، يخرج اذاً منتصراً من امتحان التقنية السياسية الصارم ، الذي يجريه له ماكيافل . قيصر لم يرتكب اي خطأ ؛ انه «لم يهمل اي شيء مما كان على رجل حذر وماهر» ، ذي شجاعة كبيرة وطموح كبير ، صاحب Virtu في اعلى مستوى ، «أن يعمله حتى يتجذر بعمق في الدول التي اعطته اياها اسلحة الغير والحظ» . مسلكه ، وماكيافل يقول انه «لا يجد فيه أي شيء للنقد» ، يمكن اقتراحه كنموذج ، رغم النتيجة ـ المصيبة الاخيرة ، لجميع الامراء الجدد الذين في نفس الحال ، بل ، كما يبدو ، وللآخرين .

غير ان المرء يمكن ان يصير اميرا ايضا **بوغدنات** . هذا الصنف الثالث ، ماكيافل يبخس قيمته نوعا ما بكونه لا يضع فيه قيصر بورجيا ، رغم كبائره الشهيرة . وكأن الوغدنات المدروسة تحت هذا العنوان ينقصها الجمال الاستيطيقي ، بخلاف وغدنات قيصر ! وكأنها لا يمكن أن تنعذر بهدف كبير ، ولا تتطلب لا كثيرا من الـ Virtu ، ولا تدخلات ساطعة من الحظ ! المؤلف يعطي مثلين : الصقلي اغاتوكل Agathocle ، في العصر القديم ، الذي كان ابن فواخرجي واستطاع ان يرتفع الى مرتبة ملك سيراقوزة Syracuse (٩) ؛ أوليفروتو Oliverotto ، في زمن البابا اسكندر السادس ، الذي اصبح سيد فرمو Fermo ، بذبحه خاله وابرز مواطني المدينة وقد دعاهم الى وليمة . هذان المثلان يتركاننا باردين بما فيه الكفاية ، و ، كما يظهر لنا ، يتركان ماكيافل باردا بما فيه الكفاية . الفائدة الجوهرية للفصل تقوم في الدرس (بالمغايرة) الذي يستخلصه ماكيافل عن **الاستخدام الجيد والسيء للاعمال الوحشية** من اجل المحافظة على دولة اغتصبت . ثمة اعمال وحشية جيدة التطبيق واعمال وحشية سيئة التطبيق . الاعمال الوحشية الجيدة ، «اذا كان ممكنا تطبيق كلمة جيد او خير bien على ما هو سيء وشر mal » ، يلاحظ ماكيافل محتشما ، هي التي ترتكب معا دفعة واحدة في بداية الملك بغية تأمين أمن الامير الجديد (هتلر ، بذبحه في آن على اليمين وعلى اليسار في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ ، سيبدو مطبقا هذا المبدأ) . يجب على الامير الجديد ان يعين برصانة كل الاعمال الوحشية التي من المفيد له ارتكابها وأن ينفذها كتلة واحدة حتى لا يكون عليه ان يعود اليها في كل الايام ؛ فالوحشيات والايذاءات التي لا تطول مدة الاحساس بها تظهر اقل مرارة وهي اقل اهانة . أما الاحسانات فبالعكس ، يجب ان تتعاقب ببطء ، ان

---

٩ ـ سيراقوزة : في جزيرة صقلية . اغاتوكل ملك سيراقوزة (ق ٤ ق م) . ان جنوبي ايطاليا (مع صقلية) كان يدعى «اليونان الكبرى» ، نظرا لكثرة المستعمرات اليونانية فيه . تاريخ صقلية الاول : فينيقية ، ثم قرطاجية ، ثم رومانية ... (ثم في العصر الوسيط : بيزنطية ، عربية ، نورماندية ، الخ) .

تتدرج زمنا حتى تستذاق بشكل افضل .

وبالعكس ، الاعمال الوحشية السيئة هي التي تتجرجر ، تتجدد ، و ، وهي قليلة في البداية ، «تتكاثر مع الزمن بدلا من ان تنتهي» . الرعايا يفقدون عندئذ كل شعور بالامن ، ينخرهم قلق مستمر يتصفع ويحفز على الدوام ؛ ليس فقط لا يستطيع الامير ان يعتمد عليهم ، بل هو مرغم دوما على «مسك السكين في يديه» ، الامر الذي ينتهي الى شر . لنلاحظ هذه الوجهة محض التقنية (التقنية ، فن النجاح السياسي) ، فيما وراء وما بعد الخير والشر ؛ خير وشر ليسا منفيين ، بل محصوران في ميدانهما الخاص ، ومطرودان من الميدان السياسي . ومن وجهة النظر هذه ذاتها ـ التي بموجبها **الخطأ** ، مقولة التقنية ، اخطر من **الجريمة** ، مقولة الاخلاق ـ كان ماكيافل ، في فصل سابق (الثالث) ، يدعو الى الرحمة او الى القسوة .

كان المقصود الاشخاص الذين يؤذيهم الامير الجديد في البلد الذي يستولي عليه . ليحترز من الاساءة الا لاشخاص عاجزين ، اذا أمكن . واذا كان مضطرا الى الاساءة لاسخاص أقوياء ، قادرين على الانتقام ، فلتكن الاساءة بالاقل ، جذرية . ما سيعبر عنه ماكيافل بمفردات شرسة في **تاريخ فلورنسا** («أما الرجال الاقوياء ، فإما يجب عدم مسهم ، او حين يمسون فيجب قتلهم») ، يغطيه اكثر في **الامير** ، ولكننا امام نفس الفكرة بالضبط ، وهي واضحة جدا : «على هذا تجدر ملاحظة ان البشر يجب أن يكونوا موضع «لحمسة» و«تغنيج» او ان يسحقوا ؛ فهم ينتقمون من الايذاءات الخفيفة ، ولا يستطيعون الانتقام حين تكون كبيرة جدا ؛ ينجم عن ذلك انه حين يجب الاساءة الى رجل يجب الاساءة اليه بأسلوب يستحيل معه الخوف من انتقامه» . هذا «الاسلوب» جزء مما دعاه المؤلف اتوه بتسمية لطيفة اخرى ، في الفصل نفسه : **علاجات بطولية** !

الحصول على امارة **بموافقة مواطنيه** (الفصل التاسع : «في الامارة المدنية») يتطلب لا ريب بعض الحظ وبعض الـ Virtu ، لكن ليس كل الحظ ، ليس كل الـ Virtu : بالاحرى «ذكاء محظوظ» ، مهارة سعيدة . انه ، من جهة اخرى ، تارة الشعب وتارة الكبار يصنعون هكذا ، امـيرا . في كل مدينة ، «الشعب لا يريد ان يؤمر ولا ان يضطهد من قبل الكبار ، الكبار يرغبون في ان يأمروا وأن يضطهدوا الشعب» . بحيث ان الشعب يصنع اميرا حين ، وهو غير قادر على مقاومة الكبار ، يضع كل أمله في طاقة شخص فرد سيدافع عنه . وكذلك الكبار ، الذين يشعرون انفسهم غير قادرين على مقاومة الشعب ، «يلجؤون الى حظوة ونفوذ واحد منهم ويجعلونه اميرا حتى يستطيعوا في ظل سلطته إشباع رغباتهم الطموحة» .

الامير الذي رفعه الكبار ـ الذين يعتقدون انفسهم أقرانه ، ولا يشبعون ، وليسوا في أيديه ـ يجد صعوبة في البقاء اكثر مما يجد الامير الذي رفعه الشعب . اذ ان هذا الامير الاخير هو وحده في مرتبته ، وكل واحد او تقريبا محمول الى إطاعته ؛ الشعب عدا ذلك سهل الاشباع ، لا يطلب ، كالكبار ، ان

يّضطهد ، بل فقط ان «لا يُضطهد» . لهذا السبب فان امير الصنف الاول ، الذي صنعه الكبار ضد ارادة الشعب ، سيكون عليه ان يبذل كل جهده للتصالح مع الشعب بأسرع ما يمكن ؛ لن يكون له عندئذ سند آمَن . في كل هذا الفصل يلوح بشكل واضح تفضيل ماكيافل ، برجوازي فلورنسا ، للشعب ، وعداؤه الواضح ازاء الكبار .

هذا النمط الاخير للحصول ، حيث استثنائيا لسنا أمام «إبداع من القوة» ، حيث حصل على السلطة من لم يكن عليه ان يستولي عليها ، لا يتطلب اذاً سوى فن عادي ، سوى تقنية عادية وسهلة . ولا يستطيع ان يحرّك في ماكيافل أي وتر عميق ؛ لذا فهو ببرود وبشكل مجرد تماما يفك نوابض هذه «الامارات المدنية» .

واقل من ذلك ايضا اهتمامه بالامارات **الكنسية** — وهي نموذج آخر للحكومة الشرعية . الكرسي — المقدس ، وأيضا الناخبون الكنسيون الثلاثة في ماينتس **Mayence** ، ترير **Trêves** كولن **Cologne** (١٠) ، وكذلك بض الاساقفة الالمان ، كانوا آنذاك يقدمون مساطر عن هذا الحكم ، غير مشرقة بوجـــه عام ، موديلات في أغلب الاحيان للشرشحة الادارية والمالية والسياسية .

هذه الامارات يُحصل عليها ايضا بالحظ او الـ **Virtu** ، ولكن الجديـر بالاعجاب هو انه ، من اجل المحافظة عليها ، ليس ثمة حاجة بعد ذلك لا للحظ ولا للـ **Virtu** . يكفي سلطان المؤسسات الدينية القديمة : انه ينوب عن كل الباقي ، الحكومة الجيدة ، تعلّق الرعايا ، المهارة ، القيمة الحربية : «اللـــه يشيدها ويبقيها» . لهجة ماكيافل تجمع هنا الاحترام المتظاهر والصغير المكتوم : انها لهجة رجل من عصر النهضة ، لا يحب الكهنة ، لا يحب الكاثوليكية الرومانية، ولا يحب اكثر روح المسيحية ، — التي لا يفهمها ، التي يعتبرها مُضعفة ، غريبة عـــن الـ **Virtu** .

مع ذلك فان تكريما للبابا ليون العاشر يختم الفصل الحادي عشر المكرس لهذه الامارات : «يجب ان نأمل انه ، لئن وسّع أسلافه (اسكندر السادس ، جـــول

---

١٠ — ماينس (ماينتس) و تريف (ترر) و كولونيا (كولن) ، في غربي المانيا ، ثلاثة مدن — دول كنسية آنذاك .

الكرسي المقدس ، الكرسي الرسولي ، اي البابا و دول — ولايات الكنيسة . هذه الدولـــة البابوية عاشت قرونا قبل وبعد ماكيافل (من القرن الثامن حتى القرن التاسع عشر وانتصار الوحدة الايطالية) . البابا والامبراطور زعيما العالم الكاثوليكي الرسميان في العصر الوسيط (بينهما صراع، وتوازن ، لم يأفلان ...) .

أشهر بابوات زمن النهضة : **اسكندر السادس بورجيا** (١٤٩٢ — ١٥٠٣) ؛ **جول الثانـــي** (١٥٠٣ — ١٥١٣) كان زعيم «العصبة المقدسة» ضد فرنسا ، رعى الفنانين وشرع في بناء كنيسة القديس بطرس ... ؛ **ليون العاشر ميديشي** (١٥١٣ — ١٥٢١) .

الثاني) البابوية بالاسلحة ، فلسوف يجعلها ايضا ، بطيبته وبكل فضائله الاخرى، اكبر بكثير واجدر بالاحترام» . هذا التكريم يفسّر ظاهرا : فليون العاشر من آل ميديشي ، وكتاب ماكيافل مهدى الى ميديشي آخر ، والمؤلف ليس بوسعه ان يعتمد الا على إنعام الميديشي كي يجد من جديد عملا يليق به . ولكن أليس هناك علة اخرى ايضا ، ستكشفها لنا نهاية **الامير** ؟

يبقى أن نقيم حسابا لتمييز بين الدول المطلوب الحصول عليها ، حسب نمط الحكم (امارة استبدادية ، امارة أرستقراطية ، جمهورية) الذي كان نمطها قبل الحصول عليها .

الامارة **الاستبدادية** Despotique ، المحكومة من قبل امير جميع الناس عبيده (تركيا) ، صعبة المنال ، لان كل الرعايا ملتفون مشدودون الى الامـــير ، وليس للغريب ان يأمل منهم شيئا . انها سهلة الابقاء : يكفي اطفاء عرق الامير حتى لا يبقى «أي شخص يحتفظ ببعض الهيبة على الشعب» ؛ هذا الشعب ، المعتاد بحكم التعريف على الطاعة ، غير قادر على ان يختار بنفسه اميرا جديدا وعلى ان يعود الى حمل السلاح . الإمارة **الارستقراطية** ، المحكومة من قبل امير يساعده كبار ، اشراف ـ أسياد من عرق قديم ، يمسكون سلطتهم لا من إنعام الامير بل من هذه العراقة نفسها (حالة فرنسا) ، سهلة المنال . يوجد دوما فيها كبار مستاؤون ، مستعدون لفتح الدروب للغريب وتسهيل انتصاره . انها صعبة الابقاء ، لانه من غير الوارد إسعاد كل الكبار ولا اطفاؤهم جميعا ؛ «يبقى ذووها العديد من الاشراف الذين سيضعون انفسهم على رأس حركات جديدة» . الامير الجديد سيفقد هذا الفتح الهش «ما ان تحضر فرصة ذلك» .

الجمهورية ، التي كانت تعيش حرة في ظل قوانينها الخاصة ، نموذج دولة من الصعب بشكل خارق ابقاؤه تحت نير امير جديد ، نموذج هو بالضبط على طرفي نقيض مع الامارة الاستبدادية حيث الرعايا مشكّلون على الطاعة . يوجد فيها «مبدأ حياة افعل وأنشط بكثير ، حقد أعمق بكثير ، رغبة في الانتقام أمرّ بكثير ، لا تترك ولا يمكن ان تترك لحظة في راحة ذكرى الحرية القديمة» . هذه الذكرى حية بحيث يترتب عليها في نهاية الحساب ان تجعل باطلتين الوسيلتين الأوليين اللتين يقترحهما ماكيافل لترويض الحرية الجمهورية التي لا تروّض ، وسيلتين هما ، الاولى ان يأتي الامير للاقامة شخصيا في البلد كي يقمع في الحال الاضطرابات التي قد تولد ، والاخرى ان يجعل البلد يتحكم حسب قوانينه الخاصة ، بمواطنيه، تحت تحفّظ دفع جزية . عندئذ ماكيافل ، هذا البلاطي Courtisan (١١) العجيب ، الذي ، اذ يكرس كتابه لاحد الـ ميديشي ، مدمّر جمهورية فلورنسا ، لا يستطيع مع ذلك اخفاء تفضيله وحبه واعجابه بالحكومات الحرة ، ماكيافل لا

---

١١ ـ البلاطي Courtisan (رجل البلاط) شخصية هامة ، نموذج انساني في عصر النهضة، ذو شروط ومواصفات وصفات .

يرى وسيلة امينة بشكل مطلق للامير الجديد سوى وسيلة ثالثة وجذرية : تدمير، ابادة الجمهورية القديمة غير القابلة للشفاء :

من استولى على دولة اعتادت على الحياة حرة ولا يدمرها ، عليه ان ينتظر دماره على يدها ... . مهما اتخذ من حيطة ، مهما فعل من أمور ، فاذا لم يحلّ الدولة ، اذا لم يشتت سكانها ، فانه سيراهم عند اول فرصة يسترجعون ، يستدعون حريتهم ومؤسساتهم المفقودة ، ويسعون الى القبض عليها من جديد .

الامير

عبر دراسة هذه المجردات ، **الامارات** ، يبحث القارىء غريزيا عن الشخص العياني الذي يعطي هذه الحكومات الشخصية قيمتها ولونها ، أعني **الامير** . سلفا ماكيافل قبض ، كما رأينا ، في الصفحات السابقة ، على فرصة اظهار بروفيل Profil . قيصر بورجيا ، نموذج الامير الجديد ، موديل المهارة الفنية في السياسة ، بالتعارض مع لويس الثاني عشر ، الامير الوراثي الذي يركم الاخطاء. الآن ، في خمسة فصول هي بين اشهر فصول الكتاب ، الفصول ١٥ الى ٢٠ ، وتؤلف حسب شارل بنواست **جوهر الماكيافيلية** ، سينشىء ماكيافل لوحة اميره الجديد كاملة ، وجاهية ، وفي ضوء تام (١) .

كيف يجب ان يتصرف هذا الامير ازاء رعاياه واصدقائه ؟ ما من مسألة مكرورة منذ العصور الوسطى (وستكرّر طويلا بعد ماكيافل) كمسألة واجبات الامير . المفهوم ، المضمور ، واجبات الامير المسيحي . إراسم Erasme (١٢) سينشر بعد قليل كتابه **تأسيس الامير المسيحي** ، وهو مختصر «سياسة انجيلية» ، طباق تام ودواء مضاد للسياسة الماكيافيلية . خيالات هذا كله ، في نظر صاحب **الامير** ، «تأملات عابثة» ، على حد قوله . يرفض القيام بها ، يريد التمسّك بما يدعوه واقع الاشياء . وهذا الواقع ، هو اولا ان الامير الجديد يعيش في قلب الخطر ، ان خوفين اثنين يسكنانه ويجب ان يسكناه : «داخل ولاياته وسلوك رعاياه هما موضوع احدهما ، الخارج ونوايا القوى المجاورة هما موضوع الآخر». وهذا الواقع ، هو بعد ذلك ان المسافة بعيدة الى ما لانهاية «من الطريقة التي

---

(١) مستلهما ، لا ريب ، بقدر يجب ان نحترس من تضخيمه ، «طاغية» tyran ارسطو .

١٢ – ايراسم Erasme (١٤٦٩ – ١٥٣٩) ، من كبار مفكري وإنسانويي عصر النهضة ، ذهن موسوعي ، اشتهر بكتابه «مدح الجنون» ، هولندي المولد ، لاتيني الكتابة ... فولتير زمنه .

نعيش بها الى الطريقة التي يجب ان نعيش بها» ، وإن العيش كما هو الواجب في العالم المصنوع كما هو مصنوع ، وسط هذه الكمية من الاشرار ، لا يكون سوى لعبة مخدوعين .

الامير الذي يريد البقاء يجب عليه اذاً أن يتعلم ان لا يكون طيبا دوما ، أن يكونه او أن لا يكونه «حسب الضرورة» . اجل ، ماذا يمكن ان نرغبه اكثر من امير يجمع كل الصفات الحسنة ، يكون كريما ، محسنا ، رؤوفا ، امينا لكلامه ، حازما وشجاعا ، طيبا ، عفيفا ، صريحا ، رصينا ودّيّنا ؟ ولكن هذا غير ممكن او نادرا ما هو ممكن ، **«والحال البشري لا يشتمل عليه»** . كاف وكثير أن يعرف الامير الهرب من الرذائل المخجلة التي من شأنها ان تجعله يضيع الدولة ؛ أما الرذائل الاخرى ، فليقاومها ، واذا لم يستطع ، فليكن ! اكثر وأفضل ، بعض العيوب او الرذائل ربما ضرورية للمحافظة على الدولة ، التي بالمقابل تضيعها بعض الصفات ؛ اذ ، عند فحص الاشياء فحصا جيدا ، نجد انه كما هناك بعض الصفات التي تبدو فضائل والتي تصنع هلاك الامير ، كذلك ثمة صفات اخرى تبدو رذائل ويمكن ان ينتج عنها رغم ذلك بقاء الامير ورفاهه» .

لقد لخصنا لتوّنا الفصل الخامس عشر ، القصير بقدر ما هو ماهوي ومغذ ، حيث يكشف المؤلف فكره بصراحة ليس فيها تزويق . انه فكر رجل بما انه عاشر البشر الآخرين فهو بلا أوهام ، وهو عدا ذلك يعلم تماما تمييز الخير والشر ، بل ويفضل الخير ، لكنه يرفض اغلاق عينيه امام ما يعتقد انه الضرورة الدولتيّة ، امام ما يعتقد انه عبوديات الحال البشري .

من هذه الفصول التالية تستخلص النتائج . من الجيد بالنسبة لامير ان يُعرف بالكرم والسخاء ؛ مع ذلك فأن يكون المرء بخيلا احدى هذه الرذائل التي تجعله يحكم . العطاءات من شأنها ان تكسب للامير أفرادا جد قلائل وأن تنصب ضده عددا كبيرا جدا ، أن تجعله كريها شنيعا لرعاياه : وأخيرا ، مفقرا ، يفقد اعتبارهم . كذلك «كل امير يجب ان يرغب في ان يُشهَر بالرحمة لا بالقسوة» ؛ ولكن لنحترس من استخدام الرحمة في غير موضعها ؛ لنتذكر قيصر بورجيا ، فقد كان «يُعتبر قاسيا» (يقول ماكيافل بدون ان يتحرك حاجباه) ، «ولكن قسوته اعادت النظام والوحدة في الرومانيا» . قسوة مباركة ، اذا كانت تقتل في البيضة القلاقل ، الحبلى بأعمال القتل والسلب ، التي من شأن الرحمة ان تدعها ترتفع ! «هذه القلاقل تجرح المجتمع بأسره ، في حين ان الاجراءات الصارمة التي يأمر بها الامير لا تقع إلا على أفراد خاصين» : حماية المجتمع اولا ، هنا تكمن رحمة الدولة الحقة (كذلك سيفكر ريشوليو Richelieu (١٣) وسيكتبه في **وصيته**).

---

١٣ ـ **الكاردينال ريشوليو** : وزير الملك لويس الثالث عشر من ١٦٢٤ الى ١٦٤٢ ، حاكم فرنسا وقائد سياستها على ثلاثة خطوط : ١ ـ تخفيض الكبار (اي الامراء الاقطاعيين) لصالح المونارشية المطلقة ، ٢ ـ تخفيض البروتستانت وضرب امتيازاتهم ، ٣ ـ تخفيض بيت النمسا (اي «الامبراطور»).

(من هنا يولد هذا السؤال الكلاسيكي : **ما اذا كان الافضل للمرء أن يكون موضع حب منه موضع خشية ام العكس ؟**

الافضل ان يكون الاثنين ، ولكن هذا صعب . عندئذ الآمَن ان يتخشى . لماذا؟ ثمة اسباب عديدة لذلك . اولا ، البشر عموما «ناكرو الجميل ، غير ثابتين ، متخفثون ، مرتجفون امام الاخطار ، وجشعون ؛ طالما تصنع لهم خيرا ، هم معك ؛ يقدمون لك دمهم ، اموالهم ، حياتهم ، اولادهم ، طالما لا يظهر الخطر الا بعيدا ، ولكن حين يقترب يتحولون بسرعة كبيرة» . الويل للامير الذي يكون قد ارتكز فقط على كل هذه الصداقات التي دفع ثمنها عطاءات ، «سرعان ما هو ضائع» ! ثم ان البشر يخافون أقل بكثير ان يهينوا من يجعل نفسه موضع حب مما يخافون ان يهينوا من يجعل نفسه موضع خشية ؛ رابطة المحبة ، يقطعونها حسب مصلحتهم ، في حين أن خشيتهم تبقى معززة بخوف من العقاب لا يتركهم ابدا . اخيرا ليس متوقفا على الامير ان يُحَب ، فالبشر «يحبون حسب مشيئتهم» ، ولكن يتوقف عليه ان يُخشى ، فالبشر «يخشون حسب مشيئة الامير» . والحال ، الامير الحكيم يجب ان يرتكز لا على ما يتوقف على الغير ، بل على ما يتوقف عليه نفسه .

ان يُخشى ، عدا ذلك ، لا يعني بتاتا ان يُبغض ؛ بغض الرعايا ــ وكذلك احتقارهم ــ شيء خطير ؛ ينبغي ان لا يقع فيه . اذ ان كل القلاع التي يمكن ان تكون للامير المبغوض ضد رعاياه لن تنقذه من مؤامراتهم (كلل فلورانسي ، ماكيافل تحت تسلط المؤامرات) . ثمة وصفة بسيطة ، لتلافي هذا البغض ، وهي «الامتناع عن الاعتداء على أموال رعاياه او على شرف زوجاتهم» .

ثم ، اخيرا ، هل من شيء اكثر استحقاقا للمدح بالنسبة لامير من أن يكون امينا لكلامه وأن يعمل دوما بصدق ! ولكن في الواقع ، ماذا نرى ؟ أمراء صنعوا اشياء كبيرة وهم يخرقون كلامهم ويرغمون البشر بالمكر ، وانتهوا الى السيطرة على الذين كانوا يرتكزون على الولاء . على هذه الملاحظة غير المخدوعة يبني ماكيافل هذا الفصل الثامن عشر (**كيف يجب على الامراء أن يتمسكوا بكلامهم**) ، الـذي سيؤخذ عليه بشكل خاص ، الذي سيظهر كأنه اكثر من جوهر الماكيافيلية ، كأنه زبدتها او «خلاصتها» ، والذي سيقرؤه بانتباه أشد من كل الفصول الاخرى السياسيون المتعطشون الى نجاحات دبلوماسية .

ماكيافل شعر هنا بالحاجة ، النادرة عنده ، الى إلباس فكرته العارية ، الى إلباسها ثوبا على الطريقة القديمة ، في أسطورة فاتنة للخيال ، لقد اختار أسطورة أخيلس Achille والسنتور Centaure شيرون Chiron . حسب الرواية ، كان أخيلس له كمعلم شيرون ، السنتور ، الذي نصفه حصان ونصفه انسان . كان الاقدمون يعنون بذلك انه من الضروري بالنسبة لامير أن يعمل كحيوان وكإنسان بقدر واحد . خاصة الانسان ان يكافح بالقوانين ، نظاميا ، بولاء وامانة . خاصة الحيوان أن يكافح بالقوة والمكر . الطريقة الانسانية المحض لا تكفي ؛ الانسان كثيرا ما يضطر الى استخدام طريقة الحيوان . الامير المحقق ،

المسلّم للصراع ، واخيلس نموذجه ، يجب ان يحوز نوعا ما هاتين الطبيعتين ، الانسان والحيوان ، اللتين تساند كل منهما الاخرى . وبين الحيوانات ، يجب ان يختار الامير اثنين كموديل ، الثعلب والاسد . يجب «أن يسعى الى ان يكون بآن معا ثعلبا واسدا ، فاذا لم يكن سوى اسد فانه لن يشاهد الأفخاخ ، واذا لم يكن سوى ثعلب فانه لن يدافع عن نفسه ضد الذئاب ؛ بيد انه بحاجة متساوية لان يكون ثعلبا حتى يعرف الافخاخ وأسدا حتى يفزع الذئاب» .

هكذا ففي مضمار الوعود والالتزامات ، يجب على الامير ان يكون ثعلبا ، أي ان لا يحافظ على العهد حين تكون المحافظة ضده وحين تكون اختفت الاسباب التي جعلته يعد . «لو كان البشر جيدين جميعا ، لما كان هذا المبدأ جيدا ، ولكن بما انهم سيئون ، وبما انهم لن يحافظوا على كلامهم نحوك ، فانت ايضا ليس عليك ان تحافظ على كلامك نحوهم» . هل يمكن عدا ذلك ، حين يكون المرء إميرا ، «ان تنقصه علل مشروعة لتلوين عدم تنفيذ» ما وعد به ؟ لا عدّ هنا لعدد الامثلة الحديثة التي يمكن أن تذكر ، لعدد معاهدات السلام والاتفاقات من كل نوع ، «التي صارت باطلة وغير مفيدة بعدم امانة الامراء الذين كانوا قد عقدوها» . الامراء الذين استطاعوا على النحو الافضل ان يعملوا كثعالب هم الذين ازدهروا بالقدر الاكبر . مع شرط ، وهو أن يكونوا قد قنّعوا جيدا هذه الطبيعة الثعلبية ، قد امتلكوا بشكل تام فن التظاهر والتخفي .

إخفاء ، ازدهار ... ماكيافل ، بالفرح المزدوج ، فرح الكلبي في تعرية الطبيعة البشرية ، وفرح الفنان في الشعور بالسيطرة المطلقة على مادته ، يضع عندئذ اعلى اللمسات واذكاها على لوحته للامير . يرسم فضيلة الظهور ، «جعلهم يعتقدون» ، الرياء ، سلطان النتيجة الكامل . فكرته الحميمة ، التي كان بدأ يكشفها لنا في الفصل الخامس عشر ، تسلمنا الان ، في النصف الثاني من الفصل الثامن عشر ، أسرارها القاسية . ينبغي ان ننقل هنا النص بالكامل ، كل تعليق لمن شأنه ان يبهت طعمه .

فضيلة الـ يظهر ، يجعلهم يعتقدون ، الرياء :

> رجوعا الى الصفات الجيدة المذكورة آنفا ، ليس من الضروري تماما أن يمتلكها الامير كافة ، ولكن من الضروري أن يظهر انه يمتلكها . بل اتجرأ واقول انه اذا كان يمتلكها فعليا واذا كان يبديها دوما في سلوكه فمن الممكن ان تسيء اليه ، في حين من المفيد دوما أن يكون عنده ظاهرها . من الجيد دوما بالنسبة له ، مثلا ، ان يظهر رحيما ، امينا ، انسانيا ، ديّنا ، صادقا ... . يجب ان نفهم فعلا انه لا يمكن لامير وخصوصا لامير جديد ان يحافظ في سلوكه على كل الذي يجعل الناس مشهورين بانهم رجال خير ، وانه كثيرا ما يضطر ، من اجل صون الدولة ، الى العمل ضد الانسانية ، ضد المحبة ، بل وضد الدين . يجب اذاً أن يكون ذهنه

مرنا قابلا للالتواء حتى ينداز الى كل الاشياء ، حسبما تأمر بــه الريح وصدف الحظ ؛ يجب ، كما قلت ، أن لا ينحرف عن جادة الخير طالما يستطيع ذلك ، ولكن عند الحاجة أن يعرف ويستطيع الدخول في طريق الشر . يجب عليه كذلك ان يعنى عناية فائقة بأن لا يدع يفلت منه قول واحدلا تشتم منه الصفات الخمس التي عددتها قبل قليل ؛ بحيث ، حين يراه الناس او يسمعونه ، يعتقدونه مفعما بالعذوبة والصدق والانسانية والشرف ، وخصوصا الدين ، فما زال الامر الاهم الذي يجب ان يكون للامير ظاهره ؛ اذ ان البشر عموما يحكمون بعيونهم اكثر مما يحكمون بأيديهم ، فكلهم في مدى الرؤية لا اللمس . **كل الناس يرون ما انت تبدو ، قليلون يعرفون بعمق ما انت ، وهذا العدد القليل لن يجرؤ على الوقوف ضد رأي الغالبية ، التي يساندها ايضا جلال السلطة السيدة .**

سلطان النتيجة الكلي :

فضلا عن ذلك ، في أفعال الرجال ولاسيما الامراء ، التي لا يمكن ان تدقق امام محكمة ، ما يعتبر ، هو النتيجة . فليفكــر الامير اذاً فقط بالمحافظة على حياته ودولته ؛ اذا نجح في ذلك ، فان كل الوسائل التي سيكون قد اتخذها سيحكم عليها بأنها جديــرة بالاحترام وسيمتدحها جميع الناس ؛ الرجل العادي يفتنه دومـا الظاهر والحادث : وأوليس العادي هو الناس ، «العالم» ؟

لا يبقى بعد ذلك للامير الجديد سوى أن يراعي بعض القواعد في السياســة الخارجية كما وفي اختيار مستشاريه او وزرائه . عليه أن لا يجعل ابدا اميرا آخر قويا ، فهو بذلك يعمل «على هلاكه» . عليه ان يبين نفسه بصراحة صديقــا او عدوا ، اي عليه أن يعلن نفسه بشكل مكشوف مع او ضد هذه الدولة او تلك : «حزب الحياد الذي يعانقه في أغلب الاحيان الامراء المترددون ، الذين يخافــون الاخطار الحاضرة ، في اغلب الاحيان ايضا يقودهم الى هلاكهم» . أما المستشارون والوزراء ، «فانها قاعدة عامة ولا تخدع مرة» أن وخده اميرا حكيما بذاته اصلا ، يمكن ان ينصح بشكل جيد ، وان قابلياته تقدّر اولا باعتبار الاشخاص الذيــن يحيطون به . عليه دوما ان يأخذ مشورة ، ولكن «حين هو يريد ، لا حين يريد الآخرون» ، وبدون ان يدع يوما يرتبج عليه الذين ينصحونه . ان الوزير الجيد هو الذي لا يفكر ابدا بنفسه بل دوما بالامير ، والذي لا يحادثه الا في ما يخص مصلحة الدولة . «ولكن يجب ايضا ان يفكر الامير من جهته بوزيره» ، أن يغدق عليه الثراء والاعتبار والتكريم والالقاب ، حتى يخاف اي تغيير كما يخاف النار ،

وحتى يعلم جيدا انه كل شيء بدعم الامير ولا شيء بدونه .

الامير الجديد الذي سيوفق سلوكه مع كل ما سبق يستطيع ان يكون واثقا من مستقبله ، اكثر مما يستطيع امير قديم . لا يلبث ان يكون أمتن وارسخ مما لو ان الزمن كرس سلطته : فأفعال امير جديد تدقق وتفسر اكثر بكثير من افعال امير قديم ، و ، «حين يتحكم عليها بأنها Virtuose (قوية وشجاعة) «(١٤) ، فهي تكسب له وتربط به القلوب اكثر مما يستطيع ذلك قدم العرق او عراقة الاصل ، اذ ان البشر يؤثر فيهم الحاضر اكثر بكثير مما يؤثر الماضي» . مجد مزدوج له عندئذ، مجد كونه أسس دولة جديدة ، ومجد كونه وطّدها ب «قوانين جيدة ، اسلحة جيدة ، حلفاء جيدين ، وأمثلة جيدة» . عار مزدوج ، بالمقابل ، للذي ، وقد وُلد على العرش ، «يكون تركه يضيع بقلّة حكمته» .

هكذا ماكيافل يبدو قدّم ل جوليان ، ثم ل لوران ميديشي ، الاميرين الجديدين ، كل وصفات السلطة (فتح ، إبقاء ، توطيد) ، الوصفات التي اغترفها في خبرته الطويلة بالشؤون الحديثة وفي دراسته الطويلة والمستمرة للشؤون القديمة . كما ورد في إهداء الامير ، لقد تجنب المؤلف المحاكمات الكبيرة ، الجمل المفخمة المطنبة ، كل «الزينات الغريبة» عن صلب الموضوع . لم يلضح ابدا للتعبير، للأثر . لا غموض ، لا تكلف ؛ فكر مطابق دوما لموضوعه ؛ اسلوب لاصق دوما بدقة على الفكر . أسلوب «مضيء ، رجولي ، وجلي» ، سيقول ماكولي Macaulay «(١٥) ؛ أسلوب صريح ، غاطس ، باحث نابش ، مُعَرٍ ، سيقول شارل بنواست . اللسان التوسكاني الاقوى والاكثف والاكثر مباشرية . «هواء فلورنسا الناعم الجاف» ، يجعلنا صاحب الامير نستنشقه ؛ الظروف الاشد خطورة ، ليس بوسعه الامتناع عن تقديمها لنا «بحركة قوة وفرح غير منضبطة ، لا بدون لذة فنان خبيثة» ، سيقول نيتشه Nietzsche . فنان ، نعم ، على نقيض السكولاستيكيين المدّعين الثقلاء ؛ فنان عفيف ، سيد بالتمام على أسلوبه ، الاداة القاطعة ؛ كما السياسي عنده سيد بالتمام على فكره القاطع والكلبي .

شكلا ومضمونا ، بالتالي ، كان مَراد ماكيافل يبدو مؤدى على النحو المطلوب، كل وعوده منفّذة ، كل أسراره القاسية مسلّمة .

سر ماكيافل

بيد ان سره الاعلى ، سر قلبه بقدر ما هو سر عقله واكثر ، ماكيافل ما زال

---

١٤ ـ و Virtuose هي ايضا (بالايطالية والفرنسية) صفة المهارة الفنية القصوى لعازف الكمان مثلا .

١٥ ـ ماكولي Macaulay (١٨٠٠ ـ ١٨٥٩) مؤرخ وسياسي انكليزي ، صاحب «تاريخ انكلترة» .

يحتفظ به . لا شيء لاح منه في إهداء الامير ولا شيء تقريبا في الفصول الثلاثة والعشرين الاولى . فقط عند نهاية الكتيّب ، في الفصول الثلاثة الباقية ، وخصوصا في الفصل السادس والعشرين والاخير ، وعنوانه «نداء لتخليص ايطاليا من البرابرة» ، يكشف لنا المؤلف ، بصيحة ، بثورة ، تهز أسلوبه وتحوله فجأة . هذا السر ، سر الحب والحنين ، هذا السر الكبير ، هو ايطاليا . حب عنيف للوطن الممزق ، المستعبَد والمخرَّب ، يلتهب في قلب هذا الموظف ذي العقل الوضعي الايجابي بلا عاطفة ، ذي العينين الباردتين ، المفتوحتين تماما على قسوة بل وحشية الواقع . ان حلم محرِّر ، مخلّص فادٍ لايطاليا ، يسكن ماكيافل ، كما سكن من قبله كل الايطاليين العظام ، دانته Dante ، بترارك Pétrarque . جمهوريا بفؤاده ، كان ماكيافل قد تصور تحقيق جمهورية ايطالية ، وريثة الجمهوريــة الرومانية حسب تيت ــ ليف tite live ، بالحرية المدنية على النمط القديم ، تحرّك جيشا وطنيا . يبدو ان السكرتير الفلورانسي ، قبل رجوع آل ميديشي الى فلورنسا بكثير ، قبل الافلاس المحزن للميليشيا التي نظمها بكثير، يبدو انه ، وقد اختبر مثالب الحرية البلدية بشكل قاس ، قد يئس من تحرير ايطاليا تحت الشكل الجمهوري . يبدو انه ، اذا كان قد أعجب الى هذا الحد بقيصر بورجيا ، اذا كان قد بالغ بشكل واضح في تقدير امكاناته ومداه ، فلأنه قد اعتقد، لفترة من الزمن ، انه يرى فيه الامير المخلّص ، الذي سيحقق بالدكتاتورية ، بالطغيان ، الحلم الايطالي الذي اخطأته الحرية . فرضية يائسة ، الامير الجديد ، الامير الغاصب ، حسب صيغة أوغستين رنوديه Aug. Renaudet ، المحلّل النافذ لماكيافل .

كاتباً ــ على سبيل تمرين تقني محض ، من شأنه ان يبين قدرته وصفة الخدمات التي يستطيع ان يؤديها ــ مؤلّفه الصغير عن الامارات ، ماكيافل لا يتخلى مع ذلك عن الحلم الايطالي . بالعكس ، انه يستخدم العمل الذي تفرضه عليه حالته الشخصية وحاجاته ، كي يعبر عن الشكل الجديد الذي يتخذه فيه هذا الحلم . حيث فشل قيصر بورجيا ، يسانده بابا اسكندر ٦ بورجيا ، الا يمكن ان ينجح ميديشي يسانده البابا ليون العاشر ميديشي ؟ اذا كان ماكيافل ، وهو يتحدث بسخرية عن الامارات الكنسية ، يكرم مع ذلك ليون العاشر ، أفليس ذلك ــ مضافا الى الاسباب المذكورة آنفا ــ لان ليون العاشر ، باعطائه دعمه للقضية الايطالية ، يُصلح على الفور كل الاذى الذي اصاب ايطاليا على يد السياسة الزمنية للبابوات السابقين ؟

اي ازدراء لا يفصح عنه ماكيافل ، في الفصل الرابع والعشرين ، تجاه هؤلاء الامراء الطليان ، أمثال ملك نابولي ودوق ميلانو ، الذين ، «بعد حيازة طويلة» ، اضاعوا دولهم : «فليمتنعوا عن اتهام الحظ وليتهموا جبنهم» ! أي حب خفي بالمقابل في الفصل التالي ، حيث يحلل سلطان الحظ ، النهر الجارف ، الذي يحمل غضباته خصوصا حيث يعلم انه لا توجد حواجز مستعدة لايقافه ــ اي حب

خفي تجاه ايطاليا هذه ، الشبيهة بريف واسع لا يؤمّنه اي نوع من الدفاع ضد الفيضان : «لو كانت قد زوّدت مثل المانيا واسبانيا وفرنسا ضد السيل ، لما اغرقها او بالاقل لما اثر عليها بهذا المقدار» .

وها ان المؤلف ، في الفصل السادس والعشرين ، الاخير ، يوضح : ما من مرة في ايطاليا كانت الظروف اكثر ملاءمة لامير جديد يريد «ان يجعل نفسه شهيرا» مما هي اليوم ؛ الخلاص يمكن ان يقاد الى نهاية جيدة على يد اسرة ميديشي التي تؤهلها على نحو متميز «فضائلها الوراثية ، ثروتها ، نعمة الله ونعمة الكنيسة التي هي تحتل اليوم عرشها» . ذلك سيكون عمل عدالة عظيما ، فالقوة عادلة «حين تكون ضرورية والاسلحة تصير ادوات الرحمة ، حين لا يمكن الرجاء الا فيها» . اكثر من ذلك ، الله يجلي ارادته بعجائب ، بإشارات ساطعة : «البحر قد انشق ، سحابة بينت الدرب ، نبع ماء حي اندفق من الصخر ، المنّ سقط في الصحراء : كل شيء يسهل هكذا عظمتكم» (هذه لغة تبدو ناشزة عند هذا الماكيافل ، الذي نتصور بطيب خاطر انه لا يؤمن الا بما يرى ؛ ماذا ! هذا الكلبي الان يتعاطى الكهانة !) .

والدعوة الاخيرة الرائعة تبسط فقراتها الحارّة : «مارسييز القرن السادس عشر» ، سيقول ادغار كينه Quinet ، «الصرخة التي تبعث شعبا» ، سيقول شارل بنواست ، الصرخة التي سيتلقفها ، بعد ثلاثة قرون ونصف ، كافور Cavour ، غاريبالدي Garibaldi (١٦) .

يجب اذاً ان لا ندع هذه الفرصة تضيع ، ينبغي ان ترى ايطاليا ، بعد انتظار طويل ، ظهور مخلصها اخيرا . ولا يسعني ان اقول بأي حب سيستقبل في كل المقاطعات التي عانت من الاجتياحات الاجنبية ، بأي عطش الى الثأر ، بأي ايمان عنيد ، بأي تقوى ، بأية دموع . اي باب سيجده مغلقا ؟ اي شعب سيرفض له الطاعة ؟ اية خصومة سيصادف ؟ اي ايطالي سيرفض له الاحترام ؟ هذه السيطرة البربرية موضع قرف لدى كل انسان .

فليقبل اذاً بيت ميديشي الرفيع مهمة جميلة كهذه «مع الشجاعة والرجاء اللذين يناسبان المشروعات العظيمة» ؛ وليتحقق تحت رايته ما بشّر به بترارك : «العبقرية ضد القوة البربرية ستحمل السلاح والقتال سيكون قصيرا — اذ ان القيمة القديمة — في القلوب الايطالية لم تمت بعد» .

على هذه الابيات للشاعر السلف الكبير ينتهي الامير .

---

١٦ — ادغار كينه Quinet (١٨٠٣ — ١٨٧٥) ، اديب ومؤرخ فرنسي ، انساني مثالي . كافور و غاريبالدي هما بطلا وحدة ايطاليا في اواسط القرن التاسع عشر .

مصير مدهش لرجل ولمؤلَّف ! كان بوسع ماكيافل ان يشتبه بخيبات بقية حياته ؛ لم يكن بمقدوره ان يتخيل لحظة واحدة الضجة التي سيثيرها عبر القرون مجلده الصغير ، الذي كان أثره المباشر عدما .

لوران دو ميديشي ، دوق أوربينو ، تلقى **الامير** مخطوطا ؛ لم يعره اي انتباه (هل قراه فقط ؟) وبطبيعة الحال لم يفكر في مكافاة المؤلف . مات في عام ١٥١٩ ، في سن السابعة والعشرين ، بمرض نابولي ، تاركا ابنة مولــــودة بعد وفاته ، وستكون كاتريـــن دو ميديشي Catherine de médicis (١٧) ، وجاهــــلا ان استحقاقه الرئيسي لذاكرة البشر سيأتيه من كونه الامير ... الذي أهدِيَ اليه **الامير** . يجب القول عدا ذلك انه حتى بين المعاصرين العديدين الذين تداولـــوا المؤلّف المخطوط كان الاهتمام تافها : مجموعة حِكَم عادية ؛ فان اي انسان متآلف بعض الشيء مع مشهد السياسة اليومية ما كان له ان يتعلم جديـــدا في هذا الكتيّب .

لئن يعود ماكيافل ، ابتداء من ١٥١٩ ، في نصف ـ نعمة لدى الميديشي ، فبسبب سمعته كموظف نبيه ، كسياسي فطن مرهف ، لا بسبب **الامير** ؛ ينـــال اجرا ليكتب مؤلّفه **تاريخ فلورنسا** ، يكلّف بمهام تافهة . فقط بعد ١٥٢٥ ، بنتيجة التغيرات في السياسة العامة ، يسلمه آل ميديشي مهاما تليق به اكثر ؛ ولكنه بذلك عينه يسيء الى نفسه نهائيا معهم . وحين يُطرد آل ميديشي من جديد مـــن فلورنسا فيَ ايار ١٥٢٧ ، وتعاد الجمهورية ، لا يستطيع صاحب **الامير** ، المهدى لاحد الطغاة ، المؤرخ الذي يتقاضى أجره منهم ، ان يعوّل على إنعام النظام المعاد. ها ان منصبه القديم ، منصب سكرتير **عشرة الحرية والسلام** ، يعود . ولكـــن ليُسنَد الى شخص يدعى تاروجي Tarugi ! الحزن ينضم الى آلام امعـــاء خطيرة ، ليحمل ، في ٢٢ حزيران ١٥٢٧ ، عن عمر ٥٨ سنة ، نقولا ماكيافل ، مزوّدا بغذاء الكنيسة .

بعد مضي اربع سنوات على وفاته ، يُطبع اخيرا **الامير** ، مع إذن بالطباعة من البابا كليمان Clément السابع (١٥٣١) . الطبعة مهداة الى كاردينال . لا هياج، لا احساس ؛ يبدو ان الكتاب يظهر عديم الاذى . ولكن الطبعات ستتكاثر ؛ سيقرأ

---

١٧ ـ **كاترين دو ميديسي Catherine de médicis** : ابنة لوران (لورنزو) الثانـــي آل ميديشي ، زوجة هنري الثاني ملك فرنسا ، وام لثلاثة ملوك توالوا على عرش فرنسا (فرانسوا ٢ ، شارل ٩ ، هنري ٣) ، وصية على العرش في زمن طفولة ابنها الثاني . سياسية ماهرة ، حاولت سياسة التوازن بين الكاثوليك والبروتستانت في زمن حروب الدين ، ... لم كان لها دور كبير في مجزرة سان بارتيلمي ضد البروتستانت عام ١٥٧٢ .

الامير **كثيرا** ، وربما كثيرا جدا . اعتبارا من سنة ١٥٥٠ ترتفع الضجة التي ستملأ اواخر القرن السادس عشر . النهضة الوثنية أعقبها الاصلاح البروتستانتي ، الذي ارغم الكنيسة على اصلاح نفسها من الداخل . ان تجدد الايمان المسيحي سيجتمع الان مع عنف الجماهير المتعصب ، مع صراع المصالح القوية ، لينتج الخليط الوحشي الكبير لحروب الدين . ماكيافل وكتابه يؤخذان في اندفاعات هذا الشجار الواسع الذي يتخطاهما.

الكاردينال أسقف كانتربري ، رجينالد بول Réginalde Pole ، الكاثوليكي يحكم على **الامير** بأنه مكتوب «بيد الشيطان» . اذا كان الشيطان يدعى بود" في انكلترة old nik («شيخ نقولا») أفليس تلميحا الى اسم ماكيافل ؟ زعم البعض ذلك . الكاتب «الدنس والوغد» يُفضح في ١٥٥٧ من قبل البابا بولس الرابع ؛ يدينه مؤتمر ترانت Concile de Trente «١٨» ويوضع في قائمة التحريم. في فرنسا يلعن بشكل خاص كمستشار بعد وفاته لـ كاترين دو ميديسي، كملهم لبلاطها الذي يسكنه ايطاليون ماكيافيليون . مصطلحا « ماكيافيلي » و«الماكيافيلية» يعودان الى تلك الحقبة ؛ نصادف ايضا الفعل «مكيَفَل» Machiavéliser . مذبحة يوم القديس برتيلمي (١٥٧٢) تظهر لبروتستانت كثيرين «لعبة فلورانسية» ، «حيلة فلورانسية» «١٩» ، عُرفت في **الامير** ، والبروتستانت يشنعون على ماكيافل كجزويت Jesuite . ولكن الجزويت اليسوعيين ، يفضحونه بقوة ليست أقل ويسلمونه للاستنكار الكاثوليكي . كتاب القاضي الفقيه البروتستانتي إينوسان جنتيي Innocent Gentillet ، الصادر في ١٥٧٦ ، **خطب عن وسائل الحكم الجيد ، ضد نقولا ماكيافل الفلورانسي** [بالفرنسية] ، سيكون له كموازٍ في ١٥٩٢ ، كتاب **محاكمة نقولا ماكيافل** ، بقلم

---

١٨ ــ **مؤتمر ترانت** الكنسي ، من ١٥٤٥ الى ١٥٦٣ ، يمثل «**الاصلاح ــ المضاد**» الكاثوليكي (اصلاح الكنيسة واعادة تنظيمها) . قبل قليل ، تأسست رهبنة الجيزويت (اليسوعيين) التي لها «تاريخ» طويل ومهم ، في طليعة العالم الكاثوليكي المتحول بجهد في الاتجاه البرجوازي .

لوثر شق عصا الطاعة في ١٥١٧ ــ ١٥٢٠ ، هنري الثامن اعلن نفسه رئيسا لكنيسة انكلترة في ١٥٣٤ ، كالفن اصدر كتابه «تأسيس الدين المسيحي» (المهدى للملك فرنسا فرانسوا الاول) في ١٥٣٦ وبدأ حكمه في جنيف عام ١٥٤١ .

١٩ ــ في يوم ٢٤ آب ١٥٧٢ ، المصادف عيد القديس بارتيلمي ، نفذ غلاة الكاثوليك بتحريض من كاترين ميديسي وآل غيز مجزرة كبيرة ضد البروتستانت وزعمائهم ، مما بعث الحرب الاهلية الدينية من جديد . ــ ثم تشكلت «**العصبة مقدسة**» (١٥٧٦) برئاسة هنري دو غيز ، تآمرت سرا ضد الملك وسلطته ، وحين آلت خلافة التاج (بموت شقيق الملك) الى نسيبه هنري دو نافار زعيم البروتستانت ، اصابت توسعا كبيرا في شعب باريس والمدن ... ثم « هنري دو نافار صار ملكا ــ هنري الرابع ــ ، اعتنق الكاثوليكية ، دخل باريس ، انهى الحرب الدينية ، ثبت المونارشية القومية .

الاب اليسوعي انطوان بوسفين Antoine Possevin الذي لم يكن عدا ذلك قرأ ماكيافل الا عبر جنتيي Gentillet . يسوعيو إنغولشتادت ؛ في بافاريا ، يطلبون ان يحرقوه في شكل صورة او تمثال . هكذا فقد حل محل الشخص الحقيقي للسكرتير الفلورانسي ، حين ينفتح القرن السابع عشر ، حل محله غول اسطوري . النديم المرح ، اللاذع والسفيه ، الموظف الجيد ، الاب الطيب والزوج الطيب (رغم خلعات كثيرة) ، اخلى المكان لوجه مظلم وشيطاني ، تحيط به هالة من هيبات جهنمية .

ولكن ، بينما تتضخم ، بحكم قانون المحاكاة ، موجة اللعنات والشتائم ، يجعل الملوك والوزراء والرؤساء من **الامير** ، موجز نظام الحكم المطلق ، كتابهم المستشار. في ١٦٤١ ، ريشوليو Richelieu يطلب من الكاهن القانوني ماشون Machon كتابة **دفاع من اجل ماكيافل** . امين مكتبة مازارن Mazarin ، غابرييل نوده Gabriel Naudé ، ينشر **نظرات سياسية على الانقلابات** ، كتابا يفصح عن ماكيافيلية عملية وطيبة . كراس ما ، تنفخ فيه روح حركة المقلاع العصيانية la Fronde ، يتهم مازارن بانه ربّى الذي سيكون لويس الرابع العاشر في «دين الإلهي ماكيافل» (٢٠) . هذا يبقى صحيحا : ان اكثر من امير غذّي سطحيا بكتب «تنشئة الامير المسيحي» التي لا تعدّ ، يغفر كثيرا ، في عمق فؤاده ، لهذا الـ ماكيافل الكافر ، لكونه بشّر كثيرا بحجة الدولة raisond'Etat ، لكونه لم ير في الانسان سوى المادة الاولية للسلطة .

في القرنين السادس عشر (ابتداء من الاصلاح) والسابع عشر ، الدين ــ حقيقة او مظهرا كاذبا ــ كان كل شيء . في القرن الثامن عشر ، تنفتح المساجلة الكبيرة بين الروح النقدي والحكم المطلق ، الذي بدات محاكمته على يد لوك Locke منذ ١٦٨٨ . فريدريك ، امير بروسيا الملكي ، يؤلف حوالي سنة ١٧٣٨ **ضد ــ ماكيافل** un Antimachiavel ، كتاب تكريم او تشريف من «فيلسوف» ، من «عاهل مستبد مستنير» مقبل ، للمثالية السياسية ، لتفاؤل القرن ؛ هذا تمهيد ممتاز ، فوق ذلك ، ومن النوع الذي كان ماكيافل نفسه ليوصي به ، للحياة الماكيافيلية تماما لهذا الذي ، وقد اصبح فريدريك الثاني ، سيقتسم بولونيا مع شريكيه المتوجين الكبيرين . **تلك العاب امراء !**

بيد ان اعداء الاستبداد ما كانوا ليسلموا بارتياح وليتركوا في معسكر المستبدّين هذا الـ ماكيافل المفهوم ربما بشكل سيء ، الذي كانت خطبه عن

---

٢٠ ــ الكاردينال مازارين Mazarin ، حكم فرنسا في عهد طفولة لويس الرابع عشر ووصاية الملكة ــ الام ، من ١٦٤٣ الى ١٦٦٠ ، فتابع عمل ريشوليو ، انتصر على عصيانات «البرلمان» والامراء المعروفة بحركة المقلاع او المقاليع Fronde (١٦٤٨ ــ ١٦٥٢) . بعده ، قام عهد لويس الرابع عشر الشخصي (١٦٦١ ــ ١٧١٥) اوج المونارشية المطلقة في فرنسا .

تيت ــ ليف ، بل ، كما رأينا ، وبعض مقاطع من **الامير** ، تنفح بحب الحريـــة الجمهورية . روسو Rousseau ، فـي **عقده الاجتماعي** ، يقترح تفسيرا لامعا بقدر ما هو خاطىء . يكون ماكيافل قد كتب **الامير** بتظاهر وخدعة ، كي يُعلِّم الشعوب ويضعها في احتراس بكشفه لها الاسرار المخيفة لسلوك الطغاة ؛ ولا شيء يظهر هذا «القصد الخفي» على نحو افضل مما يظهره اختياره لـ «بطله الشنيع»، قيصر بورجيا . هكذا فماكيافل ، «بتظاهره اعطاء دروس للملوك انما اعطى دروسا كبيرة للشعوب» ، وكتابه «هو كتاب الجمهوريين» . يرى القارىء كيف كان يتهيأ، للسكرتير الفلورانسي ، تغير للمنحدر : «من الشناعة الى المجد» . في ١٧٨٧ ، غراندوق توسكانا ، ليوبولد ، يشيد في سانتا ـ كروتشه ، كنيسة الصليب المقدس بفلورنسا ، بانثيون الايطاليين العظام ، تمثالا يتجاور اليوم «مع تماثيل دانته ، غاليله ، ميكل انجلو ، الفييري ، روسيني» . على هذا التمثال ، سطر واحـد محفور : Tanto nomini nullum par elogium (لا مديح في سمو اسم كهذا) !

نابوليون ، الذي يهيمن على القرن التاسع عشر ، يظهر لاعدائه ، ومنهـم شاتوبريـان Chateaubriand (وربما ايضا لاصدقائه) ، كالتحقيق الاكمل للامير حسب ماكيافل ؛ غول من Virtu حقيقي ، وقادر ــ انظروا الرجوع مـن جزيرة إلبا ــ على تعنيف الحظ الذي «هو امرأة» . كاهن يدعى الاب غيـشـون Guillon ينشر فـي ١٨١٦ كتابا غريبا من عنده عنوانه **ماكيافل معلقا عليه من قبل نابوليون بونابارت** : مقاطع من ماكيافل ، بينها ترجمة مخطوطـة **الامير** ، معمولة لمنفعة الغاصب الشخصية ، تكون قد عثر عليها في عربته في ميدان معركة واترلو ؛ ويكون بونابارت قد نوّط في الهامش هذه المقاطع وتلك ! حين يتصـل الامر بابن الاخ ، بهذا الـ نابوليون الثالث الذي يسميه «الصغير» ، فيكتور هوغو Victor Hugo يزعـم ، في **قصة جريمة** ، انه حين كان في السجن في بلدة هام Ham ، يهيىء نفسه للاغتصاب ، «لم يكن يقرأ سوى كتاب واحد : **الامير**» . فالمثالية السياسية للقرن التاسع عشر تبغض مؤلف هذا الموجز الكلبي . ولكن هذه المثالية نفسها تسجد امام يقظة القوميات . بحيث ان ماكيافل ، عدو السلطـة الزمنية للبابوات ، المبشر في الفصل السادس والعشرين الرنّـان ، «مارسييز القرن السادس عشر» ، بالدولة القومية الايطالية ، ماكيافل يستحق احـر العرفان بالجميل من ايطاليا الموحدة في سنوات ١٨٧٠ ومـن ديمقراطيي العالم بأسره .

حين مع القرن العشرين ، زمن الحروب العملاقة ، يرى العالم الليبرالي نفسه من جميع الجهات مهاجَما من قِبل المد التسلطي autoritaire ، الـذي لا يلبث ان يصير مدّا توتاليتاريا totalitaire ، تفقد المثالية السياسية ارضا امـام «الواقعيات» التي تنتسب بدرجة متفاوتة العلنية لماكيافل **والامير** . بنيتـو موسوليني ، في **تمهيد لماكيافل** ، كتبه في ١٩٢٤ لمدح الفلورانسي مع مدحـه نفسه ، يربط الفاشستية بالماكيافيلية («اني أؤكد ان مذهب ماكيافل حي اليوم اكثر مما كان قبل اربعة قرون ...») .

الحرب العملاقة الثانية في هذا القرن انتهت بالانهيار الدامي للفاشية الايطالية وللمشروع الهتلري في استعباد العالم معا على حد سواء . في هذا المشروع ، امكن التعرف على وجه جديد ، الوجه الاكثر بشاعة ، للماكيافيلية ، ماكيافيلية خارجة عن القاعدة ، وكأنها اصبحت «مجنونة» . هزيمة هتلر ، هزيمة ماكيافل ، في اعتقاد الناس ، أمل في «ان يكون ممكنا ذات يوم ان يسيطر ، على الاقل بقدر ما ، على ماكيافل» (فرانسوا مورياك) . ولكن ، هزيمة هتلر هي ، في قسط مرموق ، انتصار ستالين . فهل ينبغي ان نصدق ما يقوله آرثر كستلر Arthur Kœstler ، في **الصفر واللانهاية** ، علـــى لسان بطله روباشوف ، البولشفي الذي سقط من الحظوة : «يقال ان الرقم واحد (ستالين) يحتفـــظ على الدوام بالقرب من وسادته بـ **أمير** ماكيافل» ؟ لنلاحظ ان روباشوف يضيف لحسابه : «انه على حق : منذ ذلك الحين لم ينقل اي شيء مهم حقا عن قواعد الإثيقـــا السياسية» . . .

ان القارىء سيعذرنا ، عن كتاب مقتضب كهذا ، على بسطات طويلة كهذه . كان واجبا أن نحلل ببعض التفصيل عملا يُذكر اكثر مما يقرأ ؛ ان نفهم لماذا ترك في الفكر الغربي خطا طويلا كهذا ، وبدون ان يكون مؤلفه قد اراد ذلك بتاتا ، فقد كان هدفه محدودا بشكل ضيق . ولكن قوة فكر واسلوب ماكيافل القارضة قد تخطت الى ما لانهاية موضوع اللحظة . لانه ابرز بهذا الشكل الفج معضلة علاقات السياسة والاخلاق ؛ لانه خلص الى «انقسام عميق ، انفصال لا علاج له» (جاك ماريتـــان J. Maritain بينهما ، **الامير** لوّع البشريـــة مدة قرون اربعـــة . وسيستمر في تلويعها ان لم يكن ، كما قيل ، «ابديا» ــ فعلى الاقل طالما هـــذه البشرية لم تتجرد تماما من ثقافة اخلاقية ما ، موروثة ، فيما يخص الغرب ، من بعض الاقدمين الكبار ، وخصوصا من المسيحية .

الفصل الثاني

« كتب الجمهورية الستة »
لمؤلفه جهان بودان (١٥٧٦)

«تمثيل ملك فرنسا بوصفه راس التنظيم
السياسي باسره ، ذلك كان الغرض الاولي
للـ جمهورية . »
سابين G.H. Sabine

ما من مؤلف يختلف عن **الامير** اكثر مما يختلف **الكتب الستة للجمهورية** (واختصارا : **الجمهورية**) . قليل من الرجال يختلفون فيما بينهم كما يختلف ابن فلورانس نقولا ماكيافل وابن منطقة انجو Anjou جهان بودان Jehan Bodin . الى جانب **الجمهورية** ، وهو بناء كتلي من العلم السياسي والحقوق العامة ، عبوس وبلا نوافذ ، مثقل بالعلم الواسع وعار عن كل ظرافة ، **الامير** يمثل لهواً بغير مدى من هاو طليق . الى جانب بودان ، القانوني الصارم الطافح بالمحاكمات ، الاخلاقي الصلب ذي القسوات التوراتية ، الوجدان العالي المنشغل بالمعضلة الدينية وبخير

الدولة السيد كما وبخير الفرد (على غرار افلاطون وارسطو) ، يظهر ماكيافل عابدا ضيقا وكلبيا للسلطة الملموسة .

ان السلطة المشخّصة قد فتنت دائما البشر اكثر مما فتنتهم المجرّدات حول السلطة ، وان كتيّبا خفيفا مكتوبا بمهارة تامة سيقرأ دوما اكثر مما يقرأ كتاب عالِم ثقيل عارٍ عن الاسلوب . مع ذلك ، ان كتاب **الجمهورية** ، الذي يبدو لنا اليوم غير قابل للقراءة بتاتا ، كان محطة ونال شهرة ـ وان على نحو يختلف تماما عـن **الامير** . وسم تأريخا في هذا القرن السادس عشر الآخذ في الغروب ، الذي كان ، عبر الابّهات القاسية لعصر النهضة ، والشجارات اللاهوتية للاصلاح ، التي تلتها حروب الدين الدامية ، قد احتفظ دوما بحبه للاطلاع الواسع وبنهمه الفكـــري الذي لا يهدأ .

★★★

١٥٧٦ . مذبحة يوم القديس بارتيلمي حدثت قبل اربع سنوات . فظاعـــة الوسيلة ـ الفظاعة الماكيافيلية ـ لم تتمكن من تحقيق تصفيـــة البروتستانت ، المنشقين عن الايمان الحق . على كل حال ، البروتستانت ، الذين لا يوجد فـي نظرهم ايمان حق سوى الايمان المصلَح ، لا يقبلون اكثر من مضطهديهم الكاثوليك ثنائية اديان في مملكة فرنسا . وكل من الحزبين ينتظر من الملك ان يعتنق قضيته، قضية حقيقة . فليحترس الملك ، خائن الايمـان الحق ، الطاغيـــة : مشروع ضده الـ Régicide ، جرم قتل الملك ، الموصوف بانه tyrannicide ، جـرم قتل الطاغية !

غداة مذبحة السان بارتيلمي ، في ١٥٧٣ ، فرانســـوا هوتمان François Hotman ، وهو حقوقي شهير ، نصف ـ الماني ، يلقي من جنيف ، مدينة كالفن Calvin ، على فرنسا كراسا يذيع صيتـــه بسرعة : الـ **فرانكو ـ غاليـــا** Franco-Gallia . الكراس يمثـــل بوصفه دراسة من عالِم مطلع غير متحيز ، من «مؤرخ انتيكات» عن أصول الملكية الفرنسية . حسب المؤلف ، ملوك فرنســا القديمون كانوا مدينين بتاجهم للانتخاب ، «كانوا منتخَبين ليكونوا ملوكـــا تحت بعض القوانين والشروط التي كانت تحدّهم ، وليس كطغاة ذوي سلطة مطلقة ، مبالَغة وبغير نهاية» . الشعب يمكنه اذاً ان يرفع التاج عن الذي لا يحترم الشروط الموضوعة . ان ملكية قابلة للصرف ليست ملكية مطلقة ، بل حكومة مختلطة ، افضل نموذج حكم حسب هوتمان ، «الحكم الذي يجمع ويعدّل العنصر الثلاثي ، الملكي والارستقراطي والشعبي» ، والذي فيه الارستقراطية تخدم **كوسيـــط** ـ بالولادة بين السلطة الملكية والسلطة الشعبية ، «المتعاديتين بالطبيمة» . كانت ،

هذه الـ **فرانكو – غاليا** (التي اعطت اللهجة لكتابات بروتستانتية اخرى عديدة ، وايضا ، فيما بعد ، لكتابات كاثوليكية) ، كانت هجوما مباشرا على هيمنة السلطة الملكية . كانت تحديا للعمل العنيد الذي قام به المشرّعون البرجوازيون الذين ، منذ عهد الملك فيليب الجميل ، كانوا يعملون على بعث **سلطان** **imperium** الحقوق الرومانية الامبريالية – سلطة الآمرية المطلقة ، التي ليس لها ان تقدم حسابا لاحد – لصالح ملك فرنسا (١) .

من يرفع هذا الهجوم ، هذا التحدي ؟

حزب ، اسمه حزب **السياسيين** Politiques ، تهيمن عليه شخصية المستشار ميشيل دو لوبيتال Michel de l'Hôpital العالية ، كان منفصلا بآن عن الحزب الكاثوليكي وعن الحزب البروتستانتي . كان يقبل هذا الواقع المحقق الذي كان انقطاع الوحدة المسيحية ، كان يقر بـ «الواقع البروتستانتي» ؛ كان يدعو الى التسامح ، البذرة الخجلة لحرية الوجدان . من جهة اخرى ، كان يضع الملك فوق المساجلة كاثوليك – بروتستانت ، كان يرفض ان يجعله رئيس حزب ، لا يريد ان يرى فيه سوى الحكَم والحامي الاعلى لجميع العبادات . الملك القوي ، الماسك بحزم بين يديه ، ضد أنواء وامواج التعصبات المتجابهة ، السلطة السيدة : ذلك ، في أعين السياسيين ، ذلك وحده مرساة النجاة . هكذا ، وهكذا فقط ، يمكن تأمين وإبقاء وحدة الامة رغم ثنائية الدين ، ويمكن اجتناب ، مع التعصب ، الفوضى .

جهان بودن Bodin ، استاذ حقوق ، ثم قاض ، داخل بنشاط في الشؤون العامة وفي دبلوماسية زمنه ، مؤمن حاد بـ «إله طبيعة عظيم» غير معرَّف جيدا ، كان يرتبط بالسياسيين . كان سيظهر الان ، في هذه السنة ١٥٧٦ التي هي سنته الكبيرة ، معا في وقت واحد ، بوصفه رجل عمل الحزب وفيلسوفه السياسي المتين ، مذهبيّه المصفَّح الجليدي والمزبّر بالحجج . رجل العمل : بصفته نائبا عن الطبقة الثالثة بمنطقة فرماندوا في مجلس الطبقات العامة بمدينة بلوا Blois ، حيث يؤيد بشجاعة السلام الديني . الفيلسوف السياسي ، رجل المذهب : بكتابه الضخم ، **الجمهورية** ، حيث يرفع هجوم ، تحدي رجل

---

١ – **فيليب الجميل** ملك فرنسا من ١٢٨٥ الى ١٣١٤ . اول الملوك الحديثين . ناهض الاقطاعية والكنيسة ، وسّع مملكة الملك ، اعتمد على المشرّعين **légistes** (واشهرهم نوغاره **Nogaret**) الذين بعثوا الحقوق الرومانية اداة حرب مونارشية مطلقة وبرجوازية ضد الكنيسة والاقطاع ، وانموا المؤسسات الادارية والقضائية . – دعا الى انعقاد اول مجلس – طبقات عامة **états généraux** في ١٣٠٢ ونال تأييده ضد البابا .

ك هوتمان ، ال «مونارخوماك» (محارب المونارشية) البروتستانتي ، مع رفعه في الوقت نفسه عدا ذلك تحدي «الماكيافيليين» من جميع الشيع الاخلاق الإلهية (٢) .

***

اسم بودن يتمتع بشهرة اوروبية في أوساط العالمين المطلعين ومحبي المعرفة حين ينشر **الجمهورية** ، مؤلّف حياته (عمره آنذاك ٤٦ سنة) ، تتويج فكره .

في سنة ١٥٦٦ ، قبل عشر سنوات ، كان بودن قد فتح سبلا جديـــدة ب **طريقته من اجل تسهيل معرفة التاريخ** ، المكتوبة باللاتينية . «كيفية جمع أزهار التاريخ وفرز ثماره الاكثر عذوبة» ، هذه الجملة من رسالته الاهدائية تترجم بشكل سيء عن اتساع وعبوس حديث مفكرنا القوي والصعب ، سلف مونتسكيـو Montesquieu . بالحقيقة ، كما هو يوضح في مكان لاحق في الرسالـة نفسها ، انه يبحث في التاريخ عن **روح الشرائع** : «التاريخ هو الذي يسمح لنا بأن نجمع قوانين القدامى المبعثرة هنا وهناك ، للقيام هنا بتركيبها ؛ بالواقع افضل الحقوق الكونية يختبىء جيدا في التاريخ» ، لاننا نجد فيه عادات الشعوب ، بدون حساب أصل ونمو وعمل وتحولات وغاية كل الشؤون العامة» . من الإن نجد ، في هذه الجملة الاخيرة ، بداية مخطط **الجمهورية** . وفي جسد **الطريقة** ذاته ، كانت توجد بداية نظرية المناخات التي سيستأنفها كتاب ١٥٧٦ الكبير ؛ بانتظار ان يعطيها مونتسكيو مصيرا ساطعا ، كما سوف نرى . وكان فصل ضخم ، السادس ، عن «دستور الجمهوريات» ، يكشف، غير ناصعة بعد ، الشواغل والتفضيلات الرئيسية التي ستبرز نهائيا في **الجمهورية** .

في ١٥٦٨ ، فيلسوف الحقوق وفيلسوف التاريخ ، المتزوجـان بالفيلسوف السياسي ، الذين كانوا قد عبروا عن ذاتهم في **الطريقة** ، يخلون المكان موقتـا للاقتصادي ، المنشغل بمعضلة «غلاء كل الاشياء» . **الرد على السيد دو ماليسترووا**

---

٢ ـ **بلوا** Blois : مدينة على نهر اللوار ، في وسط فرنسا . اشتهـرت بانعقاد مجلس الطبقات العامة فيها عام ١٥٧٦ ، وعام ١٥٨٨ ، حيث اغتيل هنري دوغيز على يد رجال الملـك هنري الثالث .

فرماندوا : اقليم في شمالي فرنسا .

انجو Anjou : اقليم في غربي فرنسا ، منطقة أنهار وسواقي ووديان وتلال ، زراعة ورعي.

«الطبقات العامة» états generaux : مجلس ممثلي الصفوف الثلاثة او الحالات الثلاث (الاكليروس ، والنبالة ، **والطبقة الثالثة**) ، «برلمان» استشاري ساند السلطة الملكية التي الغته عمليا في اوائل القرن السابع عشر ، ولكن انعقاده في ١٧٨٩ كان فاتحة الثورة العظمى. ـ **الطبقة الثالثة**: الشعب ، العامة ، اي **البرجوازية** . ـ «الطبقات العامة» كانت تنعقد في نطاق المملكة . ولكـن ظلت هناك مجالس ـ طبقات ـ عامة اقليمية خاصة ببعض المقاطعات حصرا وكامتياز باق .

يقيم الدليل على ان بودان كان يسبق في هذا الميدان معظم معاصريه ، لانه كان يدرك الثورة الاقتصادية للقرن السادس عشر ، ويفهم خطورتها ، ويقدم عنهـــا «بصرامة منطقية مرموقة ، تفسيرا» (هنري هوزر Henri Hauser) (٣) .

الجمهورية ، ــ التي يكتبها بودان بلغة «شعبية» ، أي بالفرنسية (٤) ، «كي يسمَع على نحو افضل» من قبل جميع الفرنسيين الجيدين ، ــ يسترجع ويتوج العديد من البحوث الواسعة الدقيقة ، العديد من القراءات المتنوعـــة تنوعا لا يتخيَّل ، العديد من التأملات الاصيلة والذكية ، تختلط بها رؤيات تنجيميـــة وفيثاغورية غريبة . الكتاب هو الجامع الحقوقي ــ السياسي للقرن (و«الاقتصادي» آنذاك جزء من «السياسي») . فهرس مواد هذه الكتب الستة ، التي تجمع ٤٢ فصلا ضخما ، مثبطا للعزيمة ، لاسيما بالنسبة لمن يخرج من فصول **الامير** القاطعة، هذا الفهرس فيه ما يذهل القارىء الاكثر جسارة . العائلة ، سلطة الزوج ، سلطة الاب ، العبودية ، المواطن ، الرعايا ، الغريب ، المحمي ، المعاهدات والاحلاف ، الامير الدافع جزية ، ذو الاقطاع ، الامير السيد ؛ السيـــــادة Souveraineté وعلائمها الحقة ؛ انواع الجمهوريات المختلفة : مونارخية طاغية ، مونارخيـــة اشراف ، مونارخية ملك (٥) ، الدولة الارستقراطية ، الدولة الشعبية ؛ مجلس الشيوخ ، الضباط ، المفوضون ، القضاة ، الهيئات ــ الاجسام Corps ، المجامع Collèges ، الطبقـــات ــ الهيئات états والطوائـف ــ الجماعـــات Communautés ؛ المالية والعملة ؛ العقوبات ، العدالة التوزيعية ، التبادلية ، والتناسقية ؛ ولادة ونمو وازدهار وانحطاط وهلاك الجمهوريات ؛ تغيرات وثورات الجمهوريات ووسائل تداركها او علاجها ؛ طريقة تكييف شكل الجمهورية مع تنوع البشر ، ووسيلة معرفة طبيعي الشعوب ــ كل شيء موجود هنا ... وأكثر من كل

---

٣ ــ ظهور الراسمالية يعود الى القرن ١٦ . ومعه ، فـــي المعرفة الاقتصاديـــة ، مذهب المركانتيليين ، الذين كانوا يضعون انتباههم لا على الانتاج ، بل على التجارة والتداول النقدي ، حركة الذهب والفضة .

٤ ــ القرن ١٦ كان بمثابة تقدم كبير للفرنسية («كلغة ولغة قومية ، كلغة ادب ولغة حكومـــة» ولغيرها من اللغات القومية في اوروبا . علما بأن اللاتينية ، في اوروبا المثقفة ، ظلت سائدة الى حين كلغة نقل ثقافي اوروبي ، رغم تقدم اللغات القومية في كل مكان .

٥ ــ مونارخية ، Monarchie ، «نظام رئيس واحد» اي النظام الملكي . اعتبارا مـــن هنا نعتمد المصطلح الاجنبي : مونارخية او مونارشية ، نترك ملكية لـ Royauté . والمونارك هو الرئيس الاحد ، الملك . ــ ونعتمد سيادة لـ Souveraineté وسيد او صاحب السيـــادة Souverain مستبد ، عاهل مستبد : Despote ؛ استبداد واستبدادية: Despotisme حكم مطلق ــ نظام مطلق: absolutisme ــ نذكر بان جمهورية Republique ، من Respublica الشيء العام ، قضية الجمهور (اذاً الدولة) . chose publique

شيء ! موسوعة ، في حالة فوضى او لا (اكثر المختصين ب بودان حبا وحماسة يكتشفون فيها نظاما دقيقا وينبغي ان نثق بهم) ؛ وصية موسوعية من اكثر الادمغة الفرنسية ، الاوروبية ، موسوعية ، في قرن مكرس ، اكثر من اي قرن آخر قبله، للمعرفة ، لمجازفاتها ...

من هذا البحر من الافكار ، من المحاكمات ، من الوقائع ، من النصوص ومن التعليقات ، تطفو جزيرة مركزية ، تسبح في ضوء قاس يبرز محيطها وملامحها المرمرية الواضحة : **السيادة** la souveraineté .

***

الجمهورية هي حكومة حق، حكومة قويمة، droit gouvernement **لعدد من المنازل ولما هو مشترك بينهـا ، مع سلطة سيـدة .**
نضع هذا التعريف في المقام الاول لانه ينبغي البحث في كل الامور عن الغاية الرئيسية ومن ثم عن وسائل بلوغها . والحال ان التعريف ليس شيئا آخر سوى غاية الموضوع الذي يَمثل ، واذا لم يكن مؤسسا بشكل جيد فان كل ما سيبنى عليه لا يلبث أن ينهار ...

هذه السطور ، الاولى من الفصل الاول المعنون : «ما هي الغاية الرئيسية للجمهورية الجيدة الترتيب» ، ذات دلالة وإيحاء . انها دالة على الاسلوب الثقيل والتعليمي للحقوقي ابن منطقة آنجو . وموحية بهذا الذي تكشفه على الفور من مواقعه الجوهرية . نرى باديء بدء انه ب **الجمهورية** يعني ، على الطريقة القديمة ، الشيء العام la chose publique ، الاشتراك السياسي عموما وليس شكل حكم يعارض المونارخية (الملكية) او الامبراطورية . نرى في الوقت نفسه انه يضع نفسه، لا على صعيد الواقع (الذي يعبده ماكيافل) ، بل على صعيد الشرعية : الاشتراك السياسي ، الجماعة السياسية التي يقترح بشكل أمري نظريتها هي حكومة **قويمة** ، حكومة **حق** un gouvernement droit . لنفهم بذلك: ليس فقط مطابقة لبعض القيم الاخلاقية من عقل ، عدل ، نظام بالمعنى الارفع ، الاكثر افلاطونية لكلمة نظام ، ترتيب ordre («مرتّب جيدا» ، «منظم جيدا») ، هذه العبارة العزيزة على بودان ، تحوي ذلك) ، بل واجدة غايتها ، هدفها ، في تحقق هذه القيم ، في ماوراء تحقق الغايات المادية الذي ليس سوى مرحلة اولى . سنضع ، يقول بودان ، «نقطة التسديد» اعلى من السعادة . نرى بعد ذلك ان «المنزل» ، الاسرة ، هي في كل مكان الشرف : انها نقطة الانطلاق ، الخلية ــ الأم، وهي ايضا صورة وموديل الجماعة السياسية المنظمة جيدا . نرى اخيرا ان **السلطة السيدة** معتبَرة ، بلا امكان نقاش ، ملازمة لمفهوم الجماعة السياسية ذاته ، المفهوم بشكل صحيح .

«كما ان السفينة لا تبقى سوى خشب بدون شكل السفينة ، حين يرفع

الحيزوم الذي يدعم الجوانب والصدر والكوثل والسطح ؛ كذلك فان الجمهورية بدون سلطة سيدة **توحد كل اعضاء وأجزاء الجمهورية وكل المنازل والمجامع في جسم** ، لا تبقى جمهورية» . ما ان يعالج بودن هذه السيادة ، التي قد كـــــان الحقوقيون الرومان يشعرون بها شعورا بهذه القوة وهذا الجلال (كانوا يسمونها majestas ، جلال) حتـــى تصبح قوته الجدلية فوق امكان التجاوز . عنده وعي انه يجري في ميدانه المنتخب ، يصطاد على اراضي علم واطلاع محفوظة له منذ الازل . بأي ترفع يلاحظ «ان ثمة حاجة الى تشكيل تعريف السيادة» لانـــه ليس ثمة فقيه ولا فيلسوف سياسي قام بتعريفها ، رغم ان هذه هي النقطـــة الرئيسية والاكثر ضرورة للافهام في معالجة الجمهورية ! ليس بازدراء أقل ، يذكر ان ما من شخص قبله استطاع ان يخرج بدقة وصرامة **السمات الحقة للسيادة** ، السمات التي تسمح للرعايا بأن يتعرفوا على صاحبها الحقيقي .

السيادة هي قوة تلاحم واتحاد الجماعة السياسية ، هذه القوة التي بدونها هذه الجماعة تتفكك . انها تبلور هذا التبادل من «أمر وطاعة» الذي تفرضه طبيعة الاشياء على كل مجموعة اجتماعية تريد ان تعيش . انها «القدرة المطلقة والدائمة لجمهورية من الجمهوريات» .

الدائمة ، اي ، حسب التعليق النافذ لـ مسنار P. Mesnard ، «المرتبطة ارتباطا وثيقا بالوعي القيادي للمجتمع ، أيا كان شكل تجسد هذا الاخير ... ، الامراء اصحاب السيادة يمارسونها مدى حياتهم ، ويتعاقبون بلا انقطاع علـــى العرش ... ، الدول الديمقراطية تجسدها فـــي البقاء الطبيعي لشكلهـــا الاجتماعي ... ، ولكن لا يمكن ان توجد سيادة لموظف او لجسم تشريعي منتخب لزمن محدد : هؤلاء ليسوا سوى قضاة» . وبودن يلوم بصرامة العديد من الكتّاب على كونهم خلطوا بين قضاة (حكام) magistrats وسيد (عاهل، ملك) **souverain** .

دائمة ، السيادة ايضا **مطلقة** . «ينبغي ان لا يكون هؤلاء الذين هم سيدون ، **بتاتا** رعايا لاوامر الغير وأن يكون بوسعهم ان يعطوا قوانين للرعايا وكسر او ابادة القوانين غير المفيدة ليصنعوا قوانين اخرى ... . لهذا السبب يقول القانون : ان الامير معفى **absous** (absolutus) من سلطان القوانين» . «الامير السيد ، المعفى من قوانين اسلافه ، معفى ايضا من قوانينه هو ، «انه لا يستطيع ان يربط أيديه» حتى اذا اراد ذلك . «لذا نرى في نهاية المراسيم والاوامر السنية هذه الكلمات : **اذ هذه هي رغبتنا الطيبة** ، كما من اجل افهام الناس ان قوانين الامير السيد ، وان كانت مؤسسة بعلل جيدة وقوية ، فهي مع ذلك ليست تابعة الا لارادته الخالصة الصريحة » .

هنا بالضبط ، في هذه القدرة على اعطاء وكسر القانون ، تكمن اولى وأهم السمات الحقة للسيادة : «السمة الاولى للامير السيد هي القدرة على اعطاء القانون للجميع بوجه عام ولكل واحد بشكل خاص ... **بدون موافقة اعلى او مثيل او اقل من الذات** : لانه اذا كان الامير مجبرا على عدم صنع القانون بدون موافقة من

اعلى من ذاته ، فهو تابع حقيقي ؛ واذا من مثيل ، يكون له رفيق ؛ اذا من الرعايا سواء من مجلس الشيوخ او من الشعب ، فهو ليس سيداً» . ولكن الأعراف ؟ «القانون يستطيع كسر الاعراف ، والعرف لا يستطيع مخالفة القانون» .

كل العلائم الاخرى للسيادة متضمنة في تلك ، «بحيث اذا تحدثنا بشكل صحيح أمكننا القول انه لا يوجد» سواها . تقرير الحرب وعقد السلم ؛ تأسيس «الضباط» الرئيسيين (حملة الوظائف او الموظفين) ؛ القضاء في المرجع الاخير ؛ منح «العفو للمحكومين من فوق القرارات وضد صرامة القوانين» ؛ سك العملة ، اخذ الرسوم والضرائب : كلها علائم للسيادة هي **حقة** ، **صحيحة** ، ولا يمكن للرعية ان تخطىء في معرفتها ، وهي كلها مشتقة من هذه القدرة الثمينة ، من هذا الاحتكار المطلوب بشكل غيور في اعطاء ونقض القانون .

***

كل نظرية في السيادة ، مهما ظهرت حقوقية بشكل غير زمني ، مهما كانت منفصلة عن اعراض وطموحات السلطة العيانية ، انما تترجم عن بعض سرائر سياسية ، وتهدف الى إحداث طنين سياسي عميق . السيادة حسب بودن يمكن نظريا ان تقوم في الكثرة او الجمهرة (**ديموقراطية**) او في اقلية (**ارستقراطية**) او في رجل واحد (**مونارخية** monarchie ، ملكية) . مع ذلك ــ حتى قبل ان يعطينا بودن اسبابه في تفضيل المونارخية ــ فان نظريته بحد ذاتها ، السيادة **في التجريد** inabstracto ، تعمل من الان لصالح ملك فرنسا . انها تستأنف وتكمل الجهد العنيد الذي بذله المشرّعون القدامى ، في كونها تدحض الاقطاعية نهائيا ، في كونها تصفي النظرية المزاحمة القائلة بالحكومة المختلطة ، التي كان الكتّاب البروتستانت يريدون أن يجعلوها آلة حرب ضد الملكية .

الاقطاعية ، تسلسل السيادات والولاءات ، والروابط الرئاسية الشخصية ، انقسام السلطة العامة الى ما لانهاية ، خلط السلطات العامة والسلطات الخاصة، كانت تتساقط تحت صدمة هذه السيادة المطلقة ، المسلحة بمونوبول اعطاء ونقض القانون . كان بودن يدق ناقوس المونارخية الارستقراطية الفرنسية التي وصفها ماكيافل : ملك ، كبار يحكمون الى جانب الملك ، لانهم كانوا يفترفون في عراقة عرقهم حقا شخصيا في السلطان ، بصورة مستقلة عن الارادة الملكية . وكان يدق في الوقت نفسه ناقوس نهاية كل المزاعم البابوية (من الوجهة الزمنية الدنيوية) والامبراطورية على مملكة فرنسا . ملك فرنسا سيد ؛ ولا يوجد سيد ، بحكم التعريف ، سوى الذي لا يستمد شيئا من غيره ؛ لا شيء من البابا ولا شيء من الامبراطور ؛ الذي يستمد كل شيء من نفسه ؛ الذي ليس مرتبطا بأي رابط من تبعية شخصية ؛ الذي ليست سلطته موقتة ولا منتدبة ولا مسؤولة حيال اية سلطة اخرى على الارض . هكذا فالسيادة ، في الوقت نفسه الذي كانت فيه تحطم حلقات هذه «السلسلة الفولاذية» ، الاقطاعية (التي كانت ، في ساعتها ،

التي كانت ، في ساعتها ، قد سمحت بتلافي التفكك الاجتماعي ، كانت تضمن الاستقلال القومي .

الحكومة المختلطة : حسب هذه النظرية القديمة لافلاطون ، ارسطو ، بوليب Polybe ، شيشيرون Cicéron (٦) ، التي استرجعها ماكيافل في **الخطب** ، كان يوجد ، محصولا عليه بمزج الاشكال او النماذج الكلاسيكية الثلاثة للحكم (ديموقراطية ، أرستقراطية ، مونارخية) نموذج رابع . وهو الافضل . لقد رأينا هوتمان ، في ١٥٧٣ ، يثني عليه بحماس ، ونعلم لماذا .

بودن ايضا يعلم . تبيّن هنا احدى هذه النظريات المخاتلة التي بها يسعى البروتستانتي هوتمان ومن لف لفه الى جعل «رعاياهم يعصون أمراءهم الطبيعيين» فاتحين الباب لفوضى اباحية هي أسوأ من أقوى طغيان في العالم» (مقدمة **الجمهورية** ، موجهة الى السيد دو بيبراك ، صاحب **الرباعيات الاخلاقية** .) وبلهجته العالمة والقاطعة ، يعيد بودن الامور الى نصابها : «ارادوا ان يقولوا وأن ينشروا بالكتابة ان دولة فرنسا كانت ... مؤلفة من ثلاث جمهوريات ، وأن برلمان باريس (٧) يضطلع بشكل من ارستقراطية ، والطبقات ـ الهيئات الثلاث (مجلس الطبقات العامة Etats généraux) تمسك الديمقراطية ، والملك يمثل الدولة الملكية : وهو رأي ليس أحمق فقط ، بل راسي . اذ لجريمة اعتداء على الجلالة **ان يجعل الرعايا رفقاء الامير السيد**» . يرى القارىء ان عبارة « رأي راسي» تعني هنا مستحقة العقاب الاعلى ، قطع الراس ؛ وأن «بودن الطيب» ، كما يوصف احيانا ، لم يكن يمزح في مضمار مذاهب الدولة . غزيرة ، ساحقة ، مرافعته ضد هذه «الحماقات المرموقة والمنافية للسيادة المطلقة ، والمضادة للقوانين وللعقل الطبيعي» . أفلا تزعم نوعا ما «لعب» السيادة بفريقين او ثلاثة مع تغيير السيد : تارة الشعب ، تارة الكبار ، تارة الامير ؟ بودن لا يرى على الاطلاق كيف تقسم علائم السيادة لتكوين جمهورية «ارستقراطية وملكية وشعبية معا» ؛ هذه لا يمكن ان تكون سوى غول او مسخ ، لم يوجد ذات يوم ولا يمكن تصوره :

> نظرا الى أن علائم السيادة لا يمكن ان تقسم ، **فالذي سيحوز قدرة اعطاء القانون للجميع ، اي امر او حظر ما سيشاء ، دون** امكان استئناف او معارضة اوامره : سوف يحظر على الآخرين صنع السلام والحرب ، وفرض الضرائب وتقديم الولاء والطاعة

٦ ـ افلاطون وارسطو (ق ٤ ق م) . ـ بوليب (ق ٢ ق م) مؤرخ يوناني . ـ شيشرون (ق ١ ق م) اشهر خطباء روما .

٧ ـ **برلمان باريس** : في فرنسا النظام القديم ، هيئة قضائية « اول جسم قضائي في المملكة (حاول مرارا ان يلعب دورا سياسيا ، دورا نبيليا ضد الملك) . وهذا بخلاف مصطلح برلمان في انكلترة وفي العصر الحديث (هيئة سلطة تشريعية) .

بدون اذنه ... بحيث سيكون محتوما على الدوام اللجوء الى السلاح لحل النزاع ، **الى أن تبقى السيادة لامير ، او للجزء القليل من الشعب ، او لكل الشعب ... *فمثلا ... ملك الدانمارك والنبلاء*** توزعوا السيادة ، ولكن ايضا يمكن القول ان هذه الجمهورية لم تعرف راحة وامنا وهي بالاصح فساد جمهورية اكثر منها جمهورية. هكذا ، كان يقول هيرودوت ، لا توجد سوى ثلاثة انواع من جمهوريات ، والجمهوريات الاخرى هي فساد جمهورية ، ولا تنقطع عن كونها في مهب رياح الفتن الاهلية ، **الى ان ترسو السيادة بالكامل على فريق او آخر** .

القضية مفهومة : الجمهورية المختلطة ما هي سوى فساد جمهورية ، نظام بندوق وخداع للبصر ، يحمل في احشائه اسوأ الخلافات ، الى ان تعود السيادة المقطعة ، المعذبة ، لتتألف من جديد بالتمام والكمال لصالح حامل معرّف . السؤال الذي طرحه عنوان الكتاب الثاني : **عن شتى ضروب الجمهوريات عموما وما اذا كان يوجد اكثر من ثلاثة** ، اجاب عنه بودن بنفي منتصر وقاطع . لنقرأ ، تحت لهجة ظفره ، رضاء المشرّع الماهر والمواطن الصالح عن كونه أباد مذهبا خطرا : المذهب الذي كان ، لصالح النبلاء او الشعب ظاهرا ، لصالح الفوضى بالواقع ، يجعل ملك فرنسا محض «قاض او حاكم ملكي» وليس اميرا سيدا .

***

بين الاشكال الحقة الثلاثة للجمهوريات ، لماذا يفضل بودن المونارخية ، وما بالضبط هذه المونارخية التي يفضل ؟

انه يفضل المونارخية ــ اي ، لنذكره بالامر ، شكل الجمهورية ، الشكل الدولتي ، الذي فيه السيادة المطلقة «ترقد في امير واحد» ــ لاسباب حاسمة متنوعة ، بينها ثلاثة اسباب رئيسية .

الاول يقوم في ان المونارخية هي النظام الاكثر وفاقا للطبيعة («كل قوانين الطبيعة تقودنا الى المونارخية») . الاسرة ، موديل الجمهورية ، لها رئيس واحد . السماء فيها شمس واحدة . العالم له إله سيد واحد . «لذا نرى جميع شعوب الارض في جميع الازمنة ، وحين كان دليلها نورا طبيعيا ، لم يكن لها شكل جمهوري آخر غير المونارخية ، قصدنا الآشوريين ، الميديين Médois ، الفرس ، المصريين ، الهنود ، الفارثيين ، المكدونيين ، السلت Celtes ، الغاليين Gaulois ، السكيت S-Cythes ، العرب ، الترك ، الموسكوف Moscovites ، التتر ، البولونيين ، الدانماركيين ، الاسبان ، الانكليز ، الافارقة ...» . القارىء يصيبه السحق ، ان ليس الاقناع .

السبب الثاني للتفضيل له بالتأكيد الثمن الاكبر في عيون المنظّر الذي يهوى

«القدرة السيدة» . لا ريب ، تجريديا ، السيادة المطلقة «ترقد» في كثرة ــ الشعب ــ او في اقلية ــ الارستقراطية ــ كما في امر واحد . ولكن في الواقع العملي ، حقا في المونارخية وحدها تجد هذه السيادة المطلقة ، مع علائمها التي لا تقبل قسمة ، عضوا جديرا بها ، سندا قويا ، ضمان ديمومة .

> لكن النقطة الرئيسية للجمهورية ، وهي حق السيادة ، لا يمكن ان تكون ولا ان تبقى ، بحقيقة الكلام ، الا في المونارخية ، اذ لا يستطيع أي ان يكون سيدا في جمهورية سوى واحد احد . اذا كانوا اثنين او ثلاثة او عدة ، فان احدا لا يكون سيدا ، سيما وأن احدا لا يستطيع ان يعطي او ان ينال قانونا من رفيقه . ومهما بلغ تصورنا جسما من عدة أسياد أشراف او من شعب يمسك السيادة ، **فلن يكون لها ذات او سند ، اذا لم يكن هناك رأس ذو قدرة سيدة، لتوحيد هؤلاء مع هؤلاء .**

السبب الثالث هو أن اختيار الكفاءات ــ بمفردات حديثة ــ يؤمن على نحو افضل في ظل المونارخية :

> ... الحكماء والفاضلون هم في كل مكان قلة عددية ، بحيث ان القسم الاصح والافضل ، وفي غالب الاحيان ، مرغم على الانحناء تحت وطأة القسم الاكبر لشهوة خطيب وقح او محرّض اكثر وقاحة . ولكن العاهل السيد يستطيع الانضمام الى القسم الاصح والاقل ، واختيار الرجال الحكماء والفاهمين لشؤون الدولة ــ حيث ان الضرورة ترغم في الدولة الشعبية والارستقراطية على استقبال ... الحكماء والمجانين معا في الشورى

لكن هذه المونارخية التي يفضلها بودان ليست اية مونارخية كانت . انها ليست، مثلا ، المونارخية **الطغيانية** ، «حيث المونارك ، الرئيس الاحد ، محتقرا قوانين الطبيعة ، يتجاوز على الاشخاص الاحرار كما على عبيد وعلى أموال الرعايا كما على أمواله» . اذ ان استفظاع الطاغية ، منذ افلاطون وارسطو ، بند أسلوب في الادب السياسي (رغم **الامير** ، هذا الموجز المؤسف في الطغيان ، «في الحيل الطغيانية التي فتش عنها ماكيافل ــ يكتب بودان ــ في كل زوايا ايطاليا ، وكنس عذب سكبها في كتابه ...») . اذ ، فوق قوانين الملك السيد ، بودان ، شأنه شأن الرواقيين ، شأن القديس توما الاكويني والقانونيين المسيحيين ، يبقي أولوية قوانين الطبيعة ، **القوانين الطبيعية** ، انعكاس العقل الالهي ، «أما القوانين الالهية والطبيعية ، فان جميع أمراء الارض تابعون خاضعون لها ، وليس في قدرتهم أن

يخالفوها ، اذا لم يريدوا اقتراف جرم الاعتداء على الجلالة الالهية» . وفي عداد هذه القوانين الطبيعية يَمثل في المرتبة الاولى احترام الحرية «الطبيعية» للرعايا وملكيتهم . المونارخية التي ينادي بها الحقوقي ابن مقاطعة آنجو لا يمكن ان تكون سوى المونارخية **الملكية او الشرعية** كما يدعوها ؛ «المونارخية التي فيها الرعايا يطيعون قوانين المونارك والمونارك قوانين الطبيعة ، وتبقى الحرية الطبيعية وملكية الاملاك للرعايا» . الملك يقود افعاله بهدي **العدالة الطبيعية** «التي ترى وتولد واضحة لامعة كبهاء الشمس» (٤٥) .

ليس هذا كل شيء . هذه المونارخية الملكية او الشرعية يمكن ان تحكم بأشكال مختلفة . فلئن كانت السيادة المطلقة والتي لا تنقسم لا تقبل ، بطبيعة الحال ، اي «مخلوط» ، الا ان ممارستها التي هي الحكم قادرة على تركيبات متنوعة (بودن هو اول من اقام ، بين «سيادة» Socveraineté و«حكومة ، حكم» gouvernement ، هذا التمييز الذي سيأخذه روسو من جديد) . المونارخية الشرعية تحكم **شعبيا** حين يمنح الامير المناصب والفوائد بطريقة مساواتية تماما «دون نظر الى النبالة ولا الى الثروة ولا الى الفضيلة» . هذه المساواة تصدم بودان ، الذي يفضل المونارخية المحكومة **ارستقراطيا** ، حيث يقام حساب للاشخاص والاستحقاقات والواردات : مناصب وفوائد «للنبلاء او للاكثر فضيلة فقط ، او للاكثر ثراء» . ولكن الحكومة **الملكية** الحقة ، التي يحفظ لها بودن كل اعجاباته ، تناسقية .

> الملك الحكيم يجب ان يحكم مملكته بشكل منسجم متناسق ، جامعا بعذوبة النبلاء والعامة ، الاغنياء والفقراء ، ولكن مع امساك بحيث يكون للنبلاء بعض التقدم على العوام ، اذ من المطابق للعقل ان تكون للنبيل الذي يتعادل في الاسلحة والقوانين مع ابن العامة أفضلية بالنسبة لحالات états (وظائف emplois) القضاء والحرب ؛ وأن يفضّل كذلك الغني المساوي فيما عدا ذلك للفقير ، للحالات ــ الوظائف التي لها شرف ومجد اكثر مما لها ربح ؛ وان يأخذ الفقير المناصب التي لها ربح اكثر مما لها شرف : والاثنان سيسران ...

نحن بعيدون ، مع هذه المنظومة المرنة الاهتزاز والتوازن والتي تريد السد على الثورات (بروح أرسطو ، الذي تنسطع ذكرياته في السطور السابقة) ، نحن بعيدون عن الاستبداد البسيط على النمط التركي ، عن الطغيانات المشهودة على

---

(٤٥) القوانين الاساسية الشهيرة للمملكة تبدو ، في اعين بودن ، جزءا من هذه العدالة الطبيعية، من هذه القوانين الطبيعية .

النمط الايطالي . سيادة مطلقة ، اجل ، لا تقبل قسمة ، «بسيطة» بمعارضة «مختلطة» ، ولكن ليس سيادة غير محدودة ، بلا حدود اخلاقية . مونارخية مطلقة ، لا باي حال مونارخية عسفية . مونارخية تقبل ، بل تشترط مجلسا دائما يدعى **مجلس شيوخ** او برلمانا ، طبقات ــ هيئات عامة وإقليمية ، اعضاء شورى دورية . مونارخية تناسبها بل وتغنيها **اجسام** Corps ، اتحادات مهن ، مجامع، جماعات ، كل أشكال الجمعيات الوسيطة بين الدولة والرعايا ، الشبيهة بعقدات قوية تشد وتعزز السلسلة الاجتماعية .

ولكن مونارخية فيها لا يمكن لاي من هذه الاجتماعات ، من هذه المجتمعات «الجزئية» partielles ، ان يوجد بدون إذن الملك السيد ، ولا أن يتعدى ولو قليلا جدا على سلطته ؛ فيها لا مجلس الشيوخ ولا مجلس الطبقات العامة او الاقليمية يستطيع بأي حال ان يعطي نفسه ، ابعد من النصح والمشورة ، سلطة تقرير هي مونوبول الملك السيد . والا كان ذلك ــ يصرخ بودن مهددا ــ «الفتنة»، الانقلاب ، قلب السيادة ، الاطاحة **بالجلال** Majestas ، «الذي هو بهذه الرفعة وهذه القدسية» .

قدسية ! خصوصا ، جوهريا ، ان لم يكن حصرا ، حين تكون هذه السيادة الجليلة متجسدة في هذا المونارك الملكي ، في هذا النموذج من امير سيد الذي ينحت الحقوقي ابن آنجو ، ضد العديد العديد من محطمي الصور ، تمثاله بحب ويكرمه بهذه القوة . لنتعرف في المقطع التالي من **الجمهورية** على نبرة «الدين الملكي» ، قبل بوسويه Bossuet بقرن :

> بما انه لا يوجد شيء اعظم في الارض ، بعد الله ، من الامراء الاسياد ، وانهم مقامون من قبله بوصفهم نوابه للامر على البشر الآخرين ، فمن الضروري الاحتراس لصفتهم ، بغية احترام وتكريم جلالهم بكل طاعة ، والاحساس والتكلم عنهم بكل تشريف ، فمن يزدري اميره السيد انما يزدري الله ، الذي هو صورته في الارض.

★★★

الجمهورية ترجمت الى جميع لغات اوروبا تقريبا . منذ ١٥٨٠ صدرت طبعتها الخامسة . وكان على بودن ان يهيىء بنفسه نسخة لاتينية عن عمله ، لتامين انتشاره على نحو افضل في اوروبا المثقفة . خلال اقامة في لندن ــ حيث الملكة اليزابيت ، بتقريبية مداعبة ، وصفته ، على ما يبدو ، ب badin «مازح» ــ استطاع ان يعاين بنفسه الشهرة التي يتمتع بها مؤلفه في انكلترة . عالمو العصر مزقوه او رفعوه الى السحب . عالمو القرن التالي (بودن كان قد توفي سنة

١٥٩٦ ، بعد ما استطاع ان يحيّي فـــي هنري الرابع (٨) المــــك حسب قلب السـياسيين ، «الذي رمم وأعاد») ناقشوا الكتاب مع الاعجـــاب به . «لنترك لـ بودن ـ سيقول بيل Bayle ـ بلا جدال عبقرية عظيمة وعلما واسعا وذاكرة وقراءة معجزة» . نوده ، فاقدا كل رباطة جاش ، سيتخطى حدود حماس مسموح به :

... جان بودن Jean Bodin ، ودونه جميع الذين نشروا في يوم من الايام كتبا عن الجمهورية ... الذي نال من الطبيعـــة عبقرية لا تعرف التعب وبالغة الاتساع ، والذي ثقف هذه العبقرية بدراسة عنيدة واطلاع لا ينضب وحاكمة عجيبة ... الذي انتصر على صعوبات كل اللغات وكل العلوم تقريبا ... عنقاء عصره .... أما فيما يتصل بكتابه **الجمهورية** ، فيجب الاعتراف بأنه مؤلـــف منضج بعبقرية ، مشتغل بفن [!] ، تام للحاكمة ، وناجز بحيث ان من سيبتعد عنه لن يكون امامه الا الذهاب والتحطم على الصخور .

كان مونتيني Montaigne قد كتب ، بشكل اكثر اعتدالا ، في **المحاولات** Essais ، أن بودن «مؤلف جيد لزمننا ، عنده من صدق الحاكمة اكثر بكثير مما عند اخلاط كتّاب قرنه» ، وهو جدير «بأن يكون موضع حكم واعتبار» (٩) .

هذا ما فعلناه ، رافعين التكريم اللازم لرجل وعمل كانا شهيرين في زمنهمـا وهما اليوم مجهولان تماما تقريبا من الجمهور . هذا التكريم كان لازما ، لان من هذا الرجل وهذا العمل تبدأ فعليا فكرة **السيادة** souveraineté ، كما هـــي ستصير ـ في ظل النظام القديم Ancien Régin وفي ظل النظام الحديث، في زمن النظام المطلق المونارخي وفي زمن النظام المطلق الديمقراطي ـ المفهـــوم المركزي في العلم السياسي وفي الحقوق العامة . السيادة حسب بودن : «كتلة من رخام» ، كما قيل بشكل جيد جـــدا ، «لا يمكـــن ان تنجزأ» (فورنـــو (Fournod ؛ تمثال عملاق ، كما قيل ايضا ، لإلهة صارمة ، جميلة فـــي تجريدها ، على غرار الجمال حسب بودلير Baudlaire :

«انا جميلة ، أيها الفانون ، مثل حلم من حجر» .

صورة مقدسة عالية ، مطالبة ومسيطرة ، محاطة بهالة مبهرة معمية ، حاكمة من اجل خيرهم على البشر الفوضويين ...

---

٨ ـ ملوك فرنسا : فرانسوا الاول ، هنري الثاني ، فرانسوا الثاني ، شارل التاسع ، هنري الثالث (ق ١٦ ، حروب الدين ، الخ) ، هنري الرابع (١٥٨٩ ـ ١٦١٠) ، لويس الثالث عشر (١٦١٠ ـ ١٦٤٣) ووزيره ريشوليو ، لويس الرابع عشر «الملك ـ الشمس» (١٦٤٣ ـ ١٧١٠) ، لويس الخامس عشر (١٧١٥ ـ ١٧٧٤ ـ ١٧٩٢) .

٩ ـ مونتيني Montaigne (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) : اديب ومفكـــر فرنسي كبـــير ، صاحب **المحاولات** ، ريبي ، حامل الادراك السليم وروح التسامح ، احد رواد العصر الحديث ، لاسيمـــا بالنسبة لفرنسا .

الفصل الثالث

« لوياثان » ، لتوماس هوبز (١٦٥١)

«اللوياثان اسطورة ، نقل ووضع محاجة مجردة
في عالم الخيال» Oakeshott
اوكشوت

القرن السابع عشر ، وقد جرت العادة على وصفه بقرن السلطة autorité ، كان ، في منتصفه ، مأسويا بالنسبة للملوك المطلقين . في فرنسا ، في السنة نفسها التي شهدت نهاية حرب الثلاثين عاما ، ١٦٤٨ ، قبل بلوغ لويس الرابع عشر سن الحكم ، في فترة وصاية آن النمسوية Anne d'Autruche ، انفجرت حركة المقلاع la Fronde . كانت تهدد عمل نظام ريشوليو ، ولا تبرر الا كثيرا حذر الكاردينال حيال الـ «شركات» القضائية حركة المقلاع – يقول المؤرخ ميشله Michelet – «حرب الاولاد هذه ، التي سميت جيدا جدا باسم لعبة طفل ... . البرلمان تسلح ضد السلطة الملكية ، التي كان ينشق منها . اخذ لنفسه سلطة «الطبقات العامة» وزعم نفسه مندوب الامة التي لم تكن تعلم من الامر شيئا. كان ذلك الزمن الذي فيه برلمان انكلترة ، البرلمان الحقيقي بالمعنى السياسي

للكلمة ، يقطع الراس الملكه (١٦٤٩)» (١) .

قطع راس ملك : انتهاك فظيع للمقدسات إمكن اقترافه بدون ان ينهمر نـــار السماء ويبيد في الحال المجرمين ! ان انكلترة ، منذ سقوطها من أيدي آل تيودور Tudor القوية والماهرة في أيدي آل ستوارت Stuart المضطربة والخرقاء، لم تكن عرفت سوى اختلاجات تشنجية . ان عنف الخلافـــات الدينية ــ بين بروتستانت وكاثوليك ، بين بروتستانت انجليكان ومنشقين (او طهرانيين) ــ كان يعزز عنف الاهواء السياسية ، حيث يؤلف المجموع خليطا لا ينفك وحاملا حرائق. في ١٦٤٢ ، كان الصراع المسلح قد بدأ بين شارل الاول ستوارت وبرلمانه ، ذي الاكثرية الطهرانية . بعد تقلبات عديدة كان الملك ، وقد هزمه الجيش البرلماني التابع لكرومول Cromwell ، قد أعدم (٢) .

---

١ ــ **حرب الثلاثين عاما** (١٦١٨ ــ ١٦٤٨) خرّبت المانيا وفتكت بقسم من اوروبا بين امبراطور النمسا (والاسبان حلفاؤه) ، وبروتستانت المانيا وفرنسا (ريشوليو) والسويد وهولندة . فشـــل الامبراطور في اعادة الوحدة الدينية والسياسية وفي بسط نفوذ النمسا على اوروبا (معاهـــدات فستفاليا ، ١٦٤٨) . الحرب بين فرنسا واسبانيا استمرت عشر سنوات اضافية ، وانتهت (معاهدة البيرنه ١٦٥٩ ، بعد تحالف مازارن مع كروموبل ١٦٥٧) لصالح فرنسا التي اصبحت القوة الاولى في اوروبا .

آن النمسوية (١٦٠١ ــ ١٦٦٦) ابنة ملك اسبانيا فيليب الثالث ، زوجة ملـــك فرنسا لويس الثالث عشر ، وصية على العرش في فترة طفولة لويس الرابع عشر . إثر وفاة زوجها ، فاجـأت الامراء والكبار وسلمت السلطة لافضل رجال ريشوليو ، الكاردينال مازارين (الايطالي الاصل) الذي تابع السياسة القومية والمونارشية .

حركة المقاليع : مقلاع البرلمان (١٦٤٩) ، مقلاع الامراء (١٦٥٠ ــ ١٦٥٢) : ثورة باريس وايضـــا بعض الاقاليم ، وانضمام البرلمان من جديد الى العصيان ، فرار كونده Condé اهم رؤساء العصيان وانضمامه الى الاسبان .

ميشله Michelet (ق ١٩) مؤرخ فرنسي كبير وشهير ، برجوازي تقدمي ليبرالي ضـــد الاقطاع والامراء ، مع الملوك في عملهم القومي ، وممجد لثورة ١٧٨٩ ضد النظام القديم ، ضد الملك والنبلاء والكنيسة . صاحب «تاريخ فرنسا» و«تاريخ الثورة» . برجوازي قومي (وقوموي) وإنساني.

٢ ــ **آل تيودور** Tudor : خمسة ملوك (هنري السابع ، هنري الثامن واولاده : إدوار السادس ، ميري ، اليزابيت) توالوا على عرش انكلترة من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، بناة **المونارشية المطلقة** التي بلغت في زمنهم ذروتها . ــ الاول انهى حرب الوردتين وأعاد السلطة الملكية فـــي انكلترة . الثاني تابع عمله ، اشتهر بزوجاته الست المتتاليات (أعدم اثنين منهن) ، انفصل عن روما وأعلن نفسه رأس كنيسة انجلترة واضطهد واعدم البروتستانت كهراطقة والكاثوليك البابويين كخونة للوطن. الثالث (إدوارد السادس) كان بروتستانتيا لوثريا تقيا متعصبا ، ومريضا ، لم يحكم طويلا . ميري تيودور ، الدامية ، كاثوليكية (مثل امها الاسبانية) ، متعصبة مسعورة ، تزوجت ملك اسبانيـــا

(لتؤمّن خلفا كاثوليكيا على عرش انكلترة) ، لم ترزق ولدا . اخيرا **اليزابيث** (١٥٥٨ ــ ١٦٠٣) ، اعظم ملوك انكلترة ، نظمت الانجليكانية ، كنيسة انكلترة الرسمية (العقيدة كالفينية ، الطقـــوس والاشكـــال كاثوليكية ، لغـــة الصلوات انكليزيـــة) ، ساندت الاقاليم ــ المتحدة (هولندة) ضد اسبانيا وتحالفت مــــع هنري الرابع ملك فرنسا ، بنت الاسطـول وشجعت الاستعمـــار والتجارة ، رعت الاداب والفنون (العصر الاليزابيتي ، عصر شيكسبير) . كانت آخـــر اولاد هنري الثامن ، وآخر ملوك سلالة تيودور . بعدها انتقل العرش الى **آل ستيوارت** **Stuart** . فكان القرن السابع عشر زمن **ازمات وثورات** نبعت من الوضعية السياسية والدينية .

منذ القرن الثالث عشر ، كان المفروض ان يحكم الملِك مع برلمان منتخب ، والنظام كـــان **مونارشية محدودة** . لكن آل تودور ، بناة ثروة وازدهار انكلترة ، حكموا كملوك مطلقين . علما بان المؤسسة البرلمانية ظلت موجودة . والمسألة السياسية كانت الان : هل تستطيع الملكية ان تستمر في تجنب مراقبة ممثلي الامة ؟ هذا ما تصوره ملوك آل ستيوارت . **جيمس الاول** (١٦٠٣ ــ ١٦٢٥) ، ثم **شارل الاول** (١٦٢٥ــ ١٦٤٩) سعيا الى اقامة النظام المطلق والحكم بدون البرلمان ، وارادا ايضا فرض الدين الانجليكاني على كل رعاياهم ، فاضطهدوا الكاثوليك و**الطهرانيين** (وهم بروتستانت) فهاجر قسم كبير منهم الى اميركا الشمالية . في ١٦٤٠ ، انتفض البرلمان ، اعتقل وحاكم واعدم الوزيـــر ستراففورد **Strafford** ... ، غادر الملك لندن وهيأ الحرب الاهلية (١٦٤٢) . انتصر الجيش البرلماني بقيادة **الطهراني كرومويل** ، حوكم الملك شارل الاول وحكم كخائن واعدم (١٦٤٩) . كانت هذه اولى الثورات البرجوازية الكبرى في تاريخ اوروبا الحديثة . اقام كرومويل دكتاتوريته ، شجع الملاحة والتجارة والاستعمار ، خفض هولندة ودافع عن القضية البروتستانتية في اوروبا وتحالف مع مازارين (تابع سياسة اليزابيث) . خلفه اخوه ثم استقال (١٦٥٨ ــ ١٦٥٩) ؛ ثم ، بعد دسائس واضطرابات ، عادت الملكية وآل ستوارت (١٦٦٠) . **شارل الثاني** (١٦٦٠ ــ ١٦٨٥) و**جيمس الثاني** (١٦٨٥ ــ ١٦٨٨) ناصرا الكاثوليكية ضد ارادة غالبية الشعب الساحقة ، وعارضا البرلمان : فقامت **الثورة الثانية** ، القصيرة والسلمية : الانكليز أنزلوا جيمس الثاني الكاثوليكي عن العرش ، لصالح ابنته **ميري** ، البروتستانتية والمتزوجة بأمير بروتستانتي ، **وليم اورانج** **Guillaume d'orange** استقدموهما من هولندة مع جيش ، وليم «انتخب» ملكا مع زوجته (١٦٨٩) ، وجيمس فر الى فرنسا ، وحلّف الملك والملكة يمين احترام **اعلان الحقوق** (١٦٨٩) ؛ وهو بيان بالحريات الانكليزية وحقـــوق البرلمان ... .

بعد ١٧١٤ ، آل العرش الى أمراء المان من هانوفر : **جورج الاول** (١٧١٤ ــ ١٧٢٧) ، ثـــم **جورج الثاني** (١٧٢٦ ــ ١٧٦٠) لم يستطيعا ان يمارسا الحكم شخصيا . وظهرت او تثبتت القاعدة : الملك يملك ولكن لا يحكم . اشهر وزيرين كانا **والبول** **Walpole** (١٧٢٠ ــ ١٧٤٢) الذي سعى الى ابقاء السلام وإنماء التجارة والازدهار ، **وبيت** **Pitt** الخطيب الكبير الذي في عهده (١٧٥٦ ــ ١٧٦١) قامت عظمة انكلترة على انقاض امبراطورية فرنسا في الهند وكندا (حرب السبعة أعوام ١٧٥٦ ــ ١٧٦٣) . وبدات **الثورة الصناعية** (جيمس وات ١٦٧٩ ــ ١٧٨١ ، صناعة القطـــن ، الخ ...) .

Commonwealth ، ثروة مشتركة) . حينئذ يصدر في لندن كتاب ذو عنوان غريب : **لوياثان او مادة وشكل وقدرة دولة كنسية ومدنية** . «لوياثان» غول توراتي ، نوع من حوت ضخم يتكلم عنه سِفر أيوب ، موضحا «انه لا توجد قدرة على الارض يمكن ان تقارن به» .

ليست أقل غرابة الصورة التي تزين جبهة الكتاب . نرى فيها ـ طافيا حتى منتصف جسده وراء التلال ، مشرفا على مشهد من حقول واحراج وقصور تسبق مدينة ضخمة ـ عملاقا متوّجا . انه اسمر ذو شعر كثيف وشارب ، مع نظرة ثابتة ، نافذة ، وابتسامة رقيقة السخرية (قيل انه يشبه كرومويل) . ما يشاهَد من جسده ، صدرا وذراعَين ، مصنوع من الوف عديدة من الافراد الصغار المجمَّعين . بيده اليمنى يمسك ، مرفوعا فوق الريف والمدينة ، سيفا ؛ وباليد اليسرى عصا اسقفية . تحت ، كإطار يحيط بعنوان الكتاب ، سلسلتان من الرموز الطباقية ، بعضها ذات طابع زمني دنيوي او عسكري ، والاخرى ذات طابع روحي او كنسي ، تتواجهان : حصن وكاتيدرائية ؛ تاج وتاج مطران ؛ مدفع وصواعق الحرمان الكنسي ؛ معركة مع احصنة منتفضة ومجمع ديني مع أثواب طويلة ...

ذلك لغز تصويري . ماذا يعني ؟ المؤلف ، في المدخل ، يضعنا على الطريق :

> ... فن الانسان ... يستطيع ان يصنع حيوانا مصطنعا ... . واكثر من ذلك ، الفن يستطيع ان يقلد الانسان ، هذه التحفة العقلية من الطبيعة . اذ هو فعلا نتاج من الفن هذا **اللوياثان** الكبير الذي يدعى شيئا عاما chose publique او Etat دولة Commonwealth ، ثروة مشتركة) ، باللاتينية Civitas ، والذي ليس شيئا آخر سوى انسان صنعي ، وان كان ذا قامة اعلى بكثير وقوة اكبر بكثير مما للانسان الطبيعي ، الذي من اجل حمايته والدفاع عنه تصوّر . فيه **السيادة** هي **نفس** مصنوعة ، مصطنعة ، ما دامت تعطي الحياة والحركة للجسد بأسره ... . **الثواب والعقاب** ... اعصابه . **رفاه** و**ثروات** جميع الافراد **قوته**. Solus populi ، خلاص الشعب ، **وظيفته** ... . **العدل والقوانين** بالنسبة له **عقل وإرادة** صنعيان . **الوفاق صحته** ، **الفتنة مرضه** ، **والحرب الاهلية موته** . اخيرا **المواثيق** والتعاقدات

جورج الثالث اراد اعادة سلطة الملك ، توجيه الانتخابات ، اختيار الوزراء ، فكانت **الازمة الدستورية** (١٧٦٠ ـ ١٧٨٣) التي انتهت الى توطد **النظام البرلماني** ، لاسيما بفضل هزيمة انكلترة على يد مستعمراتها الاميركية ـ الولايات المتحدة (**ثورة الاستقلال الاميركية** ١٧٧٤ ـ ١٧٨٣ ، ثاني الثورات البرجوازية الكبرى في تاريخ الغرب الحديث) .

التي في الاصل رأست تأسيس وتجميع واتحاد أجزاء هذا الجسم السياسي تشبه هذه الـ «fiat» او faisons l'homme ، «لنصنع الانسان» ، التي لفظها الله عند الخلق .

★★★

مؤلف هذا الكتاب الغريب ، توماس هوبز Thomas Hobbes ، كان هو نفسه رجلا مثيرا للفضول ، رجلا من النوع الثقافي الكبير ، كما ينتج كل قرن اثنين او ثلاثة منهم .

كان قد وُلد في سنة ١٥٨٨ ، قبل اوانه . فوالدته قد تأثرت كثيرا بإنذارات الخطر التي كانت تسببها في الرأي العام الانكليزي استعدادات فيليب الثاني ملك اسبانيا ، الجبارة («الاسطول الذي لا يُقهر» l'invincible Armada) ، ضد اليزابت Elisobeth ، الملكة الهرطوقة . هوبز كان يعزو الى هذه الخصوصية لولادته طبعه الوجِل : «الخوف وأنا توأمان» . قدَره اراد ان يعيش في عصر من التاريخ الانكليزي لا يناسب هاوي هدوء وسلام ، يفزع من اشباح وبالاحرى من البشر الواقعيين ، المتوحشين بما فيه الكفاية ، في هذا الزمن العكِر . هوبز ، منذ شبابه ، استفظع ليس فقط السكولاستيكا الوسطوية بل ايضا المناقشات السياسية ــ الدينية التي كانت محتدمة ، في الجامعة ، عن الملكية ، عن تفسير الكتاب المقدس وحقوق الوجدان الفردي . في رأيه ، كانت تضعف انكلترة ، تقوض السلطة من اساسها وتهيىء الحرب الاهلية .

حين بدت هذه تقترب ، في ١٦٤٠ ، هوبز ، الذي كان مؤدّبا في اسرة كافنديش النبيلة ، خاف . اذ فزع من عواقب احدى كتاباته السياسية De Corpore politico **في الجسم السياسي** التي كانت تتداول في السر ، فر من انكلترة الى باريس . في فترة نفي طوعي دام ١١ سنة ، اثناءها دخل في مساجلة حادة مع ديكارت وعلّم ــ من ١٦٤٦ الى ١٦٤٨ ــ الرياضيات للذي سيكون شارل الثاني ، أصدر كتابه Decive وهيأ كتابه **لوياثان** Léviathan الاول Decive **(في المواطن)** كان يحتوي على جوهر مذهبه السياسي . هوبز ، بدون تواضع كاذب ، كان يعيِّن من هذا المؤلّف بداية «الفلسفة المدنية» اي السياسية .

من اجل كتابة الـ Decive ، كان قد قطع مخططا طموحا من التنقيب والانتاج الفكريين ، مخططا لم يكن مع ذلك فوق قوى ذهنه غير العادية . اذ اكتشف ، في سن الاربعين ، علم الهندسة قارئا أقليدس (واذ لم ينقطع منذ ذلك الحين عن التفكير على هذا الاساس) ، كان قد تصور منظومة تامة الصرامة والدقة ، مغلقة من جميع الجهات ، تفسر كل شيء انطلاقا من الحركة: العالم السيكولوجي، والعالم الاخلاقي ، والعالم السياسي ، كما العالم الفيزيائي . المحور ، العقلاني والمادي بآن واحد ، لفكر هوبز لم يكن يمر بأفلاطون وارسطو ، بل بديموقريط

وإبيقور والسوفسطائيين الاغريق اعداء سقراط . الكشوف التي اتى بها عن عالم الطبيعة غاليله Galilée وهارفي Harvey ، معاصراه ، كانت قد وسمته بعمق. قبل كونت Conte بقرنين ، صاحبنا وضعوي، «منظّر للمعرفة العلمية». عميق يقترح (في الفصل التاسع من كتابه **لوياثان**) تصنيفا للعلوم اصيلا .

لوياثان تركيب الـ هوبزية الجامع . انه ثمرة تراكب مثير للفضول جمع ذهنا قويا وصارما ، ميكانويا Mécaniste بتعصب ، مع وساوس قلب يملـــؤه الخوف ، ونهيم ، من اجل نفسه ومن اجل بلاده ، للسلام . لئن كنا نجد فيـــه تسللات غير منتظرة (من اصل وسطوي) من سكولاستيك ، من لاهوت ، بل ومن شياطينولوجيا ، الا انها لا تستطيع ان تقطع الخط الفكري الهائل لهذا «الكتاب المرموق تماما ، احد اناجيل انكلترة ... اصيل ومبدع ... كنز حكمة اخلاقيــة وسياسية» (غراهام Graham) ، ـ «لاعظم تحفة وربما التحفة الوحيدة في الفلسفة السياسية باللغة الانكليزية» (أوكشوت Oaxeshott) .

***

في وصف طبيعة هذا الانسان المصطنع ـ هكذا يتواصل ، في المدخل ، تقديم كتاب **اللوياثان** ـ سأعتبر : في المقام الاول ، مادته وصانعه : هذا وتلك هما **الانسان** . في المقام الثاني ، كيف وبأية **مواثيق** هو معمول ؛ ما هي **الحقوق** والسلطة العادلة ... للمـــلك سيد ؛ ما **يحميه** وما **يذيبه** . في المقام الثالث، ما **الدولة المسيحية**. اخيرا ، ما **مملكة الظلمات** ؟

لنختصر ـ مع كل أخطار التبسيط المتجاوز والتشويه التي تفترضها ، امام مؤلف كهذا ، كلمة «نختصر» ـ لنختصر العروض والانماءات التي يعطيها المؤلف ، بلغة انكليزية وقنوعة ومطابقة بشكل عجيب . القضية في الحاصل ، بالنسبة لنا، هي تتبع انبساط جدلي دقيق يقودنا من البشر الطبيعيين الى الانسان الصنعي ، الى الدولة ـ اللوياثان .

البشر الطبيعيون

في بداية كل شيء الحركة . الانسان آلية . من الحركة يولد الاحساس . اشتهاء او رغبة ، نور او كره ، هذا «بداية صغيرة لحركة» او جهد نحو شيء ما او ابتعادا عن شيء ما . موضوع الاشتهاء او الرغبة هو الخير . موضوع النفور او الكره هو الشر . لا شيء جيد او سيء ، خير او شر ، بذاته : هذه النعوت ليس

لها معنى الا نسبة الى من يستخدمها . اللذة هي احساس الجيد . عكسها احساس السيء . الشر الاعلى هو الموت . الالم الذي تسببه مصيبة شخص آخر هـو الشفقة ، الرحمة ؛ مصدرها تصورنا ان مصيبة كهذه يمكن ان تصيبنا . ما هي الارادة ، فعل أن اريد ، ان لم تكن «الاشتهاء الآخير في المناقشة» : الاشتهاء الاخير او النفور الاخير الذي وضع حدا للنقاش وافضى مباشرة الى الفعل او عـدم الفعل . «ما يدعى **السعادة**» موجود حين تتحقق رغباتنا بنجاح ثابت . القدرة هي شرط هذه السعادة ، الشرط الذي بدونه لا وجود للسعادة . الثروات ، العلم ، الشرف ، ليست سوى أشكال للقدرة . ثمة في الانسان رغبة دائمة ، شهـوة مستمرة للقدرة لا تنقطع الا عند الموت .

الانسان يتميز عن الحيوانات الاخرى **بعقله** ، الذي ليس سوى **حساب** (جمع وطرح عواقب) ؛ **بالفضول** او «الرغبة في معرفة لماذا وكيف» ؛ **بالدين** الذي يأتي ليس فقط من هذه الرغبة في معرفة الاسباب (اذاً سبب الاسباب ، «السبب الاول والازلي . . . الله») ، بل ايضا من القلق على المستقبل والخوف من اللامرئي .

تلك هي ، مكشوفة بالاستبطان ، ــ «إقرأ في نفسك» ، يقول هوبز ، ــ طبيعة الانسان . ماكيافل ، الامبيريقي تماما ، لم يعرّها الى هذا الحد . ديـدرو Diderot ، وقد قرأ لا **اللوياثان** بل محاولة سابقة كتبها هوبز بعنوان **في الطبيعة البشرية** ، سيعجب بهذا الفن البصير والقاسي في اعادة كل حركـات الكائن ، مع رفض كل تحويل نوراني ، الى حسابات الانانية والخشية . «لكـم يبدو لي لوك Locke مسهبًا ورخوا ، لا بروير La Bruyére ولا روشفوكـو La Rochejoucaud فقيرَين وصغيرين ، بالمقارنةمع هذا الـ توماس هوبز !» (٣).

الا ان الانسان لا يعيش وحيداً . عنده أقران . هذا شرطه الطبيعي . كيف يتفق هذا الشرط مع طبيعته الفردية كما حلّلت لتوّها ؟

بالنسبة لكل انسان ، الآخر منافس ، نهم مثله للقدرة في كل أشكالها . والحال ، بالجملة ، اذا نظرنا الى الامور «في مجملها» ، كل انسان هو مساو لغيره. اذا كنا مثلا بصدد القوة البدنية ، «فان الاضعف له منها ما يكفي ليقتل الاقوى ، إما باستخدام الحيلة ، او بالتحالف مع آخرين مهدَّدين بنفس الخطر الذي يهدده». تساوٍ في القابلية يعطي كل واحد أملا متساويا في الوصول الى غاياته ، يدفع كل واحد الى السعي لتدمير او اخضاع الآخر . تنافس ، حذر متبادل ، جشع للمجد او الشهرة ، ذلك يستتبع الحرب الدائمة من «كل واحد ضد كل واحد» ، مـن الجميع ضد الجميع . الحرب ، اي ليس فقط «واقعة القتال الفعلية الراهنة» بل ارادة القتال المؤكدة الواضحة : طالما هذه الارادة موجودة ، ثمة حرب ، لا سلم ،

---

٣ ــ لا برويير La Bruyére ، لا روشفوكو La Rochfoucaud : اديبان فرنسيان مـن العصر الكلاسيكي (ق ١٧ ، عهد لويس الرابع عشر) ، من كتّاب الاخلاقيات ، نقديـان . الاول الف الطباع والثاني الحِكم .

والانسان ذئب للانسان : **homo homini lupus** .

ان حربا كهذه لتمنع كل صناعة ، كل زراعة ، كل ملاحة ، كل «كونفور» **Confort** ، كل علم ، كل ادب ، كل مجتمع ، والاسوأ من الكل هذا الخوف الدائم والخطر الدائم من موت عنيف . الحياة «منعزلة ، فقيرة ، فظة ، بلهاء وقصيرة» . في مثل هذه الحرب ، لا شيء مجحف ولا يمكن ان يكون . «**حيث لا توجد قدرة مشتركة ، قوة مشتركة ، لا يوجد قانون ؛ حيث لا يوجد قانون ، لا يوجد إجحاف او ظلم** . القوة والخدعة هما في الحرب الفضيلتان الرئيسيتان» . في هذه الحرب لا توجد ملكية ، خاصية **propriété** ، خاصتك **tien** وخاصتي متميزتان ، «بل فقط ملك لكل أحد ما يستطيع اخذه وطالما يستطيع الاحتفاظ به» . هوذا الحال البائس الذي فيه «الطبيعة البسيطة» ، «الطبيعة حسب» ، ــ خارج كل خطيئة ، كل فساد ــ تضع الانسان . هو ذا الحال الطبيعي ، حالة الطبيعة .

تحت طائلة دمار النوع البشري ، على الانسان ان يخرج من هذه الحالة : في هذا يقوم واقعيا خلاصه ، نجاته . امكانية الخروج ، يملكها الانسان . وهي قائمة جزئيا في اهوائه وجزئيا في عقله . بعض اهوائه تجعله يميل الى السلام : اولها الخوف من الموت . العقل ، الذي ليس الا حسابا ، يوحي له ببنود سلام مناسبة يستطيع عليها الاتفاق مع البشر الآخرين . هوبز يدعو هذه البنود السلمية ، هذه الاحكام العقلية : **قوانين طبيعة** ؛ يعرّفها بانها نتائج خاتمة او نظريات رياضية **théorémes** تتصل بـ «ما يقود الى حفظ وحماية انفسنا» ؛ يكرس لها فصلين كثيفين يعدد فيهما ١٩ قانون طبيعة . وهو نفسه يبسّط لنا المهمة بتسليمنا ان هذه القوانين قد لخصت في صيغة «بسيطة ومفهومة حتى لاصحاب القابلية الاكثر تفاهة» . اليكم هذه الصيغة : **لا تفعل للغير ما لا تريد إن يفعله الغير لك** . اتفقوا بالتالي من اجل التخلي عن هذا الحق المطلق على كل الاشياء الذي يملكه كل واحد منكم ، بالتساوي مع كل واحد ، في حالة الطبيعة («حق طبيعي» ، بلغة هوبز) ، وهذا الاتفاق على التخلي لتكن عندكم ارادة المحافظة عليه .

ولكن ، نظرا للطبيعة البشرية ، نعلم جيدا انه رغم الخوف من الموت ورغم احكام العقل فان اتفاقا كهذا لن يحافَظ عليه ، ما لم تقم قدرة لا تقاوَم ، مرئية وملموسة ، مسلحة بالعقاب ، ما لم تقم هذه القدرة بإرغام البشر الخائفين . فالمواثيق «بدون السيف ، **sword** ، ما هي الا كلمات ، **words** » (ويفكر القارىء بماكيافل ساخرا من الانبياء المنزوعي السلاح) . من سيكون هذه القدرة ــ القوة ــ السلطة التي لا تقاوَم ؟ الدولة أو شيء عام ، **Commonwealth** ، الانسان الصنعي . من سيكوّنه ، وكيف ، بأية **fiat** او «**التصنع الانسان**» ؟ ان البشر الطبيعيين هم سيكوّنونه ، بميثاق ارادي ، يعقدونه بينهم ، من اجل حمايتهم ، من اجل الخروج ، بلا خشية انتكاس ، من الحالة الطبيعية المفزعة ــ من اجل نجاتهم ، خلاصهم .

الارادة ، الفن ـ الصنع . art ، الاصطناع artifice ، تلعب دورا مركزيا في نظمة هوبز . بالنسبة لارسطو ، الانسان اجتماعي بطبيعته ، مديني ـ مواطن Citoyen بطبيعته (zoon politikon ، حيوان سياسي) ؛ المجتمع السياسي واقعة طبيعية . حماقة ، يجيب هوبز ، الطبيعة لم تضع في الانسان غريزة الاجتماع ؛ الانسان لا يبحث عن رفاق الا بحكم المصلحة ، بدافع الحاجة ؛ المجتمع السياسي هو الثمرة المصطنعة لميثاق ارادي ، لحساب مَصلحي .

ان ينقل الى ثالث ، بموجب **عقد** «بين كل واحد وكل واحد» ، الحق الطبيعي المطلق الذي يملكه كل واحد على كل شيء ، هذه هي الحيلة artifice التي ستكوّن البشر الطبيعيين في مجتمع سياسي . ارادة هذا الثالث (الذي يمكن ان يكون رجلا او جمعية) ، ارادته الوحيدة ستحل الان محل ارادة الجميع **وستمثلهم جميعا** . هذا الثالث ، من جهته ، غريب بشكل مطلق عن العقد الذي به تعاقدت والتزمت الجمهرة لصالحه . لا يربطه اي التزام ... . «ذلك هو اصل هذا اللوياثان الكبير ، او ، بقول افضل ، **هذا الإله الفاني** الذي نحن مدينون له ، بعون الاله الخالد ، بسلامنا وحمايتنا . اذ ، مسلحا بحق تمثيل كل من اعضاء الكومونولث (الـ Civilas ، الدولة) ، يحوز بذلك من القدرة والقوة ما يمكنه ، بفضل الرعب الذي يوحي به ، من قيادة ارادات الجميع نحو السلام في الداخل والعون المتبادل ضد أعداء الخارج» .

هوبز لم يخترع نظرية العقد في المضمار السياسي . كانت ثمة هنا فكرة قديمة جدا ، أمكن ارجاعها الى إيبقور Epieure بل الى ابعد . كان ذلك وجها في التنقيب العقلي ـ البالغ الاهمية في تاريخ الافكار السياسية ـ عن اصل السلطة . ان تنقيبا من هذا النوع كان بوجه عام تحت هيمنة فكرة إضعاف السلطة ، الحد منها ، بتأسيس حقوق الرعايا في وجه حقوقها ، عقليا . لاهوتيو العصر الوسيط كانوا ، بالحقيقة ، قد ميزوا عقدين . بالاول ، ويسمى Pactum unionis ou societatis ميثاق اتحاد او اجتماع ، بشر حالة الطبيعة المعزولون يتكونون في مجتمع . بالثاني ، ويسمى pactum subjectionis او ميثاق خضوع ، المجتمع الذي تكوّن على النحو المذكور ، ناقلا او خالعا سلطانه لقاء بعض الشروط ، يتخذ سيدا ، عاهلا .

لئن كان مونارخوماك زمن حروب الدين ، الذين ضدهم كان بودان قد شيد قلعة السيادة المطلقة والتي لا تنقسم ، يستدعون العقد الثاني ، فقد كان ذلك من اجل ضرب الامراء الكافرين بالايمان الحق . هؤلاء الامراء ، وقد خرقوا شروط ميثاق الخضوع ، فقدوا حقهم في طاعة رعاياهم ؛ هؤلاء بامكانهم ان ينزلوهم ، بل عند اللزوم ان يقتلوهم بوصفهم طغاة Tyrannicide ، قتل الطاغية) . في مطلع القرن السابع عشر ، الالماني التوسيوس Althusius ، الهولندي غروتيوس Grotius ، يقترحان نظريات عقد جديرة بالاهتمام : نظرية قائمة على

الجماعات ـ الهيئات عند الأول ، فردوية عند الثاني (٤) .

هوبز يأتي حاملا تصورا جديداً بالتمام . كان بودون قد عرّف السيادة بدقة وصرامة ، وصف خصائصها المميزة ، ولكنه امتنع عن البحث عن إصلها : انهـــا كائنة ، مثل الله ، لانها كائنة . كيف ، عدا ذلك ، يمكن تخريجها من عقد بدون إضعافها ؟ هوبز يحقق ضربة قوة بتأسيسه على العقد سيادة مطلقة وغير قابلـــة لقسمة ، سيادة أكثر تشددا من سيادة بودن . يتوصل الى ذلك بقطعه مـــع الثنائية السابقة ، بجعله العقدين **عقدا واحدا** . انه يعلّم ان البشر الطبيعيين بفعل واحد وحيد يتكونون في مجتمع سياسي ويخضعون لسيد ، لملـــك . انهم لا يتعاقدون مع هذا السيد ، بل **فيما بينهم** . **فيما بينهم** يتخلون ، لصالح هـــذا السيد ، عن كل حق وكل حرية من شانها الاساءة الى السلام . انهم مقيّدون ؛ السيد الذي اتخذوه ليس مقيّدا . هوبز يفلت هكذا من هذا الذي كان قِوام (كما راى جيركه Gierke) الضعف الكبير في الثنوية السابقة : بذرة نزاع حتمي بين حقوق الجمهرة المشادة «شخصا» ، «شعبا» ، والملك السيد ، عضو شخصية الدولة . بعيدا عن إضعاف السلطة ، هوتز يقويها بشكل عجيب . مفهمته تفضي الى منحها حقوقا مفرطة . حقوقا توازنها ، بشكل سيء ، لا «التزامات» بـــل محض «واجبات» .

يطرح سؤالا اول : مسالة **شكل الدولة** . هذا السيد ، هل سيكون رجلا او مجلسا ، جمعية ؟ نظريا ، لا كبير اهمية لذلك (كذلك عند بودن) . محتوى السيادة لا يتبدل .

> حين يكون الممثل رجلا ، حينئذ تكون الدولة مونارخية . حين يكون جمعية كل الذين يتحدون ، حينئذ تكون ديموقراطية او دولة شعبية . حين يكون جمعية تتالف فقط من قسم من الذين يتحدون فهذا ما يدعى ارستقراطية . لا يمكن ان يوجد نوع آخر من الدولة، اذ يجب ان يكون واحد او اكثر او الجميع حائزا السلطة السيدة التي هي ... غير قابلة للانقسام ، تامة .

عمليا الفرق هام جدا (كذلك عند بودن) . اذ ان كلا من هذه الاشكال ليس له نفس الاهلية لابقاء السلام والامن . هوبز ، مثل بودن وجزئيا لنفس الاسباب ، يفضل من هذه الحيثية نظام المونارخية . كل ما يؤخذ ، حسب تقديره ، علـــى المونارخية موجود (بخطورة اشد) في غيرها ، وبشكل خاص في الديمقراطية .

---

٤ ـ غروتيوس (ق ١٧) او دو غروت : حقوقي وديبلوماسي ، صاحب كتاب «في حقوق الحرب والسلم» ، مجموعة في الحق الدولي العام .

هكذا للملوك محظيئون ، ولكن هؤلاء قليلو العدد ؛ محظيو الديموقراطيات عديدون ويكلفون اكثر . للمونارخية فضلا عن ذلك مزية خاصة بها .

كل انسان ، وبالتالي كل حاكم ، يفكر بمصلحته الشخصية ، مصلحة اولاده، اصدقائه . ميله الطبيعي هو الى تفضيلها على المصلحة العامة . اذا كان يوجـــد نظام يجعل نوعيّ المصلحة متطابقيّن ، فان هذا النظام يكون هو الافضل . والحال، في المونارخية ، «مصلحة الملك السيد هي واحد والمصلحة العامة . ثروات وقدرة وشرف عاهل لا يمكن ان تأتي الا من ثروات وقوة وسمعة رعاياه . ما من ملـــك يستطيع ان يكون غنيا، مجيدا، في أمان ، اذا كان رعاياه فقراء او محتقرين او... ضعفاء» . في الديموقراطية ، ليس الامر كذلك : ان حكومة فاسدة او طماعـــة تستطيع ان تستمد من غدرها ، من خيانتها ، او من حرب اهلية مزايا اكثر مما يمكن ان تجني من الازدهار العام .

رجلا او جمعية ، حقوق صاحب السيادة ، واجباته ، واحدة ؛ وضعيـــة الرعايا واحدة . ما هن ؟

كل شيء هنا ينبع من علة وجود ومن عين محتوى الميثاق الاصلي . كـــي يسود السلام ، الخير الاسمى ، كل واحد تخلّى لصاحب السيادة عن حقه الطبيعي **المطلق** على كل شيء . التخلي عـــن حق مطلق ما كان يمكن ان يكون الا **مطلقا** . النقل ما كان يمكن ان يكون الا كاملا . وإلا كانت حالة الحرب الطبيعية تستمر بين البشر بالقدر عينه الذي فيه احتفظوا مهما قليلا بحريتهم الطبيعية . هوبز ، ليس بدافع تذوّق للحكم المطلق ــ هذا ما يمكن ان نفكر ــ بل لانه كان يعلم «شيئا من المنطق الابتدائي» (أوكشوت Oakeshott) يرفض التسوية التي سيتبناها رجل مثل لوك Locke ــ الذي يرى ان البشر لم يضحوا **الا بقسم** من حقهـــم الطبيعي .

بتخليهم ، بهذا النقل النهائي والذي لا رجوع عنه (الا في حالة واحدة ، كما سنرى) ، تجرّد البشر اراديا من حريتهم في الحكم على الخير والشر ، العادل والظالم . التزموا بأن يعتبروا خيرا وعدلا ما يأمر به السيد ، شرا وظلما ما ينهى عنه . من جانبهم لا يمكن تصور اي لجوء الى اي كان ضد شرعية أوامر السيد . الم يجعلوه طوعا ممثلهم ، الم يستبدلوا بإرادتهم ارادته ؟ كل ما يفعله ، يعتبرون هم فاعليه . ان يتشكوا منه هو ان يتشكوا من انفسهم . اجل هذه السلطة غير المحدودة لها كثير من العسر ، ولكن حال الانسان في هذه الحياة هل هي يوما بدون عسر ؟ يجب الاختيار بين الحرب الدائمة من كل واحد ضد كل واحد ، ثمرة غياب السلطة المطلقة ، والسلام ، ثمرة السلطة المطلقة .

كما عند بودن ، مطلقية السيادة تستتبع عند هوبز عدم انقسامها والرفـــض المزدري لاية حكومة مختلطة . قسم السلطة هو حلها . قطعات السلطة يدمـــر بعضها بعضا . هذه القطع تصير «احزابا» ، اشخاصا سيدين . مرض حقيقي للجسم الاجتماعي : كما لو كان رجل ما يرى رجلا آخر يخرج من كل من خاصرتيه، «ذا رأس وذراعين وصدر ومعدة» .

علائم هذه السيادة المطلقة والتي لا تنقسم هي ذات العلائم التي عند بودن ، ونجد في المرتبة الاولى **سلطة اعطاء ونقض القانون** . ولكن بودن منحّى ومتجاوَز ، بالقدر الذي هو فيه وريث تقليد طويل ، رواقي ومسيحي ، من حد للسلطة بالحق الطبيعي (بالمعنى الكلاسيكي لا الهوبزي للكلمة) .

صاحب السيادة هو السلطة التشريعية الوحيدة . ليس ثمة قانون الا من امره الصريح . هل سيُعترض على ذلـــك بالقوانين العرفية ، غير المكتوبـــة ، والمستمدة ، على ما يبدو ، قوتها من الزمن ؟ هوبز يرد : انها تستمد قوتها من «ارادة السيد المعبّرة بسكوته» . علمنا من قبل انه «حيث لا توجد قدرة مشتركة، لا يوجد قانون» ، و«حيث لا يوجد قانون ، لا يوجد ظلم» . فالقانون وحده يقرر، يفصل ، بشكل اصطناعي (الاصطناع الذي عليه ترتكز الحياة المجتمعية) ، فـــي العادل والظالم . خارج قانون ، لا شيء يمكن اعتباره **ظالما** . وبحكم الفرض ما من قانون يمكن ان يكون ظالما ، اي مضادا للحق Droit (٥) . يمكن ان يكون مضادا **للعدالة** équité ، المعرّفة بهذه الاحكام العقلية التي يدعوهـــا هوبز «قوانين طبيعة» ؛ يمكن ان يكون سيئا لانه ليس ضروريا ؛ لا يمكن ان يكون **ظالما** . «وضعوية حقوقية » positivisme juridique ، بمفردات اللغة التقنية في ايامنا . بالتأكيد، والوضعوية الحقوقية الاكثر جذرية . ان الحق le droit ، في نظـر هوبز ، ليس له ولا يمكن ان يكون له سوى منبع واحد : الدولة ، اي السلطـــة ، اي الآمرية ، تعبير الارادة . حق طبيعي ، حق عقلي ، انعكاسات العقل الالهي ، تلك ليست في نظر هوبز من الحق ، من الحقوق .

تطبيق أخاذ لهذا كله على حق الملكية . بودن كان يشتـــرط على صاحب السيادة ، تحت طائلة اللصوصية ، احترام هذا الحق . هوبز ، المنطقي ، لا يرى في الملكية سوى تنازل او تساهل من صاحب ال سيادة . اذ قبل ان توجد قدرة مشتركة، سيادة ، ما كان يستطيع شخص من الاشخاص ان يتمتع آمنا بأية حيازة، ما دام لكل شخص حق طبيعي متساو على كل الاشياء . التوزيع المستقر للخيرات، الذي يدعى ملكية ، لم يكن ممكنا ان يقوم به سوى صاحب السيادة . احذفوا القانون المدني (كتب شيشرون Cicéron ، ويستشهد به هوبز) لن يعلم احد «ما له وما لآخر» . مذهب شغب وثورة المذهب الذي يعزو لانسان ، على امواله ، حقا مطلقا من شأنه استبعاد حق العاهل السيد . اذ ان هذا المذهب يضع العاهل في وضع يستحيل معه عليه ان يؤدي وظيفته ، وظيفة الحماية فـــي الداخل وفي الخارج .

اعطاء القانون ... إبطال القانون . العاهل لا يمكن ان يكون ممسوكا علـــى

---

٥ ــ الحق ــ الحقوق le droit . صيغة المفرد ، Droit ، حق ، وايضا الانكليزية Law ، قانون) تؤكد وتبرز التجريد الكلي ، العمومية المجردة .

القوانين التي صنعها ، «ان احدا لا يستطيع ان يلزم نفسه بنفسه ... ان من ليس ملزَماً الا لنفسه ليس مقيداً» . كل سلطة تشريعية هي حكماً legibus Solutus ، مُعتقة من القوانين . ولكن يبقى ان العاهل ممسوك ب القانون الذي صنعه طالما لم يختر أن يلغيه . في هذا القدر ، سلطته المطلقة ليست سلطة عسفية ، ويمكن الكلام بدون تجاوز على الكلمات عن سيادة القانون . هنا نلامس واجبات العاهل السيد (التي ليست «إلزامات» ، فالمرء لا يكون ملزَماً الا بالقانون، والعاهل يصنع ويبطل القانون) . بعد ان علمنا ما **يستطيع** العاهل ان يفعله ، وهو بغير حد ، علينا أن نرى ما **يجب** عليه ان يفعله . بالضربة نفسها سيظهر لنا ما **هي**، في منظومة هوبز ، وضعية الرعايا الحقيقية .

يجب على العاهل ان يوفر لرعاياه هذا الذي من اجله أسِّست الدولة : **الامن**. Salus Populi suprema lex ، سلامة الشعب هي القانون الاسمى : **مؤلف اللوياثان** يجدد معنى المثل القديم . سلامة الشعب ، خلاص الشعب ، **هذا ليس** فقط حفظ حياة الرعايا ضد اية أخطار ، بل هو ايضا تمتع بالارضاءات المشروعة لهذه الحياة . البشر اتحدوا اراديا في مجتمع سياسي كي يعيشوا فيه قدر ما يسمح به الشرط الانساني من سعادة أو من قلة شقاء .

من هنا يأتي ان العاهل له واجب ان يؤمّن لرعاياه «حرية بريئة» . بريئة ، في كونها لا يجوز ان تؤذي السلام . ما هي الحرية ؟ **غياب مانع خارجي عن رغباتنا** ، وحسب . القانون مانع خارجي . الفرد الرعية حر ان يفعل كل الافعال التي لا يمنعها القانون ، وهذه الافعال وحدها . والحال ليست قوانين **جيدة** ، **خيِّرة** ، سوى القوانين **اللازمة** ، **الضرورية** ، لخير الشعب . وقوانين قليلة هي ضرورية ، اذن جيدة . القوانين ليست مصنوعة لازعاج البشر في وجودهم ، بل لقيادتهم ، لحفظهم ضد انفسهم والآخرين ، لكي يسود السلام . هكذا «سياجات ، مصنوعة لا لايقاف المسافرين ، بل لابقائهم في سبيلهم» . حرية الرعايا ، دائرة واسعة من حرية حقيقية ، تؤمّن لهم هكذا بصمت القانون ، الصمت المرغوب .

كذلك على العاهل ان يضمن لرعاياه المساواة امام القانون وامام الوظائف العامة ، التعليم والتربية اللذين يشكلانهم على المذاهب الصحيحة ، الازدهار المادي . هذا الاخير يتطلب ان يناضل العاهل ضد البطالة الطوعية ؛ ان يوفر عملا لكل انسان ؛ ان يضع في عيالة الدولة ، الاحسان العام ، العاجزين عن العمل (بدلا من تركهم «لمصادفات الاحسان الخاص») . هذا الحرص نفسه على الازدهار يفرض على العاهل ان يترك لرعاياه الملكيات الخاصة الكافية ؛ وفي الوقت نفسه ان يسهر على الحيلولة بين هذا التوزيع للملكيات وبين تخريبه وقلبه من قبل جشع بعض الناس — الذين قد يكدسون في صرّتهم ثروات كثيرة «بالاحتكارات او بتعهد الموارد العامة» .

لنعجب بكيف يصير وحشنا لوياثان ، تحت هذا الوجه ، على نحو غير منتظر

بقدر ما هو منطقي ، ليبراليا ، محسنا ، فطنا ، انسانيا !

العاهل له ايضا واجب ، آت هو ايضا من نفس المنبع : ان يكون بشكل دائم سعيدا ، **ناجحا** Successful . فاذا ضعف الى حد لا يستطيع معه ان يؤمّن لرعاياه الحماية التي هي غايته الوحيدة ، فان الرعايا يتفكون من كل التزام . هذا هو الاستثناء الوحيد لعدم امكان الرجوع عن نقل الحق الطبيعي لكل واحد الى الدولة . ما من شيء امكنه ان يجعل الرعايا يتخلون عن حقهم الطبيعي المطلق في ان يحموا انفسهم بأنفسهم حين تكون الدولة خائرة قاصرة . او في ان يبحثوا عن حام آخر ليلتزموا تجاهه !... السيد هزم في الحرب الاهلية او الاجنبية ، لرعاياه الحق ، تحت بعض التمييزات ، في الالتحاق بالمنتصر ، الذي بات وحده قادرا على حمايتهم . مذهب بارد ونفعي ، يستبعد اي واجب من ولاء عاطفي : هوبز ، في الصفحات الاخيرة من **لوياثان** ، في «مراجعة وخلاصة» ، يبدو فعلا كأنه يطبق هذا الموقف ، تطبيقا عينيا ومناسبا بالتمام ، على آل ستوارت الذين سقطوا من العرش وعلى كرومول المنتصر .

★★★

ما يحفظ وما يحل الانسان الصنعي ، الدولة ـ لوياثان ، نراه على نحو كاف من الذي يسبق .

ما يحفظه هو السلطة ، هذا الصنيع الذي ليس له ثمن ، الذي ، من الانسان «ذئب للانسان» في حالة الطبيعة ، صنع الانسان «إلها للانسان» في حالة المجتمع، homo hominideus (الانسان إله للانسان) . انه التأكيد الذي لا يساوم والممارسة التامة الكاملة ، من قبل السيد ، لكل حقوقه : ان اقل تخل من جانبه وخيم ، اذ ان حقوقه هي بالنسبة له وسائل لإتمام وظيفته ، ومن يتخل عن الوسائل يتخل ايضا عن الغايات . انه الحظر اليقظ والذي لا يرحم ، حظر جميع المذاهب الباطلة ، أمهات الثورات ؛ انه بالمقابل النشر المنهجي الثابت للمذاهب الجيدة ، بفضل اصلاح الجامعات ـ حيث **اللوياثان** ، يقول هوبز بنيّة صافية ، «سيطبع بفائدة ويعلّم بفائدة اكبر ايضا» .

ما يحلّ الدولة ، بعد إضعافها ، تقويضها ، هو غياب السلطة المطلقة وغير المنقسمة ، الحكومة المختلطة ؛ زعم اخضاع العاهل للقوانين ؛ زعم تحميل حق ملكية **مطلقة** . انه تقليد الامم الاجنبية وبخاصة تقليد اليونان والرومان ، الوخيم الى اعلى درجة : لقد وضعت انتصاراتهم العسكرية وازدهارهم في حساب الحكومة الشعبية ، مع نسيان كل الحروب الاهلية التي فتكت بهم ، وكان مردها نظامهم السياسي السيء . ما يحلّ الدولة هو مناقشة السلطة السيدة ؛ انه اذا المذاهب الزائفة السابق فضحها والتي على الدولة ان تطاردها : في المقام الاول، مصدر كل المصائب ، فكرة ان «**البشر يجب عليهم ان يحكموا في ما هو مسموح به**

وما ليس كذلك ، لا بموجب القانون ، بل بموجب وجدانهم ذاته ، اي حكمهم الشخصي» . اذ يقيمون انفسهم قضاة الخير والشر ، يعود البشر الى حالة الطبيعة والى فوضاها الشنيعة .

ما يحلّ ، اخيرا ، الدولة ، بتعريضها بسبيل آخر ، بالغ الخطر ، لبعض من اخطر «الامراض» التي وصفها هوبز لتوّه ، هو تصور باطل لعلاقات السلطة المدنية مع الدين والسلطة الدينية . معضلة الدولة المسيحية ، المعضلة الكبيرة ، التي يكرس لها المؤلف ما يقرب من ثلث كتابه (الجزء الثالث : of a christian commonwealth ، عن دولة مسيحية) .

***

ان احدث شارح لـ هوبز ، السيد أوكشوت Oakeshott ، قد بيّن بوضوح رائع ان طريقين فقط كانتا امام عقول العصر الذين رفضوا سلطة المسيحية الوسطوَية . الاولى كانت طريق الدين الطبيعي المعارض للاديان التاريخية والمؤسَّس على العقل الطبيعي المشترك لجميع البشر : كانت تقود الى الإلهوية déisme (٦) وحتى الى العقلانية محض . الطريق الثانية كانت طريق «دين مدني ، لا يكون بناء من العقل ، بل من السلطة autorité ، يضع التشديد لا على المعتقَد بل على الممارسة ، يرمي لا الى حقيقة لا جدال فيها بل الى **السلام** ... . كانت هذه طريق هوبز» .

ان خصما لهذا الاخير كان يجعله يقول في **بيان عقيدة** ساخر : «أومن بأن الله هو المادة الكلية القدرة ...» . هذا لا يمنع أن هوبز كان يرى البشر خاضعين لقانون دين وضعي : يهودية او اسلام او مسيحية . كان ذلك واقعا ، وضعيا هو ايضا . الدولة التي يبني صاحبنا نظريتها هي دولة مسيحية ، اي مؤلفة من اشخاص مسيحيين . قانونهم الديني ، اي مجموع الاوامر المعبرة عن ارادة إلههم ، موجود في الكتاب المقدس . على تأويل الكتاب تتوقف التزاماتهم . ولكن من الذي يؤوّل الكتاب ؟

في حالة الطبيعة ، ينبغي علينا الاعتراف بأن لكل مسيحي حق القيام بهذا التأويل حسب عقله الفردي . يكون لدينا عندئذ قوانين مسماة مسيحية بقدر ما يكون هناك اشخاص يزعمون انهم مسيحيون . وبهذا تستفحل اكثر فوضى ومخلوطة حالة الطبيعة السابق وصفها . نفهم اذاً ان حق التأويل الشخصي هذا ، الذي ليس الا احد وجوه الحق العام للانسان الطبيعي على كل الاشياء ، يجب ان

---

٦ _ déisme ، الالهوية ، ايمان باله غير شخصي ، غير فاعل او متدخل ، بلا وحي وأديان منزّلة ، وهو موقف كثير من علماء القرنين ١٧ و١٨ . _ اما هوبز فمادّي ، اول فيلسوف مادي في العصر الحديث .

ينقل ، مع الباقي ، في لحظة الميثاق الاجتماعي .

ينقل الى من ؟ بالطبع الى الانسان الصنعي . صاحب السيادة يصير هكذا لا عضو الدولة فقط ، بل ايضا عضو الكنيسة . اذ ، ما هي الكنيسة ؟ جمعية ، ecclesia ‹٧› ، المؤمنين ، «اجتماع رجال معتنقين الايمان المسيحي ، متخذين في شخص سيد ، بناء على أمره يجب ان يجتمعوا» . مادة الدولة والكنيسة مادة واحدة : الاشخاص المسيحيون . لا يوجد ، بالواقع ، الكنيسة و الدولة ، حكومة روحية و حكومة زمنية . الدولة المؤلفة من مسيحيين والكنيسة المسيحية شيء واحد ، «شخص» واحد إرادته هي ارادة صاحب السيادة ، عضوه الوحيد ! كل امة هي كنيسة ، ملكوت الله مملكة **مدنية** .

على هذا النحو ، ما من سلطة روحية مزعومة مؤسسة لان تشيد نفسها خصما للسلطة السيدة (*) . لا بابا . لا أمر كذلك من الوجدان الفردي . لا سجال — وهو احيانا قاس — يمكن بعد ذلك ان ينفتح في قلب كل واحد بين المسيحي والانسان — الرعية . ما من فرد — رعية يمكن ان يمنع ، كمسيحي وتحت طائلة الموت الابدي، من فعل يأمره به القانون المدني ، تحت طائلة الموت الطبيعي . ما من شخص له بعد الان ان «يخدم سيدين» .

راعيا اعلى لشعبه ، حائزا حق تسمية الرعاة المرؤوسين ، يستطيع العاهل السيد اذا شاء ان يعمّد ، ان يناول الاسرار . ولكنه لا يفعل ذلك . ولئن كان لا يعلن الحرم ، الذي كانت الكنيسة تتجاوز وتستغله في العصور الوسطى ضد الامراء المسيحيين ، فهو الذي يعطي قرار دكاترته قوة تنفيذية .

الا ان الرسول قال : **افضل للمرء ان يطيع الله من ان يطيع الناس** . هذا القول يزعج هوبز ، الذي ينحيه قدر ما يستطيع بفضل تمييز مبتكر بين بنود الايمان الضرورية للخلاص والبنود الاخرى . لا يضع في الصنف الاول سوى الايمان بالمسيح وإطاعة القوانين . هذا ما يقلص بشكل عجيب قدرة العاهل المسيحي على ان يأمر رعاياه المسيحيين بأي شيء كان من شأنه تهديد خلاصهم الابدي . اجل ان صاحب السيادة ، في النتائج التي يستنتجها من الايمان بالمسيح ، قد يخطىء . ولكن من ستكون له الصفة التي تخول الحكم على الامر المذكور اكثر منه ، وهو رأس الكنيسة ؟ أي فرد — رعية في وجدانه الفردي ، اي بابا ، او حتى اي رسول؟ «اذن ، لا يمكن ان يكون ثمة تناقض بين قوانين الله وقوانين دولة مسيحية» . اذاً — فيما عدا حالة واحدة يحفظها هوبز بحذر ، حالة وحي خارق ينال في اتجاه

---

٧ — كنيسة ecclesia = جامعة ، جامع ، جماعة . الكلمة اليونانية كانت بالاصل تعني جماعة او جمعية المواطنين الديمقراطية في آثينا ...

(*) هوبز يكرس هنا ما كان قد بداه منذ ١٣٢٤ ، في قلب زمن اوروبا المسيحية ، ومارسيل دو بادو Marsile de Padoue المدهش في مؤلفه Defensor pacis «المدافع عن السلام» .

معاكس ــ ما من رعية لاية دولة مسيحية مسوّغ يوما لعدم «اطاعة قوانين عاهله ، فيما يخص الافعال **الخارجية** والمجاهرة بالدين» .

لنلاحظ هذا الايضاح المرموق ، الذي لولاه لخيّم التباس خطير على فكر هوبز : الافعال **الخارجية** ، المجاهرة (الخارجية) بالدين . على حد قوله «الله وحده يعرف القلوب» ؛ الرؤساء البشريون ليس لهم ان يدخلوا في الفكر الحميمي ، في حرَم الايمان العميق : هذه الامور لا تنتسب للالزام المدني ، للقوانين . هوبز لا يعبأ بحقيقة دينية جوّانية . الدولة الهوبزية لا تجسد اية حقيقة دينية ، اية «صوفيّة» (كما سيقال في زمن لاحق) . انه لا يطلب من الرعايا ان يؤمنوا بل ان يطيعوا . لا تهمه السريرة الداخلية . منطقه الحياتي يفرض عليه اقامة توافق او «تواقت» عملي بين ما هو من ميدان ديني ومن ميدان مدني ، حتى لا ينجتذب ويعنّت ، لا يمزّق ، لا **يُفك** (بالمعنى المليء للكلمة) رعاياه بين اوامر السلطة الدينية واوامر السلطة المدنية ــ لكي يسود السلام ، الذي تنسفه المناقشات السياسية ــ الدينية . السلام ، الذي يتطلب ، في مضمار أفعال الدين الخارجية ، لا التسامح ، بل الـ Comformisme ، التوافق مع الاشكال القائمة (٨) .

عند نهاية هذه الشروح ، نأمل ان يكون كل غموض قد اختفى من اللغز الذي كانت تقترحه على القارىء صورة عنوان كتاب **لوياثان** : هذا العملاق ذو الجسد المصنوع من افراد مجمّعين ، هذا التناظر بين السيف وعصا المطران ، الرموز الزمنية والرموز الروحية . العنوان نفسه لا بد انه صار واضحا تماما : «لوياثان او مادة وشكل وقدرة دولة **كنسية ومدنية**» .

★★★

مطلب من الذهن البشري لا يروّض ، اقوى من كل حذر ! وهذا الـ هوبز الفزِع الى هذه الدرجة ، هذا الفردوي الذي «خاف» (كما يقول ب. لاندري B. Landry بشكل جيد) والذي تلَمّلم تحت جناح السلطة l'autorité ، يقدم لنا عن ذلك مثالا ساطعا .

كان قد اتخذ في كتابه كل الحيطات الدارجة ، من الوجهة الدينية كما والسياسية ، ولكنه ، وقد حمله الاندفاع المنطقي لنظمته ، لم يستطع الامتناع عن تكديس المواد الهدامة . «في طريق يحاصرها ، من جهة ، الذين يناضلون من اجل حرية اكبر ، ومن جهة اخرى ، الذين يكافحون من اجل مزيد من السلطة ، من الصعب المرور بين رماح هؤلاء وهؤلاء بدون تلقي جروح» . بهذه المفردات كان الكاتب قد قدّم لمؤلّفه ، في شكل رسالة الى صديقه الفائق الاحترام السيد

---

٨ ــ و conformiste ــ في انكلترة ــ مرادف لانجليكاني . موقف المجاهرة بالدين القائم .

فرانسيس غودولفين . ولكنه لم يستطع توقع اتساع وخطورة الجروح التي كان سينالها فعلا . **اللوياثان** ، المعمول لاحراز استنكار انصار الحريـــة السياسية ، الكاثوليك والبروتستانت المنشقّين ، لا يثير غضبات أقل عند حمَلة النظام المطلق الملكي ، أنصار آل ستوارت ، وعند الاساقفة الانكليكان .

كان يساند النظام المطلق بدون أقل مناداة لحق الملوك الإلهي ، بحجج محض عقلية ووضعية ، بقلب لنظرية العقد الهدامة . كان يبدو ينادي ، نعلم بأية طريقة، بعدم الولاء لآل ستوارت الذين سقطوا عن العرش ، وبالانضمام الى كرومول ، الغاصب المنتصر . كان يضع الاساقفة الانجليكان ، ممثلي الدين الرسمي ، تحت رحمة الملك . من الزاوية الدينية كما والسياسية ، المسيحية كما والمونارخية ، هوبز هذا كان كافرا ، مجدّفا . «الكافر هوبز» ، سيقولون لمدة طويلة ، كما كانوا يقولون : «الوغد ماكيافل» . هذا الدور ، دور كبش فداء ، الذي كان مسنـــدا للفلورانسي منذ قرن ، سيضطلع به هوبز اعتبارا من النصف الثاني من القـــرن السابع عشر . بل وفي حياته .

رغم حماية تلميذه القديم ، وقد اصبح شارل الثاني عند اعادة الملكية (١٦٦٠)، يضطر هوبز ، من اجل أمنه الشخصي ، الى الكف عن الكتابـــــة في مجالات الاخلاق والدين . ينكبّ حينئذ على الهندسة ، وينازل كبار علم الهندسة فـــي كامبريدج . ولكنه مقتنع انه اكتشف حل مسألة تربيع الدائرة ومسألة مضاعفة المكعب . في سنة ١٦٧٩ ، وقد بلغ الواحدة والتسعين من العمر ، ينطفىء هذا الرجل المتفوق ، الذي لا يقهر في روحه والهلع في جسده .

وربرتون Warburton سيكتب في ١٧٤١ : «هوبز كان موضع رعب القرن الاخير . ولا يوجد الى الان اي كاتب فتى مناضل لا يشعر بالحاجة الى اختبار اسلحته بالرعد ضده» . بيد انه حدث لـ هوبز ما جرى من قبل لـ ماكيافل . ذوو السلطان ، ذوو المهارة ، بعد لعنهم صاحب **اللوياثان** في العلن ، كانوا يواظبون على قراءته في سر الغرفة ، كي يجدوا عنده التسويغ العقلي للسلطة المطلقة . وكانوا يتغذون بمذهب الذهن القوي الذي ، منذ كتابه De Cive ، **في المواطن** ، اراد ان يبين لرعايا الملوك السبلَ الملتوية و«الطرق المظلمة» للشعب والثورة ، في مواجهة «الدرب الواضح والعظيم للسلام» ــ للسلام الذي يؤمنه الرضوخ للسلطة .

ما من بلد وجد نفسه اكثر نضجا لاستقبال تعليم كهذا ، مجردا عن جهازه المذهبي المادي ، من فرنسا المنقذة من حركة القـــلاع ، فرنسا الفتـــى لويس الرابع عشر .

الفصل الرابع

« السياسة المستخلصة من الكتاب المقدس » ، لِ بوسويه (١٦٨٩ — ١٠٧٩)

«الذي اعطى ملوكا للبشر ارادهم ان يحترموا كنوابه » .

لويس ١٤

في فرنسا كان كل شيء سيعمل في نفس الاتجاه . استفظاع ثورة انكلترة ، التي قتلت ملكا . فشل حركة المقلاع . هذه ، يلاحظ بعمق ج. لاكور ـ غايه G. Lacour Gayet في **التربية السياسية للويس الرابع عشر** ، كان لهما كنتيجة «نتيجة جميع الثورات التي تخفق» ، لقد عززت «البناء الذي كانت ارادت زعزعته» ، جعلت المحافظة عليه «عزيزة على قلوب الغالبية العظمى من الامة» .

هذا البناء كان المونارشية المطلقة . بودين كان قد رسم بيد متحمسة وحازمة خطوطه الكبرى . عند الخروج من حروب الدين ، هنري الرابع ، بطيبته التسلطية ، كان قد أعاده . ثم ، كي لا يكون هناك «انقطاع بين الملوك الكبار» ،

أوجد القدر ريشوليو ، المعماري القاسي . لويس الرابع عشر ، مع مساندة شعبه الحارّة ، كان الان سيتم البناء ، سيكمله ، سيدفعه الى نقطة كماله .

مساندة شعبه الحارة : ميشله Michelet ، وهو شاهد غير مشبوه ، يشهد بذلك : «حصل آنذاك اتم ظفر للملكية ، اكمل اتفاق لشعب في رجل ، وجد في يوم من الايام . ريشوليو كان قد حطم الكبار والبروتستانت ؛ حركة القلاع كانت قد اهلكت البرلمان بجعله معروفا . لم يبق واقفا على ارض فرنسا سوى شعب وملك . الاول عاش في الثاني» .

هذه الصيغ – اتفاق شعب **في** رجل ، شعب يعيش **في** الملك – الا تستدعي عملاق هوبز ، في صورة عنوان **اللوياثان** ، المصنوع من افراد مجمَّعين ، متحدين فيه ؟ لا ريب كانت الفكرة في الجو ، والكلمة الشهيرة المنسوبة لـ لويس الرابع‌عشر: «الدولة انا» كانت تترجم عنها بشكل رائع . ولكن الشكل المذهبي الواضح المحدد الذي كان هوبز قد اعطاها اياه لم يكن مجهولا في فرنسا . في غياب **اللوياثان** ، كان مؤلفا **في المواطن** و **في الجسم السياسي** قد ترجما الى الفرنسية منذ ١٦٤٩ (على يد سوربيير Sorbière) . وفي ١٦٦٠ ، فرانسوا بونو F. Bonneau ، شريف فِردِس ، والصديق الشخصي لـ هوبز ، كان يصدر ترجمة للجزءين الاولين من **في المواطن** تحت عنوان : **عناصر سياسة السيد هوبز** . كان الاهداء الى لويس الرابع عشر مع هذا الاقتراح الطريف : «اتجرّأ واؤكد ، مولاي ، انه اذا شاءت جلالتكم وقام بعض الاساتذة الاوفياء وقرؤوا في ممالك هذه الترجمة او اخرى افضل منها ، فلن يُرَ في كل عهدكم لا شغب ولا ثورة» .

هذا التفتح الـ لويس – رابع – عشري للمونارشية المطلقة ، الإلهية الحق ، تترجَم في تاريخ الافكار السياسية بالمؤلف الذي استخلصه بوسويه Bossuet من اجل تعليم ولي العهد تلميذه ، «من ذات أقوال الكتاب المقدس» .

★★★

بوسويه عمل مؤدبا لولي العهد من ١٦٧٠ الى ١٦٧٩ . كرس نفسه لمهمته كما لكهنوت قومي . جدّد بالتمام ، في سن الثالثة والاربعين ، ثقافته الخاصة في الميدان الدنيوي ، كي يجعل نفسه اهلا لان يؤلف بنفسه من اجل تلميذه المؤلفات التعليمية الضرورية . **السياسة** ، ومعها **الخطاب عن التاريخ الكوني** ، هما اشهر هذه المؤلفات ، نفس التصور الجليل والمعزّي يلهمهما ، الا وهو حكم العناية الالهية . ليس من صدفة في سير الامور البشرية ؛ الحظ – هذه الإلهة العمياء عند ماكيافل – «ما هو الا كلمة ليس لها اي معنى» . العناية الربانية تحكم البشر والدول ، لا على نحو غامض وعمومي ، بل بشكل خاص جدا : «قيادية إلهية» حقيقية . اكثر من كونه صوت بوسويه ، انه صوت الله نفسه سيستمع اليه ولي العهد بقراءته **السياسة** ، ما دامت هذه مستمدة من أقوال الكتاب المقدس ذاتها .

بالحقيقة ، **السياسة** تضم بالمجموع عشرة كتب ، والستة الاولى وحدها خصصت لتربية ابن ملك فرنسا . انجزت في ١٦٧٩ ـ السنة عينها التي ستنتهي فيها ، وقد بلغ ابن لويس الرابع عشر السابعة عشرة ، هذه التربية الاميرية الجديرة بالذكر (و ... المخيبة) . بوسويه كان قدّر ان هذه الكتب الستة الاولى، التي تحوي تقريبا كل ما هو جوهري ، يمكن ان تكفي للتعليم السياسي لتلميذه . خلال السنوات التالية ، وقد الح عليه اصدقاؤه بمتابعة وإنهاء العمل ، قوطع المؤلف على الدوام بهموم اخرى اكثر إلحاحا . عام ١٧٠٠ ، كان يعلن انه «سيستأنف **السياسة** ليضع فيها اليد الاخيرة» . عام ١٧٠١ ، كان يقول انه زاد كتابه كثيرا منذ شهور عديدة ، ولكن دون ان يكون قد راجع الجزء الاول «الذي كان معمولا منذ اثنتين وعشرين سنة» . عام ١٧٠٣ ، كان يصرح بانه يريد للمرة الاخيرة مراجعة **السياسة** ، والعمل عليها في كل فترات الصباح . ولكن بعد قليل ـ عام ١٧٠٤ ـ وافته المنون . كان قد توفر له الوقت لاضافة اربعة كتب الى هذا المؤلّف الذي كان يشعر بوسويه نحوه بنوع من حب وتفضيل ، ولكن لا لتحرير «مختصر وخاتمة هذا الخطاب» . ان ابن اخيه ، الاب بوسويه ، هو الذي اصدر **السياسة** في ١٧٠٩ ، مع خاتمة مأخوذة عن القديس اوغسطين ، مخاطبا «في **مدينة الله** الاباطرة المسيحيين .

★★★

خارجيا ، **السياسة** كتاب تدريسي Manuel ، مقسّم ومفرّع ، اداة ، واضحة ، ولكن عابسة ، للتعليم . كل موضوعات الادب السياسي الكلاسيكية آنذاك نجدها معالجة فيه ، في الترتيب المعتاد : مبادىء المجتمع المدني ؛ افضل شكل للحكومة ؛ سمات الملكية ؛ واجبات الرعايا وواجبات العاهل ، وسائل السلطة او «نواجد الملكية» : الاسلحة ، المالية ، الشورى . كل من الكتب العشرة ينقسم الى **بنود** ، مفرعة بدورها الى **قضايا** ينبع بعضها من بعض . لدرجة ان فهرس المواد يحوي «كما في خطاب متصل على تحليل ـ محاكمة المؤلّف» .

خارجيا ، كل القضايا ، كل الادلة ، كل الامثلة ، مستمدة من الكتب المقدسة. النصوص المقدسة ، على حد قول شارح تقي في سنة ١٨٧٥ ، تَمثل تحت قلم بوسويه «بنظام وتسلسل ، تتتابع في لحمة الخطاب على نحو مترابط رائع ، بحيث تبدو كانها معمولة ليكون بعضها لبعض دعما وسندا» . هنا اصالة الكتاب . الغنى الذي به بوسويه ، حسب تعبيره ذاته ، **يعالج الكتابات المقدسة بيده** ، manie les écritures ، مدهش .

ولكن ، اذا كسرنا هذه القشرة ونفذنا الى الداخل ، لاحظنا بسرعة ان المؤلف يغترف ايضا في مصادر اخرى غير الكتب المقدسة وانه تأمل تاريخا آخر غير تاريخ الشعب اليهودي الصغير . بوسويه ، كي يكتب مؤلفه ، قد تآلف مع

السياسة لأرسطو ، وايضا ــ نعلم ان لا مجال لدهشة زائدة ــ مع عمل هوبز. **في المواطن** و **لوياثان** كانا في مكتبته ، يقول لنا ربليو Rebelliau ، « بعدة طبعات» . اصالة وقوة الحجج التي استطاع الانكليزي الكافر ان يسند بها الحكم المطلق ، قد حرثتا ، كما يحرث محراث قاطع ، فكر بوسويه اليهودي ــ المسيحي تماما . لاسيما وان بوسويه ، الذي كان ابو جده وجدّه قد وصفا له وهو طفل هياجات العصبة الكاثوليكية والذي كان هو نفسه قد عرف في شبابه حركة المقلاع، كان يشعر بنفس شعور الاستفظاع الجوهري للفتن الاهلية الذي كان قد هيمن على هوبز [١] .

و ، تحت لون اسرائيل او يهودا ، ان تاريخ فرنسا الملـنوّع ، هذه الهزات والتشنجات التي وضع النظام اللويس الرابع عشري حدا نهائيا لها ، تبقى على الدوام ماثلة امام عيني المؤدّب الشهير . الحسنات التي كان الشعب اليهودي مدينا بها لـ يوشع او داود او سليمان هل كانت اكبر من الحسنات التي كانت فرنسا مدينة بها لـ لويس الرابع عشر ، الذي نحوه يخفق قلب بوسويه اعجابا معترفا بالجميل ورقة رجولية . هذه المشاعر ، هذه الغيرة والحمية ، وراء قناع العرض التعليمي البارد ، هذه الشواغل الراهنة الى هذا الحد وراء ديكور جليل غير راهن ، ذاك ما يصنع ــ على حساب وحدة المؤلّف وكماله الفكري ــ الثمن الحقيقي لـ **السياسة** «المستمدة من أقوال الكتاب المقدس ذاتها» .

★★★

لننحن اذاً ، باجتهاد اكبر من اجتهاد سيدنا ولي العهد («ثمة كثير من العذاب ــ يكتب بوسويه في ١٦٧٧ ــ مع ذهن بهذا اللااجتهاد») ، على هذا الكتاب للعاهل المطلق ، الالهي الحق ، الامير حسب الكنيسة ، لا حسب ماكيافل .

«**الكتاب الاول : في مبادىء الاجتماع بين البشر . المادة الاولى : الانسان معمول ليعيش في مجتمع** . ــ القضية الاولى : **البشر ليس لهم سوى غاية واحدة وموضوع واحد ، هو الله** : «اسمع يا اسرائيل : الرب إلهنا هو الإله الوحيد . ستحب الرب إلهك ، بكل قلبك ، بكل نفسك ، وبكل قوتك» (شاهد من الـ Deutéronome ، السفر الاخير من اسفار موسى الخمسة) .

---

١ ــ لا بأس من ان نذكر بان الاسقف بوسويه اديب وخطيب ديني ومفكر . في فلسفة التاريخ، قال ان الله (السبب الاول) يعمل عبر اسباب ثانية ، سوّغ اذاً داخل اطار اللاهوت وتحت جناحه، الى حد ما فكرة السبب والقانون العلمية بخلاف تقليد كاثوليكي سابق وسائد . في السياسة الكنسية ، سوّغ وساند الغاليكانية (اي الفرنساوية) اي الاستقلال (النسبي) لكنيسة فرنسا (ضد مزاعم رأس الكنيسة وسلطته الزمنية) .

نحن ، على ما يبدو ، غاطسون في كتاب العهد القديم . ولكن عنوان البند الاول : «الانسان معمول ليعيش في مجتمع» ، يأتينا بالصدى المباشر لأرسطو . الله خلق البشر اجتماعيين بالطبيعة ؛ يجب ان يحبوا بعضهم بعضا حبا بالله ؛ انهم جميعا اخوة ؛ بل والمصلحة توحدهم : «انظر كيف تتضاعف القوى بالاجتماع والنجدة المتبادلة» .

والحال نعلم ان هوبز كان يرى في تأكيد ارسطو عن الانسان «المعمول ليعيش في مجتمع» حماقة . الانسان في نظر صاحب اللوياثان ، بطبعه غير قابل للتعامل والاجتماع . فهل اختار بوسويه ، ضد اطروحة هوبز ، اطروحة ارسطو ؟ لا . ولكنه ، ذاهبا من ارسطو ، سينتهي ، بطريق منعطف الخطيئة الاصلية ، الى هوبز والى البشر «الذين هم بطبعهم بعضهم لبعض ذئاب» ، ثم ، من هنا ، الى ضرورة الحكومة . فهو يقول لنا : بالفعل ، ان المجتمع الانساني ، المؤسس على كثرة من «روابط مقدسة» ، قد خرقته ودمرته الاهواء . الفرقة ، التي كانت قد اقامت بادئ بدء (هابيل قتله قايين) في عائلة الانسان الاول لمعاقبته على كونه انفصل عن الله ، امتدت الى النوع الانساني . كل صدق ، كل امان ، اختفيا من البشر الذين هيمنت عليهم أهواؤهم والمصالح المتنوعة التي كانت تتولد منها . صاروا غير قابلين لتعامل ، «لاتفاق بأمزجتهم المختلفة» ، غير قابلين لاجتماع . لم يعد ممكنا والحالة هذه ان يتحدوا ما لم يخضعوا جميعا لحكومة واحدة «تنتظمهم جميعا» . وحدها سلطة هذه الحكومة كانت قادرة على جعل كل فرد خاص يتخلى عن «حق الطبيعة البدائي» في احتلال ما يناسبه بالقوة . هكذا أسس حق الملكية. «وبوجه عام يجب ان يأتي كل حق من السلطة العامة دون ان يكون مسموحا باجتياح اي شيء ولا بمحاولة اي شيء بالقوة» . كل فرد خاص ، من جهة اخرى، «يكسب في ذلك» ، واجدا في شخص العاهل من القوة اكثر مما كان قد تخلى عنه لصالحه : «كل قوة الامة المؤتلفة معا لنجدته» .

هل من شيء يلخص على نحو اقوى فكر هوبز اكثر مما يلخصه الطباق الذي اقامه بوسويه ، في الجمل الآتية ، بين الفوضى والسلطة ؟ «حيث كلٌ يستطيع ان يفعل ما يريد ، لا احد يفعل ما يريد ؛ حيث لا سيد ، كلٌ سيد ؛ حيث كل سيد، كلٌ عبد» . هكذا الفوضى، **l'anarchie** ، اللارئاسة . لنقارن مع السلطة **l'autorité** :

«عند سماع امر شاول والسلطة الشرعية ، كل اسرائيل خرج كرجل واحد . كانوا اربعين الفا وكل هذه الجمهرة كانت كواحد . تلك هي وحدة شعب حين كل فرد، متخليا عن ارادته ، ينقلها ويضمها الى ارادة الامير» .

من جهة اخرى ، اذ يأخذ من هوبز ما يحتاجه ، بوسويه يترك الباقي ، لاسيما «العقد» مع الفردويّة الفلسفية التي يتضمنها . في وقت لاحق (١٦٩٠) فقط ، في **التحذير الخامس للبروتستانت** ، ردا على القسيس جوريو **Jurieu** ، يعتبر الاسقف الكبير نفسه مضطرا الى دحض ــ وسيفعل ذلك بقوة جدلية رائعة ، مستوحاة تماما من حجج هوبز ــ اطروحة العقد المتبادل بين العاهل والرعايا . اما

في **السياسة** ، فهو يتملص ، يبقى مراوغا مجانبا (ما الفائدة من إرباك تلميذه الملكي في حذاقات غير مفيدة ؟) . لتفسير الانتقال من حالة الطبيعة ــ الطبيعة الساقطة منذ خطيئة آدم ــ الى حالة المجتمع ، ان التفسير النفعي ، المؤسس على مصلحة البشر في ان يعطوا انفسهم سيدا كي يعيشوا في سلام ، يبدو له كافيا . انه يرضي ادراكه السليم الجلد . لنضف اليه ، حسب الكتاب المقدس ، ان الله كان حقا وبشكل مرئي ملكا في بداية العالم ؛ ثم ان «اول فكرة قيادة وسلطة بشرية جاءت الى البشر من السلطة الابوية» ؛ اخيرا انه سرعان ما قام ملوك ، إما بالموافقة (الاجمالية) من الشعوب ، او بحق الاستيلاء المشروع بالحيازة الهادئة . وتكون **السياسة** قد قالت الكفاية عن المسألة الشائكة والخطرة ، مسألة اصل السلطة .

★★★

منذ هيرودوت وافلاطون وارسطو ، المقارنة بين اشكال الحكم كانت المسألة الاكثر كلاسيكية في الادب السياسي . مونارشية ، ارستقراطية ، ديموقراطية ، اي من هذه الاشكال الثلاثة هو الافضل ؟ بوسويه يجيب بهذا التأكيد الجازم ، الذي هو عين عنوان الكتاب الثاني من **السياسة** : «في السلطة : **في ان السلطة الملكية والوراثية هي الاصلح للحكم**» . في مكان لاحق ، في نفس الكتاب الثاني ، يوضح : «**خصوصا حين تسير من ذكر الى ذكر ، ومن بكر الى بكر**» .

اجل ، ما كان مهذب وريث لويس الرابع عشر يستطيع ، في كتاب تعليمي مكتوب من اجل تلميذه ، ان يقف موقفا آخر . ولكن لنكن واثقين ان ما من تأكيد كان يكلف بوسويه أقل ، وانه كان يفصح هنا عن يقينه الشخصي العميق ، اليقين الهادىء المرتاح الذي فيه يشارك عقله وقلبه .

> **المونارشية هي شكل الحكم الاكثر شيوعا ، الاكثر عراقة وايضا الاكثر طبيعية** . انشعب اسرائيل أسلم لها تلقائيا بوصفها الحكومة المثالة كونيا ... . كل العالم يبدأ اذاً بمونارشيات ؛ وكل العالم تقريبا انحفظ فيها كما في الحالة الاكثر طبيعية . لذا فقد راينا ان هذا الشكل الحكومي له اساسه وموديله في حكم الاب ، في الامبراطورية الابوية ، اي في الطبيعة بعينها . **البشر يولدون جميعا رعايا** : وامبراطورية او سلطة الاب التي تعودهم على الطاعة ، تعودهم في الوقت نفسه على ان لا يكون لهم سوى رئيس واحد ... . قط وابدا لا يكون الناس متحدين كما يكونون متحدين تحت رئيس واحد ؛ قط وابدا ايضا لا يكونون اكثر قوة ، لان كل شيء يسير في تساهم .

لا انقسام ، الانقسام الذي هو الداء الاكثر جوهرية للدول ، السبب الاكيد المؤكد لخرابها وهلاكها . بل قوة وديمومة . ان حكومة كهذه انما تدوم وتستمر بنفس الاسباب «التي تديم النوع البشري» . الابن البكر يخلف الاب : هل من شيء طبيعي اكثر ، إذن اكثر دواما ، اذن أفضل ؟ «لا دسائس ، لا جماعات تآمر ومكائد في دولة من اجل صنع ملك ، فالطبيعة صنعت ملكا : الميت — نقول — يدرك الحي ، والملك لا يموت ابدا ... . ان شيئا ضروريا ضرورة الحكومة بين البشر ، يجب ان يعطى المبادىء الاكثر يسرا ، والنظام **الذي يسير بمفرده على النحو الافضل**» . ان تستبعد النساء ، وجنسهن «وُلد ليطيع» وهن يجعلن لانفسهن «سيدا بزواجهن» ، أن يستبعدن من الخلافة على العرش ، هل من شيء طبيعي اكثر ، هل من شيء افضل ؟

ان حكومة كهذه يكون لرؤسائها مصلحة مباشرة في المحافظة على الدولة . «الامير ، الذي يعمل لدولته ، يعمل لاولاده ؛ والحب الذي يكنه لمملكته ، اذ يتحد في الهوية مع حبه لعائلته ، يصبح طبيعيا له» . هذه الحجة الكلاسيكية لصالح المونارشية كانت ، كما نعلم ، موجودة عند هوبز . ولويس الرابع عشر ، في **مذكراته** ، بنفس المفردات تقريبا ، كان يستخدمها هو ايضا . اخيرا ، ان هذه الحكومة ، ذات الديمومة بفضل الوراثة ، تنمي كرامة البيوت الملكية وتعلق الشعوب بها . «الحسد الذي يشعر بهالمرء بصورة طبيعية ضد الذين يراهم فوقه ينقلب هنا الى حب واحترام ؛ حتى الكبار يطيعون بلا اشمئزاز بيتا رأوه على الدوام سيدا» .

ان الكتاب المقدس نفسه ، تبعا للشواهد الماهرة التي ينقلها بوسويه ، هو الذي املى على شعب الله المونارشية المضبوطة على النحو المذكور . والحال في فرنسا تخضع الخلافة المونارشية لنفس الاحكام . «هكذا تستطيع فرنسا ... ان تفاخر بأن عندها تكوين الدولة الافضل بالامكان ، والاكثر مطابقة للدستور الذي اقامه الله ذاته . الامر الذي يبيّن معا بآن ، حكمة اجدادنا وحماية الله الخاصة على هذه المملكة» .

عند قراءة هذا الدفاع الحار عن المونارشية ، يصعد سؤال الى شفاه الكاثوليكي الدقيق الوجدان . في نظر الكنيسة ، السلطة ، أكانت مونارشية او ارستقراطية او ديموقراطية ، ألا تأتي دوما من الله ؟ Omnis potestas a Deo ، **كل سلطة هي من الله** ، على حد تعليم بولس الرسول . هنا ليطمئن الكاثوليكي الموسوس ، ليطمئن على أورثوذكسية بوسويه ! هذا الاخير ، مهما كانت قوة خفقات قلبه لصالح مونارخية لويس الرابع عشر ، يحترس من ان ينسى ، حتى «من اجل استعمال ولي العهد» (٢) ، العقيدة التي لا جدال فيها . يقول ذلك

---

٢ — عبارة لاتينية في الاصل . اعطيت لطبعات الكلاسيك الممتازة التي انشئت خصيصا لابن الملك لويس ١٤ ، وحذفت منها بعض المقاطع «المخالفة للاخلاق» . — وقد ذهبت العبارة مثلا ... .

بصراحة : «علماً بأننا لم ننس انه تظهر في العصر القديم اشكال اخرى للحكم ، عنها لم يملِ الله شيئا على النوع البشري ؛ بحيث انه **يجب على كل شعب ان يتبع ، بوصفها نظاما إلهيا ، الحكومة المقامة في بلده** ، لان الله اله سلام ، ويريد هدوء وراحة الامور البشرية» . كل الحكومات الشرعية ، يأخذها الله تحت حمايته، أيا كان شكل هذه الحكومات . — موقف أورثوذكسي بدقة ، وفي الوقت نفسه محافظ بعزم : احترام النظام القائم ، المفترَض — حتى ظهور دليل العكس — شرعيا !

سعيد بوسويه ، الذي جعلته العناية الالهية يولد رعية مونارشية وراثية ، واجمل مونارشية وراثية ، وافضلها تكوينا تحت السماء ، اكثرها مطابقة لارادة الله ! لا شيء يجبر مؤلف **السياسة** على البقاء بتلميذه طويلا عند تلك الاشكال الحكومية غير المونارخية ، التي يشعر نحوها ، في قرارة نفسه ، بازدراء هادىء ، ويشفق بصدق على رعاياها ، المسلّمين للانقسامات ، لعدم الاستقرار الناجم عن المكائد والثورات . بالمقابل ، كل شيء يفرض عليه ، وهو يكتب في مونارشية «ومن اجل امير تعنيه خلافة مملكة بهذه العظمة» ، ان يجد بعد الان ، في الكتب التي تلي ، «كل التعليمات التي سوف نستخلصها من الكتاب المقدس عن نوع الحكم الذي فيه نعيش ...» .

وبوسويه يكرس الكتب الثالث والرابع والخامس لدراسة طبيعة وخصائص السلطة الملكية ، بتعبير آخر لـ **سماتها المميزة** . اما الكتاب السادس ، الاخير بين الكتب المكرسة لتعليم ولي العهد ، فيكبّ على بسط «واجبات الرعايا نحو الامير، التي اقامها المذهب السابق» .

★★★

ما هي مميزات المونارشية ؟

المونارشية **مقدسة** . الامراء يفعلون بوصفهم وزراء الله ونوابه على الارض . الاعتداء عليهم انتهاك للمقدسات : شخصهم مقدس لان عبثهم مقدس . «لقب مسيح معطى للملوك ونراهم مدعوين مسيحي او ممسوحي الرب» . ممسوحين : نالوا المسحة المقدسة . ولكن ، حتى «بدون التطبيق الخارجي لهذه المسحة ، هم مقدسون بحكم وظيفتهم ، باعتبار انهم ممثلو الجلال الالهي ، انابتهم العناية الربانية لتنفيذ خططها» . انهم يملكون ما يدعوه ترتوليان tertullien (٣) **الجلال الثاني** ، الذي ليس الا سيّلانا من الاول ، جلال الله . لذا ففي إطاعتهم الزام

---

٣ — **ترتوليان** (ق ٢ — ٣) من آباء المسيحية الاوائل ، كاتب قوي ، مدافع عنيف عن المسيحية، ولكن ميّال الى هرطقة مونتان .

وجدان . لا ريب ، من جهتهم يجب عليهم ان يحترموا قدرتهم ذاتها ، التي الله الذي اعطاهم اياها سيطالبهم بحسابها ؛ عليهم ان لا يستخدموها الا للخير العام . ولكن ، حتى حين لا يفعلون ذلك ، يجب ان يُحترم فيهم عبئهم ووزارتهم . يجب اطاعة حتى الامراء «المؤسفين والمجحفين» ، حتى الامراء الوثنيين : كما كان يفعل المسيحيون الاوائل ، الذين رأوا في الاباطرة الرومان «اختيار وحكم الله الذي اعطاهم الآمرية على جميع الشعوب» .

نابوليون ذات يوم سوف يثني على بوسويه ، كما وعلى كورني Corneille ⁽٤⁾ ، سيرى فيهما نموذج مربين سياسيين ، لانهما يدخلان بأشرعة مليئة في النظام القائم لزمنهما» . يبدو ، بالفعل ، ان بوسويه ، في الذي يسبق ، يقوي الطاعة (غير المشروطة) للامير بكل هيبة الحق الالهي المبهرة المعمية . ولكن عندئذ تنطرح من جديد مسألة اورثوذوكسية الاسقف الغاليكاني (الفرنسوي) الكبير . نعم ، السلطة القائمة تأتي دوما من الله ، a deo ، ولكن الكنيسة لم تعلّم قط النقل **المباشر** للسلطة الى شخص ملك ، موضوع **مباشر** للتعيين الالهي . a deo ، من الله ، ولكن بقناة الشعب ، per populum ، **بالشعب** ، هذا ما كان القديس توما الاكويني قد وضّح ، وهذا كان مذهب الكنيسة التقليدي . الحق الالهي الذي ينحي ضرورة وساطة الشعب كان مذهبا مونارخيا وغاليكانيا ، ملكيا وفرنسانيا . ان كان لويس الرابع عشر مشبعا به ، ان علّمه في **مذكراته** لابنه ، هذا طبيعي . اما بوسويه!

لا يمكن تأكيد انه يعلمه لتلميذه . **السياسة** ، بحكم موضوعها ـ غرضها ، البيداغوجي او التربوي ، ليست وما كان يمكن ان تكون عرضا لحذلقات لاهوتية ـ سياسية . ما يمكن تأكيده هو أن المؤلف ، الحازم الى هذا الحد ، الذي لا ينال منه (كما رأينا آنفا) في مسألة اصل السلطة ، اقل حزما وتصفيحا في مسألة انتقالها . انه لا يضع النقاط على الحروف ، يتهرب من الايضاح والتحديد بسطوع الصيغ . «يجب ان نعترف بالامر ـ يكتب باعتدال ج. لاكور ـ غايه G. Lacour Gayet : ان بوسويه ، واقعا بين مذهب الكنيسة التقليدي الذي يعترف بالحق الشعبي ، والمذهب الغاليكاني المهيمن آنذاك عندنا والذي كان يشتق مباشرة من الله ، بدون وساطة ، سلطة الملوك ، ... لم يحسم بوضوح وعزم عبقريته المألوفين مسألة نقل السلطة» .

المونارخية **مطلقة** . بوسويه يفهم الكلمة مثل هوبز . عناوين قضاياه تبين ذلك على نحو كاف . **الامير ليس عليه ان يقدم حسابا لاحد عما يأمر به** : «بدون هذه

---

٤ ـ **كورني** Corneille (ق ١٧) اديب فرنسي كبير ، والد الفن الدرامي ، مؤلف مسرحيات السيد le cid ، سينا Cinna ، هوراس . بداية «العصر الكلاسيكي» في الادب الفرنسي. اكد على الواجب ، البطولة ، الشرف ، الوطنية .

السلطة المطلقة ، لا يستطيع ان يعمل الخير ولا ان يقمع الشر ؛ يجب ان يكـون سلطانه كبيرا بحيث لا يستطيع احد الامل في الافلات منه» . **حين يكون الامير قد حكم ، لا وجود لحكم آخر** : «الامير يمكن ان يصحّح نفسه بنفسه ، حين يعرف انه تصرّف سيئا ، لكن ضد سلطته لا يمكن ان يوجد دواء الا في سلطته» . **ليس ثمة قوة قسرية ضد الامير** :

تدعى قوة قسرية Forne Coactive قدرة من اجل الارغـام وتنفيذ ما هو مأمور به شرعيا . الامير وحده يملك الآمريـة الشرعية ؛ وحده ايضا يملك القوة القسرية ... . في دولة مـن الدول الأمير وحده مسلح ؛ وإلا فان كل شيء في اختلاط ، والدولة تعود وتسقط في فوضى . من يجعل لنفسه اميرا سيدا يضع في يده معا سلطة القضاء السيدة وكل قوى الدولة ... . وضع القوة خارج هذا ، هو قسم الدولة ؛ هو تخريب السلام العام ؛ هو اقامة سيدين ، ضد هذه النبوءة من الانجيل : ان احدا لا يستطيع ان يخدم سيدين .

واذا كان ممكنا القول ، كما يقول بوسويه ، **ان الملوك ليسوا لكونهم ملوكـا معتقين من القوانين** ، فذلك فقط بالمعنى الضيق جدا والافلاطوني الى حد كاف الذي يلي : انهم خاضعون كالآخرين لـ «عدالة» القوانين ، لمحتواها من عدل وحق طبيعي ، لانهم يجب ان يكونوا عادلين وان يعطوا لشعبهم «مثال حفظ العدل» ، — ولكنهم غير خاضعين لـ «عقوبات» القوانين : «او ، كما يتكلم اللاهوت ، انهـم خاضعون للقوانين لا من حيث القوة القسرية بل من حيث القوة التوجيهية» . اذ ان **السلطة الملكية يجب ان تكون غير قابلة لان تقهر** ، حصن الراحة العامة الذي لا يمكن ان يرغمه شيء . «اذا كان ثمة في دولة سلطة ما قادرة على ايقاف سـير السلطان العام وإرباكه في ممارسته ، فان احدا من الناس لا يكون في امان» . هوبز ، هوبز ، دوما هوبز وفكره الصميم !

اي قدرة قدرة امير كهذا ، مستقل عن اية قدرة اخرى كائنة على الارض ! الى اي «تجربة» تعرض من يحوزها ! كم من حظوظ التجاوز والشطط والعسف تخفي كلمة : **مطلقة** ! لا ، كلا ! يقول بوسويه ، رافعا صوته ضد الذين لكـي يجعلوا هذه الكلمة «كريهة لا تطاق» ، يتصنعون خلط حكومة مطلقة وحكومـة عسفية . المطلقية لها وزن مقابل ، الوزن المقابل الوحيد للقدرة» : **مخافة الله** . «الامير يخشاه ويخشاه بقدر ما ليس عليه أن يخشى سواه» .

المونارخية **ابوية** . فرصة ، للمؤدّب الكبير ، لان ينشر على هذه الموضوعـة المؤثرة كل مبتذلات العصر (كل عصر له مبتذلاته ويعتقدها اصيلة) . الملـوك يشغلون مكان الله ، الذي هو اب للنوع البَشري. «جَعل الملوك على موديل الآباء...

اسم ملك اسم اب» . (في **مذكراته** ، كتب لويس الرابع عشر : «لئن كان اسم سيد ملكا لنا بحكم حق ولادتنا ، فان اسم اب يجب ان يكون اعذب غرض لطموحنا») . الاب طيب . الطيبة هي ايضا سمة الملوك الاكثر طبيعية . مثل الاب، الذي يعيش لاولاده ، الملك «لم يولد لنفسه ، بل للجمهور» . الامير السيء ، «الطاغية» ، لا يفكر الا بنفسه ولا يفكر بالقطيع («أرسطو قالها ، ولكن الروح القدس أطلقها بقوة اكبر») . الاب انساني ، عذب ، ولطيف . كذلك الحكومة ، بطبيعتها ، «عذبة ، ناعمة» . حازمة ، ولكن عذبة ناعمة : لا تكونوا ، يقول سفر الجامعة ، «كأسد في بيتكم ، تضطهدون رعاياكم وخدمكم» . اخيرا ، كالآباء ، الملوك «مصنوعون لكي يحَبّوا» . ذاك ما يكون اسمى ابتذال وما يولد التهكم على شفاه تلميذ لماكيافل ، لولا اللهجة الصادقة والحارة الى هذا الحد ، التي بها يترجم بوسويه هنا عن مشاعر حبه ومشاعر فرنسيي ذلك الزمن للملك : «ثمة سحر بالنسبة للشعوب في رؤية الامير ؛ وليس اسهل عليه من ان يجعل نفسه يحَب بشغف» .

المونارخية **خاضعة للعقل** . كتاب كامل من **السياسة** ، هو الخامس ، مكرس لهذه السمة الاخيرة . لنكتف بلم قضاياه الرئيسية . «الحكومة عمل من عقل وذكاء» . معرفة القانون ، الشؤون ، معرفة الفرص والاوقات ، معرفة البشر (بدءاً بالذات) ، القدرة على الكلام والصمت ، الاصغاء ، الاستعلام واختيار الشورى ، هذا ما يطلب من الامير «العاقل» . و ، فضلا عن ذلك ، تعوّد التقرير بذاته :

> انصت اذاً الى اصدقائك ومستشاريك ، ولكن لا تستسلم لهم . نصيحة سفر الجامعة رائعة : انفصل عن اعدائك واحترس من اصدقائك . احترس من ان يكونوا على خطأ . احترس من ان يخدعوك ... ليس متاحا للرجال ان يجدوا الامان الكامل في نصائحهم وفي شؤونهم . بعد اعتبار الاشياء **بشكل عاقل** ، يجب اخذ القسط الافضل وترك الزائد للعناية الإلهية .



ان تصور القرن السابع عشر الفرنسي ، المسيحي والمونارخي ، لم يكن تصور ترتيب وإعداد لحقوق ، بل كان تصور تسلسل لواجبات يصعد رجوعا من الرعايا الى الله ، ماراً بالعاهل السيد . في الكتب الخمسة التي رأينا ، كان بوسويه قد اعطى «فكرة اولى» عن واجبات الامير . يحتفظ لنفسه بحق العودة الى الموضوع و«النزول الى التفاصيل» . ولكن الان ــ نحن في ١٦٧٩ ــ الوقت يلح، تربية ولي العهد تشارف على النهاية . وريث العرش بحاجة الى ان يكون على

بينة من **واجبات الرعايا نحو الامير** . من هنا الكتاب السادس .

هذه الواجبات تنبع بشكل طبيعي من «المذهب السابق» . بما ان العقل الذي يقود الدولة قائم في الامير ، وأن الدولة كلها هي في شخصه ، لذا يجب ان نخدم الدولة كما يريد الامير . خدمة هذا ، خدمة الآخر ، «امران لا ينفصلان» واعداء الشعب وحدهم يمكن ان يزعموا فصلهما . «الامير يرى من ابعد ومن أعلى : يجب ان نعتقد بأنه يرى افضل ؛ ويجب ان نطيع بلا همس او تذمر ، لان الهمس والتذمر استعداد للشغب والثورة» .

استثناء وحيد عن الطاعة التامة الواجبة للامير : **حين يامر ضد الله** . عندئذ، ولكن عندئذ فقط ، ينطبق القول الرسولي : يجب اطاعة الله «فوق اطاعة البشر». القول الذي كان ، كما يتذكر القارىء ، يزعج هوبز التسلطي . ولكن كل مسيحي، من اي طائفة كان ، وأيا كانت تفضيلاته السياسية ، ملزَم بأن يبقى حازما عند هذا الاستثناء . ان بوسويه يبقى حازما . ولكنه يُضعف مدى الاستثناء ، حين يؤكد ايضا ان لا شيء ، «لا ذريعة» ، لا سبب «أيا كان» يمكن ان يشوه الطاعة الواجبة للامير ؛ وأن «الصفة الملكية مقدسة وقدسية حتى في الامراء الكافرين» (كان قد جاهر بذلك آنفا) ؛ وأن «الكفر المعلَن وحتى الاضطهاد» لا يعفيان الرعايا من واجب الطاعة هذا ؛ وأن **«الرعايا ليس لهم ما يعارضون به عنف الامراء ، الا تنبيهات محتشمة ، بدون عصيان ولا تذمر ، وصلوات من اجل اهتدائهم»** .

★★★

هذا كل الجوهري ، تقريبا ، في ما كان للمهذب الملكي ان يعلّم . مع ذلك تبقى كتب اربعة ، ألّفها بوسويه في وقت لاحق في الشروط التي نعلم . فائدتها اقل بكثير . صحيح يكون بدونها كتاب السياسة التعليمي ، يكـــون ، حسب ذوق العصر ، ناقصا : ينقصه عرض مفصّل لـ «واجبات الملك الخاصة» ، لاسيما ازاء الدين الحق ، وازاء العدل ؛ وكذلك دراسة وسائل السلطة ، الوسائل المدعوة، بلغة دينية ، «نواجد» الملكية .

الدين . ـ ليس ثمة سلطة عامة ، بدون دين ، حتى باطل ؛ ان دينا باطلا له على كل حال من الخير والحق انه «يعترف بألوهية ما ، تخضع لها الاشيـــــاء البشرية» . ولكن وحدها الحقيقة ، «أم السلام» ، تمحض دولة من الدول صلابة كاملة . والامير ، وزير الله وحامي الراحة العامة معا في آن واحد ، له واجب ان يستخدم سلطته من اجل تدمير الاديان الباطلة . «ان الذين لا يطيقون ان يستخدم الامير الصرامة في مضمار الدين لان الدين يجب ان يكون حرا ، هم في غلـــط كافـــر ... . **مع ذلك فقط عند الطرف الاقصى ينبغي الوصول الى اجراءات الصرامة ، بشكل خاص الى اجراءات الصرامة الاخيرة»** . (جُمل ذات معنى ثقيل ،

اذا كانت قد كتبت ، كما هو الارجح ، بعد الغاء مرسوم نانت Edit de Nantes (!) (٥) .

العدل . — مؤسَّساً على الدين ، انه عكس العسف . **في ظل إله عادل ، ليس ثمة سلطة محض عسفية** ، ليس ثمة سلطة معتَقة من كل القانون الطبيعي ، «الإلهي او البشري» . وبوسويه يكرر : حكومة **مطلقة** ، اي مستقلة عن كل سلطة بشرية ، «حيث لا قدرة على ارغام العاهل السيد» ، ليس حكومة **عسفية** ، «شكلا ... بربريا وشنيعا» . حكومة مطلقة ، هذه حكومة شرعية ، فيها الاشخاص أحرار تحت السلطة العامة ، فيها ملكية الاموال المحوزة وفق القانون لا تخرق . انما في الحكومة التعسفية ليس ثمة اشخاص احرار ؛ لا يحوز امرؤ «شيئا بملكية ؛ كل الاساس ملك للامير» ؛ الامير له حق التصرف كما يشاء بحياة رعاياه «كما ينفعل مع عبيد» وبأموالهم . ان ما قاصصه الله بكل تلك الصرامة عند آخاب ، ملك اسرائيل ، وعند زوجته جيزابيل ، قاتلَي نابوث لاخذ كَرمته ، هو «ارادتهما الفاسقة في التصرف كما يشاءان ، بصورة مستقلة عن قانون الله ، الذي كان ايضا قانون المملكة ، بأموال ، بشرف ، بحياة فرد من الرعية» .

يرى القارىء ان بوسويه ، على مسألة الملكية الخطيرة ، ينقطع عن اتباع هوبز، وينضم ، بالعكس وعلى مسافة قرن ونيف ، الى بودان العجوز ومونارخيته **الملكية** او **الشرعية** .

مؤلف **السياسة** هل كان حريصا جدا على كتابَيه التاسع والعاشر عن نواجد الملكية : «الاسلحة ، الثروات او المالية ، مجالس الشورى» ؟ **هكذا يبدو . اليوم** نرى في ذلك حشوا كثيرا . الاسلحة بالنسبة لبوسويه مادة لحِكَم اخلاقية وسياسية عن الحرب العادلة والظالمة ، عن صفات القادة والجنود . لنسَجل هذه النصيحة التي تحمل طابع ماكيافل : «أيا كان السلام الذي تنعم به ، محاطا على

---

٥ — **مرسوم نانت** اصدره الملك **هنري الرابع** (١٥٩٨) لصالح السلام الديني . منح البروتستانت حقوقا ومساواة وامتيازات سياسية وعسكرية (مواقع أمن وحاميات بروتستانتية خاصة ، داخل المملكة) . **ريشوليو** تراجع عن هذه السياسة وضيَّق على البروتستانت . **لويس الرابع عشر** مضى الى نظام اضطهاد متزايد : اجراءات عسفية ضد العبادة والطقوس ، هدم المعابد المنشأة بعد مرسوم نانت ، تشجيع العودة الى «الدين القويم» بجوائز مالية ، السماح للاطفال اعتبارا من السابعة بتغيير مذهبهم ومغادرة اسرهم ، بل وإسكان الجنود في منازل البروتستانت ا... . **الملك اوصى فقط** بمراعاة «اصحاب البنوك والمانيفاكتورات» . وفي ١٦٨٥ ، حزم امره **والغى مرسوم نانت** : منع العبادة البروتستانتية ، امر بتدمير الكنائس البروتستانتية ، أمر للقساوسة بمغادرة المملكة ، مع تحريم الهجرة على عامة البروتستانت . ولكنهم هاجروا ، — فاستفادت الدول المضيفة (انكلترة ، هولندة، براندبورغ) من خبرتهم ونشاطهم — ، ثم قامت ثورة فلاحية وشعبية بروتستانتية مديدة في منطقة جبال سيفين ، في جنوبي فرنسا . الغاء مرسوم نانت كان مصيبة كبيرة في تاريخ الامة الفرنسية .

الدوام بجيران حسّاد ، يجب ان لا تنسى ابدا الحرب تماماً ، الحرب التي تأتي فجأة . بينما يتركونك في راحة يكون الوقت لتتقوى في الداخل» (فوبار Vau ban. (٦) ، بلا كلل ، ادى المهمة) . لنسجل ، من الاعتبارات عن الثروات او المالية ، ان **الامير يجب ان يعتدل في الضرائب وان لا يرهق كاهل الشعب** ، مع ، كدعم ، شاهد لذيذ الطعم من سليمان ، الحكيم حقا :

من يعصر الثدي بقوة ليستخرج منه لبنا ، مع إلهابه وتعذيبه ، يستخرج سمنا ؛ من يمخط بقوة زائدة يمخط دما ؛ من يعصر البشر كثيرا يولّد تمردات وثورات .

***

يوجد ، في **السياسة** ، في نهاية الكتاب الخامس ، الكتاب قبل الاخير من الكتب المكرسة لولي العهد والمنجزة في ١٦٧٩ ، فصل هو على الارجح أجمل فصول كل المؤلف ، وعنوانه : ... **في الجلالة وفي مرافقاتها** . خاتمة للكتب السابقة المكرسة لسمات الملكية ، هذا الفصل يترجم بروعة وجلال عن الانطباع الذي كنت تعطيه آنذاك للمعاصرين مونارخية لويس الرابع عشر . نحن ، يجب ان لا ننسى ذلك ، في ذروة عهد الملك المذكور : ١٦٧٩ هي سنة صلح نيميغ paix de Nimègue (٧) .

اعتبروا الامير في غرفة عمله . من هنا تذهب الاوامر التي تسيّر معا القضاة والنقباء ، المواطنين والجنود ، المقاطعات والجيوش بحرا وبرا . انها صورة الله الذي ، وهو جالس في عرشه في اعلى السماوات ، يسيّر الطبيعة بأسرها ... . اخيرا اجمعوا معا الامور العظيمة والجليلة التي قلناها عن السلطة الملكية. **انظروا شعبا جبارا مجتمعا في شخص واحد ؛ انظروا هذه القدرة**

---

٦ ــ **فوبان** Vauban ، «ماريشال فرنسا» من ارومة شعبية فقيرة ، قائد الهندسة العسكرية في زمن لويس الرابع عشر ، طوّر فن التحصين الحربي ... . في آخر حياته نشر **مشروع ضريبة ملكية** ، طالب فيه بمساواة الضريبة ، ففقد الحظوة . هذا المؤلف وثيقة هامة في تاريخ الفكر السياسي .

٧ ــ صلح نيميغ Nimégue في ١٦٧٨ بين فرنسا وهولندة ، وفي ١٦٧٩ بين فرنسا واسبانيا والامبراطورية والسويد . اعطى فرنسا مقاطعتين ونصف في الشمال والشرق ، وجعل لويس الرابع عشر حكَماً على اوروبا .

المقدسة ، الابوية والمطلقة ؛ انظروا العقل الخفي الذي يحكم كل جسم الدولة ، الوجود في راس واحد : انكم ترون صورة الله في الملوك ، ولديكم فكرة الجلال الملكي ».

ولكن ، لهؤلاء الملوك المحمّلين بكل هذه القدرة والمحاطين بهذه الهالة من الجلال ، يسارع اسقف المسيح الى التذكير بحالهم الانساني وبالحساب الساحق الذي يجب عليهم ان يقدموه للعليّ القدير :

لقد قلتها : انتم آلهة ، اي لكم في سلطتكم صفة إلهية ، تحملون على جبينكم طابعا إلهيا ... . لكن ، ايها الآلهة من لحم ودم ، ايها الآلهة من طين وتراب ، ستموتون كالبشر ... . ان العظمة تفصل البشر لوقت قصير ؛ ان سقوطا مشتركا في النهاية يساوي بينهم جميعا . ايها الملوك ! مارسوا اذاً بجسارة قدرتكم ؛ فهي إلهية ونافعة للنوع البشري ؛ ولكن مارسوها بتواضع . انها مطبقة عليكم من الخارج . في الجوهر انها تترككم ضعفاء ؛ تترككم فانين ؛ تترككم خطاة ، **وتحمّلكم أمام الله حسابا اكبر** .

رداءات خطابيه نبيلة ومهيبة ، تليق جدا بالنظام المطلق اللويس الرابع عشري الذي بلغ تفتحه التام ، نقطة كماله !

ولكن نقطة كمال خطرة ! الشعراء قالوا ضعف الذروات . كل ما يأتي الى نضج ، كل ما يتحقق ، لا يلبث ان يعفن . ايام الملوك المطلقين الجميلة باتت معدودة. ما كان قد نال كل هذه الحفاوة ، كل هذا الاعجاب ، وعلى يد عقول من الصنف الاول ، سيثير قبل قليل اعنف مشاعر البغض ، بل وسيكف ، ذات يوم ، عن أن يفهَم . مع سنوات ١٦٨٠ سيبدأ الهجوم المنهجي المصمم من جانب المفكرين ضد النظام المطلق . بادئا على يد انكلترة والبروتستانتية في الخطر ، سيتخذ وجها متعدد الاشكال في فرنسا ، من زمن الوصاية على العرش Regence [٨] الى

---

٨ ـ **زمن الوصاية على العرش** Regence .

خلف لويس الرابع عشر ابن حفيده ، لويس الخامس عشر (١٧١٥ ـ ١٧٧٤) الذي كان في الخامسة من عمره . كان الملك الراحل قد سلّم ، في وصية ، الوصاية لابن شقيقه فيليب أورليان ولكن مع مجلس وصاية . «البرلمان» نقض هذا البند الاخير ... . الوصي كان ذكيا ، ومستهترا فاسقا . زمن الوصاية كان زمن «اخلاق حرة» ، بعكس الفترة السابقة . واشتهر بنظام لو law المالي وفضائحه وانهياره . الكاردينال فلوري Fleury اعاد لفرنسا الازدهار والهدوء ؛ نسبيا (١٧٢٦ ـ ١٧٤٣) . ولكن عهد لويس الخامس عشر تميز بوجه الاجمال بهبوط السلطة الملكية ...

عشية الثورة ذاتها . اربعة أسماء رئيسية ، نعلم ذلك ، توازيها مؤلفات ذات شأن، تعلّم هذا السير التاريخي الممتد على قرن بالكامل : لوك ، مونتسكيو ، روسو ، سييس Sieyès .

الجزء الثاني

الهجوم ضد النظام المطلق

«اكثرية الفرنسيين كانت تفكر مثل بوسويه :
فجاة الفرنسيون يفكرون مثل فولتير ؛ انها ثورة» .

بول هازار Paul Hazard
أزمة الوجدان الاوروبي

الفصل الاول

الـ « محاولة عن الحكومة المدنية » ، لِجون لوك (١٦٩٠)

«قط لم يكن ربما ذهن اكثر حكمة ... من السيد لوك» فولتير

انكلترة التي كانت ، في منتصف القرن السابع عشر ، قد اعطت الادب السياسي الـ **لوياثان** ، العمل العظيم جدا للفردوي السلطوي الذي كانه توماس هوبز ، تعطيه الان في أواخر القرن نفسه الـ **محاولة عن الحكومة المدنية** ، تاليف جون لوك John Locke ، الفردوي الليبرالي . ثمة ، بدءاً باللوياثان ، اعمال سياسية أقوى من الـ **محاولة** ، ولكن ليس هناك ، او من الصعب ان يكون ، اعمال ذات تاثير بهذا العمق والدوام على الفكر السياسي . ان عمل لوك يحمل الى النظام المطلق أولى الضربات الجدية ، ان ليس اشدها غضبا وعنفا ، فاستحقاق هذه الاخيرة يعود الى القسيس الفرنسي جوريو Jurieu في **رسائله الرعوية** التي دحضها بوسويه . هذه الضربات بادئة في زعزعة البناء المطلقي ، فاتحة فيه

شقوقا واسعة سيوسعها هدّامو القرن التالي .

***

لوكِ كان قد وُلد في ١٦٣٢ ، بعد هوبز بـ ٤٤ سنة ، و ، كما يكتب هو نفسه، ما ان كان قد وعى وجوده في العالم حتى وجد نفسه مأخوذا في عاصفة كان لها ان تدوم حتى سنة ١٦٦٠ ، تاريخ اعادة آل ستوارت على العرش (لتستأنف عدا ذلك في وقت لاحق) . والد لوك ، كاتب عدل ، طهراني حار ، انحاز على هـذا الاساس الى البرلمان اثناء الحرب الاهلية ، وقاتل كنقيب في سلاح الفرسان . لوك نما ، تلميذا في معهد وستمنستر ، ثم طالبا في أوكسفورد ، وسط الاختمار الفكري الخارق ، الديني والفلسفي والسياسي بآن ، لجامعات العصر الانكليزية. ممتلئا حماسا في البداية لـ كرومول والطهرانيين ، انتهى الى ان اتعبته ، كما كانت قد اتعبت هوبز ، شجارات الشيَع . بشعور من الفرج ، يحيي عودة شارل الثاني آل ستوارت ، عام ١٦٦٠ . يعتقد آنذاك ان العاصفة قد انتهت اخيرا وانتهت نهائيـا .

رجل دراسة ، قليل الصحة ، ضعيف الصدر ، يشكو من مرض ربو لا يصلح له بتاتا هواء لندن ، من الواضح انه كان مؤهلا لحياة التأمل . كانت الفلسفـة تجذبه ، خصوصا منذ قراءته لـ ديكارت Descartes («لانه كان يجد انه يكتب بكثير من الوضوح») . مع ذلك ، فالطب هو الذي سيصير اخيرا مهنته : كـان الطب يتيح له ان يخدم البشرية مع مواصلة بحوث علمية و ، بشكل أوسع ، فكرية ثقافية . وكان الطب ، بالتواءات طويلة وطريفة ، سيسمح لـ لوك بأن يحقق دعوته الحقيقية ، وهي دعوة مفكر ورجل ادب ، له ان يغدو شهيرا بين المشاهير . اليكم كيف حصل ذلك .

كطبيب ، تعرّف على لورد آشلي Ashley ، الذي لا يلبث أن يصير كونت شافتيسبري ، احد رجال السياسة الاكثر جذبا والاكثر تخييبا في زمن الاعادة . هذا الاخير قدّر الطبيب الفيلسوف وجعله رجل ثقته . هكذا وجد لوك نفسه ، وقد بلغ من العمر الخامسة والثلاثين ، في ١٦٦٧ ، موضوعا في مدرسة الوقائع والرجال ، مُلقى في السياسة المعقدة لطور حاسم من التاريخ الانكليزي . شارل الثاني ، تلميذ هوبز القديم ، انتهى الى الاختلاف ــ بعد عدة سنوات من تفاهم طيب ــ مع البرلمان . الصراع بين الـ توري tories ، المحافظين ، أنصار توسيع الامتياز الملكي ، والـ هويغ Whigs ، الاحرار ، خصوم هذا التوسيع،

اخذ يشتد (١) ؛ شافتسبري قطع الصلة مع شارل الثاني ، بعد ان كان مستشاره الكلي ــ القدرة ، واصبح واحدا من الزعماء الـ هويغ الرئيسيين ، و، لوك في أثره. بين ١٦٧٢ و ١٦٨٠ ، كان الجو الانكليزي ثقيلا بمؤامرات ، حقيقية او مخمّنة ، مؤامرات بروتستانتية منسوبة لـ هويغ ، مؤامرات بابوية منسوبة لليسوعيين ، للبابا وللملك فرنسا . شافتسبري ، في صراعه الحاد مع الملك ، هُزم . اتهـم بالتآمر ، مثَل امام المحكمة ، برّىء ، ولكنه اضطر الى النفي في هولندة ، حيث توفي سنة ١٦٨٣ . في السنة ذاتها ، كان لوك ، على سبيل الفطنة والحذر ، يسلك هو ايضا طريق هولندة ؛ سيمضي في هذا البلد المضياف للمضطهَديـن خمس سنوات ، كانت حاسمة لتكوينه كفيلسوف سياسي وكفيلسوف حسب .

الكالفينية الاوروبية كانت تبدو آنذاك في خطر موت (٢) . الغاء مرسوم نانت، في ١٦٨٥ ، كان يعطي اشارة الاضطهاد القاسي للبروتستانت الفرنسيين ورحيلهم الذي كان سيحمل عواقب كبيرة بالنسبة للمونارخية المطلقة . في ١٦٨٥ ايضا ، مات شارل الثاني ؛ اخوه وخلفه جيمس الثاني كان يجاهر علنا بأنه كاثوليكي ، متحديا اقوى مشاعر غالبية الشعب الانكليزي . لوك ، الموجود في وسـط كالفينية منطوية على نفسها نوعا ما وراء سور هولندة الصغيرة الهش والاخير ، كان يلتهب حقدا على هؤلاء الطغاة ، المستندين الى حق إلهي مزعوم ، والذين كان لويس الرابع عشر في نظره نموذجهم. كان يقطع الى الابد في قلبه مع آل ستوارت، شركاء ملك فرنسا ، المشتبه بأنهم يريدون ، ارضاء له ، ان يقيموا في انكلترة دين روما المبغوض . في هذه الاستعدادات الروحية كان لوك حين قدّم لـ وليم أورانج Guillaume l'orange ، صهر جيمس الثاني ، الـ «هولندي وبروتستانتي بو ُلّم» ، الذي بات يجسد ضد لويس الرابـع عشر والكاثوليكية كل آمـال

---

١ ــ (عن تاريخ انكلترة ، انظر الشرح ٢ في شروح الفصل ٣ من الجـزء الاول : لوياثان هوبز) . ــ توري و هويغ هما التسمية الاصلية القديمة لحزبي المحافظين والاحرار (وبالاصل كل منهما نعت تحقيري ، كلمة ايرلندية او سكوتلندية أطلقها كل فريق على خصمه فتبنّاها هذا الخصم) . في سنة ١٨٣٢ ، يصبح الـ هويغ «حزب الاحرار» اي «الحزب الليبرالي» ، والـ توري «حزب المحافظين». في عصر لوك ، التوري يناصرون سلطة الملِك ، والهويغ يؤيدون سلطة البرلمان .

٢ ــ بروتستانتية فرنسا وجنيف وهولندة وانكلترة وسكوتلاندة كالفينية ، بخلاف بروتستانتية المانيا وسكاندينافيا التي هي لوثرية . الكالفينية في هولندة وفرنسا الخ قامت على اساس الاقتناع الشخصي . اللوثرية في المانيا (وسكاندينافيا) على اساس مبدأ «كما دين الامير كذلك دين الرعية» الذي اقر في صلح أوغسبورغ (١٥٥٥) الذي انهى حرب الامبراطور مع الامراء اللوثريين (وقسّـم المانيا الى دول كاثوليكية ودول بروتستانتية) . هولندة الكالفينية انتفضت على اسبانيا والامبراطور، وبلغت ذروة مجدها في القرن السابع عشر ، وصارت ملجأ لاحرار الفكر . ــ الكنيسة الرسمية هي الكنيسة الانكليزية ، الانجليكانية .

الكالفينية الاوروبية .

في نوفمبر ١٦٨٨ ، وليم ، مدعواً من قبل غالبية الشعب الانكليزي الجبارة ومن قبل الكنيسة الرسمية نفسها ، ينزل مع ستمئة سفينة وخمسة عشر الف جندي على شاطىء انكلترة . من اجل **الحرية** ، من اجل **الدين البروتستانتي** ، من اجل **البرلمان** : تلك هي الكلمات المكتوبة على رايات امير اورانج . لا يصادف اية مقاومة جدية . اللعبة خسرها نهائيا آل ستوارت . ربحها نهائيا البرلمان ، الذي سيضع شروطه للملك الجديد وليم. البروتستانتية والليبرالية الـ هويغتان انتصرتا على الكاثوليكية طراز بوسويه ، على المطلقية اللويس رابع عشرية ، على السيادة المطلقة وغير الموزّعة . كيف نستغرب ان يكتب بوسويه في ديسمبر ١٦٨٨ الى كاهن : «كلي انين وعويل على انكلترة» ؟

حين الاميرة ميري ، بنت جيمس الثاني المخلوع عن العرش وزوجة وليم اورانج ، تغادر هولندة في شباط ١٦٨٩ للالتحاق بزوجها ، ولتتوّج معه في وقت واحد ، السفينة التي تقلّها الى انكلترة تحمل ايضا جون لوك وثروته . نعني ، بثروته ، مخطوطات المؤلّفين الاثنين اللذين سيشهرانه ، الفلسفي الذي عنوانه **محاولة عن الفهم البشري** ، والسياسي الذي عنوانه **محاولة عن الحكومة المدنية** ، وهو موضوع هذا الفصل .

***

العنوان الصحيح للكتاب هو التالي : **كتاب ثان في الحكومة المدنية** ... : **محاولة تتصل بالاصل الحقيقي للحكومة المدنية واتساعها وغايتها** . ـ كتاب **ثان** : ففي كتاب اول ، صدر عدا ذلك في الوقت نفسه ، كان لوك قد اضطلع بمهمة دحض المبادىء الباطلة لمؤلّف صادر عن الكاتب المطلقي ، سر روبرت فيلمر Robert Filmer ، الـ **بطريركا** Patriarcha ، كان يسند حق الملوك الإلهي على حقوق آدم والبطاركة .

في الكتاب الثاني او **محاولة** ، ما قصد لوك ؟ أن يعرض بعد آخرين كثيرين نظريته في الدولة ، باحثا عن أسس الاجتماع السياسي ، («الحكومة المدنية») ، بتحديد ميدانه ، وتحرير قوانين بقائه او انحلاله . هذا حديث جدّي وعلمي ! ولكن ، في عمق اكبر ، ماذا يريد لوك ، ما هو «عطشه» ؟

يُروى أن موريس بارس Maurice Barrès [٣] ، وهو يستقبل ذات يوم كاتبا شابا كان يرغب ان يشرح له افكاره ، قال له : «افكارك ، افهم جيدا ، ولكن

---

٣ ـ موريس بارس Barrès : اديب فرنسي شهير ، قومي ، يميني ، أواخر القرن التاسع عشر . انظر الجزء الرابع ، الفصل عن كتاب شارل موراس .

عطشك ؟» . لنفهم : رغبتك العميقة ، اندفاعتك العاطفية ، التي ليست افكارك سوى ترجمتها الفكرية . عطش هوبز ، كان ، كما نذكر ، السلطة المطلقة ، بلا شقوق ، التي تحذف اي خطر فوضى ـ وان بالمقابل ضحي بالحرية . عطش لوك، الذي يعلله تكوّنه الديني ، تقلبات وجوده ، خيباته بعد الاعادة ، اخيرا إقامته في هولندة ، هو مناهضة ـ المطلقية ، الرغبة العنيفة في السلطة الموقتة ، المحدودة بموافقة الشعب ، بالحق الطبيعي ، بغية استبعاد خطر الاستبداد ، العسف ، ـ وان بالمقابل فتحت ثغرة للفوضى . هذا العطش ضد ـ المطلقية يحمل الارادة الفكرية التي تريد ان تحطم مرة والى الابد مذهب الحق الالهي : اختراع بغيض من آل ستوارت واذنابهم ، تحفة غدارة من صنع لاهوت ما ، كاثوليكي وانجليكاني معا ، تغطي بالرداء الالهي اسوأ تجاوزات السلطة (هكذا اضطهاد البروتستانت) ، ناعتة بجريمة الاعتداء على الجلال الالهي كل ثورة من جانب الرعايا ! ماذا ! يكون على الرعايا ان يتحملوا كل شيء بصبر ، تحت ذريعة ان الملوك يستمدون من الله مباشرة كل سلطتهم ، وأن الله وحده له حق السؤال عن سلوكهم ! كان هذا المذهب ، الحق الالهي ، سمًّا حقيقيا للسياسة ، وكان من الملحّ ايجاد معاكس له ، سم مضاد !

حزب الـ هويغ ، الذي كان قد ناضل نضالا ظافرا ضد امتياز آل ستوارت ، كان بحاجة الى هذا السم المضاد . ثورة ١٦٨٨ كانت ثورة هويغ . بطرد جيمس الثاني ، الستوارت الذي لا يشفى ولكن العاهل الشرعي ، ألم يُعتد على مبدأ مقدس ؟ هذا ما كانت تتساءله بقلق ضمائر انكليزية كثيرة . لوك ـ واضعا في خدمة حزب الـ هويغ فلسفتهِ السياسية ، المكوّنة من جهة اخرى قبل الثورة ـ له هذا الهدف ايضا ، في كتابته الـ **محاولة** ، هدف تهدئة قلق مواطنيه ، روادعهم ووساوسهم .

لوك سيذهب ، كـ هوبز ، من **حالة الطبيعة** و **العقد الاصلي** ؛ ولكنه سيعطي عن ذلك نسخة جديدة ، ستتيح له ان يشيد كقاعدة **تمييز السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية** ، ثم ان يفضي الى **حد أرضي تماما وبشري تماما للسلطة** ، مصادَق ، في مرجع اخير ، **بحق الثورة** للرعايا . قارىء هوبز كان تحت وطأة فكر آمر ؛ قارىء لوك يؤخذ تدريجيا في مسيرة جدل اقناعي ، تلميحي ، بلا بروز، جدل تخدمه لغة منسابة وصافية . يفكر القارىء بسير جدول سهلي مرتاح تضيئه شمس لطيفة ، شاحبة بعض الشيء . ولكن يحدث ان تتلبد السماء وأن ترعد العاصفة في مكان ما : كذلك احيانا ترتفع لهجة لوك ، غضب عميق يجعل جمله ترتجف ، انه هواء المضاد للنظام المطلق يطفو على السطح .

***

تبعا لموضة الزمن الفكرية ، لوك ينطلق اذاً من **حالة الطبيعة** ومن **العقد الاصلي** الذي ولّد المجتمع السياسي ، الحكومة المدنية . كل المعضلة هي بالنسبة له

تأسيس الحرية السياسية على هذه المفاهيم ذاتها التي كان هوبز يستمد منهـــا تبريرا للنظام المطلق . ضربة قوة ، بهلوانية فكرية ، ليست فوق وسائل لـــوك المبتكر الجدلية ؛ لا ريب ، الحيلة ، شيء قليل من خداع ، هذا سيدع نفســـه يلمح عند بعض منعطفات الفكر في نظر القارىء المنتبه ؛ ولكن تدرج المحاكمـــة الذكي والملح نادرا ما يترك للاعتراضات وقتا للتشاقل .

وجود حقوق الفرد الطبيعية في حالة الطبيعة هو الذي سيحمي من تجاوزات السلطة هذا الفرد في حالة المجتمع . كيف ذلك ؟ اولا لان حالة الطبيعة عند لوك، بعكس حالة الطبيعة عند هوبز ، يضبطها العقل . ثانيا، وبعكس هوبز ايضا ، لان الحقوق الطبيعية ، بعيدا عن ان تكون موضع تخل تام بالعقد الاصلي ، بعيدا عن ان تزول بمكننسة السيادة في حالة المجتمع ، انمـــا بالعكس تبقى . وتبقـــى لتؤسس ، بالضبط ، الحرية .

ان حالة الطبيعة هي حالة حرية كاملة ، وايضا حالة مساواة (هوبز كان يراها هكذا) . ولكن ، على الفور ، لوك الناعم يطمئننا : حالة الحرية هذه ليست بتاتا حالة اباحة ، وهي لا تؤدي ولا حالة المساواة تؤدي الى حرب الجميع ضد الجميع التي كان هوبز يرسمها لنا بخطوط فظيعة . اذ ان العقل الطبيعي «يعلم كل البشر، اذا ما ارادوا استشارته ، انه بما انهم جميعا متساوون ومستقلون فانه يجب ان لا يسيء احد الى آخر ، نسبة الى حياته ، الى صحته ، الى حريته ، الى ماله». ولكي لا يشرع شخص في اجتياح حقوق الغير ، فان الطبيعة قد خولت كل انسان حماية وصيانة البريء وقمع الذين يسيئون اليه ؛ انه الحق الطبيعي في المعاقبة . بالطبع ، ليس «مطلقا وعسفيا» (نرى ان الكلمتين عند لوك مترادفتان) . انـــه يستبعد في ممارسته كل غضبات قلب مثار وثأري ؛ يسمح فقط بالعقوبات التي يمليها وينظمها العقل الهادىء والوجدان الصافي ، عقوبات متناسبة مع الخطيئة، لا تتجه الا الى اصلاح الضرر الذي سبّب والى الحيلولة دون وقوع ضرر مماثل في المستقبل . كيف استطاع هوبز ان يخلط حالة الطبيعة وحالة الحرب ؟

في عداد الحقوق التي يملكها البشر في حالة الطبيعة هذه ، كما يرسمها مؤلف لطيف انيس ، يضع لوك باصرار الملكية الخاصة . لا ريب الله اعطى الارض للبشر مشتركة ، ولكن العقل ، الذي اعطاه لهم ايضا ، يريد أن يستخدمـــوا الارض الاستخدام الانفع والانسب ـ الاسهل . هذه السهولة تتطلب تملكا فرديا ما لثمار الارض اولا ، ثم للارض نفسها . هذا التملك يؤسسه شغل الانسان وتحده طاقته الاستهلاكية : «كذا مساحة من الارض يستطيع الانسان ان يفلح ويبذر ويزرع ، ويستطيع ان يستهلك ثمارها لدوامه ، كذا يملك بخاصة». تسويغ طبيعي للملكية، سابق لكل اتفاق اجتماعي . ظهور الذهب والفضة سوف يغير ذلك كله ، بإتاحته التراكم الراسمالي ؛ لكن لسنا في هذا ، نحن في هذه الحالة الطبيعية الشاعرية، حسب لوك ، حيث لا يمكن ، كما يبدو ، ان يكون ثمة شجارات على ملكية الغير ، لان كل واحد يرى تقريبا اي قسط من ارض ضروري له وكاف .

ولكن ، اذا لم تكن حالة الطبيعة جهنم هوبز ، اذا كان يسودها كل هذا اللطف والعطف ، فاننا لا نفهم جيدا لماذا البشر ، المتمتعون بكل هذه المزايا ، قد تجردوا منها اراديا . اجل ، يقول لنا لوك على سبيل الاختصار ، ردا على الاعتراض ، اجل كان البشر بخير ، في حالة الطبيعة ، ولكنهم كانوا مع ذلك يجدون انفسهم معرضين لبعض المصاعب ، التي كانت خصوصا تهدد بالسير في طريق الاستفحال ؛ ولئن فضلوا حالة المجتمع ، فلكي يكونوا بخير اكثر .
كلٌ في حالة الطبيعة هو قاض لقضيته ؛ كل ، مساويا الآخر ، هو نوعا ما ملك ؛ يمكن ان تسول له نفسه عدم مراعاة العدل بدقة ، التحيز لمصلحته ومصلحة اصدقائه ، بدافع المصلحة ، حب الذات ، الضعف ؛ يمكن ان ينساق الى انزال العقاب بدافع الهوى والانتقام : وكلها بعددها تهديدات خطيرة لصون الحرية ، المساواة الطبيعية ، للتمتع الهادىء السلمي بالملكية ! في الحاصل ، ينقص في هذه الحالة الطبيعية الشاعرية للنظرة الاولى : قوانين مقامة ، معروفة ، منالة ومؤيدة بموافقة مشتركة ؛ قضاة معترف بهم ، غير متحيزين ، مخولون انهاء اية خلافات طبقا لهذه القوانين الموضوعة ؛ اخيرا سلطة ارغام قادرة على تأمين تنفيذ الاحكام الصادرة . والحال ، هذا كله موجود في حالة المجتمع ، وهو تحديدا يميز هذه الحالة . ولمن اجل الاستفادة من تحسينات كهذه قد تغير البشر .

> البشر – يكتب بول هازار P. Hazard بطلاقة – كانوا بالطبيعة احرارا ، لكن ، كي يؤكدوا هذه الحرية ، كانوا قضاة واطرافا ، وللدفاع الى من يلجؤون؟ البشر كانوا بالطبيعة متساوين، ولكن ، لإبقاء هذه المساواة ضد الاغتصابات الممكنة ، بمن يستجيرون ؟ لكانوا سقطوا في حالة حرب دائمة لو لم ينقلوا سلطاتهم الى حكومة قادرة على حماية الحرية والمساواة الاصليتين؛ لم يكونوا يشكلون قطيعا بشريا فوضويا ، ولكنهم كانوا سيصيرون كذلك لو لم يحترسوا ويحتاطوا للامر .

ان هذا التغير للحالة – ها نحن في قلب مذهب لوك – لم يمكن حصوله الا بالموافقة . وحدها هذه الموافقة استطاعت تأسيس الجسم السياسي :

> بما ان البشر جميعا هم بالطبيعة احرار ومتساوون ومستقلون، لذا لا يمكن اخراج احد من هذه الحالة وإخضاعه لسلطة الغير السياسية ، بدون قبوله ذاته ، الذي يمكنه من الاتفاق مع بشر آخرين على الانضمام والاتحاد في مجتمع من اجل حفظهم ، ومن اجل أمنهم المتبادل ، من اجل راحة حياتهم ، من اجل تمتعهم الهادىء بما هو ملكهم الخاص ، ومن أجل حمايتهم على نحو افضل من اهانات الذين يريدون الاساءة اليهم وإلحاق الضرر بهم .

لوك يلح ، يكرر نفسه ، حتى لا يمكن اي التباس من هذه النقطة : «لدرجة ان ما ولّد **مجتمعا سياسيا** واقامه ليس شيئا آخر غير قبول عدد ما من رجال **احرار** قادرين على ان يمثّلوا على يد اكبر عدد منهم ؛ وان هذا وهذا وحده يمكن ان يكوُن قد اعطى بداية في العالم **لحكومة شرعية**» .

هذا ، هذا وحده ، وليس ــ كما كان يعلّم انصار الحكم المطلق ــ السلطــــة الابوية ، التي ليست السلطة الملكية على حد زعمهم سوى امتداد لها . ليس هناك اية علاقة بين السلطة الابوية والسلطة السياسية . الطفل يولد حرا ، كما ويولد عاقلا ، ولكنه لا يمارس على الفور عقله ولا حريته ؛ حكومة الاب ليسْ لها تبرير آخر سوى اعداد الطفل ليمارس بشكل مناسب ، حين يحين الحين ، هذا العقل وهذه الحرية ، ووضعه في حالة تمكنه من ان يعطي عن علم قبوله (على الاقل الضمني) للمجتمع السياسي .

هذا ، هذا وحده ، القبول او الموافقة ، وليس الفتح او الاستيلاء (اطروحة مطلقية اخرى) :

> ان كثيرين اخذوا قوة السلاح على انها **قبول الشعب** ، واعتبروا **الاستيلاءات** مصدر واصل الحكومات . لكن الاستيلاءات بعيدة عن ان تكون اصل وأس الدول ، بُعد كون تهديم بيت من البيـــــوت السبب الحقيقي لبناء بيت آخر في نفس المكان . بالحقيقة ، ان تدمير شكل دولة كثيرا ما يمهد الطريق لشكل جديد ؛ ولكن من المؤكد دوما انه ، **بدون موافقة الشعب** ، لا يمكن ابدا تشييد اي شكل حكومي جديد .

من هنا يتبع ان الحكومة **المطلقة** لا يمكن ان تكون **شرعية** ، لا يمكن اعتبارهـــا حكومة مدنية ، لان رضى البشر بالحكومة المطلقة امر لا يمكن فهمه . كيف نتصور ان يريد الناس ان يضعوا انفسهم في وضعية اسوأ مما كانت حالة الطبيعة وأن يمكنهم الاتفاق على ان :

> الجميع ، عدا فرد واحد ، سيكونون خاضعين بالضبط وبشكل صارم دقيق للقوانين ، وان هذا الممتاز الوحيد سيحتفظ دوما بكل حرية حالة الطبيعة ، مزادة ومنمّاة بالسلطة ، وصائرة فاجـرة بحكم اللاقصاص ؟ ذلك يكون بالتأكيد تصور أن البشر على ما يكفي من الجنون ليهتموا اهتماما كبيرا بمعالجة الشرور التي قد تسببها لهم انماس وثعالب ، وليكونوا مرتاحين سعداء ، والاعتقاد ايضا انه سيكون عذبا جدا لهم أن تلتهمهم أسود .

(واضح ان هوبز و **لوياثانه** هما هنا على مقعد السؤال)

هل نتصور ، مع المطلقيين ، أن الحكم المطلق **يطهر دم البشر ويرفع الطبيعة البشرية** ؟ يكفي ، يحتج لوك ـ الذي نلمح على وجهه سخرية مريرة ـ يكفي أن يكون المرء قد قرأ تاريخ هذا القرن او اي قرن آخر ليكون مقتنعا تماما بالعكس !

كم قد زادت اللهجة عنفا بالتدريج ! اية ذبابة تقرص هنا لوك الناعم ، لوك العاقل ؟ الذبابة ستوارت ! انه يفكر بشارل الثاني ، بجيمس الثاني ، شريكي لويس الرابع عشر ، الطاغية المضطهِد ، وها هو يصرخ صرخا قويا بعض الشيء على صدره الضعيف .

★★★

لنعجب الان للابتكار الذي به سيطعّم لوك ، على هذا التفسير لاصل الحكومة المدنية ، **تمييز السلطات** ، التمييز الذي كان الصراع بين الملوك والبرلمان قد حفره في كل الاذهان الانكليزية .

للانسان في حالة الطبيعة نوعان من السلطات ؛ بدخوله في الحالة المدنية ، يتجرد منهما لصالح المجتمع الذي يرثهما . للانسان سلطة ان يفعل كل ما يعتبره مناسبا لبقائه ولبقاء البشر الآخرين ؛ يتجرد منها لكي تكون هذه السلطة مضبوطة ومدارة بقوانين المجتمع ، «التي توثّق في أمور كثيرة الحرية التي له بقوانين الطبيعة» . للانسان ، في المقام الثاني ، سلطة **معاقبة** الجرائم المقترفة ضد القوانين الطبيعية ، اي سلطة استخدام قوته الطبيعية لجعل هذه القوانين تنفذ على النحو الذي يجده صالحا؛ يتجرد منها لمساعدة وتقوية السلطة التنفيذية لمجتمع سياسي .

هكذا فالمجتمع ، وريث الرجال الاحرار في حالة الطبيعة ، يحوز بدوره سلطتين جوهريتين . احداهما **التشريعية** ، التي تضبط كيف يجب ان تستخدم قوى دولة من اجل حفظ المجتمع وأفراده . والاخرى هي **التنفيذية** ، التي تؤمّن تنفيذ القوانين الوضعية في الداخل . ـ بالنسبة للخارج ، معاهدات ، سلم وحرب ، تفعل سلطة ثالثة ، هي من جهة اخرى مرتبطة طبيعيا بالتنفيذية ، ويدعوها لوك **كونفيدراتية** .

السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، في كل المونارخيات المعتدلة وفي كل الحكومات المضبوطة جيدا ، يجب ان تكونا في أيد مختلفة . ثمة لهذا سبب اول عملي تماما ، هو ان السلطة التنفيذية يجب ان تكون دوما مترجلة لتحقيق تنفيذ القوانين ؛ السلطة التشريعية ليست بحاجة الى ان تكون حاضرة دوما ، اذ لا داع للتشريع بشكل مستمر : «ليس من الضروري صنع قوانين على الدوام ، ولكن من الضروري على الدوام تحقيق تنفيذ القوانين التي صنعت» . يضاف الى ذلك سبب ثان ، سيكولوجي تماما : الرغبة في استغلال السلطة قد تستولي على الذين تجتمع السلطتان في أيديهم . الاسلوب الاستنتاجي ، الغزير والواضح ، الذي به يبسط صاحبنا هذه الفكرة ، يؤلف تضاداً كاملا مع الاسلوب الإضماري

الذي سوف يعالج به مونتسكيو نفس الموضوعة ، مستلهما عدا ذلك لوك مباشرة.

هاتان السلطتان المتميزتان ليستا متساويتين فيما بينهما . اذ ان القانون الوضعي الاول والاساسي لجميع الدول ، هو «القانـــون الذي يقيم السلطـــة التشريعية » التي ، تماما كالقوانين الاساسية للطبيعة ، يجب ان تنزع الى حفظ المجتمع . التشريعية هي اذاً **السلطة الاسمى** ، انها **مقدسة** ، «لا يمكن ان تسلب من الذين كانت قد سلّمت اليهم مرة» . انها **نفس** الجسم السياسي ، الذي منه كل الافراد ـ اعضاء الدولة يستمدون كل ما هو ضروري لهم ، من اجل حفظهم، وحدتهم ، سعادتهم . سمو حتمي للسلطة التي تصنع القانون ، والتي اليها ، بقوة الاشياء ، تعود الكلمة الاخيرة ! بودان كان قد رأى ذلك جيدا حين كان ، وهو يقوم بتعداد «علائم السيادة» ، يبدأ بسلطة اعطاء وكسر القانون ، العلامـة الاولى والاهم ، التي فيها كل العلائم الاخرى كانت ، في الاخير ، مشمولة .

السلطة التنفيذية اذاً تابعة ؛ ولكن لنحترس من ان نرى فيها محض مستخدم تحت أوامر السلطة التشريعية ، التي تحصره في عمل تابع تافه قوامه تنفيــذ خالص وبسيط . ان خير المجتمع يطلب ان تترك كمية من الامور **تحت تصرف** الذي له السلطة التنفيذية ، اذ ان المشرّع لا يستطيع توقع كل شيء ولا تدبـر كل شيء ، بل وهناك حالات يكون فيها تطبيق للقوانين ضيق وصارم قادرا على تسبيب «ضرر لا بأس به» .

تحت تصرف ، **تحت فطنة** ، à la discretion ... ما هذا ، ان ليس هو **الامتياز الملكي** ، الذي حول اتساعه قامت نزاعات دامية بين الـ توري والـ هويغ ، منذ اعادة الملكية ؟ خطرا في أيدي آل ستوارت ، هذا التصرف ينقطع عن ان يكونه في يدي وليم أورانج ، الذي لا يستطيع لوك ، صديقه الشخصـــي ، أن يرفضه له بلياقة . لنعلم ، بالفعل ، لنتعرف في هذه النظرية للسلطات المنفصلة، اذا استبعدنا حجاب التجريد (حالة الطبيعة ، العقد الاجتماعي) ، الذي تغلــف نفسها به ، على الترجمة المثلّنة للدستور الانكليزي ، المرئي من قبل رجل هويغ . السلطة التشريعية العليا ، المقدسة ، هي البرلمان الانكليزي ، الذي كان الملـوك الستوارت ، المعاودون الجرم ، قد ارادوا مرارا ان يسلبوه السلطة التي سلمه اياها الشعب .

***

ولكن هل يذهب لوك اذاً ليكوّن من جديد لصالح البرلمان ، التشريعي الاعلى، المقدس ، هذه القدرة السيدة ، التي ليس لها حدود بشرية ، والتي تكبحها مخافة الله فقط ، التي كان انصار الحكم المطلق يحمّلونها للملك ، المقدس هو ايضا ؟ يكون الحكم المطلق في هذه الحال قد انتقل من ايد الى ايد وحسب ، والحق الالهي من مودَع الى مودع ، والتاج من راس الى رأس .

ليس الامر هكذا ، اذ ها هنا يتخذ كل مداه الفرق الذي اعلنّا عنه بين نظرية

هوبز ونظرية لوك : الا وهو ان حقوق البشر الطبيعية ، حسب لوك ، لا تختفي إثر القبول بالمجتمع ، ولكنها بالعكس تبقى . وتبقى للحد من السلطة الاجتماعية وتأسيس الحرية .

لوك لن يكرر ذلك كفاية مهما كرر : لئن خرج البشر من حالة الطبيعة ، التي كانت بعيدة عن ان تكون جحيما ، ولكن التي كانت تقدم المصاعب او العوائق التي نعلم ، فلكي يكونوا **بخير اكثر** ؛ لكي يزيدوا ثقتهم بمحافظة **افضل** على اشخاصهم وحريتهم وملكيتهم ، التي كانت مضمونة بشكل سيء في حالة الطبيعة . اذاً فسلطة المجتمع ، التي يجسدها بالدرجة الاولى المشرِّع ، لا يمكن ابدا الافتراض بأن **لها ان تمتد ابعد مما يطلبه الخير العام** . لا يمكن ان تكون «مطلقا عسفية» على حياة وخيرات الشعب . ثم من يكون استطاع ان ينقل الى التشريعي ، الذي ليس سوى وريث السلطة الاصلية لكل عضو من المجتمع ، سلطة عسفية فيما يتصل بالحياة وبالملكية ؟ من جهة اخرى ، ان احدا في حالة الطبيعة لا يحوز سلطة كهذه على ذاته ولا على آخر (هذا تأكيد مجاني ، مصادرة مستحيلة البرهان ، مرتبطة بالفكرة الحبية تماما التي لدى لوك عن حالة الطبيعة وقوانين الطبيعة) . من جهة اخرى ، ان احدا لا يستطيع ان يمنح أيا كان سلطة اكثر مما هو نفسه يملك ؛ التشريعي لا يمكن اذاً أن يحوز سلطة لا يحوزها اي من الذين شكلوا المجتمع . بما ان غايته الوحيدة هي الصون ، لذا «لا يمكن ابدا ان يكون له حق التدمير او الاستعباد او الإفقار المتعمد لاي رعية ؛ **ان إلزامات قوانين الطبيعة لا تنقطع في المجتمع ، بل انها تصير اقوى في حالات كثيرة**» .

المحاكمة نفسها تصح ، بالاحرى ، على التنفيذي **وامتيازه** ، اي هامش السلطة التصرفية الذي يجب ان يترك له . رغم ان التشريعي يُعلَن اعلى ومقدسا، فليس بينه وبين التنفيذي اي فرق اساسي من وجهة النظر هذه. الشعب ــ لنفهم بذلك المجموع ، تراصف الافراد الذين قبلوا الاتحاد في مجتمع ــ يأتمن التشريعي كما والتنفيذي على تحقيق الخير العام ، لا اقل ، لا اكثر . السلطة وديعة (trust, trusteeship) مسلَّمة للحكام ، لصالح الشعب . اذاً الحكام ، أيا كانوا ، برلمانا او ملكا ، فعلوا على نحو مضاد للغاية ــ الخير العام ــ التي من اجلها كانوا قد نالوا السلطة ، الشعب يسحب ثقته ، يسحب الوديعة ؛ يسترجع سيادته الاصلية ليسلمها لمن سيحكم عليه بأنه مناسب . جوهريا ، رغم ان لوك يتجنب هنا إنضاج بناء صارم دقيق ، الشعب يحتفظ دوما بسيادة بالقوة اي بالامكان ، في الاحتياط ؛ انه هو وليس التشريعي يملك السلطة السيدة الحقيقية. ثمة من جهته إيداع وليس عقد **خضوع** . ولكن ، طالما الامور تبقى طبيعية سوية، بتعبير آخر طالما شروط الوديعة ــ الامانة او الـ trust (ثقة) محترَمة ، الشعب يترك للتشريعي ممارسة سلطته السيدة .

من سيحكم ، بين التشريعي والتنفيذي ، ما اذا هذا الاخير احسن او اساء استخدام الامتياز ؟ من سيحكم ، بين التشريعي والشعب ، ما اذا الاول قرر جعل الثاني عبدا ؟ من سيجزي امانة مودَعي السلطة المسلَّمة لهم من اجل

الخير العام ؟ الشعب ، بصفته المودع ، بصفته واضع الثقة ، «يجب ان يحكم على ذلك ».

★★★

هكذا يتبرر أن ضد القوة ـ قوة التشريعي كما والتنفيذي ـ التي صارت «بلا سلطة» ، «بلا ولاية» ، «sans autorité» ، ان الشعب يستطيع استخدام القوة . لقد وصلنا الى نهاية كل نظرية لوك ، الى تتويج بنائه الجدلي : تبرير **حق الانتفاضة** ، الذي يصفه مؤلف **المحاولة** ، بلغته المحتشمة ، **حق الاستنجاد بالسماء** : «الشعب ، بحكم قانون يسبق كل القوانين الوضعية للبشر وهو قانون غالب مهيمن ... ، قد احتفظ لنفسه بحق هو عموما ملك لجميع البشر حين لا يكون ثمة استئناف على الارض ، الا وهو : حق فحص ما اذا كان ثمة موجب لمناداة السماء» . ان اسلام بوسويه الهادىء : «**ضد سلطة صاحب السيادة ، لا يمكن ان يكون ثمة علاج الا في سلطته**» ، ليس واقع لوك . واذا ما اعترض احد بقوله ان الاعتراف بمثل هذا الحق هو تشجيع على اضطرابات دائمة وتسليم لخطر الفوضى ، هذا هو الجواب :

اولا ، ان عطالة الشعب الطبيعية لا تحمله على الثورة الا في الحد الاخير .
ثم ، حين يتخطى عبء النظام المطلق امكان التحمل ، لا يبقى ثمة نظرية للطاعة ، مهما بلغت من المكر والخداع لاهوتيا ، تثبت :

> ليرفعوا الملوك بقدر ما يشاؤون ؛ ليعطوهم كل الالقاب الرائعة والفخمة ، التي جرت العادة على اعطائهم اياها ؛ ليقولوا الف شيء جميل عن اشخاصهم المقدسة ؛ ليتكلموا عنهم كما عن رجال إلهيين ، نزلوا من السماء وتابعين لله وحده : **ان شعبا بوجه عام معذبا** ضد كل حق لا يمكن ان يدع تمر فرصة فيها يستطيع ان يتخلص من شقائه وان يهز النير الثقيل الذي فرض عليه بكل هذا الاجحاف.

اخيرا وخصوصا ، النظام ، النظام الخارجي ليس كل شيء ؛ لا يمكن دفع اي ثمن كان عنه ، ولا تحت ذريعة السلام التسليم لسلام المقابر . هنا ، **هوى لوك** ؛ اقتناعه الحار بحق الثوريين الانكليز الجيد ؛ عطشه الى طمأنة الضمائر الدينية لمواطنيه الذين تعذبهم خشية ان يكونوا ، بطردهم جيمس الثاني ، قد اهانوا السماء ـ كل هذا يملي عليه الصفحة الاكثر بلاغة في كتابه :

> لو كان الاشخاص العاقلون والفاضلون يرخون ويمنحون كل الاشياء بهدوء حبا بالسلام للذين يريدون تعنيفهم ، واحسرتاه ! اي

نوع من سلام كان سيكون في العالم ! اي نوع من سلام كان يكون هذا السلام الذي قوامه فقط في العنف والسطو والذي لا يكون إبقاؤه مناسبا الا لفائدة اللصوص والذين يطيب لهم ان يضطهدوا ! هذا السلام ، الذي كان يكون بين الكبار والصغار ، بين الاقوياء والضعفاء ، لشبيه بالسلام الذي قد ينزعم انه موجود بين ذئاب وحملان ، عندما يدع الحملان انفسهم ويمزقون سلميا من قبل الذئاب . او ، اذا شئتم ، لنعتبر مغارة بوليفيم Polyphème نموذجا كاملا لسلام مماثل . هذه الحكومة ، التي كان أوليس Ulysse ورفاقه يجدون انفسهم خاضعين لها ، كانت الطف حكومة في العالم ؛ لم يكن لهم من شيء يعملونه سوى ان يتحملوا بهدوء وسكينة التهامهم . ومن يشك في ان أوليس ، الذي كان شخصا حذرا الى هذا الحد ، دعا حينئذ الى **الطاعة السلبية** ، ونادى بخضوع تام ، ممثلا لرفاقه كم السلم هام وضروري للبشر ، وجاعلا اياهم يرون المصاعب التي يمكن ان تحدث فيما اذا قرروا **مقاومة** بوليفيم Polyphème الذي كان يحوزهم في سلطته ؟

لنحفظ هذا الهجوم ، وهذا الدفاع الصالح ابدا في نظر الروح . هجوم ضد الطاعة السلبية ، المطمئنة للقادرين الاقوياء . دفاع من اجل هذا الذي ، في ايامنا ، تحت الاحتلال الهتلري ، حمل ببساطة اسم **مقاومة** ، Resistance .

***

تلك هي مادة **المحاولة عن الحكومة المدنية** : مختصر تلقيني Catéchisme – بروتستانتي – لمناهضة الحكم المطلق ، فيه الحق الطبيعي يتزاوج بمهارة مع الدستور الانكليزي . في هذا النبع الصافي والغزير من الفلسفة السياسية ، كان للكتّاب الانكليز والاميركيين والفرنسيين ان يغترفوا طوال القرن الثامن عشر . كانت **المحاولة** قد وضعت ، مرة والى النهاية ، اسس الديمقراطية الليبرالية ، ذات الجوهر الفردوي ، والتي ستكون اعلانات حقوق – حقوق طبيعية ، غير قابلة للخلع ولا للابطال – المستعمرات الاميركية الثائرة ، ثم فرنسا الثورية ، ميثاقها الكبير .

كتاب **محاولة عن الفهم البشري** ، للمؤلف نفسه ، الصادر ايضا في ١٦٩٠ ، العمل الفلسفي المحض ، الذي كان يعلن الحرب على الميتافيزيقا و«رواياتـ»ها ، كان له من جهته أن يسم «تغيرا حاسما ، توجها جديدا» (بول هازار P. Hazard) في دراسة الذهن البشري . القرن الثامن عشر الفرنسي سيتلقى طابعه الذي لا يمحى ، سيغترف منه في شطر كبير حبه **للصحيفة البيضاء** table rase

كرهه للاحكام المسبقة وحجج السلطة (٤) . بينما في كتابه **رسائل عن التسامح** ، لوك ، المسيحي الحار ، ولكن المسيحي الواسع ، كان يبشر في جملة مقتضبة بعلمنة الدولة الحديثة : «كل سلطة الحكم المدني لا صلة لها الا بالمصالح المدنية ، تقتصر على أمور هذا العالم ، ولا شأن لها مع العالم الآتي» .

في سنة ١٧٠٤ ، عن عمر ٧٢ عاما ، كان يموت ، هادئا ومتواضعا ، لوك ، هذا الرجل النحيل ، الذي كان ذهنه الواضح والحاذق الى هذه الدرجة ، الاكثر وضوحا وحذاقة منه عمقا وقوة ، قد استطاع ان يجلب لعالم تعب من حق إلهي ولاهوت ومنظومات ميتافيزيقية ـ بالضبط الغذاء الفكري الذي كان هذا العالم بحاجة اليه .

---

٤ ـ **لوك** .فيلسوف التجربية المادية ، صاحب نظرية الصفحة البيضاء **tabula rasa** **table rase** (ضد مذهب «الفِكَر الفطرية» لديكارت) . نفهم من الان ان هذا الموقف الفلسفي كان له مضامين وابعاد سياسية ستتجلى في عمل الثورة الفرنسية : ازالة اولا ، صفحة بيضاء ، ازالة كل هذا لانه باطل . علما بأن موقف ديكارت العقلاني («انا أفكر») يحمل معه مثل هذه الازالة .

الفصل الثاني

«روح القوانين» ، لـ مونتسكيو (١٧٤٨)

«حين نصنع تمثالا ، يجب ان لا نبقى جالسين في مكان واحد ؛ يجب ان نراه من كل الجهات ، من بعيد ، من قريب ، من فوق ، من تحت ، في كل الاتجاهات» .

مونتسكيو ، الدفاتر

في شهر نوفمبر ١٧٤٨ ، يصدر في جنيف ، حيث طبع ، مؤلف في مجلدين قطع ١/٤ الطلحية ، بدون اسم مؤلف ، عنوانه **روح القوانين** . هذا المؤلف ، كل واحد كان يسميه : مونتسكيو Montesquieu ، الذي كانت **رسائله الفارسية** (١٧٢١) ، وهي خطيئة شباب ، قد نالت ، في عهد الوصاية على العرش، كل ذلك النجاح . ولكن ماذا كان يعني هذا العنوان المهيب ، الخفي بعض الشيء، والمهيب بهذا القدر اكثر ؟

قصد مونتسكيو الكبير

«عند تخرّجي من المعهد ـ يقول مونتسكيو ـ وضعوا في يديَّ كتب حقوق؛ بحثت عن روحها» .

روح esprit : قاموس ليتره littré سيعرّف الكلمة كما يلي : **مبادىء ، بواعث ، دوافع ، نوازع ، بموجبها يتوجه المرء** . لنطبّق رجوعا هذا التعريف على عنوان مؤلّف مونتسكيو الشهير . لماذا في بلد ما معطى ، في لحظة معطاة ، على موضوع معطى ، هذا القانون وليس ذاك ؟ لماذا ، مع تساوي جميع الاشياء عدا ذلك ، هذا القانون فعال وذاك بالعكس ؟ اسئلة مثيرة بالنسبة للمؤرخ والمراقب السياسي اكثر ايضا منها بالنسبة لرجل القانون . ولكن ليس لها جواب الا اذا وافقنا على ان **ثمة** بالتحديد «روحا للقوانين» ؛ على انّ المشرّع يطيع مبادىء ، بواعث ، نوازع موجّهة يفصح العقل عنها ؛ على أن الذكاء او الفهم ، باختصار ، قادر على فك الخليط الظاهري للتشريعات التي ، في الزمان والمكان ، حكمت او تحكم المجتمعات .

غاسكوني عبقري ، هو ميشيل دو مونتيني Montaigne (١) ، كان قد تذوق لذة خبيثة في تسييره امام القارىء ، في فصل من كتابه **المحاولات** عنوانه «في العرف» ، موكب الإملاءات البشرية ، القوانين والتجاوزات ، المؤسسات والاخلاق العامة ، العجيب . يا لها من مخلوطة ! يا لها من قصة بلا ذنَب ولا رأس (نقلا تأويليا عن شيكسبير) يقصها معتوه ! مملكة للعسف والنزوة والخيال! وهذا الغاسكوني **الآخر** ، ذو العبقرية المساوية لكنها من نوع آخر تماما ، مونتسكيو ، يأتيه ، بعد اكثر من قرن ونصف ، بالرد : «**لقد بدأت بفحص البشر** ـ يكتب في مقدمته ـ ، **واعتقدت انهم في هذا التنوع اللامحدود من قوانين وعادات ليسوا مسيّرين فقط بخيالاتهم**» . لا اكثر مما هم ، في التاريخ ، محض ألعوبات تعاقب نزوي من حوادث خاصة . مؤرخ عظمة وانحطاط روما في كتابه **اعتبارات عن ...** (٢) (١٧٣٤) ، مونتسكيو يرفض للحظ ، العزيز الى ذلك الحد على ماكيافل ، امتياز الهيمنة على العالم . يعتقد انه يلاحظ ان الرومان قد كانوا على الدوام سعداء حين حكموا انفسهم على مخطط ما ، وعلى الدوام تعساء حين اتبعوا مخططا آخر ؛ يكتب بقوة لاذعة :

> هناك اسباب عامة ، إما معنوية واما مادية ، تفعل في كل مونارخية ، ترفعها ، تبقيها ، او تدحرجها ؛ كل الحوادث خاضعة

---

١ ـ غاسكونيا : اقليم في جنوب ـ غرب فرنسا ، جهة البيرينه والمحيط الاطلسي . و«الغاسكون» gascon = ماهر ، «شاطر» ، ومتفاخر ...

٢ ـ العنوان الكامل للكتاب المذكور : «اعتبارات (ملاحظات) عن عظمة وانحطاط الرومان» .

لهذه الأسباب ؛ واذا عرض معركة ، اي سبب خاص ، قد اهلك دولة ، فهناك سبب عام يجعل أن هذه الدولة كان يجب ان تفني بمعركة واحدة ؛ بكلمة ، ان هيئة السير الرئيسية تجر معها كـــل الحوادث الخصوصية .

هيئة سير رئيسية ، اسباب عامة ، إما معنوية او مادية ... ، ان ما يفسر عقليا التاريخ ، ما يفسره بشريا ، دونما حاجة الى الاستنجـــاد ، كالمسيحيين ، ك بوسويه مثلا ، بالعناية الإلهية ، يجب ايضا ان يكون بامكانه ان يفسر عقليـــا وبشريا ، القوانين ، العادات ، «هذا التنوع اللامحدود من قوانين وعادات» . حيث الظاهر الاول لا يدع يرى سوى تراصف مجاني تماما من مؤسسات ، الفحص العقلي يكشف ترابطات منطقية ونوعا من تناسقات مدبَّرة . هكذا ــ سيقول تين taine (٣) ــ عن ساعة جدارية ، حيث على النابض الرئيسي ، على الآلية المركزية الكبرى ، تتوقف «جمهرة من آليات ثانوية» .

كل القضية ، بالنسبة للملاحظ ، هو ان يعلم كيف يبحث عن هذا النابـــض الرئيسي . في العلوم الدقيقة : فيزياء ، كيمياء ، تاريخ طبيعي ، النجاح يتوقف على طريقة تجريبية experimentale جيدة . والحال ان هذه العلوم الدقيقة رائجة تماما في القرن الثامن عشر ؛ رجال الدنيا يفاخرون بأنهم يعملون في مخبر ؛ الكتّاب ، وهم ايضا من رجال الدنيا ، كذلك . فمن الذي يقطـــع رأس اربعين بزاقة وحلزونة للتحقق من حكم احد علماء الطبيعيات ؟ انه فولتير . من الذي يشرّح ضفادع ؟ انه مونتسكيو ، تحديدا . هذا على اي حال بالنسبة له اكثر من «مغازلة» مع الموضة ؛ هذه التلمسات العلمية تعبر ، كما بيَّن دوديو Dedieu عن نزوع عميق لذهنه .

لكن تشريح التشريع الكوني اصعب ؛ تلزمه قراءات جبارة ، المعارف المباشرة التي تعطيها الرحلات ، حدس الازمنة الغابرة : «حين أرجعت الى العصر القديم، سعيت الى اخذ روحه حتى لا أنظر على انها مماثلة لحالات مختلفة بالواقع وحتى لا أخطىء فروق الحالات التي تظهر متماثلة». يلزمه حب التفاصيل وحس المجموع: «هنا ، حقائق كثيرة لن تحَسّ فعلا الا بعد ان تكون رُئيَت السلسلة التي تربطها بحقائق أخرى» . شيئا فشيئا ، من ملاحظة الى ملاحظة ، من مجابهة الى مجابهة، ان الذهن ، الخاضع بادىء بدء للوقائع ، للاشياء المدرَكة في طبيعتها الحميمة ، يتوصل الى الارتفاع فوقها ليشاهد اخيرا **النابض الرئيسي، الآلية المركزية الكبرى.**

---

٣ ــ تين Taine (١٨٢٨ ــ ١٨٩٣) ، فيلسوف ومؤرخ وناقد فرنسي . بثالوث «العرق والبيئة والزمن» اراد تفسير الاعمال الادبية والفنية والحوادث التاريخية . صاحب «**اصول فرنسا المعاصرة**» ومؤلفات أخرى عديدة .

لن يكون عليه بعد ذلك سوى النزول ثانية الى الوقائع ، الى الاشياء ، وقد باتت مضاءة بكاشف قوي يظهر الارتباطات التي كانت في البداية غير مرئية ، التآلف غير المشتبه به ، كل انتظام الآليات الثانوية حول الآلية الرئيسية . هكذا سيكون الخليط مفكوكا . سيكونه تجريبيا ــ اختباريا ، علميا ، وليس البتة برؤية من الذهن قبلية وعسفية بالتمام .

يا لها من حركة جميلة للغرور الفكـــــري : «**لقد وضعت المبادىء ورأيت الحالات الخاصة تنحني لها كما بذاتها ، تواريخ جميع الامم توابعها فقط ، وكل قانون خاص مرتبطا بقانون آخر او تابعا لآخر أعم**». ما هي هذه المبادىء ؟ هي ذي: كل قانون له عقله ــ علّته ، لان كل قانون **نسبي** الى عنصر من الواقع الفيزيائي او المعنوي او الاجتماعي ؛ كل قانون يفترض **علاقة** . تسلسل علاقات ، تنظيم علاقات، منظومة علاقات (وضعية) ، هوذا **روح القوانين** . لنترك الكلام لمونتسكيو : سيقول لنا ان هذا الروح قوامه في «العلاقات المختلفة التي يمكن ان تكون للقوانين مع اشياء مختلفة» . مع اشياء «بلا عدد» ، علاقات «بلا عدد» .

التحقيق

يا للمشروع الواسع ! يا للقصد الكبير ! كم من العظمة ، من الجلال ، في هذا التصور ! ولكن ، من اجل تحقيقه ، من اجل المضي الى التنفيذ ، يا له من عمل يفوق طاقة الانسان ! ما يمتص ويستنفد حيـــــاة انسان بموهبة مونتسكيو . حياة ... بلا مبالغة : «بامكاني القول ــ يكتب مونتسكيو عن مؤلّفه الكبير ــ انني عملت عليه طوال حياتي» . حسابيا ، عشرون سنة فقط . ولكن كل تأملاته ، كل دراساته ، قبل الشروع في عمل الكتاب بخاصة القول ، كانت تعدّه لهذا العمل، توجه هذا العمل . «هذا الكتاب الكبير ليس كتابا بقدر ما هو وجود ــ يثبّت فاغه Faguet (٤) ــ ... ثمة هنا ليس فقط عشرون سنة من العمل ، بل بالحقيقة حياة فكرية كاملة ، مع تصوراتها الكبيرة ، فضولاتها الصغيرة ، قراءاتها ، علمها ، تخيلاتها ، فرحاتها ، مداعباتها ، تنوعها ، تناقضاتها» . الطـور الاشد قسوة ، باعتراف المؤلف ، كان الطور الذي سبق اكتشاف المبادىء الشهيرة .

مرارا بدأت ومرارا تركت هذا العمل ؛ الف مرة ارسلت الـى الرياح الاوراق التي كنت قد كتبت ؛ كنت أشعر في كل الايـــــام بالايدي الأبوية تسقط ، كنت أتبع موضوعي بدون ان اشكـــل قصدا ؛ لم اكن اعرف القواعد ولا الاستثناءات ؛ لم اكن اجـــــد

---

٤ ــ فاغه Faguet (١٨٤٧ ــ ١٩١٠) : ناقد فرنسي .

الحقيقة الا لاضيعها ؛ ولكن ، حين اكتشفتُ مبادئي ، جاء اليّ كل ما كنت ابحث عنه .

كل ما كنت ابحث عنه ... . لنتعرف هنا على التفاؤل الرجوعي للعامل ، الذي ، وقد انهى عمله ، يقدم له بحنان . بالحقيقة ، لقد عرف مونتسكيو حقبة سرور رائعة ، وهو يبسط نظريته عن الحكومات : «العلاقات التي للقوانين مع الطبيعة ، ومبدأ كل حكومة» . بعد ان اقام مبدأ الجمهورية ، مبدأ المونارخية ، مبدأ الاستبدادية ، كان يرى القوانين تسيل من كل من هذه المبادىء «كما من نبعها» . كان عنده ، كما عند قارىء اليوم ، الشعور بالتلاحم الفكري القوي لـ **نظرية الحكومات** هذه التي تغذي كتبه الثمانية الاولى .

ولكن المؤلف بالكامل يعدّ واحدا وثلاثين كتابا . مع سير تقدم البسط ، سيتراخى تلاحم البداية تدريجيا ؛ المؤلف يغني على الدوام تحقيقه ، وها هو مربَك بغناه ذاته . الكتب ٩ الى ١٣ تواجه القوانين تحت العلاقات التي لها مع دفاع الدولة (حماية المواطنين في الخارج) ، مع الحرية والأمن (حماية المواطنين في الداخل) ، مع وسائل الحكومة (الضرائب والواردات العامة) . من هذه الكتب الخمسة تطفو **نظرية الحرية السياسية ، المكفولة بتوزيع ما للسلطات** . اذ ان المؤلف ، مسافرا من ١٧٢٨ الى ١٧٣١ في اوروبا ، لئن يبدو قد خيَّبته جمهوريات زمنه ، فقد فُتن ، على العكس ، حتى الحماس ، بالمؤسسات الانكليزية ، التي كانت تجده ، عبر كتبه الثمانية الاولى ، أقرب الى الإحجام . عندئذ تأتي نظرية الحرية السياسية على النمط الانكليزي لترتمي ، مثل رافد سَيلي ، في النظرية العامة للحكومات ، ولتغيِّر مجراها .

ها أن مونتسكيو مع الكتب ١٤ الى ١٨ يبدو تحت تسلط **الاسباب الفيزيائية:** «القوانين يجب ان تكون نسبية الى فيزيقي البلد ، الى **المناخ** الجليدي او المحرق او المعتدل ، الى جودة الارض ، الى موقعها ، الى حجمها» . ولكنه يتدارك ، في الكتاب ١٩ ، باستدعائه مفهوما آمَن من مفهوم المناخات ، الفاتن والخطِر ؛ مفهوم **الروح العام** لكل أمة ، الذي تسهم في تشكيله الحكومة ، الدين ، التقاليد ، الاخلاق العامة وأساليب التصرف ، كما والمناخ على حد سواء . هكذا يعيد مونتسكيو غلبتها الصحيحة العادلة الى الاسباب الخلقية ، المعنوية **Morales** .

الكتاب ٢٠ («عن القوانين في العلاقة التي لها مع التجارة») يفتح الجزء الثاني من المؤلف . يبدو يدشن في الوقت نفسه حقبة تعب مُلاحِق دامت لا ريب اربع سنوات ، حتى نهاية تاليف **روح القوانين** . مونتسكيو ، الذي كان يكتب بفرح شديد في ١٧٤٤ : «عملي الكبير يتقدم بخطى عملاق» ، يدع في السنة التالية تفلت شكوى : «حياتي تتقدم (خمسة وخمسون عاما) والعمل يتراجع بسبب حجمه الهائل» . يعترف ، في ١٧٤٧ ، مع اقتراب نهاية الجهد الرهيب : «عملي يتثاقل» ، «يسحقني الإعياء» .

هذا ما نفكر فيه ، عند ملاحظة فوضى المؤلف المتزايدة ، وان كره المتحمسون الذين يريدون بأي ثمن ان يجدوا عند مونتسكيو صرامة التاليف التي يتطلبها ذهنهم ، لا ذهنه . آ. سوريل A Sorel (٥) في كتابه الرائع **مونتسكيو** يفلت من هذا العيب للاعجاب . يقر ان مونتسكيو «يجهد ، يستنطق النصوص ، يراكب، يركم ، لا يعود يلحم ، يستقتل ، يتعب» ؛ انه رغم امتلاكه الكامل لمبادئه فان كل ما يسعى وراءه لا يعود يأتي اليه . اعتبارا من هذا الكتاب ٢٠ ، بدلا من عمل مترابط نقرأ بالاحرى «مونوغرافيات» (دوديو Dedieu تتعاقب . عن القوانين والعلاقات التي لها مع التجارة ، النقد ، السكان ، الدين (حتى الكتاب ٢٥ ضمنا) . عن ميادين التشريع المتميزة : «عن القوانين في العلاقة التي يجب ان تكون لها مع نظام الاشياء التي عليها تقرّر» (٢٦) . عن قوانين الارث عند الرومان ، ثم عن اصل وثورات القوانين المدنية عند الفرنسيين : كتابان ، الـ ٢٧ والـ ٢٨ ، في تاريخ الحقوق ، عسيران عويصان . عن نظرية القوانين الاقطاعية عند الفرانك ، في علاقتهن مع المونارخية : كتابان ، الـ ٣٠ والـ ٣١ ، في الحقوق الاقطاعية ، حفراً ونبشاً . اخيرا عن أسلوب تأليف القوانين : الكتاب ٢٩ .

لماذا هذه الدراسات في تاريخ الحقوق وفي الحقوق الاقطاعية ، الخصوصية الى هذا الحد ، التي هي ذات فائدة جبارة للاذهان الفضولية ، ولكنها ليست في نفس المستوى والباقي ؟ الجواب : ان مشكلة أصول المونارخية كانت تناقش بعنف منذ زمن الوصاية ، ليس بدون افكار مضمَرة نبيلية ومضادة للحكم المطلق . كانت تستهوي مونتسكيو لما كانت مناظرة تذكر قد قامت بين مدافع عن النبلاء والمونارخية المعتدلة هو الكونت بولانفيليه Boulain villiers ، وكاهن يدعى الاب دوبوس Dubos ، مدافع عن الطبقة الثالثة والمونارخية المطلقة ، فقد كان مونتسكيو حريصا على حسمها . لذا مَوقَع في **روح القوانين** ما كنا نكون رأيناه على نحو افضل منشورا على حدة ، واضعا هكذا في «عمل كبير» ، على الاقل مشروع «عمل كبير» آخر . اجل يستطيع ان يدافع عن نفسه بمساعدة احدى صوره الأنعم : «انا مثل هذا «الأنتيكاتي» الذي وقد انطلق من بلده ، وصل الى مصر ، فألقى نظرة على الاهرام واندار عنها» ؛ على هذا الهرم ، **روح القوانين** ، كان ظل اهرام أخرى نافلا ، يأتي ليربك المنظور .

هذا صحيح لدرجة ان مونتسكيو اضطر الى ان يخنق ، نوعا ما ، بين مونوغرافيتيه في تاريخ الحقوق ، هذا الكتاب ٢٩ الذي كان يجب طبيعيا ان يأتي كتتويج للمؤلف : **«في اسلوب تاليف القوانين»** . اليست الجملة التي بها يبدأ هذا الكتاب السيء الموقع ، اليست جملة خلاصة خاتمة ؟ ان روح المؤلف تنكشف فيها بتمامها ، وهذه الروح نفسها هي التي يريد ان يجدها في القوانين : «اقول

---

٥ ــ ألبير سوريل A. Sorel (١٨٤٢ ــ ١٩٠٦) مؤرخ فرنسي ، صاحب كتاب «اوروبا والثورة الفرنسية» ، احد أسياد التاريخ الدبلوماسي .

هذا ويبدو لي انني لم اعمل هذا المؤلف الا للبرهنة عليه ، ان روح الاعتدال يجب ان تكون روح المشرّع ؛ **الخير السياسي ، كالخير الاخلاقي ، موجود دائما بين حدّين** » .

حين انتهى من مراجعة «البروفات» ، مونتسكيو قال : «هذا العمل فكّر انه قاتلي ، ساستريح الان ، لن أعمل بعد الان». ولكن غرورا عادلا كان يملؤه امام العمل المتَم . فمَن قبله كان قد صمم قصدا بهذا الاتساع ، و لم رغم الغرابات واخطاء التناسب ، استطاع ان يشيد بناء كهذا في القضاء المقارَن ، في السياسة المقارَنة ؟ ما كان قد خطفه من الظلام ، من السري والخفي ، هو اكثر بكثير من اسرار ـ كما كان قد فعل ماكيافل ـ السلطة ، السلطة عارية وبلا نفس ، انـه الاسرار الرئيسية للحضارة البشرية . جيهان بودان ، ابن آنجو ، كان قد غذّى فعلا طموحات مشابهة ، ولكنه لم يكن يعرف ، من غلافه المنجمي السميك من علم واطلاع ، أن يستخرج الماسا . مونتسكيو ، الفاسكوني الخفيف الرشيق النافذ من بلاد مونتيني Montaigne ، الذي يختلف عنه كثيرا ويشبهه كثيرا بآن ، اعتقد بوسعه زعم مجد انه اول من سار هذا المسار ، بدون سلف ، بدون موديل ، مستمدا كل شيء من رأسماله هو . وتحت العنوان الكامل للمؤلف وهو التالي : «**في روح القوانين او في العلاقة التي يجب أن تكون للقوانين مع دستور كـــل حكومـــــة ، العادات والاخلاق ، المناخ ، الدين ، التجـــــارة ، الخ ...**» ، وضع باعتزاز العبارة الشاهدة : prolem sine Matrem ercatam ، ولد خلق بـــلا أم .

سياسة مونتسكيو

كيف يجب قراءة **روح القوانين** ؟ بالتأكيد ليس كما ستقرأ مؤلفات القـــرن التاسع عشر الضخمة ، مؤلفات توكفيل Toequeville مثلا ، تين Taine خصوصا ، المبنية بدقة وإحكام ، التي تحركها نفحة خطابية تساعد انتباه القارىء، تتيح له وقد انطلق من الخط الاول ان يصل ، عاجزا عن المشي ولكن راضيا ، الى الاخير . فاغه Faguet قالها على نحو جيد جدا : «بما انها حياة مفكر كائنة في هذا الكتاب ، لذا ينبغي قراءته كما كتب ، مغادرته ، العودة اليه ، الاقامة فيه ، تركه من اجل استئنافه ، نشره بمقاطع في حياة القارىء الذهنية . كـــل صفحة تترك بذرة حيثما تسقط» .

كم من هذه المقاطع هي منذ زمن طويل كلاسيكية ، وفي كل الذاكرات المثقفة ! انها بشكل خاص المقاطع التي فيها يتعبر في مونتسكيو مفكر الاخلاق ، رجـــل الاصلاح ، هل نجرؤ ونكتب : عالم الصحة الاجتماعية الكبير ؟

بيد ان الذي نبحث عنه في **روح القوانين** ، اكثر من الاخلاقي او المصلح ، هو السياسي ؛ بل المنظّر السياسي ، الرجل الذي كان سيطبع بصمته على العديد من

الاذهان الجيدة . غير ان هذه الكلمة الثقيلة بعض الشيء ، كلمة «منظِّر» ، يجب ان لا تستدعي في الذهن نظمة سياسية مسلحة من الراس الى اخمص القدم ، مذهبا استنتاجيا بدقة ، على طريقة بودان ، هوبز ، بوسويه ، او لوك . ذلك لم يكن مراد مونتسكيو .

لكان يكون ، من جهة اخرى ، غير صالح لذلك الى حد لا بأس به ؛ هـــذا الفاسكوني الوضعي ، المغلق للميتافيزيقا كما للاهوت ، كان في غير يسر على ارض اساس المجتمع والحق المجردة تماما. في الصفحات الاولى من **روح القوانين**، يخطّ المعضلة بخطوط اولية اكثر مما هو يعالجها ، وان كان هنا يفيض صيغا جميلة لامعة احيانا اكثر مما هي عميقة . هكذا عن تعريفه للقوانين ، التي فـي دلالتها الاوسع «هي العلاقات الضرورية المشتقة من طبيعة الاشياء» . هكذا عن برهنته لعدالة أولية ، طبيعية ، سابقة للقوانين : «قبـــل ان تكون هناك قوانين معمولة ، كانت هناك علاقات عدل ممكنة . القول بأنه لا يوجد شيء عادل الا ما تأمر به أو تنهي عنه القوانين الوضعية ، هو القول بأنه قبل ان يرسموا دائرة لم تكن كل الاشعة متساوية» : مقارَنة ، لا علة comparaison nom raison . هكذا عن وصفه لحالة الطبيعة ، المفهوم المكرس الذي يعتبر مونتسكيو نفسه ، من باب التهذيب الفكري ، ملزَما بأن يحييه مرورا : «يجب ان ننظر الى انسان قبل اقامة المجتمع ؛ قوانين الطبيعة ستكون تلك التي كان لينالها في مثل هذه الحالة» (وينتقد هذا الـ هوبز العنيف ، الذي هو حقا من قطعة واحدة وغير عاقل في نظره) . هكذا عن ترجحه الذكي ، الذي يقنّع ارتباكا ، بين الضرورة والحرية ، وهي مسألة ثابتة متسلطة ذات امتدادات لاهوتية معكّرة . بالتأكيد ، ما كان بوسع مونتسكيو ان يعفي نفسه من ان ينصب عند مدخل عمله الكبير ، بنائه ، «رواقا ايديولوجيـــا» (بول هازار) ؛ ينصبه اذاً ، ولكن مع الاستعجال المرئي لان يدخِل بأسرع ما يمكن القارىء داخل البناء ، في وسط هذا التشابك المنظّم من علاقات اجتماعية ، الذي يؤلف ، في تصوره الجبار ، **روح القوانين** .

وبالضبط في سير بسط نظمة العلاقات هذه يظهر او يؤكد تفضيلاتـــه السياسية ، «عطشه» . ومن مقاربة ، من مجابهة بعض النظريات التي من الجلي انها عزيزة عليه بشكل خاص والتي ستطبع بشكل راسخ فكر السوسيولوجيين ، يبرز ، لا المذهب السياسي لصاحبنا ، بل **روح مونتسكيو** في السياسة . فلنبدأ مسيرتنا من أجل هذا الاكتشاف المتدرج ، ماضين على التوالي من **نظرية الحكومات** الى نظرية **الحرية السياسية** ، ثم الى نظرية **المناخات** ، **المصحِّحة** ، المكملة بفكرة **الروح العام** لكل أمة او **طابع** كل أمة .

نظرية الحكومات

انها رائعة ناجزة ، داخل رائعة غير ناجزة . رائعة تعميـــم ، على غـــرار

الكلاسيكيات الكبيرة . هذه الحكومات ، مونتسكيو يرينا اياها ، كما يقـــول آ. سوريل ، «موقفة ، تامة ، نهائية ، وكأنها ملتمّة على نفسها من كل عصور تاريخها . لا كرونولوجيا ، لا منظور ، كل شيء موضوع على مستوى واحد ، تلك وحدة الزمان والمكان والعمل منقولة من المسرح الى التشريع ... . لقـــد درس مونتسكيو ورسم المونارخية او الجمهورية ، كما موليير **Molière** **البخيل** او **الميزانتروب** او **التارتوف**«[٦] ، كما لابروير **La bruyère** الكبار ، السياسيين، الاذهان القوية» .

ولكن لماذا تخلى عن التصنيف التقليدي ـ ديموقراطيـــة ، أرستقراطية ، مونارخية ـ واستبدل به هذا التصنيف : **جمهورية** ، **مونارخية** ، **استبداديـــة** **Despotisme** ؟ هذا التصنيف الجديد أقل ثقة ؛ وها ان الحكومات الثلاث المعلن عنها تصبح مباشرة اربع (كفرسان الملك ، «الموسكتير» ، الثلاثة) ، اذ ان المؤلف مضطر جيدا الى ان يميز ، تحت بطاقة الجمهورية ، **الديموقراطية والارستقراطية**. علة هذه الغرابة ، التي لا تنقص شيئا من القوة الجدلية ، ولا من نفاذ هـــذه الكتب الثمانية الاولى ، قد نوقشت ؛ لعلها ستظهر لنا عبر التحليل الذي يتبع .

يجب ان نميز ، في كل حكومة ، **طبيعتها** و **مبدأها** . طبيعتها هي ما يجعلها تكون ما هي ، بنيتها الخاصة ؛ مبدؤها هو الذي يجعلها تفعـــل ، «الانفعالات او الاهواء البشرية التي تحركها» (لعل **ressort** «نابض» كانت تكون أوضح من «مبدأ» **principe**) . القوانين يجب ان تكون نسبية الى طبيعة الحكومة ؛ يجب ان لا تكون أقل نسبة الى مبدأ الحكومة الذي له عليها «نفوذ اعلى» : نفوذ على القوانين المتصلة بالتربية ، اولا ، ثم على كل القوانين الاخرى ، التي بينهـا يجب اقامة مكان خاص للقوانين المدنية والجنائية ، وكذلك لقوانين العظمة او الأبهة ، وللقوانين المتصلة بشرط النساء . هذه العلاقة للقوانين مع مبدأ الحكومة يشد كل نوابض هذه الاخيرة والمبدأ ينال منها بدوره قوة جديدة . من هنا يتبع ان فساد الحكومات يبدأ دائما تقريبـــا بفساد المبادىء : ما ان تفسد مبادىء الحكومة حتى تصير افضل القوانين رديئة وتتحول ضد الدولة ؛ حين تكـــون المبادىء سليمة ، القوانين الرديئة «لها مفعول الجيدة» ، قوة المبدأ «تحمل وتجر كل شيء » .

هناك ثلاثة انواع من حكومات : الحكم الجمهوري ، المونارخي، والاستبدادي ؛ لكشف طبيعتها ، تكفي الفكرة التي للناس الاقـل

---

٦ ـ البخيل ، والميزانتروب (عدو البشر ، كاره الانسان) ، وتارتوف (نمـــوذج التقوى ـ و ـ النفاق) عناوين ٣ مسرحيات لـ موليير (ق ١٧) الفرنسي ، سيد الكوميديا ؛ الدراما الكوميدية. ثلاثة نماذج خالدة .

تعلما عنها ؛ أفترض ثلاثة تعاريف ، او بالاصح ثلاثة واقعات : الاول ، ان الحكومة **الجمهورية** هي التي فيها يكون للشعب في جسم او هيئة او فقط لجزء من الشعب القدرة السيدة ؛ **الحكومة المونارشية** ، التي فيها واحد يحكم ولكن بقوانين ثابتة ومقامة ؛ بينما في **الاستبدادية** ، واحد ، بلا قانون ولا قاعدة ، يجر كل شيء بارادته وبنزواته ــ هوذاً ما ادعوه طبيعة كل حكومة .

الجمهورية الديموقراطية . ــ هي ذي طبيعتها ، ما يجعلها ما هي ، بنيتها الخاصة : الشعب ، لنفهم مجموع المواطنين ، يظهر فيها تحت وجهين متعارضين ومتكاملين ؛ من بعض الحيثيات ، هو المونارك (الرئيس الاحد ، الملك) ، من حيثيات اخرى هو الرعية . **رعية** : هذا يفهم بذاته . **مونارك** ، بالقدر الذي فيه يعطي نفسه اصواته التي هي اراداته : «ارادة السيد هي السيد نفسه» (هذه الجملة الإضمارية تحوي في بذرة كل الفكرة المهيمنة في **العقد الاجتماعي** لـ روسو) . اذاً القوانين التي تقيم حق التصويت اساسية في هذه الحكومة . الشعب ، بما انه سيد ، يجب ان يعمل بنفسه كل ما يستطيع ان يعمله فعلا ، وما لا يستطيع ان يعمله فعلا ، يجب ان يعمله بواسطة وزراء او حكام يختارهم بنفسه ؛ اذ ان هذا الاختيار يستطيع ان يعمله فعلا وجيدا .

الشعب رائع عجيب لاختيار اولئك الذين عليه ان يسلمهم جزءا ما من سلطته ؛ ليس عليه ان يتعين ويتقرر الا بامور لا يمكن ان يجهلها وبوقائع تقع تحت الحواس . يعلم جيدا جدا ان رجلا من الرجال كثيراً ما كان في الحرب ، انه أحرز فيها هذه النجاحات او تلك ؛ فهو اذن قادر جدا على انتخاب جنرال . يعلم ان قاضيا من القضاة مواظب ، ان اناسا كثيرين يخرجون من محكمته وهم مسرورون منه ، وانه لم يقع تحت جرم الرشوة ؛ هوذا ما يكفي لكي ينتخب قاضيا . لفتت نظره ابهة وثروات مواطن من المواطنين ، هذا كاف لكي يستطيع اختيار ناظر للابنية والملاعب . كل هذه الامور وقائع ، يستعلم عنها ويتعلم منها على نحو افضل في الساحة العامة من ملك في قصره ، ولكن هل سيكون بوسعه تسيير قضية une affaire ، معرفة الاماكن ، المناسبات ، اللحظات ، الاستفادة من ذلك ؟ لا ، لن يستطيع .

لماذا لن يستطيع ؟ لماذا هذا الشعب الاهل لان يختار ، الاهل ايضا لان يأخذ تقريرا عن ادارة اولئك الذين قد اختارهم ، ليس صالحا لان يدير بنفسه ؟ لان عنده دائما «عملا كثيرا او قليلا . احيانا مع مئة الف ذراع يقلب كل شيء ،

واحيانا مع مئة الف قدَم لا يسير كالحشرات» . والحال ، ينبغي أن تسير القضايا ، ان تسير «بحركة ما ليست ابطأ ولا أسرع مما يجب» .

لا يمكن ان نهمل هنا عاملا جوهريا ، عامل الحجم ؛ لفي طبيعة جمهورية ديموقراطية ، كما وارستقراطية ايضا ، «الا يكون لها سوى اقليم **صغير** ، بدون ذلك لا تستطيع او لا تكاد تستطيع البقاء» . الخير المشترك الذي في جمهورية كبيرة يضحّى به على الدوام ، يوضع في خطر ، على يد الثروات الكبيرة ، على يد خصوصية المصالح ، هو في جمهورية صغيرة «مُحَسّ على نحو افضل ، معروف على نحو افضل ، **اقرب** الى كل مواطن» : تلك بالضبط شروط ملائمة لبقاء مبدأ الديموقراطية .

فمبدَؤها ، ما يجعلها تفعل ، نابضها ، هو **الفضيلة** . والفضيلة (لنفهم مع مونتسكيو كما مع أرسطو الفضيلة «السياسية») تطلب ان يضحي المرء للدولة ، للمصلحة العامة ، تضحية مستمرة بذاته ونفوراته ، بأنانيته ، بعدم انضباطه ، بجشعه ، بكل شهواته . لماذا كل هذه المتطلبات ، الغريبة عن الحكومات الاخرى؟ لان الديموقراطية هي بطبيعتها حكومة العدد الاكبر . اذا كانت تسير بشكل سيء، اذا توقف تنفيذ القوانين ، فان سبب ذلك لا يمكن ان يكون الا في فساد طابع العدد الاكبر . شر لا يُصلَح ، «الدولة ضاعت» . بينما بالعكس من السهل لملك مذنب بمستشارين سيئين ، او مهمل ، ان يغير المستشارين او ان يصلح نفسه من اهماله .

> السياسيون الاغريق ، الذين كانوا يعيشون في الحكومة الشعبية ، كانوا لا يعترفون بقوة اخرى تستطيع مساندتها غير قوة الفضيلة ... . حين تنقطع هذه الفضيلة ، يدخل الطموح في القلوب التي تستطيع استقباله ، والبخل يدخل في الجميع . الرغبات تغير موضوعها ؛ ما كانوا يحبونه ، لا يعودون يحبونه ؛ كانوا احرارا مع القوانين ، يريدون ان يكونوا احرارا ضدها ؛ **كل مواطن هو مثل عبد افلت من بيت سيده** ؛ ما كان حكمة ، يدعونه صرامة؛ ما كان قاعدة ، يدعونه ازعاجا : ما كان انتباها ، يدعونه خوفا . ان العفة هي هنا البخل ، لا رغبة الملك . سابقا كان مال الافراد يصنع الخزينة العامة ؛ اما الان فقد اصبحت الخزينة العامة ملك الافراد . الجمهورية أشلاء واسلاب ؛وقوتها لم تعد سوى سلطة بعض المواطنين وإباحية الجميع .

يجب بالتالي ان لا تنقطع ابدا هذه الفضيلة ، ولذا في الحكومة الديموقراطية ثمة حاجة الى القدرة الكلية للتربية ، كي ينطبع عند الاولاد هذا التخلي عن الذات، وهو امر دوما شاق ، هذا الحب للقوانين والوطن ، الذي يطلب تفضيلا دائما للمصلحة العامة على مصلحة الذات . «الحكومة ككل الامور في العالم ؛ كي تصان

يجب ان تحبّ» . والحال ، في الديموقراطيات دون سواها ،الحكومة مسلّمة لكل مواطن ؛ يجب اذاً ان ينشأ كل مواطن على حبها ، وبالضربة نفسها على حب المساواة والعفة ، اللتين هما من جوهر الديموقراطية ذاته .

كل القوانين يجب ان تذهب في هذا الاتجاه ؛ سبيل توزيع الاراضي ، السبيل الاقصى ، ليس مستبعدًا . لا ترف ، لانه يحوّل الروح نحو المصلحة الخاصة ، نحو الرغبات الجامحة : هكذا رغبات الرومان ، حين أفسدوا ، والتي يمكن ان نحكم عليها بالثمن الذي وضعوه للاشياء : «جرة من نبيذ فالِرن كانت تباع بمئة دينار روماني ؛ برميل لحم مملّح من البونت كان ثمنه اربعمئة ؛ طبّاخ جيد اربعة اوزان ذهب ؛ الخدم الفتيان لم يكن لهم ثمن» . لا شبق عام ، فهو في دولة شعبية آخر المصائب ؛ المشرّعون الجيدون فرضوا على النساء وقارا معينا في العادات ، الغوا من جمهورياتهم «ليس فقط الرذيلة بل مظهر الرذيلة عينه» .

فضيلة صارمة للجمهوريات الصارمة ! هذه الصفحات لمونتسكيو يفوح منها اريج بطولي ولا ادري اي حنين لهذه الديمقراطيات القديمة ذات الاخلاق الطاهرة الى هذا الحد ! عالم قديم اتفاقي بالتأكيد اكثر منه حقيقي ! ولكن هذه الاساطير الجميلة كانت ستحتفظ ، من **روح القوانين** الى ١٧٩٣ ، بهيبة فائقة على النفوس الفرنسية !

من جهة اخرى يصح القول ان مونتسكيو ، بفضيلة تعميمه ، قد استطاع ان يحرر الشروط الصالحة ابديا لصحة الديمقراطيات ، سواء القديمة منها ، او بالعكس الحديثة تماما ، والمؤسسة ــ وهذا ما كان يبدو غير ممكن التصور لمؤلف **روح القوانين** ــ على «المانيفاكتورات ، والتجارة ، والمالية ، والثروات ، والبذخ نفسه» . فساد النظام ، هذا ما قاله أعلاه ، حين روح المساواة ، شكل الفضيلة ، يضيع . ولكن فساد ايضا ، ــ ليس اقل يرى هذا ويقوله مونتسكيو ، ــ حين روح المساواة نفسه يصير متطرفا ، ويكف عندئذ عن كونه فضيلة . هذا يحدث حين لا يريد احد ان يكون له أسياد ، حين يريد كل واحد ان يكون مساويا للذين اختارهم ليأمروه ؛ عندئذ لا يستطيع الشعب ان يتحمل حتى السلطة التي هو سلمها . بماذا ينتهي ذلك ؟ بالطغيان Tyrannie . «يتشكل طغاة صغار عندهم كل رذائل طاغية وحيد . سرعان ما يصبح ما يبقى من حرية لا يطاق ؛ يصعد طاغية وحيد ، وينضيع الشعب كل شيء ، حتى فوائد فساده» .

أصحيح انه يَضيع كل شيء ؟ الا يحتفظ بمساواة ما ؟ مونتسكيو يقر بذلك : البشر متساوون في الحكومة الاستبدادية ، كما في الحكومة الجمهورية . ولكن لكي يوضح ، بخط واحد ساطع ، انهم في الحكم الجمهوري متساوون لانهم كل شيء ، وفي النظام الاستبدادي لانهم لا شيء .

الجمهورية الارستقراطية . ــ هذا الشكل ليس له بالنسبة لنا اليوم سوى فائدة تاريخية . في زمن مونتسكيو ، البندقية وبولندة ، الجمهوريتان

الارستقراطيتان ، كانتا تقدمان عنه واقعا يمكن ملاحظته .

نعرف طبيعة الارستقراطية . القدرة السيدة هي فيها بين ايدي لا الشعب في جسم بل عدد من الاشخاص . كلما كان هذا العدد كبيرا ، كانت المؤسسة اقرب الى الديموقراطية وكانت اكمل ؛ «أفضل ارستقراطية هي التي فيها ذلك الجزء من الشعب الذي ليس له سهم في السلطان صغير وفقير بحيث ان الجزء المهيمن ليس له اية مصلحة في اضطهاده» . في الحاصل ، الارستقراطية حسب مونتسكيو هي «ضرب من ديموقراطية محصورة ، مكثفة ومنقاة (فاغه Faguet) حيث السلطة تكون محفوظة للمواطنين المتميزين بالولادة والمعدّين للحكم بالتربية.

مبدؤها لم يعد تماما الفضيلة : «من النادر ، حيث تكون ثروات البشر متفاوتة الى هذا الحد ، ان يكون هناك كثير من الفضيلة» . مبدؤها هو **روح اعتدال** ما عند الذين يأمرون : النبلاء . هذا الروح يوقفهم ، يكبحهم ؛ انه يأخذ محل روح المساواة في الديمقراطية ، بحكه وتثليمه اللامساواة الملازمة للدستور الارستقراطي . اذ هنا تماما عكس المونارخية حيث النبلاء ، كما سنرى الان ، يجب ان يتميزوا ، أن يبرهنوا عن قيمتهم بألف طريقة .

المونارشية . — شخص واحد يحكم ، شخص واحد هو مصدر كل سلطان . ولكنه يحكم **بقوانين ثابتة ومقامة** ، هي عين اسس المملكة ، قوانين اساسية : ثباتها عقبة كأداء امام ارادة الملك «الموقتة وذات النزوات» . هذا يفترض من جهة اخرى وجود سلطات وسيطة وإيداع قوانين .

سلطات وسيطة ، «مرؤوسة وتابعة» (زيادة في الكلام تطلبتها ، على ما يقال الرقابة ؛ كان المؤلف قد اكتفى ب «مرؤوسة» Subordonné) . بدون هذه السلطات ، السلطان السيد ، مثل كتلة ماء جبارة مسلّمة لنفسها وتنتفخ في امواج لا نظام لها ، يجتاح ويغمر كل شيء . هذه السلطات تقنيه ، تكسر اندفاعه: اقنية وسيطة بها يسيل السلطان» . من هي ؟ في المقام الاول ، طبقة النبلاء . هذا هو في نظر مونتسكيو شعار المونارشية الاساسي : «**لا ملك ، لا نبالة ؛ لا نبالة ، لا ملك ، بل عاهل مستبد**» . الاكليروس سلطة وسيطة اخرى ؛ خطر في جمهورية، ككل جسم مستقل ، انه مناسب في مونارشية ، «بشكل خاص في المونارشيات التي تذهب الى الاستبدادية» . سلطات وسيطة ايضا ، المدن مع امتيازاتها . الغوا ، يصرخ مونتسكيو ، «**الغوا في مونارشية امتيازات الاشراف ، الاكليروس ، النبلاء ، والمدن ، سرعان ما يكون لديكم دولة شعبية او دولة استبدادية**» .

ايداع قوانين : هذه القوانين الاساسية الثابتة والمقامة يجب ان تكون تحت حراسة جسم اختير بشكل جيد ، سلطة وسيطة جديدة ، قناة وسطى جيدة ، بها ينضبط او يتباطأ سير السيادة . هذا الجسم يعلن القوانين المعمولة ، وبشكل خاص على الدوام يذكر بها ، ينتزعها من النسيان ، من الغبار ، حيث هي دوما مهددة بأن تبقى مدفونة .

من الجلي ان مونتسكيو ، رئيس برلمان بوردو Bordeaux مع قبعة ، الذي

كان قليل الحماس لمنصبه (باعه منذ سنة ١٧٢٧) والذي كان يضجر من اجراءات المحاكمات ، ولكنه كان مغرما بالامتيازات البرلمانية ، يحفظ وظيفة استيـــداع القوانين للبرلمانات ، وهي أجسام قضائية كبيرة . فعلا كان طبيعيا ان يريد رجل مثل ريشوليو ، مجبول بالاستبدادية ، ان يتجنب في المونارشيات «شوكـــات «الشركات» Compagnies ، التـــي تشكل وتكوّن صعوبـــات على كل شيء» . بالضبط ، يرد مونتسكيو ، تلك هي الخدمة التي تسديها «الشركات» للحكومـــة المونارشية ، التي سرعتها في التنفيذ ـ مزيتها الكبيرة على الجمهورية ـ تميل الى الانحلال الى تسرّع وخيم . للقوانين ان تعيد البطء اللازم ، «زمن التفكير» هذا الـــذي سيرى فيـــه ذات يـــوم .كليمنصو المعقّـــل (Clémenceau) المأثرة الرئيسية لمجلس شيوخ الجمهورية الثالثة ! الاجسام ، ايها الكاردينـــال المستبد ! «الاجسام صاحبة مستودع القوانين لا تطيع في يوم من الايام على نحو افضل مما حين تسير بخطى متأخرة» .

هذه الاجسام القضائية او لا ، هذه الهيئات النظامية ، هـــذه المراتب او السلطات الوسيطة ، الا يمكن ان نخشى ان تتعارض فيما بينهـــا ، وان تعارض الامير ، وأن تعارض الشعب ، او ان يعارضها الشعب ؟ هه ! ذاك هو كل سر المونارشية حسب مونتسكيو ! هذه اللعبة المعقدة من تعارضات ، من مقاومات ، من أوزان و أوزان مضادة، من **اضداد ــ قوى** contre - forces (كما كان يقول المعاصرون) ، هي بالضبط ما يبقي الدولة المونارخية . في الدولة الاستبدادية ، حين تعصف ريح العصيان ، ينحمل الشعب على الفور الى التطرف ، الـــى التجاوزات . في الدولة المونارشية ، هذا نادر تماما . حركة العصيان تجـــد نفسها مكبوحة أوتوماتيكيا بلعب اضداد ـ القوى هذا الذي تحدثنا عنه لتوّنا . العصاة ينقصهم الاقتناع ؛ السلطات الوسيطة لا تريد ان يأخذ الشعب الغلبة كثيرا، ونرى توسط الرجال العقال وذوي سلطة او نفوذ . بحيث ، يستخلص صاحبنـــا معزّى ومشجّعا ، بحيث «يأخذون تلطيفات ، يتدبرون ، يتصححون ، والقوانين تسترجع عزمها وتجعل نفسها مسموعة . لذا فان كل تواريخنا مليئة بالحـــروب الاهلية بدون ثورات ــ انقلابات révolutions » (نكاد نرد على تفاؤل بهـــذا القدر : صبرا !) .

هكذا طبيعة المونارشية ، بنيتها الخاصة ، ما ، حسب مونتسكيو ، يجعلها كائنـــة .

لا ننس انه ، اذا كان الشكل الجمهوري يناسب الدول الصغيرة ، فـــان الشكل المونارشي مرتبط هو ايضا بحجم ما ، لا صغير ولا اكبر مما يجب ، بـــل **متوسط** .

مبدأ المونارشية ، اي هو ؟ ما هي الانفعالات ــ الاهواء التي تحرك هـــذه الحكومة ؟ ما هو ، بكلمة ، نابضها ؟ لنرَه ينبع مباشرة من «الطبيعة» المعرّفة آنفا. الديمقراطية ، بما انها حكومة العدد الاكبر ، كانت تجد نابضها في عاطفة ، في

انفعال لاكبر عدد : حب الوطن ، الذي يجر معه التخلي عن الذات ، او **الفضيلة** . المونارشية ، بما انها ترتكز على مقامات ، مراتب ، نبالة وراثية ، امتيازات من انواع شتى ، بقول آخر على تمييزات موسومة ودائمة بين الاشخاص والشروط الاجتماعية ، تكرس اللامساواة ـ لا يمكن ان تكون لها الفضيلة كنابض . بالتأكيد ليست الفضيلة مستبعَدة من المونارشية ، ولكنها ليست نابضهـا . ولكن ، فلنطمئن ، الحكومة المونارشية لها فعلا نابض خاص بها ، ويستطيع ان يلهم فيها اجمل الافعال ، ومنضما الى قوة القوانين ، ان يقود الى هدف الدولة ، «كالفضيلة نفسها» . هذا النابض ، هو **الشرف** ، **اي سبق ـ ظن** préjugé **كل شخص وكل شرط او حال** .

هذا التعريف ، لوحده ، يبين لنا ان الامر هنا ليس بالضبط الشرف بمعنى الكلمة الدارج ، الذي عليه سينشيء فينيي Vigny (٧) تلونات رائعة في كتابه **العبودية والعظمة العسكريتان** : «الشرف ، حشمة الرجال» . مونتسكيو يوافق : فلسفيا ، نحن هنا بصدد شرف «زائف» او على الاقل امام مزيج من شرف حقيقي وشرف زائف . اكثر منه الشرف انه «نقطة الشرف» . انه عطش الى تفضيلات ، تمييزات ، تشريفات honneurs . . ولكن ، بما ان هذا كله هو في طبيعة المونارشية عينها ، فهو اذاً «بحكم الشيء نفسه موضوع في هذه الحكومة» . انه الطموح عينه ، البالغ الايذاء في جمهورية ، ولكنه في مونارشية محرك ثمين جدا . على غرار قوة الجاذبية في الكون ، انه يحرّك ويربط بفعله ذاته كل أجزاء الجسم السياسي ، **«وينوجد ان كل واحد يذهب الى الخير المشترك او الصالح العام ، معتقدا نفسه ذاهبا الى مصالحه الخاصة»** . **بالطبع** ليست الدولة مُحَبّة لذاتها ؛ ولكن كل واحد ، اذ يدافع بالمنقار والاظافر عن سبق ـ ظن شرطه ـ حاله، جسمه ـ طائفته (روح الهيئة ، شرف الطائفة) ، كل واحد اذ يحقق بدافع الشرف او نقطة الشرف ، من اجل الضجة التي ستحدث ، من اجل علامة التمييز التي ستجلبها له والتي قد تكون مجرد ابتسامة من جلالته ، افعالا صعبة وخارجة عن المألوف ، ـ كل واحد يخدم بالضربة نفسها الدولة المونارشية التي تحتاج الى افراد ممتازين والى اجسام ـ طوائف ممتازة ، التي تحتاج الى افعال عظيمة وصعبة . الحكومة تذهب هكذا الى هدفها «بأقل ما يمكن من التكاليف» ، وهو ما يتفق مع المثل الاعلى السياسي الذي كان مونتسكيو يعبر عنه منذ **الرسائل الفارسية** .

عدا عن ان الشرف ، اذ هو غير قادر على الانحناء ، اذ له قوانينه وقواعده الثابتة ، نزواته ايضا ، لكنها نزوات «مُسنَدة» ومنتسبة اليه وحده ، لا الى الامير ، لا يمكن ان ينوجد الا في دول دستورها ثابت ولها قوانين اكيدة . الاستبدادية تستبعده اذاً بالقدر نفسه الذي فيه المونارشية تقتضيه . من هنا

---

٧ ـ **فينيي** Vigny (ق ١٩) من شعراء وادباء الرومانطيقية الفرنسية .

ينجم ان الشرف ، الذي يخدم الدولة المونارشية ، يضع حدا جديدا امام الغزوات غير القانونية من جانب السيادة . وهكذا يعزز فعل السلطات الوسيطة ومستودع القوانين . هذا منطقي ، لانه ، مثل هذه المؤسسات عينها ، مشتق مباشرة من طبيعة المونارشية .

ان حكومة مبدؤها حذق دقيق الى هذه الدرجة (بحذاقة ودقة طبيعتها عينها) الا ترى نفسها على الدوام تحت ترصد الرشوة والفساد ؟ ان مهمة الامير بحسب ماكيافل تبدو بسيطة بالمقارنة مع مهمة امير **روح القوانين** ، الملزَم بأن يرفض الاستبدادية وكل ما يمكن ان يقود اليها .

المونارشيات تنفسد، حين ترفع شيئا فشيئا امتيازات الاجسام او امتيازات المدن ... . يذهبون ... الى استبدادية رجل واحد . ان ما ضيع سلالات تسنين Tsin وسوي Soui ، يقول مؤلف صيني ، هو ان الامراء ، بدلا من ان يقتصروا، كالأقدمين، على تفتيش عام ، وهو الوحيد الجدير بصاحب السيادة ، ارادوا ان يحكموا كل شيء مباشرة بأنفسهم . المؤلف الصيني يعطينا هنا سبب فساد كل المونارشيات تقريبا . — ان المونارشية تضيع حين يعتقد الامير انه يظهر قدرته على نحو اكبر بتغييره نظام الاشياء بدلا من ان يتبعه ؛ حين ينزع وظائف البعض الطبيعية ليعطيها تعسفا الآخرين ؛ وحين يعشق رغباته الخيالية اكثر من اراداته . —.ان المونارشية تضيع حين الامير ، معيدا كل شيء الى نفسه فقط ، يدعو الدولة الى عاصمته ، وعاصمته الى بلاطه ، وبلاطه الى شخصه الوحيد .

(لقد حزر القارىء ان لويس الرابع عشر مستهدَف مرارا في هذا المقطع) .

والتعداد يتواصل رتيبا مثل اشارة انذار : «المونارشية تضيع ... مبدأ المونارشية ينفسد ... ينفسد ... ينفسد ...» .

الاستبدادية . — لوك ، مناهض الحكم المطلق ، اعطانا في **المحاولة** ، تحت حجاب من التجريدات ، تأويلا هويغ Whig للدستور الانكليزي . مونتسكيو ، في الصفحات التي حللناها لتونا ، يقترح علينا ، بطريقته التعميمية ، تأويله للدستور الفرنسي . انه تأويل نبيل ليبرالي . رعية أمينا ، رغم حنينه الى جمهوريات العالم القديم ، لاقدم مونارشية في اوروبا ، جنبل في زمن الوصاية على بغض ريشوليو ولويس الرابع عشر ، في نظره مفسدَي الحكومة المونارشية الحقة، التي هي معدّلة معتدلة . اجسام وسيطة ، مستودع قوانين ، امتيازات ، شرف،

مونتسكيو يعبىء كل ما يمكن أن يوقف المونارشية الفرنسية على منحدر الاستبدادية المخيف . أن تنتقل دولة من حكومة **معتدلة** الى حكومة معتدلة ، من الجمهورية الى المونارشية ، او من المونارشية الى الجمهورية ، هذا ليس خطيرا . ولكن ، حين تسقط وترمي نفسها من الحكومة المعتدلة الى الاستبداد ، الى الحكومة **العنيفة** ، فتلك هي البلية الكبرى . بصفته اوروبيا كما بصفته فرنسيا بقدر واحد ، يطلق مونتسكيو هذا التحذير المهيب :

> ان معظم شعوب اوروبا ما زالت تحكمها الاخلاق العامة ، ولكن اذا بإفراط في السلطة طويل ، اذا باستيلاء كبير ، اذا ما أقيم الاستبداد في نقطة ما ، فلن يكون ثمة اخلاق او مناخ يصمد ؛ وفي هذا الجزء الجميل من العالم ، ستتحمل الطبيعة البشرية ، لزمن على الاقل ، الاهانات النازلة بها في الاجزاء الثلاثة الاخرى .

الاستبداد ، اهانة للطبيعة البشرية ! هذه الاخيرة ، التي تستثار وتتعالى بالفضيلة الجمهورية ، والتي تجد ــ عبر شوائب كثيرة ــ حسابها في الشرف المونارشي ، تَذلّ وتنحط تحت حكومة معمولة لـ «بهائم» اكثر منها لبشر .

افلا نستطيع الان ان نفهم لماذا مونتسكيو ، مبتعدا عن التصنيف التقليدي ، اراد ان يجعل من الاستبدادية نموذجا حكوميا متميزا ، يظهر دافع وطارد المونارشية الحقة ، وليس مجرد انفساد (كما كان يريد ارسطو) حكم رجل واحد ؟ اذ ان المؤلف رفض ان لا يقر بين مونارشية واستبدادية سوى فرق في الدرجة، في الاخلاقية . لقد حرص على اعلان الفرق الجذري بالمبدأ كما بالطبيعة ، الذي يجب ان يفصل حكومة **معتدلة** عن حكومة **عنيفة** . في الحاصل ، لقد نقل ووضع في سجل آخر التمييز الذي كان بوسويه قد انشغل كثيرا باقامته بين حكومة «مطلقة» وحكومة «عسفية» .

رسم للاستبدادية بالاسود ! الفضيلة ليس لها ما تعمله في نظام كهذا ، والشرف خطِر فيه . مبدأ هذا النظام **الخوف** . هدفه الهدوء والسكينة ، ما كان لوك يدعوه سلام المقابر ، والذي يقول عنه مونتسكيو بشكل رائع : «ليس هذا سلاما ، انه صمت هذه المدن التي العدو جاهز لاحتلالها» . الامير لا يستطيع ابدا الكف عن رفع الذراع ، لا يستطيع ابدا ارخاء النوابض بدون خطر داهم («دوما السكين في اليد» ، كان يقول ماكيافل) . نصيب البشر ، «كالحيوانات» ، هو الغريزة ، الطاعة ، العقاب . هذه الطاعة ، لا شيء يأتي ليعدلها ؛ تلزم قصوى : «ارادة الامير ، ما ان تعرف حتى يكون لها مفعولها الاكيد كما لكرة اطلقت على اخرى مفعولها الاكيد» . ليس ثمة اي اعتراض ، مستمد من العواطف الطبيعية، من الحالة الصحية ، من قوانين الشرف ، له قيمة ضد ارادة العاهل المستبد . «تلقينا الامر وهذا كاف» . «الانسان مخلوق يطيع مخلوقا يريد» .

أينبغي الكلام عن قوانين التربية ؟ وضع الخوف في الفؤاد ، تخفيضه لجعله

عبديا ، طبع في الروح بعض مبادىء من دين بسيطة جدا ، تلك هي التربية . انها عدم ... . المعرفة خطرة جدا في ظل مثل هذا النظام . «الطاعة القصوى تفترض الجهل في الذي يطيع ... ، بل في الذي يأمر ، ليس له ان يناقش نفسه ، أن يشك ، ولا ان يحاكم ، له ان يريد» . اينبغي الكلام عن القوانين عموما ؟ لا حاجة الى كثير منها في الحكم الاستبدادي، حيث يجب أن يدور كل شيء على فكرتين او ثلاث لا تتغير : «حين تعلّم حيوانا ، فانك تحترس كثيرا من ان تغير له المعلم والدروس والهيئة ؛ تصفع دماغه بحركتين او ثلاث لا اكثر» .

الفصل ١٣ : فكرة الاستبدادية . ـ «حين يريد متوحشو لويزيانا الحصول على ثمار ، فانهم يقطعون الشجرة عند قدمها ، ويقطفون الثمرة . هذا هو الحكم الاستبدادي» . وهذا هو ، مستوحى من مثل اسباني ، فصل من سطرين ، من النوع الذي نجده احيانا في **روح القوانين** . هذه هي طريقة المؤلف في قول «شيء يري اشياء اخرى عديدة» (وهي حسب مونتسكيو نفسه علامة فكر كبير) .

امثلته مونتسكيو يستعيرها من حكومات الشرق ، تركيا ، فارس ، مع «سلاطينها الغيورين وخصيانها الحزينين» ، التي كان قد انشأ رسما عنها مشاهير الرحالة في ذلك العصر ، تافرنيه Tavernier ، شاردن Chardin . الامر الذي يأذن لشراحه بأن يلوموه على كونه اهمل الاستبدادَين « المستنيرين » ، الروسي والبروسي ، وهما مشوّقان للملاحظة في زمنه وأغنى بكثير واكثر الوانا وفروقا . آ. سوريل يجد ان هذا التصوير المفزع للاستبدادية يفتقر الى الحياة. آه ! بالتأكيد ، لو ان المؤرخ المعاصر الكبير عاش ما يكفي ليكون على بينة من الاستبدادات البوليسية الشنيعة في ايامنا ، في «عصر الطغيانات» المفتوح منذ ١٩١٤ ، لغيّر هذا اللوم الى شهادة اعجاب اضافية ! سلفا ، مونتسكيو قال كل شيء ، وصف كل شيء ، بصيغ ثارية . اذ ان بغضه للاستبدادية ، بعيدا عن ان يعميه ، كان يجعله ايضا ، ان امكن ، اكثر صفاء وتبصرا . في الملاحظة التالية ، يا لها من بصيرة صافية ، تلعب ضد تفضيلات المؤلف الموسومة الى هذا الحد ، ضد عطشه الآمر :

بعد كل الذي قلناه لتونا ، قد يبدو ان الطبيعة البشرية ستثور بلا انقطاع ضد الحكومة المستبدة ، ولكن ، رغم حب البشر للحرية، رغم حقدهم ضد العنف ، فان معظم الشعوب خاضعون لها ؛ هذا سهل فهمه . من اجل تشكيل حكومة معتدلة ، يلزم جمع القدرات في تراكب ، ضبطها ، تعديلها ، جعلها تفعل ؛ يلزم **ان صح القول اعطاء هذه وزن تخفيف** Lest **لتمكينها من مقاومة تلك ؛** انها تحفة من تشريع نادرا ما تصنعها المصادفة ونادرا ما يترك للفطنة ان تصنعها . **اما حكومة مستبدة ، فهي ، بالعكس ، تقفز ان صح القول امام البصر ؛ انها وواحدة رتيبة ؛ بما انه لا يلزم سوى اهواء من اجل اقامتها ، فكل الناس يصلحون لذلك .**

هذه «التحفة من تشريع» التي لا الصدفة ولا الفطنة كانت توفرها للمونارشية الفرنسية ، مصدر انذارات مونتسكيو ، الم يعتقد هذا الاخير انه واجدها في انكلترة ، الامة الوحيدة في العالم التي كان لها «كموضوع مباشر او غرض مباشر لدستورها **الحرية السياسية**» ؟

نظرية الحرية السياسية : الدستور الانكليزي

ثمة نقص خفي في التجانس بين الكتب الاولى من **روح القوانين** والكتاب الحادي عشر ، الذي يعالج «القوانين التي تشكل الحرية السياسية في علاقتها مع الدستور» ــ وهو الكتاب الاشهر في كل المؤلف ، الكتاب الوحيد ، يمكن ان نحلف على ذلك ، الذي ما زال ان لم يكن تقرؤه فعلى الاقل تتصفحه اذهان اليوم المستعجلة. . القارىء الذي ترك لتوه نظرية الحكومات عنده انطباع ، حين يغطس في هذا الكتاب الحادي عشر ، بأن تغير تدريجيا المنظر والمناخ ؛ من الحكومة المعتدلة مضى الى الحرية السياسية ، مرحلة جديدة في تقدم الدول ؛ صحيح تماما ان الحرية السياسية لا توجد الا في الحكومات المعتدلة ، ولكن صحيح ايضا أن جميع هذه الحكومات لا يشتملن عليها ؛ جميعهن يقتربن منها ، والا فهن يندلقن في الاستبداد ، ولكن جميعهن لا يبلغنها .

فما هي اذاً ؟ ما من كلمة اكثر التباسا من كلمة حرية ، ما من كلمة نالت مدلولات مختلفة اكثر مما هي نالت :

> ان شعبا ما [الموسكوف Moscovites] طالما اعتبر الحرية عادة حمل لحية طويلة ... ، كل شعب دعا حرية الحكومة الموافقة لعاداته او لميوله . بما ان الشعب ، في الديمقراطيات ، يبدو يعمل تقريبا ما يشاء ، لذا فقد وضعت الحرية في هذه الانواع من الحكم ، **وخلطت سلطة الشعب مع حرية الشعب ....، بَيدَ ان الحرية السياسية ليس قوامها ان يعمل المرء ما يشاء .**

عندئذ ، ما قوامها ؟ ان يستطيع المرء ان يعمل ما **يجب** ان يريده ، ان لا يرغم ابدا على عمل ما لا **يجب** أن يريده . ولكن من الذي يحدد الواجب ، ما يجب ان يريده المرء ؟ القوانين . الحرية هي سلطة القوانين لا الشعب ... وسلطة القوانين هي ذي حرية الشعب . حكمة يجب ان تحفر في الرخام . «الحرية هي حق عمل **كل ما تسمح به القوانين** ؛ واذا كان مواطن يستطيع ان يعمل ما تمنع لما بقيت له حرية ، لان الآخرين يكون لهم على كل حال هذه القدرة» .

هكذا حرية الدستور ، اساس حرية المواطن : «الحرية السياسية في مواطن

من المواطنين هي هذه الراحة الذهنية الآتية من الراي الذي لكل واحد عن أمنه ؛ ولكي تكون لنا هذه الحرية ، ينبغي ان تكون الحكومة على نحو لا يمكن معه لمواطن ان يخشى مواطنا آخر» .

رأينا ان هذه الحرية ليست دائما في الحكومات المعتدلة ، جمهورية كانت او مونارشية ، لان تجاوز السلطة ، سوء استعمالها ــ اذاً الاعتداء على أمن المواطن ــ ليس مستثنى من هذه الاشكال نفسها . «انها لتجربة أزلية ان كل انسان ذي سلطة ينحمل الى اساءة استعمالها والتجاوز ؛ انه يذهب الى ان يجـد حدوداً امامه . **من كان ليقول ذلك !الفضيلة نفسها بحاجة الى حدود تُحد**» . ان سوء استعمال السلطة لا يمنع الا اذا «بترتيب الاشياء ، **السلطة توقـف السلطة**» . الامر الذي يفترض لا السلطة الوحيدة والمركزة ، بل تجزئة السلطة وبعـض **توزيع لسلطات منفصلة** . العبارة الكلاسيكية «فصل السلطات» ، التي من جهـة اخرى لا يستخدمها مونتسكيو ابدا ، مسطحة جدا ونحيلة تماما ، كي تقدم تقريرا عن فكرة بهذا الامتلاء .

الحرية السياسية معرَّفة هكذا ، ان امة وحيدة في العالم لها اياها موضوعا مباشرا لدستورها . مونتسكيو سيحلل الان هذا الدستور في الفصل السادس من الكتاب الحادي عشر ، وهو فصل طويل ورئيسي ، عليه ستنحني اجيال من اخصائيي الحقوق الدستورية .

هذا الفصل الشهير ، الذي يذكرونه ويستشهدون بنصوصه اكثر مما يقرؤونه سطرا سطرا ، يشتمل ، بالحقيقة ، على موضوعين اثنين مختلفين مع كونهمـا وثيقي الارتباط ؛ الاول هو نظرية فصل السلطات ، **مجردة** ؛ الثاني هو الوصف **العيني** لآليات الحكومة الانكليزية . عيني ، وان محجوب ، مخلوط ، على نحـو غريب ، ــ حيطة ازاء الرقابة ؟ ــ بالاستخدام المثير المزعج لصيغـة الشرط conditionnel والغيـاب الكامل لاية تسمية محددة (مجلس اللوردات ، مجلس العموم ، الخ ...) لآليات الحكم . فضلاً عن ذلك ، الانتقال ــ الانزلاق من الموضوع الاول الى الموضوع الثاني متدرج غير محسوس ، الأمر الذي لا يسَير بدون بعض تردد . لاعتبر المؤلف من آخر مدَّع ان يلجأ الى حيَل خارجية لاظهار الانتقال الى قارئه ، وهو شديد الحرص على افتراضه ذكيا جدا .

الذكريات من لوك في تقديم نظرية ما يسمى فصل السلطات جلية . ولكـن مونتسكيو يجعل من القضائي سلطة متميزة ، السلطة الثالثة ، في حين ان لوك يبدو لا يرى فيه سوى فرع من التنفيذي . «**لكان كل شيء يضيع لو كان رجل واحد او جسم واحد من الرئيسيين او من النبلاء او من الشعب يمارس هـذه السلطات الثلاث : سلطة صنع القوانين ، سلطة تنفيذ القرارات العامة ، وسلطة محاكمة جرائم او خلافات الافراد**» . اذ ليس ثمة حرية حين يكون التشريعـي والتنفيذي مجموعَين في نفس الايدي . «**يخشى ان يعمـل نفس الملك او نفس مجلس الشيوخ قوانين طغيانية لينفذها طغيانية**» . كذلك ليس ثمة حرية حين لا يكون سلطان القضاء ، القضائـي ، مفصولا عن التشريعـي وعن التنفيذي .

«اذا كان منضما الى السلطان التشريعي ، تكون السلطة على حياة وحرية المواطنين عسفية ؛ اذ يكون القاضي مشرّعا ؛ واذا كان منضما الى السلطان التنفيذي ، يمكن ان يكون القاضي قوة مضطهِدة» . ان ما يتيح لمونتسكيو ان يصف المونارشيــــة بالحكومة المعتدلة ، هو بالضبط ان الامير ، في معظم ممالك اوروبا ، الذي يجمع في أيديه السلطتين الاولى والثانية ، يترك لآخرين ممارسة الثالثة : «عند الاتراك، حيث هذه السلطات الثلاث مجتمعة على رأس السلطان ، يسود استبداد فظيع».

لكن ها ان مونتسكيو ، بدون ان يقولها ، ان ليس فيما بعد وبشكل عارض تماما («من القدرات الثلاث التي تكلمنا عنها ، قدرة القضاء هي نوعا ما عدم») ، ينتقل الى دراسة القوى العيانية الثلاث التي يؤلف تركيبها الحكومة الانكليزية : الشعب ، النبلاء ، الملك . ما يصفه لنا هو حكومة **مختلطة** mixte ، وان كان لا يستخدم المصطلح ، هو هذا النموذج الحكومي الذي كان بودان قد شجبه بالعزم الذي نعلم . منذ ثورة ١٦٨٨ ، كان نظام انكلترة قد اتخذ نهائيا هذه الهيئة ــ على الاقل الخارجية ــ ، هيئة حكومة مختلطة. كان التطور بعيــــــدا عن الاكتمال ؛ مونتسكيو يصور لنا هذه الحكومة ، او بالاصح (اذ ان هذا الفصل ، كما يلاحظ ٢. سوريل ، خال من اي لون) يخطها لنا ، بخط ناشف وواضح محدّد ، كمــا كانت تمثل حوالي سنوات ١٧٣٠ ، كما لو ان كل شيء قد قيل . البروز يكسب في ذلك ، على حساب الحقيقة المتواضعة .

اول قوة او قدرة ينظر اليها في هذا المنظور الجديد : الشعب .
انه لا يفعل بنفسه ، بل بممثليه .

بما ان كل انسان ، في دولة حرة ، مفترض فيه انه ذو نفس حرة ، يجب ان يحكم بنفسه ، لذا كان ينبغي ان يحوز الشعب ــ في ــ جسم السلطان التشريعي ؛ ولكن بما ان هذا مستحيل في الدول الكبيرة ومعرّض لمصاعب كثيرة في الدول الصغيرة ، لذا ينبغي ان يعمل الشعب بممثليه كل ما لا يستطيع عمله بنفسه .

كيف يختار هؤلاء الممثلون ؟ لا يمكن ان يختاروا في جسم الامــــة عموما . الاصلح ان يتم ذلك في اطار محلي ، الامر الذي يفترض تقطيعا للبلد الى دوائر ، بحيث يختار السكان ممثلا لهم في كل مكان رئيسي . **«اليعرف المرء حاجــــات مدينته افضل بكثير من حاجات المدن الاخرى ، ويحكم بشكل افضل على كفــاءة جيرانه مما يحكم على كفاءة مواطنيه الآخرين»** . ومن فــي كل دائرة له حــــق الانتخاب ؟ «جميع المواطنين ، باستثناء اولئك الذين هم في حالة من الدنــــاءة يشتهرون معها بأنهم بلا ارادة ذاتية» . جسم الممثلين المؤلف على النحو المذكور لا يتخذ ، من جهة اخرى ، هو ايضا «قرارات فاعلة» ، فهذا امر لا يتقنه وليس من اجله يتم اختياره ، «بل **ليعمل قوانين او ليرى ما اذا نفذت جيدا القوانين التي**

عملها ، وهو امر يستطيع ان يعمله جيدا جدا ، بل وليس هناك سواه يستطيع ان يعمله جيدا» .

تعرّف القارىء على القواعد الرئيسية للنظام التمثيلي الحديث ، كما كانت قد فرضت نفسها في انكلترة قبل ان تدور دورة البلدان المتمدنة ؛ تعرف على غرفة العمـوم chambre des Communes ، امّ المجالس المنتخبة .

القدرة الثانية ، **النبالة** . لماذا وراثية ؟ لماذا تؤلف جسما خاصا يشاطـر السلطة التشريعية مع جسم ممثلي الشعب ؟ لماذا ، في مضمار المالية ، بالعكس ، ليس لهذا الجسم من النبلاء سوى **فيتو** Veto : انا امنع ؟ الاجابة عن هذه الاسئلة ، هي بنفس الضربة وصف سلطات غرفة اللوردات **chambre des Lords** آنـذاك .

«جسم النبلاء يجب أن يكون وراثيا . انه كذلك اولا بطبيعته ؛ ومن جهـة اخرى ، ينبغي ان يكون له مصلحة كبيرة جدا في صون امتيازاته ، القبيحة بحد ذاتها ، والتي يجب ، في دولة حرة ان تكون دائما في خطر» . هل ثمة مصلحة اكبر من ان ينقل المرء الى اولاده مزاياه ذاتها ؟

> [هؤلاء الناس ،] المتميزون بالـولادة او الثروات او القـاب الشرف ... ، لو كانوا مخلوطين بين الشعب ، ولو لم يكن لهم فيه سوى صوت واحد ، كالآخرين ، **لكانت الحرية العامة عبوديتهم** ، ولما كان لهم اية مصلحة في الدفاع عنها ، لان معظم القرارات كانت تكون ضدهم . فالسهم الذي لهم في التشريع يجب اذاً ان يكون متناسبا مع المزايا الاخرى التي لهم فـي الدولة : الامر الـذي سيحصل اذا ما شكلوا جسما يكون له حق ايقاف مشاريع الشعب كما الشعب له حق ايقاف مشاريعهم .

حالة خاصة ، المالية :

> ولكن ، لما كان يمكن لقوة وراثية ان تنساق الى اتباع مصالحها الخاصة والى نسيان مصالح الشعب ، لذا ينبغي ، في الامور حيث توجد مصلحة كبيرة في افسادها ، مثلا في القوانين التي تخـص الضرائب ، ان لا يكون لها سهم في التشريع الا بقدرتها على المنع لا بقدرتها على التقرير .

القدرة على التقرير ، هي حق جهة في ان تأمر بنفسها ومن ذاتهـا ، او ان تصحح ، ان تعدّل ، أن تعيد عمل ما عمله غيرها ؛ في حين ان **القدرة على المنع** ليست سوى حق رفض ، اذن إبطال ما امر به الغير ، دون امكان مسه .

«**هكذا فالسلطان التشريعي سيسلّم لجسم النبلاء ، والجسم الذي سيختار**

لتمثيل الشعب ، اللذين سيكون لكل منهما مجلسه ومناقشاته على حدة ، وسيكون لهما نظرات ومصالح منفصلة» . هكذا سيكون في حوزة كل من فريقي او مجلسي الجسم التشريعي الوزن المخفف الضروري لتمكينه من مقاومة الآخر .

القدرة الثالثة : المونارك ، الملك . اليه تعود السلطة التنفيذية ، لان «هـذا الجزء من الحكومة الذي يحتاج دوما تقريبا الى فعل موقت انما يديره شخص واحد افضل مما يديره عدد من الاشخاص ، في حين ان ما يتبع السلطان التشريعي غالبا ما ينظمه عدد من الاشخاص افضل مما ينظمه شخص واحد» . بدون ملك ، ماذا يحصل ؟ التنفيذي يجب ان يسلّم لعدد من اعضاء التشريعي ، للجنة من التشريعي . ذلك يكون جمعا في أيدي هذه اللجنة للسلطتين اللتين يميز انفصالهما الدولة الحرة . «لن يبقى ثمة حرية» . بهذه المفردات ، يدين مونتسكيو بلا استثناء الحكومة المجلسية gouvernement d'assemblée ؛ ولا يدين أقل ، الحكومة البرلمانية مع غلبة التشريعي ؛ انه يترجم عن وضعية دستورية انكليزية ، حيث ، يجب ان لا ننسى ذلك ، الوزراء كانوا يحكمون باسم الملك ، وليس بتاتا كمندوبين لاكثرية العموم . وهي مرحلة سيجري تخطيها ذات يوم ، في انكلترة نفسها .

كيف يعطى هذا المونارك (و وزراؤه) «الوزن المخفف» الضروري لتمكينه من مقاومة التشريعي ، وقبل كل شيء الكومونات ، العموم ؟ كيف يعطى التشريعي (وقبل كل شيء العموم) «الوزن المخفف» الضروري لتمكينه من مقاومة التنفيذي؟

الآلة الحكومية الانكليزية كانت من هذه الحيثية ـ أو كانت تبدو ـ محكمة بشكل فائق منذ سنة ١٦٨٨ . في كتابه **تاريخ انكلترة** ، الصادر من ١٧٢٢ الـى ١٧٢٥ ، الفرنسي رابن ـ تويرا Rapin Thoyras ، وهو لاجىء بروتستانتي ، كان قد كتب :

> هدف الدستور الانكليزي ، هو الحرية . الوسيلة ، هـي مونارخية مختلطة ... . امتيازات الملك ، الكبار ، الشعب ، يعدّل بعضها بعضا لدرجة كبيرة بحيث يساند بعضها بعضا . في الوقت نفسه ، كلّ من هذه القدرات الثلاث التي تشارك فـي الحكم تستطيع ان تضع عقبات لا تقهر امام المشاريع التي قد تريد احدى القدرتين الاخريين او حتى الاثنتان معا ان تعملاها لتجعلا نفسيهما مستقلتين .

هذه الجمل الثقيلة كانت تغلب من بعيد ، في الوضوح الوصفي ، لوك الذكي. مونتسكيو ـ الذي يعرف مؤلف رابن ـ تويرا والذي يستعمله جيدا ، يقـول سوريل ، بحيث انه «ينسّيه للاجيال التالية» ـ سيستثمر الان موضوعة **التقييد التبادلي للقوى** هذه ، بفرح صامت وناشف . ضبط رائع لأوزان وأوزان مضادة ، لروافع وكوابح ، لافعال وردود أفعال ! انها حقا «تحفة التشريع» الناجمة عن أي

فطنة عجيبة ، عن اي حس عملي رائع في استخدام مصادقات ــ وخضّات ــ التاريخ !

اليكم اذاً الدستور الاساسي للحكومة التي نتكلم عنها . بما ان الجسم التشريعي هنا مؤلف من جزءين ، فان كل جزء سيقيد الآخر بقدرته على المنع المتبادل . وكلا الجزءين سيُربطان من قبل السلطة التنفيذية التي ستُربط هي نفسها من قبل التشريعية .

اين يجد التشريعي الوزن المخفّف الضروري لمقاومة التنفيذي ؟ الجواب : التشريعي مؤمّن بجلسات دورية ؛ لن يُرى بعد ذلك ملوك يحاولون ، كما كان قد فعل آل ستيوارت ، ان يحكموا بدون برلمان .

اذا كان الجسم التشريعي زمنا طويلا بدون ان يُجمع ، لا يكون بعد ذلك ثمة حرية . اذ سيحصل احد امرين : إما ان لا يكون هنالك قرارات تشريعية ، والدولة تسقط في الفوضى ؛ او ان تتخذ هذه القرارات من قبل السلطان التنفيذي ، ويصير مطلقا .

قاعدتان تضمنان دعوة البرلمان الى الانعقاد السنوي : قاعدة التصويت السنوي على الميزانية ، قاعدة التصويت السنوي على القانون الآذن بالجيش الدائم . والاّ يُخشى ان يفقد التشريعي حريته لان التنفيذي لا يعود متوقفا عليه . للتشريعي وحده ، **صلاحية التقرير** ، اي صلاحية الامر والتصحيح ، على التشريع . «اذا كان الملك يشارك في التشريع بالقدرة على التقرير ، لا تبقى هناك حرية» . للتشريعي صلاحية لا ايقاف التنفيذي بل فحص بأية طريقة نفّذت القوانين التي عملها (رقابة برلمانية ، سوف يقال لاحقا) . واذا كانت نفّذت على نحو سيء ، لا يستطيع التشريعي ان يؤاخذ الملك ، الذي لا تنتهك حرمته والذي هو مقدس ، بل مستشاريه ، الذين يمكن «البحث عنهم ومعاقبتهم» . لقد تعرّف القارىء هنا على قاعدة الـ impeachement الانكليزية : اتهام وزير من قبل العموم امام اللوردات .

اما التنفيذي فهو يدعو الى الانعقاد التشريعي ، الذي لا يجب ان يكون منعقدا بشكل دائم ، والذي لا يجب ان ينعقد هو بنفسه (لوك كان قد فكّر على النحو نفسه) ، كما لا يجب ان ينفضّ اي ان ينفصل ، بنفسه . عدا اسباب اخرى ثمة لهذه القواعد هذا السبب وهو كاف : امن التنفيذي . ان تشريعيا دائم الانعقاد «يشغل كثيرا السلطة التنفيذية ، التي لن تفكر بالتنفيذ ، بل بالدفاع عن امتيازاتها» . ان تشريعيا يكون له حق الانفضاض بنفسه ، «قد يحدث ان لا ينفضّ ابدا ، وهذا يكون امرا خطرا في حال ارادة الاعتداء على السلطة المنفذة» . يلزم اذاً ان يضبط التنفيذي زمن انعقاد ودوام جلسات التشريعي .

الملك ، الذي لا يستطيع ، راينا لماذا ، الاشتراك في التشريع **بقدرته على التقرير** ، يجب ان يشترك فيه **بقدرته على المنع** . لماذا ؟ لكي يدافع عن نفسه ، لكي يتجنب رؤية نفسه «عما قريب مجردا من امتيازاته» . لقد تعرّف القارىء على **الفيتو** Veto الملكي ، الذي كان يسمح للمونارك الانكليزي بتنحية **مشروع** bill اقرّه المجلسان . ولكن ، منذ سنة ١٧٠٧ ، حين الملكة آن Anne كانت ايضا قد استخدمته ، كان الفيتو قد مات : **مات مثل الملكة آن** [٨] . مونتسكيو يجهل هذه الواقعة ، او لا يقيم لها حسابا.

اخيرا ، المونارك ، نعلم ذلك ، مصون ومقدس ؛ لدرجة ان مستشاريه او وزراءه يجيبون عنه . هذا يلزم . يلزم من اجل الحرية : «الجسم التشريعي لا يجب ان تكون له سلطة محاكمة شخص وبالتالي سلوك الذي ينفذ . يجب ان يكون شخصه مقدسا ، لانه بما انه ضروري للدولة كي لا يصير الجسم التشريعي طغيانيا فما ان يتهم او يحاكَم حتى لا يكون ثمة حرية . في هذه الحالات ، لا تكون الدولة مونارشية بل جمهورية غير حرة» .ملاحظة نافذة ، تستدعي الى الذاكرة محاكمة شارل الاول ستوارت ، وتضيء سلفا محاكمة لويس السادس عشر وآثارها .

كيف لا نعجب مع مونتسكيو بساعة بمثل هذا الاتقان والكمال ؟ بيد ان اعتراضا يأتي الى الذهن . ان توازنا بهذا الجمال الا يُخشى ان يفضي الى الجمود، جمود ابطال من لاعبي القوى ذوي قوة متساوية يجهدون ، كتفا ضد كتف ، يجهدون عبثا للتدافع ؟ اذا كانت قدراتنا الثلاث المتناحرة (التي لم تعد ، وهذا هو الانتقال ــ الانزلاق الذي كنا قد اعلنا عنه ، هي سلطات البداية الثلاث المجردة ، بل هي ثلاث قوى اجتماعية ، شعب ، ملك ، نبالة ، حيث هذه الاخيرة هي العنصر الموسِّط ، «السلطة الوسيطة») ، اذا كانت قدراتنا الثلاث المتنافية تتكابح جيدا كثيرا ، فان كل هذه الآلة الحكومية الرائعة تقف ، تسَدّ ، تتجمد . ــ كلا ، يجيب مونتسكيو الذي رأى الاعتراض سلفا ؛ نعلم جيدا ان هناك حركة للاعمال ، يجب ان لا تكون بطيئة ولا سريعة اكثر من اللازم ، وتجر بالضرورة في فعل مشترك القوى التي يقيد بعضها بعضا : «**هذه الاستطاعات الثلاث من المفروض ان تشكل سكونا او لافعلا . ولكن ، بما انها بحكم الحركة الضرورية للاشياء مرغمة على السير ، فستكون مجبَرة على السير معا بالتعاون**» .

جواب فاتن ، ولكنه مطبوع بتفاؤل غامض . اذ ربما كان الوقت مبكرا لكي يفرض الحل الحقيقي نفسه على ملاحظ النظمة الانكليزية . هذا الحل كان الوزير الاول ، رئيس الوزراء ، زعيم اكثريته ، المتمتع بثقة هذه الاكثرية وبثقة الملك معا، القادر هكذا على ان يسيِّر «معا بالتعاون» كل الاجزاء المتبادلة التقييد في العربة

---

٨ ــ آن Anne ستيوارت ، ملكة انكلترة وسكوتلنده من ١٧٠٢ الى ١٧١٤ ، ابنة جيمس الثاني ، كافحت ضد لويس الرابع عشر .

الحكومية . هل كان مونتسكيو قد تأمل بشكل كاف في ممارسة السلطة على يد والبول Walpole ؟

ولكن لا نقاطعن لذتنا او بالاحرى لذة قراء عام ١٧٤٨ ! أجل ، ليس كل شيء مقولا في هذا الوصف الذائع الصيت ، لكن هل هناك في اي مؤلف سياسي كبير آخر ثروة افكار بهذا الفيض الذي نجد في هذا الفصل الواحد ـ الوافر الغزير ، هذا صحيح ـ من **روح القوانين** ؟ «ثمة هنا بضع صفحات مارسنت أعمق تأثير على الحقوق الدستورية للغرب» (إسمين Esmein .

درءاً للوم السهل التوقع ، لوم تخفيض فرنسا بتمجيد انكلترة ، ينهي مونتسكيو هذا الفصل المشهود بهذه السطور التي يفوح منها الدفاع وربما التظاهر:

> انا لا ادّعي قط بذلك تخفيض الحكومات الاخرى ولا القول بأن هذه الحرية السياسية المتطرفة يجب ان تعذب الذين ليس عندهم سوى حرية معتدلة . كيف يمكن ان اقول ذلك ، انا الذي أومن بأن زيادة العقل نفسها ليست دوما مرغوبة وبأن البشر دائما تقريبا يرتاحون لاواسط الامور اكثر مما يرتاحون لاطرافها ؟

لغة مرتبكة ، وقليلة الإقناع . الى هنا ، لم يكن المؤلف بتاتا قد راى في حرية الدستور الانكليزي زيادة او إفراطا من العقل ، تطرفا . يفهم اذاً ان عليه ان يشرح نفسه شرحا افضل . و ، في الفصل السابع الصغير الذي لا يضاهى من نفس الكتاب التاسع (**في المونارخيات المعروفة**) ، يضع ويُحكِم الفرق بين نوعين من الحكومة المعتدلة . حكومة معتدلة تعدّ لها فقط الاجسام الوسيطة ، وكذلك بعض انفصال للتنفيذي عن القضائي : هذه فرنسا . حكومة معتدلة لها الحرية السياسية موضوعا مباشرا ، وموجهة بالتمام من قبلها ، وكذلك من قبل الحرص على «أمن الرعية» ، «تحفة تشريع» حقة ، تغلق كل مخرج الى الاستبداد المكروه : هذه انكلترة .

> المونارخيات التي نعرف ليس لها ، كالمونارخية التي تكلمنا عنها لتوّنا ، الحرية موضوعا مباشرا لها ؛ انها لا تنزع الا الى مجد المواطنين والدولة والامير . ولكن من هذا المجد ينتج روح من الحرية يستطيع ، في هذه الدول ، أن يعمل اشياء عظيمة بالقدر نفسه وربما أن يسهم في السعادة بالقدر نفسه كالحرية ذاتها . السلطات الثلاث ليست هنا موزعة ومصهورة على موديل الدستور الذي تكلمنا عنه . لكل منها توزيع خاص ، بموجبه تقترب كثيرا او قليلا من الحرية السياسية ؛ ولو لم تكن هي تقترب ، لكانت المونارخية تنحط الى استبدادية .

احتياطات كثيرة ولكنها كانت بلا جدوى على الاطلاق . لاسيما وأن ، في «فصل انكليزي» آخر ، مخصص لروح الامة البريطانية العام ، ان الاعجاب يفوق من بعيد التحفظات . طوعا أو كرها ، كان لمونتسكيو ان يصبح الداعية الاشهر والافعل للمؤسسات الانكليزية في فرنسا . ومع ذلك يبدو جيداً انه حقا لم يعتقد ممكنا ، بحكم تصوره العام للقوانين ، ان تنقل المؤسسات الانكليزية وتغرس بنجاح في بلد كفرنسا ، طابعه مغاير الى هذا الحد . يبدو جيداً انه تمنى ببساطة ان تعاد المونارخية الفرنسية الى طبيعتها ومبدئها ، اللذين في فهمه كانت تنحرف عنهما بشكل خطر .

مهما يكن من أمر ، فولتير ، بلا سرور ، سيسجل ، هو ، مؤلف هذه **الرسائل الفلسفية** او **الرسائل الانكليزية** لعام ١٧٣٤ التي ، مع كونها سطحية جدا ، كانت قد مهدت الارض لدراسة خصمه الكبير العظيمة ؛ فولتير يكتب : مديح مونتسكيو «للحكومة الانكليزية هو ما سرّ اكثر في فرنسا» . يقينا ، مديح رائع ، ــ يزمجر المونارخيون الفرنسيون الدقيقون النزقون ، ــ المديح الذي يضع الدستور الانكليزي «فوق دساتير سائر دول اوروبا» ، الذي يعطيه «التفوق عاليا» على الدستور القومي : عمل جميل أن «صعّد الى الانكلزة» ، الى ذروة الانكلزة المخيلات الفرنسية ! «لفرط كونه صديقا للبشر ــ يكتب كروفيه Crevier ــ ، مؤلف **روح القوانين** ينقطع عن حب وطنه بقدر ما يجب عليه . الانكليزي لا شك راض ومعجب بذاته حين يقرأ هذا العمل ، ولكن هذه القراءة ليس بوسعها الا ان تعذب الفرنسيين الجيدين» .

نظرية المناخات

الاسباب الفيزية أم الاسباب الخلقية ، أيهما يهيمن ؟ الانسان ــ الروح أم الانسان ــ الحيوان ، الآلة ، المادة أيهما يغلب في السلوك الانساني ؟ نقاش كبير هو ، بالجوهر ، سجال **الضرورة** و **الحرية** . بين الاسباب الفيزية ، المناخ ، منذ ارسطو ، هيبوقراط ، جالينوس ، بوليب Polype ‹٩› ، كان قد لفت انتباه الملاحظين . ولكن بودان كان اول من أدخل حقا فكرة المناخ في العلم السياسي . فعل ذلك بطريقته الغريبة والناقصة ، خالطا الملاحظات التي كانت توحيها اليه قراءاته الهائلة عن العالم المعروف (موسكوفيا وإثيوبية ضمنا) بنظرات تنجيمية و«تناسقية» .

---

٩ ــ **هيبوقراط** (ق ٤ ق م) ، **جالينوس** (ق ٢ ميلادي) : المع اطباء العصر القديم ، يونانيان . **بوليب** (ق ٢ ق م) مؤرخ يوناني .

في الفصل الاول من الكتاب الخامس من **الجمهورية** ، كان بودان يزعم انه يقدم وسيلة معرفة طبيعي الشعوب . ثلاثة مناخات ، حسب رأيه ، الشمال ، الجنوب، والمتوسط او معتدل ، تعطي ثلاثة نماذج من البشر عميقة الاختلاف . رجل الشمال عنده القوة ، ــ الجيوش الكبيرة اتت من الشمال ، ــ انه شرس ، عاصف ، ولكن عفيف ومحتشم . انه متحرك وبلا كلام . يحكم بالقوة : «وايضا الان في المانيا ، يقيمون شأنا كبيرا لحق العساكر (١٠) الذي ليس إلهيا ولا بشريا ولا كنسيا . هكذا [ولكن] انه الاقوى يريد ان يعمل الناس ما يأمر به» . رجل الجنوب «شبق جدا»، حقود وماكر ، ميال الى العلوم الخفية والتأملية ، الى الفلسفة ، الى الرياضيات، الى التأملات الدينية . يحكم بالدين . رجل المناخ . المعتدل ، اقل قوة من رجل الشمال ، أعقل من رجل الجنوب ، ولا يتألم من نظام الزوجة الواحدة ؛ «العلوم السياسية ، القوانين ، الفقه ، نعمة القول الجيد والخطاب الجيد ، نصيبه وقسمته . يحكم بالعقل والعدل» .

يجب ايضا ان نحسب حساب تأثير الرياح ، التي تجعل البشر قلقين ، كثيري الحراكة ؛ تأثير الجبال ، التي تجعل البشر مستقلين ، متعطشين الى الحرية السياسية ، والى حكم الذات بالذات : «اذاً يخدع نفسه كثيرا من يريد ان يغير الدولة الشعبية للسويسريين والغريزون Grisons (١١) وغيرهم من سكان الجبال الى مونارخية ، اذ رغم ان المونارخية افضل كثيرا بحد ذاتها الا ان الرعية ليست صالحة لها» .

كان بودان مع ذلك يحرص على اعلان ان البلد وطبيعة الاماكن لا يحملان «لزوما الى اخلاق البشر» . الانضباط ، التهذيب Discipline يمكن ان يغير الطبيعي : «كم للغذاء [للتربية] ، للقوانين ، للعادات ، من سلطان على تغيير الطبيعة» . في اتجاه معاكس ، الارتخاء يمكن ان يتلف أجمل مواهب الطبيعة : الرومان ليس لهم «بتاتا سناء وفضائل آبائهم ، بحكم عطالة رهلة وبطالة جبانة» . غير قابلة للطعن تبدو لنا النتيجة التالية لفصل قابل اكثر من مرة للطعن :

> هذا بصدد الميول الطبيعية للشعوب ، الا انها لا تفرض لزوما ضروريا ، كما استنتجت ، ولكنها ذات عاقبة كبيرة بالنسبة لاقامة الجمهوريات ، القوانين ، العادات ، ولمعرفة بأي شكل ينبغي التعامل او التسليم مع البعض والبعض الآخر .

---

١٠ ـ Droit de rêtres بالفرنسية خيّال الماني مرتزق في خدمة فرنسا بين ق ١٥ و ق ١٨ . الكلمة المانية بالاصل .

١١ ـ غريزون Grisons : منطقة جبال واسعة ، جزء من سويسرة ، شرقا . دخل الغريزون في الاتحاد السويسري سنة ١٨٠٣ .

هذا السجال القديم عن الاسباب الفيزية لوّع مونتسكيو . لقد كتب في مكان ما : «الخلقيون ، المعنوّيون يضعون الكثير على حساب النفس ، الآخرون يضعون الكثير على حساب الجسد ؛ اولئك ينظرون الى الانسان اكثر كروح ، هؤلاء اكثر كآلة صانع» . وبعد ان وصف بأستاذية وعظمة ، في نظريته عن الحكومات ، لعب الاسباب المعنوية ، ــ الفضيلة ، الشرف ، ــ ها ان مونتسكيو يبدو مأخوذا بنوع من جنون للاسباب الفيزية ! هذا يمكن تعليله ببعض قراءاته ، خصوصا قراءة كتاب دكتور انكليزي ، آربثنوت Arbuthnot ، **آثار الهواء على جسم الانسان**، المترجم الى الفرنسية عام ١٧٤٢ .

بحيث ان التفسير العلمي ــ الذي لم يكن بودان في الحاصل قد اعطاه ــ لتاثير المناخ على روح ، على انفعالات واهواء الانسان ، وبالتالي على سلوكه السياسي ، يقترحه علينا مونتسكيو في بداية كتابه الرابع عشر : «**(عن القوانين في علاقتها مع طبيعة المناخ)**» . لننصت الى المؤلف يتبحّث بلغة العلم والرضى في مفاعيل الهواء البارد والهواء الساخن . الهواء البارد ، اذ يوثّق أطراف الالياف الخارجية في جسدنا ، يقصّر هذه الالياف ويزيد قوتها ؛ الهواء الساخن ، بالعكس ، اذ يرخي أطراف الالياف ويطولها ، يخفض قوتها ونابضها . ب. هازار يهزأ باحترام من هذه الخيالات للعبقري : «اذا استغربنا هذا التدخل من الالياف في **روح القوانين**، آلمنا مونتسكيو ، لانه كان شديد التمسك به ...» . فقد كان كبيرا جدا عند مؤلفنا ، في لحظة معطاة ، «الميل الى تفسير روح القوانين بالمادة» ، و ، لئن انتهى الى رده ، فليس ذلك بدون ان يكون قد سلّم له بما يكفي لكي لا يندم على شيء .

فلنتبعه في مسيرته الملتوية .

هكذا فالالياف تريد ان يكون للمرء مزيد من قوة في المناخات الباردة . وبذلك مزيد من الثقة بالذات ، مزيد من معرفة لتفوقه ، من راي في امنه ، من شجاعة على التقرير والشروع . ومن هذا تشتق رغبة في الانتقام أقل ، شبهات وسياسة وخداعات أقل ، صدق اكثر . ياه ! ذلك كثير من الفضائل ، يبتسم آ. سوريل ، «للصقيع والرطوبة» : فلنعجَب بعد الان بصدق النورمانديين ، ولنكف عن الحديث عن انكلترة الغدّارة La perfide Albion وعن شجارات المان !

الالياف تريد ايضا ان يكون المرء ، في المناخات الباردة ، قليل التحسس للّذات ، للالم ، للحب . ولئن كان الانكليز يقتلون انفسهم عن طيب خاطر بلا سبب ، عن سأم (انكليزي) Spleen ، فالالياف ليست ربما مذنبة ، ولكن الامر مرده على اي حال الى «الحالة الفيزية للالة» ؛ هذه الماكينة تعبة ضجرة من ذاتها، نتيجة على ما يبدو نقص «ترشح العصارة العصبية» . داء يظهر ، ليس له مكان خاص : ثقل الحياة .

ولكن اي علاقة ، سيقول القارىء ، مع حكومة الانكليز ، مع هذه الحرية المضبوطة بالقوانين ؟ آه ! الا ترونها ؟ مونتسكيو ، هو ، «يرى جيدا ان الحكومة التي يمكن ان تناسب اكثر من غيرها اناسا لا يطيقون شيئا ، تكون هي الحكومة

التي فيها لا يستطيعون التعرض لواحد مما يسبب آلامهم والتي فيها ، بما ان القوانين هي الحاكمة اكثر من البشر ، يكون من اللازم لتغيير الدولة الاطاحة بالقوانين نفسها» . حكم القوانين هذا ، عدا ذلك ، لا يناسب اقل هذا «الطابع من عدم الصبر» الذي نالته الامة الانكليزية من المناخ والذي لا يسمح لها بأن تتحمل طويلا نفس الاشياء - ولا نفس الاشخاص . ولئن كانت مشاريع الطغيان تتحبط دائما في انكلترة ، أفليس ذلك بفعل نفس عدم الصبر ، نفس القلق الناجم عن المناخ ؟ «العبودية تبدأ دوما بالنوم . ولكن شعبا ليس له راحة في اية وضعية ، يجس نفسه بلا انقطاع ، ويجد كل الاماكن المؤلمة ، قلما يستطيع ان ينام» .

على هذا الموضوع ، العلاقات بين «طبيعة المناخ» و«قوانين العبودية السياسية» (عين عنوان الكتاب السابع عشر) ، مونتسكيو لا ينضب : قضايا عامة ، احيانا صحيحة ، في احيان كثيرة فاتنة ، في المناسبات جريئة مقامرة ، تترصدها سخرية فولتير - اليقظ دائما ، الجاهز دائما لازالة سكر الاستنتاج عند مؤلف **روح القوانين** .

لماذا يوجد في آسيا روح عبودية وفي اوروبا عبقرية حرية ؟ لان آسيا ليس لها مناطق معتدلة حقيقية ، بينما في اوروبا المنطقة المعتدلة واسعة جدا . بحيث في آسيا الاماكن الشديدة البرودة تلامس مباشرة الاماكن الشديدة الحرارة ، بينما في اوروبا المناخ ، من الجنوب الى الشمال ، لا يبرد الا تدريجيا بشكل لا يحس ؛ كل بلد مماثل تقريبا لجاره ، او الفرق على الاقل ليس ملحوظا .

> من هذا ينجم ان ، في آسيا ، الامم ، تعارض الامم من القوي الى الضعيف ؛ الشعوب المحاربة والشجاعة والنشيطة تلامس مباشرة شعوبا مخنثة ، كسولة ، وجلة ؛ يجب اذاً ان يكون هذا مفتوحا والآخر فاتحا . في اوروبا ، بالعكس ، الامم متعارضة من القوي الى القوي ؛ التي تتلامس لها تقريبا نفس الشجاعة . هذه هي العلة الكبيرة لضعف آسيا وقوة اوروبا ، لحرية اوروبا وعبودية آسيا ؛ وهو سبب ليس في علمي انه لحظ الى الان . هذا ما يجعل انه لا يحدث ابدا في آسيا ان الحرية تزداد ، في حين انها في اوروبا تزداد او تنقص حسب الظروف .

مونتسكيو عدا ذلك يسارع الى استدعاء سبب فيزي آخر يلعب في نفس الاتجاه : الاتساع الهائل لسهول آسيا ، الملائم للنظام الاستبدادي (كما رأينا في نظرية الحكومات) . في اوروبا ، بالعكس ، «القسمة الطبيعية تشكل دولا عديدة تافهة الاتساع» ، فيها الحكومة المعتدلة ممكنة بدون تعريض بقاء الدولة للخطر . وهذا ما ، في هذه القارة السعيدة الحظ ، شكل «عبقرية حرية تجعل كل جزء صعبا جدا خضوعه لغير قوة اجنبية» . ليكن في مقدور اوروبا ان تبقي هذه السعادة ! نعلم مخاوف مونتسكيو امام هجوم الاستبداد ؛ المؤلف يستنجد هنا

بالاسباب الفيزية ليطمئن نفسه (١٢) .

المناخ ليس بعد او تقريبا سوى ذريعة ليسترجع الموضوعة العزيزة عليه ، موضوعة تفوّق الـ جرمان او غوت Goths ، «آبائنا» ، كما يدعوهم . فهو فعلا يريد ، في هذا الكتاب السابع عشر نفسه ، ان يبرهن لنا انه لئن كانت شعوب شمال آسيا تفتح «بوصفها عبيدا» و«من اجل سيد» فان شعوب شمالي اوروبا تفتح **بوصفها رجالا احرارا** . تتار فظيعون ، اذ دمروا الامبراطورية اليونانية فقد استعبدوها ! غوت رائعون ، نبلاء وليبراليون ، اذ «فتحوا الامبراطورية الرومانية فقد اسسوا في كل مكان المونارخية والحرية» . امتياز جميل لسكاندينافيا ! الامم التي تقطنها – وهذا يجب ان يضعها فوق كل شعوب العالم – «كانت منبع حرية اوروبا ، وهذا يعني تقريبا كل الحرية الكائنة اليوم بين البشر» . الغوتي يورناندس Yornandès «دعا شمال اوروبا مصنع الجنس البشري ؛ سأدعوه بالاحرى مصنع الادوات التي تحطم الحدائد المصهورة في الجنوب . هناك تتشكل هذه الامم الباسلة التي تخرج من بلادها لتدمر الطغاة والعبيد ، ولتعلّم البشر انه بما ان الطبيعة عملتهم متساوين فان العقل ما استطاع ان يجعلهم تابعين الا من اجل سعادتهم » .

جمع عجيب ، مميز فعلا لثلاثة وجوه في روح مونتسكيو ، ان لم يكن في **روح القوانين** : سبق – الظن الاقطاعي ؛ عبادة المناخ البارد ؛ الميل ، الذي فيه يشارك المؤلف قرنه والذي فيه يتعرف قرنه على نفسه فيه ، الى الحرية ، والمساواة الاولى والسعادة !

هذا كله بالطبع ، وان كان مشوقا واخاذا ، ليس دائما اكثر جدية بكثير من بعض احلام بودان التنجيمية . «غاسكونيات» غير مستبعدة ، يقول آ. سوريل («تأثير مناخ غاسكونيا الغريب الاطوار» !) . ايتها المناخات ، كم من «تقريبا» فكهة جمعت مع ملاحظات عميقة ، يمكن ان ترتكب باسمك ! مونتسكيو نفسه يلحظ بفطنة ان «الميكانيك لها فعلا احتكاكاتها التي كثير ما تغير او توقف مفاعيل

---

١٢ – **ملاحظة على الهامش** ! عند ماركس وانجلز ، و«**النمط الاسيوي للانتاج**» ، «الاستبداد الشرقي» ، «الركود الشرقي» الخ : ١ – فكرة أثر الاتساع الهائل في النظام الاستبدادي واردة ٢ – المناخ له موقع مهم ويلعب دورا عبر الانتاج ونمط الانتاج . – مونتسكيو ، في غياب الانتاج كمقولة مركزية ، وعلم الاقتصاد السياسي والمادية التاريخية والجدلية ، يقبض على «المناخ» ، ثم يقفز من الجغرافيا الى «الروح العام» ، ويبقى مفيدا الى النهاية . انظر الفقرة التالية : «الروح العام» الناتجة ، و«المهيمنة» ... . – في **كتاب شفاليه** نجد ١٦ مؤلفا : ٨ من فرنسا ، ٣ من انكلترة ، ٣ من المانيا ، ١ لايطالي ، الروسي . فرنسا مستحقة ! حتى بغض النظر عن كون شفاليه فرنسيا في فرنسا ... . الشيء الذي نأسف له : غياب هيغل بذاته ، وغياب هيغل كمصدر وارض لماركس (لاسيما فكرة ومسألية المجتمع المدني او البرجوازي

النظرية» ، وأن السياسة لها ايضا احتكاكاتها . لا ريب ، ولكن لنعترف بأن الحك هنا كثير حقا !

عدا ذلك ، ليحترس مونتسكيو ! الانماءات الجدية ، العلمية ، يمكن ان تكون، على فصل المناخات هذا ، أخطر من الدعابات الاشد جسارة . اذ ان اللاهوتيين ساهرون . ان مفاهيم كبيرة ، تعيش او تموت بها النفوس ، داخلة في السجال. نعلم اية مفاهيم : ضرورة ، قدَر ، تعيثنية ـ حتمية ، مادية ، حلولية ـ ضد حرية، روحانية ، إله شخصي . بودان ، بكل صدق مع ذلك ، كان قد سارع ، معالجا المناخات ، الى الاحتجاج بأن تأثيرها لا يحمل «لزوما ، ضرورة» ، علاقة ضرورية. مونتسكيو ، وقد عرّض نفسه اصلا للتهلكة بهذه العبارة نفسها ، عبارة «علاقة ضرورية» ، في تعريفه للقوانين ، كان عليه ان يغطي نفسه اكثر لاسيما وأن بين بودان وبينه كان سبينوزا Spinoza ، مثل قنبلة ، قد انفجر . كان قد القى في وجه اللاهوتيين منظومته **الإثيقا** ، مع ضرورتها العقلية . لا شيء أخطرَ في القرن الثامن عشر من ان يتهم المرء بالسبينوزية .

مونتسكيو سيتّهم . سيدفع التهمة عن نفسه في الـ **دفاع عن روح القوانين،** الصادر عام ١٧٥٠ . سيكون بوسعه ان يذكّر بالفصل المعنون بشكل دالّ : **في ان المشرّعين السيئين هم الذين ساعدوا عيوب المناخ والجيدين هم الذين عارضوها** . فيه يوجه اللوم الى مشرّع بلاد الهند (الـ بوذا le Bouddha على كونه نشر مذهب إفناء ، لا فعل ، في انتظار حياة اخرى ، وهو مذهب ، «وقد وُلد من كسل المناخ وسهّله بدوره ، فقد سبَّب ألف داء» . **يهنيء** ، بالمقابل ، مشرّعي الصين (كونفوشيوس) ، على كونهم جعلوا «عملية بالتمام» دين وفلسفة وقوانين البلد ، وصالحة بالتمام لجعل الصينيين يؤدون واجبات الحياة الحاضرة . يختم بهذه الحكمة التي تنقذ كل شيء : **«كلما كانت الاسباب الفيزية تحمل البشر الى السكون ، كان على الاسباب الخلقية ان تبعدهم عنه».** فليطمئن اللاهوتيون وبشكل أوسع جميع المتحمسين للحرية ضد الضرورة : ان صينيا لن يكون بالضرورة «ما يفرضه مناخ الصين» (ب. هازار) .

ولئن كان **المؤلف** يخصص بعد كتابا ، الكتاب الثامن عشر ، للعلاقات التي للقوانين مع طبيعة الارض ، ـ وهي سبب فيزي ، ـ فانه يحفظ التالي لدراسة هذا السبب السري والمعنوي تماما ، **الروح العام** ، والعلاقات التي للقوانين مع هذا الروح العام . لقد أمكن القول (فورنول Fournol ، مع المبالغة ، ان مونتسكيو في نهاية الحساب وضع هذا المفهوم ، الروح العام ، في مركز العلم السياسي ، كما كان بودان قد وضع فيه السيادة . لكن يجب الاعتراف بأنه بعيد عن ان يكون قد نبش فيه كما فعل بودان مع السيادة . لقد فتح بإهمال ، برفعة، هذا السبيل بين سبل أخرى كثيرة .

«**ما الذي هو الروح العام** . ــ امور عديدة تحكم البشر ، المناخ ، الدين ، القوانين ، حِكَم الحكومة ، امثلة الاشياء الماضية ، الاخلاق ، الآداب العامة ؛ من هنا يتشكل روح عام ينتج عن ذلك» .

الروح العام هو اذاً ناتجة une resulante ، فيها عدا ذلك النغم معطى من قِبل احد العناصر التي عدّدت ، ما يمكن ان يدعى بلغة حديثة «المهيمنـــة» la dominante . هذه المهيمنة تختلف حسب الامم وحالتهـــا الحضاريـــة . «الطبيعة والمناخ يهيمنان منفردَين تقريبا على المتوحشين» . (هي ذي الاسباب الطبيعية معادة وموضوعة بشكل حازم في مكانهـــا) . .«آداب السلوك تحكـــم الصينيين ... ، الاخلاق العامة كانت تعطي فيما مضى النغم في سبارطـــة Lacedemane ؛ حِكَم الحكم والاخلاق القديمة كانت تعطيه- في روما» .

عندئذ يحضر سجال آخر كلاسيكي كبير . هل القوانين اقوى من الاخلاق ام الاخلاق اقوى من القوانين ؟ (هـــذا هو الـ quid leges sine moribus للأقدمين ، أيهما القوانين ام الاخلاق ؟) لا ننتظر من مونتسكيو جوابا قاطعا لا تثبته الملاحظة . ولكن لا نفاجأ اذا كان ، من البداية ، ينصح المشرّع بالحذر : **«اكـــم ينبغي الانتباه الى عدم تغيير الروح العام لأمة من الامم»** .

من لا يتعرف هنا ، وان كان مونتسكيو لا يسميها ، على الامة التي يختارها لشرح هذا المبدأ ؟ انها فرنسا . فرنسا ، قد قيل ، المونارخية ، الهييرارخية ــ التسلسلية ، والمحبة للدنيا وزَهوها ، فرنسا النظام القديم ، مع نبلائها الخفيفين، صالوناتها العابثة ، انيقاتها غير القاسيات . بل ... ملامح كثيرة من هذه اللوحة الفاتنة ألا تصلح لفرنسيي كل الازمنة وكل الاحوال ؟ سيحكم القارىء .

اذا كان هناك في العالم أمة لها مزاج اجتماعي ، انفتاح قلب ، فرح في الحياة ، ذوق ، سهولة في ايصال افكارها ؛ أمة حيوية ، لطيفة ، مغناج ، احيانا متهورة ، احيانا كثيرة غير مكتومة ، ولها مع ذلك شجاعة ، كرم ، صدق ، نقطة شرف ما ، عندئـــذ **لا يجب السعـــــي الى ارباك آدابها بقوانين كي لا تربك فضائلهـــا** .
اذا بوجه عام كانِ الطابع جيدا ، ما أهمية بضعة عيوب موجودة فيه؟ يُمكن ايقاف النساء ، صنع قوانين لتصحيح اخلاقهن والحد من ترفهن ، ولكن من يعلم ما اذا كنا بذلك لا نخسر ذوقا ما يكون مصدر ثروات الامة وادبا يجذب اليها الاجانب ؟... اعطوا روحا من الادعاء لأمة بطبعها مرحة ، لن تكسب الدولة في ذلك شيئا لا للداخل ولا للخارج. **دعوها تعمل الاشياء العابثة بجد ، والاشياء الجدية بمرح.**

يجب الاتفاق على انه ، في هذا الطابع لكل أمة ، تتخالط الرذائل والفضائل

وتؤلف بيتا سعيدا . انه تشابك ، توازن من صفات جيدة وسيئة . «البيوت السعيدة هي التي تنتج عنها خيرات كثيرة ، وكثيرا ما لا نفكر بها» . أليس هذا الى حد ما بلا أخلاق فعلا ، اولا نشم الى حد ما رائحة الهرطقة الجديرة بالاحراق؟ أجل ، يسارع مونتسكيو ويلقي ، كلاّ للاخلاقيين الثقيلي الروح ، الذين يشعر بنظرتهم المزعجة تزن عليه ، بهذه الجملة المطمئنة : «انا لم اقل هذا لكي أنقص شيئا من المسافة اللامتناهية الموجودة بين الرذائل والفضائل : لا سمح الله !» . الا انه يقدم ، لتبرير نفسه ، تمييزا ملتبسا بين رذائل اخلاقية ورذائل سياسية، ترشح منه ومضة ماكيافيلية خبيثة .

حكمة ، على كل حال ، للتأمل من قبل المشرّع الحريص مطلقا على إحداث تغيرات : اصلاح **بالقوانين** ما هو متقام بالقوانين ؛ ولكن عدم تغيير الا **بأخلاق اخرى** وآداب اخرى ما هو متقام بالاخلاق وبالآداب . لوم لبطرس الاكبر : «القانون الذي كان يجبر الموسكوف على قص اللحية واللباس ، وعنف بطرس الاول الذي كان يفرض أن تقطع حتى الركب الاثواب الطويلة للذين كانوا يدخلون المدن ، كانا طغيانيين» . القيصر الحديدي لم يكن قط بحاجة الى هذه الوسائل العنيفة ، لكان وصل على اي حال الى هدفه باللين ؛ كان «رأيه بالغ السوء» بشعوبه ، التي لم تكن «بهائم ، كما كان يقول» . مع هذا ال بطرس القاسي المفرط يؤلف تضادا الحكيم سولون Solon الذي ، وقد سئل عما اذا كانت القوانين التي اعطاها لسكان آثينا هي الافضل ، اجاب : «لقد اعطيتهم أفضل التي يستطيعون تحملها» . كل المشرّعين يجب ان يسمعوا هذا القول الجميل (١٣) .

---

١٣ - **بطرس الاكبر** ، قيصر روسيا من ١٦٨٢ الى ١٧٢٥ ، فاتح طور جديد في تاريخ روسيا: اراد أوربة روسيا نصف البربرية . قرر تغيير الاخلاق العامة والعادات (أمّر بقص اللحية والشعر والثوب الطويل ، منع السجود امامه ، حرّم عزل وحجاب النساء ، سمح بتعاطي التبغ) ؛ شجع الزراعة والتنقيب عن المناجم واستثمارها ، تأسيس المعامل ، حفر الترع ؛ سعى الى تنظيم الدولة الروسية على موديل اوروبا والمونارشية المطلقة ، الغى استقلال الكنيسة ومنصب البطريرك ، اقام شرطة قوية وسرية ، امر بجلد ابنه حتى الموت ؛ انتصر على السويد ، فتح نافذة على بحر البلطيق ، بنى بطرسبرج وجعلها العاصمة ...

سولون Solon مصلح آثينا في سنة ٥٩٤ ق.م. بعد قرون من رئاسة ملك ، ثم زعماء العائلات الرئيسية ، وبعد تعمق الانقسام الطبقي داخل الشعب) . تفاديا لحرب أهلية ، سلّم النبلاء والشعب مهمة إصلاح المدينة لأعقل المواطنين وهو سولون . فألغى الديون ، وحرر الذين وقعوا في الرق على اساس الدّين ؛ اعاد تنظيم الحكومة : قسم الاثينيين (الاحرار) الى اربع طبقات على اساس دخول اراضيهم ، حافظا مناصب الحكم والقضاء للطبقات الثلاث الاولى ، ولكن مع حق التصويت لجميع المواطنين في جمعية الشعب . هكذا فقد وزّعت السلطة ، لا بموجب الولادة ، بل بموجب الثروة التي يمكن الحصول عليها بالعمل والاستحقاق الشخصي . (وهذا مبدأ «برجوازي» بالطبع داخل الشعب - الديموس Demos - الرجال الاحرار) . وأوجد محكمة شعبية ، بالقرعة بين جميع المواطنين .

اذاً فعلى القوانين ان تتبع الاخلاق العامة ، التي ، في البلدان المتمدنة ، تعطي بشكل خاص النغم للروح العام ؟ حذار ! يجب ان لا نسارع الى استخلاص هذه النتيجة . لنترك لمونتسكيو الوقت ليصحح بحقيقة جديدة تلك الحقيقة عينها التي اوردها لتوه ، وليكتب : «لنرَ الان كيف الاخلاق تتبع القوانين» .

كيف يمكن للقوانين ان تسهم في تشكيل اخلاق وآداب وطابع امة من الامم ؟

ذلك عنوان الفصل ٢٧ من الكتاب ١٩ المكرس للروح العام . فصل طويل ، فريد في نوعه في هذا الكتاب ، ومرموق بفجور حقيقي من صيغ الشرط conditionnel ‹١٤› ؛ في هذه الحيثية المزدوجة ، يذكرنا بالفصل السادس الشهير من الكتاب الحادي عشر . و ، بالواقع ، انه هو ايضا مكرس لانكلترة ؛ انه «الفصل الانكليزي» الكبير الآخر من **روح القوانين** . علما بأن انكلترة لا تسمى هنا اكثر مما ، سابقا ، فرنسا .

> ان عادات شعب عبد هي جزء من عبوديته ؛ عادات شعب حر هي جزء من حريته . لقد تكلمت في الكتاب الحادي عشر عن شعب حر ، اعطيت مبادىء دستوره ؛ لنرَ الآثار التي كان عليها ان تتبع، الطابع الذي امكن تشكله والآداب التي تنتج عن ذلك .

بين السطور ، لنعلم قراءة هذا . نعم ، في معظم الانظمة ، استبداد ، مونارخية ، جمهورية ، القوانين تتبع الاخلاق ؛ القوانين تصفّ على خط الروح العام المصهور من قِبل هذه الاخلاق ، القوة التي لا تقهَر . ولكن هذه الوضعية تنعكس في امة لها كموضوع مباشر لقوانينها الدستورية الحرية السياسية . عندئذ قوة روح الحرية المؤسس على هذا النحو تجرّ كل الباقي . هذا ما سيرينا اياه الان مونتسكيو ، مسحورا من جديد بهذا البلد الغريب ، الذي لا يشبه اي بلد آخر ، بانكلترة الحرية هذه ، هذه الجزيرة الكبيرة المتاجرة وسيدة البحار المتكبرة، التي فيها الفضائل والرذائل السياسية النابعة من منبع واحد ـ الدستور ـ تتوازن على هذا النحو الجيد ، وتسهم بالتساوي في صهر روح عام لا يُقهَر . انها ، يكتب المؤلف ، خاصة شعب حر أن يرتجف دوما من اجل حريته :

> يَخشى ان يَرى يفلت خير يحَس به ... وقد يقنّعونه لنا ، والخشية تضخّم دوما الاشياء . الشعب يكون قلقا على وضعيته، ويعتقد نفسه في خطر حتى في اللحظات الاكثر أمنا ... ، ولكن

---

١٤ ـ صيغة الشرط الفرنسية conditionnel : صيغة احتمالية ، فعل يتوقف على شرط؛ افتراض ؛ شك ، تخفيف . ـ في المقاطع التالية حاولنا نقلها قدر الامكان .

هذا نفسه يسهم في تجنيبه الاخطار الحقيقية التي يمكن فيما بعد ان يكون معرّضا لها ... هذا يشد كل نوابض الحكومة ويجعل كل المواطنين منتبهين .

وإذا كانت المسالة خطرا حقيقيا ، إما بان أطيح بالقوانين الاساسية ، او خصوصا بأن كانت قوة اجنبية تهدد الدولة ، فان رد الفعل يكون سريعا ورهيبا. اذا «**لما كانت قوة اجنبية تهدد الدولة وتضعها في خطر على ثروتها ومجدها ، عندئذ ....**» . لنغفر مرة أخرى لصيغة الشرط هذه ، المثيرة للاعصاب في أحيان كثيرة ، من اجل المنظور الهائل الذي ستفتحه لنا الان عن الصراعات الكبرى القادمة للتاريخ البريطاني ، من اجل التكهن الرائع الذي تترجم عنه . كل القوة الوحشية للغريزة القومية الانكليزية ، التي عليها سوف تنطح رأسها وتسقط الثورة الفرنسية ونابوليون ، التي عليها سوف يتحطم في ايلول ١٩٤٠ الانقضاض الجوي لالمانيا الهتلرية ؛ كل عناد بيت Pitt (١٥) او تشرشل Churchill ، شاد آ كل عزائم وجارفا كل ثروات امة اجمعت ، تتنفس سلفا وتزمجر في هذه الصفحة الذائعة الصيت :

«عندئذ ، اذ تتنازل المصالح الصغيرة للمصالح الاعظم ، يجتمع كل شيء لصالح القدرة التنفيذية ... . هذه الامة تكون تحب حريتها بشكل عجيب ، لان هذه الحرية تكون حقة ؛ وليمكن أن يحصل انها ، لكي تدافع عنها ، ستضحي بخيرها ، بيسرها ، بمصالحها ؛ انها ستضع على كاهلها أقسى الضرائب ، ضرائب لا يجرؤ الامير الاكثر مطلقية على تحميلها لرعاياه . ولكن اذ يكون لها معرفة اكيدة بضرورة الرضوخ لها ، وبما انها ستدفع في الامل المؤسس بأن لا تعود تدفع ، فان الاعباء ستكون عندها اكثر ثقلا من الشعور بهذه الاعباء : بينما هناك دول فيها الشعور اعلى من الداء بما لا يقاس . سيكون عندها قرض موثوق ، لانها تستدين من نفسها وتدفع لنفسها . وليمكن ان يحدث ان تعزم وتقدم فوق قواها الطبيعية ، وتقيّم ضد أعدائها ثروات هائلة من خيال ، تجعلهن ثقة وطبيعة حكومتها حقيقيات . للمحافظة على حريتها ،

---

١٥ ـ وليم بيت : وزير الحرب ورئيس الوزراء في زمن حرب السبع سنوات . ـ وليم بيت ، او بيت الثاني ، ابن السابق ، رئيس وزراء بريطانيا من ١٧٨٣ الى ١٨٠١ ومن ١٨٠٤ الى ١٨٠٦ ، خصم عنيد للثورة ونابوليون ، نظم ثلاثة تحالفات ضد فرنسا . لم يمنع انتصارات نابوليون ولا هلاك التجارة البريطانية ... موقتا . توفي بيت في ١٨٠٦ ، ... ثم انتصرت بريطانيا وتجارتها وامبراطوريتها .

تستدين من رعاياها ، ورعاياها الذين يرون ان رصيدها سيضيع اذا ما استولي عليها سيكون لهم باعث جديد لبذل جهود من اجل الدفاع عن حريتها » .

نادرا ما ارتفع مونتسكيو اعلى مما في هذا «الفصـــل الانكليزي» الجديد . اللون ، الحياة ، اللذان كان يفتقر اليهما التحليل الاستاذي العظيم لدستـــور انكلترة في الكتاب الحادي عشر ، يسيران جنبا الى جنب مع لا ادري اية شاعرية غنائية صماء ــ يحفظها هذا الكاتب الكامل البيان لمواضيعه الاعظم ، الأعز .

الاستقبال الذي لقيه «روح القوانين»

ان نجاحا هائلا من فضول ، لم يكن ينقص فيه ما يمكن ان نسميه اليـــوم سنوبية Snobisme ، استقبل المؤلف عند صدوره . كان لمونتسكيو من قبل سمعة كبيرة بصفته مؤلف **الرسائل الفارسية** ، ثم **الاعتبارات عن الرومان** . عظمة قصده كانت تصفع المخيلات ؛ صالونات باريس كانت على استعداد للدهشـــة والاعجاب ، وقد دهشت وأعجبت ؛ الاعجاب كان بآن صادقا ومتواطئا . كان يجب ان يكون المرء قد «قرأ ذلك» . كان امرا مقررا الاعجاب بـ **روح القوانين** ، وأنها قراءة «للذيذة ممتعة» .

لنلتقط بعض الشواهد . **الاخبار الادبية** : «ادار راس جميع الفرنسيين ، وهو على تواليت السيدات كما في غرفة العلماء . لا أدري ما اذا سيكون الحماس طويلا، ولكن من المؤكد انه لا يمكن ان يندفع الى ابعد» . احد الآباء الكهنة يقيم له مـــن الشأن ما يقيمه «لكتاب صلواته» تقريبا . ذهن جميل من الاقاليم يكتب لمونتسكيو: «منذ ان خلقت الشمس ، هذا المؤلف هو برأيي المؤلف الذي يستطيع ان ينير العالم على النحو الافضل» . احد الاصدقاء يهزأ ، بهذه المفردات : «تعال وشاهد التثاؤبات والبخارات التي اعطيتها لكل الاساتذة الصغار ، لكل المنافح الصغيرة المسكينة التي اجبرها الهواء الطيب على قراءتك» . مدام جوفران Mme Geoffrin تشكر برسالة طويلة سيدها «الرئيس العزيز» ؛ انها ، على حد قولها ، تقطع ، لتكتب له ، قراءة عذبة لذيذة ، قراءة كتاب جديد لا يوجد منه في باريس سوى نسخ قليلة ، «يتنازعونها ويلتهمونها» ، كتاب هو تحفة الروح ، تحفة «الفلسفة ، الميتافيزيقا ، والعلم ... ، مكتوبة برشاقة ونعومة وصواب ونبل . ربات الكياسة أخذن على عاتقهن أن يلبسن سعة الاطلاع ودقة العلم ثوبهما اللائق ...» . الا ان مدام دو دفان Mme de deffand كانت تجري على العنوان نفسه النكتـــة الشهيرة ، التي كانت تلامس سطح الكتاب دون الدخول فيه : «هذا روح ، دعابة، على القوانين» c'est de l'esprit sur les lois . وهي النكتة التي تأسف عليها

واغتم منها دالمبير d'Alembert الرصين : كيف ! ايعامَل بهذه الخفـــة عمل كهذا !

في ١٧٥٠ ، يكتب مونتسكيو انه ، في عام ونصف ، قد صدرت اثنتا وعشرون طبعة ؛ المطلعون لا يسجلون سوى دزينة ، وهذا يكون جميلا جدا . ويترجَم الكتاب الى كل اللغات تقريبا . فريدريك الثاني ملك بروسيا يقرؤه ؛ كاترين الثانيـــة «امبراطورة ومشرّعة كل الروسيات» ، اذ كانت في صدد اقامة مجموعة ــ قوانين جديدة ، تصوغ **تعليمات** مليئة بمقتطفات من مونتسكيو ، مقدّمة عدا ذلك بشكل تافه . الكتاب يغدو مدرسة في ايطاليا: بكاريا Beccaria ، مصلح الحقوق الجزائية ، يعلن نفسه تلميذا لمونتسكيو . الاستقبال المقام لـ **روح القوانين** فـــي إنكلترة حماسي ؛ الانكليز يسارعون ــ لنقرأ بالاحرى بلاكستون Blachstone الى تبني تأويل دستورهم المقترح من قبل الغاسكوني العبقري . لقد زعم ، في ١٧٨٧ ، انه كان يوجد دوما نسخة من الكتاب على طاولة في مجلس العموم . ... Sinone vero ، ان لم يكن هذا صحيحا ...(١٦) .

حين توفي مونتسكيو ، وكان أعمى تقريبا ، في سنة ١٧٥٥ ، بعد مضي سبع سنوات على صدور مؤلفه العظيم ، الذي من بعده لم يكن قد نشر الا القليل جدا، كان مجده اوروبيا ؛ على الاقل امكنه التمتع به في حياته .

هذا لا يعني ان الخيبات والانتقادات قد وفّرت عنه . لنهمل فولتير ، الغائر من منافسة ساحقة الى هذا الحد ، والذي ــ ما ان دفع جزية الاعجاب الحتمية، بهذه الكلمات الكبيرة : «كان الجنس البشري قد فقد القابه ، السيد دو مونتسكيو عثر له عليها من جديد واعادها اليه» ، ــ حتى أكب على التحقير المنهجي لـ **روح القوانين**. مونتسكيو كان قد قال عنه سلفا: «عنده كثير من خفة الروح ليسمعني». بينما أكثر القراء الآخرين لم يكن عندهم الكفاية . كان قصد **روح القوانين** عاليا جدا على الغالبية الكبرى من قراء الكتب الرائجة ؛ ان فكرة حزينة لمونتسكيـــو كانت ستتحقق : «ان عملي سيؤيّد اكثر مما سيقرأ ؛ ان قراءات كهذه يمكن ان تكون متعة ، انها ليست ابدا تسلية» .

هذا القصد ، العالي على القارىء المتوسط ، كان في الوقت نفسه ــ من هنا مصدر اول لانتقادات لاذعة ومقلقة لراحة المؤلف ــ جسورا جدا بالنسبة لمحافظي العصر الضيقين . محافظين في السياسة كما في الدين ، مدافعين عنيدين عـــن العرش والمذبح ، مغلقين عن حركة الافكار ، عاجزين عن التعرف في مونتسكيو على ما كانه : محافظ مستنير . صحائف كنسية اتهمته بأنه ــ في آن معا وبشكـل متناقض ــ تلميذ للملحد سبينوزا ، ومشايع لـ «الدين الطبيعي» ، الهرطقة الآتية

١٦ ــ عبارة لاتينية ذائعة الشهرة وسهلة التطبيق . العبارة الكاملة تقول : ان لم يكن هذا صحيحا ، فهو (على الاقل) اكتشاف جيد ؛ او ، ان لم يكن هذا صحيحا ، فهو على كل حال يستحق ان يكون صحيحا .

من هذه الـ انكلترة الملعونة ، من بلد لوك هذا ، الذي كان المؤلف يرفعه بشكل فاضح الى السحب . مونتسكيو ، بناء على نصيحة اصدقائه ، حزم أمره على الرد في ١٧٥٠ بمؤلفه اللامع **دفاع عن روح القوانين** .

ولكن في الاتجاه المعاكس ، هذا القصد الرفيع بدا خجلا فزعا ، ـ وكان ذلك مصدرا ثانيا لانتقادات شرسة ، ـ لـ «الفلاسفة» الحقيقيين (١٧) ، لايديولوجيي **الموسوعة** الماديين ، خصوم النظام القائم ، فكريا على الاقل . اخذوا على مونتسكيو كونه مؤرخا أكثر من اللازم وليس فيلسوفا بما فيه الكفاية ، يبرر الواقع . يقدم تقريرا ، مع نوع من تأييد يثير الاعصاب ، عن عدد كبير من مؤسسات حمقاء ، بدلا من ان يدينها ببساطة وحسب باسم الحق الطبيعي والعقل الخالص ، ضاربا صفحة بيضاء على كل الاباطيل والاحكام المسبقة . في هذا المعنى والاتجاه ، بدا لهم **روح القوانين** متخلفا . كان هلفسيوس Helvetius يكتب ان مونتسكيو ، «مع نوع ذهن مونتيني montaigne » ، قد احتفظ بأحكامه المسبقة ، اباطيل «رجل قضاء ونبيل» ، وأن هذا مصدر كل أخطائه .

رغم كل شيء ، لم يكن الفلاسفة الاكثر ضيقا ، الاكثر عصبوية ، يستطيعون ان يرفضوا بعض اعتراف بالجميل لمونتسكيو باسم الفلسفة : على كونه اعطى مثال تحقيق ايجابي وعلمي حقا ، عارٍ عن كل صوفية ، يُسقِط على ميدان العلاقات الاجتماعية الهائل هذا المنطق الظافر الذي يطرد الاشباح . كان المؤلف ، كما سوف يقول لانسون Lancon جيدا جدا ، يستجيب لطلب لدى النخبة الاوروبية : كان ينقص كتاب علم سياسي ، «جدي وعميق» ، وبالوقت نفسه في متناول الناس ، معتَق من سعة اطلاع لا تقرأ ومن دوغمائية باتت لا تحتمل . «ما كان مونتيني قد عمله في نهاية عصر النهضة للفلسفة الاخلاقية ، ما كان في القرن السابع عشر قد عمله ديكارت للطريقة وللميتافيزيقا ، باسكال للاهوت الاخلاقي ، فونتنيل fontenelle لمنظومة العالم ، ما كان ، بالضبط في هذه اللحظة من القرن الثامن عشر ، بوفون Buffon يقوم بعمله للتاريخ الطبيعي ، كان مونتسكيو يعمله للعالم السياسي . كان يجعل منه عنصرا في الثقافة العامة» . لابولي laboulaye ، معيدا في ١٨٧٦ اصدار **روح القوانين** ، لم يقل شيئا اكثر من اللازم بتمجيده كتاب مونتسكيو **لكونه حرك وبشكل ما كبر الروح البشري** .

***

بعد روح القوانين بأربع عشرة سنة ، في ١٧٦٢ ، كان سيصدر عمل سياسي

---

١٧ ـ «الفلاسفة» هو الاسم الذي عرف به المفكرون الفرنسيون الذين مهدوا للثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر : فولتير ، ديدرو ، دالمبر ، هلفسيوس ، الخ ... كانوا فعلا فلاسفة وان كانت الفلسفة الجامعية لا تعترف بذلك . في نظرهم ، هم الفلاسفة ، الفلاسفة الحقيقيون .

كبير آخر ، كان مكتوبا له ان يكبُر أقل ولكن أن يحرك بالقدر نفسه الروح البشري: **العقد الاجتماعي** لـ روسو . ثم ، على الموضوعات التي اقترحها لوك ، مونتسكيو ، روسو ، سيمارس أسياد للفكر السياسي أقل شأنا ، من ١٧٧٠ الى ١٧٨٩ ، قلمهم الرشيق ، المتزايد الجراة مع سير اهتلاك نوابض النظام المطلق في فرنسا . هل سيكون لا يزال ثمة مكان لعمل سياسي عظيم ؟ الكراس الذائع الصيت للأب سييس Sieyès ، **ما هي الطبقة الثالثة** ، سيأتي بالجواب ، التأكيدي ، في عين عشية الثورة . كراس ، اذاً عمل صغير بحجمه ، ولكن كبير بصداه ومداه .

الفصل الثالث

«في العقد الاجتماعي»،
لِ ج.ج. روسو (١٧٦٢)

«اكثر بكثير من التفكير في تنوير الدول الكبيرة،
يريد روسو ايقاف الجمهوريات الصغيرة على منحدر
انفسادها» .
برتران دوبن جوفنيل Bertrand de Jocvenel

نقرأ في الكتاب التاسع من اعترافات روسو Rousseau هذه السطور التي ترجع الى سنة ١٧٥٦ :

من الاعمال المختلفة التي كانت لديّ على الورشة ، العمل الذي كنت أتأمل فيه منذ أمد طويل ، الذي كنت أنشغل به بأكبر ميل ،

الذي كنت أريد ان أشتغل فيه طوال حياتي ، والذي كان له ، في نظري ، أن يضع الخاتم على شهرتي ، كان **المؤسسات السياسية**. كان مضى ثلاثة عشر او اربعة عشر عاما على الوقت الذي فيه تصورت فكرتها الاولى ، حين اذ كنت في مدينة البندقية فقد كان لي فرصة ملاحظة عيوب هذه الحكومة التي عظمت كثيرا . منذ ذلك الحين كانت نظراتي قد توسعت كثيرا بالدراسة التاريخية للاخلاق . كنت قد رأيت ان كل شيء يتوقف جذريا على السياسة، وأيا تكن طريقتنا في تناول الامر ، فما من شعب سيكون ذات يوم الا ما طبيعة حكومته ستجعله يكون ؛ هكذا فان هذا السؤال الكبير عن افضل حكومة ممكنة كان يبدو لي يتقلص الى هذا السؤال : **ما هي طبيعة الحكومة التي من شأنها ان تشكل الشعب الاكثر فضيلة ، الاكثر تنورا ، الاكثر حكمة ، اخيرا الافضل اي الاكثر خيرا ، مع اخذنا العبارة في معناها الاكبر ؟** اعتقدت انني ارى ان هذا السؤال يلازم عن قرب هذا السؤال الآخر ، حتى وان كان مختلفا عنه : **ما هي الحكومة التي ، بحكم طبيعتها ، تقف دائما على اقرب مسافة من القانون ؟ من هنا ، ما هو القانون ؟** وسلسلة اسئلة بهذه الاهمية . كنت ارى ان هذا كله يقودني الى حقائق كبيرة ، مفيدة لسعادة الجنس البشري ، ولكن **بخاصة لسعادة وطني** ...

كان مضى ثلاثة عشر او اربعة عشر عاما ، اذ كنت في البندقية ... : في هذه المدينة الشهيرة بالبغايا ـ الاديبات كان جان ـ جاك قد نال من لازوليتا La Zulietta النصيحة المزدرية : اترك النساء **وادرس الرياضيات** ! Studia la matematica'. المقطع الشاهد الآنف يكشف لنا ان جان جاك روسو كان قد درس منذئذ لا الرياضيات ، بل العلم السياسي (ليس بدون ان يحمل اليه ، كما قد يظهر في قراءته ، بعض الادعاء الرياضي) . المقطع نفسه يكشف لنا اتساع القصد الاصلي لمؤلف **العقد الاجتماعي** : **المؤسسات السياسية** كان المفروض فيها ان توازن ، في ذهن المعاصرين ، مجد **روح القوانين** . ولكن مقطعا آخر من **الاعترافات** ، عن سنة ١٧٥٩ ، يعلمنا ان روسو ، بعد نجاح الـ **هيلويز الجديدة** ، فحص حالة مؤلفه الكبير ، واذ وجد انه ما زال يتطلب عدة سنوات من العمل فقد تخلى عنه . لاسيما وان كتابه عن التربية ، **الـ إميل** ، كان لا يزال في ورشة . ولكنه قرر ان يستخلص من **المؤسسات السياسية** المتروكة ما كان ممكنا فرزه ، مع احراق الباقي . «و ، دافعا هذا العمل بحمية ، بدون قطع عمل **الـ إميل** ، وضعت في اقل من سنتين اليد الاخيرة على **العقد**

الاجتماعي» (١) .

هكذا لا يكون هذا الكتاب الشهير سوى قطعة مفصولة وناجزة من مؤلّف أوسع بكثير ، مصيره ترك نهائي . العنوان التحتي ذو دلالة : «في العقد الاجتماعي او **مبادىء الحق السياسي»** . في ١٧٥١ كان قد صدر ، تحت نفس العنوان **مبادىء الخ** ، كتاب لـ بورلاماكي Burlamaqui ، ابن جنيف مثل روسو («ج.ج. روسو ، **مواطن جنيف»** : هكذا يسمي نفسه ، بفخر ، مؤلف **العقد الاجتماعي)** . هذه المبادىء ، التي عليها كان مونتسكيو ، وكأنه في غير يُسر ، قد مر بسرعة ، كان روسو يريد تعميقها لاعطاء البناء الكبير الذي كان يفكر فيه بوابة ايديولوجية تليق به . تطبيق المبادىء ، مع اقامة حساب كبير للمعطيات العيانية ، كان لروسو ان يدرسه في الكتب التي سوف تصدر بعد **العقد الاجتماعي** ، والتي لم تصدر في يوم من الايام . اذ لا نملك سوى **العقد** (وكذلك ، بالحقيقة ، بعض الكتابات السياسية الظرفية) ، يتوجب علينا ان نكتفي به . ولكن لنحترس من ان ننسى ، كما نسوا في زمن الثورة ومن بعدها الى الان ، ان الصرامة الايديولوجية لهذا الكتاب لا تمثل تماما المزاج السياسي لروسو . استنادا الى **العقد** ، المقروء بشكل سيء عدا ذلك ، حلت **أسطورة** روسو ، باتت لا تُدمَّر ، محل روسو الحقيقي .

عقد اجتماعي : بعد الكثير من الكتّاب السياسيين ، ولم يكن هوبز و لوك سوى أبرزهم ، الذين كانوا قد اقترحوا تفسيرا تعاقديا للانتقال من الحالة الطبيعية الى الحالة الاجتماعية ، هل كان لا يزال ممكنا القيام بعمل أصيل على موضوعة طُرقت الى هذا الحد وابتُذلت ؟

روسو ، حسب مدام دو ستال Madame de Staël (٢) ، لم يخترع شيئا ، ولكنه «أشعل كل شيء» . هذا غلط . روسو **العقد** حقيقةً **مخترع** . أجل انه يستلهم اسلافه ، من ماكيافل (بخاصة ماكيافل **الخطب**) الى مونتسكيو . أجل تلقى بعمق تأثير وراثته الجنيفية والكالفينية : ابدا لا يضيّع من بصره مثلا أعلى دستوريا ما ، اغترفه من تاريخ جنيف ، ويتألم لان مدينة كالفن تبدو في نظره تبتعد عنه اكثر فاكثر . ولكن كل هذه العناصر المتنوعة تجد نفسها ممزوجة مجبولة

---

١ ـ جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) . أشهر مؤلفاته : خطاب من اصل التفاوت بين البشر، في العقد الاجتماعي ، إميل او في التربية ، هليوييز الجديدة ، اعترافات . دوره : ١ ـ من مؤسسي الديمقراطية ، حكم الشعب . ٢ ـ من روّاد التربية الحديثة . ٣ ـ من أسلاف الادب الرومانطيقي ... ٤ ـ مفكر جدلي (أصل التفاوت ...) ٥ ـ مصدر لـ كنط ، من مخترعي «الانسان» في القرن ١٨ (روسو ، كنط ، ثورة ١٧٨٩) . فكره لعب دورا كبيرا في الثورة الفرنسية، من بدايتها (١٧٨٩) ولاسيما في مرحلتها العليا المتقدمة (١٧٩٢ ـ ١٧٩٤) .

٢ ـ مدام دوستال (١٧٦٦ ـ ١٨١٧) اديبة فرنسية كبيرة ، اسهمت في فتح الرومانطيقية في فرنسا ، ليبرالية .

في دماغ المؤلف ، دماغه القوي والمعقد . في قلبه الشامخ ، قلب ابن العامة ، المجروح على الدوام بملامسة المجتمع الارستقراطي ، اللامساواتي ، الذي كانت الطافه وازدراءاته ، بالنسبة لروسو ، بقدر متساو لا تطاق . النتيجة كانت هذا المؤلف الكبير ، الصعب القراءة ، **في العقد الاجتماعي** ، البالغ الاختلاف عن **روح القوانين** . روسو هنا ادنى من مونتسكيو ، في المدى الفكري ، في حرية الذهن ، في الحكمة السياسية . انه متفوق عليه بتسلسل المحاكمة ، وحدة البناء . انه مساو له بحزم وجمال الاسلوب : اسلوب خطابي ووافر ، اقل صنعة وتألقا ، ولكن اكثر ثباتا وجزالة ، دائما رصين ، غالبا فخم جليل كالنحت القديم ، احيانا ملتهب كقلب روسو ذاته .

اين اذاً ، في هذا المؤلف الشهير ، الاختراع ؟ اليكم : هذه **الحرية** وهذه **المساواة** ، اللتان وجودهما في حالة الطبيعة هو تقليديا بمثابة مصادرة او مسلمة ، روسو يزعم انه يجدهما ثانية في حالة المجتمع ، ولكن **محولتين** ، تلقتا ضربا من تعديل كيميائي ، «**مشوهتين**» اي «**تغيرت طبيعتهما**» «denaturées» . ثمة ، ونأخذ عبارات شارح عالم هو م. هالبوك M. Halbwachs ، «خلق نظام جديد تماما ونظام بالضرورة عادل ، بالعقد» . او ، وننقل ب. دو جوفنيل في **مؤلفه** الرائع **محاولة عن سياسة روسو** ، ثمة خلق «طبيعة جديدة» عند الانسان ، الامر الذي يتيح لهذا الاخير التغلب على التناقض ، الملازم للحالة الاجتماعية ، بين ميوله الفردية وواجباته الجماعية . هذا اختراع روسو الاول والرئيسي . محوره تصور **السيد** Souverain ، **والسيادة** ، **والقانون** ، التصور الذي يجعله المؤلف ينبع من العقد الاجتماعي ، والذي يغذي الكتابين الاولين من المؤلف الذي يشمل اربعة كتب .

روسو ينقاد بذلك الى تمييز جذري ، هو ، تحت الزاوية التي منها يقدمه لنا روسو ، ملك له وحده ، بين **السيد** و **الحكومة** . اختراع ثان ، حاسم بالنسبة لتطور الحق العام . انه الموضوع الجوهري للكتابين الاخيرين . وهو يقتضي تصنيفا جديدا لـ **اشكال الحكم** ، وكذلك حذرا صميميا ازاء الحكم كما يعرّفه المؤلف ، فهو ملطخ **بعيب جوهري** . المؤلف ينتهي بالفصل الشهير عن **الدين المدني** .

السيد

«الانسان ولد حرا ، وهو في كل مكان في القيود ... كيف حصل هذا التغير ؟ اجهل ذلك . ما الذي يمكن ان يجعله مشروعا ؟ اعتقد بامكاني الاجابة عن هذا السؤال» . هذه السطور الشهيرة التي تفتتح **العقد الاجتماعي** تشير على الفور وبدون التباس الى ان المؤلف يريد ان يعالج مسألة شرعية ، مسألة حق ، لا مسألة تاريخ .

ان الإلزام الاجتماعي ، يؤكد روسو ، لا يمكن ان يؤسس شرعيا على القوة . لا وجود لـ **حق الاقوى** . «ما حق يموت حين تنتهي القوة ؟ اذا كانت الطاعـــة واجبة بالقوة فلا حاجة الى الطاعة بالواجب» . ان الإلزام الاجتماعي ليس مؤسسا كذلك على سلطة الاب الطبيعية ولا على اية سلطة اخرى لرئيس «طبيعي» مزعوم ومولود ليأمر . تلك أطروحات نصيرة النظام المطلق . الاساس الشرعي الوحيـــد للالزام موجود في الاتفاق المعقود بين اعضاء الجسم المطلوب تكوينه في مجتمع ، والذي كل واحد فيه يتعاقد «ان صح القول مع نفسه» ، غير مرتبط في الحاصل الا بارادته وحدها . كل شيء مشتق من الالتزام الحر لمن يلزم نفسه . الميثاق الاجتماعي لا يمكن ان يكون شرعيا الا آتيا من موافقة مطلوبة اجماعية .

صيغة هذا الميثاق ، وتشبه في الهيئة الى حد ما أقوال العرّافات : **«كلّ منا يضع معا شخصه وكل قدرته تحت القيادة العليا للارادة العامة ، ونستقبل فـي جسم كل عضو كجزء من الكل لا يتجزأ»** . الامر الذي يعني ان كل شريك يخلـــع شخصه تماما وبلا تحفظ مع كل حقوقه للجماعة . هكذا الحال متساوية للجميع. كلّ يلتزم نحو الكل . كل واحد اذ يعطي نفسه للجميع لا يعطي نفسه لاحد . كل فرد يحرز على كل فرد آخر بالضبط نفس الحق الذي يتركه له على ذاته . كلّ يكسب اذاً **مكافيء** كل ما يخسر ، ومزيدا من القوة لصون ما عنده. التعهد يستمد كما يرى القارىء ، كل أصالته من كون كل متعاقد مربوطا دون ان يكون «مخضَعا» اي «رعية» assujetti لشخص ، من كون كل واحد اذ يتحد بالجميع لا يطيع **«مع ذلك سوى نفسه ويبقى حرا بقدر ما كان من قبل»** (هنا كانت كل صعوبـــة المعضلة المطلوب حلها) .

هكذا الحرية سالمة . ولكن الطاعة ، التي بدونها ليس من جسم سياسي ، من «شعب» ، من «انا مشترَك» ، سالمة ايضا . انها كذلك بفضل تثنية ذكية ، كان مونتسكيو عدا ذلك قد عرّفها في ثلاث جمل قصيرة وصافية عن طبيعة الجمهورية الديمقراطية : «الشعب في الديمقراطية هو من بعض الحيثيات المونارك ، الملك ، ومن البعض الآخر هو الرعية . لا يستطيع ان يكون مونارکا الا باصواته ، ألتي هي إراداته . ارادة السيد هي السيد نفسه» . روسو يبين ، بشكل اقل ايجازا وأقل وضوحا ، ان كل عضو في الجسم السياسي هو في وقت واحد **مواطن** و **رعية** . مواطن ، «عضو في السيد» ، من حيث يشارك في فاعلية الجسم السياســـي (الذي ، حين يفعل ، يدعى **سيدا** ، و ، حين هو منفعل ، يدعى **دولة**) . رعية ، من حيث يطيع القوانين التي صوّت عليها هذا الجسم السياسي ، هذا السيد الذي هو عضو فيه .

هذا كله متوَّج ، منار ، ـ وأحيانا مظلَم ـ بميتافيزيقا حقيقية ، حتى لا نقول بلاهوت ، عن **الارادة العامة** : هاتان الكلمتان السريتان اللتان قرأناهما فـــي

صيغة الميثاق الاجتماعي (يه) .

الارادة العامة ليست البتة جمعا حسابيا بسيطا وخالصا للارادات الخاصة . **الارادة العامة** ليست بشكل متساو ارادة الجميع او ارادة العدد الاكبر . يجب هنا ادخال عنصر من «اخلاقية» ، وهي كلمة عزيزة على روسو . هذا الاخير يبدو يميز عالمين ، احدهما يمكن ان يقارن بعالم الخطيئة والآخر بعالم الفداء . من جهة ، العالم المشبوه ، عالم المصلحة **الخاصة** ، الارادات الخاصة ، الافعال الخاصة . من الجهة الاخرى ، عالم المصلحة العامة ، **الارادة العامة** (الارادة التي تريد المصلحة العامة ، لا المصلحة الخاصة) ، الافعال العامة (القوانين) . ان فرقا جذريا ، فرقا لا في الدرجة ، بل في الطبيعة ، يفصل هذين العالمين .

والحال ان الشعب في جسم ، «السيد» ، لا يمكن ان يريد الا المصلحة العامة، لا يمكن ان يكون عنده الا **ارادة عامة** . في حين ان كلا من اعضائه ، بما انه في آن معا ، بنتيجة العقد ، انسان فردي وانسان اجتماعي ، يمكن ان يكون عنده نوعان من الارادة . انه ، كإنسان فردي ، يميل ، طبقا للغريزة الطبيعية ، الانانية، الى ملاحقة مصلحته الخاصة . ولكن الانسان الاجتماعي فيه ، المواطن ، يبحث عن المصلحة العامة ويريدها : بحث اخلاقي تماما يجرى «في صمت الاهواء» . الحرية ، ـ حرية طبيعية محوّلة ، مغيَّرة الطبيعة ، ـ هي ، تحديدا ، قدرة كل واحد على ان يغلّب على ارادته «الخاصة» ارادته «العامة» ، التي تمحو «حب الذات» لصالح «حب الجماعة» (ب. دو جوفنيل) . هكذا فان اطيع السيد ، الشعب في جسم ، هو حقا ان اكون حرا .

ان نفهم ذلك هو ان نفهم بنفس الضربة ما يسمى في احيان كثيرة «سفسطات» **العقد الاجتماعي** .

ان يعاد الى الطاعة بالقوة من اذ تهيمن عليه مصلحته الخاصة يرفض الانصياع للارادة العامة (التي هي إرادته بقدر ما هي ارادة كلّ آخر) ، هو ببساطة «اجباره على ان يكون حرا» . ـ ان نفرض رضوخ الاقلية للقوانين التي اقرتها الاكثرية ، وهي بحكم الفرضية القوانين التي لم توافق عليها الاقلية ابدا ، هو تحقيق الحرية وليس اغتصابها . اذ ان التصويت على اقتراح قانون ليس له بالواقع كهدف تأييد او رفض هذا الاقتراح بل قول ما اذا كان مطابقا او لا للارادة العامة ، التي لن تكون معروفة الا بعد التصويت . «حين اذاً ينتصر الراي المعاكس لرأيي ، فهذا لا يدلل على شيء آخر سوى انني كنت قد اخطأت وأن ما كنت أقدّر انه الارادة العامة لم يكنها . لو ان رأيي الخاص انتصر ، لكنت عملت شيئا آخر غير الذي كنت قد اردت ، وفي هذه الحال لما كنت اكون حرا» . هكذا يختم روسو، دونما اضطراب .

(يه) سيراجع القارىء بفائدة التحليل الذي اعطاه برتران دو جوفنيل عن «الجذر الثلاثي للارادة العامة » .

ولكن ، اذا اردنا الذهاب تماما الى صميم فكرة المؤلف المعقدة ، فيما يتصل بالحرية في الحالة الاجتماعية ، وجب ايضا ان نحسب حساب تمييز رئيسي : التمييز بين «التبعية للبشر» و«التبعية للاشياء» .

ما فتىء ، هذا الـ جان جاك الحساس والبائس ، يشعر ب «صعوبة التبعية» **(الاعترافات)** ؛ يقاسي من الارادات الخاصة ، العسفية ، النزوية ، المخيبة ، ارادات الذين كان تابعا لهم : ووُساؤه الإجتماعيون . من هنا على الارجح هذا الخوف الجنوني من «الارادات الخاصة» ، هذا التصميم على ان يرى قبلاً كل شيء في الحرية الاستقلال حيال كل الارادات الخاصة . الا أن روسو يعلم جيدا ان الحال البشري تابع ، وأن الانسان الطبيعي خاضع بقسوة الطبيعة الفيزية ، للضرورة الفيزية ، **للاشياء** . ولكنه يعتبر ان هذه التبعية للاشياء لا تزيف الحرية، اذ انها ليست ، حسب تعليق هالبواك **Halbwachs** الواضح ، سوى «الرضوخ للضرورة ، لقوانين ثابتة مستقرة لا نشاهد وراءها ارادة بشرية فردية ، نزوية ، وغير ثابتة» . الحرية ، هو التبعية **للبشر** ، للاشخاص الخاصّين . كل المعضلة اذاً هي ان تعاد في الحالة الاجتماعية التبعية للاشياء ، مع تصفية التبعيات الخاصة التي هي «بقدرها قوة طرحت من جسم الدولة» . وحده القانون ، **تعبير الارادة العامة** ، قادر ، بعموميته بالضبط ، ب لاشخصيته ، ب لامرونتـه أو لاالتوائيته ، على تسكين معظم الادواء الملازمة لدى الانسان لواقع تبعيته للبشر . بفضل القانون ، والقانون فقط ، يمكن ان تصير التبعية للبشر من جديد «التبعية للاشياء» **(الإميل)** ؛ يمكن ان يجد الانسان من جديد بآن معا حرية و«اخلاقية» و«فضيلة» ، اي **مكافىء** حريته الطبيعية ـ واكثر .

كذلك ، كما سنرى الان ، الفرد وقد صار ، بالعقد ، الانسان الاجتماعي ، يجد من جديد **مكافىء** المساواة الطبيعية .

بالفعل ان الشرط او التحديد الاساسي في العقد الاجتماعي هو ، كما نعلم ، واحد للجميع . جميع المواطنين يتعهدون «تحت نفس الشروط ويجب ان يتمتعوا جميعا بنفس الحقوق» . بالتالي ليس السيد يوما في حق ان يحمّل رعية اكثر من رعية آخر . بعيدا «عن ان يدمر المساواة الطبيعية ، ان الميثاق الاساسي يضع بالعكس **مساواة خلقية وشرعية** محل ما امكن ان تضعه الطبيعة من لامساواة فيزية بين البشر ، والبشر ، مع امكان كونهم غير متساوين في القوة او في القريحة ، يصبحون جميعا متساوين بالاتفاق وبالحق» . ليس ان درجات السلطان والثروة يمكن في يوم من الايام ان تكون «واحدة بالتمام والضبط» . ولكن السلطان لا يمكن ان يعنف اي مواطن متحديا القانون . واما الثروة ، فالامر اكثر تعقيدا «الدولة حيال اعضائها سيدة على كل أموالهم بالعقد الاجتماعي ، الذي يخدم في الدولة كأساس لجميع الحقوق .» (نسمع صدى هوبز) . ولكن ، بعيداً عن ان تجرّد لذلك الافراد من أموالهم ، الدولة تؤمّن لهم بالعكس حيازتها المشروعة الملكية الحقيقية : الملك ـ الحق محل الملك ـ واقع وفعل من حالـة الطبيعة

«عندئذ اذ يُعتبر الحائزون مستودَعي المال العام ، واذ تحترم حقوقهم من قِبل جميع اعضاء الدولة وتصان بكل قواها ضد الغريب ، بتسليم مفيد للجمهور وأكثر ايضا لانفسهم ، فانهم ان صح القول **قد اكتسبوا كل ما اعطوا**» .

ولكن حذار : اذا كان البعض عندهم الكثير والبعض الآخر لا شيء ، ستكون الدولة معرضة «لتجارة الحرية العامة ــ هذا يشتريها وذاك يبيعها» . من هنا الطغيان ، من هنا الانحلال . «تريدون اذاً اعطاء الدولة قواما ، قرّبوا الدرجات القصوى بقدر ما هو ممكن ؛ لا تعانوا من المترفين ولا من الصعاليك . هاتان الحالتان ، اللتان لا تنفصلان بطبيعة الامور ، هما بالتساوي وخيمتان على المال العام والخير المشترك ... . فلا يكن اي مواطن ثريا بحيث يستطيع شراء مواطن آخر ولا يكن اي مواطن فقيرا بحيث يكون مرغما على بيع نفسه» .

نرى جيدا الان معنى العبارة المشددة اعلاه : مساواة خلقية وشرعية . ليس تماما مساواة واقع ، ولكن ليس اكثر مساواة شكل محض ، «ظاهرية و وهمية» ، تسمح بإبقاء الفقير في بؤسه والغني في اغتصابه .

ومصطلح **تغيير الطبيعة** dénaturation ، المستخدم في مستهل هذه الانماءات عن الحرية والمساواة ، يأخذ ايضا كل قيمته . ان تحول الانسان الطبيعي الى مواطن قد حوّل غرائزه ، بدلها كيميائيا . الانسان ، من اجل خيره وخير الجميع ، قد غيرت طبيعته المؤسسة الاجتماعية الشرعية (المعارضة للمجتمع الزائف والجائر ، الذي شُجب واستُنكر في المؤلف الشهير **خطاب عن اصل التفاوت** ، السابق لـ **العقد**) . الانسان نقل أناه و وضعه «في الوحدة المشتركة بحيث لا يعود كل فرد خاص يعتقد نفسه أحدا ولكن جزءا من الكل» . ها هو الانسان قد زود بالطبيعة الجديدة التي يتكلم عنها ب. دو جوفنيل ، وها قد اعطي حب الذات قاعدة اخرى ، «لجعله يحمل ثمارا اخرى» : ثمارا اجتماعية . في هذا النقل ، في هذا الانتقال من حالة الى اخرى ، كسب الانسان من جديد ــ ونيّف ــ مكافىء ما امكنه ان يخسر . يا لها من نِعَم لا تضاهى تحملها الحالة الاجتماعية ، يغنيها هذا الـ روسو الذي سيريد فاغه Faguet ، وقد سحره **الخطاب** وحيّره **العقد** ، سيريد ان يراه قبل كل شيء «آنتي ــ اجتماعي» ، «ضد ــ اجتماعي» ! والاَولى أن نقرأ :

> هذا الانتقال من حالة الطبيعة الى الحالة المدنية ينتج في الانسان تغيرا جد مرموق ، **بإحلاله في سلوكه العدالة محل الغريزة ، وإعطائه لاعماله الاخلاقية التي كانت تنقصها من قبل** . عندئذ فقط اذ يخلف صوت الواجب الدفع الفيزي والحق الشهوة ، يجد الانسان ، الذي لم يكن الى هنا قد نظر الا الى نفسه ، يجد نفسه مرغما على الفعل حسب مبادىء اخرى ، وعلى استشارة عقله قبل استماعه الى ميوله . مهما حرم نفسه في هذه الحال من مزايا

كثيرة يملكها من الطبيعة ، فانه يعود ويكسب مزايا كبيرة ، ملكاته وقدراته تتمرس وتتطور ، افكاره تتوسع ، عواطفه تتسامى ، نفسه كلها ترتفع الى نقطة بحيث لو لم تكن تجاوزات هذا الشرط الجديد كثيرا ما تحطه تحت الشرط الذي خرج منه ، لكان عليه **ان يبارك على الدوام اللحظة السعيدة التي انتزعته من ذلك الشرط الى الابد والتي من حيوان بليد ومحدود صنعت كائنا ذكيا وإنسانا.**

السيادة

سمات السيادة او علائمها تنبع منطقيا من الاصل التعاقدي للسيد ومن تعريف السيد souverain . السيد ، المكون من قبل العقد الاجتماعي ، هو الشعب في جسم راسما الارادة العامة ، التي القانون تعبيرها . «ارادة السيد هي السيد نفسه» . السيادة ، اي سلطة الجسم السياسي على كل اعضائه ، تتطابق في الهوية مع الارادة العامة ، وسماتها هي عين سمات هذه الارادة : انها لا تنخلع، لا تنقسم ، معصومة عن الخطأ ، مطلقة .

لا تنخلع . ــ السلطة يمكن ان تسلّم ، أن تنتقل . الارادة لا يمكن . لا ميثاق «خضوع» اذاً يمكن ان يتصور في الوقت نفسه مع ميثاق «الاجتماع» او بعده . مجموع المواطنين ، منذ اللحظة التي يكون فيها تنازل عن ارادته ، يكف عن كونه «شعبا» . وبحكم نفس السبب الذي يجعلها لا تنخلع ، السيادة لا يمكن ان **تمثّل**. ان ارادة لا يمكن ان تعطي نفسها قيودا للمستقبل ، تحت شكل ممثل او نائب :

> السيد ليستطيع ان يقول : أريد حاليا ما يريده فلان او على الاقل ما يقول انه يريده ؛ ولكنه لا يستطيع ان يقول : ما هذا الانسان سيريده غدا ، سأريده ايضا ... . الارادة لا تمثّل قط : هي هي او هي غير ؛ لا وجود لوسط . نواب الشعب ليسوا اذاً ولا يمكن ان يكونوا ممثليه ؛ ليسوا سوى مفوضيه ؛ لا يستطيعون ان يختموا اي شيء بشكل نهائي . **كل قانون لم يصادق عليه الشعب بشخصه لاغ ؛ ليس بقانون .**

جان جاك ، مواطن جنيف ، المتعصب للاقتراع المباشر على القوانين ، ينفر من النظام التمثيلي الذي ينادي به مونتسكيو ، هذا الاقطاعي المقنّع بشكل سيء ، ومثال انكلترة لا يأخذه بهيبة او خداع . لنسجل مرورا ان في سنة ١٧٦٢ كان يرتسم ، آتيا من مصادر مختلفة ، تيار رأي ضد الهوَس الانكليزي ، ضد الأنجلومانيا التي كان قد غذّاها الى هذا الحد **روح القوانين** .

لا تنقسم . ــ لنفس السبب الذي يجعلها لا تنخلع . «الارادة عامة او ليست

عامة ؛ هي ارادة جسم الشعب او فقط ارادة جزء» ، وإرادة جزء ما هي سوى ارادة جزئية ، خاصة . قسم السيادة في مبدئها ، هو قتلها . لكن ، مع الاعتراف بها واحدة في مبدئها ، قَسمها في موضوعها ، مثلا الى سلطان تشريعي وسلطان تنفيذي متعاملَين من مساو الى مساو ــ كما يفعل مونتسكيو ــ هو قتلها ايضا . سياسيون عجيبون ، بلا منطق ،

يجعلون السيد كائنا خياليا غريبا ومشكّلا من قطع مجموعة ؛ هذا كما لو كانوا يؤلفون الانسان من عدة أجسام ، احدها لـــه عينان ، والآخر ذراعان ، والآخر قدمان ، ولا شيء اكثر . مشعوذو اليابان يقطّعون ، على ما يقال ، طفلا امام عيون المشاهدين ؛ ثـم ، اذ يرمون في الهواء كل أطرافه واحدا بعد آخر ، يجعلون الولـد يسقط من جديد حيا ومجموعا بتمامه . هكذا تقريبا ألعاب خفة سياسيينا ؛ بعد تفكيكهم الجسم الاجتماعي بهيبة تليق بســـوق الالعاب ، يجمعون القطع لا يدري احد كيف .

خطيئتهم ، هي كونهم اخذوا السلطات المنفصلة على انها «أجزاء» من السيادة في حين انها ليست ولا يمكن ان تكون سوى «انبثاقات» او «صدورات» عنها .

معصومة عن الخطأ . ــ الارادة العامة لا «تستطيع ان تضل» ؛ انها «دائمـا مستقيمة ، وتتجه دائما الى المنفعة العامة» . «السيد ، بحكم انه كائن وحسب ، هو دوما ما يجب ان يكونه» . تأكيدات مجانية ، شاقولية الطّرق ؟ كلا . بــل عواقب طبيعية لـ «المسلّمة الديمقراطية» ــ كما كانت هناك «مسلمة مونارخيـة» لانصار الحكم المطلق ــ التي بموجبها الشعب في جسم يريد دائما وبالضرورة خير الجميع وكل واحد . «السيد بما انه مشكّل فقط من الافراد الخاصّين الذين يؤلفونه فليست له ولا يمكن ان تكون له مصلحة مضادة لمصلحتهم ... ؛ مــن المستحيل ان يريد الجسم الاساءة الى كل اعضائه و ... لا يمكن ان يسيء الى أي منها بشكل خاص ... [ما دام] كل فعل حق من الارادة العامة ، يجبر او يساعد **بشكل متساو** كل المواطنين» .

بعد ينبغي ــ روسو يسارع الى ايضاح بعض الاحتياطات ــ ان تكون الارادة ، حقا واصالة ، عامة ، بدون اي تسلل من ارادات خاصة . الامر الذي يقتضي أن «لا يرتئي كل مواطن الا بحسب نفسه» ، هو وحده ، بصفة فردية محض . الامر الذي يطرد تدخل أي «مجتمع جزئي» ، جمعية ، حزب ، شلة ، لا تتكون يوما الا على حساب المجتمع الكبير او الاجتماع العام : الجسم السياسي .

مطلقة . ــ السيادة تحلّل ، بالجوهر ، الى سلطة مطلقة : «يلزم (للدولـــة) قوة كلية وعامة لتحريك وترتيب كل جزء بالطريقة الانسب للكل . كما الطبيعــة تعطي كل انسان سلطة مطلقة على كل اعضائه . كذلك الميثاق الاجتماعي يعطـــي

الجسم السياسي سلطة مطلقة على كل اعضائه» .

ماذا ! سلطة بلا حدود ؟ ما من فصل في **العقد الاجتماعي** ادق من هذا الفصل الرابع في الكتاب الثاني الذي عنوانه : **في حدود السلطة السيدة** ... . روسو ينكشف هنا موزّعا . موزّعا بين فردوية نقطة انطلاقه ، مزاجه ، والمطلقيـــة الديمقراطية ، هذا الاستبداد الحقيقي للارادة العامة ، اي عمليا للاكثرية ، الذي اليه يقوده منطق بنائه . موزّعا بين الصرامة الجدلية للتسلطي هوبز (مراجَعا من بعض الحيثيات على يد سبينوزا) والابتكارية المرنة لـ لوك ، الفردوي الليبرالي ، الحريص على انقاذ حقوق الانسان في وجه الدولة .

هكذا فان روسو ، وقد اكد ضرورة السيادة المطلقة ، يحفظ ، الى جانب المواطن والرعية ، وهما وجها «الانسان الاجتماعي» او وجهه المزدوج ، حقـــوق «الانسان حسب» ، كما عملته الطبيعة

> مطلوب اذاً ان نميز جيدا حقوق المواطنين والسيد والواجبات التي على اولئك ان يؤدوها بصفتهم رعايا ، عن الحق الطبيعي الذي يجب ان يتمتعوا به بصفتهم بشرا . من المتفق عليه ان كلّ ما كلّ واحد يخلع ، بالميثاق الاجتماعي ، من سلطانه ، من امواله ، من حريته ، **هو فقط الجزء من كل ذلك الذي يهم استخدامه للجماعة** .

لكن هذا التنازل ، سرعان ما يجعله المؤلف من الناحية العملية وهميا اذ يوضح: «**ولكن يجب الموافقة ايضا على ان السيد وحده حكَم على هذه الاهمية**» .

كيف لا نحس عند روسو ارتباكا قاسيا ؟ وكم هو سعيد أن تستطيـــع المسلّمة الديمقراطية ــ السيد «دائما ما يجب ان يكونه» ــ المجيء لانقاذ كل شيء! «كل الخدمات التي يستطيع مواطن ان يسديها للدولة ، واجبة عليه ما ان يطلبها السيد ؛ ولكن السيد ، من جهته ، لا يستطيع ان يحمّل الرعايا اي قيد غير مفيد للجماعة ؛ بل لا يستطيع ان يريد ذلك ؛ اذ تحت قانون العقل لا شيء يحصل بلا سبب ، كما وتحت قانون الطبيعة» . تلي صفحتان عويصتان بشكل فظيع للانتهاء الى التذكير بأن الرعايا اذ يطيعون السيد لا يطيعون احدا سوى ارادتهم ذاتها . من هذا ينبع ان «السؤال الى اينَ تمتد حقوق السيد وحقوق المواطنين هو السؤال الى اية نقطة يستطيع هؤلاء **ان يلتزموا مع انفسهم** ، وكل منهـــم نحو الجميع ، والجميع نحو كل منهم» .

ليفهم من يستطيع ، قد يفكر ذوو الارواح الخفيفة . الحقيقة أن كل أفكار جان جاك «تتماسك» ، كما هو نفسه يؤكد بغزور ؛ ولكن تعبيرها ، نظرا للمسلّمة الاصلية ، وكذلك ، مع تصديقنا له ، نظرا لـ «فقر اللغة» ، يصير صعبا بشكـــل فائق . بجملة لا يترك وضوحها مزيدا لراغب ، ولكنهـــا لا تطمئِن الفردوي الا بدرجة تافهة ، هالبواك يختصر محاكمة المؤلف : «الدولة تترك لنا في الحاصل ، من نشاطنا الحر ، **كل ما ليس من الضروري ان تحدّه لتضمن وتؤمّن هـــذا**

النشاط الحر نفسه» .

مُطلقة ، معصومة ، لا تقسَم ، ولا تخلع ، ـ ويمكن ، رأينا ذلك ، أن نضيف: مقدسة ومحرمة ، ـ بأية محمولات مهيبة لا تحاط ، هذه السيادة حسب روسو ! لقد قالوها جيدا : بعد **روح القوانين** الذي كان يضع التشديد على قيم أخرى ، **العقد الاجتماعي** هو «ثأر السيادة» . على أنقاض الحكم المطلق المونارخي المحكوم عليه في الروح ، اراد روسو ان يشيد ، متذكرا جنيف ، سيادة بلا خطر للمحكومين ، ومع ذلك لا تقلّ عظمة وجلالا وتطلبا عن سيادة رجل واحد حسب بودان وهوبز وبوسويه . سيادة الشعب ، اي المواطنين في جسم ، سيادة مجردة تماما ، محل سيادة لويس الرابع عشر العيانية المغصوبة على سيادة الله ! سيادة تعارض **الدولة أنا** للمونارك المطلق بـ **الدولة نحن** للمحكومين في جسم !

القانون

الى القانون ، تعبير الارادة العامة ، يفضي في نهاية الحساب هذا البناء العالِم بشكل رائع او بشكل مُيَئّس .

القانون : اية فكرة عالية ، مثيرة ، ليست لدى روسو عنه ؟ انه حقيقة ، في نظره ، من جبلة المقدس ؛ وهو يكن له احتراما دينيا . نعلم ان قلبه المجروح يرى فيه ، في عموميته ، في لاشخصيته ، العلاج الوحيد لنزوة ، لعسف البشر الخاصّين حملة السلطة . الى القانون وحده مرد العدالة والحرية . وحده سمح بإخضاع الافراد لجعلهم أحرارا ، بتقييد ارادتهم باعترافهم ، بتقييم قبولهم ضد رفضهم . بفضله ، يخدمون و«ليس لهم سيد» . انه أرفع جميع المؤسسات البشرية . انه «إلهام سماوي» علّم الشعوب ان تنقل وتضع في هذه الدنيا ثبات المراسيم الالهية . هي ذي ، سيكتب روسو في ١٧٦٧ الى الماركي دو ميرابو de Mirabeau ، والد الخطيب (٣) ، ـ «هي ذي ، في أفكاري القديمة ، المسألة الكبيرة في السياسة ، التي أشبهها بمسألة تربيع الدائرة في الهندسة... : **ايجاد شكل حكومي يضع القانون فوق الانسان»** .

هذا يعني ان القانون لا يمكن ان يكون تعبير ارادة عسفيا من لدى السيد . لكان روسو رفض اسم قوانين لنصوص كثيرة خرشبتها برلماناتنا الحديثة وليست سوى الترجمة الفوضوية لأهواء ومصالح عابرة . القانون بالنسبة له انعكاس في هذه الدنيا عن نظام متعال . يكتب : «ما هو خير وموافق للنظام هو كذلك بطبيعة

---

٣ ـ **ميرابو** (الابن) خطيب الثورة الفرنسية مزدوجا بين الملك والجمعية الوطنية . ابوه **الماركي دو ميرابو** كان عالم اقتصاد ، من المدرسة الفيزيوقراطية .

الاشياء وبصورة مستقلة عن الاتفاقات البشرية . كل عدالة آتية من الله ، وهو وحده مصدرها ؛ ولكن ، لو كنا نعلم استقبالها من هذا العلو ، لما كنا نكون بحاجة الى حكومة ولا الى قوانين ...» .

فما الذي هو قانون ؟ لا يوجد قانون الا حين تكون المادة التي عليها يجري البت والتقرير عامة كالارادة التي تبت وتقرر . اذ تتسلط عليه خشية الخاص ، روسو يلح ويبسط :

حين اقول ان موضوع القوانين دائما عام ، أعني ان القانون يعتبر الرعايا في جسم والافعال مجردة ، ولا يعتبر ابدا انسانا كفرد ولا فعلا خاصا . هكذا فالقانون يستطيع جيدا ان يرسم انه ستكون هناك امتيازات ، ولكنه لا يستطيع ان يعطي امتيازات لشخص بالاسم ؛ القانون يستطيع ان يقيم عدة طبقات من المواطنين، بل ان يعيّن الصفات التي ستعطي حق الانتماء لهذه الطبقات ، ولكنه لا يستطيع ان يسمي هؤلاء وأولئك ليتقبلوا فيها ؛ بوسعه ان يقيم حكومة ملكية وخلافة وراثية ، ولكن ليس بوسعه ان ينتخب ملكا ، ولا ان يسمي أسرة ملكية : بكلمة ، كل وظيفة تنتسب الى موضوع فردي ليست ملكا للسلطان التشريعي .

بما أن السيد وحده ، الذي هو الشعب في جسم ، له صفة عمل القانون ، لذا لا يمكن ان يكون القانون ظالما . السيد هو كلٌ منا ، و«لا احد منا ظالم حيال نفسه» . ما من حاكم يمكن ان يكون فوق القوانين ، ما دام ، كما سنرى ، كل حاكم مندوبا عن السيد . بكوننا خاضعين للقوانين ، نحن أحرار ، «اذ انها لست سوى سجلات لاراداتنا» .

آه ! ماذا سيعترض ربما القارىء ، في حسه السليم ، الجمهرة عمياء ، عارية من الحس النقدي ، ولكن أعطيت وسام كلمة سيد Souverain الجليلة ، ستسلَّم مهمة جدية ودقيقة كمهمة عمل القوانين ، «شروط الاجتماع المدني» هذه؟ روسو قطعي : «الشعب الخاضع للقوانين يجب ان يكون هو صانعها ؛ للذين يجتمعون ، لا لسواهم ، ان يضبطوا شروط المجتمع» . ولكن الى اين تتجه هذه الاسئلة التي يطرحها فجأة : «كيف سيضبطونها ؟ أيكون ذلك باتفاق مشترك ، بإلهام مفاجىء ؟ الجسم السياسي هل له عضو يفصح عن اراداته ؟ من سيعطيه التبصر اللازم ...؟» . اسئلة معكّرة من شأنها ـ يعلق هالبواك ـ لحظة «الوصول الى البناء» أن تعيدنا الى «عرض البحر» ! وإليكم ما هو اكثر اقلاقا ايضا : «كيف لجمهرة عمياء ، كثيرا ما لا تعلم ما تريد ، لانها نادرا ما تعلم ما هو صالح لها ، ان تنفذ بنفسها مشروعا كبيرا صعبا كمنظومة تشريع ؟» .

اية مفاجأة يهيىء لنا روسو ؟ لنقرأ اكثر الى الامام .

من نفسه الشعب يريد دائما الخير ، ولكنه من نفسه لا يراه دائما. **الارادة العامة دائما مستقيمة ، ولكن الفهم الذي يرشدها ليس دائما منوّرا** . يجب ان تجعل ترى الموضوعات كما هي ، احيانا كما يجب ان تظهر لها ، ان يبيّن لها الدرب الصالح الذي تبحث عنه ، **ان تضمن من اغراء الارادات الخاصة** ، ان تقرّب في اعينها الامكنة والازمنة ، ان توازِن جاذبية المزايا الحاضرة والمحسوسة بخطر المصائب البعيدة والمخفية . الافراد الخاصون يرون الخير الذي هم يرفضونه ؛ الجمهور يريد الخير الذي هو لا يراه . **الجميع بالتساوي يحتاجون الى مرشدين** . يجب ارغام اولئك على جعل اراداتهم (الخاصة) موافقة لعقلهم ؛ يجب تعليم الاخير معرفة ما يريد . عندئذ ، من الانوار العامة ، تنتج وحدة الفهم والارادة في الجسم الاجتماعي ، من هنا التشارك الصحيح للاجزاء ، واخيرا القوة الاكبر للكل . هوذا من حيث تولد ضرورة مشرّع .

وهي ذي المفاجأة التي كان يهيئها هذا التحليل الرائع على اي حال ! هذا النداء غير المنتظر الى المشرّع ، الى الفرد الفريد ، الى الكائن الخارق ، الملهَم وشبه ــ الإلهي ، كي يعطي شعبه ، عند الانطلاق ، في اصل حياته السياسية ، «منظومته من تشريع» ، قوانينه الجوهرية ، الاساسية ، مصدر المؤسسات الدائمة («قوانين دستورية» ، نسميها في ايامنا) ــ كيف اذاً نفسره ، بأية ذكريات قوية عند مؤلف **العقد** ؟ يذكر ، بالطبع ، موسى ، سولون ، ليكورغ Lycurgue (٤) . ولكن روسو ، مواطن جنيف التي كانت ذات يوم «مدينة ــ كنيسة» كالفن ، فكر على الارجح قبل كل شيء بهذا الاخير . كالفن يوافق ، سمة لسمة ، اللوحة التي يرسمها لنا روسو عن المشرّع .

لكائن خارج المألوف ، هذا المشرّع ، بعبقريته كما بوظيفته .
بعبقريته :

لاكتشاف افضل قواعد اجتماع تناسب الامم ، يلزم ذكاء متفوق يرى كل اهواء البشر ولا يشعر هو بأي منها ؛ ليس له اية علاقة مع طبيعتنا ويعرفها بعمق ... ؛ رجل ، اذ يحفظ لنفسه في سير تقدم الازمنة مجدا بعيدا ، يستطيع العمل في قرن والتمتع في قرن آخر . **يلزم آلهة لاعطاء قوانين للبشر** ... ؛ من يجسر ويعزم على تأسيس شعب يجب ان يشعر نفسه قادرا ان صح القول على تغيير الطبيعة البشرية ؛ على تحويل كل فرد ، الذي هو بنفسه كل

---

٤ ــ ليكورغ Lycurgue مشرّع سبارطة الاسطوري . (سبارطة تدعى ايضا لاسيديمون) .

كامل ومنفرد ، الى جزء من كل أكبر ينال منه هذا الفرد نوعا ما حياته وكينونته ... [دوما هذه «الطبيعة الجديدة» التي ينبغي تجهيز الفرد بها لتحقيق الوحدة والسلام فيه] .

بوظيفته . — المشرّع ليس سيدا . انه لا يامر على البشر . انه لا يامر الا على القوانين . انه يكوّن الدولة ، ولكنه ليس جزءا من تكوين ، من دستور الدولة (هكذا في جنيف ، كالفن ، وهو من جهة اخرى اجنبي) . هذه القوانين التي يحررها المشرّع ، ليس بامكانه ان يعطيها قوة موجبة تنفيذية . وحده الشعب في جسم ، او السيد ، يستطيع . وحتى لو اراد الشعب ، فلن تكون له سلطة التجرد من حقه التشريعي ، الذي هو «حق لا ينتقل» . لن تكون له ، لان ، بموجب الميثاق الاساسي ، ليس سوى الارادة العامة تلزم الخاصين ، ولا يمكن في يوم من الايام التأكد من ان ارادة خاصة (لنفهم : حتى ارادة المشرّع) «هي موافقة للارادة العامة ، **الا بعد اخضاعها لاصوات الشعب الحرة**» . هل يمكن ان نحلم بوظيفة أبعد عن المألوف من هذه الوظيفة في الجسم السياسي ؟ نجد «بآن في عمل التشريع شيئين يبدوان مستحيليَ التوفيق : **مشروع فوق القوة البشرية ، ومن اجل تنفيذه سلطة هي لا شيء**» . مسألة جديدة ليس لها حل للوهلة الاولى !

روسو يحلها مستنجدا بحيلة : تمثيلية التدخل الالهي . كل المشرعين الكبار، كل «آباء الامم» ، جعلوا الآلهة يتكلمون ، زينوهم بحكمتهم الخاصة ذاتها . وضعوا في أفواههم الخالدة قرارات عقلهم الخاص والرفيع . لماذا ؟ «لكي يجرّوا بالسلطة الإلهية الذين لا تزعزعهم الفطنة البشرية» ، لكي يجعلوا الشعوب تطيع «بحرية» ويجعلوها تحمل «طائعة نير السعادة العامة» . أمعنى هذا ان روسو يقلص مشرعه الى دور خدّاع ماهر في معالجة الشعوب ؟ بتاتا . في صفحة رائعة ، هي نشيد حقيقي للحكمة التي تؤسس ، يحظر علينا المؤلف تخفيض النقاش على هذا النحو.

ولكن ليس متاحا لكل انسان ان ينطق الآلهة ، ولا ان يصدَّق حين يعلن انه ترجمانهم . ان نفس المشرّع الكبيرة هي المعجزة الحقيقية التي يجب أن تدلل على رسالته . يستطيع كل انسان ان يحفر الواحا حجرية ، او ان يشتري هاتفا من الغيب ، او يتظاهر بتعامل سري مع إله ما ، او يدرب طائرا ليكلمه في اذنه ، او ان يجد وسائل فظة اخرى ليخدع الشعب . من لا يعرف غير ذلك سيستطيع حتى ان يجمع حوله بالمصادفة قوة من المجانين ، ولكنه لن يؤسس في يوم من الايام امبراطورية ، ولن يلبث عمله الشاذ ان يموت معه . ان هيبات زائفة تشكل رابطا عابرا ، الحكمة وحدها تجعله دائما . الشريعة اليهودية التي لا تزال باقية ، شريعة ابن اسماعيل [محمد] التي تسود منذ عشرة قرون نصف العالم ، تعلنان

اليوم ايضا عن الرجلين العظيمين اللذين املياهما ؛ وفي حين ان الفلسفة المغرورة او الروح الحزبيّة العمياء لا ترى فيهما سوى دجّالين سعيدي الحظ ، فان السياسي الحق يعجب في مؤسساتهما بهذه العبقرية الكبيرة والجبارة التي تراس المنشآت الدائمة .

من بين القوانين التي يعينها المشرّع على هذا النحو للمدينة التي يؤسس ، هناك صنف اهم من القوانين السياسية او الاساسية ، من القوانين المدنية والقوانين الجنائية . اهم منهن جميعا ، لان المحافظة الجيدة عليهن يتوقف عليه. صنف «لا ينحفر في الرخام ولا في المعدن ، بل في قلوب المواطنين ؛ يصنع دستور الدولة الحقيقي ؛ يأخذ في كل الايام قوى جديدة ؛ حين تشيخ او تنطفىء القوانين الاخرى ، ينعشها او ينوب منابها ، يحفظ شعبا في روح مؤسسته ، ويحل بالتدريج قوة العادة محل قوة السلطة» . روسو يريد ان يتكلم هنا

عن الاخلاق ، عن العادات ، وبخاصة عن الراي العام ؛ جزء يجهله سياسيونا ، ولكن عليه يتوقف نجاح كل الاجزاء الاخرى : جزء يعنى به المشرّع الكبير سرا ، بينما يبدو مقتصرا على حلول خاصة ليست سوى قوس القبة ، التي الاخلاق العامة ، وولادتها ابطأ ، تشكل اخيرا مفتاحها الذي لا يزعزَع .

مونتسكيو هل كان في يوم من الايام اكثر بلاغة عن سلطان الاخلاق العامة ، عن سلطان الراي العام ، الذي ، اذا رُبّي كما ينبغي ، يبقي الاخلاق ؟

اخيرا ، ان اعظم مشرّع «اعفل مؤسس ــ معلم» ، لا يعطي الشعوب المؤسسات التي يريد . ليس كل شيء أن تحرّر قوانين جيدة في ذاتها ، يلزم ايضا فحص ما اذا كان الشعب الذي هي اليه «صالحا لتحملها» . مسالة ليست مسالة حقوق، بل مسالة مناسبة ، ملاءمة ، مسالة لا ادري اي حس او ذوق لا يعلمه اي كتاب. «الف امة لمَعنَ على الارض ما كان يمكن ان يتحملن قوانين جيدة ؛ بل وان اللواتي كان يمكنهن ذلك لم يكن لهن ، في كل دوامهن ، سوى زمن قصير من اجل ذلك». للمشرع ان يدرك هذه اللحظة العابرة الهاربة ؛ سرعان ما يفوت الوقت . روسو ، كمونتسكيو ، ينتقد بطرس الاكبر ، ولكن لاسباب اخرى : «الروس لن يكونوا في يوم من الايام مهذبين حقا ، لانهم هذّبوا قبل اوانهم . بطرس كانت عبقريته عبقرية تقليد ؛ لم تكن له العبقرية الحقة ، العبقرية التي تخلق وتنتج كل شيء من لا شيء ... . لقد اراد اولا ان يصنع المانا ، انكليزا ، حين كان يجب البدء بصنع روس » .

صفحة كثيفة ، مكرسة للاجابة على السؤال : «اي شعب اذا صالح للتشريع»، تعدد الشروط التي يصعب جمعها ، شروط نجاح المشرّع ؛ نخلص الى اننا نرى

«قليلا من الدول المكوّنة جيدا» ، ولكن هناك مع ذلك في اوروبا بلد قادر على التشريع . «انه جزيرة كورسيكا» . كورسيكا كانت لتوها قد استرجعت حريتها ضد جنوَه . «شعب باسل» ، يستحق فعلا ان يعلّمه «رجل حكيم» المحافظة على هذه الحرية ، يصرخ روسو ، دون ان يشتبه بأن بعض الكورسيكيين ، وهم يقرؤونه ، سيرون فيه هذا الرجل الحكيم ، وسيطلبون منه دستورا لبلادهم . اقل ايضا يشتبه في اي اتجاه ستتحقق النبوءة التي يلقيها بإهمال كنهاية :

«عندي بعض شعور بأن هذه الجزيرة ذات يوم ستدهش أوروبا» (٥) .

الحكومة

رأينا لتوّنا كيف ان مؤلف **العقد الاجتماعي** ، الذي كان يريد ان يضع القانون فوق الانسان ، اعتقد نفسه مجبرا على الاستنجاد ، من اجل تأسيس القوانين الاساسية للدولة ، برجل ـ رجل من الصحيح انه فوق العادة ، ملهَم حقا ، نفس كبيرة تضطلع بأعظم رسالة . وها ان روسو ، في الطرف الآخر من سلسلة التشريع ، يجد نفس استحالة الاستغناء ، عمليا ، عن الرجال الخاصّين وعن الافعال الخاصة .

اذ لئن القانون ، بطبيعته ، لا يمكن ان يكون ذا موضوع **خاص** و **فردي** ، الا ان تنفيذ القانون يقع هو على موضوعات خاصة وفردية . ما تنفيذ القانون ان لم يكن «تقليصه الى أفعال خاصة» ، وهو ، بحكم التعريف ، أمر لا يستطيعه السيد او الشعب في جسم ؟ فمن سيقوم به اذاً ؟ اي رجال خاصين سيأمرون البشر الآخرين بأفعال خاصة ؟ وما السبيل الى منع ان لا تنهار بذلك كل نَظمة الميثاق الاجتماعي ، المؤسسة على أوّلية وامتيازية «العام» ؟

هذه المعضلة الجديدة العجيبة الصعوبة ،روسو يحلها بفضل اختراع جديد، جعلنا القارىء يتوقعه بصفته الاختراع الكبير الثاني في **العقد** (وعلى الطريق اليه أمكن لروسو أن يوضع من قبل بودان ، ثم هوبز ، وأخيرا لوك) . انه تمييزه الجذري بين **السيد** ، الشعب في جسم الذي يصوت القوانين ، و**الحكومة** ، جماعة رجال خاصين ينفذونها . هذا التمييز يؤسس تصنيفا لـ **اشكال الحكم** يختلف تماما (لا في مصطلحاته بل في مدلوله) عن التصنيفات التي صادفناها الى هنا . هذا التمييز يلزم روسو بأن يتحرى ويقترح انجع الوسائل لإبقاء الحكومة

---

٥ ـ **كورسيكا** : استعمرها الرومان ، ... ثم تعرضت لغزوات العرب ، وضعت نفسها تحت حماية البابا الذي سلمها لاهل بيزة ، ثم استولى عليها اهل جنوه (ق ١٤) ، وانتقلت الى فرنسا في ١٧٦٨ . نابوليون بونابارت وُلد في كورسيكا سنة ١٧٦٩ .

في مكانها – التابع المرؤوس – ، الحكومة المحمولة دوما بطبيعتها الى «الجهد» ضد السيد ، وبالتالي المشبوهة بالجوهر .

حكومة : «لنحاول تثبيت المعنى الدقيق لهذه الكلمة التي لم تشرح بعد جيدا تماما» .

السيد **يريد** . انه الارادة (العامة) التي تعيّن الفعل (العام) . الحكومة **تفعل** . تنفذ ، بأفعال خاصة ، الفعل العام . انها ، وانها فقط ، القوة في خدمة الارادة . يجب ان تكون مقامة بحيث «تنفذ دائما القانون ولا تنفذ ابدا سوى القانون» . جميع الذين ، الى روسو ، خلطوا ، لصالح الملوك المطلقين الاكبر ، الحكومة مع السيد لم يفهموا شيئا في العلم السياسي . الحكومة ليست الا «وزير السيد» ، ليست الا «**جسما** وسيطا أقيم بين الرعايا والسيد من اجل توافقهما المتبادل ، جسما مكلفا بتنفيذ القوانين وإبقاء الحرية ، المدنية كما والسياسية» . «اعضاء هذا الجسم اسمهم قضاة او **ملوك** rois اي **حكام** ، والجسم بأسره يحمل اسم **امير** » (٦) .

بين الشعب من جهة ومن جهة أخرى هؤلاء القضاة او الملوك rois (ويوصفون خطأ ، الى هنا ، بكلمة «اسياد» Souverains) او الرؤساء chefs او الامير (جماعيا) ، لا يوجد اي عقد . لا يمكن ان يوجد . عقد وحيد ، نعلم ذلك ، في الدولة : العقد الذي أسس المجتمع وخلق السيد : «ذلك وحده يطرد كل آخر» . لا يمكن تصور اي عقد او ميثاق خضوع ، نعلم هذا ، بعد عقد الاجتماع او الى جانبه . ليكون امرا أحمق ومتناقضا ان يتخذ الشعب ، السيد ، «رئيسا» un superieur . الفعل أي القرار او الصك acte الذي به يؤسس الشعب حكومة «ليس عقدا» به يخضع لرؤساء chefs «بل قانون» . **«ان مستودَعي السلطان التنفيذي ليسوا قط اسياد maîtres الشعب ، بل هم موظفوه Ses officiers ، بامكانه ان ينصبهم وان ينزلهم حين يشاء ، ليس لهم ان يتعاقدوا ، بل ان يطيعوا»** . لا يحوزون **«مطلقا سوى وكالة ، وظيفة ، فيها بصفتهم مجرد ضباط عند السيد ، يمارسون باسمه السلطة التي جعلهم مستودَعيها ، والتي يستطيع حدها وتعديلها واسترجاعها حين يطيب له»** .

الاشكال الحكومية

الوديعة التي تكلمنا عنها لتوّنا يمكن ان تسلّم ، أن «توكل» لكل الشعب او

---

٦ – كلمة **rois** (Rex و regis باللاتينية) ، و **regime - regence, régie, régir** regere, و regimen باللاتينية = gouverner , diriger ، حكم ، حكومة ، قاد ، وجّه) على خلاف مع كلمة مليك العربية (وملك ، مالك ، مالك الرقاب والاراضي) .

لجزئه الاكبر ، وذلك **ديموقراطية** ؛ لعدد صغير ، وذلك **اوستقراطية** ؛ لقاض وحيد يمسك جميع الآخرين سلطتهم منه : «هذا الشكل الثالث هو الاكثر شيوعا ويدعى **موناركية** او حكومة ملكية» . هذا هو تصنيف الحكومات **الشرعية** حسب روسو. انه ينسخ في الظاهر التقسيم الكلاسيكي . انه في الواقع مختلف جذريا .

مختلف جذريا لان روسو ، على وجه التحديـــد ، يميز جذريا «سيـــد» و«حكومة» ، مخصصا لهذا التمييز شرعية السلطة . ليست شرعيا مكونة ، في نظره ، سوى الدولة التي فيها الشعب في جسم ، السيـــد ، **يمارس مباشرة السلطان التشريعي** . بعد وضعنا هذا ، ووضعنا اياه خارج السؤال او الشك ، شرعية كل حكومة ، **بمعنى «سلطة تنفيذية» الضيق** ، لا تدّعي الاغتصاب علـــى السيد ، بل هي ليست سوى وزيره ، وكيله ، المنفّذ الامين لارادته (العامة) . الاشكال الشرعية **للحكومة** ــ بالمعنى الضيق الذي تعطيه لغة روسو لهذا المصطلح ــ تصنف عندئذ فقط بحسب عدد الاعضاء الذين يكوّنون الجسم الوسيط المكلف بتنفيذ القوانين .

بحيث ان **ديموقراطية** تعين شكل الحكومة الذي فيه الشعب في جسم ليس فقط يصوت على القوانين ، بل ايضا يقرر التدابير الخاصة التي يتطلبها تنفيذها: «السلطة التنفيذية منضمة الى السلطة التشريعية» . خلط سلطات ، حكومـــة مباشرة كاملة ، فيها العدد الاكبر يصنع كل شيء ، القرارات الخاصة كالقرارات العامة . حكومة سيئة ، يصرح روسو ، امام الدهشة الكبيرة للذين لم ينفذوا في منطق ومصطلحات **العقد** .

سيئة ، «لان الاشياء التي يجب ان تميَّز لا تميَّز» . سيد وحكومة او «أمير» هما نفس الشخص العام Publique . هذا غير جيد . «ليس جيدا ان يكون من يعمل القوانين منفّذها ، **ولا ان يحوّل جسم الشعب انتباهه عن الرؤيات العامة ليعطيه للموضوعات الخاصة»** . ان فساد التشريعي ينبع بشكل لا يخطىء مـــن الرؤيات الخاصة . دون حساب انه «ضد النظـــام الطبيعي أن يحكم العـــدد الاكبر ... . لا يمكن تصور أن الشعب باق على الدوام ملتئما من اجل تعاطـــي الشؤون العامة» . ان حكومة كهذه تفترض اشياء كثيرة يصعب اجتماعها ، صغر الدولة الى حد اقصى ، بساطة كبيرة في الاخلاق العامة ، يقظة وشجاعة فائقتين عند كل مواطن . ليس ثمة حكومة «معرّضة بهذا القدر للحروب الاهلية والخضات الداخلية » .

نفهم الان هذه الجمل لروسو ، التي كثيرا ما فهمت بالمقلوب ، واستخدمت من اجل سحق مؤلف **العقد** تحت لاتلاحماته ، تحت تناقضاته : «أخذاً للمصطلح في صرامة ودقة مدلوله ، لم توجد ابدا ديمقراطية حقيقية ولن توجد» . «لو كان هناك شعب من آلهة ، لحكم نفسه ديمقراطيا . ان حكومة بهذا الكمال لا تناسب بشرا .» («بهذا الكمال» : لنفهم : يشترط كمالا زائدا في الشمائل ، يطلب الكثير من البشر) . أن لا تكون هذه محض فورات هوى او فكاهة ، تدلل على ذلك رسالة

للمؤلف لاحقة : «أمكنك ان ترى ... في **العقد الاجتماعي** انني لم أؤيد ذات يوم الحكومة الديمقراطية» .

أرستقراطية ، هي الحكومة المسلّمة لعدد صغير . هي إما طبيعية (في المجتمعات الاولى ، حيث رؤساء العائلات كانوا يبتون فيما بينهم في الشؤون العامة) ، إما انتخابية ، اما وراثية . الوراثية هي اسوأ الحكومات . الانتخابية هي افضلها : «أنه النظام الافضل والاكثر طبيعية ان يحكم الاكثر حكمة الجمهرة ، حين يكون المرء واثقا من انهم سيحكمونها لصالحها لا لصالحهم ؛ لا ينبغي قط مضاعفة او مكاثرة النوابض بلا فائدة ، ولا عمل بعشرين الف رجل ما يستطيع مئة رجل مختارين ان يعملوه بشكل افضل ايضا» . هذه النظمة ، دون ان تتطلب فضائل بعدد ما تتطلبه النظمة الديمقراطية ، تتطلب فضائل اخرى خاصة بها ، «كالاعتدال في الاغنياء والاكتفاء في الفقراء» . الا انه لا يمكن كتمان ان مصلحة الجسم ، روح الهيئة ، في الحكومة ، يُخشى ان تكون موسومة بشكل زائد على حساب الارادة العامة .

مونارخية : الامير ليس هنا جسما اي هيئة ، بل رجل حقيقي ؛ الوحدة المعنوية والوحدة الفيزية تتطابقان . لذا فما من حكومة لها عزم أكبر :

> ... ارادة الشعب ... ارادة الامير ... قوة الدولة العامة ... قوة الحكومة الخاصة ، كل شيء يستجيب لنفس الدافع ، كل نوابض الآلة هي في يد واحدة ، كل شيء يسير الى نفس الهدف ؛ ليس ثمة حركات متعارضة يدمر بعضها البعض الآخر ، ولا يمكن ان نتصور اي نوع من دستور فيه ينتج جهد اقل عملا اكبر . ارخميدس جالسا بهدوء على الشاطىء وساحبا بلا عناء سفينة كبيرة ، يمثل لي موناركا ماهرا يحكم من غرفته ممالكه الواسعة ، ويحرك كل شيء وهو يظهر بلا حراك .

كل شيء يسير نحو نفس الهدف ... ، هل من أفضل ، خصوصا في نظر روسو متعصب لوحدة الدولة ؟ بوسويه ممثلا المونارك المطلق ليس عنده صورة اصح ولا اجمل من صورة ارخميدس . هل **العقد الاجتماعي** ، بمفاجأة مسرح جديدة ، سيكشف لنا الان روسو مونارخيا ؟ الأولى ان نتابع القراءة :

> ولكن لئن كان لا توجد حكومة لها عزم اكبر ، فلا توجد حكومة فيها الارادة الخاصة لها سلطان اكبر وتهيمن بشكل أسهل على الاخرين ؛ **كل شيء يسير الى نفس الهدف ، هذا صحيح ، ولكن هذا الهدف ليس هدف السعادة العامة** ؛ وحتى قوة الادارة تتحول بلا انقطاع الى غير صالح الدولة .

هذه الجمل تبدأ الهجاء الناهض للمونارخية ، الذي يحل فجأة محل العرض الصافي والعلمي الهيئة الى هنا . شراسة الجمهوري الجنيفي ضد المونارخية ، خصوصا الوراثية ، ضد المونارخية طراز بوسويه ، تأتي لتجري في جدل تصنيف الحكومات انحرافا مثيرا للفضول . كان روسو الى هنا قد واجه الديمقراطية الشرعية ، الارستقراطية الشرعية ، كان قد عرّف المونارخية الشرعية ، التي يجب ان تكون ، ابنة الميثاق الاجتماعي ، حيث الشعب في جسم هو السيد وحيث المونارك ليس سوى المستودع الوحيد للسلطان التنفيذي . وها ان روسو ، فجأة وبدون سابق اعلان ، يكف عن تحليل هذه المونارخية الشرعية ، ليهاجم المونارخية **الواقعة** ، غير الشرعية ، التي توجد خارج كل ميثاق اجتماعي ، المونارخية التي كان ينادي بها انصار الحكم المطلق . انها حجج هؤلاء ، الذين يدعوهم «سياسيين ملكيين» ، يحرص روسو على دحضها ، بهوى يذكّرنا بهوى لوك العذب . والحجة المطلقية التي ضدها ، ليس بدون حس مَسنون للعدو ، ينهمك ، هي حجة التماثل الضروري المزعوم بين مصلحة المونارك الخاصة والمصلحة العامة («المسلّمة المونارخية») .

> الملوك يريدون ان يكونوا مطلقين ، ومن بعيد يُصرخ لهم ان افضل وسيلة ليكونوه هو ان يجعلوا انفسهم محبوبين من شعوبهم. هذه الحكمة جميلة جدا ، بل وصحيحة جدا من بعض الحيثيات. لسوء الحظ ستكون دائما موضع هزء في البلاطات . السلطان الذي يأتي من محبة الشعوب هو لا ريب الاكبر ؛ ولكنه وقتي وشرطي ، ابدا لن يكتفي به الامراء . أفضل الملوك يريدون ان يكون بمقدورهم ان يكونوا شريرين ، اذا طاب لهم ، دون ان ينقطعوا عن كونهم الاسياد . يستطيع واعظ سياسي ان يقول لهم ما طاب له القول انه بما ان قوة الشعب هي قوتهم فان مصلحتهم الاكبر هي ان يكون الشعب مزدهرا ، عديدا ، مخيفا . يعلمون جيدا جدا ان هذا غير صحيح . مصلحتهم الشخصية هي اولا ان يكون الشعب ضعيفا، بائسا ، وأن لا يستطيع مقاومتهم في يوم من الايام ... . كل شيء يسهم في حرمان رجل تنشّىء ليأمر على الآخرين ، من العدل والعقل ... . ان سفسطة مألوفة لسياسيي الملوك هي ليس فقط تشبيه الحكومة المدنية بالحكومة البيتية والامير برب الاسرة ... ، بل ايضا اعطاء هذا القاضي بسخاء كل الفضائل التي يكون بحاجة اليها ، **والافتراض دائما ان الامير هو ما يجب ان يكون ...**

أهناك اذاً ، في نظر روسو ، حكومة خيّرة بالجوهر ؟ لقد أثنى اعلاه على الارستقراطية الانتخابية . أهذه كلمته الاخيرة ؟ أم هو يفضل احد هذه الاشكال

المختلطة التي يلمح ايضا اليها ، والتي تنجم عن تركيب الاشكال الكلاسيكية الثلاثة ؟ الحقيقة ان لا وجود لكلمة اخيرة في هذا المضمار . انه يكتب : «لقد تساءلوا كثيرا ، في كل زمان ، عن افضل شكل للحكومة ، دون ان يعتبروا ان كلا منها هو الافضل في بعض الحالات او الاسوأ في حالات اخرى» . او ايضا : «الحرية ، بما انها ليست ثمرة لجميع المناخات ، ليست في مدى كل الشعوب. كلما تأملنا هذا المبدأ الذي اقامه مونتسكيو ، احسسنا بحقيقته اكثر . كلما طعنّا فيه ، اعطينا فرصا لاقامته بأدلة جديدة» . و روسو نفسه يأتي بادلة صائبة جدا ، ليخلص الى ان مسألة افضل حكومة غير قابلة للحل بقدر ما هي غير محددة: «او اذا شئتم ، لها حلول جيدة بقدر ما هناك من تراكيبات ممكنة في المواقع المطلقة والنسبية للشعوب» .

مهما جيدة أمكن للحكومة ان تكون ، فهي تبقى عدا ذلك ملطخة بعيب مرده الى جوهرها ذاته .

عيب الحكومة الجوهري

«كما ان الارادة الخاصة تفعل باستمرار ضد الارادة العامة ، كذلك فالحكومة تبذل جهدا دائما ضد السيادة» .

هذه السطور الرئيسية التي بها يبدأ الفصل المعنون **عن إفراط الحكومة ومنحدرها الى الانحلال** في الكتاب الثالث ، تلخص احدى أثقب نظرات روسو .

الحكومة جسم وسيط بين السيد والرعايا . جسم ، اي جماعة من البشر ضيقة داخل الجسم السياسي الكبير ، مجتمع صغير في المجتمع الكبير . جسم ، مع «أناه الخاص» في وجه **الأنا** المشترك ، مصالحه كجسم ، روحه ، حساسيته الخاصة (ينبغي عدا ذلك ، لكي يؤدي مهمته ، ان يكون له هذا كله) . جسم ، ككل جسم ، ككل مجتمع جزئي ، عنده نزوع طبيعي الى انماء قوته الخاصة ، طالما لا يأتي شيء ليوقفه ، على حساب المجتمع الكبير ؛ الى الاغتصاب ــ فلنحسم الكلمة ــ على السيادة . «روسو رأى جيدا ان رجال السلطة يشكلون جسما ، ان هذا الجسم تسكنه ارادة جسم ، وانه يرمي الى تملك السيادة» (ب. دو جوفنيل في كتابه **السلطة**) . ولقد كان انتباه روسو عدا ذلك مجذوبا بحدة الى هذه النقطة من قبل الخلافات المعقدة التي كانت قائمة ، في جنيف ، بين السيد او المجلس العام ، المؤلف من مجموع المواطنين ، والمجلس الصغير ، وهو جسم ضيق من قضاة منفذين ، محمولين دائما الى الاغتصاب على السيد . ان مؤلف **العقد**، وقد سحره ما يدعوه «الجهد الدائم» للحكومة ضد السيادة ، يفضح هنا **«العيب اللازم والمحتوم الذي منذ ولادة الجسم السياسي يتجه بلا كلل الى تدميره، كما الشيخوخة والموت يدمران اخيرا جسم الانسان» .**

محتوم ، كالموت نفسه : نتيجة مثبطة للعزيمة ، هكذا يبدو ! روسو يلح : افضل الحكومات تكوينا يترصدها هذا العيب ؛ «اذا هلكت سبارطة وروما ، فأي دولة تستطيع الامل في دوام دائم ؟ فاذا اردنا تشكيل منشأة ذات ديمومة ، فلا نفكر اذاً في جعلها ابدية» . لنفكر فقط في تمديد حياتها اطــول ما يمكن ، باعطائها الدستور الذي يضع في وجه الخطر الذي فضح ـ فوضى او طغيان ـ انجع الحواجز . وبما ان مبدأ الحياة السياسية هو في السلطة السيـــدة او السلطان التشريعي ، «قلب الدولة» ، ففي صون السلطة السيدة ستصان الدولة. ولكن ، صون السلطة السيدة هو جوهريا حماية الارادة العامـــة ضد الارادات الخاصة اللواتي ، اذ لا يستطعن تدميرها ، ـ لانها لا تدمّر ، ـ يرغبن على الاقل في اخضاعها لهن والتفوق عليها . توجد من اجل ذلك وسائل طبيعية ووسائل استثنائية ، سنعرفها بانتقالنا مع روسو الى افضل حكومة «وجدت» ، حكومة روما القديمة .

وسائل طبيعية . ـ مجالس متواترة لجميع المواطنين ، اذ ان السيد لا يفعل الا بمجلس الشعب ، وان موضوع مجالس كهذه هو بالتحديد صون الميثـــاق الاجتماعي . مع لحظة افتتاح المجلس ، تتوقف كل سلطة للحكومة ، «لان حيث يوجد الممثَّل ، لا يعود ثمة ممثِّل» . السلطان التنفيذي يعلَّق اذاً . نفهم ان هذه المجالس للشعب ، حيث تمحي السلطة التنفيذية امام «رئيس راهن» ، كانت في جميع الازمنة موضع استفظاع عند الرؤساء . ولكن ، لهذا بالذات ، هي «كنَف الجسم السياسي ومكبح الحكومة» .

وسائل استثنائية . ـ من اجل ابقاء التوازن بين السيد والحكومة ، كانت سبارطة عندها الإيفور ، les éphores . من اجل حماية السيد ضد الحكومة، كانت روما عندها خطباء الشعب ، les tribuns du peuple . ما كان بامكانهم ان يعملوا شيئا بأنفسهم ، اذ هم لا يملكون اي قطعة من التشريعي ولا مـــن التنفيذي ، ولكن كان بامكانهم ان يمنعوا كل شيء . ضد إفساد الراي الذي يجر معه فساد الاخلاق العامة ، روما كان عندها المراقبون ، conseurs . ولكـــن الرقابة لم يكن لها فعل الا بقدر ما كان عزم القوانين باقيا بلا مساس ؛ «ما مـــن شيء شرعي تبقى له قوة حين لا تبقى للقوانين قوة» . اخيرا ، ضد ازمة خطيرة ، داء حاد وملح ، يقتحم مؤسسات وخلاص الوطن ، روما كان عندها **الدكتاتورية** ، التي كانت تعلق السيادة بشكل موقت لتنقذها بشكل دائم . بعد ماكيافل الذي ، في **الخطب** ، يضع في تقدير عالٍ هذه الاداة للسلامة العامة ، روسو يثني علـــى الدكتاتورية . هكذا فان حسه السليم ، المرشد بالمثال القديم ، يستنجد مـــرة اخرى ، على هامش الميثاق الاجتماعي والسيادة ، بالفرد : الفرد الاستثنائي من اجل مهمة استثنائية .

ان صلابة القوانين التي تمنعهن من الانثناء للحوادث يمكن في بعض الحالات ان تجعلهن مؤذيات وأن تسبب بهن ضياع الدولة

في ازمتها . **نظام وبطء الاشكال يطلبان متسعا من الزمن ترفضه الظروف احيانا** . يمكن ان تحضر الف حالة لم يتداركها المشرّع ، وانه لاستدراك ضروري جدا الاحساس بانه من غير الممكن استدراك كل شيء . لا ينبغي اذاً ان يراد تاكيد المؤسسات حتى نزع امكان تعليق مفعولها . سبارطة نفسها تركت قوانينها تنام . **ولكن وحدها اكبر الاخطار يمكن ان توازن خطر تغيير وإفساد النظام العام** ، ولا يجوز ابدا ايقاف سلطة القوانين المقدسة الا حين تكون القضية هي خلاص الوطن . في هذه الحالات النادرة والجلية ، يجري تدبّر أمر السلامة العامة بفعل **خاص** يسلّم عبئها للاجدر ... ، يسمى رئيس اعلى يُسكِت جميع القوانين ويعلق للحظة السلطة السيدة ؛ في مثل هذه الحالة ، الارادة العامة ليست موضع شك ، ومن الجلي ان القصد الاول للشعب هو ان **لا تهلك الدولة** .

الدين المدني

هل قال المؤلف كل شيء ؟ هل هي في حماية كافية ، السيادة ، ضد اغتصابات الحكومة وخبث الحوادث ؟ الدولة هل لها حظوظ كافية لا في الابدية بل في ديمومة معقولة ؟ «الروح الاجتماعي» ، ثمرة العقد الاجتماعي واسمنت الاتحاد السياسي ، هل هو مكفول ، معزز ، بشكل كاف بكل هذه الحيطات ؟ ندهش مع ذلك لكون روسو ، هذه النفس الديّنة ، لا يحفظ اي مكان ــ ما عدا، بشكل مساعد ثانوي ، في نظريته عن المشرّع الملهَم ــ لهذا الذي كان قد شغل من قبله كل كبار المفكرين السياسيين ، من ماكيافل الى مونتسكيو : الدين . دين، رابط خلقي واجتماعي بالغ القوة ، فيه ينعقد الاكثر خارجية والاكثر داخلية ! كان مغريا ، لرجل مثل روسو ، ان «يؤممه» ، ان «يعيّن له كمهمة توثيق الرابطة المدنية ــ الوطنية» (ب. دو جوفنيل) . والحال ، «في اللحظة الاخيرة» ، كما يقال لنا ، على الارجح في سنة ١٧٦١ ، اضاف روسو الى **العقد** فصلا اخيرا ، غير مشمول في المخطط الاصلي ، وعنوانه : **في الدين المدني** . تفصيل رمزي : مسوّدته كتبت على قفا الاوراق التي كان المؤلف قد حرر عليها فصله عن المشرّع.

اعيدوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله . هذه الكلمة العظيمة المحرِّرة ، روسو تأملها بشغف . موسوما في كل عروقه بالمسيحية ، الثروة الروحية الاعظم للبشرية (ثروة فردوية) ، لم يكن لذلك بدرجة اقل ، معجبا حارا بالمدينة القديمة la citt antique ؛ كان عنده حنين الوحدة التامة ، الكتلة التي ليس فيها شروخ ، التي كانت قد حققتها تلك المدينة القديمة بفضل خلط قيصر والله . وبالمدلول السياسي للكلام ، كان يخشى على الدول الحديثة من عواقب الثنوية المسيحية .

لماذا لم تعرف الوثنية حروب الدين ؟ لان كل دولة كان لها فيها عبادتها

وآلهتها . «ولايات الإلهة كانت تثبتها ان صح القول حدود الامم» . الحرب السياسية كانت في الوقت نفسه لاهوتية . من اجل هدي الشعب كان ينبغي الاستيلاء عليه ، واجب تغيير العبادة كان قانون المغلوبين . الرومان بفتوحاتهم وسّعوا منطقة عبادتهم وآلهتهم ، ولكنهم في الوقت نفسه كثيرا ما تبنّوا آلهة المغلوبين ، بحيث وجدت شعوب الامبراطورية نفسها «تدريجيا تحوز جمهرات من آلهة ومن عبادات كانت تقريبا هي نفسها في كل مكان : وبهذه الطريقة لم تعد الوثنية اخيرا في العالم المعروف سوى دين واحد وحيد» . (اختصار يقبل الطعن، ويطعن فيه فولتير) .

مجيء المسيح غيّر كل شيء .

يسوع جاء يقيم على الارض مملكة روحية ؛ الامر الذي ، **بفصله المنظومة اللاهوتية عن المنظومة السياسية ، جعل ان الدولة كفّت عن كونها واحدة ، وسبّب الانقسامات الداخلية التي لم تنقطع يوما عن خض الشعوب المسيحية** . وبما ان هذه الفكرة الجديدة عن ملكوت للعالم الآخر لم تستطع يوما الدخول في رأس الوثنيين، فقد نظروا دوما الى المسيحيين على انهم عصاة حقيقيون، تحت خضوع منافق لا يسعون الا وراء اللحظة التي يجعلون انفسهم معها مستقلين واسيادا ويغتصبون بمهارة السلطة التي كانوا يتظاهرون باحترامها في ضعفهم . ذلك كان سبب الاضطهادات . ما كان الوثنيون قد خشوه قد حصل ؛ عندئذ غيّر كل شيء وجهه، المسيحيون المتواضعون غيّروا لغتهم ، وسرعان ما شوهدت مملكة العالم الآخر المزعومة هذه تصير في ظل رئيس مرئي اعنف استبداد في هذا العالم . ولكن ، بما انه قد وجد دائما امير وقوانين مدنية، فقد نتج عن هذا السلطان المزدوج نزاع قضائي دائم جعل كل politie (*) جيدة مستحيلة في الدول المسيحية ؛ **ولم يستطيعوا ذات يوم حل مسالة معرفة لاي من السيد او الكاهن تجب الطاعة** .

ملوك انكليز ، قياصرة روس ، نصّبوا انفسهم رؤساء لكنيستهم ، ولكنهم المسيحيون المتواضعون غيّروا لغتهم ، وسرعان ما شوهدت مملكة العالم الآخر بذلك لم يحطموا هذه الثنائية . «حيثما الاكليروس يؤلف جسما ، فقد بقي سيدا ومشرّعا في جزئه . هناك اذاً قدرتان ، سيدان ، في انكلترة وفي روسيا ، كما في غيرهما» . هوبز وحده ، هذا الكافر ، هذا الفيلسوف المبغوض الملعون ، راى واضحا . ثم الم يلعن الى هذا الحد على ما في سياسته من صواب وحق ، اكثر

(*) ترجمة عن اليونانية politsea ، دستور ـ تكوين .

مما على ما تحويه من فظاعة وبطل ؟ «من بين جميع المؤلفين المسيحيين، الفيلسوف هوبز هـو الوحيد الذي راى جيدا الداء والدواء ، الذي تجرا على اقتراح جمع راسي النسر ، واعادة كل شيء الى الوحدة السياسية ، التي بدونها لن تكون يوما دولة ولا حكومة مكونة بشكل جيد» .

بعد هوبز ، ماذا يبقى اذاً لروسو ان يقترحه لنا ؟

انه يضع بادىء بدء بالمبدأ ، ضد بيل Bayle الزنديق العتيق (الـذي سبق ان دحضه مونتسكيو) (٧) ، انه «ما من دولة أسّست في يوم من الايام الا وكان الدين قاعدة لها» . ثم يضع نفسه في واجب ان يميز ثلاثة انواع من الدين، «دين الانسان» ، «دين المواطن» ، نوع ثالث «اكثر غرابة» ، ويقدرها من وجهة النظر السياسية .

النوع الاول ، **دين الانسان** ، هو المسيحية ، «ليس مسيحية اليوم ، بـل مسيحية الانجيل ، وهي مختلفة عنها تماما» . دين بلا هياكل ، بلا مذابـح autels ، بلا طقوس ، «مقتصر على العبادة محض الداخلية للاله الاسمى وعلى الواجبات الازلية للاخلاق» . المؤلف يدعوه : **حق إلهي طبيعي** (نفكر باعلان ايمان الوكيل الكنسي السافوابي ، في **الإميل** : ولكن هذا شيء آخر ايضا) . يمتدحه بمفردات شاعرية : دين مقدس ، سامٍ ، به «البشر ، ابناء الإله الواحد ، يعترفون بأنفسهم جميعا اخوة ، والاجتماع الذي يوحدهم لا ينحلّ حتى الموت» . ولكنه يلومه على كونه لا يقدم اي نوع من منفعة للجسم السياسي . فهو لا يربط قلوب المواطنين بالدولة ؛ وهكذا تنقص احدى قوى روابط الجماعة المدنية ، احـدى انجع دعائم القوانين ، الرابطة الدينية ، الدعامة الدينية . ليس فقط دين الانسان هذا لا يربط المواطنين بالدولة بل هو يفصلهم عنها كما عن كل الامور الارضية . وبذلك فهو ضارّ لتكوين اجتماعي قوي . بكلمة تقول كل شيء ، انه مناهض ـ للمجتمع antisociale . (نفس التهمة كانت قد وجّهت ضد المسيحية ، مرئية من الخارج ، من قبل ماكيافل ، وكثيرا جدا ما ستسترجع من نيتشه الـى ايامنا) .

دين المواطن Citoyen هو دين المدينة Cité القديمة . «محفورا في بلد واحد ، انه يعطيه آلهته ، حماته وحارسيه ؛ له عقائده ، طقوسه ، عبادتـه الخارجية المملاة بقوانين : خارج الامة الوحيدة التي تتبعه ، كل شيء بالنسبة له

---

٧ ـ بيل Bayle (اواخر ق ١٧) فيلسوف ومؤرخ ، من بناة فرنسا وأوروبا الحديثة . ريبي ، ناقد عقائد اللاهوت ، نصير التسامح والفكر الحر والبحث عن الحقيقة ، احد مؤسسي النقد التاريخي . الب غضب الجيزويت (وأيضا البروتستانت) ، كتبه احرقت في الساحة العامة بامر الملك . له مؤلفات عديدة بينها «قاموس تاريخي» ونقدي .

كافر ، غريب ، بربري ؛ انه لا يمد واجبات وحقوق الانسان ابعد من مذابحه autels » . روسو يدعوه : **حق إلهي مدني او وضعي** . يمتدحه على كل ما يجلب من قوة اضافية للدولة بجمعه العبادة الإلهية وحب القوانين . «عندئذ الموت في سبيل البلد ذهاب الى الشهادة وخرق القوانين كفر كافر» . ولكن يلومه لكونه مؤسسا على الكذب والغلط ، لكونه يفسد هكذا عند الانسان فكرة الله الحقيقية ، وايضا لكونه طاردا مستاثرا ، غير متسامح ، لحمله كل شعب على ذبح اي كان لا يؤيد آلهته .

النوع الثالث ، «الاكثر غرابة» ، يشمل بشكل خاص الكاثوليكية ، المبغوضة من البروتستانتي روسو (كما من البروتستانتيين هوبز و لوك) . «نوع ثالث من الدين ... اذ يعطي البشر تشريعين ، رئيسين ، وطنين ، يخضعهم لواجبات متناقضة ويمنعهم من امكان ان يكونوا بآن أتقياء ومواطنين . هكذا دين اللاما Lamas ، هكذا دين اليابانيين ، هكذا المسيحية الرومانية . يمكن ان ندعو هذا الاخير **دين الكاهن** . ينتج عنه نوع ما حق مختلط وعصي على الاجتماع ليس له اسم» . و ، كما فعل لوك ، روسو يستثني من التسامح «الدين الروماني» لان الدين المذكور لا يسمح بالاديان الاخرى ، ولأن عقيدة من عقائده مضادة للواجبات المدنية ـ الوطنية : «من يجرؤ على القول : **خارج الكنيسة لا خلاص** يجب ان يطرد من الدولة ... ، ان عقيدة كهذه لا تصلح الا في حكومة ثيوقراطية ؛ في اية حكومة اخرى هي مؤذية» .

في نهاية هذا الاستبعاد الصارم ، يكشف روسو بطارياته الذكية ويقترح علينا **دينه المدني** ، دين المواطن الحديث . فما المطلوب ايجاده ؟ صيغة تملك كل مزايا دين المواطن القديم ، بدون الاعتداء على حرية الانسان الداخلية ولا على الحقيقة ، بدون فرض محتوى عقيدي حقيقي ، منه يولد اللاتسامح . صيغة تقوي الرابطة الاجتماعية والطاعة للسيد ، بتعميقها عند المواطن عواطفه من اجتماعية ، من حمية نحو المجتمع العادل المشتق من **العقد** . في الحاصل نقل ووضع في منظومة روسو ، المشبعة بالاخلاقية ، لصيغة هوبز المادية والبراغماتية بالتمام : طاعة بلا اعتقاد ، المجاهرة **خارجيا** بإيمان مدني تماما ، دون ان يكون الوجدان مقحما ، والسريرة الداخلية مقتضاة . كل هذا الذي تعبر عنه الصفحة الشهيرة التالية ، التي باتت تمهيدات المؤلف الطويلة تسمح الان للقارىء ببلوغها .

> ... يهم جيدا الدولة ان يكون لكل مواطن دين يحببه بواجباته؛ ولكن عقائد هذا الدين لا تهم الدولة ولا اعضاءها الا بقدر ما تتصل هذه العقائد بالاخلاق والواجبات التي على من يعتنقه ان يؤديها نحو الغير . يستطيع كل فرد علاوة على ذلك ان يتخذ هذه او تلك الآراء التي تحلو له ... . **هناك اذا عقيدة ايمان محض مدنية ، السيد ان يثبت بنودها ، ليس بالضبط كعقائد دين ، بل كمشاعر اجتماعية ، بدونها من المستحيل ان يكون المرء مواطنا صالحا ولا**

رعية وفياً . بدون ان يستطيع السيد إجبار احد على الايمان بها ، يستطيع ان ينفي من الدولة من لا يؤمن بها ؛ يستطيع ان ينفيه لا ككافر بل كغير قابل للاجتماعية ، كعاجز عن ان يحب القوانين ، العدالة ، باخلاص ، وعن ان يذبح عند الحاجة حياته لواجبه . أما اذا احد من الناس ، بعد ان اعترف علنا بهذه العقائد ذاتها ، تصرّف على انه لا يؤمن بها ، فليعاقب بالموت ؛ لقد اقترف اكبر الجرائم ، لقد كذب امام القوانين .

مذهب قاس ، يمكن ان نفكر ! أي دين بالمعنى الحقيقي للكلمة يطلب اكثر ؟ فالحقيقة ، في الجوهر ، بالنسبة لروسو ، ان الرابطة الاجتماعية في ذاتها وبذاتها هي مقدسة ، وهذا تسويغ أقسى الاشتراطات .

ولكن ما هي اذاً هذه العقائد ـ التي ليست عقائد ؟ الجواب :

ان عقائد الدين المدني يجب ان تكون بسيطة ، بعدد صغير ، مصاغة بوضوح وإيجاز بدون شروح ولا تعليقات . وجود الألوهية القادرة ، الذكية ، الخيّرة ، المتبصرة والمعينة ، الحياة القادمة ، سعادة العادلين ، عقاب الاشرار ، قداسة العقد الاجتماعي والقوانين : تلك هي العقائد الوضعية ـ الايجابية . أما العقائد السلبية ، فانا اقصرها على واحدة ، هي اللاتسامح : انه يدخل في عداد العبادات التي طردناها .

لا نضف ، من جهتنا ، «شروحا ولا تعليقات» ، على ما يتوج بكل هذه الدلالة، عرض مبادىء الحق السياسي ، من قبل جان جاك روسو ، مواطن جنيف .

معنى وتأثير «العقد الاجتماعي»

رأينا يأخذ شكلا ، مع سير تقدم القراءة ، حلمَ روسو السياسي . حلم فردّوي في البداية ولكنه يكتمل في حلم جماعي ودولتيّ ، يظهر فيه حنين الكل الاجتماعي (1) . حلم ، في الوقت نفسه مع كونه وطنيا ، مساواتيّ ، يندفق منه ، ضد تجاوزات وعسف السلطة العيانية كما وضد نزوات الانانية الفردية ، نداء شغوف الى العقل ، الى العدالة ، الى الاخلاقية ، الى الفضيلة . فضيلة ،

---

(1) هكذا ينضم روسو ، في نهاية تنقيبه السياسي الى اعمق فكرة لارسطو .

كما كان يفهمها مونتسكيو ، مؤدية الى التخلي عن الذات ، الى تنقية الـــذات بحب الوطن .

هل اعتقد روسو ممكناً تحقيق هذا الحلم ؟ علمنا سابقا انه لم يكن يعتبر ممكنا التطبيق هذا الذي يسميه ، في مصطلحاته الخاصة ، «حكومـــة ديمقراطية» . ولكن ، حتى فيما عدا هذا الشكل الذي يحفظه لـ «شعب من الآلهة» ، افلا يثير عمل كل حكومة يعتبرها شرعية اعتراضات عملية لا تقهر . ما السبيل ، فـــي دولة كبيرة ، الى جمع الشعب ــ في ــ جسم بشكل متواتر من اجل توطيد السيد ضد الجهد الدائم للسلطة التشريعية ؟ ما السبيل ، في دولة كبيرة ، الى الاستغناء عن ممثلين تشريعيين ؟ هذه الاعتراضات لم تفلت من حس روسو السليم . «بعد فحص كل الامور ، لا ارى من الممكن بعد الان للسيد ان يحافظ بيننا علـــى ممارسة حقوقه **اذا لم تكن المدينة صغيرة جدا**» . انه يفكر بالاساس وكان قد كتب اولا ان على الدولة ان تقتصر «على مدينة واحدة بالاكثر» ، ومتروك للمدن الصغيرة ان تتحالف في اتحاد لتستطيع البقاء في وجه الدول الكبرى . فيما بعد ، في أحدى الـ **محاورات** ، مدافعا عن نفسه من أن يكون داعية لانقلابات ، سيتشكى من ان «الامم الكبيرة قد اخذت لنفسها ما لم يكن له كموضوع سوى الجمهوريات الصغيرة» .

ولكن في رسالته المذكورة آنفا الى الماركي دو ميرابو سنة ١٧٦٧ سيفصـــح مؤلف **العقد** عن شكوكه الاكثر حدة . بعد ان عرّف ، كما يذكر القارىء ، تنقيبه بهذه المفردات : **ايجاد شكل حكومي يضع القانون فوق الانسان** ، يتابع :

> اذا كان ممكنا العثور على هذا الشكل ، فلنبحث عنه و لنسعَ الى اقامته ؛ اذا لم يكن ممكنا لسوء الحظ ، وانا اقر بسذاجة انني اعتقد انه ليس ممكنا ، فرايي انه يجب ان ننتقل الى الطرف الآخر وان نضع فجاة وبضربة واحدة الانسان فوق القانون الى اقصى حد ممكن ، وبالتالي ان نقيم الاستبداد العسفي والاكثر عسفا الممكن ، اريد لو امكن للعاهل المستبد ان يكون الله . بكلمة ، **انني لا ارى وسطا ممكنا تحمله بين الديموقراطية الاكثر صرامة والهوبزيـــة الاكثر كمالا** : اذ ان نزاع البشر والقوانين ، الذي يضع الدولة في حرب داخلية مستمرة ، هو أسوأ جميع الحالات السياسية .

لا وسط ، الخ ... هل كتب روسو في يوم من الايام جملة كاشفة اكثر ؟ انها تثبت ، اولا ، ملاحظة جيركه Gierke العميقة ، التي مفادها ان روسو انضج عقده الاجتماعي «آخذا كإطار الافكار الديمقراطية للذين سبقوه عن الحرية والمساواة ، ومالئا هذا الاطار بالمحتوى المطلقي لعقد هوبز» . ولكن بخاصة ، هذه الجملة ترن ، بشكل ممزّق تقريبا ، كانها إنكار لكل المؤلف . اذ لئن كان صحيحا

ان المبادىء الموضوعة والمستنتجة بكل هذا الاقتناع في **العقد** تشترط ، لكي تطبّق ، من الفضيلة والصرامة الاخلاقية اكثر مما يشمله الضعف البشري ، عندئذ يكون روسو قد كتب عبثا ؛ عندئذ ينتصر منطق هوبز المادي الذي لا يرحم واستبداديته على انقاض الارادة العامة !

ولكن ماذا تهم ، بعد كل شيء ، شكوك المؤلف ذاتها ؟ اذا مؤلّفه ، منفصلا عنه ، عن التحفظات الاساسية التي امكن ان يضعها عن شروط تطبيقه العملي ، قد فاز بتأييد العقول ، واذا البشر القادمون قد آمنوا ، هم ، بحلم روسو . والحال ينبغي فعلا ان نسجل انهم آمنوا به . متروك للمطلعين الباحثين ان يتناقشوا حول الانتشار الكبير او الصغير **للعقد الاجتماعي** قبل الثورة ، مستندين الى شهادات متناقضة : حيث بعضهم يؤيدون ، استنادا الى سِناك دو ميلان Senac de Meilhan ، ان المؤلّف ، «العميق والمجرّد ، كان يقرأ قليلا ويفهم من اناس قليلين جدا» ، ـ والآخرون يستشهدون بـ ماليه دو بان Mallet du Pan الذي يقول انه ، في سنة ١٧٨٨ ، «سمع ... مارا Marat (٨) يقرأ ويشرح **العقد الاجتماعي** في المنتزهات العامة تحت تصفيق جمهور متحمس» . ثمة واقعة اكيدة وهي حاسمة ، الا وهي انه ، بتاريخ ١٧٨٩ ، إما مباشرة ، او بصورة غير مباشرة عبر العديد من الكتّاب الثانويين الذين تشبعوا بها ، كانت افكار **العقد** الرئيسية قد دخلت جمهور الاذهان المثقفة ، وكانت ان صح القول قد خصّبتها. وان حرب اميركا و ولادة الجمهورية الاميركية ما كان بوسعهما الا ان تساعدا ، بسلطان الحقيقة الواقعة ، في هذا الدخول .

هذه الافكار الرئيسية المهيمنة كانت الافكار عن وحدة الدولة ، الكل الاجتماعي المقدس تقريبا ؛ عن سيادة الشعب ؛ عن القانون تعبير الارادة العامة ، عن استبعاد كل «المجتمعات الجزئية» ، أجسام ، جمعيات ، احزاب ؛ عن الاشتباه المبدئي ازاء السلطة التنفيذية ؛ عن الدكتاتورية من اجل السلامة العامة ، وعن الدين المدني . كان لها ان تلهم من البداية ، اكثر بكثير مما يعتقد عادة ، مؤسسي ١٧٨٩ ، بالتنافس مع افكار مونتسكيو وايضا سييس Sieyès . ولكن بشكل خاص كانت ستظفر بعد ١٧٩٢ مع الجيروند ، ثم الجبل و روبسبيير ، ولا ننسى دستور ١٧٩٣ الذي لن يطبّق في يوم من الايام ، نص الديموقراطية اليعقوبية المقدس . عدا ذلك ليس هناك شك كبير في أن روسو لو عاش لكان ، عند الصدام العياني للايام الثورية الاولى ، انكر بفزع هؤلاء الذين كانوا الاكثر حماسا وذكرا **العقد الاجتماعي** ، ولكان دعا الى نجدة الدولة الفرنسية **الهوبزية الاكثر كمالا** !

---

٨ ـ مارا Marat ، من زعماء الثورة الكبار في ١٧٩١ ـ ١٧٩٣ ، محرر جريدة **«صديق الشعب»** ، نائب عن اليعاقبة او «الجبل» في مجلس المؤتمر الوطني ، عدو عنيف للملك والموناركية وخصم الجيروند (المعتدلين ، ممثلي البرجوازية) ، قائد ومحرض شعب باريس ، اغتالته نصيرة للجيروند في سنة ١٧٩٣ .

الفصل الرابع

« ما هي الطبقة الثالثة » ، لـ سييس (١٧٨٩)

«... طاقة الانتفاضة دخلت في قلبي .»

سييس

المونارخية الفرنسية ، اذا طبقت عليها بلا فروق دقيقة او درجات الـــوان مبادىء العقد ، كانت لاشرعية فالملك ، لا الشعب في جسم ، كان فيها سيدا ، ومغتصبا على الارادة العامة . علما بأن كل منظومة الأفكار المنضجة خلال القرن والمغذاة ليس فقط بروسو ، بل ايضا بـ لوك ، فولتير ، مونتسكيو ، دون أن ننسى الموسوعيين ولا أسياد الفكر السياسي الاقل شأنا الذين جاؤوا بعدهم ، مثل رينـــال Raynal ومابلي Mably ــ كل هذه المنظومة كانت تدين فـــي السنوات ١٧٨٠ ، شكل المونارخية المطلق .

وكان ثمة اخطر ايضا : ان صنفا من الفرنسيين بالكامل كان يلتهب غضبا ضد الشكل الهيرارخي لهذه المونارخية ، المؤسسة تقليديا علـــى تمييز النظامات او الصفوف Ordres الثلاثة . وضعها التابع المرؤوس وسميا ، لم تعد الطبقة الثالثة او الحالة الثالثة tiers etat ، اي الصف الثالث ، لم تعد ، على الاقل في شطرها المثقف والميسور (الثالث العالي la haut tiers ، تقبل به.

ألا يولد البشر أحرارا ومتساوين ؟ ويبقون . اقرؤوا العقد . خصوصا متساوين. الامتيازات الاجتماعية والجبائية التي كان صف الاكليروس وصف النبلاء يتمتعان بها كانت مؤسسة على أحكام ـ مسبقة حمقاء ، على التاريخ ، ـ تاريخ بلا رأس ولا ذنب ، بلا عقل ، بلا شرعية ، ـ كانت تخرق هذه المساواة الموافقة للطبيعة ، للعقل ، للسعادة المشتركة . وكان لازما ان قبل قليل يزداد ثقلها ايضا : منذ ١٧٨٠ ، ردة ارستقراطية ، كرّستها مراسيم مثيرة للغضب ، تسد على البرجوازيين الطموحين كل المخارج المفتنة في الادارة ، الكنيسة ، القضاء ، وخصوصا الجيش . «الدروب مغلقة من كل الجهات» ، يتشكى ، في دفاتره الخاصة ، بارناف Barnave الشاب (١) . فضلا عن ذلك ، الازمة المالية التي تتخبط فيها المملكة جاءت تكشف ، او بالاصح تثبت انانية اصحاب الامتيازات، عجزهم عن القبول بتضحيات للمصلحة العامة .

لئن البرجوازية ، كي تؤمّن نجاح انتفاضات صيف ١٧٨٨ («ثورة نبيلية» ، سيقول المؤرخ ماتييز Mathiez) (٢) ضد الاستبداد الوزاري من جانب لاموانيون la moignon وبّريين Brienne (٣) ، تحالفت مع اصحاب الامتيازات ، مع البرلمانات ، فان هذا التحالف لم يكن الا وقتيا عابرا ، يرمي الى اهداف مباشرة . البرلمانات ، «أبطال ضروريون ، مدافعون يوضعون في الصدارة» ! اواخر ١٧٨٨ ، اوائل ١٧٨٩ ، انها في كل فرنسا حرب مكشوفة بين اصحاب الامتيازات والبرجوازيين على مسألة معرفة من سيتفوق في المجالس ـ الطبقات العامة

---

١ ـ بارناف Barnave : سياسي فرنسي ، نصير مونارشية دستورية ، أعدم في زمن الارهاب (١٧٩٣) .

٢ ـ ماتييز Mathiez : مؤرخ فرنسي (أوائل ق ٢٠) ، من اكبر الباحثين في تاريخ الثورة الفرنسية .

٣ ـ بريين Brienne : وزير لويس السادس عشر في ١٧٨٧ ـ ١٧٨٨ ، في فترة ازمة الحكم التي سبقت الثورة . «البرلمان» رفض تسجيل المراسيم عن خلق ضرائب جديدة ، منكرا على الملك حق اصدار ضرائب جديدة بمفرده ، ثم اعلن صلاحية مجلس الطبقات العامة في هذا المضمار. وبلغت الازمة ذروتها ، وتراجعت حكومة الملك اذ لم يعد في حوزتها مال ولا وسائل اعادة النظام ، ودعت مجلس الطبقات العامة الى الانعقاد بتاريخ اول ايار ١٧٨٩ . واضطر الملك الى صرف بريين واستدعاء نيكر Necher (١٧٨٨) . وهكذا فقد سهلت مقاومة او ثورة اصحاب الامتيازات ـ اعيان وبرلمانات ـ قدوم الثورة ونوعا ما وجهت ضربة الخلاص للنظام القديم (العهد القديم (Ancien régime) ، بمعارضتها الملك وإحباطها الاصلاحات .

لاموانيون la moignon : مستشار فرنسا في زمن لويس ١٥ ؛ الوزير الذي سبق بريين هو كالون Colonne (١٧٨٣ ـ ١٧٨٧) .

القادمة .

الطبقات العامة ! كانت الحكومة ، وقد اخافها مقلاع Fronde ١٧٨٨ (٤) ، قد انتهت الى الوعد بدعوتها الى الانعقاد في ايار ٨٩ ، اية آمال ، بعد فشل الاعيان ، بعد فشل مجالس المقاطعات ، لم تكن هذه الطبقات العامة تثيرها! الآمال، عدا ذلك ، الاكثر تناقضا . من المؤسسة القديمة ، التي وضعها الحكم المطلق في سبات منذ ١٦١٤ ، كان اصحاب الامتيازات ينتظرون تكريس وحماية امتيازاتهم. في حين ان البرجوازيين كانوا يعوّلون جيدا على ان مجلس الطبقات العامة سيبيد تمييزات «غوتية» gothiques لم يعد لها علة وجود . ستكون بشكل خاص ، هذه الطبقات ، في نظر الطبقة الثالثة ، نقطة التئام منها يمكن الانطلاق الى الامام اكثر ، نحو **دستور** .

دستور على الطريقة الانكليزية ، طراز مونتسكيو ؛ او كالذي اتخذه الثوار الاميركيين قبل قليل ، جامعين مونتسكيو و روسو ؛ او دستور مستمَد فقط من العقل القومي : هذا امر سينظر فيه . ولكن دستور . اذ ان فرنسا ، يؤكـد البرجوازيون ، بلا دستور . اصحاب الامتيازات ، مهما زعموا منذ قليل وعلى سبيل التاكتيك ان لها دستورا ، مهما استدعوا «القوانين الاساسية» ، حريات البرلمانات ، فقد كانوا عاجزين عن الاتفاق على المحتوى الصحيح لهذا الدستـور الوهمي . كشرط أولي وضروري لاي تقدم واقعي ، كان ينبغي ان يكون تركيب وتنظيم الطبقات العامة قادرَين على السماح بهذا العمل الكبير المنشود ، عمـل «تجديد التكوين» . أف من مجلس طبقات **اقطاعي** على موضة ١٦١٤ ! يـراد مجلس طبقات **برجوازي** على موضة القرن المساواتية . مجلس طبقات يكون فيه عدد نواب الحالة الثالثة مساويا لعـدد نواب الصفّين **الآخريـن** مجتمعَين («المضاعفة») . مجلس طبقات يجري فيه الاقتراع لا **على اساس الصف** المنفصل، الامر الذي يترك على كل مسالة الثالث وحيدا ضد اثنين ، بل **على اساس الراس** المفرَد وكل الصفوف مجتمعة ، الامر الذي يعطي الثالث المضاعَف حظا قويا في تظفير نظراته .

حرب سافرة اذاً ، وهي بشكل خاص حرب اقلام غاضبة . موج من كراريس واهاجي وقوادح ، تشجعها بلا تبصر الحكومة المربكة والتي تريد التنوّر ، يغرق «الامة» . ذاك هو التعبير الذي يملأ الان فم كل الناس المثقفين : حيث في زمن لويس الرابع عشر كان ليقال «الملك» ، يقال اليوم **الامة** .

بين هذه الالوف من الكراسات ، احداها قطع ٨ ، ١٢٧ صفحة ، ستة فصول ، وصادرة في الايام الاولى من سنة ١٧٨٩ ، تنسي الكراسات الاخـرى بالاحساس الذي تثيره . بيان حقيقي مدو بمطالب الطبقة الثالثة ، عنوانه **ما هي**

---

٤ ـ انظر الشرح الآنف (بريين) . مقلاع ١٧٨٨ : ثورة الاعيان . «مقلاع» = ثورة نبيلية .

الطبقة الثالثة ?Qu'est - Ce que le tiers état . منذ السطور الاولى ، تصيب الرصاصة : «ان مخطط هذا المكتوب على ما يكفي من البساطة . عندنا ثلاثة اسئلة نطرحها على انفسنا : ١ **ما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء . ـ ٢ ماذا كانت حتى الان في النظام السياسي ؟ لا شيء . ـ ٣ ماذا هي تطلب ؟ أن تصير فيه شيئا ما»** .

***

من الطبعات الاربع التي تعاقبت بسرعة ، الطبعات الاولى الثلاث كانت بلا اسم مؤلف ؛ الرابعة كانت موقّعة سييس .

سييس Sieyès ، «الاب سييس الذي كان الى هذا الحد القليل أبا» ، المولود في بلدة فريجو Fréjus سنة ١٧٤٨ (سنة **روح القوانين**) ، كان قد اعتنق السِّلك الكهنوتي «كوسيلة مفيدة للوصول رغم شرطه العوامي» . هكذا يعلمنا كاتب سيرة حياته الاحدث والمجلّل الذي يمكن القول انه المحلل النهائي لفكره ، ب. باستيد P. Bastid . سييس ، الكاهن الاداري ، الذي صار كبير وكلاء المونسينيور دو لوبرساك ، مطران شارتر ، سمي على هذا الاساس في ١٧٨٦ مفوض الابرشية لدى الغرفة السيدة لاكليروس فرنسا . انتخب في ١٧٨٧ بين ممثلي الاكليروس في مجلس اقليم اورليان . هنا ، في مدينة اورليان، اخذ تفكيره السياسي ثنيَته الحاسمة من عداء لاصحاب الامتيازات . المسحة المناهضة للتاريخية والعقلانية بالتمام لذهن سييس ، «ديكارت السياسة» (سانت بوف Sainte Beuve (٥)) ، ما كان يمكن الا ان تقوي الهوى المساواتي لبرجوازي الطبقة الثالثة الذي كان يضطرم في قلبه ، وان كان يمثل صفا ممتازا. واذ كان مساقا ، فوق ذلك ، الى الاقامة بشكل متواتر في باريس بحكم وظائفه الاخرى كمفوض في غرفة الاكليروس ، فقد دخل في تماس مع الاندية والصالونات والمحافل الماسونية حيث كانت تهيأ الثورة مباشرة . غليان الاذهان العام اجتاح ذهنه . في خريف ١٧٨٨ ، شرع يضع في خدمة الحقد على اصحاب الامتيازات، الذي كان لا ينفك يشتد وينمو في كل مكان ، قوته المنطقية وعزمه القاطع في التعبير . ضربة تلو ضربة ، كتب : **نظرات عن وسائل التنفيذ التي يمكن ان تكون تحت تصرف ممثلي فرنسا في ١٧٨٩** ، **محاولة عن الامتيازات** ، **ما هي الطبقة الثالثة ؟** الـ **محاولة** ، التي **الطبقة الثالثة** متابعتها المنطقية وخلاصتها الخاتمة ، صدرت الاولى . «في هذه المؤلفات الثلاثة ، الالهام يسير صعودا Crescendo .

---

٥ ـ سانت ـ بوف Sainte Beuve : اديب فرنسي ، كرس نفسه للنقد والتاريخ الادبيين (ق ١٩) .

اللحن العام ، هو حقوق الامة ، التي يماثلها سييس في الهوية مع حقوق الطبقة الثالثة ويعارض بها أفضليات ذوي الامتيازات» (باستيد Bastid .

رغم قوة فتكها ، **المحاولة** تسببت تقريبا لصالح كتاب **الطبقة الثالثة** . لماذا ؟ جزئيا بسبب مطلعه البرّاق الذي قرأناه : **كل شيء ، لا شيء ، شيء** . بهـــواء العصر الاكثر اضطراما كانت تجد هنا صيغة دعاوتها ، صرخة حربها (في ايامنـــا نقول : «شعار»ها) .

كل شيء

«الطبقة الثالثة أمة تامة» . كي تبقى أمة وتزدهر ، ماذا يلزم ؟ أعمال خاصة ووظائف عامة . والحال ان الصف الثالث يتحمل وحده الاعمال الخاصة التـــي تسند المجتمع : زراعة ، صناعة ، تجارة ، مهن علمية وحرة ، «وصولا الـــى الخدمات المنزلية الاقل تقديرا» ! أما الوظائف العامة ـ اي الادارة ، الكنيسة ، القضاء ، الجيش ـ فالصف الثالث يشكل فيها جميعا نسبة ١٩ من ٢٠ ، ولكن خارج المناصب ذات الربح والمجد ، المحفوظة لاصحاب الامتياز الذين لا استحقاق لهم . له هو ان يضطلع بكل ما هناك من عمل مضن في الخدمة العامة ، بكل هذا الذي يرفض اصحاب الامتيازات عمله . «لقد قيل له : أيا تكن خدماتك ، أيـــا تكن مواهبك ، ستذهب حتى هنا ؛ لن تعبر . ليس جيدا ان تتشرّف» . إجحاف شنيع ، وخيانة حيال الشيء العام ، اذ بدون الصف ذي الامتياز تكون المناصب العليا ممسوكة على نحو افضل بما لا يقاس .

من سيجرؤ اذاً على القول ان الطبقة الثالثة ليس عندها كل ما يلزم لتشكيل أمة بتمامها ؟ **انها الرجل القوي والمتين الذي مـــا زالت احدى ذراعيه مقيدة . اذا رفعنا الصف ذا الامتياز ، لـــن تكون الامة شيئا ما اقل ، بل شيئا ما اكثر . هكذا فما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء ، ولكن معوّق ومضطهَد. ماذا تكون بدون الصف ذي الامتياز ؟ كل شيء ، ولكن حر ومزدهر . لا شيء يمكن ان يسير بدونها ، كل شيء يسير على نحو افضـــــل الى ما لانهاية بدون الآخرين .**

الصف صاحب الامتيازات ، اي طبقـــــة النبلاء ، (اذ ان سييس لا يعتبر الاكليروس صفا Ordre بل «مهنة مكلفة بخدمة عامة») ، هو بالواقع غريب عن الامة . عبئا يزن على كاهلها ، لا يمكن ان يكون «جزءا فيها» . جسم غريب عن الامة بكسله المشهود ؛ غريب بامتيازاته المدنية التي تجعله شعبا «علـــى حدة» ،

امبراطورية داخل امبراطورية ؛ غريب اخيرا بحقوقه السياسية . نوابه ينعقدون على حدة . وحتى لو التأموا في نفس القاعة مع نواب الطبقة الثالثة ، لبقي ان رسالتهم لا تأتي من الشعب ، وانها الدفاع عن المصلحة الخاصة لا المصلحة العامة. خاتمة قاطعة ولا تقبل استئنافا : «الصف الثالث يشمل اذاً كل ما ينتمي للأمة ؛ **وكل ما ليس الصف الثالث لا يمكن ان ينظر الى نفسه على انه من الامـــــة** . ما الطبقة الثالثة ؟ كل شيء» .

لا شيء

حتى الان لم تكن الطبقة الثالثة شيئا . اذ في فرنسا المرء **لا شيء** حين لا تكون له سوى حماية القانون المشترك . والطبقة الثالثة هي بالتعريف مجموع الذيـن ينتمون الى النظام المشترك . ، الخاضعين للقانون المشترك : كتلة اللاممتازين . كي لا ينسحق تماما ، غير الممتاز البائس ليس له سوى وسيلة واحدة : التعلـــق «عن طريق شتى انواع الدناءات» بأحد الكبار . بل من غير الممكن التكلم عن تمثيل حقيقي للطبقة الثالثة في المجالس ـ الطبقات العامة ، ما دام هذا التمثيل قـــد اضطلع به الى هنا اشخاص نالوا نبالة او نالوا امتيازا الى حد أو حين (بوظائفهم)». اذن فالحقوق السياسية للطبقة الثالثة هي عدم . الطبقة الثالثة ليست «حرة» . والحال من المستحيل «ان تصير الامة في جسم او حتـــى اية هيئة ordre بشكل خاص ، حرة ، اذا لم تكن الطبقة الثالثة حرة . **ليس المرء حرا بامتيازاته ، بل بالحقوق التي هي ملك للجميع**» . فانبد اعجابنا بهذ المعارضة ، في جملة ـ برق ، بين الحرية **الديمقراطية (المساواتيـــة)** للغد والحرية **الارستقراطيـــة** (الامتيازية) للأمس .

الحقيقة هي انه اذا كانت هذه الطبقة الثالثة التي يجب ان تكون كل شيء هي لا شيء فلأن الارستقراطية التي يجب ان تكون لا شيء هي كل شيء . تام اغتصاب النبلاء ، «انهم حقا ملوك حاكمون» . غلط خطير الاعتقاد بأن نظام فرنسا مونارخي. انه ارستقراطي . البلاط ، لا المونارك ، يملك ـ يحكم ، صانعا وصارفا الوزراء ، خالقا وموزعا المناصب . **«وما هو البلاط ، ان لم يكن هو راس هذه الارستقراطية الهائلة التي تغطي كل اجزاء فرنسا ، التي ، باعضائها واطرافها تصل الى كـــل شيء وتمارس في كل مكان ما يوجد من جوهري في كل اجزاء الشيء العام ؟»** .

شيء ما

اقرؤوا المطالب التي وجهتها البلديات الكبيرة في المملكة الى الحكومة ، سترون فيها «ان الشعب يريد ان يكون شيئا ما وبالحقيقة اقل ما يمكن» . انه لا يقدم

سوى طلبات ثلاثة : ان يمثّل بنواب مستمَدين حقا منه ؛ أن يكون هؤلاء النواب بعدد مساو لعدد نواب الاكليروس والنبلاء معا ؛ ان يجري التصويت على اساس الراس لا على اساس الصف . «أكرر ، هل يستطيع ان يطلب أقل ؟» . بالحقيقة هذا لا يكفي فعلا لاعطائه مساواة النفوذ التي لا غنى عنها في المجالس ــ الطبقات ، التي يطلبها . اذ ليس له ان يعطي لا وظائف ولا مكاسب ، اية سلطة حماية ، بينما، «في الارياف وفي كل مكان ، من هو السيد الشريف ذو بعض الشعبية الـــذي ليس عنده تحت أوامره، اذا تفضل واراد، جمهرة غير محددة من أفراد الشعب؟».

ومع ذلك يتجرأ على التشكيك في هذه الطلبات الثلاثة التي يعود خجلها الى الاحكام ــ المسبقة القديمة !

يريدون الاستمرار في تمثيل الطبقة الثالثة بأناس «ملطخين» بامتيازات ، رجال قضاء وسواهم . والحال ، لنفترض ان فرنسا في حرب مع انكلترة وان مجلس ادارة من ممثلي الامة يقود الحرب . «في هذه الحال ، انا اسأل ذلك ، هل سيَنسمح للاقاليم ، تحت ذريعة عدم ازعاج حريتها ، بأن تختار ، كنواب لها في مجلس الادارة ، اعضاء من الوزارة الانكليزية ؟ ــ يقينا ، ان اصحاب الامتيازات لا يَبدون عداء للنظام المشترك أقل من عداء الانكليز للفرنسيين في زمن الحرب» .

يزعمون رفض المضاعفة . فليزعموا ! ليس المساواة بل صوتان ضد صــوت واحد لمجموع ذوي الامتيازات ، هذا ما كان يجب ان تطلبه الطبقة الثالثة . مسألة عدد ، قبل كل شيء ، ولكن ايضا مسألة قيمة .

الصف الثالث له على الصفين الآخرين تفوق عددي هائل . حساب سييس، علما بأنه خال من اية دقة حسابية : ثمانون الف واربعمئة رجل كنيسة ، مئـــة وعشرة آلاف نبيل . «اذن بالمجموع لا يوجد مئتا الف ممتاز من الصفين الاولين . قارنوا هذا العدد بعدد خمسة وعشرين الى ستة وعشرين مليون من النفوس ، واحكموا على المسألة» . بالنسبة لجميع الذين سيقرؤون سييس لتوّهم ، الحكم قد صدر . كيف يَدحض منطقه ، كيف «يؤيّد ، من جهة ، ان القانون هو تعبير الارادة العامة ، اي الكثرة او التعددية ، ويزعم في الوقت نفسه ان عشر ارادات فردية يمكن ان توازن الف ارادة خاصة» ؟ العدد ، وهو فكرة **ديموقراطية** ، يكنس الهيرارخية ، ــ المرتبطة بالولادة ، بـ «الصفة» بمعنى النظام القديم ، ــ وهي فكرة **ارستقراطية** .

عدا ذلك ، خارج مسألة العدد وبصرف النظر عنها ، فان تقدم الطبقة الثالثة في جميع الميادين ، خصوصا في التجارة والصناعة ، هذا العدد الكبير مـــن «عائلات ميسورة ، مليئة برجال حسني التربية ومتعلقين بالشيء العام» تؤلف هذه الطبقة ، كان المفروض فيهما ان يكسباها منذ أمد طويل المضاعفة . لهجـــة سييس تصعد :

هل من المناسب لنبالة اليوم ان تحتفظ باللغة والموقف اللذين

كانا لها في القرون الغوتية ؟ وهل من المناسب للطبقة الثالثة أن تحتفظ ، في نهاية القرن الثامن عشر ، بالاخلاق الحزينة والمرتخية للعبودية القديمة ؟ **اذا استطاعت الطبقة الثالثة ان تعرف نفسها وتحترم نفسها ، احترمها الاخرون ايضا** ... . يجب عليها ان لا تجهل انها اليوم هي الواقع القومي الذي لم تكن فيما مضى سوى ظله ؛ ان النبالة خلال هذا التغير الطويل كفت عن كونها ذلك الواقع الاقطاعي الغولي الذي كان بوسعه ان يضطهد دون خوف من عقاب، انها لم تعد سوى ظله ، وان عبثا ما يسعى هذا الظل بعد الى إفزاع امة بأسرها .

(بين تحرير وصدور كراسة سييس ، كانت المضاعفة قد منحت ، بالفعل ، من قبل الملك ، في ٢٧ كانون الاول ١٧٨٨) .

يزعمون ، اخيرا ، ابقاء التصويت بالصف : اي ترك فيتو Veto لا استئناف فيه للذين يستفيدون من التجاوزات المراد الغاؤها ؛ اي انكران كل عدل للطبقة الثالثة ، مخفضين اياها الى انتظار كل شيء من كرم ذوي الامتيازات . «اتكون هذه هي الفكرة التي يكوّنونها عن النظام الاجتماعي ؟» . وسييس ، اغلاقا لهذه الفصول الثلاثة ذات العناوين الصارخة ، **كل شيء ، لا شيء ، شيء ما** ، يطلق سهما فارسيا ، يعتبر قاتلا ، على اصحاب الامتيازات : الصفوف الثلاثة «اذا استشرنا **المبادىء الحقة** ، لا تستطيع ان تصوت **بصورة مشتركة** en commun لا بالرؤوس ولا بالصفوف» . ـ هو ذا ، في الوقت نفسه ، ما يذكّرنا بأن هذا العوامي ، الذي فيه يهدر الهوى الطبقي للعصر ، هو ايضا مذهبيّ دقيق صارم، كبير كهنة وسيد ائمة العلم السياسي ، السلك الرهبني الحقيقي الوحيد لهذا الكاهن بالمصادفة ، ـ السدين الشامخ والموجز الكلام ، سدين «المبادىء» التي تجاهلها الى هنا الرجال الجاهلون .

★★★

بالفعل ، في الفصول الثلاثة التالية والتي خذل تجريدها على الارجح اكثر من قارىء ، سييس سيعرض عقيديا ، بمناسبة ما حاولته الحكومة واقترحه البعض ، ثم **ما كان يجب ان يعمل** ، واخيرا **ما بقي لان يعمل** ، ـ مبادئه : «المبادىء الحقة» .

محاولات لا جدوى فيها من الحكومة : الاعيان («بدلا من استشارة أعيان **بالامتيازات** ، كان ينبغي استشارة الاعيان **بالانوار**») ، المجالس الاقليمية («التي لم تكن ترتكز على «أسسها الطبيعية ، انتخاب الشعوب الحر») ! اقتراحات منافقة وتافهة من اصحاب الامتيازات ، في المضمار المالي ! اقتراحات مخاتلة من جانب

النبالة العليا لصالح غرفة عليا تؤخذ عن الدستور الانكليزي ! من جهة اخرى ، لمَّ التقليد ، وتقليد انكلترة ؟ لماذا ، افضل من انكليز ١٦٨٨ ، لا يعرف فرنسيو ١٧٨٨ - بدءا برجل مثل سييس ! - المبادىء الجيدة للفن الاجتماعي ؟ بدلا من تقليد هؤلاء الانكليز المتجاوَزين ، لماذا لا يطمحون الى أن يكونوا بدورهم «مثالا للامم» ؟

بيان ايمان لا يضطرب ، بالعقلانية الاجتماعية : «ابدا لن تنفهَم الآليـة الاجتماعية ، اذا لم يتخذ موقف تحليل مجتمع من المجتمعات **كآلة عادية ...**» . يجب دائما ان نكون واضحين ، ولا نكون حين نخاطب بلا مبادىء . تتبع مناقشة عالمة عن الارادة المشتركة ، ثمرة الارادات الفردية . سييس ، بخلاف روسو ، واقرب منه الى لوك (الذي هو مجبول به) ، يؤيد انتداب السيادة الجزئي على الاقل الى ممثلين . هذا يقوده الى معضلة الدستور الملتهبة .

برهان ذو حدين . إما ان فرنسا ليس لها دستور : عندئذ يجب عمل دستور، والامة وحدها تستطيع . او ان فرنسا لها دستور ، «كما يعاند البعض في التاكيد» ، وهذا الدستور المزعوم يقر التقسيم الى صفوف : عندئذ ، نظرا الى ان احد الصفوف ، الثالث ، رفع مطلبا رئيسيا يجب البت فيه ، فالامة وحدها تستطيع البت والتقرير . ليست المجالس - الطبقات العامة ، حتى مع افتراضها مكونة بحسب المبادىء هي التي تستطيع حسم مطلب يتصل ببنيتها هي بالذات . وحدهم ممثلون **فوق العادة** ، منتدبون خصيصا لهذا الفرض ، يستطيعون التعبير عن الارادة القومية . من سيدعوهم الى الانعقاد ؟ «يقيننا الامير ، **بصفته كمواطن اول** ، اشد مصلحة من أي آخر في دعوة الشعوب . **لئن كان غير اهل للتقرير عن الدستور** ، الا انه لا يمكن القول انه غير اهل لاثارة هذا القرار» . هذا ما كان يجب أن يُعمل .

بما انه لم يُعمل ، فماذا يبقى بالاقل لتعمله الطبقة الثالثة كي تأخذ مكانها الشرعي ؟ لقد انتهى زمن التصالح ! لم يعد للطبقة الثالثة ان تعتمد الا على قوتها الخاصة . وسيلتان تتعرضان لها ، حسبما تعتبر نفسها **الامة** (وهي الامة) ، او ترضى ، على سبيل تنازل سخي لاصحاب الامتيازات ، بأن تبقى في هيئة **صف** ordre ...

الوسيلة الاولى ، وهي «مسرَّعة معنِّفة» بعض الشيء حسب المؤلف نفسه : الطبقة الثالثة ، معتبرة ممثليها مستودعي الارادة القومية الحقيقيين ، الموصوفين تماما للبت باسم الامة جمعاء ، - تجتمع **على حدة** . هنا نجد برهنة ما كان سييس قد اكده آنفا : الصفوف ، اذا استشرنا المبادىء الحقة ، لا تستطيع ان تصوت **بصورة مشتركة** . الارادة العامة لا يمكن «ان تكون **واحدة** طالما يتركون ثلاثة صفوف وثلاثة تمثيلات» .

بالتالي ، تبعا لهذه الوسيلة الاولى ، الطبقة الثالثة

يجب أن تجتمع على انفراد ، لن تتبارى مع النبالة والاكليروس ،

لن تبقى معهما لا على اساس الصفوف ولا على اساس الرؤوس . ارجو ان تنتبهوا الى الفرق الجبار الموجود بين مجلس للطبقة الثالثة ومجلس الطبقتين الآخريين . الاول يمثل خمسة وعشرين مليون انسان ويتناقش على مصالح الامة . الآخران ، اذا وجب اجتماعهما ، لا يحوزان سلطات الا من حوالي مئتي الف فرد ولا يفكران الا في امتيازاتهم . الطبقة الثالثة لوحدهـا ، سيقال ، لا يمكن ان تشكل المجالس ـ الطبقات العامة Les etats géneraux فليكن! انها ستؤلف جمعية وطنية، مجلس امة uneassemblé nationale

الوسيلة الثانية ، وهي ، بالمقارنة مع الاولى ، تبدو باهتة جدا : الطبقة الثالثة تستنجد بمحكمة الامة ، بذلك التمثيل «فوق العادة» الذي تكلمنا عنه آنفا. وهذا يعني ان النظام الثالث ، بانتظار قرار القاضي الاسمى ، يتنازل الى الشك في حقوقه والاعتراف في الدولة بنظامين غيره .

«كنت سانهي هنا مذكرتي عن الطبقة الثالثة ، لو كان مشروعي تقديم وسائل سلوك فقط . غير انني قد عزمت ايضا على بسط مبادىء ...» . فليبسطها على راحته ، بكل تجريد ، في سير الصفحات القليلة التي تبقّت له ! نحن نعلم منها ما يكفي كي نفسر لانفسنا دوي ومدى الكراسة النحيلة .

***

ان كاتبا منسيا لسيرة حياة سييس ، آ. نتون A. Neton ، يكتب ان الطبقة الثالثة ولدت من الظروف وكانت كانها التركيب الجامع لكل ما كان يغلي «باختلاط او غموض» في الاذهان وفي القلوب . مبعثرة وبلا رابط يربطها حتى ذلك الحين ، كل الرغبات ، كل الاهواء ، كل الافكار التي في فوران ، «بفضل سييس ... اتسقت ، تجمعت ، توثقت حول بؤرة وحيدة» .

اولا ، كانت ترى تبرز بروزا مليئا ، في الطبقة الثالثة ، السمتان المشتركتان (اذا صدّقنا توكفيل toqueville للكراسات التي لا حصر لعددها الصادرة في نفس الفترة : ازدراء التاريخ وعبادة الحجة العددية . ثانيا كانت كراسة سييس تترجم بقوة فتّاكة عن الشعور المزدوج الذي كان مهيمنا آنذاك : الحقد على اصحاب الامتيازات ، تمجيد («تأليه» ، يقول باستيد) غير ـ الممتازين . بقراءة هذه الصفحات الجافة والمشدودة ، كان الثالث le tiers ، عمليا الثالث العالي ، وهو وحده المتطور بشكل كاف ، يأخذ وعي وضعيته التاريخية ـ «اذا استطاع الثالث ان يعرف نفسه» ـ وواجبات الفعل المباشر التي كانت تمنحه اياها . فيه ، وفيه وحده ، كانت تتجسم وحدة الدولة . هذه الوحدة كانت تتحقق حسب ميتافيزيقا عالمة مأخوذة عن روسو ، ولكن مفكّرة ثانية من قبل سييس بحدود أصيلة ، ليس بعد الآن في الشعب ـ في ـ جسم الذي يؤلفه مجموع

الافراد الأحياء ، بل في **الامة . امة** ، ذلك كان الوجه الجديد المجرد للكل الاجتماعي ، كان كيانا جديدا غير قابل ـ الى حد لا بأس به ، لان يعرف ، «واقعا عصيا على الادراك يهرب امام أي مسك عياني» (باستيد) ، ولكنه كان يسمح بتسويات حذقة للسلطة . الشعور المشترك ، اذ لم يكن له من جهة اخرى ما يعمله بكل هذا القدر من الميتافيزيقا ، كان يستخلص من ذلك كله تأكيدا بسيطا : الثالث هو الامة ، النظامان الآخران ليسا الامة .

في الحاصل ، سييس ، هذا الموجز الكلام ، بكتابه **ما هو الثالث : كل شيء**، كان قد «عمّد» ، حسب تعبير سانت ـ بوف Sainte - Beuve ، المرحلة التمهيدية في الثورة ، كما سيعمّد مراحلها التالية ، حتى وبما فيها المرحلة الاخيرة ، قبل برومير Brumaire : «يلزمني سيف» (٦) . أفضل من ذلك ، كان ، قبل ستة شهور من الواقعة ، قد اطلق العنان للشعار الكبير ، مدمّر المونارخية التقليدية : الثالث **وحده** سيؤلف **جمعية وطنية** ! ففي ١٧ حزيران ١٧٨٩ ، تحت دفع من سييس بالذات ، ـ «آن الاوان ، لنقطع الحبل» ، كان قال عند منطلق هذه المرحلة الجديدة ، ـ اعلن الثالث نفسه فعليا ، بانقلاب حقيقي ضد النظام القائم ، **جمعية وطنية** . ما لبثت الجمعية ان اضافت الى لقبها لقب

---

٦ ـ في يومي ١٨ و١٩ بروميير من العام الثامن في التقويم الجمهوري الموافقين ليومي ٩ و١٠ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، قام بونابارت بانقلابه ، او بالاصح بونابارت وسييس . ـ **سييس** كان نائبا في الجمعية التأسيسية ، ثم في المؤتمر ، ثم في مجلس الخمسمئة ومديرا من المدراء الخمسة في **عهد المديرين** (١٧٩٥ ـ ١٧٩٩) . هذا العهد واجه صعوبات وأزمات ومحاولات انقلابية ، سار في سياسة توازن ، حقق بعض الاصلاحات الجيدة ، ظل امينا للنظام الجمهوري ، واصل الحرب في الخارج ضد الدول وتحالفاتها ، واجه أخطارا داخلية جديدة من اليمين واليسار . قرر سييس وزميله بوجه دوكو القيام بانقلاب ، نالا تشجيعا من المعتدلين والكاثوليك ورجال الاعمال (الذين اخافهم اقتراح اليعاقبة بالعودة الى اجراءات ١٧٩٣ ، الى عهد الارهاب ، وإقرار عدد من هذه الأجراءات : تجنيد عام ، وضريبة قسرية على الاغنياء ، وقانون الرهائن) ، وسلما هذه المهمة الانقلابية للجنرال بونابارت العائد لتوه من مصر (في ١٧٩٦ كان قد قاد الحملة الظافرة المذهلة في ايطاليا وفرض الصلح على النمسا ، ثم فتح مصر) . بنجاح الانقلاب بدأ عهد القناصل الثلاثة (سييس ، دوكو ، بونابارت) ، بالحقيقة حكم «القنصل الاول للجمهورية الفرنسية» ، بونابارت . غالبية الفرنسيين كانت تريد ضمان المساواة امام القانون والضريبة ، الغاء **الحقوق الاقطاعية** ، والامن في الداخل والسلام في الخارج ، وتأمل او تؤمن بأن بونابارت يحقق هذا الضمان ... . **العهد القنصلية** انجز اعمالا كبيرة : المركزية الادارية ، اعادة تنظيم الكنيسة والمصالحة مع روما ، مجموعة التشريع المدني . بونابارت عزز سلطته ، ضرب اليعاقبة ، قام بانقلاب آخر جزئي ، اصبح «قنصلا مدى الحياة» باستفتاء شعبي بل ومنحه مجلس الشيوخ حق تعيين خلفه (١٨٠٢) ، وفي ١٨٠٤ اعلن نفسه «امبراطور الفرنسيين» ، وهكذا بدأ **عهد الامبراطورية** الذي انتهى في ١٨١٤ ونهائيا في ١٨١٥ بعد معركة واترلو . أما سييس فكان قد صُرف من البداية ، ... ومات في سنة ١٨٣٦ .

تأسيسية . ما لبث ان افصح اعلان حقوق الانسان والمواطن عن العقيدة الاساسية للحق العام الفرنسي : «ان مبدأ كل سيادة قائم جوهريا في الامة» . هكذا كانت الامة تحل ّ حقوقيا محل الملك ، بانتظار إن يحل محلها هي نفسها ، في ١٧٩٣ ، «الشعب» . الثورة كانت قد حصلت . المونارخية المطلقة كانت قد ماتت .

ولكن السيادة كانت باقية حية ، قوية لا اقل ، بل اكثر ، كما سيبرهن المستقبل . جملة الاعلان الصغيرة ، ذات التمديدات غير المحدودة ، كان قد عمل لها ليس فقط رجال ك لوك ، روسو ، سييس ، بل ايضا ، رغما عنهم ، رجال ك بودان ، هوبز . كانت تظفرالحرية ، المساواة . ولكن السلطة لن تفقد في ذلك شيئا . مرخاة من قبل أياد واهنة ، ستنتهي الى اخذها من قبل أيد من حديد : اليعاقبة ، نابوليون . العملاق لوياثان كان بوسعه ان يحتفظ على شفتيه بابتسامته العجيبة .

الجزء الثالث

توابع الثورة (١٧٩٠ ــ ١٨٤٨)

«لقد دمّر كل شيء ؛ مطلوب الخلق من جديد . توجد حكومة ، سلطات ؛ اما كل باقي الامة ، فما هو ؟ حبات رمل» .

نابوليون

روسو ، روسو غير المنتظَر ، في احدى كتاباته السياسية الظرفية ، **حكمٌ** على «**بوليسينوديه**» **الاب دو سان ــ بيار** (١) ، كان قد اعطى هذا التحذير التنبئي:

لنقدّر خطر ان نهيج مرة الكتل الجبارة التي تؤلف المونارخية الفرنسية . من سيستطيع ايقاف الهزة المعطاة ورؤية **كل المفاعيل** التي يمكن ان تحدثها . حتى حين تكون كل مزايا المخطط الجديد غير قابلة لجدل ، أي رجل عاقل يجرؤ على الشروع في الغـــــاء

---

١ ــ **الاب دوسان بيار** : كاتب فرنسي ، صاحب «مشروع لجعل السلام دائما في اوروبـــــا» (١٧١٣) ، الذي رد عليه روسو ، في «حكم على ...» .

العادات القديمة ، في تغيير الحِكَم القديمة ، وفي اعطاء الدولة شكلا آخر غير الذي ساقتها اليه على التوالي مدة الف وثلاثمئة سنة.

كل المفاعيل ! مفاعيل مادية اولا . حين اضطرابات كاضطرابات الثورة تهز الدولة الاعظم ، الاكثر سكانا في اوروبا ، فان التوازن التقليدي للمصالح والعادات قد تحطم نهائيا . ولكن اكثر ايضا مفاعيل روحية . النتائج الحقيقية للثورات هي تلك التي تنحفر في حي النفوس . من هذه الحيثية ، اية اندفاعات وانعكاسات لا عد لها ! خلال قرن ونيف ، في كل السجالات الجماعية الكبيرة ، ستكون الثورة حاضرة ، خميرة لا تقتلع جذورها . مخاطبة كـل البشر بلا تمييز من زمان ولا مكان ، كونية كالاديان الكبرى ، ستشعل ، مثلها ، اهواء كونية . ستواصل نوعا ما الاهواء الدينية ، التي خفت او انطفات ، باهواء سياسية جديدة تماما ، غير سمحة ، مثيرة للحماس وفتاكة مكتسحـة . وكان للادب السياسي أن يتجدد بذلك .

هوى مضاد ـ للثورة ، اولا بأول . قبل ١٧٨٩ ، كانت افكار القرن اجَلّ قد صادفت مقاومة من جانب المدافعين ، الكاثوليك والمونارخيين ، عن التقليد . ولكن تلك المقاومة الذاهبة ضد التيار ، وهي عدا ذلك متفرقة ومحض دفاعية ، كانت عمليا عاجزة . كل الكتّاب الكبار كانوا في الضفة الاخرى . بعد ١٧٨٩ ، بالضبط لان افكار القرن ظفرت في الوقائع ، لان الثورة قد حصلت ، لانها دمرت وأفزعت وخيبت ، ها تصير ممكنة ردة مضادة للثورة فعالة ، باسم التقاليد المستباحة . تجد كنذير اول خطيبا وكاتبا انكليزيا كبيرا ، **برك** Burke .

هوى قومي" (قوموية) ، من ثم . ان حروب الثورة والامبراطورية ، بنات اليعقوبية ، المسيّرة باسم مجردات جليلة ، **الامة** ، **الشعب** ، تقرع اجراس العاطفة القوميةُ القديمة الهادئة والقوية ، طراز فوبان Vauban ، العارية عن اللاتسامح ، المتجسدة في شخص عياني : الملك . على اليعقوبية الفاتحة سترد" قوموية المغلوبين . **الخطب الى الامة الالمانية** الذائعة الصيت ، لـ فيشتـه Fichte ، ستسم ، من هذه الحيثية ، تأريخا .

هوى مساواتي" ، اخيرا . كان لتوه قد اثار البرجوازيين ضد النبلاء ، ولكن ربما لم يكن ذلك سوى بداية ـ او متابعة ـ سيرورة تاريخية مكتوب لها ان تنتشر الى نهايتها : الى التسوية التامة . للمستقبل ان يقول ما اذا ليس هذا الهوى ، هوى التسوية المساواتية ، اقوى في فؤاد الانسان من هوى الحرية . موضوعة سيبسطها بأستاذية مدهشة ، بعد ثورة ١٨٣٠ الوجيزة ، توكفيل Tocqueville في **الديمقراطية في اميركا** ، مؤلفه الاول ، الذى نال الشهرة على الفور .

الفصل الأول

«تأملات في ثورة فرنسا»، لِإدموند برك (١٧٩٠)

«هذا الاقتناع البالغ القـــوة والفزارة ...
هذا الموج الغريني، هذا السيل، هذا البحر».
تين Taine

انكلترة عجيبة! كانت قد اعطت البر الاوروبي مثال الإلهوية غير الدينية، الإلحاد، الفكر ـ الحر، الثورة على السلطة السياسية الشرعية. «الافكـــار الفرنسية»، «روح القرن»، التي كانت ستنهال على أوروبا المونارخية، كانت قد بدأت بكونها «أفكارا انكليزية». وها من انكلترة تطلع منذ تشرين الثاني ١٧٩٠، ضد الثورة التي ليست بعد الا في بداياتها، اول صرخة انذار، مدوية، أطلقت باسم النظام القائم والمحافظة الاجتماعية! ومن يطلق هذه الصرخة؟ عضو شهير

في حزب الـ هويغ ، مدافع ساطع عن الحزبـــة السياسية ، ادموند بـــــرك
Edmund Burke

***

إدموند برك ، المولود في دوبلن Dublin سنة ١٧٢٩ ، من اب بروتستانتي وأم كاثوليكية ، كان قد بدأ كرجل آداب . كانت محاولات فلسفية قد عرّفت عليه قبل ان يكرس نفسه للسياسة . عضوا في غرفة العموم اعتبارا من ١٧٦٦ ، كانت حياته العامة ، في صفوف حزب الـ هويغ ، لها كمحور ، النضال ضد محاولـة اعادة الحكم الشخصي من قِبل الملك جورج الثالث . الازمة الاميركية التي انتهت بالحرب الوخيمة بين انكلترة والمستعمرات الثلاث عشرة ، الولايات ــ المتحـــدة مستقبلا ، سددت الى الملك ضربة قلّصت الى عدم كل طموحاته ، وانقذت علـى الارجح الحرية الانكليزية . ان مداخلات مشهودة لـ برك (خطاب عن الضرائب على الاميركيين ، ١٧٧٤ ؛ خطاب عن التساهل مع اميركا ، ١٧٧٥) ، في سير الكفـاح الذي شنه من اجل منع انفصال المستعمرات الثلاث عشرة ، كانت وضعت الخاتم على شهرته . شهرته كليبرالي لا يروّض ، كخطيب سياسي رائع ، قوي وفخم .

ولكن فيما بعد ، برك ، في تقابض مع الازمة البالغة الخطورة التي كان يتخبط فيها حزب الهويغ ، المنشق الى شلل متخاصمة ، كان قد ارتكب ، على ما يبدو ، اخطاء تاكتيك وحكم . ترك نفسه ينساق الى بعض الفلتات ، الى شيء من عدم الاعتدال ، قفا طبيعته الايرلندية الغنية والكريمة . حل البرلمان في ١٧٨٤ ، ظفر بيت الثاني le second Pitt ، كان قد وسم ، مع هزيمة الهويغ الراسخة ، نهاية آمال برك السياسية . حين تنفجر الثورة الفرنسية ، سمعة الهويغ الكبير في انحدار ؛ الشبان يعتبرون فصاحته من زمن ولى ؛ مرات عديدة بدا ينقصـه حس النِسَب ؛ في نفس حزبه ، يضعونه جانبا : انه آمر متجبر ، غير مؤالف ، وعنيف ؛ يستشرسون في تحقيره ، يضطهدونه ؛ نصف الامة الانكليزية ، يقال لنا، يعتبره آنئذ «مجنونا» كله مواهب .

١٤ تموز ١٧٨٩ ، سقوط الباستيل . الـ هويغ الشهير فوكس Fox (٢) ، صديق برك ، يتحمس : ذلك اكبر حدث في تاريخ العالم ، وأسعد حدث . في قلوب انكليزية ، ستلعن فرنسا الشيطانية قبل قليل ، تدق آنيا ساعة التمنيات السخية . اية نبرات ملتهبة لا يمكن انتظارها من الفم الايرلندي الحار الذي كان ، ضد الرأي الشعبي ، رأي البرلمان ، رأي البلاط ، قد دافع عن الحرية الاميركية ــ

---

٢ ــ فوكس Fox ، زعيم حزب الـ هويغ وخصم بيت ، ظل طوال حياته نصيرا لتحالف بلاده مع فرنسا (١٧٤٩ ــ ١٨٠٦) .

الآن اذ بدورها تشرق ، مضيئة اوروبا ، الحرية الفرنسية !

لكن برك يلزم الصمت ؛ صمتا كاتما ، حركته الاولى كانت لغير صالح الثورة .

في ١٧٧٣ ، كان برك قد قام برحلة الى فرنسا . ماري انطوانيت كانت في ربيعها السادس عشر ولم تكن سوى ولية العهد ؛ رآها في فرساي واعجب بها . هذه الذكرى كان لها ان تلهمه ، في **التأملات** ، صفحة من منتخبات ادبية «(كانت كنجمة الصبح ، تلمع صحة وسعادة ومجدا») . ولكن برك في باريس كان ايضا قد اتصل مع «فلاسفة» العصر ؛ هؤلاء «الموسوعيين» و«الاقتصاديين» كما كان اسمهم ، هؤلاء السوفسطائيين المدمرين والملحدين كما هو يسميهم . كان قد بقي من هذا اللقاء كارها مستفظعا . عقلانية في مضمار الدين ، عقلانية في مضمار السياسة ، لا شيء كان يوحي له بالقرف والخوف اكثر منهما . هكذا فقد كانت نفسه الخفاقة والمبالغة قد أصيبت بتخوف لن يتبدد ، إثر هذا الاحتكاك مع الفلاسفة الفرنسيين المنهمكين في **سحق الشنيع** ، كما كانوا يقولون (حيث «الشنيع» هو المسيحية) .

كيف ، اذا كان هذا ، كيف كان برك قد انحاز بتلك الحرارة الى المستوطنين الاميركيين ؟ تناقض ؟ قطعا لا . لا ريب ، بعض زعماء الانتفاضة الاميركية ، مثلا جيفرسون **Jefferson** ، فرانكلين **Franklin** ، كانوا متغذين بأفكار لوك وبأفكار القرن الثامن عشر الفرنسي ، المتغذي هو نفسه بأفكار لوك . ولكن ليست هذه الافكار هي التي كان يدافع عنها برك ؛ ليس مفهوم الحقوق الطبيعية المجردة ، للانسان المولود «حرا ومُساويا» لكل انسان آخر . برك ، على العكس تماما ، كان يرفض بشكل مطلق الدخول في النقاش المجرد عن الحقوق المجردة للمستوطنين الاميركيين . البرلمان الانكليزي هل كان له حق فرض رسوم على المستوطنين ؟ لا ريب ؛ ولكن ممارسة حق كهذا كانت مستحيلة التطبيق ؛ كانت تهدد بأن تجر الى بلايا ؛ اذن كانت غير ملائمة : «المسألة بالنسبة لي ، كان يصرخ برك ، ليست معرفة ما اذا كان لكم **حق** ان تجعلوا شعبكم بائسا ، بل معرفة ما اذا لم تكن **مصلحتكم ان تجعلوه سعيدا**» . برك كان يفكر ايضا ان الحريات التي يطالب بها المستوطنون ، هؤلاء الانكليز في ماوراء البحار ، هي حريات انكليزية ، وبالتالي فان استخدام القوة المنتصرة ضد المستوطنين سيقرع في النهاية اجراس موت هذه الحريات الانكليزية . لا شيء ، في دفاعه الثائر ، ينسب نفسه الى تصور مجرد للمجتمع ، مؤسس على الطبيعة والعقل ، على الحرية والمساواة الميتافيزيتين وفي ذاتيهما . لا شيء فيه كان يمكن ان يمر على انه أقل تنازل لـ «الافكار الفرنسية» .

ندهش اقل ، وقد عرفنا ذلك ، من رؤية برك يتابع الاعمال الاولى للجمعية الوطنية التاسيسية بروح حذرة ومغلقة ، مليئة بالشكوك عن المستقبل . حين يعتقد انه يتعرف على المبادىء المجردة ، على الميل الى الصحيفة البيضاء ، على المنطق العاري لسفاسطة ١٧٧٣ الفرنسيين ، هذه الشكوك تصبح يقينا : هـذا سينتهي نهاية سيئة ، وقبل قليل سيكون خطرا جدا على انكلترة نفسها .

على قرنه الفكري يطغّم ، حين يعلم برك بيومي ٥ و٦ تشريـن الاول ١٧٨٩

(اجتياح القصر الملكي في فرساي ، تهديد الملكة) ، نوع من غضب مقدس . ماذا ، نجمته الصباحية ، ولية العهد المشعة في عام ١٧٧٣ التي رفعت بعدئذ الى مرتبة ملكة ، ماري ــ انطوانيت ، عرضة لهذه الاهانات من سوقة ! آه ! يقينا «عصر الفروسية قد مضى ؛ عصر السفاسطة والاقتصاديين والحاسبين خلفه ، ومجد اوروبا انطفأ الى الابد» .

غضب عاطفي ، قرف فكري ، ستدفعهما الى الذروة حادثة محض انكليزية . سنويا ، في ٤ تشرين الثاني ، يوم ذكرى نزول وليم أورانج الى شاطىء انكلترة في ١٦٨٨ ، اعتادت جمعية اسمها **جمعية الثورة** ، مؤلفة بشكل رئيسي ، ولكن ليس حصرا ، من منشقين ، على الاجتماع من اجل الاستماع الى موعظة تخليد للثورة الهويغ ؛ بعد الموعظة كانت تقام وليمة ، تعقبها خطب العادة . حفلة ٤ تشرين الثاني ١٧٨٩ كان ممكنا ان تتلون ببعض الانعكاسات الايديولوجية للثورة الفرنسية القريبة العهد تماما . هذا ما حصل . قسيس منشق ، الدكتور برايس Price هو كاتب سياسي معروف ، متقدم الراي ، الذي كان يلقي الموعظة ، اعرب عن فرحه امام التقدم الجديد الذي حققته قضية الحرية لتوّها بفضل فرنسا . نفس النوطة المتفائلة في خطب ما بعد الظهر : أحداث فرنسا تفتح آمالا جبارة للحرية البشرية ، كما ولسلام فرنسي ــ انكليزي راسخ . **عريضة** حماسية الى الجمعية الوطنية الفرنسية .

برك ، اذ أطلع ، ومعطيا على الفور الحادث مدى لا يتناسب بتاتا مع واقعه ، يشتعل غضبا : انكليز ضالون تجرؤوا ووضعوا على قدم واحد ، جمعوا أخويا ثورة ١٦٨٨ ، الانكليزية بالتمام والجديرة بالاحترام ، العيانية ، المحدودة ، البروتستانتية ، وثورة فرنسا هذه ، المجردة تماما ، المحطمة للايقونات ، الفاسقة والملحدة . برك ، في ضرب من انفجار لسنواته الستين الساخطة ، يثب على قلمه ليكتب **التأملات** .

★★★

على وجه الضبط يبدأ بكتابة رسالة ــ تفضح موعظة الدكتور برايس ، وعدوى المثال الفرنسي المؤسفة ــ الى السيد دو منونفيل ، وهو نائب فرنسي شاب عن طبقة النبلاء في الجمعية الوطنية ، وكان برك قبل قليل ، في تشرين الاول ، قد كتب اليه مطولا عن أحداث بلده . في البدء ، لم يكن له ، على حد تأكيده ، غرض آخر سوى هذه الرسالة الثانية ، رسالة خاصة مثل الاولى تماما . ولكن الموضوع اصبح وافرا بحيث خرج منه بشكل طبيعي تماما مجلد (من ٣٥٦ صفحة قطع ١/٨ في الطبعة الاولى) . رائعة وزاخرة طبيعة برك الفكرية !

هذا لا يعني ان التأملات هي ارتجال انفعالي طويل . لئن كان برك قد اخذ مباشرة القلم ، تحت فعل الاستنكار الذي اطلقه في نفسه حادث ٤ تشرين الثاني،

الا انه ، مع سير تقدم تأليف رسالته ــ كتابه ، قد انضج وانمى مادته . يقول كاتب سيرته ، لورد مورلي Morley : «كل بريد يجتاز بحر المانش ، كان يجلب موادا جديدة لازدرائه ومخاوفه» . الثوريون الفرنسيون كانوا ينكشفون اكثر فأكثر مجرّدين ، مدمّرين ، اكثر فأكثر «مهندسي الخراب» . وبرك يدين ، يدين ، يدين. هكذا كان يرتفع تدريجيا التمثال الخطابي المهيب . «برك كان يعيد النظر ، يمحو، يخفف ، يقوي ، يشدد ، يكتب ويعيد الكتابة بلا تعب او كلل» . اخيرا ، في تشرين الثاني ١٧٩٠ ، كان المؤلّف جاهزا للصدور . ظل في ورشة العمل سنة بالتمام .

انه يحمل علامة اصله وصنعه المحموم والمشغول بآن . فقدان التأليف السابق التصميم يلفت ويخطف البصر . برك يعترف بأن موضوع حديثه كان يمكن تقسيمه وتوزيعه على نحو افضل . لا يوجد عنوان واحد على امتداد المؤلّف ، لا فصول ، ولا اية اشارة خارجية تسمح بالتوجه مع سير تقدم القراءة . وكأن الكاتب رغب في ان يبقي لكتابه شكل احتجاج عفوي ، كُتب بنفَس واحد ، بصبّة واحدة وعملاقة !

من الممكن ، على نحو مصطنع بشكل كاف ومن اجل الوضوح ، تمييز جزءين كبيرين في هذه **التأملات** ، التي تعود فيها الى الظهور بلا انقطاع ، في تنظيم اوركستري متنوع وعنيد ، نفس الالحان الجوهرية . ان جزءا اول مكرّس لتبيان، مع اتخاذ نص خطبة الدكتور برايس المثيرة للاشمئزاز ، التضاد الكامل بين ثورة ١٦٨٨ الانكليزية والثورة الفرنسية ، التضاد الذي هو تماما اصالح الاولى . ان التأويل الذي يعطيه برك ، المحافظ بإفراط ، عن أحداث ١٦٨٨ ، ليس من جهة اخرى مقبولا به بوجه عام لدى المؤلفين الانكليز . اما الجزء الثاني فهو مكرّس على نحو اخص لنقد «المؤسسات الجديدة» للجمعية الوطنية . قواعد التمثيل السياسي ؛ وضعية السلطة التنفيذية ؛ التنظيم القضائي ، العسكري ، المالي : كلها تنتقد بصرامة مبررة اكثر من مرة ولكنها دائما احادية الجانب وفيها صرير حقد لا ينزع سلاحه شيء . من المفيد فعلا مقارنة هذه الصفحات مع «الملحوظات السرية» التي كان ميرابو Mirabeau يوجهها في نفس الفترة الى البلاط : صرامة مشابهة تجتمع فيها مع علو واتساع نظرات ذهن سياسي كبير ، مفتوح على المستقبل ولا يحمله الهوى [٣] .

التأملات سيل جارف ، غريب الاطوار ، اعمى ، مليء بتلوّنات ساطعة رائعة . لا يمكن الاستسلام هنا لغزارته غير المراقَبة ، يجب السيطرة على هذا الموج الذي لا ينضب ، احتباسه ، بتعبير آخر الاختيار . والحال ، توجد في هذا الكتاب الذائع الصيت ، مجبولتَين معا ، مقالة هجو وقدح راهنة ضد المؤسسين

---

٣ ــ **ميرابو** اصبح ناصح البلاط ومستشاره السري في السنة الاخيرة من حياته (١٧٩٠ ــ ١٧٩١).

ــ المكوّنين ــ المدَستِرين الفرنسيين ، مقالة عاوية التحيّز ، وقضية مذهبيــة تصيب احدى اعلى محاكمات الفلسفة السياسية . مقالة القدح ، التي يسطع فيها جهل جلي للشروط الواقعية لفرنسا ١٧٨٩ (الشروط التي وصفها بشكل جيد جداً، على العكس ، انكليزي آخر ، هو آرثر يونغ Arthur Young ، في **رحلاته في فرنسا**) ، لم يعد لها اهتمام او فائدة الا بالنسبة لمؤرخي الثورة . اما المحاكمــة المذهبية ، التي لن تحسم نهائيا في يوم من الايام ، فهي على العكس تحتفظ بفائدة واهتمام دائمين ، وهي وحدها ستمسكنا الان .

★★★

هذه الدعوى المذهبية هي محاكمة التصور المجرد والعقلاني المحض ــ والذي هو في الوقت نفسه فردوي محض ــ للمجتمع المدني . تصور آت من الفلسفة الانكليزية ، بالدرجة الاولى من لوك ، وكان يتفتح ، بعد مئة عام منه ، في الدماغ الصارم الدقيق لرجل من طراز سيييس . **زعزعة نير الاحكام ــ المسبقة** ، المضادة للعقل ، للطبيعة (الجيدة بذاتها) ، للسعادة الارضية (الطموح الشرعي لكل كائــن بشري على الارض) ؛ ازالة faire table rase كل هذا الميراث من ماض احمق، «جعلها صفحة بيضاء» ، كي نبني بكل قطعه مجتمعا عاقلا ، تحكمه اخلاق **علمانية**، تسمح بالاستغناء عن الله ، هذه الذريعة لكل التعصبات ، ــ مجتمعا له بشكــل اوتوماتيكي ان يتجه نحو **التقدم** غير المحدود : هذه كانت العقائد الرئيسية لهذا التصور ، الذي لا يقلّ عقيدية عن التصور الذي كان يقاتله . هذا كان جوهر ما يدعى **روح القرن** ، القرن الثامن عشر ، الغريب بالتمام عن روح القرن السابق . هذا الروح كان ذا جذر علموي : العلوم الدقيقة ، خصوصا الفيزية والطبيعية ، كانت قد حققت في القرن الثامن عشر خطوات جبارة ، بفضل بعض طرق الدقة والضبط في الملاحظة ، بعض طرق المنطق والتجريد . لماذا لا تحوّل هذه الطرق نفسها على نفس المنوال علم الحكومة ؟ ما كان القرن السابع عشر ، الورع ، قد دعاه «سر» الحكومة ، كان ، شأنه شأن الاسرار الدينية بالتمام ، سرا مزعوما : كان على علم سياسي ، يجب خلقه ، ان يشرّحه ، كما العلم الطبي يشرّح الجسم البشري .

هوذا الروح ، هوذا التصور الذي يريد برك ــ الذي عنده الى اعلى درجــة حس سر الحكومة ، وضرورة هذا السر ــ ان يسحقه ، في خناق جدله المسوس. **لنسحق الشنيع** ! ــ برك ، بدوره ، يطلق هذه الصرخة ، مقلوبة ، على مناجليه فلاسفة ١٧٧٣ . لندافع عن الاحكام ــ المسبقة وكل ما تقتضيه وتتضمنه : روح تاريخي ، ميراث ، امتيازات ، لامساواة ، هيرارخية ، صفوف واجسام ، دين قائم مع خاصياته وحرياته . لندافع عنها ، ومعها عن السلطة التقليدية ، كــل الاحترامات القديمة ، كل الفروسيات القديمة ــ ضد روح التمرد والصحيفــة البيضاء ، ضد **طبيعة** و **عقل** محطمي الايقونات الجدد . ضدهم ، ضد الثورة ،

لنقلب هذين المفهومين اللذين افسدوهما ، مفهومي **الطبيعة** و **العقل** .
هول المجرد ؛ مفهوم جديد للطبيعة ؛ مفهوم أصيل للعقل العام او السياسي : يمكن ان نصنّف تحت هذه العناوين الثلاثة ، بدون اصطناع زائد ، محاججة برك الفتكيّة والسلبية ، في **التاملات** ، ضد روح القرن .

هول المجرّد

بر ك، نعلم ذلك ، كان يعبر اصلا عن هذا الكره والاستفظاع في خطبه عن الثورة الاميركية ؛ كان ينبه الى انه لا يدافع بتاتا عن الحرية المجردة ، بل عن حريات عَينية ، عن الحريات الانكليزية المنقولة والمغروسة في اميركا ؛ كان يقول : «انا لا أدخل في هذه التمييزات الميتافيزيقية ، انا ابغض حتى صوت هذه الكلمات» . في **التاملات** ، يعود باستمرار على هذه النقطة . يرفض النقاش في المجرد ، اي خارج ظروف الزمان ، المكان ، الاشخاص . يرفض لوم ، مدح اي شيء مما يتصل بالافعال البشرية ، او بالمصلحة العامة ، «استنادا الى اللمحة البسيطة عن موضوع عرّي من كل ملامحه العيانية ، في عري وفي كل عزلة تجريد ميتافيزيقي» . يعلن ان «الظروف ، التي ليست شيئا بالنسبة لبضعة اشخاص ، هي مع ذلك في الواقع ما يعطي مبدأ من مبادىء السياسة لونه المميز وطابعه الحقيقي ، وهي التي تجعل مخططا مدنيا وسياسيا نافعا او ضارا للجنس البشري» . الدفاع عن مبدأ مجرد بدون معرفة الظروف المضبوطة ، هو دون كيخوتية ؛ ذلك ربما اسباني او فرنسي ، ليس انكليزيا .
مثلا : يريدون ان يهنىء برك الفرنسيين على حريتهم ؛ ولكن ، يسأل برك ، هل كان بوسعه عقليا ، قبل عشر سنوات ، ان يهنىء فرنسا على حكومتها ، «فقد كانت لها آنذاك حكومة» ، بدون ان يكون قد استعلم اولا عن طبيعة هذه الحكومة وأسلوب ادارتها .

> هل بوسعي اليوم أن أهنىء هذه الامة نفسها على حريتها ؟ لان الحرية ، في معناها المجرد ، يجب ان توضع بين خيرات الجنس البشري ، هل أذهب جديا الى امتداح ومجاملة مجنون هرب من الارغام الواقي والظلام المنقذ لحبسه ، على استرجاعه النور وحريته ؟ هل سأمتدح لصا من قطاع الطرق الكبار او مجرما قاتلا حطم حدائده ، على استعادته حقوقه الطبيعية ؟ ذلك يكون تجديدا لمشهد المحكومين بالاشغال الشاقة ومحررهم البطولي ، الميتافيزيقي الفارس ذي الوجه الحزين (٤) .

---

٤ ـ فارس الوجه الحزين هو دون كيخوت ، بطل رائعة سيرفانتس (ق ١٧) .

غلط" ، بالتالي ، مفهوم حقوق الانسان في تجريده ومطلقه .

واه ! لو كان المقصود حقوق الانسان الحقيقية ! اجل ، كل البشر لهم الحق في العدالة ، في نتاج صناعتهم وفي كل وسائل تثميرهم . «لهم الحق في ان يكونوا لأبيهم وامهم ... ، في أن يربُّوا ويحسّنوا اولادهم ... . شيء يستطيع انسان القيام به على حدة لصالحه الخاص دون التخطي على صالح آخر ، لمن حقه القيام به» . ولكن ، في لغة الثوار الفرنسيين والدكتور برايس ، المقصود فعلا شيء آخر ! حقوق الانسان هذه هي «لغم ... مُهيأ تحت الارض» ، انفجاره يجب ان يفجّر «معا بآن امثلة العصر القديم ، الأعراف ، المواثيق ، صكوك البرلمان ، كل شيء» . ما يطالبون به قبل اي شيء هو حق مشاطرة السلطة l'autorité le pouvoir ، قيادة شؤون الدولة . بيد ان هذا الحق ،

سأنكر على الدوام وبشكل قاطع انه في عداد الحقوق المباشرة والاولية للانسان في المجتمع المدني ... . الحكم ليس معمولا بموجب الحقوق الطبيعية التي يمكن ان تكون موجودة وهي موجودة فعلا بصورة مستقلة عنه ، انها اكثر وضوحا بكثير وأكثر كمالا بكثير في تجريدها ، ولكن هذا الكمال المجرد هو عيبها العملي ؛ **بأن يكون لنا الحق في كل شيء ، نفقد كل شيء** . الحكم اختراع من الحكمة البشرية ، للعناية بحاجات البشر ... . في عداد كل هذه الحاجات ، يُتفق على ان الحاجة الألح هي التضييق بشكل كاف على الاهواء ... . في هذا الاتجاه وبهذا المعنى ، الارغام ايضا هو في عداد حقوق البشر ، وليس الحرية فقط .

عدا ذلك ، حتى فيما يخص الحقوق الحقيقية والتي يقبلها برك ، عبث وغرور هذه التعاريف الميتافيزيقية .

بالحقيقة ، في هذه الكتلة الجبارة والمعقدة من الاهواء والمصالح البشرية ، حقوق الانسان منكسرة ومنعكسة في عدد كبير من الاتجاهات المتصالبة والمختلفة ، بحيث من الحماقة ان نتكلم عنها بعد وكأنه بقي لها بعض الشبه مع بساطتها الاولى ... . كل الحقوق المزعومة لهؤلاء المنظّرين قصوى متطرفة ، وبقدر ما هي حقة ميتافيزيقيا هي باطلة اخلاقيا وسياسيا . حقوق البشر هي في نوع من وسط يستحيل تعريفه [ولكن — يضيف برك — «ليس مستحيلا رؤيته»] .

غلط" ، الطابع اللاشخصي للمؤسسات .

في ظل المونارخية ، المؤسسات ، المربوطة جميعا بشخص الملك ، كانت ذات

طابع شخصي يستكلب المجرّدون الفرنسيون على تدميره . هذا النزع للطابع الشخصي يذهل ويثير برك ؛ فهو يرى في هذه العملية نهاية نظام خليط من آراء وعواطف كان له اصله في الفروسية القديمة وكان قد اعطى طابعه لاوروبا الحديثة: «اذا كان له ان ينطفىء تماما ذات يوم ، فان الخسارة ، هذا ما أخشاه ، ستكون هائلة» . وبرك يتنهد ، وبرك يتنبأ ، برك يلقي خطبة رثاء هذه القيم الفروسية ، هذا الشرف حسب مونتسكيو : «ولكن الان كل شيء سيتغير ، كل الاوهام الفاتنة التي كانت تجعل السلطة محبَّبة والطاعة ليبرالية ، التي كانت تعطي انسجاما لظلال الحياة المتنوعة والتي كانت ببدعة من الخيال مليئة بالعذوبة تدوّر لصالح السياسة كل العواطف التي تجمل وتحلي الحياة الخاصة ... . تنتزَع بقسوة كل الستائر التي كانت تصنع زينة الحياة» . الشيء العام سيكون من الان فصاعدا مجردا من «كل وسائلنا في إلزام العاطفة ورهن الحب» ؛ الملك سيغدو رجلا كآخر، والملكة «امرأة» وحسب ؛ والحال ، يكتب برك «ان امرأة من النساء ليست الا حيوانا ، وبعد ليس هو من الصنف الاول» .

نزع شخصية المؤسسات على هذا النحو ، هو منعها من توليد الحب او الاحترام او الاعجاب او التعلق عند المواطنين ؛ كل هذه المشاعر النبيلة من الانسان للانسان . فلسفة ميكانيكية ، فلسفة بربرية ، تنفي ، تطرد كل العواطف، وهي عاجزة عن تعويضها ! بيد ان العواطف هي تكملات ، دعائم القانون ، الذي بما انه لاشخصي بالجوهر ، فهو بحاجة الى مسدّ وتعويض ، الى تشجيع ، الى تدعيم ، بمشاعر شخصية . ان فلسفة كهذه ــ يزار برك ، الذي لا يفتأ تحركه ، عبر هذه الصفحات ، ضد ضياع روح الفروسية ، ذكرى ماري ــ انطوانيت المهانة والملاحَقة ، ــ ان فلسفة كهذه ، ميكانيكية وبربرية ، «ما كان يمكن ان تولد الا في قلوب مجلّدة وأذهان ذليلة» .

غلط اخيرا ، البساطة شبه ــ الهندسية المؤسسات .

مونتسكيو كان عنده الى أعلى درجة ، في قرن من هذه الحيثية بسيط مبسّط ، حس التعقد اللامتناهي للامور السياسية والاجتماعية ؛ هذا لم يحل بينه وبين ان يلقي هنا ، مع ايمانه بالعقل (هذا الحس «اللذيذ» ، كما يقول) ، بأكثر ما استطاع من وضوح . ولكن «الفلاسفة» الحقيقيين ، الايديولوجيين طراز هلفيسيوس Helvétus ، كانوا قد لاموه ، وكأن ذلك لوثة ، ترتبط بأحكامه ــ المسبقة ، على ميله الى توفيق ، الى موازنة العناصر المختلفة للواقع المعقد ــ الذي هم ، هؤلاء الايديولوجيون ، كانوا يرونه بسيطا وعاريا . وسييس كان لتوّه قد عارض «الميكانيكا المطبّقة» لمونتسكيو ، علم الصحة السياسية والاجتماعية الكبير لمونتسكيو ، ب «ميكانيكاه العقلية» (آ. سوريل) .

بالطبع ، برك ، الذي تغذى ب **روح القوانين** ، ينضم هنا الى مونتسكيو .

حسب رايه ، ان دستور دولة وتوزيع السلطات العادل ينتسبان الى العلم الادق والاعقد ؛ تلزم له معرفة عميقة بالطبيعة البشرية ، بحاجاتها ، بكل الاساليب

القادرة على تسهيل او منع الاهداف ذات المصلحة العامة التي يُبحث عنها . ان مناقشة **مجردة** ، مثلا ، عن حقوق الانسان (دابّة برك السوداء ، قطعا) ، لا تأتي بشيء ، لا تأتي بأي غذاء ، بأي طعامٍ ، بأي دواء للأدواء الاجتماعية التي يمكن ان يكون للناس ان يتشكوا منها . من اجل الإطعام ، من اجل التغذية ، ان مزارعا لأصلح وافضل من استاذ ميتافيزيقا . المحاكمة القبلية a priori قسرا تترك جانبا الاسباب الغامضة والخفية ؛ انها عاجزة فعلا عن السيطرة على «كتلة الاهواء والمصالح البشرية ، الجبارة والمعقدة» التي تقحمها الحياة العامة .

> حين اقصد مدح بساطة الاختراع التي يزعمون بلوغها في دساتير سياسية جديدة ، ليس بوسعي ان أحول بيني وبين الخلاص الى ان الذين يعملون عليها لا يعرفون حرفتهم او انهم مهملون جدا بالنسبة لواجبهم . الحكومات البسيطة ناقصة معيبة بالاساس ، كي لا نقول اكثر

هكذا يعبر برك عن استهواله للمجرَّد ، المدمِّر ، اللامجدي ، النازع للشخصية، والمبسط بشكل أحمق .

مفهوم الطبيعة مقلوب

ما اكثر لعبات الالفاظ في تاريخ الافكار ؟ كم من المعاني المتنوعة ، احيانا المتعارضة جذريا ، لم ترتدِ كلمتا **طبيعة** و **عقل** ، حسب العصور ، حسب نزوة الفلسفات او الأهواء المتجابهة ؟

برك هو ، على ما يبدو ، الاول في اجراء القلب المنهجي لكلمة **طبيعة** ، الذي سيكون مدرسة عند كل الكتّاب المضادين ــ للثورة . طبيعي في نظره لا الذي يصلح لجميع البشر ، لا الذي ينتمي بالجوهر الى الطبيعة البشرية ، ما هو ملازم للطبيعة البشرية في جميع الازمنة وفي جميع الامكنة (او ، بمفردات مدرسة حالة الطبيعة ، ــ غروتيوس Grotius ، هوبز ، لوك ، روسو ، ــ ما ينتسب الى الانسان معتبَرا بشكل سابق لكل الروابط الاجتماعية) . طبيعي ، بالنسبة لبرك، ما يظهر **بوصفه نتيجة انبساط تاريخي طويل ، عادةً طويلة ؛ بقول آخر ، طبيعة تساوي تاريخ ، تجربة تاريخية ، عادة خلقها التاريخ** . برك يؤمن ويجهر بأن الاشياء لها طريقة حصول طبيعية ، يكشفها لنا التاريخ ؛ ينبغي ان ، نحن البشر، ندع الاشياء تعمل ، دون ان نتدخل فيها ؛ كل شيء سيسير على نحو افضل بكثير اذا نحن لم نتدخل : «متروكة لنفسها ، الاشياء تجد عموما النظام الذي يناسبها». هذا التصور ، المحافظ فوق كل شيء ، لا يمكن بالطبع ان يعجب الذين في نظرهم الاشياء لا تسير على نحو جيد او حتى تسير على نحو سيء جدا . هذا

التصور يمكن ان يفضي الى تقديس العادة .

انه يقدس ، على اي حال ، الارث والاحكام ــ المسبقة ؛ الصفحة البيضاء تنفّره .

الإرث . ــ لا جدال ، الطبيعة تريده . انكلترة ، في دستورها ، انما فقط طبقت على السياسة هذه المؤسسة الطبيعية الى هذا الحد . برك لا ينضب له معين هنا ، وهو غنائي ومتحمس ؛ لاسيما وأن القضية بالنسبة له هي القضاء بسيفه القاطع على تأويل لثورة ١٦٨٨ قدمه الدكتور برايس . («حقنا في صنع حكومة لانفسنا» .)

ان مجرد فكرة تشكيل حكومة جديدة تكفي لتبعث فينا القرف والاستفظاع ؛ كنا نتمنى في زمن الثورة ، وما زلنا نتمنى اليوم ان لا نكون مدينين بكل ما في حوزتنا الا لإرث اجدادنا . لقد عنينا عناية كبيرة بأن لا نطعّم ، على هذا الجسم وعلى هذه **الارومة** الوراثية ، اي طرح ليس من طبيعة النبات الاصلي ... . ان السياسة الدائمة لمملكتنا ... هي النظر الى حرياتنا وحقوقنا الاقدس على انها **إرث** ... . عندنا تاج **وراثي** ، مشيخة اميرية **وراثية** ، وغرفة عموم وشعب يحوزان **بوراثة** سلسلة طويلة من الأسلاف امتيازاتهم وحرياتهم وحريتهم ... . هذه السياسة تبدو لي نتيجة تفكير عميق ، او بالاصح النتيجة السعيدة لهذا التقليد للطبيعة الذي ، فوق التفكير بكثير ، هو الحكمة بالجوهر ... . بهذه السياسة الدستورية التي تفعل بحسب موديل الطبيعة ، ننال ، نحوز ، ننقل حكومتنا وامتيازاتنا بنفس الطريقة التي بها ننال ونحوز وننقل أملاكنا والحياة ... . ان نظمتنا السياسية هي في تناظر وفي وفاق كامل مع نظام العالم .

نظام العالم ، هو نظام الطبيعة ؛ النظمة السياسية الانكليزية هي نظمة **طبيعية**، بالقدر الذي فيه هي ثمرة التطور **التاريخي** ، غير المبلبَل من قِبل المنطق **المجرد** . لنلاحظ مرورا ان هذه المحاججة من جانب برك ، التي يثيرها ويرفعها غرور بالجزيرة (بريطانيا) رائع ، ليست بدون ان تذكّر بالمحاججة التي كان بها بوسويه يبرر المونارخية الوراثية من ذكَر الى ذكَر ؛ بهذا المعنى يمكن ان نظهر الاسقف الفرنسي الكبير كالسلف الشهير لـ «السياسة الطبيعية» .

الاحكام ــ المسبقة . ــ مبغوضة من المنطق المجرد ، دابئة روح القرن السوداء، الاحكام المسبقة هي ، بالنسبة لـ برك ، طبيعية بالقدر الذي فيه التاريخ يعللها ، وهي نتيجته . بشكل خاص ، لا شيء اكثر طبيعية من هذا الحكم ــ المسبق عن الولادة الذي عليه النبالة مؤسسة ، والذي ضده يتفاصح الثوار الفرنسيون . استنكار هؤلاء هو المصطنَع . لا شيء اكثر طبيعية من الجهد العازم لدى كل فرد

من اجل الدفاع عن حيازة الاملاك والتمييزات التي نقلت اليه . التمسك القوي بمثل هذه الأحكام ــ المسبقة كأنه غريزة (وهل ثمة اكثر طبيعة من غريزة ؟) ، تغدو الضمانة الطبيعية للاملاك ولصون المجتمعات . الطبيعة ذاتها وضعت فينا هذه الغريزة ، من اجل دفع الظلم والاستبداد ، بكلمة من اجل الدفاع عن الحرية. هكذا فان سبق ــ ظن الولادة يسهم في حماية الحرية .

ما ليس طبيعيا ، هو المساواة العزيزة على الثوار الفرنسيين . مساواة مزعومة ! تسوية مزعومة ! لماذا مزعومتان ؟ لان ، «في كل المجتمعات التي هي بالضرورة مؤلفة من طبقات مختلفة من المواطنين ، ينبغي ان يكون هناك واحدة تسيطر . لذاً فالمسوّون انما يغيرون ويقلبون نظام الاشياء الطبيعي . انهم يحمّلون بناء المجتمع فوق طاقته بوضعهم في الهواء ما كان يجب ان تضعه متانة البناء في القاعدة» . على هذا النحو يرتكب الثوار الفرنسيون اسوأ الاغتصابات ، اغتصاب صلاحيات الطبيعة التي هي وحدها تعلم ما يجب ان يكون تحت وما يجب ان يكون فوق .

> مستشار فرنسا ، في افتتاح مجلس الطبقات العامة ، قال ، على نغم زهرة بلاغة ، ان كل الاعمال جديرة بالتشريف . لو كان راغبا في ان يقول فقط ليس اي عمل شريف معيبا لما كان ذهب أبعد من الحقيقة ؛ ولكن ، اذ نقول ان كل شيء جدير بالتشريف ، نحن مجبَرون على القبول بتمييز ما . ان عمل حلاق او بائع شمع، ولا نتكلم عن أعمال اخرى كثيرة ، لا يمكن ان يكون لاحد مصدر شرف . الدولة يجب ان لا تمارس اي اضطهاد على بشر من هذه الطبقة ؛ ولكن الدولة سيكون لها ان تعاني من اضطهاد كبير جدا ، اذا كما هم ، جماعيا او فرديا ، سُمح لهم بأن يحكموها . تعتقدون انكم بعملكم هذا هزمتم حكما ــ مسبقا ، انتم مخطئون ، لقد اعلنتم الحرب على الطبيعة .

جمل كاشفة للحالة الذهنية الارستقراطية والمحافظة عند هويغ كبير ، عند ليبرالي انكليزي شهير ، معجب بمونتسكيو (الذي لم تستطع قراءته الا تثبيت تصوره عن الحرية ــ الامتياز ونفوره من كل مساواة ديمقراطية في مونارخية حرة) . sutor ne ultra crepiodam ، يؤكد المثل اللاتيني ، واضعا الحذّاء في مكانه ، معيدا اياه الى أحذيته . كذلك برك يعيد الى مكانه بائع الشموع ، طالبا منه ان لا ينشغل بغير شموعه .

وفي نفس الروح ، بخصوص التمثيل السياسي، برك يثور، آنتي ــ سييس، ضد قانون العدد وحيدا ، ضد استبعاد اية مقامات ، اي تفضيل للولادة وللملكية الوراثية . «يقال ان اربعة وعشرين مليونا من البشر يجب ان يتفوقوا على مئتي

الف ، هذا صحيح اذا كان دستور مملكة مسألة حساب ؛ هذه الطريقة في الكلام ليست غير صالحة حين تكون لها نجدة «الفانوس» من اجل مساندتها ، ولكنها مضحكة بالنسبة لرجال يستطيعون المحاكمة برباطة جأش . ارادة العدد الكبير نادرا ما تكون شيئا واحدا ؛ والفرق سيكون هائلا اذا ، بموجب ارادته ، اختار العدد الكبير اختيارا سيئا» . قطعا ، انتم ، ايها الثوار الفرنسيون ، «تبدون اليوم بالنسبة لكل شيء من الاشياء قد ضللتم عن طريق الطبيعة الكبير».

الصحيفة البيضاء . — اي تحد للطبيعة ايضا ، يا للهول ! تدمير كل شيء من اجل اعادة بناء كل شيء ذهابا من الصفر ! كيف يستطيع رجل «الوصول الى درجة من الزهو عالية بحيث لا تعود تبدو له بلاده سوى خريطة بيضاء يستطيع ان «يخربش» عليها ما طاب . . . . ان وطنيا جيدا وسياسيا حقا سينظر على الدوام في مسألة الكسب الافضل الذي يمكن ان يجنى من المواد **الموجودة** في وطنه . ميل الى المحافظة ، قدرة على التحسين : هما الصفتان اللتان يمكن ان تجعلاني احكم على جودة رجل دولة» . لا ريب ، هذا بطيء ، ذلك قد يتطلب سنوات ، و«ان اسلوبا كهذا لا يناسب جمعية تضع مجدها في تحقيق عمل القرون بأشهر قليلة» (ولا ، يجب ان نضيف ، الذين هم مستعجلون لانهم يتألمون) . هذا بطيء ، ولكنه طريقة الطبيعة «التي فيها الزمن وسيلة ضرورية» . المحافظة على ما هو **كائن** ، مجموعة مع تكيف بطيء لما هو **يصير** ، ذاك ما هو طبيعي .

ينبغي اذاً

> ان تكون العمليات بطيئة ، و ، في بعض الظروف ، دون عتبة الادراك تقريبا . اذا ، حين نعمل على مواد جامدة ، كانت الفطنة والحذر من باب الحكمة ، أفلا يصيران ، بالاحرى والاقوى ، من باب الواجب ، حين لا تكون موضوعات تكويننا وهدمنا قرميدا ولا اخشابا ، بل كائنات حية لا يمكن ان نغير فجأة حالتها واسلوب كينونتها وعاداتها بدون ان نجعل بؤساء جمهرة من كائنات اخرى مماثلة . ولكن يبدو ان الراي المهيمن في باريس هو انه لكي يصير المرء مشرّعا كاملا فان الصفات الوحيدة المطلوبة هي قلب بلا احساس وثقة لا تشك في شيء .

ما ينظر اليه السياسيون الفرنسيون على انه علامة عبقرية «جسورة وشارعة» لا يدلل الا على فقدان مؤسف للمهارة . لئن كانوا فريسة عمياء لكل صانعي المنظومات ، المغامرين والسيميائيين والتجريبيين ، معارضين للاطباء الحقيقيين ، فذلك تحديدا بسبب «استعجالهم العنيف» وتسرّعهم الاحمق و«حذرهم وعدم ثقتهم ازاء سير الطبيعة» . عدم ثقة يوازي على وجه الدقة والضبط ثقتهم في مسيرات العقل الخالص . بناة فرنسيون بلا تمييز او تبصّر ، كلِبون على تكنيس كل ما وجدوا ، القاطعات كما والصفوف ، «بوصفها انقاضا وحسب» ! انهم فعلا

من نفس بلد الحدائقيين على الطريقة الفرنسية ، «حدائقيي فرشـات الازهار ، الذين يسوّون كل شيء بعناية» .

كم هو مثير هذا النقد للحدائق على طريقة لونوتر Lenôtre ! ندرك هنا الى أي حد تروي سيكولوجية شعب من الشعوب كل ما يعمله ، تتظاهر في فاعلياته الاكثر تنوعا . بين حديقة على الطريقة الفرنسية وحديقة على الطريقة الانكليزية ، نفس الفرق الذي بين دساتير الثورة الفرنسية والدستور الانكليزي . هذا الاخير خلط ظاهر تنفتح فيه منظورات مفاجئة ورائعة (كان مونتسكيو اول من ارى ذلك جليا نيّرا) . في حين ان النظمة الفرنسية لا تظهر لـ برك الا بوصفها نتيجة وسواس مؤسف للتسوية وللجديد ، وسواس يعارضه بالاسلوب التجربي الانكليزي الذي لا يغير الا محافظا ولا يحافظ الا مغيّرا ، بالعبادة الانكليزية لـ «المؤسسات القديمة» .

قوة برك تقوم ، وقد امكن للقارىء ان يلاحظ ذلك ، على الاسترجاع المتكرر والذي لا يتعب لنفس الموضوعة مع تلوينها بشكل مختلف . عن هذه الموضوعة ، وهي مقاومة البدعة الموافقة للطبيعة ، احترام الاحكام المسبقة الموافق للطبيعة ، برك عنده ايضا صفحة ساطعة من فوران هجائي ومن تكبر انكليزي :

بفضل مقاومتنا العنيدة للبدعة ، بفضل الكسل البارد لطابعنا القومي ، ما زلنا نحمل بصمة أجدادنا . لم نفقد بعد ، على ما ارى ، طريقة تفكير القرن الرابع عشر الكريمة والرفيعة ، ولم نصبح بعد ، بفرط الحذاقات ، متوحشين . لسنا أتباع روسو ، ولا تلاميذ فولتير ؛ هلفيسيوس لم يثر بيننا ؛ ليس ملحدون وعّاظنا ولا مجانين مشرّعينا . نعلم اننا لم نقم باكتشافات ، ونعتقد انه ليس ثمة اكتشافات لتعمل في مجال الاخلاقية ؛ ولا كثير منها في مبادىء الحكم الكبرى ، ولا في الافكار عن الحرية ، فقد كانت هذه الافكار، قبل ان نكون في العالم بزمن طويل ، معروفة بقدر ما ستكون حين ستكون الارض قد رفعت قالبها فوق غرورنا وحين سيكون القبر الصامت قد ناء بقانونه على ثرثرتنا القليلة التفكر . في انكلترة ، لم نجرّد بعد من أحشائنا الطبيعية ؛ ما زلنا نحس في سريرتنا ، نعزّ ونزرع هذه العواطف الفطرية التي هي الحراس الامناء والمراقبون الفاعلون لواجباتنا ، والدعائم الحقة لكل أخلاق نبيلة ورجولية . لم نفرّغ بعد ونخيّط لنملأ كطيور متحف بالقش ، بخِرَق ، وبقصاصات من ورق شريرة وقذرة عن حقوق الانسان .

اي ازدراء ، في هذه السطور الفتاكة ، لكل التغيرات المفاجئة على الطريقة الفرنسية ، اعلان حقوق الانسان ، حذف النبالة ، الحقوق الاقطاعية ، المقاطعات،

البرلمانات ، تأميم املاك الاكليروس ، الخ ... ! مع اي غرور يعارضها برك بالمحافظة الانكليزية المؤسسة على احترام الطبيعة ، اي ، لنكرر ذلك ، تطور التاريخ في انبساطه الطبيعي !

عقل عام او عقل سياسي

هنا استخدام جديد لاسلوب قلب حجة الخصم : ضد عقلهم ، يضع برك عقله . هذا ايضا شكل جديد من رد الاعتبار للحكم ــ المسبق . نحن ، الانكليز ، يكتب برك ، «نخاف من تعريض البشر لان لا يعيشوا ويتعاملوا الا مع الرصيد الخاص من عقل الذي يملكه كل واحد ، لاننا نشتبه بأن هذا الرأسمال ضعيف في كل فرد» . هذا العقل الفردي ، الذي امامه روح راكع ، برك لا ينفيه ، ولكن يمنحه قليلا من الفعالية . بمفرده ، انه رأسمال ضعيف ، والبشر يفعلون احسن بكثير «اذا ما جنوا فائدة مجتمعين من البنك العام ومن راسمال الامم والقرون» ، بتعبير آخر من **الاحكام ــ المسبقة العامة** ، الموروثة من الاجداد . توجد ، في لحظة من الزمن معطاة ، بالنسبة لأمة معطاة ، مجموعة من الاحكام ــ المسبقة عليها تعيش هذه الامة . جيد للمفكرين المجرّدين ، على الطريقة الفرنسية ، أن يبغضوا الحكم ــ المسبق ، ان ينفوه ، ان يطاردوه ، لان العقل الفردي ، الذي لم ينتخبه، مصدوم به . الانكليز يحاكمون على نحو آخر :

> كثير من مفكرينا ، بدلا من ان ينفوا الاحكام ــ المسبقة العامة نفيا ، يستخدمون كل فطانتهم في اكتشاف الحكمة المخفية التي تهيمن في كل منها . اذا توصلوا الى هدفهم ، ونادرا ما يخطئونه ، فهم يفكرون انه لاكثر حكمة بكثير ان نحافظ على الحكم ــ المسبق مع راسمال ــ العقل الذي هو يحتوي عليه من ان نتجرد من هذا الذي لا يعتبرونه سوى اللباس لنترك بعد ذلك العقل عاريا بالتمام؛ لانهم يفكرون ان حكما مسبقا ، بما فيه عقله ــ علته ، عنده باعث يعطي هذا العقل عملا وجاذب يعطيه دواما .

الحكم المسبَق ، لباس عقل مخبّأ ! هذا الرد للاعتبار ، المؤثر ، سيذهل تين Taine الذي ، في كتابه **الاصول** ، سيردد : الحكم ــ المسبق «ضرب من عقل يجهل نفسه» ، «كما الغريزة شكل للعقل اعمى» . وبارس Barrès ، تلميذ تين ، سيستخلص من ذلك صورة مشهورة : «لنرتدِ أحكامنا ــ المسبقة ، فهي تبقينا دافئين» .

بقدر ما الفعل الفردي غير فعال ، متردد ، امام القرارات الخطيرة ، بقدر ذلك العقل الجماعي ، المتبلور في أحكام ــ مسبقة ، فعال وأمين . يخلق منعكسات ،

يثني النفس على الفعل في اتجاه ما هو اتجاه الفضيلة ، كما عادات بدنية طويلة وجيدة تثني الجسد في اتجاه حركة مرغوبة : «الحكم المسبّق ذو اجتهاد مفاجىء في المناسبة ؛ يحزم ، قبل اي شيء ، الروح على اتباع طريق الحكمة والفضيلة ، بثبات ، ولا يترك البشر مترددين في لحظة القرار ؛ لا يتخلى عنهم لخطر الريبية ، الشك ، واللاقرار» .

هنا ايضا ، سيكون تين Taine صدى مباشرا لـ برك ، حين سيجهر بقوة بأن مذهبا من المذاهب لا يصير فاعلا ، لا يتحول الى نابض عمل الا بأن يصير «أعمى» ، بأن ينودع في الاذهان في حالة «معتقد جاهز ، عادة متخذة ، ميل متنام» ، بأن يغادر مستوى الفهم والذكاء الرفيع وغير الفعال من اجل مستوى الارادة . هكذا فان هذا العقل العام ، ثمرة التراكم الطويل لتجارب الاموات الذين سبقونا (**الارض والاموات** ، سيقول بارس Barrès) ، بعيدا عن ان يكون مغتصبا ، يتقدم بطبيعة الحال على العقل المجرّد وحسب ، كما تتقدم «شقيقة بكر» . انطلاقا من برك ينوجد بالتالي ، منشادا واحد من الاعمدة الاقوى ، الاكثر قيمة ، لمساندة التصور التقليدوي او المحافظ للمجتمع السياسي .

★★★

كان لنجاح الكتاب ان يكون عجيبا ؛ احدى عشرة طبعة في اقل من اثني عشرة شهرا ، ثلاثون الف نسخة مباعة حتى تاريخ وفاة برك في تموز ١٧٩٧ .

في انكلترة ، قبل **التاملات** ، كانت الثورة الفرنسية توحي بتعاطف ما ، فيه بعض الدهشة وقلق غامض ، تخوف غامض لا يكاد يعي نفسه . رئيس الوزراء بِت Pitt ، وهو قبل كل شيء رجل دولة ، كان يحسب العواقب التي يمكن ان تكون لهزة كهذه على دولة كبيرة مزاحمة ، ولا يعرب في العلن او في مجلسه الخاص الا عن مشاعر أقرب الى التأييد . ثم ، حكومة لويس السادس عشر هذه الآخذة في الانهيار تحت ضربات المؤسسين ألم تكن قد ساعدت المستوطنين الاميركيين على زعزعة الوصاية الانكليزية ؛ فلِمِ الاسف عليها اكثر من اللازم ؟ «حالة ذهنية سهلة» (يقول لورد مورلي Lord Morley ، وضع نهايـة لها كتاب برك : «بضربة ، يشطر الامة الى شطرين : في الجهتين يعجل ويسرّع الرأي» . كل الفئات الوثيقة المحافظة ، التوري Tories ، التي كان الهويغ الكبير برك في مناسبات كثيرة دابّتها السوداء ، تجمعت بحماس خلف الراية الجديدة التي كان ينشرها بكل هذا السطوع . جورج الثالث ، التسلطي ، قفز قفزات فرح : كتاب ممتاز يجب ان يقراه كل جنتلمان ، كان يصرخ لكل آت . الانكليز ذوو الرأي المحب للفرنسيين اكثر مما يجوز ، الليبراليون المتقدمون ، المدعوون باحتقار «راديكاليين» او «ديمقراطيين» ، غدوا مشبوهين لقسم من الشعب ؛ الجمهور اضرم النار في منزل احدهم ، بريستلي Priestley . بيد ان اصدقاء برك كانوا يوبّخون : الا يحمر وجهه من نجاح كهذا ؟ الا يخجل من زبائنه المجدد ؟ فوكس

Fox لم يكن يخفي عدم موافقته ؛ برك قطع علنا معه ، في ايار ١٧٩١ ، خلال مشهد دراماتيكي في غرفة العموم : «صداقتنا انتهت» .

في القارة ، كانت **التأملات** ستصبح كتاب تعليم الرجعيـــة المضادة للثورة . كاترين روسيا ، صديقة «الفلاسفة» فولتير وديدرو القديمة ، وجهت تهانيهـــا للمؤلف الذي كان يفضحهم بوصفهم اشرارا عامِّين . كانت ذات يوم قد لاحظت لديدرو انه يكتب على الورق «الذي يتحمل كل شيء» ، بينما هي ، الامبراطورة ، تشتغل «على الجلد البشري الذي هو على نحو آخر تماما حساس وصعب» . ابتداء من سقوط الباستيل ، لم يعد الامر «ورقا» غير مؤذ ، بل اصبح عملا متفجـــرا وقارضا من الفرنسيين على الجلد البشري ؛ وكاترين ، المستبدة المستنيرة ، لم تعد في هذه اللعبة ؛ وبرك يصير في نظرها محسنا عاما . وفد من النبلاء الفرنسيين المهاجرين في بروكسل أرسل الى صاحب **التأملات** ، عن طريق ابنه ريتشارد ، شهادة «الاعجاب والعرفان بالجميل اللذين الهمهما مؤلّفه لجميـــع الفرنسيين الصادقي التعلق بدينهم ، بملكهم ، وبقوانين المملكة» .

على منبر الجمعية الوطنية ، في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٧٩١ ، ميرابو ، الذي كان قد عرف برك في انكلترة بل وكان ضيفه في مَلكه في بيكونسفيلد ، اعرب عن اسفه على «هذا المنشور الصادر عن عضو من العموم اكتأب كل معجب بالمواهب الكبيرة بأن عدّه في عداد المحقرين المتطيرين للعقل البشري» .

اما برك ، غير قادر على الانحناء امام هجوم اصدقائه القدامى ، فقد كـــان يتصلب اكثر في حقد متزايد الوحشية والعمـــى ضد الثورة . كاسانـــدر Cassandre (٥) مرّا ومسعورا ، كان يفضح الويلات القادمة التي في بطنها ، ويطلب ضدها سياسة حزام صحي . كانت الاحداث تتحول في الاتجاه الذي كان ينذر به ، وكانت تعطيه حقا ، حقا متعاظما في أعين الشعب الانكليزي . بعد يوم ١٠ آب ١٧٩٢ وسقوط العرش جاء اعدام لويس السادس عشر ، الذي أثار في قلب انكلترة بأسرها نفس موج الغضب ، نفس العطش الى القصاص ، اللذين كانا يملآن قلب برك منذ سنتين . فوكس تخلت عنه غالبية حزب الهويغ ، بِت كان عليه ان يسلم للتيار العام ، وانكلترة دخلت في الحرب الاوروبية . كانت أحـــر أمنية لـ برك قد تحققت : قبل وفاته بشهور ، في عيد الميلاد سنة ١٧٩٦ ، استقبل في بيكونسفيلد محاميا ، اسمه ماك انتوش Mae - intosh ، كان قد كتب ، ردا على **التأملات** ، الـ Vindicie Gallice — دفاع عن فرنسا — وهو الان يقرّع ذاته ويعلن ندمه . امامه جدد لعنته لـ«هذه الجيفة» That putrid Carcase هذه الأم لكلّ الشر ، الثورة الفرنسية» .

---

٥ — كاساندر Cassandre : حسب الاسطورة ، نالت من أبولون هبة التنبؤ بالمستقبل شريطة ان تسلّم له ولكنها تهربت ، فرسم الاله ان لا يصدق احد نبوءاتها . — هذا العلَم بات (في اللغة الفرنسية) اسما شائعا يدل على الأذهان البصيرة التي لا تلاقي سوى غير المصدّقين .

برك ، الايرلندي المستعر ، الذي امكن لـ آ. سوريل ان يعرّفه بأنه الرجل « الاكثر «جزائرية» في الممالك الثلاث » ، كان في حاصل الامر ، في مؤلّفه الشهير ، حزر وترجم بشكل عجيب ، مستبقا اياها ، عن مشاعر الانكليز العميقة أمام الثورة ، وهي ظاهرة من البر الاوروبي لا يمكن قطعا ان تفهَم . كان صوت انكلترة آنذاك ، التي كانت قد تغيرت كثيرا منذ نصف قرن ، والتي كانت ، لاسيما تحت دفع الوعظ الخارق الذي قام به وِسلي Wesley (٦) ، قد عادت ، في كتلتها الجماهيرية ، وصارت ديِّنة (والطبقات القائدة كانت قد تبعت) . في انكلترة هذه ، لم تعد سارية «الافكار الانكليزية» وقد صارت «أفكارا فرنسية»، لم يعودوا يتعرفون عليها وكانت توحي بحذر وعدم ثقة متزايدين .

أقل غرابة اذاً ، في حاصل الامور ، مما كان يبدو للوهلة الاولى ، واقع ان انكلترة ، وطن لوك ، قد انتجت اول كتاب في الفلسفة السياسية منتصب مباشرة ضد الفلسفة السياسية ــ اللوكية بالتمام ــ التي كانت الثورة الفرنسية آتية منها. مع وضعنا جانبا المغالاة وفرط التلوين ، لقد كانت فعلا ، في ١٧٩٠ ، نتاجا من الارض ألبريطانية ، هذه **التاملات** لـ برك ، التي كانت بمثابة منعطف رئيسي في تاريخ الادب السياسي . بفضلها باتت توجد ترسانة رائعة منها سيغرف اسلحتهم كل اعداء روح القرن ــ الروح المناهض للتاريخية ، المجرّد ، العقلاني ، والفردوي، الذي هو روح القرن !

---

٦ ــ وِسلي Wesley (١٧٠٣ ــ ١٧٩١) لاهوتي ومبشر بروتستانتي انكليزي ، مؤسس الميثودية او الطريقية (تأكيد حرية الانسان ، وخلاصه بشهادة الروح القدس) ، لقّب بـ «رسول الجماهير» ... الميثودية اليوم منتشرة في الولايات المتحدة وفي بلدان اخرى عديدة .

الفصل الثاني

الـ « خطب الى الأمة الألمانية »
لـ فيشته (١٨٠٧ — ١٨٠٨)

«فيشته ، ابو الوحدة الالمانية ، وابن الثورة ونابوليون » .

بوتران دو جوفنيل

ان خسارة الاستقلال تجرّ على أمة من الامم استحالة التدخل في سير الزمن وتقرير احداثه حسب مشيئتها . طالما لم تخرج من هذه الوضعية ، فلن تكون هي التي ستتصرف بزمنها ولا بذاتها ، بل ستكون الدولة الاجنبية ، السيدة على مصائرها ؛ لن يكون لها، اعتبارا من تلك اللحظة ، تاريخ شخصي حقيقي ... . انها لن تخرج من هذه الحالة الا بشرط صريح هو رؤية ميلاد **عالم جديد** يَسم خلقه بالنسبة لها أصل عصر جديد ، عصر شخصي ، تملؤه بتطورها الخاص . ولكن بما ان الامة المعنية خاضعة لدولة اجنبية ، فان هذا العالم الجديد يجب ان يكون بحيث يبقى مجهولا من هذه

الدولة ولا يثير بتاتا حسدها ؛ اكثر من ذلك ...

من يتكلم هكذا ، في يوم الاحد ١٣–١٢–١٨٠٧ ، بعد سنة وشهرين من كارثة يينا Tena (١) ، في المدرّج الكبير لاكاديمية برلين ؟ رجل في الخامسة والاربعين ، قوي ومربوع ، ملامحه عازمة ، نظرته صارمة ومحرقة . نطقه بلا فن، ولكنه ملتهب : انه سيل ، عاصفة . هذا الرجل يدعى يوهان غوتليب فيشته Fichte . استاذ فلسفة ، تلميذ مستقل لـ كنط Kant ، انه شهير بقدر ما هو موضع نقاش بسبب أفكاره وموضع خشية بسبب طابعه الكامل العنيد ...

***

هذه الافكار وهذه الطبيعة كانت قد كلفته ، الى هنا ، خيبات عديدة . كان قد خسر ، في ١٧٩٩ ، كرسيه في يينا ، واضطر الى التثبت في برلين . بدون مال ولا منصب ، كان يبقى مليئا بالعزم والامل ، لا يرى في الذي كان يحصل له سوى مقاومة اولى لفعل روحه القوي ، ويقبل النضال . كان يكتب : «أي رجل قوي الفعل على مواطنيه عرف ذات يوم نصيبا آخر ؟ لنراهن انني قبل مضي عشر سنوات سأكون قد استحققت احترامات الشعب الالماني بالاجماع» (تموز ١٧٩٩).
كان لتوّه قد حصل ، في سنة ١٨٠٥ ، من الحكومة البروسية ، على مركز في مدينة إرلانجن ، حين كانت تنفجر الحرب بين نابوليون وبروسيا . كانت تنتهي ، في غضون اسابيع قليلة ، بأتم هزيمة مُني بها ذات يوم شعب من الشعوب .
فيشته آنذاك يهرب من الاحتلال الفرنسي ويتخلى عن كرسيه في إرلانجن ليلتحق بكونيجسبرغ ، حيث يدرس ماكيافل . انه ناضج ، في هذه الساعة ، من

---

١ – قبل **معركة يينا** (١٨٠٦) ، كان نابوليون قد اعاد تنظيم المانيا : انهى «الامبراطورية المقدسة»، اقام اتحاد الراين (من ١٥ دولة في جنوب وغرب المانيا) تحت حمايته ، بدأ تصفية الاقطاعية في منطقة الراين ، استبعد بروسيا واخرج النمسا من المانيا . ملكة بروسيا دفعت زوجها الى الحرب، فشكلت بروسيا التحالف الرابع مع روسيا وانكلترة ، وكان جيشها ذا سمعة عالية ، ولكنه انهار بسرعة مذهلة امام جيش نابوليون (١٨٠٦ : معركة يينا)، ثم جاء صلح تيلسيت (١٨٠٧) بين نابوليون وقيصر روسيا الذي كرس سيادة نابوليون في اوروبا وأذلّ الامة الالمانية وبروسيا (سلخ ممالكها غربي نهر الالب مع تنصيب احد أشقاء نابوليون على عرش «مملكة فستفاليا» الجديدة » وسلخ اقاليمها البولونية واقامة «دوقية وارصو الكبرى») . – نابوليون لعب دورا تقدميا برجوازيا وقوميا (خفض عدد الدول ، صفّى الدول الصغرى) في تاريخ المانيا . هيغل وغوته وآخرون وضعوا أملهم فيه . بعد ١٨٠٧ ، بروسيا المهانة والراكعة ، تنظم نفسها ، تنهض ، تستعد ، تحقق اصلاحات برلجوازية جزئية (اجتماعية وعسكرية) ، تنقل عن العدو المنتصر » عن الثورة ونابوليون .

اجل قراءة **الامير** و **الخطب** ؛ من اجل القبول ، امام مشهد بروسيا المسحوقة ، بأن الحق ليس ، في المضمار الدولي ، الا سياسة القوة ؛ بأن علة الدولة مستغنية عن العلل ، بأن الغاية ، اي السلامة العامة ، تحرير الوطن من سيطرة اجنبية ، تبرر الوسائل . ماذا اصبح العطش الانساني لهذا «الكوسموبوليتي الكامل» ، لهذا المعجب بالفرنسيين وبثورتهم الكبرى ؟ في ١٨٠٤ ايضا ، كان يقول علنا ان وطن المسيحي المتمدن حقا في اوروبا هو في كل عصر الدولة الاوروبية الموجودة على راس المدنية (كان يفكر بفرنسا) ؛ ان الروح ، اذ لا يعنى كثيرا بأحوال وتقلبات الدول ، فهو يندار بشكل لا يقهر الى الجهة التي فيها يلمع النور ؛ ان المرء ، محركا هكذا بحس كوسموبوليتي يستطيع ان يشاهد براحة وهدوء انهيارات التاريخ . وها هو فيشته الان قد نشفه عطش وطني لا يتركه في راحة لاسيما وانه في تصوره لواجبات الفيلسوف لم يفصل ذات يوم واجب الفعل عن واجب التفكير .

وحين ، في اواخر ١٨٠٧ ، حبا بزوجته التي بقيت في برلين ، يحزم امره على العودة الى العاصمة البروسية التي ما زالت محتلة ، انه من جميع الحيثيات مسلح من اجل الكفاح الوطني . يستطيع اجل (كما سيلاحظ ل. ليفي برول **L. Lévy Bruhl**) ان يسعى «بدافع رادع نزيه لفيلسوف» ليبرهن للآخرين وليبرهن لنفسه انه لا يتناقض قط بتبشيره الان بالوطنية بدلا من الكوسموبوليتية ــ اذ ان الاولى هي ، على ما يبدو ، المرحلة الضرورية نحو الثانية . كيف يمكن الشك في انه قد حدث عنده «طرد متصالب» ؛ ان البشرية انتقلت الى المستوى الثاني والوطن الالماني الى المستوى الاول ؛ ان عطش فيشته قد تغير موضوعه ؟

ولكن نخطىء كثيرا اذا اعتقدنا ان الفيلسوف ما كان له الا ان يظهر في برلين حتى آتيا اليه طابورا من المثقفين ، لا ينتظرون سوى اشارة المقاومة الوطنية . كانت الهيبة العسكرية والشخصية لنابوليون قد كنست عند العديد من المغلوبين العزة القومية . ما باله يأتي ليعكر بخطب عاصفة عيد متملقي المنتصرين ، هذا الـ فيشته المغرور والمصنوع قطعة واحدة ! كان يلزمه مرة اخرى ان يضع نفسه في المقدمة ، ان يثير الاحساد الجامعية . ما دخله ؟ لماذا هو ؟ حازرا الاعتراض الحامض ، لعل فيشته يجيب بهذه المفردات : «ان ايا كان من بين الوف الكتاب الالمان الا يستطيع المطالبة بنفس الحق ؟ ومع ذلك ان احدا لا يفعل ، وانت وحدك تضع نفسك في المقدمة . جوابي بسيط : كان لكل نفس الحق ، وانا لا افعل الا لان احدا لم يفعل قبلي ... . يلزم دائما اول ؛ واي يستطيع يجب عليه ان يكون هذا الاول » .

أصدقاء فيشته ، من جهتهم ، كانوا يرتجفون من اجله . ان رد فعل غاضبا وشرسا كان يخشى من جانب سلطات الاحتلال . في هذا الشتاء ١٨٠٧ ــ ١٨٠٨ الذي خلاله القيت **الخطب** الاربعة عشر ، كانت الألوية الفرنسية تمر ــ كان ذلك يوم الاحد ــ تحت نوافذ الاكاديمية ، وطبولها تغطي احيانا صوت الخطيب . كان يمكن ان يختلط جواسيس بجمهور المستمعين . نابوليون لم يكن يمزح : في

بورمبرغ ، صاحب المكتبة بالم Palm كان قد أعدم رميا بالرصاص لنشره كراسات مضادة للفرنسيين . فيخته كان يعلم . «انني مع ذلك اعمل ما اعتقد انه واجبي » .

أخطأ كانوا يقلقون . السلطات المحتلة لم تعط انتباها لخطابات كان **رقيب الامبراطورية الفرنسية** يشير اليها بإهمال على انها «دروس علنية يلقيها في برلين عن **تحسين التربية** بروفسور الماني شهير» .

***

الاجمل ان هذه العنونة كانت صحيحة . فاللحن الاساسي **للخطب** كان التربية . «العالم الجديد» ، الذي يبشر به فيشته في مطلع **خطابه** الاول في جمل قرأناها اعلاه ، العالم الجديد الذي منه سيأتي الخلاص للأمة الالمانية ، يجب أن يولد بالتحويل المطلق لنظمة التربية السارية آنذاك . «لقد خسرنا كل شيء ، يقول فيشته ، ولكن تبقى لنا التربية» .

تربية جديدة هي — حسب الخط العام لفلسفة فيشته المثالية — ستحرر «الفكرة» ، «المثال» ، l'idée ، واقعا حقا ، «ارضا موعودة للبشرية» ؛ ستؤمّن بوضوح الفهم طهر الارادة ؛ ستطرد الانانية ، مصدر كل مصائب المانيا . اذ ان التربية القديمة ، حسب فيشته ، فقدت صفتها وافتضحت تماما . انها تنادي الذاكرة فقط : تستطيع ان تؤثثها

> ببعض الكلمات ، بعض العبارات ، تستطيع ان تطبع المخيلة الباردة والفاقدة الحس ببضع صور غامضة وشاحبة ، ولكنها لم تنجح ذات يوم في تصوير النظام الاخلاقي للعالم بما يكفي من الحرارة لايقاظ الحب الملتهب عند التلاميذ ، الحنين الى هذا النظام الاخلاقي ، هذا الهيجان العميق الذي امامه تختفي الانانية مثل الاوراق الميتة امام عصف الريح . بالتالي فان هذه التربية لم تنفذ في يوم من الايام **حتى الجذر الواقعي للحياة النفسية والفيزية** . وهذا الجذر، المهمل ... ، نبت كيفما كان .

التربية القديمة لم ترشد الطفل الا بأمل او خشية نتائج مادية . بكلمة ، لم تكن ذات يوم ، وما كان يمكن ان تكون «فن تشكيل رجال» . لاسيما وانها لم تكن تعط الا لأقلية صغيرة جدا ، كانت تدعى بسبب ذلك عينه **الطبقات المثقفة** .

التربية الجديدة ، بالعكس ، ستتوجه الى الغالبية العظمى ، الى **الشعب** . تربية لا «شعبية» ، بل «قومية» . ستكون فن تشكيل رجال . ستنفذ حتى الجذر الواقعي للحياة النفسية والفيزية . ستجعل الثقافة لا خيرا ما أيا كان ،

خارجيا للانسان ، بل عنصرا مكوّنا للانسان نفسه . ستبسط حقا عند التلميذ نشاط الروح الخلاق ، وفي الوقت نفسه عدا ذلك القابليات الجسدية والمهارة في الاعمال اليدوية . ستخلق عنده ارادة يمكن التسليم لها بكل اطمئنان : سيُسَر في الحق والخير معتبَرين في ذاتيهما . ستعطيه الحس الديني الحق بتعليمه أن «يعتبر ويحترم حياته هو وأية حياة اخرى روحية بوصفها حلقة أزلية في سلسلة وحي الحياة الإلهية» . وكل هذه المفاهيم ، الدينية ، الاخلاقية ، الفكرية ، بعيدا عن ان تبقى «باردة وميتة» ، ستجد في كل لحظة تعبيرها في حياة التلميذ الواقعية . كل من معارفه ستصبح حية ما ان تكون الحياة «بحاجة اليها» .

ولكن نتائج كهذه تتطلب بعض الشروط . اكثرها ضرورة هو ان يشكل الاطفال اشتراكا على حدة ، جماعة مستقلة ، بلا تماس مع مجتمع الكبار الذين أفسدتهم الانانية . معلموهم ، بالطبع ، يعيشون معهم ، ولكن الاهل مفصولون عنهم بعناية . الجنسان ينشآن معا . في حضن هذه الجماعة المقلّصة والمعزولة بغيرة يمكن تحويل الاطفال الى رجال ، عندهم تكون انحفرت اوتوماتيكيا صورة النظام الاجتماعي المشتركي .

فمَن ، ان ليس **الدولة** ، يستطيع ان يضع موضع التطبيق مخططا جديدا للتربية «الفاعلة» ــ يربطه فيشته تصريحا ، فيما عدا تغييرات مهمة ، ب بستالوزي Pestalozzi ، المربي السويسري الذائع الصيت ، الذي كان هو نفسه مدينا بالكثير الى **اميل روسو** ؟ الدولة ، لان الاهل سيقاومون ولانه سيكون من الواجب ممارسة ارغام ، على الاقل من اجل تربية الجيل الاول : من ثم ، وقد اثمرت التربية الجديدة ثمارها الاولى ، لن تكون هناك مقاومة . الدولة ، لان الامر سيحتاج الى موارد هائلة لمواجهة إنفاقات هائلة . ولكن هل يمكن ان يكون ثمة توظيف اكثر فائدة ؟ الدولة ستكسب فيه أجيالا مكوَّنة على حب الجماعة ، على الكدح ، على الانضباط الخلقي ؛ ستسترجع إنفاقاتها الاولى «مضاعفة مئة ضعف».

***

بعد كل شيء ــ ربما سيفكر القارىء ــ ان السلطات الفرنسية لم تكن مخطئة حين لم تأخذ مأخذ المأساة ، ولا حتى مأخذ الجد ، هذه الاحلام البيداغوجية اللطيفة عدا ذلك . الفلاسفة ، منذ أفلاطون ، هكذا كانوا يحلمون . لمَ يكون اداريون ، سياسيون ، قلقوا ؟

لكن ! ها هي ، عند السطور الاولى من **الخطاب** الرابع (فالثاني والثالث مكرسان لعرض التربية الجديدة ، الذي يُستأنف عدا ذلك ويكمل في خطب لاحقة) ، ها هي المفاجأة المسرحية ، الالتقاء غير المنتظَر بين تيارين ، البيداغوجي والقومي . البيداغوجيا الاكثر منهجية ونظمية تاتي لملاقاة وتضخيم القوموية الاكثر استبعادية وطردية ، الموَّهة بشكل سيء تحت الرداءات الفلسفية لوطني جُرح في قلبه . بالفعل نقرأ ان «الثقافة المعنية» ، التربية الجديدة ، الالماني

وحده ، معتبَرا «في ذاته ولذاته» ، أهل لتلقيها ، «دون سائر الامم الاوروبية» ، وذلك بموجب **طابع اساسي** سري خفي !

هذا الطابع الاساسي هو التالي . الالماني ، الذي بقي في منطقة الاقامة الاولى للقبائل الجرمانية التي فتحت اوروبا المرَومَنة ، قد احتفظ « **لغته** . لغته : اي شيء أول ، **بدائي** وشخصي ، هو «منذ الصوت الاول المنطوق ، لم ينقطع يوما عن ان ينبع من الحياة المشتركة الحقيقية ، دون ان يقبل عنصرا أيا كان ليس تعبير فكرة شخصية للشعب ومتسقة بانسجام بالغ مع سائر افكار الامة» . على العكس من ذلك ، القبائل الجرمانية الاخرى ، في فرنسا ، في ايطاليا ، في اسبانيا ، في كل مكان ، تبنئوا لغات جديدة ، لاتينية الاصل ، لا ريب عدلوها شيئا فشيئا على طريقتهم ، ولكنها مع ذلك كانت شيئا غريبا . هذه اللغات النيو ـ لاتينية لا تعيش الا على السطح ؛ في العمق انها ميتة ؛ «بقبولها دائرة الافكار الجديدة وبقطعها مع الدائرة القديمة» ، انقطعت هي نفسها من جذورها المحيية . الشعوب التي تتكلمها ليس عندها ، بالحقيقة ، «لغة أم» . كل الفرق بين الالماني والآخرين يكمن اذاً في هذا التعارض : «**الحياة** من جهة ، **الموت** من الجهة الاخرى» . ليست المسألة مقارنة القيمة الداخلية للغة الالمانية وقيمة اللغات الاخرى ، بل بالفعل الحياة والموت : هل نستطيع ، بحقيقة الكلام ، المقارنة ؟ «الاولى تتفوق بما لا حد له على الثاني» . لدرجة ان الالماني ، بمجرد كونه يتكلم لغة حية حقا ، أقدر على فهم اللاتينية، التي هي لغة ميتة ولكنها لغة أم ، مما يفهمها النيو ـ لاتيني ، المحبوس في لغته التي بلا جذور . ومالكا اللاتينية بمزيد من العمق ، له بالضربة نفسها ان يملك لغة نيو ـ لاتينية على نحو أفضل مما يملكها هذا الذي يتكلمها هو نفسه . «بالتالي فان الالماني ، بمجرد ان يستطيع الاستفادة قليلا من كل هذه المزايا ، سيسيطر دائما على الاجنبي وسيفهمه بالتمام ، اكثر مما يفهم الاجنبي نفسه» .

تأكيدات خارقة ! تحدٍ خارق ، متغطرس ، ولكن مؤثر ايضا وغير خال من عظمة ، يطلقه على ارض الروح المهزوم التافه للمنتصر المكلّل بالهيبة ، على سبيل «التعويض» (كما يقول المحللون النفسيون) . شارل موراس Ch. Maurras ، الحامض والمعجَب معا ، سيكون له هذا التعليق : «النقد جميل فورانا وعمى طوعيا . يا له من استفظاع للروح اللاتيني ! يا لها من قوة في وسم روح العرقين! احداهما الموت والاخرى الحياة» .

ذاك هو هذا «الطابع الاساسي» السري . عواقبه لا تعَدّ ، اذا صدّقنا فيشته ، وسيدرسها الان ، سينبشها في مجموعها عبر **الخطب** ٥ الى ٨ . في عمله هذا يستلهم بلا انقطاع هيردِ herder (٢) ، الذي ، وهو يعتقد نفسه في

---

٢ ـ هيردِر herder (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) مفكر الماني كبير ، وطني وإنساني ، احد رواد نهوض المانيا بعد تأخر ورقاد طويلين .

النصف الثاني من القرن الثامن عشر اكثر المفكرين كوسموبوليتية ، كان قد حرر كل ملامح الالماني في ذاته ، كل سمات المانيا مثالية صائرة الى رسالة تاريخية عظيمة .

«عند الشعب الذي لغته حية» ، ـ عند الالماني ، ـ الثقافة الذهنية تدخل الحياة بأسرها ؛ عند الآخرين ، ـ غير الالمان ، ـ ثقافة الروح والحياة منفصلتان جذريا . بموجب نفس المبدأ ، الاول يأخذ بعمق على مأخذ الجد كل ما يتصل بثقافة الروح ؛ بالنسبة للآخرين هذا ليس سوى تسلية عالية . عند الأول روح وخلق ؛ عند الآخرين ، لا شيء سوى الروح de l'ésprit . كذلك الاول غيور ومجتهد في كل الامور ، «يعطي نفسه مشقة» ؛ الآخرون يستسلمون لـ «طبيعتهم السعيدة » .

> باختصار ، ان العبقرية الغريبة ستنثر أزهارا في دروب العصر القديم المطروقة وستنسج رداء لطيفا لحكمة الحياة ، ستأخذه بسهولة على انه فلسفة ؛ الروح الالماني بالعكس سيفتح مناجم جديدة ؛ سيُدخل الضوء والنهار في الاعماق المظلمة وسيفجّر كتلا جبارة من أفكار ستستخدمها الاجيال المقبلة لتبني لنفسها مساكن . العبقرية الاجنبية ستكون الجنيّة المحبّبة ... ، النحلة التي ، ماهرة ومجدّدة ، ستجمع العسل ... . ولكن الروح الالماني سيكون النسر الذي ، بجناح جبار ، يرفع جسمه الثقيل ، وبطيران قوي ومدرّب طويلا ، يصعد اعلى فأعلى للاقتراب من الشمس التي سحره تأملها .

غضب فيشته ، بالتالي ، ضد **الهوس بالاجنبي** لدى مواطنيه ، ضد هذا الهوس الاحمق الذي يدفعهم الى محاكاة الاجنبي ، النيو ـ لاتيني ؛ الى الاعجاب بالادب الفرنسي ، تحت ذريعة انه «رفيع متميز» ، (هذا الادب الفرنسي لا يذكره فيشته بالاسم ولكن يتعرف عليه) ، وهو أدب ميت بأزهار اصطناعية ، في متناول الطبقات المثقفة فقط .

اذ هي ذي عاقبة جديدة لـ «الطابع الاساسي» . عند الشعب الالماني ، كتلة الامة قابلة للثقافة . عند الآخرين ، يوجد بين الطبقات المثقفة والشعب «حاجز محكم السد» ؛ الشعب ، بالنسبة لهذه الطبقات ، ليس سوى أداة عمياء في خدمة صلفها وتفوّقها .

عواقب اخرى . **وحده** الشعب الالماني استطاع ان يحمل «روحا دينيا بشكل جدي وفعلي في هذه الحياة الدنيا» : ولهذا السبب كان العمل العظيم الاخير الذي حققه الالمان هو الاصلاح الذي قام به لوثر ، «الالماني بالأولية والامتياز» . ولوثر قد خاطب الجميع ، مجموع الامة الالمانية . و«مثل خط من البارود» استولى الانشغال بخلاص النفس على الشعب بأسره . **وحده** ايضا ، الشعب

الالماني (انظروا لايبنتس Leibniz استطاع ان يوفق الدين والفلسفة ، وهما في غير المانيا شقيقتان عدوتان . عبثا طرق الاجنبي معضلة اقامة الدولة الكاملة، الدولة العقلية ، وهي معضلة مطروحة منذ افلاطون . الاجنبي اضطر الى تركها. ذلك ان «الدولة العقلية لا تدع نفسها قط تشاد بشكل مصطنع مع مواد بناء اية كانت ؛ ينبغي البدء بتكوين وتشكيل الشعب بغية هذه الدولة . **وحدها** ستستطيع خلق الدولة الكاملة الامة التي ، بالتطبيق الفعلي ، ستكون حلت معضلة تربية الانسان الكامل» . بما ان الالماني ، في الازمنة الحديثة ، هو الذي انجز دائما تقدم الثقافة ، وبما ان علاقة وثيقة قد وجدت على الدوام بين الامة الالمانية وتقدم الجنس البشري ، فكيف نشك في ان على المانيا ايضا يقع تحقيق هذه التربية الجديدة ، التي عليها في نهاية الحساب يتوقف كل شيء ؟ «ما ان تحل هذه المسألة حتى لا تكون سائر شؤون البشرية سوى لعبة اطفال» .

ولكن **الطابع الاساسي** لم يستنفد بعد كل فضيلته ، ولا استنفدت فلسفة فيشته ، المطبقة على السياسة ، كل امكاناتها العالية .

في الحاصل ، الطابع الاساسي مفاده هذا ، الا وهو ان الامة الالمانية ، التي لم تنفصل عن أرومتها الاولى كما فصلت القبائل الجرمانية الاخرى ، تؤلف «عرقا اول ، **شعبا يحق له ان يعلن نفسه بشكل خالص وبسيط الشعب**» ، بمعارضة تلك القبائل . فيشته يلحظ ان **دويتش** ، deutsch ، الماني ، مأخوذا في معناه الحرفي ، يعني اولا «عامي او شعبي» . نعم ، ـ يصرخ فيشته في مطلع **الخطاب** الثامن (وعنوانه : **الشعب في اعلى مدلول للكلمة . الوطنية**) ـ ، من الجلي ان الالماني وحده ، اي الانسان **الاولي او البدائي** ، الانسان الذي ليس مجمدا في عقائد عسفية ، له واقعيا وطن ، «بما انه الوحيد القادر على ان يعاني لأمته حبا حقيقيا وموافقا للعقل» . هذا الحب يدعى الوطنية . يريد ان يحقق «التفتح المتزايد الطهر على الدوام ، المتزايد الكمال والانسجام ، في تقدم لا ينقطع ، تفتح المبدأ الازلي والالهي في العالم» . لذا يجب ان يهيمن على الدولة نفسها . الدولة ليست شيئا أوليا بدائيا له غايته في ذاته . الدولة ليست سوى وسيلة تحقيق كل ما قد قيل لتوه . لقد كره الالمان دائما كل تنظيم «محض ميكانيكي» للدولة (ولكن فريدريك الثاني [٣] !) فيشته ، لا ريب ، يفكر هنا بالدولة الفرنسية التي نظمها نابوليون) .

---

٣ ـ **فريدريك الثاني الكبير** او الاوحد ، ملك بروسيا من ١٧٤٠ الى ١٧٨٦ ، باني عظمة بروسيا ، منظم ، خاض حروبا عديدة ، محب للآداب والفلسفة ، استضاف فولتير وعددا من العلماء الفرنسيين ، نموذج «العاهل المستبد المستنير» ، اول من وضع مبدأ التعليم الابتدائي الالزامي للجميع في اوروبا . لكنه لم يمس النظام الاجتماعي الاقطاعي (نظام القنانة) وبقيت بروسيا متأخرة عن فرنسا و«الغرب» .

هكذا الوطنية الالمانية «الحقة والكلية ـ القدرة» ، التي ما دامت فلا بد ان تحول بين الامة وبين ان تذَل وتبتَر من انبل مطامحها على يد منتصر غير متفهم . تأسيسها ، هذه الوطنية التي كانت قد غطتها الانانية الوخيمة ، «بشكل عميق ودائم في جميع الارواح ، **بفضل التربية** ، مع اعتبار شعبنا شعبا ازليا وانتم انفسكم مواطنين في ازليتنا» ، ذاك هو ما يريد فيشته ، **بخطبه** ، ان يوحيه للذين يخاطبهم .

★★★

ولكنه يخاطب من ، بالضبط ؟ مباشرة جميع الذين هم حاضرون في قاعة اكاديمية برلين والذين ينصتون اليه . ولكن ، بالواقع ، ـ فيشته يقول ويكرر ، ـ كل الامة الالمانية ، «حتى آخر حدود بلاد اللغة الالمانية» ؛ **جميع** الالمان بلا تمييز من طبقات مغلقة او من دول خاصة ، «بلا تمييز من اي نوع» . «انني أهمل مطلقا واطلق التمييزات والانقسامات التي ادخلتها احداث مشؤومة منذ قرون في امتنا» . ان لِمن **جميع** الالمان سيكون للتربية الجديدة كهدف ان تصنع «جماعة واحدة ، تحرك وتحيي اعضاءها المتنوعة مصلحة واحدة وحيدة» . منهيا احد **خطبه** بالاستدعاء الرائع لنبي يهودي كان ، بأمر من الرب ، يعيد الحياة لعظام مبعثرة ويابسة ، كان فيشته يطبق الصورة تطبيقا رنانا على الوحدة القومية ، التي كانت أوصالها «ممزقة ومبعثرة كيفما اتفق وفي فوضى» ، مثل هذه العظام تماما . كان يصرخ : «ان نفحة عالم الروح المحيية لم تنقطع بعد . ستقبض هي ايضا على عظام جسدنا القومي وسترتبها من اجل اعطائها وجودا جديدا مجلى بالنور » .

★★★

قطعا السلطات الفرنسية كان ينقصها الخيال . الخطب البيداغوجية لـ «البروفسور الالماني الشهير» كانت خطرة جدا . السلطات البروسية ما كانت لتخفي ذلك عن نفسها . ولمّا كانت تخشى من ردود فعل فرنسية نعلم انها لم تحدث ، فقد عبست اكثر من مرة قبل اعطاء تأشيرة الرقابة الضرورية لنشر خطابات فيشته . **الخطب** التي كانت تبسط «الطابع الاساسي» لم تحصل على هذه التأشيرة الا لان كلمة «**فرنسي**» لم ترد في النص ، رغم كون كل من اللغة والادب والشعر الفرنسي مستهدَفا فيها .

حتى ان الرقباء البروسيين اخترعوا ان يضيّعوا مخطوطة **الخطاب** الثالث عشر ، «بمصادفة مؤسفة ، بعد ان كان الاذن بالطبع قد اعطي له» (ملاحظة من الرقابة) . هذا الخطاب الثالث عشر كان يعالج ، كالثاني عشر ، الموضوع التالي ،

ذا المظهر غير المؤذي : «وسائل حفظنا حتى تحقيق هدفنا الرئيسي» ـ حيث هذا الهدف هو تشكيل جيل جديد بالتربية الجديدة . الموضوع المعالج كان يعطـــي ذريعة لسخريات مريرة ضد المدّاحين الالمان لنابوليون ، «العبقرية الكبيرة التي ، حسب رأيهم ، تقود الشؤون البشرية» ، وبالانعكاس ضد نابوليون نفسه : لو كان «كبيرا حقا» ، لما كان يقبل أن يُمنح وصفا لا يمكن ان ينتسب لغير حكم الاجيال اللاحقة . كان من الممكن ان يقرأ ايضا في هذا **الخطاب** الثالث عشر هجوم قاس ضد فكرة المونارخية الكونية ـ التي كان سيقيمها ، على حد متملقيه ، نابوليون ، «سيد العالم» . شبح «شنيع وأحمق» ، كان فيشته يقول ، لا يليق بطابع الالمان «المتين والجدّي» ! مدحٌ من متأدبين هم ،

ليعزّونا على كل مصائبنا ، يجعلوننا نامل في اننا نحن ايضـــا سنكون من رعايا هذه المونارخية الكونية البادئة . هل سنصـــدق تأكيداتهم ان فردا قد وُجد ، فردا قرر ان يمزج كل البـــذور الانسانية المصادفة في الجنس البشري ليصبّ في قالب أيا كان هذه العجينة الرخوة ؟ شراسة بمثل هذه الفظاعة ، تحدٍ كهذا لكل الجنس البشري ، هل يكونان ممكنين في عصرنا ؟

الخطاب الرابع عشر والاخير ، ـ «الخلاصة» حيث الدعوة الى الكفاح الروحي ترن احيانا بشكل واضح ، رغم ان فيشته يتمالك عن ذلك ـ اعطى هو ايضا هموما كثيرة للرقابة البروسية . تطلّب بعض التعديلات .

انها جميلة جدا ، هذه الخلاصة . الخطيب يتوجه بالتناوب نحو الشباب ؛ الشيوخ ، رجال الاعمال ؛ المفكرين والعلماء والادباء «الذين ما زالوا جديرين بهذا الاسم» ؛ الامراء الالمان ـ الذين كان لهم ، يقول فيشته بخشونة ، قسطهم «في إعداد الويلات» التي اصابتهم مع شعوبهم ؛ ـ اخيرا «انتم جميعا ، الالمان ، ... أيةً كانت مرتبتكم الاجتماعية» . يستنجد بالاجداد من العصور الموغلة في القدم ، الذين عارضوا بأجسادهم محاولة المونارخية الكونية لروما ، «وانتزعوا بدمهـــم استقلال الجبال والسهول والانهار التي أضحت الان فريسة الغرباء» . يضم الى صوتهم صوت الاجداد الاحدث الذين ، في زمن الاصلاح ، سقطوا في النضال المقدس من اجل حرية الدين والوجدان . يستنطق الاحفاد الذين لم يولدوا بعد، احفاد الالمان الذين ينصتون اليه : «لا ترغمونا على الخجل من أصلنا ، لانه يكون دنيئا ، بربريا ، وعبوديا» . اكثر من ذلك ، «العناية الإلهية نفسها ، المخطط الالهي الذي أشرف على خلق الجنس البشري والذي ليس موجودا الا لكي يفكَّر من قِبل البشر ويحقق من قبلهم ، يستحلفانكم ان تنقذوا لهما الشرف والوجود» . كيف ؟ بالعمل بحيث في مواجهة الاجنبي ينكشف الروح الالماني ويبقى واقفا .

لكم الخيار . أتريدون ان تكونوا نقطة نهاية ، آخر ممثلي عرق حقير ومحتقَر فوق كل قياس من قبل الاجيال القادمة ... أم انتم تريدون ان تكونوا نقطة بداية ، بداية عصر جديد سيتخطى بهاؤه أحلامكم الاكثر جسارة ... . فكّروا انكم الاخيرون الذين يستطيعون إحداث هذا التحول الكبير ... . خلاصكم يتوقف عليكم وحدكم : أعتقد من الضروري ان أردده على مسامعكم حتى اللحظة الاخيرة . المطر ، الندى ، السنوات الخصبة او المجدبة ، يمكن ان تأتينا من قوة مجهولة ، مطروحة من تأثيرنا ؛ ولكن وجود البشر الخاص تماما ، كل وضعية الجنس البشري لا يتوقفان الا على البشر ... . البشر لا يصيرون لعبة هذه القدرة الخفية الا اذا كانوا جميعا بالتساوي عميانا وجهلة ؛ ولكن لهم ان لا يكونوا عميانا ولا جهلة .

تكلمنا آنفا عن «الرداءات الفلسفية» التي كثيرا ما يزين بها فيشته عبادته الوثنية الجديدة لالمانيا : المانيا ، الوطن الحق الوحيد ؛ الشعب الالماني ، الشعب **الوحيد** في اعلى مدلول للكلمة ! لقد ذكرنا هذا «الطرد المتبادل» الذي حصل عند هذا الفيلسوف بين تحقيق الانسانية ، الذي انتقل الى المستوى الثاني ، وخلاص الوطن الالماني ، الذي انتقل الى الاول . الاسطر الاولى في الخلاصة توضح بجلاء هذه الحالة النفسية والفكرية الجديدة عند فيشته منذ يينا ، هذا الشكل الجديد والالماني بتمامه لـ**كلية** ، لـ **كونية** ، عنها ، رغم كل شيء ، يمنعه تكوينه الفلسفي بأسره ان يتخلى . المانيا **وحدها** ، من الان فصاعدا ، وليس اية دولة ، وليس (خصوصا) فرنسا ، موصوفة لتحقق الانسانية ، لتكون بين الشعوب ما الفيلسوف الحق ، يجب ان يكونه بين البشر : من يخلق اعلى الحقائق ويجعلها في متناول الجميع بالتبشير . اذا زالت المانيا ، ضاعت البشرية ! اي الماني ، يستمع الى فيشته في ذلك الاحد من الشتاء في برلين ، كان يمكن ان لا يتكهرب بهذا الذي سنقرؤه الان ؟

اذا كان هناك ذرّة من حقيقة في هذا الذي عرضناه في هذه الخطابات ، فانكم انتم من بين جميع الشعوب الحديثة تملكون بأشد وضوح بذرة قابلية البشر للتحسن **واليكم تعود الاولية في تطور البشرية** . اذا اختفيتم في جوهركم ، فان كـل الجنس البشري سيفقد امل امكان خلاصه في يوم من الايام من اعماق ويلاته . لا تعزّوا انفسكم بأن يدغدغكم الامل الوهمي ... بأن تخلف زوال المدنية الموجودة مدنية اخرى مشتقة من انقاض الاولى ... . ليس ثمة مخرج : اذا غرقتم ، غرقت معكم البشرية بأسرها ، دونما امل

في إحياء مقبل . هذا ما كنت اريد ، وانا انهي خطبي ، وما كان عليّ ان اوصيكم به . وبكم تخاطب وصيتي **مجموع الامة** التي انتم هنا ممثلوها .

★★★

هل والآن ! المستمعون الى فيشته ، في كتلتهم ، لم يتكهربوا بتاتا ! على ندائه الرنّان «لم يجب الجمهور او تقريبا الا بالصمت» (كزافيه ليون X. Leon ، هذا الجمهور كان ، على ما يبدو ، مهيأ ضده . لالمان مسلّمين بالهزيمة وحاولين نحو المنتصر ، ما كان يمكن لتبشير بهذا الحماس الا ان يظهر في غير محله . فضلا عن ذلك ، كان لفيشته اعداء كثيرون في الاوساط الثقافية في برلين . هؤلاء الاعداء ، مثلا شلايرماخر Schleier macher «٤» ، اللاهوتي الذائع الصيت ، كانوا جد متنفذين . أما اصدقاء فيشته ، فعدد قليل منهم اثبت حضوره .

كل القرائن تسمح بأن نفكر ان **الخطب** لم تكن البتة حدثا ثقافيا في الشتاء البرليني ١٨٠٧ ــ ١٨٠٨ . ولكن ، لئن سُمعت بشكل سيء ، فانها ــ بفضل نشرها ، الذي قوتل عليه قدَماً قدما مع الرقابة البروسية ــ ستقرأ على نحو افضل . ستقرأ بإعجاب ، بحماس ، من قِبل جميع الذين في المانيا كانوا ، رغم الهزيمة او بسببها ، ينتظرون بنهم «قول تجديد» . فيشته ، هذا الرجل «الرائع»، كان يعيد الشجاعة والثقة للوطنية «المهانة ، المثارة» ، على حد اعتقاد فارنهاغن Varnhagen . صحيح ان هذا الاخير كان صديقا للفيلسوف . ولكن احد المشنّعين عليه من عهد قديم ، جِنتس Gentz ، المعجب بـ برك ، وخصم الثورة وفي الوقت نفسه خصم فلسفة فيشته ، التي كان يعتبرها خيالية ومناهضة للمجتمع ، كان يعترف بحماسه : «ان احدا لم يتكلم بعد عن الامة الالمانية بهذه العظمة ، بهذا العمق ، بهذا الاعتزاز» . جان ــ بول ريشتر Jean - Paul Richter ــ مع لومه المؤلف على تحيزه البروتستانتي الذي يهمل المانيا الكاثوليكية ــ كان يحس في **الخطب** بقلب الوطن الالماني يخفق . في جوهرها وفي شكلها كان يتعرف على »ريَش عديدة آتية من اجنحة لوثر ، من هذه الاجنحة التي لم تكن معمولة لكي تطير بقدر ما كانت معمولة لكي **تضرب**« .

فعلا بأية قوة كان فيشته قد ضرب ؟ بأي ازدراء كان قد جلد النفوس الذليلة التي كانت يغمى عليها امام المنتصر الاجنبي والموَض الفرنسية ؟ بأية ضربات بوق منتقم كان قد اعلن حشد النفوس القوية و«ديانا» الامل المنبعث «٥» ! «ماذا ! في

---

٤ ــ **شلايرماخر** لاهوتي بروتستانتي الماني ، متأثر بـ سبينوزا وفيشته ، «ابو اللاهوت البروتستانتي الحديث» (١٧٦٨ ــ ١٨٣٤) .

٥ ــ **ديانا** Diane : إلهة رومانية ابنة جوبيتر نالت من ابيها ان لا تتزوج ابدا . اعطاها ابوها سهاما وجعلها ملكة الغابات ، شغلها الرئيسي الصيد .

اللحظة عينها التي فيها كانت بروسيا قد انهارت ... ، وكان خمسة عشر مليون الماني يشعرون بفخر كونهم حلفاء نابوليون ، كان يمكن اذاً عدم اليأس . كان لا يزال بوسع المانيا ان تؤمن بحقها في الوجود كأمة ، بامكان اصلاح بلاياها ، بتفوقها الخلقي على المنتصر ! كانت تؤمن بذلك بالغريزة : فيشته يبرهن لها انها كانت على حق» (ليفي – برول Lévy - Bruhl . عما قريب ، آرندت Arndt ، مؤلف القصيدة الوطنية الشهيرة : **ما هو وطن الالماني** ، سيصف فيشته بـ : philosophus teutonicus ، «فيلسوف تتوني» (٦) .

فيشته كان قد وعظ بالانعتاق . كان ، بكلمات مغطاة ولكن فصيحة الى حد كاف ، قد بشّر بالتحرير القومي . ولقد بدات ساعته تدق منذ آذار ١٨١٣ بفضل هزائم «الجيش الكبير» في سهول روسيا . ملك بروسيا اعلن الحرب على فرنسا. فيشته طلب ، كما سبق له ان فعل سدى قبل يينا ، ان يخدم كضرب من «كاهن علماني» ، يعظ الجنود بالوطنية الحقة والدين الحق ، اي في الحاصل بفلسفة فيشته . ولما رفض طلبه كما كان مناسبا ، تعلّم استعمال البارودة وتدرب في ساحة من برلين ، برفقة مفكرين آخرين بارزين ، بينهم عدوة شلايرماخر . تعب ضائع ! التيفوس رفعه في ٢٩–١–١٨١٤ . البروسي بلوشر Bluecher (٧) كان قد دخل لتوّه فرنسا منتصرا . فيشته ، الذي كان المرض قد اصاب دماغه ، هل فهم مدى هذا النبأ ؟ قيل ذلك .

كان في الثانية والخمسين فقط . فلسفته كانت آنذاك فقدت كل حظوة ، ومر موته «بدون ان يلحظ تقريبا» ، على حد قول كزافيه ليون . مع انه كان نذير التجدد القومي بلا جدال : نبي الازمنة الجديدة في الحاصل ، بالقدر الذي فيه هذه الازمنة سترى الهوى القومي يستعر ويشتد الى اعلى درجة في العديد من البلدان ، بموازاة الحقد على الاجنبي . حين ستكون المانيا قد حققت بعد ١٨٧١ وحدتها ، سيجد فيها فيشته من جديد محل شرف . ليس بتاتا بالتأكيد على طموحاته النبيلة والمجردة الى تحقيق الانسانية ، التي كان قد اجتهد ، حتى في تمام الحمية القوموية ، لعدم التضحية بها : بل فقط لكونه ، بكشفه «الطابع الاساسي» ، اعطى المانيا الحديثة وعياً بات واضحا لنفسها ولتفوّقها (مثلما كان سييس قد اعطى الطبقة الثالثة وعي ذاتها وأوليّتها الشرعية) . فقط لكونه علّم الامة الالمانية ، بهذه الجودة وبهذا الاقتناع القوي ، علّمها هذا «**الطعم الذي لا**

---

٦ – **آرندت** Arndt : شاعر الماني (١٧٦٩ – ١٨٦٠) ، قومي ، اشتهر بقصائده التي اسهمت في اثارة المانيا ضد نابوليون ، ١٨١٢ . – تتون = جرمان = المان .

٧ – **بلوشر** Bluecher جنرال بروسي ، احد قادة القوات المتحالفة التي هزمت نابوليون: معركة لايبتسيغ او «معركة الامم» ١٨١٣ ، غزو فرنسا ١٨١٤ ، معركة واترلو ١٨١٥ .

يقلقك — كما يكتب فاليري Valéry (٨) — **الذي انت لا تجده الا لنفسك»** .

نعلم من قبل انه خلال القرن كان سينبسط هوى آخر ، ملتهم في قلب البشر مثل الهوى القومي ، ومثله تهيّجه الثورة : الهوى المساواتي . لنستمع اذاً، بعد نبي العهود القومية الالماني ، الى نبي العهود المساواتية الفرنسي : توكفيل .

---

٨ — فاليري Valéry (١٨٧١ — ١٩٤٥) شاعر فرنسي واديب متنوع ، إهتم بالرياضيات ، بالفنون والعلوم والفلسفة .

الفصل الثالث

« الديمقراطية في أميركا »،
لـ آليكسي دو توكفيل (١٨٣٥ — ١٨٤٠)

«انه يمثل الفرع الاخير في سلالة مونتسكيو الفكرية » .

البير سوريل

في ١٠ ايار ١٨٣١ ، كان فرنسيان شابان ، آلكسي دو توكفيل و غستاف دو بومون ، وهما من رجال القضاء ، ينزلان الى نيويورك . كانا ، بناء على طلبهما ، قد نالا من حكومة لوي — فيليب بعثةدراسة عن نظام السجون عند الاميركيين .

توكفيل Tocqueville كان في الخامسة والعشرين ؛ كان ، بأبيه الكونت دو توكفيل ، من نبالة نورماندية عريقة ، و ، بأمه ، ابن حفيد ماليزرب Malesherbes (١) . في ١٨٢٧ ، كان قد دخل في سلك القضاء كقاض

١ — ماليزرب (١٧٢١ — ١٧٩٤) : من رجال القضاء والحكم ، سكرتير دولة لبيت الملك . ليبرالي .

مستمع في محكمة فرساي ، حيث كان قد ارتبط مع بومـــــون Beaumont وكان آنذاك وكيل نيابة شابا . الكونت دو توكفيل كان محافظا لـ سين ـ إي ـ واز وأحد امراء فرنسا في الوقت نفسه . حين انفجرت ثورة ١٨٣٠ ، التي طردت الفرع الاول من آل بوربون ، لم يكن الشاب بعد سوى قاض مستمع . اذ كان من عائلة «نصيرة للشرعية» legitimiste لم يكن بوسعه ان يأمل في ان ينال من النظام الأورلياني Orléaniste الجديد ترقية لم يكن الفرع الاول قد اعطاه اياها (٢) . كان عدا ذلك يشعر نفسه مدعوا الى مستقبل آخر غير القضاء . الثورة الجديدة ما كانت الا لتنمي شدة تأمله المبكر في مصير المجتمعـــات لااوروبية ، المسلّمة منذ اربعين سنة للعواصف السياسية . كان يبحث عن مخرج لهـــذا التأمل ، عن حقل ملاحظة جديد يختبر فيه الافكار والفرضيات والآمال والمخاوف المتراكمة في فكره العامل دوما وفي قلبه القلق طوعا .

فكّر في هذه الولايات المتحدة الفتية ، في هذا المجتمع السياسي الجديـــد تماما ، الذي كان يظهر قد حل بنجاح معضلات الحرية والمساواة ، التي كانت في وسطها فرنسا منذ ١٧٨٩ لا تنفك تتخبط . أسرّ لصديقه بومون بمشروع رحلة.

ولكن كيف الحصول على إذن بالغياب ؟ كان اصلاح السجون آنذاك في امر اليوم في فرنسا : «كان يجري الحديث عن نظام سجون مطبق بنجاح في ولايات العالم الجديد» . تقدم الشابان الى وزير الداخلية بمذكرة عن المسألة ، مع عرض بالذهاب لدراسة الموضوع في مكانه . حصلا على المهمة والاذن ...

جاول بعض الاصلاحات ، لكن اضطر الى الاستقالة ... دافع عن الملك امام مجلس المؤتمر الوطني Convention واعدم في زمن الارهاب .

٢ ـ **ثورة تموز ١٨٣٠** اقامت ، من فوق رأس الجمهوريين ، نظاما ملكيا جديدا ، برجوازيـــا (دستوريا وبرلمانيا ، طراز انكلترة) .

انهت آل بوربون الاصليين ، الذين حكموا فرنسا من ١٥٨٩ (هنري الرابع او الكبير) حتى ١٨٣٠ (سقوط شارل العاشر) ، باستثناء فاصل الثورة ونابوليون اي الجمهورية الاولى والقنصليـــة والامبراطورية (١٧٩٢ ـ ١٨١٤ ، ١٨١٥) ، ـ وهم فرع (الفرع الثالث) من أسرة كابيت او الكابيسيين البادئة في القرن العاشر ـ . واقامت ملكية فرع من آل بوربون هو بوربون ـ أورليان (او اختصارا: **اورليان**) ، المتمثلة بـ **لوي ـ فيليب** (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨) ، وتعرف بـ **مونارشية تموز** . انصـــار بوربون ـ الفرع الاصلي هم **«الشرعيون»** ويطالبون بالعرش لحفيد شارل العاشر . أنصار الملـــك الجديد هم **«الاورليانيون»** . **ثورة شباط ١٨٤٨** تسقط مونارشية تموز ، تقيم الجمهورية الثانيـــة التي لم تعمر طويلا ، وتعقبها الامبراطورية الثانية (نابوليون الثالث) حتى سنة ١٨٧٠ والهزيمة امام بروسيا ـ المانيا ، ثم ... تأتي الجمهورية الثالثة حتى سنة ١٩٤٠ .

تاليف ونجاح المؤلف

حين كان توكفيل ، لقاء بذل من طاقة بدنية وفكرية يدهش عند كائن واهن كهذا ، قد ركم الملاحظات والافكار عن العالم-الجديد ، تساءل عن السبيل لوضعها قيد العمل . لكان يكون غرورا مدعيا ان يزعم انه يعطي ، بعد اقامة دامت أقل من سنة ، لوحة كاملة عن اميركا . لقد فهم الشاب انه ينبغي ، «مع اختيار المواد» ، ان لا يقدم سوى مواضيع لها مع الحالة الاجتماعية والسياسية لفرنسا علاقات مباشرة في كثير او قليل . هكذا تكون مرحبًا بها كل الانماءات التي قد تلقي بعض الضوء على هذه المعضلات الفرنسية للحرية والمساواة التي تشملها كلمة واحدة : **ديموقراطية** (احدى الكلمات ـ السيدة في القرن ، بانتظار كلمة **اشتراكية** وكلمة **قومية**) . اذاً فعنوان المؤلف المزمع نشره لن يكون «اميركا» بل «الديمقراطية في اميركا» . مفيدة ومثيرة للاهتمام ، واحيانا آسرة ، ستكون بالنسبة للجمهور الفرنسي لمحات المؤلف العميقة عن الجمهورية الفيدرالية الكبرى : لم يسبق ان قدم لهذا الجمهور واقع ديمقراطي حديث ، بروح غير متحيزة ، خارج اي سجال حزبي . ليس أقل حقيقة مع ذلك ، بالنسبة لشطر كبير ، ان اميركا لن تكون الا ذريعة ، «اطارا» ، وأن الديمقراطية حسب ستكون الموضوع الحقيقي .

العامان الاولان ، ١٨٣٢ ـ ١٨٣٤ ، اللذان الّف توكفيل اثناءهما المجلدين الاولين اللذين يشكلان الجزء الاول من المؤلَّف ، كانا على الارجح أسعد عامين في حياته . كان يستطيع ان يعطي نفسه بالكامل لهذا العمل الذي كان يستهويه ، اذ كان قد استقال من القضاء بعد رجوعه من اميركا ، احتجاجا على اقالة صديقه بومون . طوال النهار ، كان يحبس نفسه ليؤلف . روحه كانت تتفتح في عمل الخلق ، العمل المحمِّس ، والمحمس اكثر ايضا حين تكون القضية هي الكتاب الاول ، الكتاب الذي يسمح بكل الآمال ، بكل الاوهام . هل كان يحزر ، هذا القارىء المواظب والحاد لمونتسكيو ، المشبَع بتراكيب فكر وبعض تراكيب أسلوب (التراكيب الاكثر رزانة) **روح القوانين** ، هل كان يحزر كلمة الاعجاب التي ستنتزعها **الديمقراطية في اميركا** من امير ـ بطريرك «المذهبيين» ، روايه ـ كولار Royer Collard العجوز : «منذ مونتسكيو لم يصدر شيء شبيه» ؟ هل كان يستشعر ان احدا من الان فصاعدا لن يستطيع بدون ادعاء مغرور ان يزاحمه على اجمل الالقاب ، اللقب الذي لم يكن ، بالرغم من مواهب كثيرة ، من نصيب بنجامين كونستان Benjamin Constant ، كبير دكاترة الليبرالية حتى في سنة ١٨٣٠ : لقب **مونتسكيو القرن التاسع عشر** ؟ [٣] .

---

٣ ـ **المذهبيون او المذاهبة** doctrinaires : جماعة في زمن الإعادة (اعادة الملكية ومحاولة اعادة النظام القديم ١٨١٥ ـ ١٨٣٠ : لويس ١٨ وشارل ١٠) كانت تناصر الليبرالية وتدعو الى تطبيق ميثاق ١٨١٤ (الميثاق الذي اعلنه الملك العائد كتعهد منه للامة ، للرعايا ـ المواطنين) ضد استبداد

على أي حال ، الواقع انه ، منذ صدور المجلدين الاولين في كانون الثاني ـ يناير ١٨٣٥ ، كان النجاح هائلا ، بحيث ـ يقول بومون في ملحوظته عام ١٨٦٠ ، في راس اصدار **اعمال** و **مراسلات** صديقه التي لم تنشر من قبل ـ «ربما من غير الممكن في زمننا تشبيهه بأي نجاح آخر» . هذا العمل لرجل لم يكن بلغ الثلاثين من العمر نال ، يقول لاكوردير **Lacordaire** ، نال «الشهرة في برهة ، كالبرق» (٤) . في فرنسا ، كل الاحزاب (الاحزاب تبحث في كل مكان عن اسلحة) اعتقدت التعرف ، في الكاتب ، على واحد من جماعتها . ذاك ، قيل في اليمين، حيث كان الفزع من المد الديمقراطي ، ذاك عمل ارستقراطي ؛ أفلا يفضح بقوة لا مثيل لها شرور الديمقراطية ؟ كلا ، قيل في اليسار ، ذاك عمل ديمقراطـــي ؛ فبأي اقتناع كامل كان يعترف ببأس الديمقراطية الذي لا يقاوَم ، ويتنبأ بظفرها التام في المستقبل . احكام «بالمقلوب» ، كما كان يحتج المؤلف ، وكانت تذهله . الحقيقة ، كما سنرى ، هي ان تأملات عالية الى هذه الدرجة ، حبا صادقا ونزيها الى هذا الحد ، كانت تتخطى اطر اي حزب.

في الخارج ، ـ فقد ترجم الكتاب على الفور الى كل اللغات ، ـ نجاح ليس أقل سطوعا . الاميركيون كانوا معجبين بأن اجنبيا لم يمكث عندهم سوى عـــام واحد ، قد ادرك بهذا الشكل الرائع ووصف روح ونوابض مؤسساتهم ، لدرجة انه يكشفها لهم انفسهم ، اذ لم يكن لهم عنها في كثير من الاحيان سوى فكـــرة غامضة مشوشة . هكذا فقد كان توكفيل يجدد بالنسبة للدستور الاميركي ضربة القوة التي كان ، بالنسبة للدستور الانكليزي ، حققها مونتسكيو . مأخذ واحد ، كونه يعمّم اكثر قليلا مما يجب ؛ هذا ايضا كان نمط روح مونتسكيو . توكفيل كان يقبل اللوم ، وكان جوابه انه اراد ان تشاهَد بوضوح في اوروبا الملامح العامة ـ الديمقراطية ـ للولايات المتحدة الاميركية .

الانكليز ، وقد تعرّفوا في المؤلف على العرق الكبير الفكري والاجتماعـــي لمونتسكيو ، عرق الارستقراطيين الليبراليين ، أفعموه بالمديح والشهادة ، حين

الملك شارل ١٠ وجنون اليمين الاقصى . زعيمهم روائية ـ **كولاد** ، وهو خطيب وفيلسوف (١٧٦٣ ـ ١٨٤٥) . **بنجامين كونستان** (١٧٦٧ ـ ١٨٣٠) : اديب روائي ، وسياسي متنفذ في الحزب الليبرالي في عهد الاعادة .

٤ ـ **لاكوردير** (١٨٠٢ ـ ١٨٦١) رجل دين ، خطيب مفوه ، اديب ، عضو الاكاديمية الفرنسية . في نهاية ١٨٣٠ ، اسس ، مع الاب لامنيه **Lamennais** ، جريدة «المستقبل» وشعارها : «الله والحرية» . دعوا الى الاصلاح ، الى تحالف الكنيسة مع الليبرالية والتقدم (والى فصل الكنيسة والدولة بحيث يكون الاكليروس تابعا للبابا وحده) . لكن أدينت الدعوة الليبرالية من قبل البابا (١٨٣٢) ، فرضخ لاكوردير بخلاف شريكه ورئيسه الاب لامنيه . «اساقفة فرنسا كانوا ، جميعـــا تقريبا ، غاليكانيين ورجعيين» .

زار بلدهم في ١٨٣٥ . ان لجنة من غرفة العموم ، كانت تحقق عن ضمانات التصويت ، استنجدت بشهادته على انها شهادة وأحد من أصلح الرجال في العالم في مضمار الحرية السياسية .

في ١٨٣٦ ، منحته الاكاديمية الفرنسية جائزة استثنائية بمبلغ ثمانية آلاف فرنك بناء على تقرير فيِّمين Villemain . في شروط مَرضية جدا ، انتخبته اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية في ١٨٣٨ (فرع الاخلاق) . في ١٨٤١ ، نادت الاكاديمية الفرنسية الى عداد اعضائها الرجل الذي كانت قد توجته سابقا بشكل ساطع . لم يكن توكفيل الا في السادسة والثلاثين .

في السنة السابقة ، كان قد نشر ، في مجلدين آخرين ، الجزء الثاني من مؤلَّفه . في الجزء الاول ، كان قد عالج تأثير الديمقراطية على مؤسسات الاميركيين واخلاقهم **السياسية** . كان يعالج ، في الجزء الثاني ، تأثير الديمقراطية على افكار وعواطف الاميركيين واخلاقهم **الخاصة** . كان يضم الى ذلك ثمانية فصول مراجعة عظيمة ، تلخص «التأثير الذي تمارسه الافكار والعواطف الديمقراطية على المجتمع السياسي بوجه عام» (اميركا اختفت ، حتى كذريعة) .

هذا الجزء الثاني كلف المؤلف من العمل – خمس سنوات – والجهود اكثر مما كلفه الاول بكثير . نال نجاحا أقل بكثير . اثر المفاجأة لم يعد يلعب . يصرخ الناس مرة «معجزة !» ، لا مرتين . فضلا عن ذلك ، كان هذا الجزء الثاني اكثر تجريدا بكثير . كان تنظيما صارما دقيقا لافكار عامة : «افكار عن أفكار» . التوتر الدائم للفكر والاسلوب ، عبر تسلسل من الاستنتاجات لا تشوبه شائبة ، ولكنه احيانا مصطنَع ، كان ينتهي الى إتعاب القارىء الذي كان ينتظر بلا جدوى فجوة عيانية . فصول المراجعة ، بشكل خاص ، التي تشهد على قوة تعميم عجيبة ، كانت تحيِّر وتحبط ، لانهم ما كانوا يجدون فيها لا اميركا ولا فرنسا ، بل دراسة «**في التجريد**» للنظام الديمقراطي . لم يكونوا آنذاك متآلفين مع «السمات العامة للمجتمعات الديمقراطية» ، التي لم يكن بعد موجودا عنها أي موديل تام .

على العكس ، بالنسبة للاجيال الآتية ، بالنسبة للقارىء المنبَّه في زمننا ، يشكل المؤلَّف ، بجزءيه ، كلا قوي التلاحم ، رغم اخطاء في التأليف وتكرارات عدا ذلك متعمَّدة . نفس التيار من فكر رصين يسري من السطر الاول الى السطر الاخير ، من **المدخل** الشهير الى **الرؤية العامة للموضوع** المؤثرة ، الفصل الاخير من المجلد الاخير . لم يحدث قط ان تأمل ذهن ذو قيمة اولى ، ولا نستثني مونتسكيو ، بهذا القدر من الرزانة والتبصُّر ، المعضلة الشائكة اكثر فأكثر مع سير تقدم المجتمعات ، معضلة حكم البشر ، من اجل سعادة العدد الاكبر ، بدون استعبادهم ولا إذلالهم .

ليس اميركا ، وهي مجرد اطار لفكر توكفيل ، بل الديمقراطية ، موضوعه الحقيقي ، هو ما سندرسه عبر المؤلَّف . اذ ان هذا الموضوع بقي راهنا ، اذا

كان رسم الاطار الاميركي باليا اليوم (ه) . سنورد فقط الجمل المدهشة عن مستقبل اميركا ، المكتوبة في ١٨٣٤ ، وهي ذات ايحاءات بالغة اذا اعيدت قراءتها في الساعة الراهنة ، التي تختم خلاصة الجزء الاول .

يوجد اليوم على الارض شعبان كبيران هما ، وقد انطلقا من نقطتين مختلفتين ، يبدوان يتقدمان نحو نفس الهدف ؛ انهما الروس والانجلو-اميركان . — كلاهما كبرا في الظلام ، وبينما كانت لنظار البشر مشغولة بمكان آخر ، وضعا نفسهما فجاة في المرتبة الاولى من الامم ، والعالم علم في الوقت نفسه تقريبا بمولدهما وعظمتهما . كل الشعوب الاخرى تظهر قد بلغت تقريبا الحدود التي رسمتها الطبيعة ، ولم يبق لها الا ان تحافظ ؛ لكن هما في نمو ، روسيا هي من بين جميع أمم العالم القديم الامة التي يزداد عدد سكانها الازدياد الاسرع ، مع مراعاتنا النسب ... كي يبلغ هدفه يرتاح الاميركي على المصلحة الشخصية ، ويدع قوة وعقل الافراد يفعلان بدون ان يقودهما . — الروسي يركز نوعا ما في رجل كل قدرة المجتمع — الاول له كوسيلة فعل رئيسية الحرية ، والآخر العبودية . — نقطة انطلاقهما مختلفة ، سبلهما متنوعة ؛ الا ان **كلا منهما يبدو مدعواً بقصد سري من العناية الالهية الى ان يمسك في يديه ذات يوم مصائر نصف العالم .**

المدخل

لو لم يكتب سوى هذا المدخل ، لعدّ توكفيل ، بقوة وسعة رؤيته ، بالشدة الدراماتيكية لنبرته ، بين الكتّاب السياسيين الكبار جدا .

ان واقعة ، يقول توكفيل ، قد لفتت نظره اكثر من اية واقعة اخرى ، هي تساوي الشروط — الاحوال Conditions . هذه الواقعة حرفيا سحرته ، لقد حمل الى ان يرى فيها مفتاح ، ان لم يكن كل شيء ، فعلى الاقل تقريبا كل شيء .

(ه) هذا الرسم سيستانفه ويجدده في ١٩٢٧ ، بعد الحرب العالمية الاولى ، اندره سيغفريد André Sugfried في الولايات المتحدة اليوم (٥) .

٥ — اندره سيغفريد A. Sugfried (١٨٧٥ — ١٩٥٩) : مفكر سياسي فرنسي ليبرالي كبير في القرن العشرين ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، صاحب مؤلفات في السوسيولوجيا السياسية والجغرافيا والتاريخ الاقتصاديين . كتاب جان — جاك شفاليه مهدى اليه ، وتتصدره رسالة — مقدمة بقلمه ، استغنينا عنها في الطبعة العربية .

بجملة على غرحار مونتسكيو ، يصفها بانها «واقعة مولّدة ، منها كانت تبدو كل واقعة خاصة متحدرة وكنت القاها باستمرار امامي كنقطة مركزية كانت كل ملاحظاتي تأتي لتنتهي عندها» . ولكن ألم يكن الامر كذلك في اوروبا ، فيما عدا ان تساوي الشروط لم يكن بعد فيها قد بلغ حدوده القصوى ؛ كان فيها سائرا فقط ، سيرا سريعا ولا يقاوَم ، نحو السلطة التامة . هكذا ، فالثورة الديمقراطية العظمى ، بعيدا عن ان تكون ، كما كان لا يزال يحلو للبعض ان يعتقدوا ، عارضا محليا وموقتا ، كانت ذات طابع كلي – كوني ، بل و ، بمجرد التفضل بفحص الماضي ، كانت تظهر بوصفها «الواقعة الاكثر استمرارا وقِدما ودواما في التاريخ» . التاريخ ، منذ سبعمئة سنة ، كان تحت هيمنة ضرب من قانون تسوية؛ كل الاحداث الكبرى ، من الحروب الصليبية الى البروتستانتية ، كل الاكتشافات الكبرى ، كانت قد دارت لصالح المساواة ، وضد مصلحة امتياز الولادة ؛ كلها كانت ، في السلّم الاجتماعي ، قد اخفضت النبيل واصعدت ابن العامة .

في اية جهة نلقي انظارنا ، نشاهد نفس الثورة التي تتواصل في كل الكون المسيحي . – في كل مكان ، رأينا مختلف حوادث حياة الشعوب تدور لصالح الديمقراطية ؛ كل البشر ساعدوها بجهودهم؛ الذين كانوا يبغون الاسهام في نجاحاتها والذين لم يكونوا يفكرون بخدمتها ، الذين قاتلوا من اجلها وايضا الذين اعلنوا انفسهم اعداءها ؛ كلهم دُفعوا حيص بيص في نفس الطريق ، وكلهم عملوا بصورة مشتركة ، بعضهم رغما عنهم ، الآخرون خفية عنهم ، ادوات عمياء في أيدي الله . – النمو التدريجي لتساوي الشروط هو اذاً واقعة من العناية الإلهية ، له سماتها الرئيسية ؛ انه راسخ دائم ، يفلت كل يوم من سلطة البشر ؛ كل الاحداث وكل البشر تخدم نموه وتطوره . أيكون من الحكمة الاعتقاد ان حركة اجتماعية تأتي من بعيد كهذه يمكن ان توقفها جهود جيل ؟ هل يفكرون بأن الديمقراطية بعد ان دمرت الاقطاع وهزمت الملوك ستتراجع امام البرجوازيين والاغنياء ؟ هل ستتوقف الان وقد اضحت بهذه القوة واضحى خصومها بهذا الضعف ؟

ان منظر هذه الثورة التي لا تقاوَم ، التي سرّعت رحلة توكفيل الى الولايات المتحدة عنده اخذ وعيها ، تلهمه ، على حد اعترافه ، ضربا من رعب ديني يسيطر على كل كتابه . الله ذاته يبدو له في القضية ؛ الله ذاته لا بد اراد هذه المسيرة المذهلة الى تساوي الشروط ؛ زعم ايقاف الديمقراطية الا يكون نضالا ضد الله نفسه ، مع التشبث المجنون بماض مضى يرميه الله نفسه ؟ اليست ارادة الله ، بالعكس ، ان تجهد الشعوب المسيحية ، طالما لم يفت الاوان بعد ، لقيادة الحركة

الحتمية التي تحملهم : «مصيرهم بين أيديهم ، قريبا يفلت منهم» .

ولكن من يفكر اذاً في ذلك ؟ اية طبقات قائدة ، لا تقود شيئا ؟ من يرى اذا ، مع استخلاص النتائج ، ان لعالم جديد تماما ، يلزم «علم سياسي جديد» ؟

ان مجتمع الامس **الارستقراطي** قد مات . كان مؤسسا على اللامساواة والتسلسل الهيرارخي ، ولكنه كان يضع امام السلطة المطلقة لشخص واحد ، أمام طغيان امير ، حواجز لا تقهر . كان يحفظ للبعض القليل الخيرات ، القوة ، الراحة والترويح ، متع الترف ، لذات الروح وإرهاف الفنون ، غير تارك كنصيب لجمهور الآخرين سوى «الشغل والخشونة والجهل» . ولكنه لم يكن بدون ان يعطي البشر بعض انواع السعادة والعظمة . كان النبلاء يأخذون عن مصير الشعب «هذا النوع من الاهتمام العطوف والهادىء ، الذي يمنحه الراعي لقطيعه» . طاعة الشعب لم تكن تحطه لانها كانت موجهة الى سلطات كان يعتبرها شرعية ؛ دونيّته كانت تبدو له طبيعية : «نتيجة لنظام الطبيعة السرمدي . كانت تصادَف في حضن هذا الجمهور الجاهل والفظ «أهواء عازمة ، عواطف سخية ، معتقدات عميقة ، وفضائل متوحشة» . كان الجسم الاجتماعي يستطيع ، بفضل هذا التنظيم الارستقراطي ، ان يكون ذا «استقرار ، وبأس ، ومجد بخاصة» .

المجتمع الديمقراطي الذي ظفر على أنقاض المنظومة القديمة ، يكّون قادرا ــ مكوّنا بشكل جيد ، مرشَدا بشكل جيد نحو عمل «هادىء» ــ على منح البشر سعادة اعلى . يكفي ان تكون الحالة المساواتية مضبوطة ومقنّاة بالقانون ، الذي ينظر اليه الجميع على انه من صنعهم ويحبونه ، ــ بحقوق الافراد والواجبات المدنية المناسبة ، ــ بوجدانهم الديني ، ضمانة حريتهم الداخلية ، ــ بتشاركهم الحر ، الذي يعززهم في وجه المشاريع الاستبدادية للدولة . سيكون لدينا عندئذ سطوع أقل مما في حضن الارستقراطية ، ولكن بؤس أقل ، علوّ اقل في المعارف ، ولكن جهلٌ أقل ، أقل تطرفا ستكون التمتعات ، ولكن اكثر عمومية الرفاه . «الامة مأخوذة في جسم ستكون اقل لمعانا ، أقل مجدا ، ربما اقل قوة ؛ ولكن غالبية المواطنين ستتمتع بقدر اكثر ازدهارا ، والشعب سيتبين هادئا ؛ لا لانه يائس من ان يكون في وضع أفضل بل لانه عالم انه بخير» .

واحسرتاه ، هذه اللوحة المعزّية ، ان لم تكن المحمسة ، ليست بالنسبة لاوروبا ، وبخاصة لفرنسا ، سوى رؤية مجانية تماما من الذهن . الواقع ، ان الديمقراطية تركت لغرائزها المتوحشة ، انها كبرت مثل هؤلاء الاولاد الذين لا اب لهم ، ولا أم ، «الذين يتربّون بأنفسهم في شوارع مدننا ، والذين لا يعرفون من المجتمع سوى رذائله وتعاساته» . لم يتبنّ شيء مما يمكن ان يصحح عيوبها ، ان يداوي الادواء التي تحملها ، ان يبرز مزاياها الطبيعية ، وان يستخلص منها كل نوع الخير الذي يمكن ان تعطي . في كل مكان ، بلبلة عجيبة فكرية ومعنوية ، بقدر ما هي مادية . نرى مثلا الرجال المتدينين يكافحون الحرية ، اصدقاء الحرية يهاجمون الدين . وكأن التحالف ليس طبيعيا بين الحرية الأنسانية ، «مصدر كل عظمة خلقية» ، والمسيحية . وكأن المسيحية التي جعلت كل البشر متساوين امام

الله تكره ان تراهم جميعهم متساوين امام القانون ! نرى ايضا الفقير والغني يتباغضان اكثر ، منذ ان خفض تقسيم الثروات المسافة التي تفصلهما .

مع تقاربهما يبدوان قد وجدا اسبابا جديدة للتحاقد ، واذ يلقي كل منهما على الآخر نظرات يملؤها الرعب والحسد ، يتدافعان من السلطة ؛ بالنسبة لهذا كما بالنسبة لذاك ، **فكرة الحقوق** لا توجد قط ، والقوة تظهر لهما معا علة الحاضر الوحيدة وضمانة المستقبل الوحيدة .

كيف الاعتقاد ان هذه هي كلمة الخالق الاخيرة وان الله لا يهيىء للمجتمعات الاوروبية مستقبلا اثبت واهدأ ! «افضّل الشك في انواري على الشك في عدالته » .

والحال ، «ثمة بلد في العالم» ، بالضبط هذه الولايات المتحدة التي اختار توكفيل ان يدرسها ، حيث الثورة الديمقراطية الكبرى بلغت انبساطها الاكمل . وهذه الثورة حصلت فيها ببساطة وسهولة ، هذا الانبساط كان فيها «هادئا» . يقينا ، فرنسا ليست اميركا ، ولكنها ، عاجلا او آجلا ، ستصل هي ايضا الى تساوي الشروط الكامل . «السبب المولّد للقوانين والاخلاق العامة» واحد في البلدين . فرنسا اذاً لها مصلحة ، دون ان يكون عليها ان تنسخ اي نظام سياسي كان ، في معرفة كيف عملت اميركا .
تقريظ للولايات المتحدة ، لشكلها الحكومي الجمهوري ؟ بتاتا .

بل انني لم ادّع الحكم فيما اذا كانت الثورة الاجتماعية ، التي تبدو لي مسيرتها لا تقاوَم ، مفيدة او وخيمة للبشرية ؛ قبلت هذه الثورة كحقيقة واقعة ، او قريبة الوقوع ، وبين الشعوب الذين رأوها تحصل في حضنهم ، بحثت عن الشعب الذي عنده بلغت تطورها الاكمل والاهدأ ، **كي اميز بوضوح عواقبها الطبيعية واشاهد ، اذا امكن ، وسائل جعلها في صالح البشر .**

سيكولوجية توكفيل

هذه الصفحات من **المدخل** ، الملتهبة صدقا ، هي مع ذلك موجهة الى الجمهور. لنحاول القبض على سيكولوجية مؤلفها العميقة ، تبين «عطشه» ، بمساعدة وثيقة اكثر صميمية . ان رسالة يوجهها توكفيل في ١٨٣٧ الى صديق انكليزي ، وفيها يثور ضد التأويلات المتحيزة المعطاة لكتابه ، تنيرنا بشكل عجيب عن حالته .

يريدون مطلقا ان يجعلوني رجل حزب وأنا لست كذلك ... .
ينسبون الي بالتناوب أحكاما مسبقة ديمقراطية او ارستقراطية.
لربما كان يكون عندي من هذه أو من تلك لو وُلدت في قرن آخر
او في بلد آخر . ولكن مصادفة ولادتي قد جعلتني في يسر حماية
نفسي من هذه وتلك . لقد جئت الى العالم في نهاية ثورة طويلة ،
هي بعد ان دمرت الحالة القديمة لم تخلق شيئا ذا ديمومة .
الارستقراطية كانت قد ماتت حين بدأت اعيش ، والديمقراطية لم
تكن بعد موجودة . غريزتي ما كان يمكن اذاً ان تجرني بشكل اعمى
نحو هذه ولا نحو تلك . كنت اسكن بلدا كان ، طيلة اربعين سنة،
قد حاول قليلا من كل شيء دون التوقف نهائيا عند أي شيء . لم
اكن اذاً سهلا فيما يخص الاوهام السياسية . لمّا كنت انا نفسي
جزءا من الارستقراطية القديمة لوطني ، لم يكن عندي حقد ولا
حسد طبيعيان ضد الارستقراطية ؛ ولمّا كانت هذه الارستقراطية
مدمَّرة ، لم يكن عندي كذلك حب طبيعي لها ، فالمرء لا يتعلق تعلقا
قويا الا بما هو حي . كنت قريبا منها بشكل كاف كي أعرفها جيدا،
وبعيدا عنها بشكل كاف كي أحكم عليها بغير هوى . سأقول نفس
الشيء عن العنصر الديمقراطي . ما من مصلحة كانت تعطيني ميلا
طبيعيا وضروريا نحو الديمقراطية ، ولم اكن قد تلقيت منها ايـــة
اساءة . لم يكن عندي اي سبب خاص يبعثني على حبها ولا علـى
بغضها ، بصورة مستقلة عن الاسباب التي كان عقلي يقدمها لي .
بكلمة ، كنت في توازن جيد بين الماضي والمستقبل ، بحيث لم اكن
اشعر نفسي منجذبا بشكل طبيعي وغريزي لا نحو هذا ولا نحو
ذاك ، ولم أحتج الى جهود كبيرة كي ألقي نظرات هادئة فـــي
الجهتين .

هذا الرجل المتفوق ، الارستقراطي بالولادة ، كان قد نال في قسمته هبة التبصّر الرائعة والمرة . مع مزاج نبيل ليبرالي لعام ١٧٨٩ (زائدا الحمية الدينية)، كان قد جاء متأخراً الى العالم كي يُدغدغ كل أوهام ١٧٨٩ . من نابوليون ، كان قد لمح الاستبداد الامبراطوري الذي كان رصيد حسابه بلايا مخيفة (كان في العاشرة من عمره سنة ١٨١٥) ، دون أن يستطيع الاعجاب ، كجيل الاكبر منه ، بالعمـل القنصلي العظيم في اعادة البناء القومي . كان قد أمل في عهد الاعادة ، الذي ربما يستطيع تحت قيادة الملوك الشرعيين ، بوربون الفرع الاول ، توفيق المونارخيـــة القديمة والحرية الفتية . الملك العجوز شارل العاشر ، المطرود من السلطة بنتيجة اخطائه واخطاء الارستقراطية ، كان قد انتزع منه ، في تموز ١٨٣٠ ، دموعـــا عاطفية . ولكن صفاء البصيرة ، عند هذا الشاب المبكر كان يلعب عندَ اللزوم ضد عواطفه الخاصة وضد طبقته ذاتها ، مع أنه كان منها حتى النخاع . كان اذاً قد

لفظ وفاء لا جدوى فيه ، ترك الماضي الميت يدفن أمواته ، كي يتبع هذا الذي لم يكن يسمّى بعد «الصيرورة التاريخية» والذي كان عنده حدسه القوي . كان قد انضم بعد ۱۸۳۰ الى لوي ـ فيليب أورليان ، الى هذا الفرع الثاني الذي سيكون موضع احتقاره الدائم ، الى حكومة الطبقات الوسطى هذه ، التي سيكون له ، اذ يراها قيد العمل ، ان يحكم عليها بشكل لا يرحم . كذلك ، سينضم بدون تردد بعد ١٨٤٨ الى الجمهورية .

كانت قوة ذهنه قادته الى الرؤية العامة الواسعة ، الآنف عرضها ، لمسيرة ومعنى التاريخ الكوني : حلول حتمي للمجتمعات **الديمقراطية** ، اي **المساواتية** ، محل المجتمعات **الارستقراطية** ، اي **التسلسلية ـ الهيرارخية** . ان تكون المساواة، لا الحرية ، هي السمة الحقة للديمقراطية ، واقعة كان يطبعها بخطوط لامعة كالبرق في ذهن قرائه . الحرية هي السم ـ المضاد ، السم ـ المضاد الضروري للمساواة القصوى . اذ ان نفس التبصّر كان يمنع توكفيل من ان يتنبأ على نحو تقي ، كما يفعل ديمقراطي جلي ومكرّس ، بمستقبل فردوس ارضي للمجتمعات المساواتية . كان له ، عن الأدواء الملازمة للمساواة ، عن الاخطار التي كانت تعرض لها الاستقلالية والاخلاقية والرجولة والعظمة الانسانية (وهي الادواء نفسها التي كان برك ، في فورانه المضاد للثورة ، قد استشعرها) ، وعي حاد ؛ اكثر من ذلك ، وعي متألم ، مأساوي تقريبا . عدم تحيزه ، نزاهته الفكرية ؛ قدرته الفطرية او المكتسبة على القاء «نظرات هادئة في الجهتين» ، كانت تجبره على فضح هذه الأدواء وهذه الاخطار بعزيمة من شانها ان تعزّي وتشجع كل اعداء الديمقراطية .

ان تبصّرا بهذا القدر يقود بسهولة الى الريبية والى التشاؤم ؛ كان لتوكفيل ان ينجو من الاثنين .

من الريبية ، لانه كان يملك ايمانا سياسيا ، هو الحرية ، وفي الوقت نفسه ايمانا دينيا ، هو المسيحية ، ولأن هذين الايمانين اللذين ما كان بوسعه ان يفصلهما لم يكونا الا ايمانا واحدا في قلبه . الحرية ، كانت ، بالنسبة لتوكفيل ، هي جوهريا التحكيم الحر ، حرية خيار الشخص الانساني ، سلطته الاخلاقية على مصيره الخاص ، واجبه وحقه في ان يأخذ نفسه على عاتقه ، مع عدم ترك هذا الاعتناء المقدس لاي شخص آخر ، وخصوصا ليس للدولة . بأي كره ونفور سيدفع توكفيل اطروحة محميه وصديقه ، الكونت دو غوبينو de Gobineau ، في **المحاولة عن تفاوت العروق البشرية** (١٨٥٣ ـ ١٨٥٥) ، التي كانت تخضع الانسان لحتمية عرقية لا ترحم : «مؤلف يحاول ان يبرهن لنا ان الانسان في هذه الدنيا يطيع تكوينه ، ولا يستطيع اي شيء تقريبا على مصيره بارادته» . توكفيل كان يحب الحرية ، يقول لاكوردير Lacordaire بشكل رائع سنة ١٨٦١ ، في خطاب استقباله في الاكاديمية الفرنسية ، حيث كان يخلف مؤلف **الديمقراطية في اميركا**، «كان يحب الحرية وهو ينظر اليها في نفسه ، في بؤرة وجدانه ، بوصفها المبدأ

الاول للكينونة الاخلاقية والنبع الذي تندفق منه ، بالكفاح ، كل قوة وكل فضيلة ...» . في الرسالة المذكورة أعلاه ، توكفيل ، مدافعا عن نفسه من ان يكون رجل حزب واهواء ، كان قد أوضح : «يعطونني اهواء وليس عندي سوى آراء ؛ ا وبالأصح ، ليس عندي سوى هوى واحد ، هو حب الحرية ، والكرامة الانسانية . كل الاشكال الحكومية ما هي في نظري الا وسائل متفاوتة الكمال لتلبية هذا الهوى المقدس والمشروع الذي هو الانسان» .

توكفيل ينجو من التشاؤم (على نحو اكثر صعوبة) بالارادة وبالايمان الديني. التشاؤم خطيئة ضد الله . لهذه الادواء التي كانت تحملها الديمقراطية المساواتية، لهذه المخاطر التي كانت تعرّض لها النوع البشري ، كانت هناك ادوية . وهذه الادوية ، كان توكفيل يعرفها ؛ طبيعتها ، قيمتها ، كانتا قد انكشفتا له في اميركا. وكان سيعرّف عليها الذين سيقرؤونه . وكان ذلك ، على حد ما كان يبدو يعتقد، بالضبط مهمته الخاصة ، هو الذي كان عنده بهذه الدرجة تذوّق الخير : أن يعلّم اقرانه كيف يمكن قيادة الديمقراطية المرعبة . لنستشهد من جديد بـ لاكوردير ، الرائع هنا ايضا :

> ما يصفع ويجرف بخاصة ، هو نفحة الكتاب عينها ، حمية كريمة تحرك المؤلف ، وتشعر فيه الانسان المشغول بمصير اقرانه في الزمان وفي المستقبل ... . يرى الحقيقة ويخشاها ؛ يخشاها ويقولها ، تسانده هذه الفكرة الا وهي ان هنالك دواء ، انه يعرفه ، وأن معاصريه ربما او الاجيال الآتية ستناله منه . تارة الامل يتفوق على القلق ، تارة القلق يكسف الامل ، ومن هذا النزاع الذي يمضي باستمرار من المؤلف الى الكتاب ، ومن الكتاب الى القارىء ، تندفق مصلحة بها نتعلق ونسمو ونهتاج .

المساواة والعواقب الطبيعية (الأدواء)

الولايات المتحدة ، بتعاون خاص من ظروف ، ايضا بمفعول تشريع عن الإرث جاوز في كل مكان «مستواه» . تقدم ، في سنة ١٨٣٠ ، النموذج الاكثر سطوعا عن حالة اجتماعية مساواتية . «البشر يتبينون فيه اكثر مساواة بثروتهم وبذكائهم ، او ، بمفردات اخرى ، اكثر تساويا في القوة ، مما هم في اي بلد من العالم .ومما كانوا في أي قرن حفظ التاريخ ذكراه» .

ذاك هوى قوي هوى المساواة ، اقوى في قلب الانسان من هوى الحرية . ليس ان رجال العصور الديمقراطية ليس عندهم ذوق غريزي للحرية ؛ فالحكومة التي يتصورونها باديء بدء ويتذوقونها ويفضلونها هي الحكومة التي انتخبوا رئيسها ويراقبون افعالها ؛ «المساواة تعطي البشر بشكل طبيعي تذوّق المؤسسات

الحرة» . ولكن الحرية غير متعلقة باية حالة اجتماعية ، حصريا . لا يمكن اذاً ان تكون الرغبة الرئيسية والمتصلة لرجال العصور الديمقراطية . لاسيما وان الخيرات التي توفرها لا تتبين الا في المدى الطويل ، في حين ان خيرات المساواة تظهر نفسها في الحال :[1]

> الحرية السياسية تعطي من وقت الى آخر ، لعدد ما من المواطنين ، لذّات رقيعة . ـ المساواة توفر في كل يوم كثرة من تمتعات صغيرة لكل انسان . محاسن المساواة تحَسّ في كل اللحظات وهي في متناول الجميع ؛ انبل القلوب ليست دون التأثر بها ، والنفوس الاكثر وضاعة تتخذ منها لذتها ونعيمها . الهوى الذي تولّده المساواة يجب اذاً ان يكون بآن معا قويا وعاما .

ان لبإندفاعات سريعة وجهود مفاجئة تنطلق الشعوب الديمقراطية نحو الحرية ؛ اذا اخطأت الهدف ، اذا ابعدتها عنه قوة غاشمة ، تألمت ؛ ولكنها تسلّم . بينما عندها للمساواة «هوى حار ، لا يشبع ، أبدي ، لا يقهر ؛ تريد المساواة في الحرية ، واذا لم تستطع الحصول عليها ، فهي تريدها ايضا في العبودية . ستتحمل الفقر ، الاستعباد ، البربرية ، لكنها لن تتحمل الارستقراطية» .

انه هوى كثير الطلب ، لا يشبع ، هوى المساواة . الارضاءات الجزئية لا تهدئه ، بل تسعّره (وهو في هذا يشبه الهوى العشقي) . حين الحواجز الاجتماعية تُعتبر لا تُعبَر ، فان احدا لا يرغب في عبورها ؛ من اليوم الذي فيه احدها يُعبَر ، كل الباقية يجب ان تسقط سريعا جدا واحدا بعد آخر . لدرجة انه كلما قلّ ما يبقى من امتيازات ، زاد كره البشر للامتياز ؛ كلما قل ما للهوى الديمقراطي من طعام ، ازداد اشتعالا ؛ حب المساواة ينمو بلا انقطاع مع المساواة نفسها . «ان أصغر نشاز يبدو منفرّا داخل الرتابة العامة ؛ منظره يصير اكثر نشازا كلما صارت الرتابة اكمل» . يمكن تصور ان البشر وقد وصلوا الى درجة معينة من الحرية يرضون تماما ، ولكن طابع الهوى المساواتي الذي لا يشبع يجعل ان البشر «لن يؤسسوا ابدا مساواة تكفيهم» .

هوى المساواة ذو حدّين . تارة يدفع البشر الى ان يريدوا ان يكونوا «جميعا اقوياء ومعتبَرين» ، الى ان يريدوا ان يصعدوا جميعا الى مرتبة الكبار ، عندئذ هو «رجولة ومشروعية» . وتارة هو فسق ، لسوء الحظ شائع متواتر ، يدفع فقط الضعفاء الى ان يريدوا «جذب الاقوياء الى مستواهم» ، الى جعلهم مساويهم في الذل والعبودية .

من هنا عواقب سياسية كبيرة .

اذ ، حتما ، المساواة **الاجتماعية** تقود الى المساواة **السياسية** . ولكن يمكن تصور نظمتين من المساواة السياسية : سيادة الجميع او السلطة المطلقة لواحد

على الجميع . خيار مخيف ، كان الاميركيون اول من تعرضوا له ! كانوا سعداء ، فاضلين ، متنورين ، بما يكفي لكي يتجنبوا عبودية الجميع تحت سيد واحد ، ولكي يؤسسوا ويصونوا **سيادة الشعب** . هذه السيادة عقيدة اميركية حقيقية ؛ اتخذت في الولايات المتحدة كل الانماءات العملية الممكن تصورها ، كل الاشكال ؛ لا يوجد فيها اية سلطة خارجية عن الجسم الاجتماعي :

> المجتمع يفعل فيها بنفسه وعلى نفسه . لا توجد قدرة الا في حضنه ؛ بل لا يصادَف تقريبا شخص يجرؤ على تصور وخصوصا على قول فكرة البحث عن بعضها في مكان آخر . الشعب يشارك في تأليف القوانين باختياره المشرّعين ، في تطبيقها بانتخاب وكلاء السلطة التنفيذية ؛ يمكن القول انه يحكم بنفسه ، لشدة ما القسط المتروك للادارة ضعيف وضيق ، لشدة ما هذه الاخيرة تحس بأثر اصلها الشعبي ، وتطيع السلطان الذي صدرت عنه . الشعب يسود على العالم السياسي الاميركي كما الله على الكون . انه سبب وغاية كل الاشياء : كل شيء يخرج منه وكل شيء يُمتصّ فيه .

لا تنخدعوا هنا ، ذاك سلطة **مطلقة** . ولكن ليس سلطة شخص واحد . ولا بالضبط سلطة الجميع . إنه سلطة **العدد الاكبر** ، سلطة **الاكثرية** ؛ «خارج الاكثرية، في الديمقراطيات ، لا يوجد شيء . قوة حق وحيدة ، الاكثرية هي ايضا قوة واقع وراي جبارة ، ترتكز امبراطوريتها المعنوية على الفكرة ــ تطبيق نظرية المساواة على الذكاءات ــ الفكرة القائلة «انه يوجد من النور والحكمة في كثير من البشر المجتمعين اكثر مما يوجد في واحد» . في الولايات المتحدة ، الاكثرية ما ان تتشكل على مسألة حتى لا يسمح اي عائق

> لا اقول بإيقاف بل حتى بتاخير مسيرتها ، وبترك الوقتَ لها كي تستمع الى شكاوى الذين تسحقهم مرورا ... . حين يعاني انسان او حزب من إجحاف في الولايات المتحدة ، لمن تريدونه ان يتوجه ؟ للراي العام ؟ هو الذي يشكل الاكثرية . للجسم التشريعي ؟ انه يمثل الاكثرية ويطيعها طاعة عمياء . للسلطة التنفيذية ؟ الاكثرية تسميها ، وهي أداة للاكثرية منفعلة . للقوة العامة ؟ القوة العامة ليست شيئا آخر سوى الاكثرية تحت السلاح . لهيئة المحلفين ؟ هيئة المحلفين ، هي الاكثرية مرتدية حق اصدار قرارات : القضاة انفسهم ، في بعض الولايات ، منتخَبون من قِبل الاكثرية . مهما كان ظالما او مخالفا للعقل الاجراء الذي ينزل بك ، عليك اذاً ان ترضخ له .

تهديد مخيف للمستقبل ، للحرية ، هذه القدرة الكلية، احتماليا هذا الطغيان، للاكثرية . ذاك هو احد شرور ، احد اخطار الحالة الاجتماعية الديمقراطية ، حتى وان كانت تنجو من الشر الاعلى ، السلطة غير المحدودة لفرد واحد . هناك شرور اخرى . ولكن ، للعثور على منبعها الحقيقي والمنبع الحقيقي لذاك ، يجب مع توكفيل (في جزئه الثاني ، ثمرة «خمس سنوات من تأملات جديدة») الحفر عميقا جدا : الحفر تحت الطبقة السطحية للسياسة ، حتى في هذه المنطقة السرية التي فيها تتشكل الافكار والعواطف البشرية وفيها تاخذ الاخلاق الخاصة جذورها .

في قرون المساواة ، يفصح المؤلف ، كل انسان يبحث عن افكاره ، آرائه ، معتقداته ، في نفسه . يدير ، كذلك ، كل عواطفه نحوه وحده (هذه هي الفردوية) . لحن مزدوج مضافر ، يعالج باية سيطرة فكرية !

«في معظم عمليات الذهن ، لا يستنجد كل اميركي الا بالجهد الفردي لعقله»، وليس بالتقاليد ، بأجداده ، برجال زمنه المتفوقين (كما يفعلون في العصور الارستقراطية) . كل لا يأخذ الا في نفسه قاعدة حكمه ؛ كل منحبسا في نفسه ، يزعم من هنا الحكم على العالم . كل منحمل ، بنفس الحركة ، على استنتاج ان كل شيء في العالم قابل للتعليل وأن لا شيء فيه يتخطى حدود ذكائه . لدينا هنا عدا ذلك تطبيق غير واع من جانب الاميركيين لطريقة الفحص الحر الفردي لجميع المعتقدات . طريقة عممها ــ ولكن لم يخترعها ــ فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون . طريقة تسمح بالتعرض بسهولة لكل الاشياء القديمة وفتح الطريق لكل الاشياء الجديدة . طريقة كانت بهذا المعنى ليس فقط فرنسية ، بل ديمقراطية ، الامر الذي يفسّر لماذا قبلت بهذه السهولة في كل اوروبا ، فأسهمت الى هذا الحد في تغيير وجهها» . طريقة مع ذلك تصادف في اميركا مكبحا اختفى في اوروبا ، هو الدين ، «الذي يؤمنون به دون مناقشته» .

ليكون مغريا الاكتفاء بهذا التحليل . هذا يكون بسيطا جدا ، ولا شيء بسيط في مضمار المجتمعات الانسانية ؛ توكفيل ، معمّقا ، سيكتشف الان حركة للذهن معاكسة بالضبط .

الاستقلال الفردي في ميدان الفكر مهما كان عظيما يعرف حدودا . ينبغي ، حتى في القرون الديمقراطية ، ان تصادف السلطة الفكرية في مكان ما . ولكن اين ؟ خارج او فوق البشرية ؟ لا ، رجل المساواة ينفر من ذلك ؛ انه منحمل على البحث عن الحقيقة في جهة «مجموع اقرانه» ، في جهة العدد الاكبر ، الاكثرية ، على الاعتراف بـ «عصمة» الجمهور .

في ازمنة المساواة ، ليس عندهم اية ثقة بعضهم ببعض ، بسبب تماثلهم ؛ ولكن هذا التماثل نفسه يعطيهم ثقة غير محدودة تقريبا في حكم الجمهور ، اذ لا يبدو لهم معقولا ، بما ان عندهم جميعا انوارا متماثلة ، أن لا تصادف الحقيقة في جانب العدد الاكبر ... .

الجمهور له اذاً عند الشعوب الديمقراطية سلطان فريد ما كانت الامم الارستقراطية تستطيع حتى ان تتصور فكرته . انه لا يقنع بمعتقداته ، انه يفرضها ، ويجعلها تدخل في النفوس ، بنوع من ضغط جبار من روح الجميع على ذكاء كل واحد .

هذا ما يجري في الولايات المتحدة . كان توكفيل قد بيّن كيف ان الاكثرية تتمكن من ان ترسم حول الفكر هذه السلطة «غير المرئية وغير القابلة لان تمسك تقريبا» التي تستهزىء عادة بكل الطغيانات ـ «دائرة جبارة» . داخل هذه الدائرة، كان الكاتب حرا ، ولكن الويل له اذا تجرأ على الخروج منها ! لدرجة انه كان يفقد حتى التفكير بالخروج منها ؛ عين جذر حريته الروحية ، التي بدونها لا وجود لعبقرية ادبية ، كان متعفنا .

تلك هي الحركة المعاكسة التي يجريها الذهن في العصور المساواتية . هذه العصور يُخشى بذلك ان تطفىء الاستقلال الفكري الذي هي من جهة اخرى تسهله . بعد حملها روح كل انسان نحو افكار جديدة ، تخفضه طوعا الى الكف عن التفكير . «بحيث ان الروح الانساني ، بعد ان حطم كل القيود التي كانت تفرضها عليه بالامس طبقات او رجال ، يقيد نفسه تقييدا وثيقا بالارادات العامة للعدد الاكبر» . لهذا الاستبداد الفكري الجديد في نوعه ، توكفيل ، الذي يرى في حرية الروح شيئا مقدسا ، والذي لا يبغض قط الانسان ـ المستبد وحده ، بل الاستبداد في ذاته ، يقول بفخر لا . «بالنسبة لي ، حين احس يد السلطة تثقل على جبيني ، لا يهمني كثيرا ان أعلم من يضطهدني ، ولست أفضل استعدادا لتمرير راسي في النير ، لان مليونا من الأذرع يقدمونه لي» . مليون ، رقم لسنة ١٨٤٠ فقير ، يكون لتوكفيل ان يضاعفه اليوم ، حسب البلدان ، بعشرة ، مئة ، مئة وخمسين واكثر !

ذاك بالنسبة للروح ، بالنسبة **للافكار** . وهذا بالنسبة **العواطف** .

في العصور المساواتية ، كل انسان يدير عواطفه نحوه وحده . انانية ، سيقال . لا . الانانية تولد من غريزة عمياء ومن رذيلة في القلب . الكلمة الحقيقية هي individualisme **فردوية** ، حسب توكفيل ، الذي هو مسؤول عن المعنى غير المألوف الذي اتخذه هذا المصطلح المعتاد في العلم السياسي منذ **الديمقراطية في اميركا** . الفردوية تولد من الغريزة ، بل من حكم خاطىء ، من غلط للذهن كما ومن نشفان للقلب . «الفردوية هي عاطفة متفكرة وهادئة ، تهيىء كل مواطن للانعزال عن جمهور اقرانه ، وللانسحاب جانبا مع عائلته واصدقائه ؛ بحيث انه ، بعد ان يكون خلق على هذا النحو مجتمعا صغيرا لاستعماله ، يتخلى طوعا عن المجتمع الكبير لنفسه» .

المؤلف يفسر جيدا جدا لماذا هذه العاطفة ، الغريبة عن الارستقراطية ، تولد من المساواة . الارستقراطية كانت تربط الرعايا فيما بينهم بسلسلة طويلة ترجع صعودا من الفلاح الى الملك ؛ كل واحد كان تحت حماية شخص فوقه وكان يحمي

تحته شخصا يستطيع هو ان يطلب مساعدته . الديمقراطية تحطم هذه السلسلة و«تضع كل حلقة على حدة» . الارستقراطية كانت تبقي ايضا سلسلة ، اتصالا ، دواما بين الاجيال ، بين الاموات والأحياء والذين سيولدون . كل واحد كان يعرف أجداده وكان يعتقد انه يلمح ابناء احفاده ؛ كل واحد كان مستعدا «للتضحية بمتعه الشخصية لهذه الكائنات التي لم تعد او ليست بعد موجودة» . الديمقراطية تحطم ايضا هذه السلسلة الثانية ؛ العائلات تظهر ، تختفي ، تتغير :

> لحمة الزمن تنقطع في كل لحظة ، واثر الاجيال يمّحي ... . الاقربون وحدهم يهمون ... . هكذا ، ليس فقط الديمقراطية تنسي كل انسان أجداده ، بل هي تخفي عنه أحفاده وتفصله عن معاصريه . انها تعيده باستمرار نحوه وحده ، وتهدد بأن تحبسه اخيرا بكامله في عزلة فؤاده الخاص .

ذاك داء أخلاقي كبير ، مرض حقيقي للاخلاق العامة ، يؤدي الى انخفاض الصفة الانسانية بتفاهة الرغبات . في وسط المشاغل التافهة والمستمرة للحياة الخاصة ، الن تفقد النفس كل اندفاع وكل عظمة ؟ الن يتعفن الفؤاد ، لعدم إحيائه بأهواء عالية ؟ داء أخلاقي كبير ، الفردوية داء سياسي واجتماعي اسوأ ايضا ؛ انها «صدأ المجتمعات» . تفرغ **المواطن** من كل ماهية بإفراغها اياه من المدنية ــ الوطنية؛ تنضب عنده نبع الفضائل العامة المجتمعية ؛ تجعله من جديد **رعية** ، ان لم يكن عبدا يتذبذب بلا كرامة من العبودية الى الاباحية .

> ثمة أمم في اوروبا ساكنها يعتبر نفسه نوعا من مستوطن ــ مستعمر لامبال بمصير المكان الذي يسكنه . اكبر التغيرات تحدث في بلده بدون مساهمته ؛ حتى انه لا يعلم على وجه التحديد ما حدث ؛ عنده شك وتخمين ؛ لقد سمع الحادثة تروى بالصدفة ، اكثر من ذلك ، ان ثروة قريته ، أمن شارعه ، مصير كنيسته ومعبده ، لا تصيبه قط ؛ يفكر ان كل هذه الامور لا تعنيه بأي شكل، انها ملك لغريب قوي يدعى الحكومة . هذا الرجل ، عدا ذلك ، رغم كونه ضحى تضحية كاملة بتحكيمه الحر، لا يحب اكثر من سواه الطاعة . صحيح انه يرضخ لرغبة مستخدم حكومي ؛ ولكن يطيب له ان يتحدى القانون ، كعدو مهزوم ، ما ان تنسحب القوة . لذا نراه يتذبذب باستمرار بين العبودية والإباحية .

في اية امم يفكر توكفيل ؟ ربما في فرنسا زمنه . على كل حال ، ان أمما كهذه تبدو له «مهيأة للاستيلاء عليها» . اذا لم تغير قوانينها وأخلاقها العامة ،

ستهلك ؛ في نهاية الدرب الرذيل الذي تجتازه ، توجد **الفوضى** او **الاستبدادية** ، ثمرة مزدوجة للفردوية ، التي هي بنت المساواة .

حين البشر المنعزلون ، الذين لا فعل لبعضهم على البعض الآخر ، لا توقفهم الا السلطة ، فحين تنفقد هذه الاخيرة ، يشد كل واحد منهم الى جهته بدلا من ان يتحد مع اقرانه . البلبلة تبلغ في الحال طفحها ، يبدو ان الجسم الاجتماعي فجأة «تحوّل الى غبار» ــ غبار من أفراد متساوين جميعا ، وغرباء جميعا بعضهم عن بعض . هذه هي **الفوضى** ، **الانارخية Anarchie** .

لكن توكفيل لا يصدق ذلك الا قليلا ؛ ربما أقل من اللازم . انه يعلم بحدس وتجربة التاريخ كم السلطة تتجه دوما الى التكوّن من جديد ؛ يعلم ان مشهد الثورات من هذه الحيثية يخدع المراقب السطحي ، وأن هذه الثورات في نهاية الحساب قد عملت من اجل السلطة . الاتجاه الى الانارخية ، الى اللاسلطة ، المشتق بصورة غير مباشرة من المساواة ، الشعوب «تراه بسهولة وتقاومه» ، بينما هي تدع نفسها تنجرّ بدون ان تراها «بدرب أطول ، أخفى ، ولكن آمن ، نحو العبودية» . أن يفضح لمواطنيه ، رجال العصور الديمقراطية ، هذا الدرب الخبيث الذي يقود الى **الاستبدادية** ، هي ذي المهمة الملحة ، هي ذي المهمة الحقة لرجل هو توكفيل .

اذ ان كل شيء يسهم في إقحام الرجال الديمقراطيين على هذا الدرب . أفكارهم ، عواطفهم ، بدون حساب سلسلة من اسباب خاصة وعارضة ، تنجمع.

افكارهم : المجتمعات الارستقراطية عندها بشكل طبيعي تماما فكرة **الاجسام الوسيطة** او **الإجسام الثانوية** (التي انشأ مونتسكيو نظريتها) ، التي تنوضع بين الدولة الثقيلة والافراد . المجتمعات الديمقراطية عندها بشكل طبيعي تماما الفكرة المعاكسة ، فكرة سلطة **وحيدة ومركزية** ، تمارَس بلا وسيط وتنهال بكل ثقلها على الافراد ؛ بين الدولة والفرد ، ولا شخص ، ولا أي «مجتمع جزئي» (هكذا كان يريد **العقد الاجتماعي** ، هكذا يريد اعلان **حقوق الانسان**) . تلك عدا ذلك فكرة بسيطة وفكرة عامة . والحال ، ان الديمقراطية تحب الافكار البسيطة والافكار العامة ؛ فكرة سلطة متوسطة فكرة معقدة ، وراءها يُشتبه بسهولة باختباء افكار سيطرة طبقة مغلقة . العصور المساواتية تنزع الى السلطة الواحدة والمركزية ، وبنفس الحركة الى التشريع الواحد الرتيب («لماذا القاعدة الممكن تطبيقها على انسان لا تكون كذلك على جميع الآخرين ؟») .

لكن ، في مواجهة هذه السلطة الكبيرة التي تفرض على الجميع نفس القوانين، كم يصير الفرد صغيرا وبلا دفاع ! الفكرة الارستقراطية عن سلطات وسيطة ، عن حقوق ملازمة لبعض الافراد ذوي الامتياز ، قد حلت محلها «فكرة الحق الكلي ــ القدرة ونوعا ما الوحيد ، حق المجتمع ... ، وحدة ، كلية وجود ، شمولية امكان السلطة الاجتماعية ، واحدية قواعدها» .

عواطفهم : رجال العصور المساواتية هؤلاء ، الذين ينتزعون انفسهم بهذه الصعوبة من شؤونهم الخاصة لاجل شؤونهم المشتركة ، يميلون الى ترك السلطة

المركزية تأخذ حقوقا اكبر على الدوام ، اذ ، كذلك ، هي «المثل الوحيد المرئي والدائم لمصالح الجماعة» . فضلا عن ذلك ، هؤلاء الرجال المستقلون الى هذا الحد هم ضعفاء ، وشعور هذا الضعف يدير انظارهم نحو هذا الكائن الجبار ، الدولة، «الذي هو وحده يرتفع وسط الانخفاض العام» . اخيرا ، الحقد على الامتياز ، هذا الشعور الكلي القدرة ، يذهب في نفس الاتجاه . الدولة المركزة ، التي هي بالضرورة وبلا جدال فوق جميع المواطنين ، لا تثير حسد اي منهم ، و«كل واحد يعتقد انه يرفع عن أقرانه كل الصلاحيات التي يتنازل عنها لها» ؛ كل واحد يحب إشعار جاره ، مساويه ، «التبعية المشتركة التي هما كلاهما فيها لنفس السيد». بينما ، من جهتها ، السلطة المركزية تحب المساواة التي تسهل عملها بشكل لا مثيل له ، تحب الرتابة التي توفر عنها فحص عدد لا نهاية له من التفاصيل التي كان عليها ان تعنى بها لولا ذلك . تحب ، بكلمة ، ما يحبه المواطنون ، كما تبغض طبيعيا ما يبغضونه : الامتيازات ، الفروق :

> هذا الاشتراك في المشاعر الذي ، في الامم الديمقراطية ، يوحد بشكل مستمر في فكرة واحدة كل فرد وصاحب السيادة ، يقيم بينهما تعاطفا خفيا ودائما . يغفرون للحكومة اخطاءها لصالح أذواقها ؛ الثقة العامة لا تتخلى عنها الا بصعوبة وسط تجاوزاتها أو أغلاطها ، وتعود اليها ما ان تستدعيها . الشعوب الديمقراطية كثيرا ما تكره مستودَعي السلطة المركزية ، ولكنها دائما تحب هذه السلطة نفسها .

الى هذا تضاف **سلسلة من اسباب خاصة وعرضية** : منها الحروب ، الثورات، نمو الصناعة . الحروب تزيد بشكل مرموق محمولات الدولة ، المنساقة بشكل قسري تقريبا الى مركزة قيادة البشر وقيادة الاشياء . «كل عباقرة الحرب يحبون المركزية ... وكل عباقرة المركزية يحبون الحرب ...» . ـ الثورات المساواتية تحذف فجأة كل السلطات الوسيطة ولا تترك يبقى سوى جمهور خليط غير قادر على فعل منسّق . الدولة مدعوة اذاً الى حمل كل شيء . هكذا فـي فرنسا ، «بعد الاختفاء المفاجيء للنبالة وللبرجوازية العليا» ، كانت السلطات آتية بنفسها الى نابوليون : «ما كان يستطيع ان يرفضها بصعوبة أقل من ان يأخذها» . ـ نمو الصناعة يُظهر طبقة جديدة ، أرباب عمل وعمالا ، لهما علاقات متبادلة معقدة يجب ان تنتهي الدولة الى ضبطها . هذا النمو نفسه يثير ظهور اشغال عامة او نصف ـ عامة : ايضا الدولة . واذا بالدولة تجعل نفسها صاحبة صناعة ، لها ترساناتها ، معاملها : ذات يوم سوف تكون «رئيس او بالاصح سيد» كل اصحاب الصناعة الآخرين .

اذا لاحظ القاريء ايضا ان منشآت الاحسان ، التي كانت في الماضي اشياء

خاصة ، اصبحت اشياء دولة ؛ ان التربية ، التي كانت في الماضي شيئا خاصا ، اصبحت كالاحسان شيء دولة (الدولة «تتكفل بإلهام كل جيل مشاعر وباعطائه افكارا» واحدة رتيبة) ؛ ان الحكومة تهتم اكثر فاكثر ، في اوروبا ، بالدين بدفعها اجورا للاكليروس كموظف ، كخادم ، نافذة بواسطته «الى أعماق نفس كل انسان» ــ عندئذ ، هذا القارىء لن يتهم توكفيل بالتسليم لـ لا أدري اية فكرة ثابتة ، وبالمبالغة في تقدير تقدم السلطة الاجتماعية . ليراقب بنفسه ، هذا القارىء ، الواقع اليومي حوله ، ليسأل جيرانه وقلبه ، سيصل ، اذا كان بصيرا ، الى النقطة التي اراد المؤلف ان يقوده اليها .

سيدرك ان المركزية ، خلال نصف ــ القرن المنصرم ، قد نمت في كل مكان بألف شكل مختلف . الحروب ، الثورات ، الاستيلاءات ، خدمت تطورها ، كل البشر عملوا على انمائها . خلال هذه الحقبة نفسها ، التي اثناءها تعاقبوا بسرعة عجيبة على رأس الاعمال ، تغيرت أفكارهم ، مصالحهم ، أهواؤهم ، الى ما لانهاية؛ ولكنهم جميعا ارادوا ان يمركزوا بأشكال ما . غريزة المركزة كانت كالنقطة الوحيدة الثابتة وسط حركية وجودهم وأفكارهم ، الفريدة .

مركزة ، مَركزة : قناع حيادي وعصري للعبودية ! اختناق مميت لهذه الحرية التي يعبدها توكفيل ! مفارقة مدهشة لدى عصر يفاخر بالتحرر ، بالانعتاق ، وفيه ترتعش روح التمرد : هؤلاء الرجال انفسهم «الذين من حين الى آخر يطيحون بعرش ويدوسون الملوك بأقدامهم ، ينحنون اكثر فأكثر بلا مقاومة لاقل ارادات مستخدَم حكومي» . لهذه المركزة التي تصدمه وتغيظه والتي تتسلط على فكره ، سيكرس توكفيل ، بعد اثنتي عشرة سنة ، مؤلفه الكبير الثاني والشهير ، الذي لسوء الحظ قطعه موته المبكر في الرابعة والخمسين من عمره : **النظام القديم والثورة** . سيبين فيه المركزة الناتجة عن التدمير البطيء ، من قبل الملوك ، للمؤسسات الاقطاعية ، والثورة آخذة هذا الميراث من الملوك وموجهة الى الاقطاع المنازع ضربات الفأس الاخيرة . المركزية ، فتح من فتوحات الثورة ، يا له من باطل! الحقيقة ، توكفيل سيبرهن على ذلك ، هي ان الثورة لم تكن سوى «نقطة النهاية المفاجئة والعنيفة لعمل كانت عشرة أجيال من الرجال قد عملت عليه» .

مركزة ، مركزة . على امتداد **الديمقراطية في اميركا** ، توكفيل يصارع هذا الاخطبوط ، يدفع بهول ملمسه . لو لم يكن هناك دواء ضدها ، الى اين كانت ستنتهي بالنوع الانساني ؟ أليس الى حالة شبيهة «بتلك القرون الفظيعة من الطغيان الروماني» : أخلاق فاسدة ، آراء مهتزة مترنحة ، حرية مطرودة من القوانين ، مواطنون محرومون من اية ضمانات ، اباطرة يتعبون رحمة السماء اكثر مما يتعبون صبر رعاياهم الذليلين البليدين ؟ توكفيل كان يعتقد ذلك اول الامر .

لكن ، بعد تفكير ، ـ راجعا على هذا الموضوع في جزئه الثاني ، ـ يترك هذا الاعتقاد . ليست هذه الاستبدادية من الطراز القديم هي التي تهدد الامم الديمقراطية . بل استبدادية من نوع مختلف تماما ، من نوع جديد بالتمام . استبدادية الماضي كانت تزن بشكل عجيب ، ولكن على بعض الناس فقط . كانت عنيفة ، ولكن ضيقة النطاق . استبدادية الغد تكون «اوسع واعذب ، وستحط البشر بدون تلويعهم» . لن تكون عنيفة ، بل قاسية ، الا في لحظات نادرة ، في لحظات الاخطار الكبرى . استبداد اوصياء اكثر منه استبداد طغاة . استبداد حقا جديد في العالم ؛ يجب ايجاد كلمة جديدة لهذا النوع الجديد تماما من الاضطهاد . اذ لا يستطيع تعريفه ، المؤلف يرسمه لنا .

> أريد ان اتصور تحت اية ملامح جديدة يمكن ان يحصل الاستبداد في العالم ؛ ارى جمهرة لا تعد من بشر متماثلين ومتساوين ، يدورون بلا راحة على انفسهم لكي يحصلوا على لذات صغيرة ومبتذلة ، يملؤون بها نفسهم . كل منهم منطو منسحب جانبا وكأنه غريب عن مصير جميع الآخرين ؛ اولاده واصدقاؤه الخاصون يشكلون بالنسبة له كل النوع الانساني ... . فوق اولئك ترتفع سلطة جبارة ووصية ، تضطلع وحدها بتامين تمتعاتهم والسهر على نصيبهم . انها مطلقة ، تفصيلية ، نظامية ، متداركة، وعذبة . لكانت تشبه سلطان الاب لو ، مثله ، كان لها كموضوع وغرض تهيئه البشر لسن الرجال ، لكنها لا تسعى بالعكس الا الى تثبيتهم نهائيا في الطفولة ؛ انها تحب ان يفرح المواطنون شريطة ان لا يفكروا الا بأن يفرحوا . انها تعمل طوعا لسعادتهم ، لكنها تريد ان تكون وكيلها الوحيد وحكمها الاوحد ؛ تتدبر امنهم ، ترى سلفا وتؤمن حاجاتهم ، تسهل لذاتهم ، تسيّر شؤونهم الرئيسية ، تقود صناعتهم ، تضبط اعقابهم ، تقسم تركاتهم ؛ **اوليس بوسعها ان ترفع عنهم تماما كدر أن يفكروا ومشقة ان يعيشوا !**

هذا المعتقل المذل والعذب يكون اذاً هو المستقبل الذي لا علاج له ، مستقبل نوعنا ؟ كيف التسليم به ؟ ثمة علاجات ، مثال اميركا شاهد . ميول البشر الديمقراطيين ، التي تبدو قوة خفية تنميها بشكل لا يقاوَم في قلبهم ، ليست مع ذلك غير قابلة لان تقهر . هذه الثورة الديمقراطية التي لا مفر منها ، هناك وسائل ـ وجدها الاميركيون ـ لجعلها في نهاية الحساب لصالح البشرية .

وسائل جعل الثورة الديمقراطية
في صالح البشرية (الأدوية)

السم ـ المضاد للمساواة ، التي منها تولد الفردوية ، هو الحرية : «كثير من الناس في فرنسا يعتبرون مساواة الشروط او الاحوال داء اول والحرية السياسية داء ثانيا . حين يضطرون لتحمل احدهما ، يجهدون على الاقل للافلات من الآخر. وأنا اقول انه من اجل مكافحة الأدواء التي يمكن ان تنتجها المساواة لا يوجد سوى دواء واحد ناجع ، هو الحرية السياسية . هي وحدها يمكن ان تجعل في صالح البشرية الثورة الديمقراطية ، القريبة دوما من توليد الاستبداد . اذا لم نكن مسلمين قانعين بسلطة رجل واحد اللامحدودة ، اذا اخترنا ـ الخيار هنا وليس في اي مكان آخر ـ ان ندع انفسنا نسوّي بالحرية بدلا من ان نسوّى بمستبد ؛ اذا كنا مصممين على تأسيس «امبراطورية العدد الاكبر الهادئة» ؛ عندئذ لن نضيع وقتنا في محاولة اعادة بناء مجتمع ارستقراطي ، بل سنعمل بذكاء على «اخراج الحرية من حضن المجتمع الديمقراطي ، حيث يجعلنا الله نعيش» .

لا نخادعن انفسنا ! عند شعب فيه الشروط متساوية ، دائرة الاستقلال الفردي لن تكون في يوم من الايام بوسعها في بلدان النظام الارستقراطي . المجتمع سيكون فيه دوما اقوى ، والفرد أقل قوة ؛ «هذا قسري» . هذا لا يمنع ـ والاميركيون بيّنوه ، هم الذين كافحوا الفردوية بمؤسسات حرة و«هزموها» ـ انه من الممكن ان يقام عند شعب كهذا نوع من حكومة حرة . اي نوع ؟

توكفيل ينحي الفكرة الليبرالية القديمة ، فكرة الحكومات المختلطة mixtes ، حيث السيادة موزعة ؛ ليس اكثر وداً لهذه الحكومات ، او تقريبا ، من جيهان بودان ، ابن آنجو . خيال ، الحكومة المختلطة ، اذ ، في كل مجتمع ، ينتهون الى اكتشاف مبدأ عمل يسيطر على كل المبادىء الاخرى . في الديمقراطيات ، هذا المبدأ المحرّك هو الشعب ، عمليا العدد الاكبر . لا مجال للرجوع عن عقيدة سيادة الشعب . في هذا المعنى والاتجاه ، توكفيل ديمقراطي وينتسب الى روسو . ينفصل ، لعله الامر لم يلحظ بشكل كاف ، عن الليبرالية السياسية لمونتسكيو ، وأقرب اليه ، ل بنجامين كونستان Benjamin Constant لكنه يعتقد الحرية في خطر ، حين لا تجد هذه السلطة المتفوقة على سائر السلطات امامها «أي حاجز يمكن ان يوقف مسيرتها وأن يعطيها وقتا للتعدّل والاعتدال» .

المؤسسات الحرة ، بالنسبة لتوكفيل ، هي التي تضطر المواطنين الى الخروج من انفسهم ، الى نسيان شؤونهم الخاصة ، للاهتمام بالشؤون العامة ، وتعطيهم الافكار والعواطف المناسبة للعمل المشترك ، الصالحة لهز بلادتهم ، ابنة

---

٦ ـ انكلترة الجديدة بحصر المعنى اسم يعطى ل ست دول ـ ولايات اميركية في الزاوية الشرقية الشمالية من الولايات المتحدة ، وهي المستعمرات الانكليزية المؤسسة في القرن السابع‌عشر.

الفردوية . في مقدمة مؤسسات كهذه ، يضع المؤلف الحريات المحلية والجمعيات associations . ولكنه يعتبر ايضا ان الحرية ، ضد ميول الديمقراطية الى الاستبداد او الفوضى ، لا يمكن ان تستغني عن الحليف القوي الذي هو الدين .

الحريات المحلية . ـ المؤسسات الاقليمية او البلدية ، اي «الحريات المحلية» «اللامركزية» الادارية ، تلك هي ، بدرجة الامتياز ، المؤسسات الحرة . توكفيل يكن لها من الحب بقدر ما يحفظ من البغض للمركزية . بأي حماس يتكلم عن الكومونة (بخصوص المنظومة الكومونية في انكلترة ـ الجديدة) وعن الحرية الكومونية ، وهي شيء «نادر وهش» ولكنه ثمين للغاية (٧) . ارفعوا ، يقول ، قوة واستقلال الكومونة ، لن تجدوا فيها سوى «مُدارين لا مواطنين» (توكفيل عنده ، عن **المواطن** ، فكرة عالية جدا وكثيرة الطلبات !) . أنَ ، يعلن ،

> ان في الكومونة تكمن قوة الشعوب الحرة . المؤسسات الكومونية هي الى الحرية ما المدارس الابتدائية هي الى العلم ؛ تضعها في متناول الشعب ، تجعله يتذوق استعمالها الهادىء ، وتعوّده على استخدامها . **بدون مؤسسات كومونية ، تستطيع امة ان تعطي نفسها حكومة حرة ، لكن ليس عندها روح الحرية** . ان اهواء عابرة ، مصالح لحظة ، مصادفة الظروف ، يمكن ان تعطيها اشكال الاستقلال الخارجية ؛ لكن الاستبداد المكبوح داخل الجسم الاجتماعي يعود الى الظهور عاجلا او آجلا على السطح (*) .

اذ ليس كافيا تمثيل قومي مكلف بالشؤون العامة ، بشؤون البلد **الكبرى** .

---

٧ ـ **كومونة ، كومونات** Commune . Commun (من اللاتينية ـ صفة) = مشترك . (من اللاتينية ـ اسم = الاشياء المشتركة) : اجتماع برجوازيي مدينة واحدة يتمتعون بحق ان يحكموا انفسهم ، يفرضون هذا الحق . حركة الكومونات تاريخ كبير ومتنوع ، وجه بالغ الحيوية في الصعود الاوروبي الكبير في العصور الوسطى وبعدها (اوروبا الغربية ـ الشمالية : بلجيكا ، فرنسا ، انكلترة ، المانيا ، هولندة ... وبالتالي فيما بعد اميركا الشمالية البرجوازية) . كومونات = بلديات ، وحركة الكومونات حركة سياسية جبارة ، بالمعنى غير السطحي . ـ «غرفة الكومونات» = مجلس العموم البريطاني . ـ كومونة باريس : حكومة باريس البلدية القانونية من ١٧٨٩ الى ١٧٩٢ وبدءا من ١٧٩٢ كومونة باريس الانتفاضية التي اقامت نظام الارهاب . ـ ثم كومونة باريس الثورية البروليتارية (آذار ـ ايار ١٨٧١) . اليسار العربي الكبير يعرف هذه الاخيرة و... كومونة إربد. صحيح ان الكومونة هي ايضا جماعة المشاع البدائية القائمة خارج التاريخ او قبله .

(*) نص اخذه ادولف غاسر Adolphe Gasser كشاهد في صدر كتابه الحديث العهد : **الاستقلال الكوموناني واعادة بناء اوروبا** .

ينبغي ، كما فهم الاميركيون ذلك ، اعطاء حياة سياسية لكل قطعة من ارض الوطن؛ هذا يكاثر الى ما لانهاية ، بالنسبة للمواطنين ، فرص الفعل معا . الاهتمام معا بالخير العام ، الشعور في كل الايام بأنهم في تبعية متبادلة ، بأنهم «يعيشون في مجتمع» . وادارة الشؤون **الصغيرة** تناسب اكثر بكثير لهذا الغرض من حكومة الشؤون الكبيرة . «بصعوبة يُخرَج رجل من نفسه لجعله يهتم بمصير كل الدولة، لانه لا يفهم جيدا التأثير الذي قد يمارسه مصير الدولة على حالته . ولكن أينبغي تمرير طريق فيْ طرف ارضه ، فهو سيرى من النظرة الاولى ان علاقة تتصادف بين هذه القضية العامة الصغيرة واكبر قضاياه الخاصة ، وسيكتشف ، بدون ان تبيَّن له ، الرابطة الوثيقة التي توحد هنا المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة» . يرى القارىء ان مذهب **المصلحة المفهومة جيدا** ، الذي لا يبارح فم الاميركيين ، يظهر لتوكفيل بوصفه وسيلة اضافية قوية لمكافحة الفردوية الغريزية لدى البشر المساواتيين .

هكذا فان الحريات المحلية تعيد على الدوام بعضهم نحو بعضهم الآخر ، وتُرغم على التعاون ، اولئك الذين تفصلهم الافكار والعواطف التي رسم توكفيل لوحتها . انها تكوّن من جديد بالاصطناع أفكارا وعواطف معاكسة بالتمام ، هي الافكار والعواطف نفسها (تبادلية ، اخلاص ، تضحية) التي كانت تنتجها بشكل طبيعي تماما العصور الارستقراطية . انها تخلق من جديد ، في وجه السلطة السيدة ، اجساما **وسيطة** او **ثانوية** ، حواجز امام ممارستها بلا كابح .

الجمعيات associations . ـ بعد الحريات المحلية ، لا شيء يظهر اكثر ضرورة لتوكفيل ، ولاسباب مشابهة ، من الجمعيات الحرة .

عدد الجمعيات في الولايات المتحدة ، تنوّع اغراضها ، اذهلا توكفيل . انه يبين لنا الاميركيين من جميع الاعمار ، من جميع الشروط ، من جميع الذهنيات ، يتّحدون باستمرار ، من اجل النضال بأنفسهم ، دون الاستنجاد بالسلطة الاجتماعية ، ضد أدواء ومشاكل الحياة : الاولاد في المدرسة يضبطون فيما بينهم العابهم ، ويعاقبون فيما بينهم ذنوبا معرّفة من قبلهم ؛ المارة ، امام حادث سير ، يشكلون مع الجيران جمعية مرتجلة ستعالج الداء بدون انتظار الشرطة ؛ المواضيع الاخطر والأتفه ، الأعم والاخص ، تثير العمل المتشارك : تنظيم أعياد ، تأسيس سيمنارات ، بناء فنادق ، تشييد كنائس ، توزيع كتب ، ارسال مبشرين الى أقاصي المعمورة ، مكافحة الإفراط في الشرب ، توضيح حقيقة دينية او فلسفية ... . «لا يوجد شيء تيأس الارادة البشرية من بلوغه بالفعل الحر لقدرة الافراد الجماعية ... . حيثما على راس مشروع جديد ترون في فرنسا الحكومة وفي انكلترة سيدا نبيلا ، احسبوا انكم ستشاهدون في الولايات المتحدة جمعية».

عرّض ؟ توكفيل ، كمونتسكيو ، يعتقد قليلا بالأعراض في مضمار المؤسسات، وكثيرا بـ «العلاقات الضرورية» . بين الجمعيات والمساواة الديمقراطية ، يرى علاقة ضرورية . رجال المجتمعات الارستقراطية ليسوا بحاجة الى ان يتحدوا كي يفعلوا ، «لانهم ممسكون معا بقوة» . انهم بحاجة الى ذلك في الديمقراطية لانهم ،

بما انهم بآن مستقلون وضعفاء ، لا يستطيعون بانفسهم اي شيء تقريبا . كل الذي لن يعملوه بالاجتماع والتشارك ، الحكومة هي التي ستعمله . والحال ، ان فعلها، الناقص دوما ، خطير في كثير من الاحيان . خطر على الازدهار المادي ، خطر على اخلاق وذكاء شعب ديمقراطي : «العواطف والافكار لا تتجدد ، القلب لا يكبر ، والروح البشري لا ينمو الا بالفعل المتبادل للبشر بعضهم على بعض» ــ الفعــــل المتبادل الذي يولّده ويصونه ويغذيه الاجتماع ، ويطفئه ويقتله تدخل السلطة .

توكفيل يروي انه حين سمع لاول مرة ، في الولايات المتحدة ، ان مئة الف رجل تعهدوا على الملأ بأن لا يتعاطوا المشروبات القوية ، بدا له الامر دعابة اكثر منه جدا ، ولم ير جيدا في اول الامر لماذا هؤلاء المواطنون المعتدلون الى هذه الدرجة لا يكتفون بشرب الماء في البيت . ولكنه انتهى الى فهم أن

> هؤلاء الاميركيين المئة الف ، وقد افزعتهم الخطوات التي كـــان يخطوها السكر من حولهم ، ارادوا ان يمنحوا القناعة رعايتهم . لقد فعلوا بالضبط كما يفعل سيد كبير يرتدي لباسا بسيطا مستويا، كي يلهم المواطنين العاديين احتقار الترف . يجب الاعتقاد ان هؤلاء المئة الف رجل لو كانوا يعيشون في فرنسا ، لكان كل واحد منهم خاطب فرديا الحكومة ، راجيا اياها مراقبة الخمارات على طــول مساحة المملكة .

هذا يفسّر ان الجمعيات الفكرية والاخلاقية في اميركا ، التي تجعلنا نبتسم عن طيب خاطر والتي «نفهمها بشكل سيء» ، ضرورية للشعب الاميركي ، مثـــل «وربما اكثر» من الجمعيات السياسية والمهنية ، المألوفة اكثر لنا . ان علـــم الاجتماع او التشارك associations ، يقول توكفيل بطريقته الحكمية القضائية، هو «العلم ــ الأم» في البلدان الديمقراطية ، العلم الذي على تقدمه يتوقف تقدم كل العلوم الاخرى . بين القوانين التي تحكم المجتمعات البشرية ، هناك قانـــون يبدو للمؤلف محدّدا وواضحا بشكل خاص ، هو هذا : «لكي يبقى البشر متمدنين او يصيروه ، يجب ان ينمو ويتحسن بينهم فن الاجتماع ، بنفس النسبة التي بها ينمو تساوي الشروط او الاحوال» .

الدين والحرية . ــ «احد احلامي ، حلمي الرئيسي حين دخولي في الحيـــاة السياسية ، كان العمل على توفيق الروح الليبرالي والروح الديني ، مصالحـــة المجتمع الجديد والكنيسة» .

هذا الحلم لتوكفيل ، الذي كان يعرّفه هكذا في ١٨٤٣ الى صديق ، بقلم لا اوهام فيه ، كان ، ان لم يكن تشكل ، فعلى الاقل تغذّى وتقوّى امام مشهـــد الولايات المتحدة . توكفيل كان قد رأى هناك ، اكثر من موفقَين متحدَين صميميا، هذين الروحَين اللذين كانا في اوروبا يسيران بعناد في اتجاه متعاكس . الدين والحرية كانا قد رأسا معا تأسيس انكلترة ــ الجديدة على يد الطهرانيين ، الذين

كانوا يأتون الى العالم الجديد بمسيحيتهم «الجمهورية والديمقراطيـــة» . كانت الحرية الاميركية استطاعت ان ترى في الدين «رفيق نضالاتها وانتصاراتها ، مهد طفولتها» . منذئذ ، اتفاقهما لم ينقطع ذات يوم . الدين كان يؤمّن الاخلاق العامة، و ، بدون اخلاق عامة ، ــ يفكر توكفيل ، ــ لا توجد حرية . كان الدين يسهّل بشكل لا مثيل له ، لاسباب معقدة ، استخدام الحرية ، عمل الديمقراطيـــة الصعب . نافعا لكل الدولة ، بإسهامه بالدرجة الاولى في صـــون المؤسسات السياسية الاميركية ، لم يكن اقل نفعا للصحة الداخلية لكل مواطن بوصفه مواطنا.

«الاستبداد هو الذي يستطيع الاستغناء عن الايمان ، لا الحرية» . لئن كان بوسع الحرية ان تسمح لنفسها بأن ترخي الرابط السياسي ، فلأن الايمان يوثّق الرابط الاخلاقي . «في الوقت نفسه الذي فيه يسمح القانون للشعب الاميركي بأن يعمل كل شيء ، الدين يمنعه من ان يتصور كل شيء ويمنعه من ان يجرؤ على كل شيء» . الامر الذي بدونه ، بتراخي كل الروابط معا ، يهلك المجتمع . «ما العمل بشعب سيد على نفسه ، اذا لم يكن راضخا لله ؟» .

الديمقراطية ، هي حركة دائمة ، خض مستمر للعالم السياسي . الدين ، هو سرمدية ، جمود العالم الاخلاقي . هذا يعوض ذاك . «ثبات المعتقدات الـ خارج ــ الارض ــ يعقّب ديشتال d'Eichtal ــ يوقف أهواء البشر الزائلة» .

لكن توكفيل قطعي : ان الدين لا يسدي خدمات كهذه للدولة الاميركية الا لانه **حصرا وبدقة . منفصل** عنها ، لانه لا يتدخل مباشرة في حكومة المجتمع السياسية: النفوس وحدها له ، المواطنون يفلتون منه . الكاثوليكية في الولايات المتحدة صفّت الى جانب هذا التصور الليبرالي : «كاثوليك الولايات المتحدة هم بآن المؤمنـــون الاكثر رضوخا والمواطنون الاكثر استقلالا» . هكذا ، فالدين ، المستقل عن قوى الارض ، ليس (كما في أوروبا حيث السياسة والدين يتداخلان ويتشابكان بشكل وثيق) ينجرح بالضربات التي تستهدف هذه القوى .

الدين يخدم ايضا الحرية بمساعدتها على الكفاح ، في نفس وقلب المواطن ، ضد الميول الديمقراطية الوخيمة التي نعلم : فردوية ، حسد مسكين ، حب الرفاه الذي ينتهي الى كونه حاطًا . بلا هوادة رفع النفوس ، وإبقاؤها «منتصبة نحو السماء» ؛ السعي الدائم الى نشر «تذوّق اللانهاية» والشعور بالعظيـــم وحب المسرّات غير المادية ، في النفوس ، ذاك هو واجب المشرعين الاكثر الحاحا فـــي الديمقراطية . انهم لا يستطيعون انجازه بدون مساعدة الدين ، بدون حافـــز الروحانية ، فكرة خلود النفس . توكفيل ممتلىء استفظاعا للفكرة المادية القائلـة بان «كل شيء يفنى مع الجسد» ؛ يرى فيها افظـــع مرض للروح عنـــد شعب ديمقراطي ، لانها تدغدغ العيب الاكثر غريزية في قلبه : جشع التمتعات المادية . واذا لزم ان تختار ديمقراطية بين المادية وتناسخ الارواح ، الـــذي «ليس اكثر معقولية» ، لا يكون ، حسب المؤلف ، مجال للتردد : المواطنون لا يعرّضون ذواتهم «للتوحش بتفكيرهم ان نفسهم ستمضي في جسد خنزير ، بقدر ما يفعلـــون

باعتقادهم انها لا شيء» .

خلاصة

في الصفحات الاخيرة من نهاية المؤلف الجبار ، يستجمع توكفيل فكره المعذب:

> لقد أردت ان أعرض في ضوء النهار المخاطر التي تلحقها المساواة بالاستقلال البشري ، لانني اعتقد بحزم ان هذه المخاطر هي الارهب وأيضا الاقل في الحسبان من بين جميع التي يحويها المستقبل . ولكني لا اعتقدها لا تقهر .

اذ ، وان كان الامر لا يعجب بعض المذاهب التي يعتبرها المؤلف باطلة وجبانة، ما من قوة «لا تقهر ولا تفهم» ، متولدة من الماضي ، من العرق ، من الارض ، او من المناخ ، تقرر وتسحق الشعوب . في الحدود الواسعة للدائرة الجبرية التي ترسمها العناية الإلهية حول كل انسان ، الانسان «قادر وحر ؛ كذلك الشعوب» . كي تكون شريفة ومزدهرة ، يكفي ايضا الامم الديمقراطية «أن **تريد ذلك**» ؛ توكفيل يشعر نفسه ، وهو ينهي كتابه ، «ممتلئا بالمخاوف وممتلئا بالآمال» . مخاوف ، نعلم ما هي . آمال : خطط الله العادل ، الحرية الانسانية .

> الامم في ايامنا لا تستطيع ان تعمل أن لا تكون في حضنها الشروط متساوية ؛ ولكن **يتوقف عليها** ان تقودها المساواة الى العبودية او الى الحرية ، الى الانوار او الى البربرية ، الى الازدهار او الى البؤس والتعاسة .

على هذه الجملة الاخيرة ، — على هذا الـ **نعم** المتبصر والشامخ ، بلا تملق ، وتحت شرط ، للثورة المساواتية ، — وبنفس اللهجة الرصينة والمتوترة ، تقريبا الدراماتيكية ، التي بها كانت قد بدأت ، تنتهي **الديمقراطية في اميركا** ...
بعد ثماني سنوات كانت تنفجر في فرنسا ثورة شباط ١٨٤٨ .

الجزء الرابع

الاشتراكية والقومية (١٨٤٨ — ١٩٢٧)

«يمكن اعتبار مجتمع من المجتمعات نوعا من حيوان ضخم . أفهم ذلك على سبيل الاستعارة : لكن هناك صوفيون يريدون ان هذا الحيوان الضخم موجود واقعيا مثلك ومثلي ... . ليس هذا سوى ميثولوجيا» .

الان Alain

انه لتاريخ عظيم ، عام ١٨٤٨ . الثورة لها مدى آخر غير ثورة ١٨٣٠ . انها تواصل ثورة ١٧٨٩ ، ولكنها تتجاوزها . مولودة في فرنسا ، تنتشر في اوروبا : بروسيا ، النمسا ، بييمون — ساردينيا . بدون ان تخطىء ، بالعكس ، تنبؤات توكفيل ، تأتي لتعقد ايضا مهمة «الامم في ايامنا» . ها ان على الهوى المساواتي ينبت الهوى الاجتماعي (الاشتراكية ، socialisme ، ترجمة وفي الوقت نفسه حافز التناحرات الاجتماعية التي شددتها الصناعة الكبرى . **البيان الشيوعي** لماركس وانجلز ، المنشور على وجه الدقة في شباط ١٨٤٨ ، يسم من هذه الحيثية احدى المحطات الفكرية الاكثر اهمية في القرن .

من الان فصاعدا سيشنّ هجوم لم يعرَف عنفه من قبل ضد التقليد في كل أشكاله ، لاسيما في شكله القومي . الامر الذي يثير على سبيل رد الفعل تقليدوية جديدة ، ثورة — مضادة فكرية مجدِّدة الشباب ، تستند الى النزعة القومية ، الى

الهوى القومي المجروح والحاد . **التحقيق عن المونارخيـــة** ، لـ شارل موراس Maurras ، سياتي ، في سنة ١٩٠٠ ، بصيغتها الاصيلة .

التحقيق يتنفس الحقد على «أفكار ١٧٨٩» ، على الديمقراططية البرلمانيـــة والليبرالية . بيد ان هذه الديمقراطية لم تكـــن تكف ، في الوقائع ، فـــي السياسة العملية ، عن التقدم بين ١٩٠٠ و١٩١٤ . بل وكان يبـــدو ان لها ان تستوعب نهائيا الاشتراكية المدجّنة . لذا فحين جورج سوريل Georges Sorel ، وهو كاتب من اليسار ـ الاقصى عدا ذلك مجهول ، معنوَن نقابويًا ـ ثوروياً ، يستأنف تحت زاوية اخرى ، في **تاملاته عن العنف** الصادرة سنـــة ١٩٠٨ ، مطالعة اليمين ـ الاقصى المـوراســـي المناهضة للبرلمانية والمناهضـــة لليبرالية ـ فان رجال الاشتراكية الجدّيين لا يرون في ذلك سوى مفارقة . عدا ذلك انهم لا يقرؤون الكتاب ، الذي قراءته فضلا عن ذلك مُتعبة ، والذي لا تثمنه الا بعض الاقليات الثقافية . **التاملات** لن تجد حظها التاريخي الا بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٩ ، حين ستنهار ديكورات برلمانية كثيرة وسينفلت العنف الايديولوجي والمادي من عقاله : عنف لينين ، عنف موسوليني ، عنف هتلر . عندئذ كتاب سوريـــل بفضل عنوانه بشكل خاص سيعتبر ، رجوعيا ، كتابا تنبئيا عظيما . سيصير ، بدون ان يُقرأ اكثر كثيرا لذلك ، شهيرا ، وكذلك مؤلفه غير المعترَف به .

عنف لينين : ضد الاصلاحية الاجتماعية ، ضد الاشتراكية البرلمانية ، يدعو لينين الى الاستيلاء على السلطة بالقوة من قِبل البروليتاريا الثورية . هذه الاخيرة، ستحل محل الدولة «البرجوازية» الدولة البروليتارية . لكن ما هي **الدولة** بوجه عام ، في ذاتها ، ان لم تكن تنظيم العنف لصالح طبقة ضد طبقة اخرى ؟ وما هي اذاً ، في وجه الدولة ، المهام المتعاقبة للبروليتاريا الثورية ؟ لينين يشرح ذلك في **الدولة والثورة** ، احد اكثر المؤلفات دلالة من بين المؤلفات العديدة والمتفاوتة لرجل كان ، اكثر من كونه مخترعا فكريا ، عبقرية عمل .

عنف موسوليني : عنف يمين ـ اقصى من جانب رجـــل جاء من اليسار ـ الاقصى ؛ عنف تجربي محض في البداية (برنامجه الوحيد : ارادة «حكم ايطاليا») ، منه يُختلق المذهب بعد الضربة . موسوليني نفسه يعمل عليه . مقاله عند كلمة **فاشية** في الموسوعة الايطالية الجديدة يعرض بخطوط كبرى عدوانية الايديولوجيا السياسية والاجتماعية للنظام . الا ان هذا المقال لا يمكن ان يمثل بين المؤلفات السياسية الكبرى بالمعنى المعرّف هنا . ليس لموسوليني ، بل لـ هتلر ، تلميذه الالماني (تلميذ على الاقل حسب الظواهر) ، حُفظت مهمة ان يكتب ، قبل استيلائه على السلطة ببضع سنوات ، مؤلّف مذهب ودعاوة ، **كفاحي** Mein Kampf مدعوا الى الشهرة الخارقة التي يعلمها كل واحـــد . العنف ، على الصعيـــد الايديولوجي كما على الصعيد المادي ، يصل هنا الى الجنون : الجنون الاكثر صفاء والاكثر مكرا . ان «تصورا للعالم» بالتمام Weltanschauung، كما يحب أن يقول الالمان ، يجد تعبيره هنا ، تصورا لم يخطر للفاشية على بال : تصورا عجيبا ورجعيا، تنصب مباشرة في وجه تصور ماركس ، ويضع ، في معارضة **الطبقة** ، **العرق** .

الفصـل الاول

« بيان الحزب الشيوعي » ،
لـِ كارل ماركس وفريدريك انجلز (١٨٤٨)

«الواقع الحاسم ، الحدث التاريخي ، هو نمو طبقة جديدة ... . في الدراما ، البروليتاريا هي الشخص الرئيسي» .
إدوار دوليان Edward Dolléans

في مقال صغير مكتوب في أواخر ١٨٤٧ ، ظل غير منشور حتى **مذكرات**ه ، توكفيل ، مترصد المستقبل دوما ، كان يلفت انتباه السياسيين على الهجوم الفكري الذي يشن ، منذ بعض الوقت ، على حق الملكية : «هل نعتقد انه من باب الصدفة وبفعل نزوة عابرة من الذهن الانساني ، تظهر امام بصرنا من كل الجهات هـذه المذاهب المتفردة ، التي تحمل أسماء متنوعة ، ولكن التي لها جميعها كطابع رئيسي نفي حق الملكية ، التي على الاقل تنزع جميعا الى تحديد ، الى تقليص ، الى «نرفزة» ممارسته ؟» . وبعد وقت قليل ، في ٢٩-١-١٨٤٨ ، متكلما في المجلس ، كان الـ توكفيل نفسه يحذر بكلمات مهيبة النواب المرتابين

انظروا ماذا يجري في حضن هذه الطبقات العاملة ... ، الا

ترون ان اهواءها من سياسية صارت **اجتماعية** ؟ ألا ترون انه تنتشر تدريجيا في حضنها آراء ، افكار ، لا تذهب قط فقط الى الاطاحة بهذه القوانين او تلك ، هذه الوزارة او تلك ، حتى هذه الحكومة او تلك ، **بل** الى الاطاحة **بالمجتمع** ، الى زعزعته على القواعد التي عليها يرتكز اليوم ؟ الا تسمعون ما الذي يقال في كل الايام في حضنها ؟ الا تسمعون انه يردّد في صفوفها بشكل لا ينقطع ان كل ما يوجد فوقها غير قادر وغير جدير بأن يحكمها ؛ ان تقسيم الممتلكات الحاصل الى الان في العالم ظالم ، ان الملكية ترتكز على قواعد ليست قواعد عادلة ...؟

كل الذي كان يفضحه هكذا ، دراماتيكيا ، توكفيل : هذا الطعن في حق الملكية ؛ هذه المذاهب الفريدة في نوعها التي تتعرض بالهجوم للمجتمع نفسه حتى في أسسه الاقتصادية ؛ هذه الافكار الطموحة او المجنونة التي ترمي الى تغيير العالم — كل ذلك كان محتوى في كلمة ، مخيفة للبعض ، سحرية ومشحونة بالامل للآخرين : socialisme ، **اشتراكية** ، اجتماعية . احد ألوان الاشتراكية كان يحمل اسما اشد هولا ايضا او أشد سحرا : Communisme ، **شيوعيـــة** ، مشتركية .

الاشتراكية والشيوعية

الاشتراكية ، لا ريب ، لها جذر بعيد القدم في الصراع الأزلي بين الاغنياء والفقراء ، الذين عندهم والذين ليس عندهم ، في المطلب المساواتي الازلي ، في الروح «التوزيعي» . ولكن في العصر القديم ، في العصور الوسطى ، في القرن السابع عشر ، بل في زمن الثورة الفرنسية ، ما من مذهب متلاحم وفعال كان يسند هذا النضال ، هذا المطلب ، هذا الروح . غراكوس بابوف Grac chus Babeuf ، تلميذ روبسبيير ، ورئيس **مؤامرة المتساوين** عام ١٧٩٦ ، لا يمثل هو نفسه بعد سوى التيار الديمقراطي الاكثر تقدما في الثورة ، مع فكرة جنينية ، هذا صحيح ، عن دكتاتورية الطبقة الفقيرة ، الطبقة التي تتلقى التعذيب الاكبر من قبل اللامساواة الاجتماعية .

بالحقيقة ، حتى يمكن التكلم عن اشتراكية بالمعنى العصري ، كان يلزم تدخل بعض التحولات الاقتصادية والاجتماعية ، المرتبطة بتطور الصناعة الكبرى . كان يلزم ان تولد **بروليتاريا** ، طبقة جديدة وعلى حدة ، معسكَرة نوعا ما في الامة التاريخية . كان يلزم ان تكون شروط حياة هذه البروليتاريا في انكلترة وفي فرنسا ، الفظيعة احيانا ، قد لفتت انتباه محسنين ، اقتصاديين ، مفكرين ، من

شتى الاصول ؛ قد أثارت عندهم احتجاجا باسم العدالة او المحبة ؛ وفتحت هكذا مقاضاة **الفردوية** الاقتصادية (او **ليبرالية** او **راسمالية**) التي لا كابح لها . ركائز هذه الفردوية ـ ولننس من الان فصاعدا المعنى الخاص جدا الذي اعطاه توكفيل لكلمة **فردوية** ـ كانت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ؛ الربح الشخصي محركا وحيدا لانتاج الثروات ؛ التزاحم الحر او اللعب الحر لقانون العرض والطلب ، الذي يستبعد كل تدخل من جانب الدولة السياسية . واذا بهذه الركائز توضع مجددا في السؤال ، تخضع لنقد منهجي في كثير او قليل ، يجرى من وجهة نظر مصالح الطبقة الصناعية المضطهَدة والمستغَلة : البروليتاريا . الحرية السياسية نفسها ، الحرية الفردوية لاعلان حقوق الانسان ، لا تجد رحمة امام هذا النقد : محض حرية **حقوق** ، «حماية ميتافيزيقية وميتة» ، تترك الضعيف تحت رحمة الاقوياء ، شأنها شأن المساواة الحقوقية ! حرية ، مساواة «شكليتان»، يجب اعادة التفكير فيهما راسا على عقب ، ليس على صعيد السياسة الخالصة الخادع ، بل على الصعيد الاجتماعي ، من اجل اعطائهما اخيرا محتوى واقعيا !

الاسماء الرئيسية التي تسم ، قبل ١٨٤٨ ، هذا الاحتجاج الاشتراكي الكبير، هي أسماء سان ـ سيمون Saint - Simon ، فوريه Fourier ، أوين Owen ، لوي بلان Louis blane ، برودون Proudhon . كلمة Socialisme ذاتها ، اجتماعية ، **اشتراكية** ، تكون نحتت في ١٨٣٢ من قبل سان سيموني ، هو بيار لورو Pierre lerouse ، في معارضة individualisme **فردوية** .

سان سيمون ـ وهو سيد شريف كبير نزل من طبقته وهو الذهن الاكثر جسارة والاكثر ابتكارية في قرنه ـ والسان سيمونيون وضعوا في الاتهام الملكية الخاصة، الارث ، الموارد بلا شغل . بدؤوا النضال ضد استغلال البروليتاري ، الوريث المباشر ، حسب رأيهم ، للعبد والقن . حلموا بدولة مجدَّدة ، لا سياسية بعد الان، بل منتجة ، صناعية ، توزع الشغل ، تقرض مالا ، تنظم الانتاج . اذ ، بالنسبة لهم ، الحكومة شيء ثانوي ، محض واجهة : ما له حساب ، هو انتاج كل الخيرات الضرورية لسعادة الانسان وتنظيم هذا الانتاج .

فوريه ، وهو مستخدم تجاري صغير ، يريد ان يخلق بالفالانستير phalanstère ـ فندق كبير تعاوني ـ بيئة اجتماعية جديدة ، صالحة للتفتح الحر للانسان . فالبيئة الرأسمالية سيئة . فوريه ، و ، بوضوح أشد ايضا ، تلميذه كونسيدران Considerant (**مبادىء الاشتراكية** ، ١٨٤٣) ، ينتقدان الصناعة ، أزماتها من تضخم او فيض انتاج ، فوضاها الاقتصادية التي يتلقى العامل ماديا ومعنويا جميع انعكاساتها ، تنافسها الحر الزائف الذي يصنع فيالق من البروليتاريين تتضور جوعا . يكتب كونسيدران أن «خزّانات كبيرة من ارستقراطية جديدة تضخ تحت لون التنافس الحر ثروات الامة» . الحرية السياسية ، سيادة الشعب : واجهات ! هذا الشعب ، الذي يموت جوعا ، «سيد مضحك» ، يصرخ فوريه .

اوين Owen ، وهو رب عمل كبير انكليزي ، يريد تجديد عرق العمال الذى

انحلّ . الراسمالية ، مع عمودَيها ، الربح والتنافس الحر ، لا تبدو له موافِقة للنظام الطبيعي . يجب ان تستبدل بها منظومة انتاج مشترك ، تعاوني ، مؤسسة على تشارك المنتجين ، ستخلق بيئة اجتماعية موافقة للنظام الطبيعي .

اشتراكيون «طوباويون» u utopiques ، هؤلاء الـ أوين، السان‌سيمونيون، الفوريريون ، الذين يحلمون بالمجتمعات المقبلة ، ينبذون العمـــل السياسي ، يحاولون بتجارب صغيرة ان يشقوا طريق المستقبل لاختراعاتهـــم الاجتماعية ، يتصورون ان التاريخ سيعير نفسه مطيعا لوضع مخططاتهم موضـــع التطبيق . ولكنهم ، بنفاذ نقدهم ، الحقوا ضربات حاسمة بالراسمالية .

لوي بلان ، الذي يصدر في ١٨٣٩ **تنظيم الشغل** ، ــ وهو عنوان ذو دلالة ، ــ يقاضي هو ايضا التنافس وحرية ١٧٨٩ السياسية المجردة ، هذا السراب الخادع. يقترح **الشغل الاجتماعي** ، الذي يجمع عمال الحرفة الواحدة ؛ ولكنه ، بخلاف فوريه ، أوين ، «التشاركيين» الطوباويا ، يستنجد بالدولة لتمويل الشغل ، لتنظيمه ، لضبط انتاجه . الدولة ستكون مصرّف الفقراء الذي سيقدم لهم ادوات عمل . سيكون بتصرفها كل الوسائل الضرورية لاحلال حكومة علمية محل حكومة الصدفة في الحياة الاقتصادية . الصناعة الخاصة ستكبَح وتُرَدّ تدريجيا من قبل منافسة المشغل الاجتماعي الظافرة ؛ «في نهاية مرحلة تناحر ، ليس مخرجها موضع شك ، ستستسلم قسرا ، وعندئذ سينال الانتاج الصناعي في مجموعـــه دفعا فريدا سيطرد الازمات» (بول لوي . P. Louis (١) .

برودون ؛ محرك افكار قوي ، اكثر قوة وعمقا مما هو واضح وناجع ، ذهن دوما في حركة ، يظهر في سنة ١٨٤٠ ، مع **المذكرة الاولى عن الملكية** . «الملكية ، هي السرقة» . محاكمة تسيِّر حقوقيا ، بوقار ، ضد المداخيل بلا شغل . فكر برودون ينبسط ، ينسكب ويفيض ، نَهريا ، نافذا ومحيِّرا في كتابه **التناقضات الاقتصادية** او **فلسفة البؤس** (١٨٤٦) . يحرص المؤلف على الانفصال بعنف عـن الاشتراكيين الذين سبقوه : «الاشتراكية لا شيء ، لم تكن شيئا ذات يوم ، ولن تكون» . غلط ان يراد تدمير او حتى تقليص القوى الاقتصادية الموجودة . يلزم «أن **يوازَن** بعضها ببعض» ، خلق **التوازن** فيما بينها ، بدون قتل الحرية ، القوة الاقتصادية على سبيل الامتياز . يقينا ، الاقتصاد مليء بالتناقضات ، بهذا المعنى وهو أن كلا من وجوهه ، تقسيم الشغل ، تطور نظام الآلة ، الخ ، ينتج بآن خيرات وشرورا ، حسنات وسيئات . كل هذه التناقضات ، يجب ان نعمل «معادلتها العامة» . ما هي ؟ برودون يتحسس طريقه هنا ويتردد ، ويدع تستشف نظريته في التبادلية mutualité ، اي المساواة المعادة في تبادل الخدمات . البناء

---

١ ــ بول لوي Paul Louis (ق ٢٠) ، مؤرخ فرنسي كلاسيكي لحركة العمال ، صاحب كتاب «تاريخ الاشتراكية في فرنسا» وكتاب «الثورة الاجتماعية» .

ضعيف . اما لوحة الصعوبات ، الملازمة لطبيعته بالذات ، التي يتخبط فيها الاقتصاد الرأسمالي لعصره ، فهي رائعة . سيكون ممكنا اهانة برودون ، الاستهزاء بالاغلاط الفلسفية والتهورات التقنية لهذا العصامي العبقري ، لكن سيكون واجبا المرور به والاستعارة منه ، حتى حين يُشتم .

برودون ، عدا ذلك ، يعرف الشتم هو ايضا ولا يحرم نفسه من ذلك . لئن كان يتكلم بازدراء عن الاشتراكية السابقة له ؛ الشجرة الذابلة التي يدّعي جعلها تخضر من جديد ، فهو يعامل بقرف ، بغضب مسعور ، اولئك الذين يدعون – ويدعون انفسهم – آنذاك : الشيوعيين ، communistes .

شيوعية ، هذه الكلمة كانت تضع النبرة على وضع الممتلكات في اشتراك en Commun ؛ كانت تستحضر نزوعا الى العمل البروليتاري ، المباشر والشرس ، ضد النظام الاجتماعي الموجود ؛ كانت تسمي ، بالجملة ، «اشتراكية العمال» . «الاشتراكية» ، هذا كان يخيف البرجوازيين (البورجوا bourgeois ولكنه كان مع ذلك حركة برجوازية نسبيا ، نسبة الى الشيوعية ، الحركة العمالية بالجوهر . الشيوعية كانت تأخذ على الاشتراكية ان لها «دخلاتها في الصالونات» ، انها بالاساس والجوهر اكثر حرصا على ترميم البناء الرأسمالي العتيق وإخفاء صدعاته عن الأعين ، منها على اسقاطه لصالح عالم جديد . في أقصى احتمال ، كانت القضية ، كما عند الفوريريين ، «تشييد طابق جديد فوق الاساس العتيق العفن الذي يدعى رأسمالا» . بل الم يكن يزيّن ، في البرجوازية ، باسم اشتراكيين ، اولئك الذين كانوا يخترعون تحسينات لنظام السجون ، يبنون «ملاجىء للفقراء ، مستشفيات ، منشآت للحساء الشعبي» ؟ محض سخرية !

هذه الشيوعية ، مذهب العمال الذين خيبتهم السياسة ولم يعودوا ينتظرون شيئا الا من «تحويل اساسي» للمجتمع ، كانت في اول الامر ابتدائية بما فيه الكفاية . مرتبطة بالحزب الجمهوري الذي كان يتآمر بعد ١٨١٥ ضد آل بوربون ، ثم بعد ١٨٣٠ ضد لوي – فيليب ، كانت قد تغذت ب **بابوفية** مساواتية : اذ ان الفصل بابوف Babeuf في ١٧٩٦ قد كان بلا مدى ، ولكن «الاسطورة» البابوفية ، التي نقلها الى العمال الفرنسيين بووناروتي Buonarotti العجوز ، احد رفاق بابوف ، كانت ستلعب دورا هاما في تاريخ الحركة البروليتارية . ان اسما ليلخص جو السرية والتآمر والعنف الانتفاضي الذي كانت تسبح فيه الشيوعية : اسم بلانكي Blanqui ، المحرّض الذائع الصيت (٢) .

---

٢ – **بابوف** Babeuf ، زعيم اول محاولة انقلابية شيوعية ، معروفة باسم «مؤامرة انصار المساواة» ، وقعت في باريس سنة ١٧٩٦ (بعد الردة الترميدورية ، في اول عهد المديرين) ، أعدم بالمقصلة . **بووناروتي** ، من اصل ايطالي (ينتسب الى عائلة ميكل انجلو) ، رفيق بابوف ، نشر «قصة مؤامرة المساواة» في ١٨٢٨ . **بلانكي** (١٨٠٥ – ١٨٨١) بطل الثورات والسجون في القرن التاسع عشر .

الجمعيات الجمهورية ، «اصدقاء الشعب» ، «حقوق الانسان» ، «العائلات» ، «الفصول» ، التي حتى سنة ١٨٣٩ عذّبت حياة لوي ـ فيليب ، كانت اعشاشا للشيوعية . «في ١٨٣٦ ، جمعية **العائلات** ، في سنة ١٨٣٧ ، جمعية **الفصول** ، تشددان اكثر الطابع **الاجتماعي** لميولهما . اذ ان البروليتاريا آنذاك تملأ وحدها تقريبا الجمعيات السرية» (بول لوي P. Louis) .

في ١٢ و١٣ ايار ١٨٣٩ ، آخر انتفاضة عمالية لعهد لوي ـ فيليب ، بانتظار ثورة شباط ١٨٤٨ ، تسحق في باريس على يد الجيش والحرس القومي . كانت قد دبّرتها جمعية **الفصول** ، الجمعية السرية التي يقودها بلانكي وباربس Barbès . ومن المفيد فعلا ان نعلم ان جمعية سرية ليست هي فرنسية بل المانية ، اسمها **رابطة العادلين** ، كانت قد شاركت في الانتفاضة في صفوف جمعية **الفصول** ، وفتك بها في الهزيمة المشتركة . بالفعل كانت هناك شيوعية المانية ، اذ كانت مطارَدة وعاجزة في المانيا ، فقد كانت تهيىء المستقبل في باريس ، الملجأ السياسي القلق ، ولكن الحافز للفكر . وبقوة الاشياء ، كان المثقفون والعمال الالمان اللاجئون في فرنسا تحت النفوذ الوثيق للحركة الشيوعية الباريسية .

بعد فشل ١٨٣٩ ، اضطر اعضاء **رابطة العادلين** الى مغادرة باريس والبحث عن ملجأ جديد في سويسرة ، في انكلترة ، وسواهما . مستفيدين من حرية الاجتماع والالتقاء حيثما كانت موجودة ، تابعوا دعاوتهم الثورية . مجموعات شيوعية تكونت من جديد بهذه الطريقة في مدن مختلفة من اوروبا الغربية . طابعها غدا أمميا اكثر منه المانياً محض (ولو ان رؤساءها بقوا المانا ، عمالا او مثقفين) . اتخذت كشعار : **كل البشر اخوة** . لكن الاختلافات الداخلية ، لاسيما المذهبية ، كانت تلغمها ؛ وشرطات الدول المختلفة كانت تطاردها . المجموعة السويسرية ، التي صارت ذات شأن حول الخياط فايتلنغ Weitling فتكت بها محاكمات سياسية ، منها محاكمة ١٨٤٣ التي حكمت على فايتلنغ . مجموعة لندن جاءت عندئذ في راس الحركة : لاجئون سكاندينياف ، هولنديون ، مجريون ، تشيك ، روس ، سلاف ، الزاسيون ، مع الالمان ، «صورة مصغرة عن الشيوعية الدولية المقبلة» . في باريس كانت قد تكونت من جديد مجموعة ، فيها كانت أفكار كابه Cabet ، وهو صاحب يوتوبيا شيوعية صادرة في ١٨٤٠ (**الرحلة الى إيكاريا**) ، تزاحم الان البابوفية القديمة .

ان بحثا ـ يكتب آندلر Andler ـ كان مشتركا للجميع : «تبعا للوضعية السياسية الجديدة تكييف مذهب الحزب الذي كان قد انتهى الى اغلاط تكتيكية خطيرة» . هنا كان سيتدخل ، بشكل حاسم ، منظّران المانيان شابان كانا مجهولَين الى ذلك الحين : كارل ماركس وفريدريك انجلز .

ماركس وانجلز

كارل ماركس ، وهو ابن محام يهودي الماني اعتنق البروتستانتية ، كان قد وُلد في مدينة تريف Trèves في ١٨١٨ . كان طالبا ذا نضوج فكري مبكر بشكل خارق ، وقد انكبّ بشكل خاص على التاريخ والحقوق والفلسفة . هيغل ، عملاق الفكر ، كان يهيمن آنذاك على الذكاء الالماني . ماركس صف بين «الهيغليين اليساريين» ، المنشقين عن أورثوذكسية المعلم . واذ كان لا يستطيع التعليم في الجامعة البروسية المحرّمة على ذوي التفكير السيء ، دخل في الصحافة المتقدمة. اضطر الى التخلي عن الكتابة في المانيا وهاجر في ١٨٤٣ الى باريس . هنا كان له وحي الطابع الاساسي للاقتصاد السياسي وقطع عندئذ مع الفلسفة الهيغلية للحقوق . عرف برودون . في كانون الثاني / يناير ١٨٤٥ ، غيزو Guizot طرده من فرنسا بناء على طلب سفير بروسيا . التجأ الى بروكسل .

فريدريك انجلز كان ينتمي الى أسرة صناعيي غزل اغنياء . ارسله والده الى انكلترة للتدرب على الاعمال . كان هيغليا يساريا مثل ماركس ، الذي يكبره بسنتين ، وقد اكتشف الاشتراكية باحتكاكه مع الصناعة الانكليزية الكبرى ، التي الهمته كتابا مرموقا ، صدر في ١٨٤٦ ، عن **حالة الطبقات الكادحة في انكلترة** . كان قد التقى بماركس في باريس ، ورجع ينضم اليه ، من اجل التعاون الاكثر حرارة والاكثر تواضعا ، في بروكسل . هنا ، في ١٨٤٥ ــ ١٨٤٧ ، أحكما معا المذهب ــ الذي يرجع اختراعه ، حسب انجلز ، لماركس وحده ــ ، مذهب **المادية الجدلية** ، هذه «الهيغلية المقلوبة» ، الذي ، مطبّقا على دراسة المجتمعات ، يكتمل في **مادية تاريخية** . هذا المذهب كان على وجه التحديد سيسمح الان لماركس وانجلز بأن يمارسا علىالمجموعات الشيوعية لـ **رابطة العادلين** فعلا مقرّرا.

مقدرين منذ تلك اللحظة ان «أنعتاق العمال يجب ان يكون من صنع الطبقة العاملة ذاتها» ، لم يترددا برهة واحدة ــ يقول لنا انجلز ــ حول الاسم الواجب اختياره . سيكونان شيوعيَّين ، يريان في الاشتراكية حركة برجوازية . لنلاحظ مع ذلك انهما حاولا ان يجذبا برودون اليهما . لا شيء أجدر بالملاحظة من الرسالة ، بتاريخ ١٧ ايار ١٨٤٦ ، التي كان فيها برودون يبدي تحفظاته على اتجاهات ماركس (ردا على الرسالة التي كان قد بعث بها هذا الاخير اليه) . نقرأ فيها : «لنبحث معا ، اذا شئت ، عن قوانين المجتمع ... ، ولكن بالله عليك ، بعد ان حطمنا جميع العقائديين القبليين ، لا نفكّرن بدورنا بمذهبة الشعب ... ، لا نجعلن أنفسنا زعماء تعصب جديد ، لا نضعن انفسنا رسل دين جديد ، حتى اذا كان دين المنطق ، دين العقل» . كان ماركس قد المح ، في رسالته ، الى **لحظة العمل** . برودون يسجل العبارة : ماذا ، أيكون ماركس ما زال يعتقد بـ «الهجمة»، بـ «الذي كان يدعى بالامس ثورة ، والذي ليس ببساطة سوى هزة» ؟ برودون لم يعد يعتقد . انه يفضل «احراق الملكية على نار خفيفة ، على اعطائها قوة جديدة ،

باقامة مجزرة سان بارتيلمي للمالكين» .

ماركس وانجلز ، قبل اخذهما مكانهما نهائيا في الحركة الشيوعية ، كانا يريدان تصفية المذهب المشوّش الذي كانت تتجاور فيه بشكل عجيب المساواتية القصوى طراز بابوف ، الكابيتية الطوباوية ، «المسيحية البدائية» للخياط فايتلنغ، ومشتقات دنيا أخرى من الفلسفة الالمانية المهضومة بشكل سيء . ان شاهد عيان، هو الروسي آنينكوف Anienkof ، روى مشهد القطيعة مع فايتلنغ ، الحاصل في بروكسل في آذار ١٨٤٦ . الرواية مثيرة . نرى انجلز «طويل القامة ، مستقيمها ، وسيما مثل انكليزي» ؛ ماركس مع رأسه «رأس اسد» **تغطيه عفرة سوداء كثيفة** ، يديه «اللتين يغطيهما الشعر» ، سترته «المزرّرة كيفما اتفق» ، آدابه السلوكية العوجاء وغير الاجتماعية بتاتا ، ولكن الفخورة مع شيء من ازدراء، آداب رجل بات له رغم سنواته الثماني والعشرين «حق وقوة ان يفرض الاحترام». نسمع ماركس ، صوته القاطع ، الذي له رنين المعدن ، الصوت المعمول لاصدار «احكام جذرية» عن الرجال وعن الاشياء ، للافصاح عن أقوال آمرة تستبعد كل مناقَضة . هذه اللهجة ، يقول آنينكوف ، الذي يستخدم بخصوص ماركس عبارة **دكتاتورية ديمقراطية** ، «كانت تعبر عن الاقتناع العميق بأن له رسالة الهيمنة على الاذهان وإملاء قوانين عليها» . ينتهي الحوار بغضبة عنيفة من ماركس ضد فايتلنغ ، حين يحاول هذا الاخير تبرير عمله المؤسس على «**فكرة العدالة والتضامن والمحبة الاخوية**» ويجرؤ على اطلاق سخرية بصدد «التحليلات في غرفة التي كانت تبسَط بعيدا عن العالم المعذّب وعن آلام الشعب» . ضاربا بقبضته على الطاولة ضربة اهتز لها المصباح ، الدكتاتور الفكري يصرخ : «**لم يحدث قط ان خدم الجهل احدا**» .

هكذا بتصفيتهما منهجيا ، وبشراسة عند اللزوم ، اية هرطقات ، كان ماركس **وانجلز يعيدان صهر المجموعات الشيوعية حسب نظراتهما المذهبية الخاصة** . خلال صيف ١٨٤٧ ، قرر مؤتمر اول منعقد في لندن تكوين **رابطة الشيوعيين** ، «جمعية دولية من الشغيلة» ، سرية بطبيعة الحال . في ايلول ، كان صدور **مجلة شيوعية** ، مع شعار راسي : **يا بروليتاريي جميع البلدان اتحدوا** ! هذا كان الشعار الجديد ، الذي حل محل القديم ، «كل البشر اخوة» ، المطبوع بطابع مسيحي زائد ، ب «أحلام غرامية» ومضعفة . نقرأ في هذا العدد الاول – الذي سيكون ايضا الاخير :

> لسنا باعة منظومات ... لسنا شيوعيين يريدون تحقيق كل شيء بالمحبة ... لسنا شيوعيين يبشرون من الان بالسلام الابدي، بينما في كل مكان يتسلح خصومنا للقتال ... لسنا شيوعيين يعتقدون انه يمكن فورا بعد قتال ظافر ادخال اشتراكية المَتلكات كما لو بسحر ... لسنا شيوعيين يريدون ابادة الحرية الشخصية وجعل العالم ثكنة كبيرة او مشغلا كبيرا ...

في تشرين الثاني ــ كانون الاول كان مؤتمر ثان ، انعقد هو ايضا في لندن ، يعتمد الدستور الجديد (المادة الاولى : «ان هدف الرابطة هو قلب البرجوازية ، هيمنة البروليتاريا ، الغاء المجتمع البرجوازي العتيق المؤسس على تناحرات طبقية ، وتأسيس مجتمع جديد بدون طبقات ولا ملكية خاصة») . كان المؤتمر يقرر كذلك ، بناء على اقتراح انجلز ، اصدار **بيان** للحزب ، وسلّم تحريره لماركس . هذا الأخير امضى وقتا أطول ــ مع معاونة انجلز ــ مما كان يناسب . **البيان** لم يكن جاهزا تماما للصدور ــ كان في مرحلة الضبر ــ حين نشبت في باريس ثورة شباط ١٨٤٨ ، وهي ثورة ذات مهيمنة عمالية كان توكفيل قد اذاع توقعها بالمفردات التي نعلم .

مخطط «البيان»

ان شبحا يخيم على اوروبا ، هو شبح الشيوعية . كل قوى اوروبا العجوز تحالفت في صليبية مقدسة من اجل مطاردة هذا الشبح : البابا والقيصر ، مترنيش **Metternich** وغيزو ، راديكاليو فرنسا وشرطيو المانيا . اين هو الحزب المعارض الذي لم يفضحه خصومه الذين في السلطة بوصفه شيوعيا ؟ اين هو الحزب المعارض الذي لم يردّ لوم الشيوعية المشين الى رجال المعارضة الاكثر تقدما، كما والى خصومه الرجعيين ؟

الوثيقة الشهيرة التي تبدأ بهذه السطور الساخرة والعدوانية قصيرة جدا . الطبعة الاصلية الالمانية ، الصادرة في لندن ، تحوي ثلاث وعشرين صفحة قطع ١/٨ . الترجمة الفرنسية الاحدث (١٩٣٤) ، ترجمة موليتور ، التي نتبعها في هذا الفصل ، بأفضلية على ترجمة لودا لافارغ ، ابنة ماركس ، وعلى ترجمة ش. آندلر (١٩٠١) ، تحوي سبع وستين صفحة .

المخطط بسيط جدا . اربعة اجزاء . الاول ، عنوانه **البرجوازيون والبروليتاريون** ، لوحة جبارة في فلسفة التاريخ . ذاك نواة **البيان** ، جزؤه الحيوي (و ، في رأينا ، الجزء الحيوي في كل الماركسية) . الجزء الثاني ، وعنوانه **البروليتاريون والشيوعيون** ، يشرح موقع الشيوعيين نسبة الى مجموع البروليتاريين ، ويردّ المآخذ التي تأخذها «البرجوازية» على الشيوعية . تحت عنوان **الادبيات الاشتراكية والشيوعية** ، الجزء الثالث يستعرض بسخرية الاشكال المختلفة ، «الرجعية» او «الاقطاعية» ، «البرجوازية ــ الصغيرة» ، «المحافظة» او «البرجوازية» ، «النقدية ــ الطوباوية» ، للحركة الاجتماعية للعصر . الجزء الرابع ، المقتضب جدا ، يوضح **موقف الشيوعيين ازاء الاحزاب الاخرى في**

المعارضة . حيث نقرأ : «بكلمة ، ان الشيوعيين يساندون في كل مكان كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي الموجود . في كل هذه الحركات ، يضعون في الصدارة ، كمسألة اساسية ، مسألة الملكية ... . اخيرا ، ان الشيوعيين يعملون في كل مكان لاتحاد وتفاهم الاحزاب الديمقراطية في جميع البلدان» .

الجزءان الاخيران ، اللذان كانا يترجمان عن حالة للاشياء عابرة ، قد شاخا . اعادة قراءتهما مفيدة بالقدر الذي فيه ، مثل كل **البيان** نسيان تصميم المؤلفين الشرس على فصل الشيوعية «العلمية» جذريا عن كل الذي ليس هي ، على اقامة الحقيقة العلمية بدون مراعاة في معارضة «الجهل» ـ هذا الجهل الذي اخذه بقوة على الخياط فايتلنغ الفيلسوف الآمر ماركس . ولكن على الجزءين الأولين يجب ان تتركز دراسة راهنة **للبيان** . «البرجوازي» ، «البروليتاري» ، «الشيوعي» ، هم الابطال الثلاثة للتطور التاريخي الكبير الذي يريد ماركس وانجلز ان يكشفا لنا قوانينه الضرورية ، التي تفصح بآن عن الماضي والحاضر والمستقبل . في الجزءين الأولين ، وخصوصا في الاول ، ينفصح ويطبّق تحت وجوهه المختلفة هذا الذي سوف يدعوه انجلز ، في مقدمته لطبعة ١٨٨٣ ، **الفكرة الاساسية والقيادية** في **البيان** ، «ملكية ماركس المطلقة والحصرية» . هذه الفكرة ، يشرح انجلز ، هي التالية :

> ان الانتاج الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي الذي ينتج عنه **بالضرورة** لكل عصر من عصور التاريخ يؤلفان قاعدة التاريخ السياسي والفكري لهذا العصر ؛ بالتالي (منذ انحلال الملكية القديمة المشاعة للارض) ، ان كل التاريخ كان تاريخ صراعات طبقات ، صراعات بين طبقات مستثمَرة وطبقات مستثمِرة ، طبقات مقودة محكومة وطبقات قائدة حاكمة ، في مراحل التطور الاجتماعي المختلفة ؛ لكن هذا الصراع قد وصل في الوقت الحاضر الى مرحلة لم يعد فيها بوسع الطبقة المستغَلة والمضطهَدة (البروليتاريا) ان تنعتق من الطبقة التي تستغلها وتضطهدها (البرجوازية) ، بدون ان تعتق في الوقت نفسه والى الابد المجتمع بأسره من الاستغلال ، من الاضطهاد ، ومن صراعات الطبقات .

هذا المقطع من انجلز ، الذي هو قاض موصوف في هذا المضمار ، ذو اهمية جوهرية من اجل فهم **البيان** . انه يعطينا ، بلا جدال ، خيطه الموجّه . سنتبعه بأمانة . سنضيف فقط تحليلا لما هو جوهر «البروليتاريون والشيوعيون» : الا وهو ان الشيوعيين هم المستودعون الوحيدون ، لحساب البروليتاريا ، **للفكرة الاساسية والقيادية** التي افصح عنها انجلز ؛ لهذا السبب لا تخترقهم التأنيبات «البرجوازية» التي لا تترجم الا عن الجهل «البرجوازي» للتطور التاريخي .

الانتاج الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي الناتج عنه بالضرورة لكل عصر من عصور التاريخ يؤلفان قاعدة التاريخ السياسي والفكري لهذا العصر ...

بهذه الجملة يعرّف انجلز «المادية التاريخية» ، التي هي المسلّمة عينها التي عليها ترتكز كل الماركسية . ولكن هذه المادية **التاريخية** ليست هي نفسها سوى التطبيق على التاريخ لفلسفة عامة في الطبيعة والانسان : **المادية الجدلية** .

المادية . ـ الفلسفة الالمانية ، من كنط الى هيغل مرورا ب فيشته ، كانت قد دفعت الى الحد الاقصى ، ان لم يكن الى المحال واللامعقول ، تصور استقلالية الروح بالنسبة الى المادة ، الى الطبيعة . هيغل كان قد افضى الى **المثالية** المطلقة، التي كانت تقول بأن العالم الواقعي ما هو سوى التحقق التدريجي للفكرة الخالصة، المطلقة ، الموجودة من الأزل . منظومة كانت تفضي الى نتائج مسيحية وسياسيا محافظة ـ عليها كان يؤكد الهيغليون اليمينيون . هيغليو اليسار ، فويرباخ (**جوهر المسيحية** ، ١٨٤٢) ، ثم ماركس ، يردّون . العالم المادي المدرَك بالحواس، هو الواقع الوحيد ؛ خارجه لا يوجد شيء ؛ الكائنات العليا التي يخلقها الخيال الديني للبشر ليست الا «الانعكاس الخيالي» لكينونتهم الخاصة . وعي وفكر الانسان ، مهما ظهرا عاليين خارقين ، ليسا الا نتاجَي عضو مادي ، جسمي : المخ . هكذا تتبدد كل «الاهواء الغريبة المثالية» ، كل «العلاقات الخرقاء» .

المادية ، لكن جدلية . ـ بهذا المعنى ، ماركس ، انجلز ، رغم كونهما طلقا المثالية المطلقة ، كانا يظلان هيغليَّين. كانا ينبذان «منظومة» المعلم، ذات الامتدادات المحافظة . يحتفظان ب «طريقة» التنقيب والمعرفة ، ب **الجدل** الهيغلي ، السلاح الثوري في المقام الاول ، على حد تقديرهما . الطريقة الجدلية ـ ملاقية الفكر الجبار ل هيراكليت القديم ـ كانت تدرس الاشياء بوصفها «سيرورات» Provéssus ، بوصفها واقعيات **في حركة** ، في صيرورة دائمة مأخوذة في موج الحياة الذي لا ينقطع . كانت بذلك تعارض الطريقة التقليدية للمعرفة ، الطريقة «الميتافيزية» : هذه الاخيرة كانت تدرس الاشياء بوصفها موضوعات **ثابتة** ، مفعولة مرة ونهائيا ، جاهزة منتهية ، وكأنها ميتة ؛ كانت تدع نفسها تشَلّ بتنافيات ثنائية مزعومة للحق والباطل ، للخير والشر . **جدل** ، **ديالكتيك**، هذا يحوي الفكرة المزدوجة والمتضامنة ، فكرة الحركة والتناقضات المتخطاة . بعد **الاطروحة** او تأكيد ، يأتي **الطباق** او نفي ، يتبعه **التركيب** او نفي النفي : تلك كانت «الثلاثية» الهيغلية ، «السيرورة الجدلية» ، التي بموجبها يتقدم الواقع بحكم التناقضات عينها التي ينجبها ويحلها ، وكأن بقفزات متعددة بالتتابع . لكن هيغل ، الذي في نظره لم تكن الموضوعات الواقعية سوى انعكاسات هذه الدرجة او تلك من الفكرة المطلقة ، كان قد طبق الحركة الجدلية على الفكرة الباسطة

نفسها بنفسها . في حين ان ماركس ، الذي في نظره ليست الفكرة سوى انعكاس موضوع واقعي في الدماغ ، لا يستطيع ان يرى ، بالعكس ، في الجدل سوى علم القوانين العامة لحركة العالم الخارجي ، كما ولحركة الفكر ، التي هي عدا ذلك انعكاس الاولى . ماركس في الحاصل **يقلب** الهيغليانية ، يضعها من جديد على قدميها ، «الراس فوق» (عند هيغل ، كان الجدل ، بنتيجة الغلطة المثالية ، يسير على راسه) . وبالضربة عينها يحرر ماركس كل الامكانات الثورية التي كانت الطريقة ، خفية عن مخترعها العبقري ذاته ، تخبئها .

أفلم تكن هذه الطريقة الجدلية تقتضي وتتضمن انه لا توجد اية حقيقة مطلقة، نهائية ، مقدسة ؟ ألم تكن تبين «هرم كل الاشياء والهرم في كل الاشياء» ؟ ألم تكن تعلّم أن الحقيقة باتت تكمن «في سيرورة المعرفة عينها ، في الانبساط التاريخي الطويل للعلم الذي يصعد من الدرجات الدنيا الى الدرجات العليا للمعرفة ، لكن دون الوصول ابدا ، باكتشاف حقيقة مطلقة مزعومة ، الى النقطة التي فيها لا تعود تستطيع التقدم» ؟ لم يعد اي شيء موجودا سوى هذه السيرورة التي لا تنقطع من صير وانتقال ، هذا الصعود المستمر من الادنى الى الاعلى ، الذي لم تكن الفلسفة الجدلية «نفسها سوى انعكاسه في الدماغ المفكر» (انجلز) .

مادية جدلية يجب ان تميَّز جيدا عن المادية «**المبتذلة**» ، «العاميّة» . بالطبع، ما تدعوه اللغة العادية «مادية» لا شأن له هنا : ذاك ، كما يقول انجلز ، «شرَه ، سكر ، لذّات الحواس ، سير حياة باذخ ، طمع ، بخل ، جشع ، قنص الارباح ومضاربة في البورصة» . مادية **خسيسة** ، ذاك كله ، وليست فلسفية بتاتا ! لكن تاريخ الفلسفة كان يعرف المادية الانكلو ـ فرنسية ، مادية هوبز ورجال الموسوعة. مادية محض ميكانيكية ، لان الكيمياء والبيولوجيا كانتا بعد في مرحلة الطفولة ؛ لا ترى في الانسان سوى ماكينة ، آلة ؛ ضيقة ومسطّحة ، غير قادرة على النظر الى العالم بوصفه سيرورة ، وبالتالي على الرجوع صعودا الى الاسباب المحدّدة لتاريخ المجتمع ، كانت هذه المادية الانكلو ـ فرنسية ، غير الجدلية ، تستحق لهذه الاسباب اسم **مبتذلة** .

المادية التاريخية . ـ انها ، كما رأينا ، التطبيق على التاريخ ، بتعبير آخر على دراسة الحياة الاجتماعية عبر العصور ، تطبيق الفلسفة الخاصة ، المشتقة من عملية قلب الهيغليانية ، والتي عرضناها لتوّنا .

بما ان محرك التاريخ لا يمكن ان يكون ، كما عند هيغل ، الفكرة ، التي هي انعكاس وحسب ، فان هذا المحرك يجب ان يوجد في العالم المادي . ماركس شرح ، في المقدمة الشهيرة لمؤلّفه **نقد الاقتصاد السياسي** ، الذي ينبىء بمؤلّف **راس المال** الذائع الصيت ، كيف كانت بحوثه في باريس وفي بروكسل قد وجهته في هذا الاتجاه .

ظهر له ان العلاقات الحقوقية والاشكال السياسية للدولة ، وبصورة أعم الاشكال الايديولوجية ، الدينية ، الفنية او الفلسفية ، لا يمكن ان تفهَم «لا بذاتها ولا بالذي يقال له الانبساط العام للروح البشري» ، بل بالعكس لها جذرها في

العلاقات المادية للحياة . جذرها ، بقول آخر ، في هذه العلاقات التي يدرسها الاقتصاد السياسي ، علم ـ مفتاح كل الباقي ، الذي كانت المدرسة الانكليزية مع آدام سميث Adam Smith وريكاردو Ricardo قد ضبطته . «في الانتاج الاجتماعي لوسائل الوجود ـ يكتب ماركس ـ البشر يعقدون علاقات محدّدة ، ضرورية ، ومستقلة عن ارادتهم ، **علاقات انتاج** متناسبة مع مرحلة محددة في انبساط **قواهم المنتجة** . كل مجموعة علاقات الانتاج هذه تشكل بنية المجتمع الاقتصادية» . هذه البنية الاقتصادية هي القاعدة الواقعية ، الاساسية ، **البنية ـ التحتية** ، التي عليها مشادة **بنية ـ فوقية** حقوقية ، سياسية ، فكرية او «ايديولوجية» . هكذا ان نمط انتاج الحياة المادية «يحدد بوجه عام السيرورة الاجتماعية والسياسية والفكرية للحياة» . ان نمطا انتاجيا معطى ـ الطاحون الذراعي للعصر الاقطاعي ـ يحدد **بالضرورة** بنية اجتماعية معطاة (ليكن : تقسيما ما الى **طبقات**) ، ومن هذا **بالضرورة** تنظيم ما سياسي ، حقوقي ، مشاعر ما وافكار ما: مشاعر ـ انعكاسات ، أفكار ـ انعكاسات . ماركس يتكلم عن «أشكال الوعي ـ الوجدانالاجتماعية المحدّدة» التي توافق البنية التحتيةالاقتصادية. يوضح ويقطع: **«ليس وعي الانسان هو الذي يحدد طريقة كينونته ، بل بالعكس ان طريقة كينونته الاجتماعية هي التي تحدد وعيه»** .

ان نمط الانتاج يتغير ، ونمط التمايز الاجتماعي او الانقسام الى طبقات ، الذي يوازيه بالضرورة ، يتغير ايضا . هذه التغيرات تحصل جدليا ، **باللعب الهيغلي** للتناقضات الداخلية او التناحرات التي يحملها كل واقع اجتماعي في حضنه والتي تترجمها عبارة **صراع الطبقات** ...

هذه الشروح الطويلة كانت لا غنى عنها ، لان المادية الجدلية والمادية التاريخية تؤلفان الاساسات الفلسفية **للبيان الشيوعي** . الماركسية قبل كونها اقتصادا وسياسة هي فلسفة ، وبخاصة فلسفة للتاريخ ، وقيمتها في الاخير بقيمة هذه الفلسفة . لكن **البيان** نفسه لا يربك ذاته بمحاكمات فلسفية مبسوطة . هادفا الى كسب البروليتاريا عمليا ، «بدءاً ببروليتاريا المانيا» ، الى مذهب للحركة الاجتماعية علمي" اخيرا ، اذ هيفصح ، يؤكد ، اكثر مما يبرهن . يحرص على عدم ابراز سوى الخطوط الاعم والاسهل بلوغا في المذهب ، وفي الوقت نفسه الاكثر قابلية للانتفاع المباشر في الكفاح الفوري . «آن الاوان واكثر لكي يعرض الشيوعيون على المكشوف ، في وجه العالم قاطبة ، أفكارهم ، اهدافهم ، اتجاهاتهم ، ولكي يعارضوا خرافة الشبح الشيوعي ببيان من الحزب نفسه» . العرض التقني للهيغليانية المقلوبة ما كان يكون له ما يعمله في وثيقة تقدّم ، بهذه النبرة المعممة، علة وجودها العملية . كل ما كان لازما وكافيا ،هو ان يعطي **البيان** ، تحت شكل عقيدي يستبعد النقاش ، مآل سلسلة المحاكمات الطويلة ، الآنفة : الا وهو ان محرك التاريخ هو ، في آخر تحليل ، صراع الطبقات . هذا ما تفعله ، منذ الجملة الاولى من الجزء الاول ، وثيقتنا :

البرجوازيون والبروليتاريون . – ان تاريخ كل مجتمع ماض [حسب ترجمة آنجلز : «كل تاريخ المجتمع البشري حتى هذا اليوم] **هو تاريخ صراعات طبقات» .**

صراع الطبقات

... صراعات بين طبقات مستغلة وطبقات مستغلة ، بين طبقات مقودة وطبقات قائدة ، في مختلف مراحل التطور الاجتماعي ؛ ... حاليا ... الطبقة المستغلة والمضطهدة هي البروليتاريا ... الطبقة التي تستغلها وتضطهدها : البرجوازية .

تعرّف القارىء على الحدود التي كان بها انجلز في ١٨٨٣ يبسط الوجه الثاني من الفكرة «الاساسية والقيادية» في **البيان** . منذ ان اختفت الملكية المشاعة القديمة للارض ، قانون الجماعات البدائية (التي كانت تجهل التملك الخاص لوسائل الانتاج) ، ظهر اضطهاد واستغلال الانسان للانسان . كانا ثمرة انشطار المجتمع الى طبقات خاصة ، من جراء نظام الملكية الجديد . التاريخ ، التاريخ بالمعنى الحقيقي الخاص ، المنقول **بالكتابة** ، الذي هو لاحق لهذا الانشطار ، نقل الينا لوحة الاضطهاد المظلمة – والصراع الموازي – منذ العصر القديم . **البيان** يلخصها في خطوط كبيرة لامعة كالبرق :

رجل حر وعبد رقيق ، رجل من الخاصة ورجل من العامة ، بارون Barron وقن ، معلم حرفة وحريف Compagnon ، بكلمة مضطهِدون ومضطهَدون ، كانوا في تعارض دائم بعضهم ضد بعض ، وخاضوا صراعا لا هوادة فيه ، مخفيا تارة ومكشوفا تارة اخرى ، انتهى في كل مرة بتحول ثوري للمجتمع كافة او بالتدمير المشترك للطبقات المتصارعة ... . المجتمع البرجوازي الحديث ، المشتق من انهيار المجتمع الاقطاعي ، لم يلغ التعارضات الطبقية . كل ما فعله هو انه احلّ طبقات جديدة ، شروط اضطهاد جديدة ، اشكال صراع جديدة ، محل القديمة . ولكن عصرنا ، عصر البرجوازية ، له هذا الامر الخاص ، وهو انه **بسّط** التعارضات الطبقية . اكثر فاكثر المجتمع بأسره ينقسم الى معسكرين كبيرين متعاديين ، الى طبقتين كبيرتين هما على طرفي نقيض ، البرجوازية والبروليتاريا .

«برجوازي» ، «برجوازية» ، لهما في اللغة الماركسية معنى خاص (ولانه لا

يؤخذ حذر ذلك، ترتكب تأويلات كثيرة مخالفة للصواب). برجوازي bocrgeois مرادف لصاحب الراسمال ، الراسمالي ، الصناعي الكبير الذي ، بفضل حيازته راسمالا مهما ، يشغل عددا لا باس به من ذوي الاجور . «المليونيرية الصناعيون ، رؤساء جيوش صناعية بالكامل ، البرجوازيون الحديثون» : هكذا يقول **البيان** . انجلز يكتب : «البرجوازية ، اي الراسمال الكبير» .

هذه البرجوازية ، بتعبير آخر هذه الطبقة الراسمالية ، ماركس وانجلز يبيّنان لنا كيف هي نابعة ، جدليا ، من تفسخ المجتمع الاقطاعي ، الذي تعمل فيه تناقضات داخلية . إثر الاكتشافات الكبيرة ، وظهور اسواق جديدة ، وتزايد السلع ووسائل التبادل ، حصل تناقض متنام بين توسع الحاجات ونمط الانتاج المتجاوَز: المشغل الحرفي . هذا الاخير حلت محله المانيفاكتورة مع تقسيمها للشغل ، بينما كانت طبقة وسطى صناعية تحل محل معلمي الحرف المحلّفين . ولما صار النمط المانيفاكتوري بدوره غير كاف امام التوسع المستمر للاسواق والحاجات ، فقد حلت الصناعة الكبرى الحديثة ، ابنة الآلة البخارية ، محل المانيفاكتورة ، والبرجوازي الحديث محل الطبقة الوسطى الصناعية . وبذلك تحققت السوق العالمية اخيرا . التجارة ، الملاحة ، المواصلات البرية ، انطلقت انطلاقا عجيبا . من هنا قفزة جديدةَ الى الامام للصناعة الكبرى . هذه الاخيرة تزيد رساميلها . انها «ترجع الىٰ ألوراء كل الطبقات الموروثة من العصر الوسيط» : ارستقراطية اقطاعية، فلاحون صغار ، برجوازية صغيرة . من جهة اخرى ، الى جانب هذه البرجوازية ـ الصغيرة الآتية من العصور الوسطى ، السيرورة التاريخية ستكوّن الان برجوازية ـ صغيرة اخرى ، متوسطة بين البروليتاريا والبرجوازية بالمعنى الحقيقي الخاص .

البرجوازية الحديثة ، الطبقة المهيمنة حاليا ، هي اذاً نتاج سلسلة من ثورات اجريت في نمط الانتاج ووسائل الاتصال . في كل مرة انقطعت فيها علاقات الانتاج الموجودة (المترجَمة حقوقيا بعلاقات ملكية) عن التوافق مع تطور القوى المنتجة ، صائرة هكذا قيودا وسلاسل كان ينبغي ان تحطم ـ حُطّمت . وعلى حطام المشغل الحرفي والمانيفاكتوري ، انتهى الى اقامة عرشه زعيم المصنع الراسمالي الكبير ، على راس جيش صناعي حقيقي ، **البرجوازي** بالمعنى الماركسي.

وبما ان التاريخ السياسي ان هو الا يعكس التغيرات في التمايز الاجتماعي التي تنتج هي نفسها عن التغيرات في نمط الانتاج ، فان

> كلا من هذه المراحل في تطور البرجوازية كان يصحبها تقدم **سياسي** موافق . طبقة مضطهَدة تحت سيطرة الاسياد الاقطاعيين، جمعية تشارك مسلحة ومستقلة في الكومونة ؛ هنا جمهورية مدينية مستقلة ، هناك طبقة ثالثة تحت الضرائب في المونارخية ؛ ثم ، في عصر المانيفاكتورة ، وزنا مقابلا لطبقة النبلاء في المونارخية مع دول ـ ولايات اقليمية او في المونارخية المطلقة ، وأساسا

جوهريا للمونارخيات الكبرى بوجه عام ؛ البرجوازية ، منذ خلق الصناعة الكبرى والسوق العالمية ، قد استولت اخيرا على السيادة السياسية الحصرية في الدولة التمثيلية الحديثة . **ان الحكومة الحديثة ليست سوى وفد يسيّر الشؤون المشتركة لكل الطبقة البرجوازية .**

هل سيدين **البيان الشيوعي** ، ولو بكلمة ، هذا الصعود الجشع للبرجوازية الى السيادة الاقتصادية والسياسية ؟ ان ادانة كهذه ، باسم لا ادري اي مطلق ، تكون مناهضة للجدل . الجدل ـ وهذا هو تنازله الوحيد للروح المحافظ ـ يؤيد ان بعض مراحل تطور المجتمع كانت ضرورية ومبرّرة «بالنسبة لعصرها وشروطها»، لكن فقط التعرف على «الضرورة التاريخية» في صعود البرجوازية . بل يجب عليه ان يشكر هذه الطبقة الاجتماعية على الدور الثوري بشكل بارز الذي لعبته منذ العصور الوسطى في جميع الميادين .

دور ثوري في المضمار **الاقتصادي** ، بالطبع . فهي ، الاولى ، قد برهنت على ما يستطيعه النشاط البشري . ما «أهرامات مصر ، والاقنية الرومانية ، والكاتدرائيات القوتية» الى جانب العجائب التي حققتها ؟

خلال سيادتها الطبقية التي لا تكاد تبلغ قرنا من العمر ، خلقت وسائل انتاج أثقل واضخم مما خلقت كل الاجيال السابقة مجتمعة . ترويض القوى الطبيعية ، الآلات وانتشارها ، تطبيق الكيمياء على الصناعة والزراعة ، الملاحة البخارية ، سكك الحديد ، التلغراف الكهربائي ، إحياء اراضي قارات بأسرها ، جعل الانهار صالحة للملاحة ، ظهور مجموعات سكانية بكاملها من التراب ـ اي قرن سابق كان يستشعر ان قوى انتاجية كهذه كانت ترقد في حضن الشغل الاجتماعي ؟

الا يعتقد المرء انه يقرأ نشيدا ، يليق بالسان ـ سيمونيين ، لحركة الصناعة ونظامها ؟

دور ليس اقل ثورية ، محرّر وتقدمي للبرجوازية ، في مضمار **المشاعر والاخلاق العامة** . لقد مزقت كل الحجب ، انتزعت كل الاقنعة التي كانت تخفي الجانب السيء في الطبيعة البشرية ، عرّت بلا رحمة الاوهام التي لا تستطيع الا ان تؤخر التقدم الجدلي . كذلك اذابت كل ما كان ثابتا ، وبهذا ايضا ، عجلت السيرورة التاريخية . لنستمع :

أينما وصلت الى السلطة ، دمرت البرجوازية كل الشروط الاقطاعية ، البطريكية ، الشاعرية . الروابط الاقطاعية ، المعقدة

> والمتنوعة التي كانت تصل الفرد برئيسه الطبيعي ، مزقتها البرجوازية بلا رحمة ولم تدع يبقى من انسان الى انسان ، رابطا آخر سوى المصلحة العارية بالتمام ، الدفع نقدا العديم التأثر . الرعشات المقدسة للتهيجات التقية ، للحماسة الفروسية ، للعاطفية البرجوازية - الصغيرة ، أغرقتها البرجوازية في الماء الجليدي للحساب الاناني ... . الاستغلال المقنّع بأوهام دينية وسياسية ، أحلت محله الاستغلال المكشوف ، الوقح ، المباشر ، الشرس . جردت من هالتها كل الفاعليات التي كانت الى ذلك الحين محترَمة ومعتبَرة بإكرام تقي . الطبيب ، رجل القانون ، الكاهن ، الشاعر ، العالم ، جعلتهم مأجورين مرتهنين لها . نزعت عن العلاقات العائلية برقعها من عاطفية عذبة وأعادتها الى محض علاقات مال ... . الانقلاب الدائم للانتاج ، التزعزع المستمر لكل الشروط الاجتماعية ، القلق والاضطراب ، يميّزن العصر البرجوازي عن كل العصور السابقة . كل العلاقات الاجتماعية المقامة جيدا ، والسرمدية في صدئها ... مذابة ؛ وكل العلاقات المقامة مجددا بالية قبل اخذها قواما وصلابة . كل الذي كان امتيازا ومستقرا يذهب في دخان ، كل الذي كان مقدسا ينتهك ، والبشر في نهاية الحساب مرغمون على النظر بعين زالت غشاوتها الى شروط وجودهم وعلاقاتهم المتبادلة .

هذه اللوحة القاسية بماء الفضة الا تستحضر بشكل لا يقاوَم ، عند فرنسي ، الرسم الواسع والغني المتحرك الذي كان قد اعطاه لتوّه ، عن عالم المال ، بالزاك Balzac ؟ (٣) .

ثورية ايضا وتقدمية ، البرجوازية ، في كونها اخضعت **الريف المتاخر** ، الخبل المتوحش ، لسيطرة **المدينة** ، المدن الضخمة التي خلقتها ، منتزعة هكذا «قسما هاما من السكان من بلادة الحياة الريفية» . وعلى النحو نفسه ، «اخضعت البلدان البربرية ونصف البربرية للبلدان المتمدنة ، شعوب الفلاحين لشعوب البرجوازيين [الصناعيين] ، الشرق للغرب» . و ، كذلك ، **مركزيتها** الاقتصادية والديموغرافية ساقتها بالضرورة الى المركزية السياسية ، وهو تقدم جديد . «ان اقاليم مستقلة ،

---

٣ - بالزاك Balzac (١٧٩٩ - ١٨٥٠) : كاتب فرنسي كبير ، روائي واقعي . مؤلف «الكوميديا البشرية» ، تسعين رواية (مع ٢٠٠٠ شخص) مصنفة الى «دراسات أخلاق عامة» و«دراسات فلسفية» و«دراسات تحليلية» ، لوحة جبارة حية عن المجتمع الفرنسي من الثورة حتى مونارشية تموز ، مجتمع مركوب بالمال ...

لم تكن الا متحالفة في اتحاد ، حيث لكل منها مصالحه ، قوانينـــه ، حكومته ، جماركه ، قد ضغطت في أمة وحيدة مع حكومة وحيدة ، وتشريــــع وحيد ، ومصلحة قومية واحدة للطبقة ، حدود جمركية واحدة» .

ثورية اخيرا ، عاتقة وتقدمية ، البرجوازية ، في كونها اضطرت ، بحكـــم الضرورة الاقتصادية ، الى تحطيم **الأطر القومية** الضيقة للصناعة القديمة . جعلت كوسموبوليتيين ، باستثمار السوق العالمية ، انتاج واستهلاك جميع البلدان . وهذا «لحسرة الرجعيين الكبيرة» . الامم الاكثر بربرية او الاكثر عنادا في كرهها للاجانب قد جرّفت في تيار «المدنية» ، بتعبير آخر اضطرت الى تبني الانمـاط «البرجوازية» في الانتاج ، في التبادل ، في التفكير . هكذا فقد خلقت البرجوازية عالما «على صورتها الخاصة» .

يا له من ثناء رائع ، غير متوقّع تحت قلم عدوّين بهذه المرارة لنظامَــــي لوي ـ فيليب او فيكتوريا البرجوازيين (٤) ! غير متوقع ومع ذلك منطقي تماما من وجهة نظر المادية التاريخية .

ولكنه ثناء رثاء : الامر الذي يعطيه ، كما قال معلـــق ، هو أ. لابريــــولا A. Labriola (٥) ، ضربا من «دعابة مأساتية» .

اذ ان ثورة القوى المنتجة نفسها التي حكمت على المجتمع الاقطاعي بالمـــوت لصالح المجتمع البرجوازي الذي كان محضونا فيه ، يترتب عليها ، بموجب نفس الضرورة الجدلية ، ان تدمّر البرجوازية (جدليا ، **الاطروحة**) لصالح البروليتاريا (**الاطروحة النقيضة** او **الطباق**) .

تحت اعيننا ـ يوضح **البيان** ـ تحصل حركة من نفس النوع . الشروط البرجوازية للانتاج والاستهلاك ، الشروط البرجوازيـــة للملكية ، المجتمع البرجوازي الحديث ، الذي فرّخ ، كما لو بسحر ، وسائل انتاج وتبادل قوية جبارة ، ـ هذا يذكّر بالساحر العاجز عن السيطرة على القوى الجهنمية التي سارعت الى تلبية دعوته . منذ عشرات السنين ، تاريخ الصناعة والتجارة لم يعد ســـوى **تاريخ تمرد القوى المنتجة الحديثة ضد شروط الانتاج الحديثة ، ضد شروط الملكية** ، التي هي الشروط الحيوية للبرجوازيـــة وسيادتها .

---

٤ ـ **فيكتوريا** ملكة بريطانيا ـ العظمى من ١٨٣٧ الى ١٩٠١ ، و«امبراطورة الهند» ، عصر اوج بريطانيا والامبراطورية (صناعة ، اسطول ، تجارة ، سيادة مالية) .

٥ ـ **لابريولا** la briola (١٨٤٣ ـ ١٩٠٤) : ماركسي ايطالي لامع ، صاحب «محاولات عن التصور المادي للتاريخ» (صدرت ايضا في باريس عام ١٨٩٧) حيث المحاولة الاولى : «في ذكـــرى البيان الشيوعي» .

تمرد يتترجم ، دراماتيكيا ، بأزمات فيض الانتاج الدورية ، التي فضحهـا جميع نقاد الرأسمالية منذ سيسموندي Sismondi : «فجاة المجتمع يجد نفسه معادا الى حالة بربرية موقتة : وكأن مجاعة ، حرب تدمير عامة ، قطعتا عنه كل وسائل وجوده ؛ الصناعة ، التجارة ، تبدوان مبادتين . لماذا ؟ لان المجتمع عنده كثير من التمدن ، من وسائل الوجود ، من الصناعة ، من التجارة» . دليل، حسب **البيان** ، على ان الشروط البرجوازية باتت «أضيق» من ان تحوي الثروة المنتَجة من قبلها . والعلاجات ــ فتح اسواق جديدة ، استثمار ادق للاسواق القديمة ــ التي تستخدمها البرجوازية ضد هذه الازمات انما فقط تهيىء ازمات قادمة اعم وارهب . هكذا تنقلب ضد البرجوازية الاسلحة عينها ، الاسلحة التقنية، التي كانت قد مكنتها من اسقاط الاقطاعية .

ولكن البرجوازية لم تكتف بصنع الاسلحة التي ستعطيها الموت ؛ فهي ايضا قد انتجت الرجال الذين سيستخدمون هذه الاسلحة ــ العمال الحديثين ، البروليتاريين .

اذ ان نمو البروليتاريا هو «النسخة ــ المضادة الدقيقة» لنمو البرجوازية ، «اي الرأسمال» . وما هي البروليتاريا ؟ انها طبقة العمال العصريين «الذين لا يعيشون الا بقدر ما يجدون عملا» ، والذين لا يجدون عملا «الا بقدر ما ينمي عملهم الرأسمال» . نمو مضاد للواجب ، سرقة حقيقية من الراسمالي للعامل المأجور ، ولكنها ناتجة عن قانون اقتصادي ضروري : ذاك هو ، بمفردات تقنية ، **فضل ــ القيمة** ، **القيمة ــ الزائدة** ، التي سينشىء ماركس في وقت لاحق نظريتها المعمَّقة . في الحاصل ، هؤلاء العمال ، «المرغَمون على بيع انفسهم بالتفصيل والمفرّق» ، ليسوا الا **سلعة** كغيرها ، خاضعة لكل تقلبات المزاحمة ، لكل ترجرجات السوق .

البيان يصف بمفردات مظلمة ــ تستلهم دراسة انجلز عن حالة الطبقات الكادحة في انكلترة ، لكن ايضا العديد من المنظّرين المجهولين او المشهورين ، منهم برودون ــ تشكّل هذه البروليتاريا . يرسم لوحة العامل المستعبَد والمحَطّ بتقسيم الشغل ، الذي يجعله مساعدا ثانويا للآلة ، بالانضباط الاستبدادي للمصنع ، الثكنة الكبيرة . يبيّن شغل الرجال يُستبعد اكثر فأكثر من قبل شغل النساء والاطفال ، السلعة الاقل كلفة ؛ الاتجاه الدائم للأجر الى الانخفاض ، بحيث ان الشغيل بدلا من ان يرتفع مع تقدم الصناعة يصير فقيرا ، «وحالة الفقر Paupérisme تنمو بسرعة اكبر ايضا من سرعة نمو السكان والثروة» ؛ قانون التزاحم والتقدم التقني ، القانون الذي لا يرحم ، مغرقا في البروليتاريا ، الذين اصابهم الخراب والإفلاس ، «الطبقات الوسطى الصغيرة القديمة» ، من صناعيين صغار ، تجار صغار ، اصحاب ريوع صغيرة ، حرفيين ، وفلاحين : بحيث ان البروليتاريا تجَيّش في جميع طبقات المجتمع وتزداد بلا انقطاع .

لكن هذه البروليتاريا تتحول تدريجيا بالنضال وعبر النضال الذي تخوضه

ضد البرجوازية ، النضال الذي «يبدأ مع وجودها ذاته» ، والذي اليكم مراحله المتعاقبة .

في البداية ، العمال ، كتلة مبعثرة ، مفتتة على كل ارض البلد ، تقسمها المزاحمة ، يقودون نضالات محلية عمياء الى حد كاف : يحطمون الآلات ، يضرمون النار في المصانع والمخازن ، وكأنهم يريدون «استرجاع شرط العامل في العصور الوسطى الذي زال» . غلطة جدلية . لكي ينعتقوا وينتصروا ، على العمال ان يمروا بنمط الانتاج الراسمالي ، البرجوازي . من الجدير بالملاحظة ان العمال ، خلال هذه المرحلة غير العضوية ، غير قادرين على عمل سياسي جماعي ، يسيرون في خط البرجوازية ضد اعدائها : بقايا المونارخية المطلقة ، ملاكين عقاريين ، برجوازيين — صغار . يقدمون كتلة رجال الانتفاضات التي تقدم البرجوازية كوادرها . «كل نصر يحرز في هذه الشروط هو نصر للبرجوازية» (لنذكر هنا سقوط الباستيل) . بالتالي ، خلال هذه المرحلة ، تبقى قيادة كل الحركة التاريخية متمركزة في أيدي البرجوازية ؛ والعمال لا يقاتلون اعداءهم ، «بل اعداء اعدائهم» .

المرحلة الثانية : كلما الصناعة نمت ، والبروليتاريا ليس فقط ازدادت بل ايضا تجمعت في كتل اكبر ، كلما تنامى بأسها واخذت وعيه اكثر ، تغير الموقف . التزاحم يكف عن تقسيم العمال . اختلافات المصالح بينهم تعوض اكثر فأكثر «لان استعمال الآلات يمحو اكثر فأكثر فروق الشغل ويعيد في كل مكان تقريبا الاجر الى مستوى متساوي الانخفاض» . يجتمع العمال للدفاع عن مستوى اجرهم . واذا بالصدامات معالبرجوازية تتخذ ليس طابع نضال اعمى بل طابع **نضال طبقات**، واعيا . من جهة اخرى ان ما يهم هنا ليس الانتصارات الزائلة التي يحرزها العمال من وقت الى آخر ، بل هو الاتحاد المتزايد الاتساع الذي ينشأ بينهم على يد هذه النضالات ، هو العلاقات التي تقوم بذلك بين عمال اماكن مختلفة . والصناعة الكبيرة تسهل بشكل مرموق هذه العلاقات ، هذا الاتحاد ، مع تكثيف وسائل الاتصال : «الاتحاد الذي من اجله احتاج برجوازيو العصر الوسيط ، مع طرقهم القروية ، الى قرون ، يحققه البروليتاريون الحديثون في بضع سنوات ، بفضل سكك الحديد» . هذا الاتحاد البروليتاري يسمح بمركزة النضالات المحلية العديدة، التي بات لها في كل مكان نفس الطابع ، في نضال طبقات على الصعيد القومي ، في نضال **قومي** . والحال ان نضال البروليتاريا ضد البرجوازية ، وان كان في الاساس امميا ، فهو «في الشكل ... اولا بأول نضال قومي ؛ يلزم بطبيعة الحال **ان تنتهي بروليتاريا كل بلد قبل كل شيء من برجوازيتها هي**» .

نرى كيف ان تقدم الصناعة الكبرى عينه ، التقدم «الذي البرجوازية هي فاعله وعميله بدون تعمد ولا مقاومة» ، الذي يحل محل انعزال العمال بالتزاحم «اتحادهم الثوري بالتشارك» . ولكن بدون تزاحم العمال فيما بينهم ، لا عمل مأجور . بدون عمل مأجور ، لا راسمال («شرط الراسمال ، هو الشغل المأجور») . بدون الراسمال ، بدون تشكل وتنامي الراسمال ، بدون هذا التراكم للثروة في أيدي خاصين ، لا طبقة برجوازية ، لا هيمنة برجوازية .

مع نمو الصناعة الكبرى ، البرجوازية تجد اذاً يهرب من تحت اقدامها الاساس نفسه الذي عليه تنتج وتتملك المنتوجات . **انها تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها** . ان سقوط البرجوازية وانتصار البروليتاريا حتميان بالتساوي .

لاسيما وأن البرجوازية لم تعد قادرة حتى على ان تؤمّن لعبيدها عيشا يسمح لهم بأن يتحملوا عبوديتهم . بالاقل ، القن ، البرجوازي الصغير ، كان يمكن ان يرتقيا . البروليتاري ، لا . هذا وحده يكفي لادانة البرجوازية كطبقة مسيطرة ، كطبقة مضطهِدة : «حتى يمكن اضطهاد طبقة ، ينبغي ان تؤمّن لها شروط في اطارها تستطيع على الاقل ان تجرجر وجودها كعبدة» . لم يعد اي شيء يخول البرجوازية مواصلة فرضها على المجتمع ، كقاعدة وكقانون ، شروط وجودها الطبقي الخاصة . «المجتمع لم يعد يستطيع العيش في ظل البرجوازية ؛ بمفردات اخرى ان وجود البرجوازية لم يعد قابلا للوفاق مع المجتمع» .

ومن جهة اخرى ، اية طبقة سوى البروليتاريا تستطيع اخذ مكان البرجوازية المحكوم عليها ؟ البروليتاريا هي «الطبقة الثورية ، الطبقة التي تمسك المستقبل بأيديها » .

ان طبقات اخرى هي ايضا في نزاع مع البرجوازية . ولكنها «تتلاشى وتموت» أمام الصناعة الكبرى ، التي البروليتاريا هي بالعكس نتاجها «النوعي» الاخص . اكثر من ذلك ، حين الطبقات الوسطى ، الصناعيون الصغار ، التجار الصغار ، الحرفيون ، الفلاحون ، يكافحون البرجوازية ، فهذا ليس الا بدافع غريزة المحافظة ، من اجل ابقاء وجودهم كطبقات وسطى . بعيدا جدا عن ان تكون ثورية، هذه الطبقات هي ليس فقط محافظة ، بل رجعية ، لانها تريد «تدوير عجلة التاريخ الى الوراء» . اخيرا وخصوصا ، البروليتاريا وحدها تجد نفسها ، بشرطها ذاته ، من الان مقطوعة تماما من كل الروابط ، من كل الجذور مع المجتمع القديم، من الان معتوقة تماما من كل القيم المزعومة لهذا المجتمع :

> شروط وجود المجتمع القديم مبادة سلفا في شروط وجود البروليتاريا . البروليتاري بلا ملكية ؛ علاقاته مع زوجته وأولاده لم يعد لها اي شيء مشترك مع علاقات الاسرة البرجوازية ؛ الشغل الصناعي الحديث ، الخضوع الحديث للرأسمال ، وهو نفسه في انكلترة كما في فرنسا ، في اميركا كما في المانيا ، قد جرداه من كل طابع قومي . **القوانين ، الاخلاق ، الدين ، يؤلفن بعددهن احكاما ـ مسبقة برجوازية ، وراءها تختبىء بعددها مصالح برجوازية .**

في نهاية هذا الشرط البروليتاري ، هذا النمو البروليتاري ، توجد بالتالي

حتما «الثورة السافرة» التي يعلنها **البيان الشيوعي** ، مع بقائــــه في الغموض ، والتي سترى البروليتاريا ترسي «أسس هيمنتها بالاطاحة العنيفة بالبرجوازية» .

هيمنة البروليتاريا

ما ستكونه هذه الهيمنة ؟ ما ستعمله ، ما يجب ان تعمله (جدليا ، لا أخلاقيا) البروليتاريا بانتصارها المحتوم ؟

لنستأنف خيطنا الموجّه ، مقدمة انجلز ١٨٨٣ . كل التاريخ ، نقرأ ثانية ، كان تاريخ الاستغلال والاضطهاد والصراعات الطبقية ، **ولكن هذا الصراع وصل الان الى مرحلة فيها الطبقة المستغَلة والمضطهَدة (البروليتاريا) لم تعد تستطيع ان تتحرر من الطبقة التي تستغلها وتضطهدها (البرجوازية) بدون ان تحرر في الوقت نفسه والى الابد المجتمع باسره من الاستغلال والاضطهاد والصراعات الطبقية .**

ان تعبير هذه الفكرة ، غير الثانوية بتاتا ، بل الرئيسية من حيث هي مآل كل الجدل الماركسي للتاريخ ، اوضح عند انجلز منه في نص **البيان** ذاته . في الجزء الاول من هذه الوثيقة نجد فقط اشارة ، عدا ذلك بليغة ، عن الفرق الجذري الذي سيكون بين مجيء عهد البروليتاريا وعهد اية طبقة اخرى مهيمنة من قبل :

> كل الحركات الى هنا حققت من قبل أقليات او في صالـــح أقليات . الحركة البروليتارية هي الحركة المستقلة **للاكثريــــة الضخمة في صالح الاكثرية الضخمة** . البروليتاريا ، الطبقة الدنيا في المجتمع الراهن ، لا تستطيع ان تقف ، ان تنتصب بدون ان تفجر كل البنية الفوقية من الطبقات التي تشكل المجتمع الرسمي.

هذه الصورة الجيولوجية الجبارة ، في الوقت نفسه مع استدعائها الاتساع الذي لا سابق له للثورة الواجب تحققها ، يمكن ان تؤوّل ايضا على انها تعلن نهاية كل تمايز اجتماعي ، مجيء ــ في نهاية السيرورة ــ المجتمع الذي لا طبقات فيه . لكن هذا لا يغدو صريحا ، لا ندري لماذا، الا في الجزء الثاني («البروليتاريـــــون والشيوعيون») من **البيان** . صريحا ، مع بقائه مجردا ومقتضبا .

اليكم ماذا نقرأ في هذا الجزء الثاني . ان تكوّن البروليتاريا في طبقة حاكمة، **مهيمنة** ، مسلحة بالسلطة السياسية ، بالسيادة السياسية ، «استولت علـــى الديمقراطية» ، ــ ما هو الا المرحلة الاولى للثورة . مرحلة عدا ذلك ضرورية بشكل مطلق . اذ ما هي السلطة السياسية ؟ في الكتاب المعنوَن ، **بؤس الفلسفة** ، ردا ساخرا على كتاب برودون الذي ذكرناه سابقا (**فلسفة البؤس**) ، كان ماركس **قد اعطى الخطوط الاولى** لتعريف : «السلطة السياسية هي التعبير الرسمي لتناحر الطبقات في المجتمع البرجوازي» . **البيان** يوسع هذا التعريف : «**السلطــــة**

السياسية هي ، بالمعنى الحقيقي ، السلطة المنظمة لطبقة بغية اضطهاد طبقة اخرى» . هكذا تقوم في بضع كلمات كل النظرية الماركسية للدولة ، الموافقة لروح المادية التاريخية .

البروليتاريا اذاً بحاجة الى امتلاك السلطة السياسية كي «تنتزع شيئاً فشيئاً من البرجوازية كل الرأسمال ، كي تمركز في أيدي الدولة ، اي البروليتاريا المنظمة في طبقة قائدة ، كل ادوات الانتاج ، وكي تنمي بالشكل الاسرع كتلة قوى الانتاج» ، ــ كي تقلب ، بكلمة ، كل نمط الانتاج الموجود سابقا . هذه السلطة السياسية ستترجم بطبيعة الحال ، على الاقل في البدايات ، ب «تعديات استبدادية» على حق الملكية وشروط الانتاج البرجوازية ، التي لا يمكن ان تحذف الا بالعنف في أيدي طبقة مهيمنة . على سبيل مسطرة ، **البيان** يجازف ويقترح بعض الاجراءات الثورية العينية ، القابلة للتطبيق على البلدان الاكثر تقدما فقط ، مثلا نزع ملكية الملاكين العقاريين ، مركزة الإقراض وجميع وسائل النقل في أيدي الدولة ، نفس الإلزام بالشغل للجميع ، الخ . لا ريب كان ينبغي ان يعطى كلاً لمناضلي الحزب (لاسيما الالمان) حد ادنى من «برنامج» . ولكن مؤلفَي **البيان** لم يكونا يعلقان على اي برنامج من هذا النوع سوى اهمية ثانوية جدا : ففي روح الماركسية ان يتوقف التطبيق العملي للمبادىء «دائما وفي كل مكان على الشروط المعطاة تاريخيا» .

ما يلزم ، لنكرر ذلك ، في ما يتخطى اية اجراءات عينية ، ما ينبغي عدم نسيانه ابدا ، هو ان «استبداد» البروليتاريا (في ١٨٥٢ فقط سيستخدم ماركس عبارة **دكتاتورية البروليتاريا**) ليس سوى ضرورة عابرة ، مرحلة اولى . كما كانت البرجوازية ــ **الأطروحة** ــ قد ولدت جدليا نقيضها ، نفيها ، او **الطباق** (البروليتاريا) ، كذلك البروليتاريا ، وقد صارت طبقة مضطهِدة ومسيطرة ، ستلد جدليا نفي النفي ، **التركيب** الذي سيتوج السيرورة الجدلية : المجتمع بلا طبقات ، بلا طبقات ، اذاً بلا تنافيات اجتماعية ، بلا سلطة سياسية **بالمعنى الحقيقي** ، بلا دولة ــ اذ ليست الدولة سوى ترجمة تنافيات الطبقات .

> ما ان ، في سير التطور ، تكون الفوارق الطبقية قد اختفت **ويكون كل الانتاج متمركزا في ايدي الافراد المتشاركين** ، حتى تفقد السلطة العامة طابعها السياسي ... . اذا كانت البروليتاريا ، في نضالها ضد البرجوازية ، تصل به قسرا الى الاتحاد في طبقة **اذا كانت تشيد نفسها** ، بثورة ، طبقة قائدة ، وتحذف بالعنف شروط الانتاج القديمة ، فهي تحذف في الوقت نفسه مع هذه الشروط شروط وجود التناحر الطبقي والطبقات عموما ، وبذلك سيادتها الطبقية الخاصة . المجتمع البرجوازي القديم ، مع طبقاته وتنافياته الطبقية ، يحل محله **تشارك ، اجتماع ، فيه التطور الحر لكل فرد هو شرط التطور الحر للجميع ...**

لقد استعرضنا مختلف وجوه «الفكرة الاساسية والقيادية» **للبيان** ، حيث الوجه الاخير (الانتهاء الى المجتمع بلا طبقات ولا دولة ، — الى اليوتوبيا الطوباوية ، ستقول الاذهان السيئة !) ليس الاقل اهمية . في سيرورة جدلية ، كما في سيرورة بيولوجية ، كل شيء يتسلسل تسلسلا لا ينحل ولا شيء ينعزل . **البيان** لا يمكن ان يقلّص ، مهما كانت جوهرية فيه ، الى فكرة صراع الطبقات . ان وجود الطبقات ، تنافياتها، كانت قد عرضت ودرست قبل ماركس بكثير على يد مؤرخين واقتصاديين «برجوازيين» او اشتراكيين . في رسالته بتاريخ ٥ آذار ١٨٥٢ الى فايدماير Weydemeyer ، ماركس نفسه يشير الى ما ، في رايه ، على وجه الضبط «عمله هو كشيء جديد» . هذا النص يتقاطع ويتطابق بشكل رائع مع مقدمة انجلز : «الشيء الجديد الذي عملته ، هو انني برهنت : ١ — ان وجود الطبقات لا يتصل الا ببعض المعارك التاريخية في تطور الانتاج ؛ ٢ — ان صراع الطبقات يقود **بالضرورة** الى دكتاتورية البروليتاريا ؛ ٣ — ان هذه الدكتاتورية ليست **هي** نفسها سوى **الانتقال** الى حذف كل الطبقات والى المجتمع بلا طبقات» .

ولكن ما هي اذاً ، ازاء هذه السيرورة المكتوبة في الضرورة التاريخية ، ونسبة الى البروليتاريا ، رسالة الشيوعيين الخاصة ؟

رسالة الشيوعيين

> عمليا ، الشيوعيون هم الفئة الاكثر تصميما في أحزاب — عمال جميع البلدان ، الفئة التي تدفع دوما الى الامام ؛ نظريا ، لهم على باقي الجمهور البروليتاري مزية **فهم شروط الحركة البروليتارية وسيرها ونتائجها العامة ... . ان تصورات الشيوعيين النظرية لا ترتكز بتاتا على افكار ، على مبادىء اخترعها او اكتشفها هذا او ذاك من مصلحي العالم . انها ليست الا التعبير العام للشروط الفعلية لصراع طبقات موجود ، لحركة تاريخية تحصل تحت أعيننا .**

هذه السطور جوهرية لافهام ما الشيوعية او الاشتراكية «العلمية» تزعم الاتيان به من شيء جديد جوهريا في الحركة الاجتماعية ، ما الشيوعي او الماركسي يريد اعطاءه من شيء فريد للبروليتاريا . أفٍ من المصلحين في غرفة الذين يمجدون دواءهم العميم النفع ، ويفرشون لوحات حلوة للمجتمع المقبل ، على طريقة الاشتراكيين الطوباويين ! سهل جدا ان نعارض الحقائق الوحشية التي تكشفها الملاحظة بمثل أعلي نداعبه برقة . ان الشيوعي يقتصر على دراسة الوقائع الاجتماعية ، على معاينة وفهم تغيراتها ، على استنتاج معنى وإيقاع التغيرات المقبلة ، منها جدليا، على تبيان — لمختلف البروليتاريات القومية المنقسمة والمتفاوتة

الاستعداد للنضال ــ «الهدف التام المتكامل» الذي نحوه يجب ان تتجه الحركات المتعاقبة . «ما هي اذاً ، يسأل آندلِر Andler ، نسبة او علاقة الشيوعيين الى البروليتاريا ؟» . ويجيب : «علاقة الوعـــي الواضح الى الفعـــل المنعكس والغريزي ... . الشيوعية توحد ، في الزمان ، الجهد البروليتاري ، بعزيمة بصيرة » .

بصيرة لان الشيوعية ، بموجب ضرب من كشف ، من وحي نوراني غير صوفي بتاتا ، بل عقلاني تماما ، مترتب بالتمام على طريقة للمعرفة متفوقة ، **تعلم** ايـــن يذهب التاريخ ، تملك سر التاريخ . في **الصفر واللانهاية** ، كستلر Koestler يجعل بطله روباشوف يقول بشكل رائع :

> الآخرون ، ماذا كانوا يعرفون من التاريخ ؟ تموجـات عابرة ، موجات صغيرة ، وامواجا تنقض . كانوا يعجبون لاشكال السطح المتغيرة وما كانوا يستطيعون تفسيرها . اما نحن فكنا قد نزلنا الى الاعماق ، الى الكتل التي لا شكل لها ولا اسم التي في كل الازمنة تكوّن مادة التاريخ ؛ وكنا الاوائل في اكتشاف القوانين التي تحكم حركاته ــ قوانين عطالتـــه ، قوانين التحولات البطيئة لبنيتـــــه المولیكولية Moléculaire ، وقوانين فوراته المفاجئة . ذاك كان عظمة مذهبنا .

سر التاريخ الذي كان قد «تبسّط» بشكل مرموق ، بفضل ظفر البرجوازية ، الموقت ، بحيث لم يعد باقيا وجها لوجه سوى جيشيْن **اثنين** . سر «نثري» تماما: صدام الجيشين كان حتميا ، وانتصار الجيش البروليتاري كان حتميا كذلك . سر علمي تماما ، كان امتلاكه يجعل باطلة ، مضحكة ، اية احتجاجات عاطفية ، اية خطابات باسم العدالة او الحرية او المساواة : آلهة بالية وتافهة . «لذا لا توجد في **البيان** لا فصاحة ولا احتجاجات . انه لا يعوّل على حالة الفقر لتصفيتها . لا يذرف دموعا على شيء . دموع الاشياء تحولت تلقائيا الى قوة مطالبة عفوية. الإتيقا والمثالية باتتا قائمتين في هذا : ان نضع الفكر العلمي في خدمة البروليتاريا» (لابريولا Labriola) .

لذا فلا شيء يمنع ، بالعكس ، مثقفا «برجوازيا» ــ انظروا انجلز مثلا ــ من الارتفاع ، كما يقول **البيان** ، «بفضل العمل والجهد ... حتى الفهم النظـــري لمجموع الحركة التاريخية» ــ ومن الصير شيوعيا . في الماضي انتقل هكذا قسم من النبلاء الى البرجوازية . الان ينتقل بنفس الطريقة قسم من البرجوازية الـى البروليتاريا . يجب ان لا نرى هنا محض تفضيلات وبواعث فردية ، «ذاتية» : ما، في التاريخ ، الفردي ! لنرَ هنا ، «موضوعيا» ، تطبيق قانون يعرضه **البيـــان** بهذه المفردات :

في العصور التي فيها يقترب صراع الطبقات من اللحظة الحاسمة ، ان عملية التفكك ترتدي ، داخل الطبقة المسيطرة ، طابعا من العنف والشراسة بحيث ان قسما صغيرا من الطبقة المهيمنة ينفصل عن هذه الطبقة وينضم الى الطبقة الثورية ، الطبقة التي تمسك المستقبل بأيديها .

مموقعة في هذه النظمة من التفكير ، مضحكة تظهر حسب ماركس وانجلز التوبيخات التي يوجهها الى الشيوعية ، آنذاك ، ليس فقط حاملو البرجوازية ، بل ايضا الذين يقال لهم اشتراكيون الذين يلعبون لعبة هذه الاخيرة : مثلا برودون، الذي ينعتانه بالاشتراكي «المحافظ او البرجوازي» - برودون ، المدافع الحار عن الاخلاق التقليدية ، عن الحرية وعن الفردية . هذه التوبيخات تكشف الغياب التام لفهم الحركة التاريخية والشرط البروليتاري .

يوبّخ الشيوعيون على كونهم يريدون تدمير الملكية ، الحرية ، الفردية ، الثقافة، الحقوق ، العائلة ، الوطن ، الاخلاق ، الدين . مجزرة جميلة من حقائق «ازلية» ! كما لو كانت توجد (مادية جدلية !) حقائق من هذا النوع ! كما لو ان الافكار السيدة لعصر كانت يوما شيئا آخر (مادية تاريخية !) غير افكار الطبقة القائدة ، التي حولت دائما الى «قوانين أزلية للطبيعة وللعقل» شروطها الخاصة من انتاج وملكية ! كما لو ان الانتاج الفكري والاخلاقي كف يوما عن التغير في الوقت نفسه مع الانتاج المادي ! كما لو لم يكن الوجدان الفردي محددا بالوجود الاجتماعي ! وكما لو لم تكن ، بالضبط ، كما رأينا أعلاه ، شروط وجود البروليتاريا تحت السيطرة البرجوازية تطرد عندها ، وحدها بمفردها ، اية تصورات برجوازية بوجه عام !

تدمير الملكية . - اية ملكية هي المقصودة ؟ يلام الشيوعيون على كونهم يريدون الغاء الملكية المكتسبة بالجهد والعمل الشخصيين ، «اي الملكية التي ، يقال لنا ، تشكل اساس كل حرية ، كل نشاط ، كل استقلال ، للشخص» . اذا كان المقصود الملكية البرجوازية ، فهي ليست ثمرة العمل الشخصي . الرأسمال نتاج **جماعي ، اجتماعي** ، يخلقه الشغل المأجور للبروليتاري ، وليس نتاجا شخصيا . اذا كان المقصود ملكية البرجوازي الصغير ، الفلاح الصغير ، التي سبقت الملكية البرجوازية ، ف «ليس لنا ان نلغيها ، تطور الصناعة الغاها ويلغيها في كل الايام». الشيوعيون لا يريدون بتاتا الغاء التملك الشخصي من قبل البروليتاري لمنتوجات شغله ، التملك الذي يسمح له فقط بصيانة وجوده النحيل وبأن يجدد انتاج نفسه . ما يريدون حذفه ، هو «الطابع البائس لهذا التملك ، حيث لا يعيش الشغيل الا لكي ينمي الرأسمال ، ولا يعيش الا بقدر ما تتطلبه مصلحة الطبقة القائدة» . ما يميز الشيوعية ليس الغاء الملكية «بوجه عام» ، انه الغاء الملكية الحديثة ، الملكية الخاصة ، لانها التعبير الاخير والاكمل لنمط انتاج وتملك المنتوجات المرتكز على التنافيات الطبقية ، على استغلال البعض من قبل البعض الآخر .

ترتعبون من نيّتنا الغاء الملكية الخاصة . لكن في مجتمعكم الراهن الملكية الخاصة ملغاة بالنسبة لتسعة اعشار اعضائه ؛ انها موجودة على وجه الدقة لانها بالنسبة لتسعة اعشار غير موجودة . تلوموننا اذاً على كوننا نريد الغاء ملكية تفترض كشرط ضروري ان الغالبية العظمى في المجتمع ليست مالكة . — بكلمة انكم تلوموننا على كوننا نريد الغاء ملكيتكم انتم . اجل ، هذا فعلا ما نريد

تدمير الحرية ، الفردية . — في المجتمع البرجوازي ، هاتان قناعان للملكية البرجوازية لا اكثر . بالحرية ، بشكل خاص ، يقصدون حرية التجارة ، حرية الشراء والبيع ، حرية انماء الراسمال على حساب البروليتاري . «في المجتمع البرجوازي ، الرأسمال مستقل وشخصي ، بينما الفرد الذي يشتغل ليس له استقلال ولا شخصية . وان الغاء حالة الاشياء هذه هو الذي تدعوه البرجوازية الغاء الشخصية والحرية ! وبحق . فالمطلوب فعلا هو الغاء شخصية واستقلال وحرية البرجوازيين» .

تدمير الثقافة ، الحقوق :

كما ان انتهاء الملكية الطبقية يعني بالنسبة للبرجوازي انتهاء الانتاج نفسه ، كذلك زوال الثقافة الطبقية تتماثل في نظره مع انتهاء الثقافة بوجه عام . الثقافة ، التي يندب ضياعها ، تتقلص بالنسبة لغالبية البشر الساحقة الى ترويض يجعلهم آلات . لكن لا تماحكونا بمكايلة الغاء الملكية الخاصة بأفكاركم البرجوازية من حرية ، وثقافة ، وحق ، الخ . افكاركم لها هي نفسها اصلها في الشروط البرجوازية للانتاج والملكية ، كما ان **حقوقكم ما هي الا ارادة طبقتكم مشيئة قانونا** ، الارادة التي موضوعها معطى من قبل الشروط المادية لوجود طبقتكم .

تدمير العائلة . — العائلة البرجوازية ترتكز على الراسمال ، على الاثراء الخاص . نسختها — المضادة ، هي عدم وجود العائلة القسري عند البروليتاري ، والدعارة العامة . اقوال برجوازية جميلة عن التربية ، عن العلاقات الحميمة بين الاهل والاولاد ! انها تغدو «مقرفة اكثر ، لاسيما وان روابط الاسرة ، بنتيجة الصناعة الكبرى ، تتمزّق اكثر فأكثر ، بالنسبة للبروليتاريين ، وأن الاولاد يحوّلون اكثر الى محض سلع تجارة وادوات شغل» . لكن — تصرخ في كورس كل البرجوازية — لكن الشيوعيين يريدون ادخال اشتراكية ، مشاعية النساء ! التباس مضحك مرده ان البرجوازي يرى بالضبط في زوجته محض اداة انتاج

(بالمال الذي تجلبه) ، وبما انه يسمع ان ادوات الانتاج ستستثمر بصورة مشتركة !... انه لا يشك في ان المطلوب على وجه التحديد هو «انتزاع المرأة من دورها الراهن كأداة انتاج لا اكثر» . ومؤلفا **البيان** ، اذ يلمحان الى الاخلاق المرتخية للاوساط المالية ، يتهكمان بثقالة كافية على «هذا الهلع الاخلاقي ــ الفائق» من البرجوازية امام المشاعية الرسمية المزعومة للنساء عند الشيوعيين . وكأن مشاعية النساء لم توجد دائما ! وكأن برجوازيينا ، «غير مسرورين بأن تحت تصرفهم نساء وبنات بروليتارييهم ، ولا نتكلم عن البغاء الرسمي» ، لا يتخذون لذة لا شبيه لها «في تركيب بعضهم لبعض قرونا بالتبادل» ، وكأن الزواج البرجوازي ليس بالواقع «اشتراكية النساء المتزوجات» ! قد يكون ممكنا لوم الشيوعيين ، «على الاكثر» ، على ارادتهم إحلال مشاعية في وضح النهار محل هذه المشاعية المخفية بلؤم . و ، في جميع الاحوال ، انهم سيزيلون البغاء الرسمي وغير الرسمي ، بمجرد «حذف شروط الانتاج الراهنة» .

تدمير الوطن . ــ «ليس للعمال وطن . لا يمكن ان يؤخذ منهم ما ليس لهم» . غير ان البروليتاريا «تبقى قومية» ، وان ليس بتاتا بالمعنى البرجوازي للكلمة ، في ان عليها ، كما رأينا ، «البدء بأن تستولي على السلطة السياسية ، ان تشيد نفسها طبقة قومية ، ان تكوّن نفسها أمة» . لكن مؤلفي **البيان** يعتقدان بامكانهما ان يؤكدا ان الفواصل بين الشعوب والتنافيات القومية «تختفي اكثر فأكثر» ، بحكم تطور الصناعة ذاته ؛ ان سيادة البروليتاريا ستمحوها «اكثر ايضا» ؛ ان استثمار امة من قِبل اخرى يلغى مع سير الغاء استثمار الفرد من قبل الفرد ؛ وانه «في اليوم الذي يسقط فيه تناحر الطبقات داخل الامة الواحدة ، سيسقط ايضا العداء بين الامم» .

تدمير الاخلاق ، الدين . ــ التهمة ، مثل جميع التهم المتصلة بالفلسفة ، بالايديولوجيا عموما ، «لا تستحق ان تناقَش بالتفصيل» . يكفي ترداد ان كل تغير في وجود البشر الاجتماعي يوازيه ويوافقه تغير في ما يدعى وجدانهم ، وان ذوبان الافكار القديمة يسير جنبا الى جنب مع ذوبان شروط الوجود القديمة . الى الان الدين والاخلاق ارتديا بشكل متتابع اشكالا جديدة ، لكن بدون ان يزولا. لماذا ؟ لان التنافي الاجتماعي ، الذي هما انعكاسه ، كان يتغير شكله ، ولكنه كان يبقى مع ذلك تحت اشكاله المتتابعة محرك التاريخ . مع الزوال التام للتنافي الاجتماعي ، اشكال الوعي هذه ، دين ، اخلاق ، لن يبقى لها بتاتا علة كينونة وستنحل تماما . «الثورة الشيوعية هي القطيعة الاكثر جذرية مع النظمة التقليدية للملكية . فهل ندهش لكونها في سير انبساطها تقطع على النحو الاكثر جذرية مع الافكار التقليدية ؟» .

لكن لنترك هنا ــ يقضي ماركس وانجلز بترفع ــ الاعتراضات التي تنشئها البرجوازية ضد الشيوعية .

ولنترك هنا نحن الانماءات ، التي فقدت راهنيتها ، عن «الادب الاشتراكي

والشيوعي» ، عن الموقف الخططي للشيوعيين في النضال السياسي للحظة ، ولنقتصر على ايراد السطور الاخيرة من **بيان الحزب الشيوعي** . انها اعلان حرب صريح ، شرس ، على المجتمع العجوز ، الذي حكم عليه جدل التاريخ :

> ان الشيوعيين يزدرون أن يخفوا افكارهم ومشاريعهم . انهم يعلنون على الملأ انهم لا يستطيعون بلوغ اهدافهم الا بأن يدمروا بالعنف النظام الاجتماعي القديم . فلترتجف الطبقات القائدة لفكرة ثورة شيوعية ! ليس للبروليتاريين ما يخسرونه فيها سوى سلاسلهم . لهم عالم يكسبونه . **يا بروليتاريي جميع البلدان اتحدوا !**

انتشار «البيان»

هذه الآمال العدوانية والهازّة ، كان للتاريخ المباشر ان يأتيها بتكذيب لاذع ودامٍ . بضعة اصوات فقط ، متحمسة ، اصوات طليعة «الاشتراكية العلمية» ، تستجيب **للبيان** عند صدوره بالالمانية ، ثم بالفرنسية (كل اثر يبدو مفقودا لهذه الترجمة الفرنسية ، التي يقول انجلز بشكل صريح انها نشرت في باريس عشيّة ايام حزيران ١٨٤٨) . في ١٨٥٠ تصدر في لندن الترجمة الانكليزية الاولى . لكن السحق العام للاشتراكية على يد الطبقات القائدة ، الذي تسمه في فرنسا ايام حزيران ، وفي المانيا محاكمة وإدانة شيوعيي مدينة كولن (١٨٥٢) ، يردّ **البيان** الى المؤخّرة . كان التاريخ قد خطأ ــ كما سيعترف انجلز ــ مؤلفَيه . كان قد بيّن «بوضوح ان حالة التطور الاقتصادي فوق القارة كانت آنذاك بعيدة جدا عن ان تكون ناضجة لحذف الانتاج الراسمالي» . اعلان الحرب كان سابقا لاوانه . استبق الشروط «الموضوعية» لنجاح ثورة عنيفة . برودون ، الذي كان قد رفض «ضربة اليد» او «الهجمة» في المفردات التي نعلم ، برودون الـذي كان يقول : «لست من «الدافشين» un bousculeur كان على حق . ان كلمة أخرى من كلماته معروفة جيدا : «الولد [ثورة ١٨٤٨] جاء قبل أوانه» . لم يكن ثمة مكان عند ماركس لامكان القبول بأن رجلا كبرودون كان قد اصاب . ولكن الدرس لن يكون ضائعا بالنسبة له ، ولا بالنسبة للماركسيين .

الطبقة العاملة ستسترجع فيما بعد ما يكفي من القوة لتكوين **الاممية الاولى** ، التي تدوم من ١٨٦٤ الى ١٨٧٣ . في قلبها ، الماركسية تتصارع مع البرودونية ، ثم مع فوضوية باكونين ، فرع البرودونية الحي الطويل العمر . حينئذ يعود **البيان** الى الظهور شيئا فشيئا . يعاد اصداره بلا تعديل ولا تصحيح ، ويترجَم في كل اللغات ، لاسيما الروسية . منذ ١٨٧٥ كانت الحركة العمالية تكبر في روسيا ، بالاجتماع ــ التشارك وبالاضراب . في مقدمتهما لترجمة ١٨٨٢ الروسية ، ماركس

وانجلز يلحظان ان **البيان** لا يلمح ابدا الى الاحزاب العمالية في روسيا — ولا من جهة اخرى الى احزاب عمال الولايات المتحدة — أما «اليوم ... بالعكس ، روسيا تشكل طليعة الحركة الثورية في اوروبا» .

ماركس يقضي نحبه في ١٨٨٣ ، وقد كتب مؤلفه الاقتصادي العملاق ، **راس المال** (الذي نشر مجلده الاول وحده في حياته ، سنة ١٨٦٧) . نقرأ في راس مقدمة طبعة **البيان** الالمانية لسنة ١٨٨٣ ، التي كثيرا ما استشهدنا بها في الصفحات الآنفة ، هذه السطور ، المؤرخة ٢٨ حزيران .

> مقدمة الطبعة الحاضرة ، انا مضطر ، واحسرتاه ، الى توقيعها بمفردي . ماركس ، الرجل الذي اليه كل الطبقة العاملة في اوروبا وأميركا مدينة اكثر منها لأي رجل آخر ، ماركس يرقد في مقبرة هايغيت ، وعلى قبره ينبت اول عشب . منذ وفاته لا يمكن ان يكون ثمة مجال ، وأكثر من اي وقت مضى ، لتعديل او إكمال البيان .

في المقدمة ، المؤرخة اول ايار ١٨٩٠ ، لطبعة المانية جديدة ، انجلز يذكّر كيف كان ماركس ، بعد سحق كومونة باريس في ١٨٧١ ، بانتظار حل الاممية الاولى ، يرى الاشياء . كان يعوّل «فقط على التطور الفكري للطبقة العاملة» ، الناجم عن العمل المشترك وعن النقاش ، لانضمام هذه الطبقة الكتلي الجماهيري الى القضايا المفصح عنها في **البيان** . كان يفكر ان صروف النضال ضد الرأسمال ، «الهزائم اكثر ايضا من النجاحات» ، سوف تنير حتما المكافحين حول عدم كفاية الحلول الادوية — مثلا البرودونية ، دابّة ماركس السوداء — التي كانوا يحبونها الى هنا . «وماركس كان على حق» ، يؤكد انجلز ظافرا . اذ قبل قليل ، في ١٨٨٩ ، تأسست **الاممية الثانية** المسماة «اشتراكية — ديمقراطية» Social democrate ، وليس شيوعية . كل اشتراكية القارة تقريبا تستولي عليها الماركسية : بخاصة تبرز فرنسا مع الحزب العمالي لـ غيسد Guesde ؛ المانيا مع الحزب الاشتراكي — الديمقراطي لـ ببل Bebel ؛ روسيا مع جماعة «تحرير الشغل» لـ بليخانوف Plékhanof . في اول ايار ١٨٩٠ — «لحظة كتابتي هذه السطور» ، يقول انجلز — كانت القوى العمالية المناضلة في اوروبا وفي اميركا تتظاهر من اجل التحديد الشرعي ليوم الشغل بثماني ساعات . كانت هذه القوى للمرة الاولى «معبأة» ، «في جيش واحد» ، «تحت علم واحد» ، «في سبيل هدف مباشر واحد وحيد» . انجلز كان يعوّل على ان مشهد هذا الاول من ايار في التاريخ العمالي سيفهم رأسماليي وكبار ملاكي جميع البلدان ان **بروليتاريي جميع البلدان** باتوا واقعيا وفعليا **متحدين** . و ، حزينا في فرحه ، كان يضيف : «لماذا يجب أن لا يكون ماركس الان الى جانبنا ، ليرى ذلك بأم عينيه ؟» .

هكذا ان تاريخ **بيان الحزب الشيوعي** قد عكس في شطر كبير تاريخ حركة العمال نفسها منذ سنة ١٨٤٨ . ما من مؤلَّف ماركسي آخر ، ولا حتى **رأس المال**، استطاع حتى نهاية القرن التاسع عشر ان يحل محل هذه الوثيقة الشهيرة ولا التصارع معها في الفعالية . كان الامر هكذا ، لان الاساسات الفلسفية والاقتصادية للمذهب لم تكن تطفو على السطح الا بفطنة وحذر في **البيان** ، ولأن اية برهنات مضجرة متجنَّبة في الكتاب . كل جهد المؤلفَين كان قد إنصبّ على ابراز «الفكرة الاساسية والقائدة» التي تربط بشكل دقيق صارم كل الاجزاء . بروزا أسهم فيه بشكل فريد أسلوب ماركس ، الاسلوب الأخاذ اكثر ايضا بالطبع في الالمانية منه في اية ترجمة : «اسلوب بآن معا وضّاء وعميق وقوي ، فيه كل كلمة ، ان صح القول ، لها وزنها الواضح المحدد» (براك ــ ديروسو Bracke Desrousseaux. لابريولا ، ممجّدا في سنة ١٨٩٥ «الفضيلة البَذرية» **للبيان** ، ــ منَجم لا ينضب من أفكار في حالة بذور اكثر منها مبسوطة منماة ، ــ ضلاعته البسيطة في التركيب التاريخي ، قوته الكلاسيكية ، كان يصرخ ، بحماسه الايطالي ، ان الموعد الخالد لنشره يسم بداية **العهد الجديد** ، وأن الكتاب هو ، على طريق الاشتراكية ، **عمود الاميال الكبير** .

١٨٩٥ : هي سنة وفاة انجلز ؛ في كانون الاول / ديسمبر ، الحكومة القيصرية تأمر باعتقال المناضل الماركسي الشاب لينين ، الذي سيواصل في السجن الكفاح الثوري . قطعا ، على الثورة الفرنسية ، السياسية بالتمام ، القومية بالتمام ، ولكن ذات الاشعاع المعجز ، والحاضرة دائما ، كانت تنبت ثورة اخرى ، اجتماعية بالتمام ، دولية بالتمام ، تعمل على تحقيق أمنية النشيد الوحشي : «الاممية ستكون هي الجنس البشري» . ثورة أعمق من الاولى في اسبابها وفي عواقبها ؛ واخطر ، بهجماتها على مفاهيم الملكية والوطن الموروثة ، أخطر على التقليد في كل اشكاله وعلى المحافظة الاجتماعية .

حينئذ ، في هذه النهاية لقرن غني بشكل رائع ، الثورة ــ المضادة ، مجددة شباب وجهات نظرها وطرائقها ، بعد تلمسات عديدة، ستجد صيغتها الايديولوجية الاكثر فتكا في **القومية الكاملة** او **النيو ــ موناركية** لـ شارل موراس .

الفصل الثاني

الـ « تحقيق عن المونارشية » ،
لـِ شارل موراس (١٩٠٠ ـ ١٩٠٩)

«وحدها المؤسسة الدائمة الى ما لانهايـــة
تجعل افضل ما فينا يدوم» .

موراس

نعلم كيف ، بأية قريحة صاخبة ، بأية غزارة وأية عضالة من حجج ، كان برك، في ١٧٩٠ ، قد القى ركائز المذهب المضاد ـ للثورة او التقليدوي . بعد **التأملات** بسنوات قليلة ، الكونت جوزيف دو ميستر de Maistre والفيكونت دو بونالد de Bonald كانا يحملان الى الثورة ـ المضادة مدد مؤلفاتهما بالفرنسية ، ـ وهي اللغة المقروءة اكثر من سائر لغات اوروبا ، ـ واقتناعاتهما الكاثوليكيـــة الحامية ، و ، عند ميستر على الاقل ، موهبة كاتب هجائي ساطعة . معهمـــا بوصفهما من انصار المونارشية والعناية الإلهية ، كان ينبعث وجه بكامله من وجوه سياسة بوسويه Bossuet .

جوزيف دو ميستر ، «بوسويه الحديث» ، كما دُعي على وجه التحديد ، كان

يشرح في **نظراته على فرنسا** (١٧٩٧) ، مقدما تقريرا عن المرئي باللامرئي ، لماذا كان للثورة الفرنسية طابع لا يقاوَم يشكك المؤمنين بالعدالة الالهية . كان يبيِّن لماذا الجمهورية في فرنسا لا يمكن ان تدوم : «الطبيعة» والتاريخ ، الذي هو «**السياسة الاختبارية**» ، يجتمعان لاقامة «أن جمهورية كبيرة لا تنقسم شيء مستحيل» . كان يستأنف ، بفكاهات متطايرة الشرر وبلمحات لامعة كالبرق ، مقاضاة الدساتير المكتوبة وحقوق الانسان المجرد . ذاك كان برك ، لكن مجددا ومجلّى بنبرة صوفية.

الفيكونت دو بونالد ، الخالي ، فيما عدا المصادفات ، من الموهبة الادبية ، كان يأتي ، هو ايضا ، بمنظومة صلبة الروابط ، مصفحة بجدل صارم . كانت هذه النظمة تعلن الحرب على فردوية الثورة . ليس للفرد حقوق ، ليس له الا واجبات . ليس موجودا الا للمجتمع ؛ المجتمع هو الذي يشكله ، وليس هو الذي يشكل المجتمع . من جهة اخرى ، ان مجتمعا «مكوّنا» ، هو مجتمع العصور الوسطى ، مجتمع النظام القديم ، ليس غبار أفراد مثل المجتمع «الحديث» المزعوم . كان يتألف من «اجسام» كانت من العائلة حتى الحرفة تؤطر الفرد . في هذا المجتمع المكوَّن ، كل شيء كان ينزع الى تشكيل جسم . كانوا فيه يعرفون الـ **نحن** ، لا الـ **أنا** . الدولة كانت «عائلة كبيرة» . المعنى العميق للمونارشية الشرعية ، كان تثبيت السلطة السياسية في عائلة ، تساندها بدورها وتوقفها **الاجسام** ، المجتمعات الصغيرة في المجتمع الكبير ، العائلات الصغيرة في العائلة الكبيرة . هذه السلطة الشرعية لم تكن ، من موضع آخر ، سوى الوسيط بين البشر والله ، الملك السيد الوحيد الحق ، الوحيد المسلح بحقوق . بونالد ، الثيوقراطي مثل ميستر ، كان يستبدل باعلان حقوق الانسان «اعلان حقوق الله».

ان فيلسوفا محترفا ، هو أوغست كونت Auguste Comte ، يستأنف من حيثيات كثيرة ميستر وبونالد مع علمنتهما ، مع استيعابه في مذهبه الوضعوي بعض النقاط البارزة من مذهبهما السياسي . عملية مثيرة للفضول كان لها ان تستتبع عواقب كبيرة على تطور الفكر المناهض للثورة ؛ كان من شأنها ، في الحاصل ان تأتي وأن تسمح برجل مثل موراس Maurras . لذا يجب الالحاح عليها .

نعم ، يعلن كونت بعد ميستر و بونالد ، ان فردوية الثورة قد انتجت التفتث الاجتماعي . الثورة ، بنت الاصلاح البروتستانتي ، والقرن الثامن عشر ، وروحهما في الفحص الحر ، كانت تتويج «حقبة نقدية» مدمِّرة ، أعقبت العصور الوسطى الكاثوليكية ، «الحقبة العضوية» على سبيل الامتياز ، التي كانت ترتكز على التمييز العبقري للسلطة الزمنية والسلطة الروحية . هذه الحقبة النقدية ، التي من جهة اخرى كانت ضرورية لتدمير ما كان قد مضى زمنه ، يجب ان تعقبها حقبة عضوية جديدة . لكن هذه الاخيرة ستكون ملكا للعصر **الوضعي** ـ الايجابي ، بمعارضة العصر **اللاهوتي** والعصر **الميتافيزيقي** . في العصر الوضعي ، لا توجد عقائد لاهوتية، بالية ؛ لا تبقى ثمة غيوم ميتافيزيقية كالعقد الاجتماعي ، سيادة الشعب ، حقوق

الانسان . بكلمة ، لا يبقى ثمة مطلق . العلم يسود ، العلم الذي يتحرك في النسبي ، الذي ترك التفتيش عن الاسباب الاولى . وعلم العلوم هو «الفيزياء الاجتماعية» او **سوسيولوجيا** ، التي كونت هو مخترعها . علم لا يدرس الفرد ، الذي هو تجريد محض ، بل النوع الانساني ، البشرية ، هذا «الكائن الكبير» (او «كينونة كبرى») ، في تطوره التقدمي . بشرية تتألف من عائلات وليس من أفراد. بشرية تتألف من اموات اكثر مما تتألف من احياء» .

ما السبيل الى تنظيم المجتمعات البشرية علميا ، الى «تكوين»ها ، في لغة بونالد ، على نحو يؤمن وحدتها ؟ يجيب كونت : على صورة العصور الوسطى الكاثوليكية (الوضعوية ، كما قيل بتهكم ، «هي الكاثوليكية ناقصا المسيحية») . اذاً تتميز السلطة الروحية (المؤلفة من سوسيولوجيين بدلاً من لاهوتيين) والسلطة الزمنية ، التابعة للاولى . اذ ان المجتمع يرتكز قبل كل شيء على اشتراك ما في المعتقدات : المعتقدات اللاهوتية والغيوم الميتافيزيقية ، السلطة الروحية الكونتية ستستبدل بها معتقدات وضعية ـ ايجابية ، قادرة ، هي ، على مقاومة النقد العلمي . عدا ذلك حذف حرية الوجدان الفردي ضد هذه المعتقدات الوضعية ما ان تقام . اعتبار **الواجبات** اكثر من اعتبار **الحقوق** . اعادة مبدأ الهيرارخية والسلطة، تصفية «الليبرالية» تحت كل أشكالها ، اذاً البرلمانية ، «الوقفة الملتبسة» في مسيرة المجتمعات . ينبغي ان تكف الحكومة او السلطة الزمنية عن كونها مشبوها دائما ، كي تستطيع قيادة المجتمع في السبل التي ترسمها السلطة الروحية ، والنضال ضد تشتت الافكار ، العواطف ، المصالح .

في هذه الكونتية ، شريطة إغفال الدين الذي حل محله العلم والله الذي حلت محله البشرية ، كانت الثورة ـ المضادة تستطيع ان تجد كثيرا من العناصر الثمينة لكفاحها ، من وجهة نظر «وضعية» بالتمام . السياسة المسماة **طبيعية** او **اختبارية** كان يمكن ان تقترن بالسياسة المسماة **وضعية** (١) .

---

١ ـ **اوغست كونت** (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) درس في معهد البوليتيكنيك ، ثم علّم الرياضيات ، اصبح سكرتيرا لـ سان ـ سيمون ، ثم انفصل عنه في ١٨٢٤ . بدأ يلقي «دروسا في الفلسفة الوضعية» ... ، درّس علم الفلك ، الخ ... (تكوينه : علم وعلوم) . ـ مؤسس **المذهب الوضعي الفرنسي** ، اثّر تأثيرا كبيرا في فرنسا والعالم . (علم البرازيل يحمل شعاره السياسي المؤلف من كلمتين : «نظام وتقدم» ، كونت وضع هذا الشعار في سنة ١٨٤٨) . اضاف الى فلسفته «العلمية» المحض دينا جديدا هو «عبادة الانسانية» مع طقوس وتصنيف عبادي (عبادة عامة علنية ، وعبادة شخصية ، وعبادة منزلية) وبابا هو كونت . مذهبه الوضعي فيه اذاً شطران او وجهان : علمي ، وسياسي ديني . سننظر في الشطر الاول وهو الاهم ، الارسخ : انه الوضعوية Positivisme التي يعتمدها كموقف اساسي وعام فلاسفة وعلماء ومفكرون وأدباء وآدميون عاديون ، يسخرون من دين كونت .

حسب كونت : الفكر الغربي والبشري مر او يمر بثلاث حالات : ١ ـ الحالة الثيولوجيـــة (اللاهوتية) او الوهمية ٢ ـ الحالة الميتافيزيقية (الماورائية) او المجردة ٣ ـ الحالة العلمية او الوضعية (الايجابية) .

لندخل في التفاصيل . كونت يقول بشكل صريح : ١ ـ مقولة السببية ميتافيزيقا . العلم الحق يعتمد القانون ويرمي فكرة السبب (هذا تيار كبير سابق لكونت ولاحق له وازداد بأسا فـــي اوائل القرن العشرين . لكن الفيزياء الحديثة ترد الاعتبار لمقولة السببية) . ٢ ـ ليس من المفيد دراسة كواكب بعيدة . (كونته ينفي علم الفيزياء الفلكية خارج العلم) . ٣ ـ البحث في بنية المادة مستحيل ، ولا جدوى فيه . انه ماورائية ، ميتافيزيقـــا . ٤ ـ كذلك حساب الاحتمـــــالات . ٥ ـ ليس من المستحسن ادخال البحث الكمي الرياضي في البيولوجيا . ٦ ـ كذلك التنقيب في اصل المجتمعات امر غير حسن ، انتكاس الى الماورائية . ٧ ـ المفاهيم الكبيرة ، النظريات الكبيرة في الفيزياء مثلا هي «تصورات مناهضة للعلم ، لم تمارس اي تأثير ملحوظ على تقدم نظريـــة الضوء ... . رغم كل الفرضيات العسفية ، ان الظاهرات الضوئية ستبقى على الدوام صنفا على حدة ، قائما بذاته . الضوء سيبقى الى الابد جنسا مغايرا للحركة او للصوت» . ٨ ـ باختصار: الفلسفة ماورائية ، والحالة الميتافيزيقية الرجيمة ما هي الا الحالة الفلسفية « العابـــرة ، بين اللاهوت وهذا اللاهوت الذي هو «الوضعية» و«العلمية» المخصية . العلوم الطبيعية والانسانية يمكن ان تقوم بدون مقولات كبيرة . ٩ ـ اخيرا الثورة ميتافيزيقا واستبداد . غيوم ميتافيزيقية : العقد الاجتماعي ، سيادة الشعب ، حقوق الانسان ... ،كما نقل شفاليه في عرضه الذي موقع كونت كمفكر سياسي في مسيرة الفكر اليميني .

لقد شبّه كونت الفرنسي ب هيغل الالماني . إميل بريهيه Bréhier يعقد مقارنة بين الاثنين ، مفيدة قطعا ... ولقد قيل عن كونت انه هيغل فرنسا . هذا معناه ان كونت كاريكاتور هيغل ، وكاريكاتور اوروبا .

«وضعوية» و«فلسفة» : هذا تناقض ـ في ـ المعنى . نصرة «العلم» ضد ـالفلسفةـ : هـــذا حماقة . الكتب المدرسية المختصرة لا تعطي صورة صحيحة عن كونت وفلسفته الوضعوية او الايجابية، تتجاهل سقطاته المرعبة « تقدم احيانا الوضعية او الايجابية كأنها هي العلم وهي المعرفة ، ولا ترى ان هذه المعرفة مخصية وأن هذا العلم ملغوم ومنتكس .

الوضعوية الكونتية والانجلوسكسونية تجريبية مطهّرة متقدمة ، اي انها انتكاس عن التجربية العظمى ، الاصلية (لوك وخلفائه) . رفض كونته للكليات الكبرى ، حربه على المجرّد ، موقف يلتقي مع كره برك Burke للمجرد . الوضعوية تؤثنم الدنيا في أصناف وسيطة ، في خاص ـ عام متوسط ، مقطوع عن الكلي وعن المفرد ، ولا تستطيع اذاً بلوغ العياني الحقيقي .

«الفكر العربي في عصر النهضة» منبهر بأوروبا الاخيرة ، المتقدمة ، الاحدث ، اوروبا القرن١٩ ، اوروبا سكك الحديد والعلوم والصناعة والقوة المادية . الوضعوية الفرنسية والانجليزية هي رائده الفلسفي اللافلسفي . الجناح اليساري (شبلي شميل ، فرح انطون ، ...) يصل حتى داروين

مونوغرافيات اجتماعية ، يصدر **الاصلاح الاجتماعي** . يظهر فيه ، يقول سانت ـ بـوف Sainte - Beuve ، مثل «بونالد مجدّد الشباب» . يؤمن بـ «دستور

ونظرية التطور : هذا جيد وممتاز ؛ لكن هذا ، بخلاف ما يتصوره ويكتبه البعض ، هذا ليس ، ليس بعد ، «المادية الدياليكتيكية» ، لانه ليس ـ اساسا وجذرا ـ الدياليكتيك ، المنطق ، نظرية المعرفة (وبوشنر Buechner كان اكبر ناشر لـ داروين ونظرية التطور ، مع انه رائد المادية المبتذلة الاشهر !) . فكر رواد الاصلاح الاسلامي والتجديد الاسلامي لا يخرج جذريا من هذا المناخ الوضعوي والعقلاني الجزئي ، بحب هذا المصدر الاوروبي ـ الوضعوية ـ الذي يلتقي في ذهنهم وروحهم مع الوضعوية او «الايجابية» الاسلامية : عمليا ، «واقعيا» ، انهم ضد اللاهوت ، ضد الفلسفة ؛! مع انهم بصدد دين واصلاح ديني ، بل بصدد دين اسمه وعنوانه الاسلام (اي ، اذن : اسلام لله ، لا للمادة ، للاشياء ، لاجزاء ، لاصناف ، لاوثان ، لاشخاص ، لنصوص ، لزمن ؛ وهذا الموقـف الوضعوي ، الذي لا يتجرد ولا يجرّد الا في حدود ، يلغـي نفسًا موجودا في الوهابية الاولى ، ويغلّب وجهها الآخر . وجهها الاسلامي التقليدي ، «التاريخي» ، الحنبلي ـ الاشعـري : الشرع واحكامه . بدلا من «العودة الى البدء» ؛ الى «البدء» في هذا المستوى من التجريد الكلي ؛! يعودون الى «السلف الصالح» ... في سنة ١٩٧٦ ، ما زال لسان حال الكثيرين : الرجل : هذا موجود، المرأة : هذا موجود ، الانسان : هذا مجرّد اي غير موجود . البشر اصناف ، انواع ، أديان ـ مذاهب ـ طوائف ؛ هذا يغلب على كونهم «الانسان» وعلى كونهم «البشر الافراد» . الانسان هـذا مجرّد اي غير موجود ! اذن لن تصلوا الى البشر الافراد المفرَدين . الانسـان العام والانسان المفرد ممنوعان بالتلازم . الكلي ـ العياني خارج المتناول ، خارج الذهن اصلا ، كهدف ومآل .

أجل ، ان علماء وضعويين كثيرين في اوروبا قد عملوا ودفعوا عجلة المعرفة الى أمام في ميادين علمية مختلفة : هذا بدهي وطبيعي ، والوضعوية الفرنسية والانجلوسكسونية آتية من / ومرتكزة على / تراث عقلاني طويل وعظيم ، حتى وان كانت هي انحطاطه . أجل ، ان الوضعوية تحمل او يمكن ان تحمل نفَس تحرر من الغيب والماوراء والسحر الخ ، خصوصا عندنا . والايجابية تعيين لازم وبدهي للفكر ، صفة واشتراط ومآل للمعرفة . لكن المذهب الوضعوي خَصي للعقل ، فـي الاساس . اجل ، رواد النهضة العربية قبل قرن او نصف قرن قاموا بعمل ايجابي كبير وممتاز . بل ان اعظمهم يتخطون المذهب الوضعوي ؛ تلقائيا وبحكم الضرورة . ان رجالا من طراز قاسم امين والكواكبي ومحمد عبده الخ موضع فخرنا واعتزازنا بحق . عمالقة التجديد الاسلامي قاتلوا ، حقا، في جبهة الواقع . «عصر النهضة» كان خطوة كبيرة ، كان بداية استيقاظنا ، بداية ظهورنا كذات وفاعل في شكل العصر الليبرالي وفكر العصر الليبرالي ... العصر الديمقراطي (الشعبي) البادىء في الخمسينات ثم المنتكس والمنشود الان يحتاج الى شيء آخر . الدياليكتيـك (= الفلسفة ، المنطق) والديمقراطية (= السياسة ، المجتمع ، الشعب ، البشر) ضرورة واحـدة متلازمة . الوضعوية والليبرالية لا يمكن ان تعبىء الجماهير ضد الامبريالية والانتكاس الى البربرية . وحدها الجدلية يمكن ان تكون ركيزة فلسفية لهذا التحرك المطلوب ، وحدها الديمقراطية يمكن ان تكون محورا سياسيا عاما له .

جوهري» لكل مجتمع ، الوصايا العشر وسلطة الاب اساسه المزدوج ، الذين والسيادة أسمنته المزدوج . يفضح «عقائد ١٧٨٩ الزائفة» ، الاستسلام للفردوية وللقوانين الطبيعية . لكنه حذِر من الدولة ، يفضل عليها السلطات المحلية ، التي هي أقرب الى المعنيين . اصلاح المجتمع يبدو له تابعا لاعادة العائلة وسلطة رئيسها، التي تسير جنبا الى جنب مع النفوذ السليم لكل الاشخاص الموصوفين بوضعيتهم، كبار ملاكين ، أرباب عمل ، «عقلاء من شتى الانواع» ، الذين يشملهم تحت اسم **سلطات طبيعية** او **سلطات اجتماعية** .

لكن التاريخ الحاسم ، في تطور الفكر التقليدوي ، هو ، على الاقل بالنسبة لفرنسا ، عام ١٨٧٠ .

فرنسا ، بلد الثورة ، تسحقها بروسيا المحافظة ؛ على هزيمتها تطعّم الكومونة، وهي حرب طبقات قصيرة ووحشية . هاتان الواقعتان الفظّتان تفرضان ذاتيهما على تأمل رجال كـ فوستِل دو كولانج Fustel de coulanges رينان Renan ، تين Taine . فوستل ، مؤلف **المدينة القديمة** الشهير ، يكتب في ١٨٧٢ جملا قاسية عن المؤرخين الفرنسيين ، الذين «منذ خمسين سنة كانوا رجال حزب» ، الذين علّموا الفرنسيين ان يتباغضوا ، «أن يلعنوا الماضي الفرنسي ، أن يشنعوا على ملوكنا ، ان يكرهوا أرستقراطيتنا» . رينان ينشر في كانون الاول / ديسمبر ١٨٧١ **الاصلاح الفكري والمعنوي** . فيه يعطي فكره المتموج مدارا مضادا ـ للثورة مؤكدا . بالنسبة له ، أيا كانت أخطاء الامبراطورية الثانية ، فان جذر الهزيمة هو الديمقراطية («المفهومة بشكل سيء» ، يضيف من باب الادب) . فرنسا «تكفّر» اليوم عن الثورة . ان الديمقراطية لا يمكن ان تحكم بشكل جيد ، لان أسلوبها في اصطفاء القادة ، الانتخاب الشعبي ، عديم القيمة . ان مجتمعا من المجتمعات لا يكون قويا الا بشرط اعترافه بالتفوّقات الطبيعية . الولادة واحد منها . انتصار بروسيا كان انتصار النظام القديم ، الارستقراطي ، الهيرارخي ، ضد الديمقراطية المساواتية ، هذا المذيب لكل فضيلة . النهوض الفرنسي يمكن ان يأتي من اعادة الملكية ومن نبالة . اذ لا نؤمن بحق الملوك الالهي ، المفهوم البالي ، يمكن ان نؤمن بـ «حقهم التاريخي» . ان عائلة ، هي آل كابيت Capétiens ، في تسعمئة سنة، صنعت فرنسا ؛ فلنعدها ! لكن رينان يعلم انهم لن يعيدوها .

أما تين فهو ينكبّ على المهمة التاريخية الجبارة لـ **أصول فرنسا المعاصرة** ، التي يمتد نشرها من ١٨٧٥ الى ١٨٩٣ (المؤلف يموت قبل انجازه عمله العظيم) . يمكن ، مع تذكرنا برك الذي نفوذه حاضر على الدوام ، ان نقول ان الاصول هي **تاملات عن الثورة** ، جديدة وأرحب مدى ، فاتكة مؤذية وسَيلية جارفة مثل تلك ، اكثر نسقية ومنهجية ، اكثر جدية (ولكن ليس اكثر عمقا) ، خالية تماما من تهكم ونتوءات برك . تلك نفس مقاضاة «روح القرن» ، وقد صار «الروح الكلاسيكي» بتوسيع مبتكر ولكن قابل للنقاش ، يقوم بها تين على القرن الكلاسيكي ، قرن لويس الرابع عشر . هذا الروح ، المجرّد ، الاستنتاجي ، المعمّم ، الذي يدير

ظهره للتجربة التاريخية والعيانية ، لتنوّع «البشر الواقعيين» ، يكون مسؤولا عن الثورة ، عن اليعقوبية ، عن فرنسا الحديثة التي بناها بونابارت . تين يشارك مع توكفيل ، وهو ملهم آخر لفكره ، في بغض المركزة النابوليونية ، الدولتية المجتاحة ، ـ ولكن بدون ان يشاطر توكفيل تسليمه للمد الديمقراطي ، ولا ايمانه بالفضائل المعوّضة التي للحرية السياسية . تين يثور ضد قانون العدد ، النظام الانتخابي ، إلاضطهاد من جانب الاكثرية بلا رقابة . الحرية الخاصة ، وجدان المواطن ، شرفه ، تظهر له في خطر دائم في ديمقراطية تسودها فضلا عن ذلك المركزية .

موريس بارِس Maurice Barrès ، موسيقي النثر الفرنسي الذي لا يضاهى ، يضع في موسيقى افكار تين السياسية . ماضيا من الأنوية الاشد يبسا في جنونها الى نفي جذري للفردي ، للشخصي ، يحل محل **عبادة الانا** الفردي عبادة الانا القومي . مؤمنا مثل برك وتين ـ ولكن مزاودا عليهما ـ بالقوى العاطفية ـ الانفعالية اكثر منه بالفهم او الذكاء ، «هذا الشيء الصغير على سطح انفسنا» ، يريد تعبئة كل «طاقات العاطفة» لصالح الامة الفرنسية . الامة المتصوَّرة ـ او بالاحرى المَحسّة ـ لا كمفهوم حقوقي على طريقة سييس Sieyes ، لا كمجموعة أفكار ، كإيديولوجيا (ايديولوجيا الثورة) على طريقة رجال اليسار ، بل كواقع شعوري انفعالي . واقع جسدي لحمي تقريبا ، ملموس، مرئي ، مع مناظره المتنوعة ، أقاليمه الاصيلة والحية ، في المرتبة الاولى ، بالنسبة لـ بارِس ، اللورين Lorraine ، الحصن الذي يواجه الاجنبي الجشع ، المنتصر الالماني .

لكن هذه الامة الفرنسية ـ اقرؤوا تين ـ «فكتها ونزعت دماغها» الثورة وبونابارت . لم تعد سوى فتات من أفراد معزولين ، مسطحين على أقدام الدولة الساحقة ، صاروا غير قادرين على الاجتماع تلقائيا حول مصلحة مشتركة . المدرسة الحديثة ، مدرسة دولة ، ـ اقرؤوا تين ـ الثانوية النابوليونية اعطت هؤلاء الافراد الفرنسيين تربية مجردة بالتمام . هذه التربية اكلت الجذور التي كانت تغرسهم في ارض اقليمهم الذي ولدوا فيه ، التي كانت تغذيهم بعصاراتها ، بالثروات التي كدسها التقليد ـ التراث ، «الارض والاموات» . هذه التربية **اقتلعت جذورهم** ، هؤلاء الافراد الفرنسيين ، منذ طفولتهم ، (**المقتلعو الجذور** ، عنوان اول وأجمل جزء ، صدر في ١٨٩٧ ، من **رواية المروءة القومية** التي تشمل ايضا **النداء الى الجندي** و **وجوههم**) .

لم يفتح احد الطريق ، ولا فتح طريقا مباشرا ، اكثر مما فعل بارِس لقوموية موراس الكاملة ـ اية كانت الخلافات ، المتزايدة الشدة ، بين الكاتبَين .



بارس ، المولود في سنة ١٨٦٢ ، النائب البولانجي (والاشتراكي ـ الميل) عن

مدينة نانسي Nancy في سن السادسة والعشرين ، ثم المهزوم في انتخابات ١٨٨٩ ، كان ، في الوقت نفسه مع كونه رجل مذهب ، رجل حزب . **النداء الى الجندي** ، الصادر في سنة ١٩٠٠ ، هو تاريخ البولانجية في شكل روائـــي . **وجوههم** ، الصادر في سنة ١٩٠٢ ، يعرض البرلمانيين ابان فضيحـــة بناما . بولانجيه ، بناما ؛ ينقص اسم «لإتمام الثلاثية الدراماتيكية لجمهورية الانتهاز : دريفوس Dreyfus (٢) . والحال ان **التحقيق عن المونارشية** يتصل مباشرة بقضية دريفوس ، الدراما الكبيرة ، التي لا تصدّق ، لجيل من الفرنسيين بالكامل. لقد رسمنا لتوّنا التطور العام للفكر المناهض للثورة خلال القرن التاسع عشر . هذا التطور كان يسمح وينبىء ب **التحقيق** . لكن ، حتى نفهم جيدا الكتاب وحظه التاريخي ، يلزمنا الان ان ننحني على هذه الظروف البالغة الخصوصية للسياسة الفرنسية نحو عام ١٩٠٠ ، المسحورة ب «القضية» .

جمهورية الملاءمة او الانتهاز كانت اعتقدت ، بعد الانذار البولانجي ، بعـــد فضيحة بناما السياسية ـ المالية ، انها واجدة اخيرا «الميناء» ، حسب تعبير بانفيل Bainville ، في ظل ملين Meline الهادىء (٢) . لكن قضية دريفوس تأتي لتضع من جديد كل شيء موضع سؤال . تحرك كل الذي كان يبدو ، بعد اختمار طويل وخض كثير ، يتوضع اخيرا في أسفل الدن : مناهضة السامية ومناهضة البرلمانية عند هؤلاء ، مناهضة الاكليركية ومناهضة العسكرية عند الآخرين . تجري داخل الاحزاب بعض اعادات الترتيب غير المنتظَرة . الكابتين دريفوس التعيس لم يعد تقريبا سوى ذريعة لما يدعوه دانييل هاليفي Halévy «الثوَران الوطني»

---

٢ ـ **بولانجه** Boulanger : جنرال فرنسي قام بمحاولة انقلاب او كاد . جمع حوله حزب اعادة النظر (الحزب القومي ، حزب الثأر ضد المانيا) ، نجح نجاحا هائلا في الانتخابات ... لكنه لم يجرؤ وفرّ الى الخارج . الخضة البولانجية دامت ٣ سنوات (١٨٨٦ ـ ١٨٨٩) .

فضيحة بناما Panama : فضيحة مالية وسياسية كبيرة هزت الجمهوريـــة الثالثة . انفجرت في سنة ١٨٩١ . أسهمت في انماء اللاسامية (مناهضة اليهودي) في أوساط طبقات مختلفة.

قضية دريفوس : دريفوس Dreyfus ضابط فرنسي يهودي ، برتبة نقيب ، اتهم وحوكم وحكم زورا بتهمة التجسس والخيانة العظمى (١٨٩٤) . قضية شطرت فرنسا (ومثقفيها) الى نصفين (١٨٩٨) . اخيرا اعيد النظر وبُرِّىء الضابط .

جمهورية الانتهاز . ـ لنذكر ان **جمهوريي** الجمهورية الثالثة انقسموا الى حزبين : **المعتدلون** او **الانتهازيون** apprortunistes لمة غامبيتا ثم جول فيري ، **والراديكاليون** اي الجذريون بزعامة كليمنصو ؛ ومال الحكم بشكل متزايد الى ايدي الحزب الثاني .

٣ ـ **ميلين** Méline : رئيس الحكومة من ١٨٩٦ الى ١٨٩٨ .

جاك بانفيل Bainville : مؤرخ يميني وملكي ، من اتباع موراس ، صاحب كتاب عـــن «تاريخ فرنسا» (١٩٣١) ، وكتاب عن نابوليون الخ .

في اليمين ، عند مناهضي دريفوس ، «الثوران الانساني» في اليسار ، عند الدريفوسيين . **عصبة الوطن الفرنسي** ، مع ديروليد Déroulède ، كوبه Coppée ، بارس Barrès ، جول لوميتر Jules Lemaître «٤» ، تجمع المكافحين ضد «مؤامرة الاجنبي» التي تستند على الدريفوسيين : يهود ، بروتستانت ، ماسونيين ، جميعهم نفوس ملعونة لجمهورية برلمانية عفنة : هكذا العصبة ترى الاشياء . لكن العصبة ليست مونارشية ، بل تبقى جمهورية : جمهورية **استفتائية** Plébiscitaire . هذه الصيغة لنظام سلطوي المستندة الى دعوة الشعب كانت ترسل روائح بونابارتية قوية . كانت من قبل صيغة البولانجية، التي هي نوع من «بونابارتية الفقير» . **القومويون** mationalistes، كما كانوا يدعون انفسهم ، قوميو **عصبة الوطن الفرنسي** ، كانوا يعوّلون ، وهم بولانجيون سابقون (ديروليد ، بارس) ، على النجاح بمناسبة قضية دريفوس فيتحقيق ما كانوا قد اخطؤوه مع بولانجه : الاطاحة بالجمهورية البرلمانية . النجاح كيف ؟ مع من ؟ كانوا لا يعلمون . كان بارس يكتب بشكل حزين في **الجريدة** بتاريخ ٣٠ تشرين اول ١٨٩٩ ، متذكرا الفقر الفكري للحزب البولانجي : «لا يوجد اية امكانية لاعادة الشيء العام بدون مذهب» .

الفكرة المونارشية ، تحت شكل مونارشية برلمانية ومحافظة في ايدي الوجهاء والاكليروس ، كانت ما برحت تفقد ارضا منذ المغامرة الطائشة التي القى نفسه فيها ماك ــ ماهون Mac - Mahon في ١٦ ايار ١٨٧٧ «٥» . ومع ذلك الم يكن

---

٤ ــ **ديروليد** : كاتب وشاعر وطنيات ورئيس عصبة الوطنيين ، نائب .

كوبه Coppeé : شاعر ، سمي «شاعر المتواضعين» او الفقراء .

جول لوميتر : كاتب وناقد ادبي .

٥ ــ ماكماهون . ــ بعد سحق الكومونة وإغراق باريس في حمّام من الدم (١٨٧١) ، عاشت فرنسا فترة تأرجح ، قبل انتصار النظام الجمهوري واستقراره نهائيا . بلغ السعي الى اعادة المونارشية ذروته في ١٦ ايار ١٨٧٧ ، مع محاولة الرئيس المارشال ماكماهون (قائد الجيش الذي اغرق باريس في الدم ؛ في ١٨٧٣ خلف رئيسه وشريكه تيير العجوز البرجوازي السفّاح الذي ظل مؤيدا لجمهورية محافظة تماما واصطدم بأكثرية النواب) . ولكن الامة كانت مع النظام الجمهوري وانتخبت اكثرية متزايدة ، واخيرا استقال ماكماهون في ١٨٧٩ ، وعاد المجلسان من فرساي الى باريس ، وصدر عفو عن رجال الكومونة الباقين على قيد الحياة ، واقر عيد فرنسا القومي في ١٤ تموز . ــ على الصعيد الداخلي شهدت **حقبة الجمهورية الثالثة** بين ١٨٧٥ و١٩١٤ : انماء وتأكيد الحريات الديمقراطية (الصحافة ، الاجتماع الخ) ، تأكيد النظام البرلماني مع مجلسين (شيوخ ونواب) ، اقرار مجانية وإلزامية وعلمانية التعليم ، فصل الكنيسة والدولة ، وصعود الطبقة العاملة («الطبقة الرابعة» !) والنقابات وحزب العمال ، والتشريع العمالي والاجتماعي . وظهرت فرنسا دولة مزدهرة ، وعانت من تدني الولادات وانتشارالكحول والسل ، مع فقر عمالي وفلاحي وشعبي واسع ودائم .

بوسع ذهن مبتكر أن يتخيل تصريف التيار القومي الصاخب ، المشوش والذي ليس له مذهب ، لصالح مونارشية من طراز مجدَّد ؟ مونارشية سيكون لها ، هي، مذهب ، مذهب يجمع العناصر التقليدية مع العناصر الانفعالية الجديدة : مناهضة البرلمانية ، مناهضة اليهود ، قوموَية ، منتصبة ضد كل تسلل لـ «الاجنبي» وتهيىء «الثأر» (الذي كانوا يتهمون جمهورية الانتهاز بأنها تخلت عنه) . قومية ديروليد مثلا كانت ناقصة وكأنها مبتورة مشوهة . هذه المصلحة القومية ، التـــي تحت علاقتها الحصرية كان يجب ان تفحص كل المسائل ، من اذاً اكثر من ملك ، «الملك» ، كان موصوفا لتحريرها بأقل ما يمكن من احتمالات الخطأ ، ولفـــرض تحقيقها ، سلطويا لا برلمانيا ؟ القوموية الوحيدة **الكاملة** ، انما هي المونارشية !

هذا الذهن المبتكر ، الذي كان له ان يلعب ورقة ايديولوجية جميلة الى هذا الحد ، ان ليست عملية ، كان موجودا ، وقد عرفه القارىء : انه شارل موراس Charles Mourras . في سنة ١٩٠٠ ، انه في الثانية والثلاثين : أصغر من بارس بست سنوات . في الثامنة عشر من عمره ، سنة ١٨٨٦ ، كان يكتب مقاله الاول في **الاصلاح الاجتماعي** ، المجلة التي أسسها لوبلاي le Play . اليـــف بوسويه وميستر وبونالد ، هؤلاء الثيوقراطيين ، كما و كونت و تين و رينان ، هؤلاء العلمويين المنفصليَن عن الاديان التقليدية ، كان يشاطر هؤلاء عدم ايمانهم . في السياسة ، كان بسرعة قد نبذ المونارشية البرلمانية والجمهورية البرلمانيـــة سواء بسواء ، وصوّت لصالح بولانجه في ١٨٨٩ . تحت تأثير الشاعر ميسترال Mistral والفيليبر les felibres (٦) ، كان قد جعل نفسه رسولا داعية للامركزية الاقليمية ضد «الرتابة اليعقوبية المفروضة على شعب كان يتألم منهـــا خفية عنه» (ذاك كان في الجو : بروفانس Provence ميسترال و موراس ، نوريـــن Larraine بارس !) . لكن اعتناق موراس الفكري للمونارشية ، بدافع القوموية ، لم يحدث الا في سنة ١٨٩٦ ، على أثر رحلة الى اليونان منها وُلدت **آنتينيا** anthinéa . «اذ خرجتُ من بلدي ، يقول موراس ، رايته اخيرا كما هو ، وارتعبت لرؤيته بهذا الصغر» . آه ! لو كانت فرنسا قد احتفظت منذ الثورة

---

٦ ـ **فريدريك ميسترال** Mistral : كاتب وشاعر فرنسي من منطقة بروفانس (على البحر المتوسط في جوار ايطاليا) باللسان البروفانسي . ـ **الفيليبر** : أصلاً ، شاعر او ناثر بلغة أوك langue d'oc ، وهي لغة جنوبي فرنسا في العصور الوسطى . اللغة الفرنسية القومية تكونت على اساس لغة الشمال المعروفة بلغة أويل Oc و Oïl هما اداة التأكيد او الايجاب Oui في الجنوب والشمال . اللغتان الكبيرتان سُمّيتا بهما ، وكل منهما مجموعة السن اقليمية متنوعة) ، لسان إيل ـ دو ـ فرانس (اقليم باريس والملك) المعروف باللسان الفرنسي Francien . ـ في ١٨٥٤ ، ميسترال وآخرون أسسوا مدرسة الفيليبريج الادبية كـــي تعيد للسان البروفانسي مرتبته كلغة ادبية . والفيليبر مؤازر لها ، كلمة «فيليبر» بروفانسية .

بملوكها ، ب «تواصلاتها الحية ... في اماكن ومواقع كل هذه الهزات القاطعة ، الفاصلة ، المنرفزة !... كانت البداهة تنتزع مني **اخيرا** الاعتراف بهذا : ينبغي علينا ان نعيد **اخيرا** ذلك النظام اذا كنا لا نريد ان نكون آخر الفرنسيين . كــي تعيش فرنسا ، يجب ان يعود الملك» (**تحت شارة فلور** ، Au Signe de flore

لكن **((ما هي الملكية))** ؟ كان لدى موراس عنها تصور جديد وشخصي بالتمام . أكان هو تصور المطالب بالعرش وحاشيته ؟ النظرات الموراسية هل كانت تغطي ما يكفي «من تراث لاشخصي» كي تنال نوعا ما العمادة على يد الملكية الرسمية ؟ واذا بمدير **صحيفة فرنسا** الملكية ، التي كان يكتب فيها موراس ، يقترح على هـــذا الاخير الذهاب الى بروكسل لمحادثة («اجراء مقابلة» ، في لغة اليوم) أندره بوفه André Buffet والكونت دو لور ــ سالوس comte delur salues ، المنفيَّين السياسيين ، الممثلين المخوَّلين للمطلب بالعرش ، دوق أورليان .

موراس يتحدث طويلا مع بوفه . لور ــ سالوس يسلمه جوابا مكتوبا من الف الى ياء . المطالب بالعرش يعلن موافقته خطيا . ينتج عن هذا ان المونارشية ، اذا اعيدت الى فرنسا ، ستكون تقليدية ، وراثية ، مناهضة للبرلمانية ، ولامركزية. موراس يدعو اذاً ، بقناة **صحيفة فرنسا** ، نخبة المواطنين الجيدين الى اعطائــــه شعورها عن السؤال الذي بات مطروحا أمامها : **نعم ام لا ، تأسيس مونارشيـــة تقليدية ، وراثية ، مناهضة للبرلمانية ، ولامركزية ، هل هو قضية سلامة عامة ؟**

ذاك هو الكتاب الاول من **التحقيق** . الكتاب الثاني يعطي الاجوبة ، التي يعلق عليها موراس . أجوبة بول بورجه Paul Bourget ، موريس بارس ، هنري بوردو H. Bordeaux ، جاك بانفيــل J. Baniville ، شارل لو غوفيـــك Ch. Le Goffic ، سولي برودوم Sully Prudhomme ، هنري فوجــوا H. Vaugeois ، فريدريك أموريتـــي F. Amouretti ، لوي ديميـــــه Le dimier ، ليون دو مونتسكيو Le de Montes quiou ، بين آخريـــن (٧) . أجوبة متحمسة ، ــ كان للاعداء ان يقولوا ان صاحب التحقيق «شغَّل» اصدقاءه الشخصيين ؛ وفي هذا قسط من حق ، ــ وأجوبة اكثر تحفظا ، تبدي اعتراضات، تبيِّن الصعوبات . موراس كان يأخذ علما بالتأييدات ، يدحض الاعتراضات بقوة، ناشرا بلا كلل محاججة مشدودة ، رشيقة ، لاصقة ، عنيدة .

التحقيق ، المنشور من حزيران الى كانون الاول ١٩٠٠ في **صحيفة فرنسا** ، أصدِر بادىء ذي بدء في كرّاسين (١٩٠٠ ــ ١٩٠١) . لم يُنشر ككتاب مكتبة الا في ١٩٠٩ ، مضافا اليه جزء ثالث يحمل تاريخ ١٩٠٣ . ما كان يمكن ان لا يكون سوى فصل صحفي لا عاقبة له كان ، بفضل شراكة الظروف ، قد لاقى طنيننا غير

---

٧ ــ بورجه و بوردو : اديبان روائيان ، سولي برودوم : شاعر . الآخرون اقل شهرة ، فيما عدا موريس بارس .

مرجو . كان **التحقيق** يسم منعطفا ، حاسما بالنسبة لشهرة المحقق ومستقبلـه الشخصي، هامًا بالنسبة لتطور الافكار السياسية في القرن العشرين ...

تقليدية ، وراثية ، مناهضة للبرلمانية ، لامركزية : ما هو المعنى الدقيق للسمات المعيّنة بشكل آمر قاطع للمونارشية القادمة ، وأية علاقات متبادلة تقدمها هذه العلاقات ؟ هذا ما ، مع مساعدة محادثيه الساميّين ، ومساعدة مراسلي **التحقيق** المختلفين، المتحمسين او المتحفظين ، سيشرحه لنا على امتداد عمله .

★★★

تقليدية ـ تراثية ، وراثية .

«الملكية يجب ان تكون تقليدية : ثمة بالضبط اتجاه للأذهان جديد تماما ، مؤيد للتقليد القومي و ، كما يقول بارس ، لايحاءات ارضنا وأمواتنا» .

ايحاءات مناهضة للفردوية ، مناهضة للعقلانية : هذه اللغة المعارة لـ«أمواتنا» كانت تشبه بشكل مثير للفضول لغة برك ، ميستر ، بونالد ، كونت ، تين . تقليد، سياسة تقليدية ، لنفهم : رضوخ للواقع ، لا لخيالات العقل الفردي ؛ رضوخ لطبيعة الاشياء ، الطبيعة التي ضدها ـ حسب لور ـ سالوس ـ ثار الفرنسيون بتصميم ومنهجية منذ مئة عام . لنفهم ايضا : رجوع الى الدستور «الواقعي» للوطن ، الدستور الذي (اذا صدّقنا تين في **الأصول**) «الطبيعة والتاريخ» كانا «اختاراه» بدون ان يطلبا رأي الافراد الفرنسيين ؛ بالتالي ، رفض كل دساتيرنا المصطنعة ، المفتعلة ، الوهمية ، المخترعة بكل قطعها من قِبل أناس مقتلَعي الجذور . يقينا ، المونارشية ستقوم باصلاح ، بل كانت هي محور كل اصلاح ؛ لكن عمل حكومة مُصلحة لم تكن هي تفهمه «على انه عمل جمعية رجال سياسة عالين خارقين جلسوا حول بساط اخضر و ، على صفحات بيضاء ناصعة ، يُنضجون بالضربة الاولى ، تقريبا في أصغر تفاصيله ، الدستور الهادف الى صنع سعادة البلد الازلية ؛ نتمثل هذا العمل بوصفه عمل ملك سيد يتابع بانتباه وفي كل يوم العمل التلقائي لقوى البلد ...» (لور ـ سالوس) . سياسة تقليدية ، سياسة **طبيعية** ... . واي شيء اكثر موافقة للطبيعة المفهومة هكذا ـ لنُعد قراءة برك ـ من الوراثة في كل اشكالها ؟ تقليد ووراثة ، تراث ووراثة ، مفهومان توأمان !

«المونارشية يجب ان تكون وراثية : توجد حركة في صالح اعادة تكوين الاسرة ، اساس الوراثة» .

النقل الوراثي ، في العائلة ، بالعائلة ، هو النقل على سبيل الامتياز (وما هو التراث ، ان لم يكن هو ما يُنقل ؟) . موراس يحرص على توضيح ان المقصود ليس عدا ذلك نقلا «فيزيولوجيا» بالدم بقدر ما هو نقل نوعا ما «مهني» بالتراث الشفوي وبالتربية في البيئة العائلية . الكتّاب الجمهوريون لم يفهموا شيئا من الامر ،

الذين يكتبون في كورس من اجل تكسير كبرياء النيو ـ مونارشية : قوانين الوراثة معروفة بشكل سيء ، الخ . موراس ، هاز[3] كتفيه : لكن ليس الأمر قوانين الوراثة الفيزيولوجية . ويشرح ، بمفردات كاملة ، ما الامر . وينحاز ، مثل بارس ، لـ «الوريث» ، في الذي دعي مساجلة «الوريث» و«التلميذ المزود بصرة نقود» .

ليس المطلوب ان تؤمّن فيزيولوجيا في خدمة الدولة من جيل الى جيل مجموعة افراد اكثر تميزا من عامة المواطنين ؛ المطلوب استخدام القابليات الخاصة ، الخصوصية والتقنية ، التي يعيّنها لكل درجة الدم ، ولكن خصوصا التقليد الشفوي والتربية . ليست المسألة **درجة** هذه المؤهلات ، بل **صفتها** ، او اذا شئتم توجهها المعتاد ... . يولد الانسان قاضيا او بائعا ، عسكريا او مزارعا او بحّارا ، وحين يكون مولودا هذا او ذاك يجد نفسه فضلا عن ذلك، ليس فقط بالطبيعة ، ولكن ايضا **بالموقع** ، أقدر على انجاز الوظيفة الموافقة بشكل نافع : ان ابن دبلوماسي او تاجر سوف يجد في احاديث ابيه ، في دائرة عائلته وعالمها ، في التراث والعادة اللذين سوف يغلفانه ، يساندانه ، الوسائل الحية للتقدم بسرعة اكثر من اي شخص آخر ، إما في التجارة واما في الدبلوماسية . عمل حياة أسرته سيكون قد جعله يجد خط **الجهد الاقل و الاثر النافع الاكبر** ، اي المردود الانساني الافضل .

تفضلوا وطبقوا على المونارشية هذه المحاكمة كما كان يفعل غريزيا «كبار فرنسيينا في القرن السابع عشر» حين كانوا يتحدثون عن **حرفة الملك** . الامير هو ، كالبائع ، العسكري ، القاضي ، الفلاح ، او البحّار ، «نوع اجتماعي من نموذج الإنسان»، خاضع لنفس القواعد التي تخضع لها الانواع الاجتماعية الاخرى: المزاولة الطويلة للوظيفة في العائلة تكيف بشكل يكاد يكون اوتوماتيكيا لهذه الوظيفة «أفراخ» هذه العائلة . الامير ، ابن امير ، هو ليس فقط بالطبيعة ، بل ايضا **بالموقع** ، اقدر على انجاز وظيفة امير .

واذا كانت هذه الاخيرة هي رفع المصلحة القومية دون سواها ، فمن السهل ان نرى ان الامير الوراثي موصوف اكثر من اي شخص آخر ـ **بحكم موقعه** ، بصورة مستقلة عن قيمته الشخصية ـ لتبيّن هذه المصلحة . انه موصوف اكثر لان **هذه المصلحة هي في الوقت نفسه مصلحته** . موراس استطاع ان يقرأ عند هوبز، سلف الوضعوية ، وأن يجد ثانية ، في عري أقل ، تحت قلم لويس الرابع عشر و بوسويه الحجة الكلاسيكية للمونارشويين القدامى («المسلّمة المونارشية»): المونارشية افضل الانظمة لان المصلحة الشخصية للحكام ، ترجمة الانانية التي لا تقهر ، والمصلحة العامة ، بعيدا عن التعارض ، تتطابقان فيها **بالضرورة** . موراس،

في **التحقيق** كما في كل مؤلفاته ، استرجع هذه الحجة ، جدد شبابها ، قدمها دون ملل تحت كل وجوهها . حجة ثمينة الى ما لا نهاية في نظره ، اذ لا تداخلها اية عاطفية ؛ طابعها واقعي محض ، على غرار ماكيافل وهوبز سواء بسواء ؛ ركيزتها وضعية تماما وعلمية تقريبا . تفضلوا ، تحت هذه الزاوية ، وقارنوا بالمونارشية الجمهورية ، سواء البرلمانية ، او الاستفتائية (كما يحلم بها القوميـــون طراز ديروليد) .

برلمانية كانت او استفتائية ـ الكـــلام لـ اندره بوفه ـ ان الجمهورية تابعة لروح وقلب جمهورييها . اما الملك الوراثي فلـه مصلحة جد مباشرة في الصالح العام مما يحول بينه وبين ان يحكم فقط بحسب مزاجه او بحسب منظومة . انه دماغ الامة ، جهازها العصبي المركزي . يرتجف من الخطر المشترك ، يطمح الى الازدهار المشترك . طبيعته العميقة ، وظيفته الضرورية والطبيعية ، او اذا فضلتم استخدام لغة علم الهندسة ، **موقعه** ، تضطره الى ان يضبط ذاته على ضرورات السلامة العامة . يمكن ان يخطىء ، لا ريب ، في رؤية هذه الضرورات ، لكنه مرغَم على البحث عنها ، وما ان يلمح الخطأ حتى تحمله **مصلحته** على تصحيحه ...

وراثة السلطة تصنع اذاً قوتها ، ديمومتها ، استمرارها ، الموازية لقـــوة وديمومة واستمرار الامة . بالعكس الاستمرار ـ مثله مثل التنظيم : كونت كان قد رأى ذلك ـ غريب عن جوهر الديمقراطية الجمهورية ذاته . اذا كانت الجمهورية الثالثة البرلمانية لا تزال من جانب ما حكومة ـ موراس ، كارها ، يسلم لها بذلك فبفضل مؤسسة جبارة ، مجذّرة في الزمان ، هي الماسونية ، برجالها المختبَرين، «التي تساندها وتقودها البلوتوقراطية»(٨) . الماسونية جاءت تعوض عدم الاستقرار الوزاري ؛ خلقت سلسلة لا جدال فيها من المقاصد السياسية والادارية . الماسونية قدّمت للجمهورية ، التي هي بذاتها وبالجوهر بغير استمرار او تواصل ، «الحد الادنى من الاستمرارية الضرورية» .

اعادة تكوّن العائلة الملكية ، السلالة الوراثية ، ليست من جهة اخرى سوى رمز ونذير اعادة تكوّن العائلات بوجه عام . آن الاوان لتصديق بونالد ، كونت ، لوبلاي ، وامثالهم ، هؤلاء المحامين الكبار عن العائلات الفرنسية المفتوك فيها ضد الفرد الغاصب ، ضد الفردوية الفوضوية للثورة .

العائلات ـ يجاهر لور ـ سالوس ـ يمكن ان تعتبر وسائط النقل

---

٨ ـ بلوتوقراطية : حرفيا حكم الثروة ، حكم الاغنياء .

الطبيعية للتراث . حين تكون مكونة بعزم وقوة ، فان ما استطاع ان يعمله رجل من أمور نافعة لا يموت معه ، بل ينتقل ، مع الدم والاسم ، الى ذريته . ان نتيجة جهود قديمة ، مضافة الى الجهد الحاضر ، تجعل هذا الاخير أشد فعالية وأكثر حظا : الخير العام ، المصلحة العامة ، يربحان في ذلك . كل شيء يكتسب هيئة كبيرة من صلابة وقوة .

كذلك لا عاطفية هنا ، لا ترقق عائلي احمق بعض الشيء ، بل **فيزياء اجتماعية**، كما كان كونت ليقول . لا مجال لاستدعاء : «حين الطفـل يظهر ، حلقـة العائلة ...» ، على غرار قصيدة هوغو Hugo . قانون سقوط الاجسام ، «الجمع المتزايد ، التسارع المستمر» ، آلة أتوود Atwood ، ذاك ما يستدعيه لور ـ سالوس ! (٩) .

نتيجة لازمة : يجب اعادة تكوين نبالة وراثية ، في كنف الملك الوراثي . ذاك اعادة امتياز الولادة . موراس قطعي هنا . «بالمعنى الحقيقي ، الارستقراطية هي الوراثة . ان ارستقراطية لخيّرة لا بكونها تتألف من أناس خيّرين او جيدي التفكير والتجهيز ، بل بكونها تنتقل مع الدم ، بكونها مرتبطة بمستقبل الوطن بالمصلحـة الوراثية .

لكن أرستقراطية «مفتوحة» ، يوضح لور ـ سالوس . مفتوحة للجميع . وتتجدد بشكل دائم . ولمَ لا ، يسأل احد مراسلي **التحقيق** ، كوبان ـ ألبانسلي Copin Albancelli ، مدير جريدة مناهضة للماسونية ، هي **ليسقط الطغاة!** ، لمَ لا نبالة عمال ، كما في الماضي نبالة قضاء ؟ موراس ينط على السؤال ويجعل له نصيبا . «نعم ، لمَ لا ؟» . حين الطبقة الجديدة من رجال القانـون اكتسبت اهمية هائلة ، انضافت «نبالة الرداء» الى «نبالة السيف» ، وغمرها الملك بخيراته وأكثر . والآن ! لقد وُلدت طبقة جبارة ، بحكم تقدم نظام الآلة .

هذه الطبقة الجديدة لا تحتل في الدولة مرتبة تتناسب مـع نفوذها . فدولتنا بلا قوة كما هي بلا نور . حققوا الدولة الواعيـة والقوية ، اي اعملوا المونارشية الوراثية ؛ سترى وستجرؤ ؛ ستعلم عندئذ اين تمد حمايتهـا ، ولن يخلط احد مجاملاتهـا حيال ارستقراطية للشغل صحيحة وجديـدة مع كل هـذه الدناءات

---

٩ ـ **فيكتور هوغو** الاديب الكبير وشاعر فرنسا الاكبر والأغزر (ق ١٩) ، المتنوع الميادين ، عنده قصيدة جميلة وشهيرة عن الطفل والعائلة تبدأ بالبيت المذكور . ـ **اتوود** الفيزيائـي الانكليزي (ق ١٨) اخترع آلة لدراسة مبادىء الديناميك .

الانتخابية المغدَقة بلا تمييز على المسيِّرين السياسيين للعالم العمالي من قِبل أشباح الوزراء الذين يشرفون على النظام الجمهوري .

ليتخيل المرء امام هذه البناءات المبتكَرة تهكمات ماركس وانجلز ، المترجمين اللاذعين للصيرورة الاجتماعية ، السخريات المترفعة من رجل مثل توكفيل ، الذي يصرف بأدب واحيانًا بحنين ، منذ ١٨٣٥ ، العصور الارستقراطية !

الا ان هذا الدفاع القوي عن الوراثة كان يعطي موراس صوت بول بورجه المتحمس الرصين . اكبر سنا من بارس بعشر سنوات ومن موراس بست عشرة سنة ، عضو الاكاديمية الفرنسية منذ ١٨٩٤ ، كان بول بورجه يتمتع بوضعية ادبية مرموقة . كانت شهرته «كاتبا ملكيا كبيرا» ، وكان ، اكثر بكثير من لوبلاي ، جديرا باسم «بونالد المجدِّد الشباب» . بونالد مصهورا مع تين وقرأ داروين . لا شيء كان يمكن ان يسرّ موراس اكثر من الحجج الوضعية و«العلمية» التي كان بها بورجه يعلل حماسه . العلم ، كان يصرح المعلم النابغ مع احترام حار لهذه الكلمة السحرية ، يعطي بالضبط نفس التعليم الذي تعطيه النيو ـ مونارشوية . الا وهو ان كل تطورات الحياة تحصل بالاستمرارية ، **بعدم الانقطاع** ؛ أن قانونا آخر لتطور الحياة هو **الاصطفاء** ، «اي الوراثة المثبتة» ، وعكس المساواة بالتمام ؛ ان احد اقوى عوامل الشخصية الانسانية هو **العرق** ، «هذه القدرة المركومة من قبل اجدادنا ، من قِبل هؤلاء الاموات الذين يتكلمون فينا» : كل عكس «حقوق الانسان» ، الانسان «في ذاته» ، اكثر المجردات فراغا و لاواقعية . ويخلص المعلم الى ما يلي :

> هذا التوافق للمذهب المونارشي مع الحقائق المعترف بها اليوم من قِبل العلم هو احدى الوقائع المطمئنة في العصر الكئيب الذي نجتازه . انه غني بالنتائج غنى وفاق الشكل الجمهوري مع فلسفة روسو بالامس .

★★★

مناهضة للبرلمانية .

«المونارشية يجب ان تكون مناهضة للبرلمانية : الحزب القومي ، برمته تقريبا ، يعلن نفسه ضد البرلمانية لصالح حكومة اسمية ، شخصية ، مسؤولة» .

سلطة ومسؤولية رجل ، شخص ، اسم : عرف القارىء هنا «الموضوعة **السلطوية** autoritaire » ، احدى الموضوعات الثلاث الاساسية التي تتناوب في التاريخ السياسي الفرنسي منذ ١٧٨٩ (الفكرتان الاخريان هما الفكرة البرلمانية او **الليبرالية** والفكرة **اليعقوبية** إما في الحالة الخالصة ، او بالتضافر مع الاشتراكية). الفكرة السلطوية ضد اللااسمية ، اللاشخصية ، اللامسؤولية للبرلمانية .

لكن صعوبتين كانتا تمثلان امام موراس ، حكيم المونارشوية الجديدة المبتكر. الاولى ان الموضوعة السلطوية ، المناهضة للبرلمانية ، كانت ، منذ يوم ١٨ بروميير ويوم ٢ ديسمبر (١٠) ، تبدو متحدة في الجسد مع البونابارتية ومشتقاتها الدنيا الاستفتائية : بولانجية ، قوموية جمهورية لـ ديروليد . الثانية ان المونارشية المعادة كانت ، منذ ميثاق ١٨١٤ ، في كثير او قليل برلمانية على صورة انكلترة ، ولم تكن البتة سلطوية .

نظرا للظروف السياسية لعام ١٩٠٠ ، كان من الملحّ حسم الصعوبة الاولى بشراسة . بين الدكتاتورية الشخصية والمونارشية لا شيء مشترك . «لانني ملكي ـ يعلن اندره بوفه ـ أكره الدكتاتورية **الشخصية**» . موراس ، مع مساعدة أ. بوفه ، يدّعي تصفية حساب هذا المذهب الخاطىء الذي يدعى «استفتائيا» والذي يتلخص في اختيار الامير او الرئيس من قِبل الشعب ، بالاقتراع العام (دعوة الشعب) .

ديروليد هو **رجل، رجل** : اكان هذا الرجل هو او غيره ، ديروليد يعتقد ان كل وضعية سياسية انما يستطيع ان يحلها هذا الرجل ، منتخَب الديمقراطية . اذ ان الشعب ، على حد قوله ، لا يخطىء . الاقتراع العام يشير الى نزوع الامة ، يعيّن السياسة النافعة للمصالح القومية . يدخل في الذين يسميهم غريزته الموجهة التي لا تخطىء ... . الرئيس بالاستفتاء ليس عدا ذلك مجبَرا على استشارة ناخبيه حول التفاصيل : انه قائد على طريق مرسومة .

ذلك هو المذهب الذي يكون ديروليد ، حسب أ. بوفه ، قد عرضه له مرارا . انه يتضمن اذاً الاقتراع العام ، عصمة الشعب ، «خرافة قرناء» . اذا كان النظام الذي يلهمه هذا المذهب قادرا على ان يضع حدا ، لبعض الوقت ، للفوضى ، فانه لا يضع حدا «لاسباب الفوضى» . ذلك ما هو خطير . الدكتاتور ، تحت طائلة فقدانه السلطة ، ممسوك في التبعية للأهواء الشعبية ولغلطات العدد . تضييع البلد او تضييع السلطة ، ذاك خياره الحرج . أجل الفرنسيون مصرانهم سلطوي، انهم يرغبون ، يحبون قبضة . حسب كلمة شنيعة ، لكن ناطقة ، من لسان بارس الشعبي ، فرنسا قبضاية Poignarde ، خنجرية . البولانجية كانت هذا ،

---

١٠ ـ في ٢ ديسمبر ١٨٥١ لوى ـ نابوليون بونابارت (الذي كان قد انتخب رئيسا للجمهورية قبل ثلاث سنوات وحلف اليمين للدستور الجمهوري) قام انقلاب (حل واعتقل وقمع ...) ، ثم ايد انقلابه باستفتاء كاسح ، ثم بعد سنة في ذكرى يومه وبعد استفتاء جديد أعلن نفسه امبراطورا للفرنسيين ، تحت اسم **نابوليون الثالث** ، ـ مقلدا سلفه وعمه (يوم ١٨ بروميير ، سنة ١٧٩٩) .

«التاكيد الشعبي لضرورة رئيس ، اعلان حقوق الشعب في ان يقاد ، تظاهر رغبة وحاجة وتذوّق الفرنسيين للسلطة» . عاطفة لا جدال فيها ، يصرخ بوفه ! لكن كيف لا نرى ان الوراثة المونارشية وحدها قادرة على ان تكيف لهذه العاطفة شكلا «واضحا ومتينا» ؟

تبقى الصعوبة الثانية : المونارشية البرلمانية لـ لويس الثامن عشر ، لـ لوي فيليب [11] ، التي كان ينتسب اليها وينادي بها «المحافظون» المونارشيون في الجمعية الوطنية بين ١٨٧٠ و١٨٧٥ . حوار ، عن هذا الموضوع ، من اجل تعليم الجمهور ، بين موراس و أ. بوفه . يقول موراس :

> ابديت اعتراضا : نعم ، ولكن البرلمانية ؟ السيد بوفه بدأ يبتسم في شاربه . نظر اليّ بضع ثوان ، كأنه فاقد الصبر . ثم حانيا راسه بهيئة ساخرة : المونارشية البرلمانية ! ماذا ! انت ايضا! اتستطيع ان تصدّق ؟ ـ انا لا اصدق ، ولكن في فرنسا يصدقون، او يتظاهرون . من جميع الاضرار التي تلحق بنا امام الراي العام ، هوذا الاخطر . ـ برلمانية ! برلمانية !... و ، هاز[3] كتفيه ، اندره بوفه يجوب الصالون طولا وعرضا . احسه ، اكثر ايضا من كونه مستنكرا ، منزعجا مضروسا . يجب (يقول بوفه) مع ذلك ان ننتهي من هذا اللوم ! المونارشية **تمثيلية** . ليست برلمانية . ملك يملك ويحكم ، اهذا واضح بما فيه الكفاية ؟ ـ واضح جدا ، فيما عدا ان الفرق لا يظهر قط لعامة الناس ...

المطلوب تحديدا ، في **التحقيق** ، اظهار هذا الفرق لإدراك عامة الناس .

عبر النظام البرلماني ، على المبدأ الانتخابي نفسه (الذي ليست البرلمانية الا تطبيقا له) ، على العقيدة الديمقراطية نفسها التي تريد ، بالاقتراع العام ، ان تجعل كل **محكوم حاكما** ، ـ يشن موراس و النيو مونارشوية الحرب . حربا طاحنة ، حربا تامة . ضد «الحيوان» ، الديمقراطية ، يعبئان كل المدفعية المذهبية : **فوستل دو كولانج و بونالد** وميستر ، بالزاك و كونت ، تين و رينان . «مبدأ الانتخاب مطبّقا على كل شيء خاطىء . فرنسا ستعود منه» : هذه الجملة لـ بالزاك تتجاور ، في جمل تصدير الكتاب الثاني من **التحقيق** ، مع جمل لـ رينان . بالزاك ، الرسام المعصوم عن الخطأ ، في **الكوميديا الانسانية** ، لعالم المال في زمنه ، لـ «البرجوازية» بمعنى ماركس ، كان قد اعلن «وقوفه الى جانب بوسويه و بونالد بدلا من الذهاب مع المجددين الحديثين» . كانوا يجعلون منه ، حوالي

---

١١. ـ لويس الثامن عشر كان معتدلا (بخلاف خلفه شارل العاشر) .

١٩٠٠ ، مفكرا سياسيا كبيرا [١٢] .

النظام الانتخابي ، ولاسيما البرلمانية ، شكله الاكثر ايذاء ، يضعف الدولة ، دون مع ذلك ان يعطي المواطن الضمانات الخاصة الضرورية له . يضعف الدولة ، التي يسلمها للاحزاب ، اي للدسائس الشخصية ، لمشاحنات الزمر و«الشلل» ، للتركيبات الصغيرة . ماهراً كان او غبيا ، انه دوما شيء ما «واطىء وملتبس» . هذه الدولة التي يخفضها ويذلها ، النظام البرلماني ، الطفيلي ، يتعدى على ميدانها، على وظائفها الجوهرية . يا لها من دولة معاصرة بائسة تعيسة ، «يصحبها هذا النقيض» الطفيلي ! لو ، على الاقل ، كانت البرلمانية حقا ، كما تمثل للمازحين ، «تمثالا ضامنا للحرية» ! فليسمح ل موراس بأن يضحك وأن يرسل ظهرا على ظهر حول هذا الموضوع ، مع التذكير بالتجاوزات السياسية ليوم ١٦ ايار المحافظ ، برلمانيي اليمين وبرلمانيي اليسار . كلا ، يقينا ، ليست البرلمانية تمثال ضمانة الحرية . حتى مصحَّحة بأمير ، تبقى البرلمانية نظام اضطهاد الاقليات كما وتنافس الاحزاب ، نظاما يحمل في بطنه الحرب الاهلية . «عند اعادة العرش القادمة ، كل الناس سيطلبون من الحكومة الاتحاد ، السلام ، امحاء هذه الخلافات . الحقيقة السعيدة التي هي عدم شعبية البرلمانية ستمكن الامير من العمل لذلك بسهولة فائقة» .

يا للعجب ! لا انتخابات سياسية بعد الان ، لا سلطة حمقاء للعدد ، لا جمعيات برلمانية ، لا احزاب ـ بل ولا حزب ملكيّ : «ملك فرنسا لا يمكن ان يكون ملك حزب ؛ انه عدو الشلل» ، ـ لا هياج حول الدولة ، بكلمة تلخص كل شيء لا ديمقراطية بعد الان ! يا له من رجوع الى الوراء ، يا لها من **ردة** !

اجل ! **ردة اولا** ، يعلن لور ـ سالوس ، مسترجعا العنوان العدواني للعدد الاول ، الصادر في اول آب ١٨٩٩ ، لمجلة صغيرة رمادية يقودها هنري فوجوا H. Vaugeois : **نشرة العمل الفرنسي** (مجلة قوموية جمهورية ، فيها كان موراس الملكي الوحيد !) . «نعم ، ردة اولا ، رجعة ، اي رجوع الى المفترق الذي فيه اخطأنا الطريق ، لكن من اجل سلوك السبيل الحقيقي للتقدم المتصل والانماءات السوية ، لا من اجل العودة الى الوراء او الرجوع نحو الماضي» . ما السبيل الى عدم الرجوع الى الوراء ؟ ما السبيل الى سد مكان كل الذي تنحّى لتوّه ، بشراسة وسعادة ؟ ماذا تكون بالضبط المونارشية الانتي ـ برلمانية ، المطهَّرة من كل أثر لنظام انتخابي ؟ مونارشية **سلطوية** autoritaire ، تذكّر على نحو فريد ب بودان العجوز : الملك يملك ويحكم «في مجالسه» ، التي تراقب من اجله الادارات ، والتي تتألف من الاشخاص الأكفاء الذين عيَّنهم . ذاك بالنسبة

---

١٢ ـ الاديب الكبير بالزاك كان ، في السياسة ، يمينيا . وبالطبع لم يكن « مفكرا سياسيا كبيرا » .

ل «الحكومة» . وهذا بالنسبة لما يدعوه موراس ، بلغة ليست لغة الحقـــوق الدستورية الكلاسيكية ، «التمثيل» . الشعب «في حالاته ـ طبقاته Ses etats التي تلخص كل مصالحه المحلية ، المهنية ، الاخلاقية ، الدينية ، يشير ، علـــى اساس استشاري ، الى ما يسير وما لا يسير : لمجالس الملك ان تعمل بعدئذ على تكييف «سيادة الخير العام» لهذه الاماني .

بتعبير آخر ، ان المونارشية الآنتي-برلمانية والسلطوية سوف تستطيع ان تكون **تمثيلية** بالمعنى الموراسي لانها ـ وهذه هي الترجمة الحديثـــة للعبارة القديمة : الشعب «في حالاته ـ طبقاته ـ هيئاته» ـ ستكون على وجه التحديد **لامركزية** . وثيقة ، لا تنفصم ، تظهر الرابطة بين هذه السمة الاخيرة ، **last not least** ، «الاخيرة لا الاقل شأنا» ، للمونارشية والسمة التي درست للتو .

★★★

لامركزية ، منزوعة المركزة .

«اخيرا المونارشية يجب ان تكون نازعة المركزة : ان حركة جبارة لنزع المركزة ترتسم وتكبر يوما بيوم في البلاد» .

هذه الحركة «الجبارة» (يجب ان لا نبالغ) ، التي منها كانت تصعد بشكـــل خاص الانسجامات البروفانسية ل «البعث الميسترالي» وموسيقات بارس عـــن اللورين ، كانت لها مصادر متعددة ومتناقضة . ان اذهانا من شواطىء احيانـــا مختلفة كثيرا ، من بنجامين كونستان و توكفيل الى تين مرورا ب برودون (عـدو السلطة وابي الفوضوية) ، كانوا بشكل متساو قد أعربوا عن عدائهم ، بل عـــن هلعهم امام «النمو المفرط» للغول ـالدولة . مع تطور اشتراكية ـ الدولة (حتى في بلدان محافظة مثل بروسيا) ، كانت الظاهرة تهدد بأخذ مقاييس يستحيـــل التنبؤ بها . شهية اللوياثان ، القنوع جدا في حاصل الامر في زمن هوبز ، الم تكن ستبلغ الان **السعار** ؟ هذا القلق كان يضع في «الموضة» اللامركزية ، حتى في الاوساط الجمهورية ذات اللون الجيد (لكن لا اليعقوبية) في فرنسا . موضة ، بالحقيقة ، لا اكثر . هنا ايضا موسيقات ، ولكن ضعيفة بما فيه الكفاية . الواقع العملي ، مع حسابنا قانون البلديات لعام ١٨٨٤ ، كان السيطرة المتزايدة للدولة.

هذا التضاد بين المثل الاعلى المعترَف به ، الحاجات المعترف بها ، وســـير الاشياء الحقيقي ، يا له من موضوع جميل بالنسبة للنيو مونارشيين ! موراس يبسطه بأستاذية خاصة ، في اربع نقاط ، دون ان يدع ذاته يتأثر باعتراضات معكرة الى حد كاف .

النقطة الاولى . **فرنسا تختنق تحت الشد النابوليوني** . «اذا ما اخذت امرأة بالاختناق ، كان اول ما يعنى به الاطباء هو نزع مشدها : مشدودة بصرامة ودقة من قبل المؤسسات القنصلية ، فرنسا بحاجة الى هواء .» (لور ـ سالوس) .

«نزع المركزة . هذا مهم بقدر ما امكن ان تكون مهمة ، في القرن الثاني عشر ، المساعدة على تكوين الكومونات ؛ في القرن الثالث عشر تسوية حياة الحرف ونقاباتها ؛ في القرن السابع عشر تخفيض بيت النمسا ، او ، في ايامنا ، استرجاع نهرنا الموزيل Mosel ونهرنا الراين . — نزع المركزة = اعادة صنع فرنسة» (أندره بوفه) .

النقطة الثانية . **الجمهورية لا تستطيع ان تنزع المركزة** . حتى فيما اذا ارادت! ان لجانا برلمانية مكلفة بدراسة المسألة قد فشلت فشلا ذريعا .

الجمهوريون لا يستطيعون نزع المركزية ، اذ انهم لا يوجدون ، لا يدومون ، لا يحكمون الا بالمركزية . فكل سلطة جمهورية انما تخرج من الانتخاب. اذا اراد البقاء في الانتخاب التالي ، يحتاج المنتخَب ، وزيرا كان او نائبا ، الى ان يمسك ناخبه عن كثب . من يمسك الناخب ؟ الموظف . من يمسك الموظف ؟ المنتخَب ، وزيرا كان او نائبا ، بالسلسلة الادارية . نزع مركزية الادارة ، هو اذاً قطع سلسلة الامن هذه في موقعين او ثلاثة : هو اعادة قسط من استقلال الى الموظف ؛ والى الناخب الحرية الموازية . الوزير او النائب يفقد وسائله الانتخابية . كن مقتنعا انه لن يتخلى عن ذلك الا مرغما ومجبَرا . ابدا بمشيئته لن يحرم نفسه من الموظف — الخادم . هؤلاء الناس ليس عندهم مزاج ان ينتحروا . (أ. بوفه) .

النقطة الثالثة . **عدا ذلك نزع المركزية ، في النظام الجمهوري ، يحمل اخطارا قاتلة .**

من لا يرى ان في جمهورية ، اي بدون رئيس دائم ، ان الفطنة الوطنية ستجعل واجبا ان تحقّق اللامركزية بتقتير اشد بكثير مما يُجرأ عليه في ظل نظام مونارشي ... . ان الجمهورية ، بما انها أقل مرونة وبالتالي أقل قوة ايضا ، مجبَرة على ان تتخذ في زمن السلم نفس الاحتياطات التي تتخذ في زمن حرب اوروبية : المواطنون فيها يعيشون في حالة حصار دائم . انها اذاً مضطرة الى لامركزية بخيلة وكلامية اكثر منها فعلية . لكن هذه اللامركزية الوهمية هل ستكفي هذا البلد البالغ التركز ، البالغ التعسكر ، البالغ الخضوع لانظمة ، الذي يموت من ذلك كل يوم ؟ — انا لا أعتقد . ينبغي تحقيق اللامركزية بشكل واسع .

النقطة الرابعة . **المونارشية وحدها تستطيع ، بلا خطر ، ان تحقق اللامركزية وان تحققها بشكل واسع ، بشكل تام** . سلطة ثابتة ، وراثية ، مجيبة ، بالجوهر

والهدف ، عن الوحدة الفرنسية ، انها لا تجد اي عناء في توفيق ما هو ، بالنسبة للجمهورية ، معتص . اولا بأول ، «بما انها حرة من نير الانتخاب» ، فهي لا تحتاج الى الموظف ــ الخادم . و ، من جهة اخرى ، ليس عليها اي خطر من «إرخاء الحبل للالوان القومية» . عندها ما يكفي من السلطة ، وهي وحدها عندها ما يكفي منها، لانقاذ هذه الفضائل القومية من ذات تجاوزاتهن . معطاة من فوق ، وليس من تحت كما في الجمهورية ، الحريات او العتقات التي تعبر عن هذه الفضائل القومية «تفترض من جانب الذين يستفيدون منها الاعتراف الدائم بالسلطة الوحدوية ، الشخصية والواقعية ، التي تمنح هذه الحريات وتدافع عنها وتكفلها» . في حال خطر قومي ، انها تتنازل وتستقيل بشكل طبيعي تماما امام الضرورة العليا لانقاذ الامــة .

هكذا فرنسا ، المحرَّرة من المشد القنصلي من قِبل عهد الاعادة ، ستبدأ تتنفس من جديد . ان لامركزية **مهنية** او نقابية ، اخلاقية ودينية ، ستكمل من جهة اخرى اللامركزية **الاقليمية** . الم يكن الكونت دو شامبور de Chambord في تعليمات اصدرها في ١٨٦٥ ، قد اوضح ان «الدستور الطوعي والمضبــوط للنقابات ــ الحرفية الحرة سيصبح واحدا من اقوى عناصر النظام والانسجــام الاجتماعي» ؟ الاكليروس ، الجامعة ، البر العام ، الشركات القضائية ، التجمعات المهنية ، والمذهبية الدينية ، ستجد من جديد او ستنال استقلالها الذاتي ، وكذلك المدن والبلاد والاقاليم . كل هذا منسّقا من عال جدا على يد السلطة المركزية . وكل هذا **ممثلا** ــ ذاك هو التمثيل بالمعنى الموراســـي ، المعرّف آنفا ــ فـــي حالات ــ هيئات états ، اي مجالس منتخبة ، كما عرفتها كثيرا فرنســا القديمة . بالطبع ، المقصود انتخابات طابعها تقني تماما ، مهني ، نقابي ــ حرفي، وليس بتاتا سياسي .

وبنفس الضربة يسقط ، مثل ثمرة يانعة ، الاعتراض الذي مفاده ان هنــاك تناقضا بين الطابع الأنتي ــ برلماني ، السلطوي ، والطابع اللامركزي للمونارشيــة المنشودة . «اتتصور ــ اجابوا على موراس ــ مونارشية مع رئيس مطلق ، بدون المراقبة الفعلية من جانب مجلس ، مونارشية **قبضيــة** ، يخدمها اصدقــاء **قبضايات** ، وتكون في الوقت نفسه لامركزية ؟ أليس هذا طفح المحال ؟ فمن كان **قبضايا قابضا** لا يشاطر السلطة مع احد ويبدي نفسه وحدويا بشكل جبري» . عفوك (يرد موراس على مناقضه اوجين لودران Eugène Ledrain)، ان البرلمانية تمنع الدولة من ان تؤدي بشكـــل مناسب الوظائف الوحيدة الحقــة للدولة : دبلوماسية ، جيش ، مالية . بحيث

ان الدولة المعاصرة اذ لا تستطيع ان تسيّر بحرية وبشكل متصل مصالحها الكبرى فهي تنكب على الف عمل آخر بالأضافة : انهـا مثلا صانع علب كبريت او بائع تبغ ... معلم مدرسة وخـــادم

> مرضى ... ، مدفوعة على الدوام خارج اختصاصهـــا ، خارج دائرتها المهنية ، تحل نفسها بلا هوادة محـــل مبادرة المواطنين وجماعات المواطنين ؛ تخترع اذاً كل يوم فرصة جديدة لازعاجهم او تنكيدهم .

لكن احذفوا البرلمانية وستجد الدولة من جديد اوتوماتيكيا الادارة الحـــرة لهذه المسائل العالية التي هي وحدها من ميدانها حقا . واذ تعود شؤون الدولة «بهذه الطريقة الى الدولة ، فان الشؤون الخاصة ، بضرورة عكسيـــة ، ستنزع كذلك الى السقوط من جديد في أيدي الخاصين» . المواطن ، بعد ان كان مُدارا غامضا ، سيتخذ واقعية سياسية اخيرا عينية وحقة : سيكون شخصا من مدينته، من اقليمه ، من جسمه ، من حرفته . ليس فقط سيحرَّر من ضيقاته الحاضرة ، بل سيرى ، بفضل هذه المونارشية الناهضة للبرلمانية والنازعة للمركزية بآن معا، قدرته الفردية مزادة بأهمية الاجسام والشركات التي سيكون مشاركا فيها . روح الجسم اليس هو احزم واقوى الدفاعات المدنية ــ الوطنية ؟

يعجب المرء في كل هذا بتجديد شباب السياسة القديمة ، سياسة **الاجسام الوسيطة** . تجديد مختلف جدا ، رغم بعض الظواهر ، عن النقل التحويلي الذي كان توكفيل ، بحسب مثال اميركا ، قد اوصى به . تجديد ينسخ في الحاصل المنظومة التي نادى بها بونالد تحت اسم المونارشية **المعدَّلة ــ المعتدلة** («حريات» ، لا **الحرية** اليعقوبية !) .

لكن عندئذ يبرز اعتراض جديد . نفس المناقض اليابس ، أوجين لودران ، سيصوغه الان :

> الملكية التقليدية ، التي للأمير فيليب أورليان ان يواصلها ، كانت وحدوية جوهريا ... . تستطيع ، يا عزيزي موراس ، ان تندار يمنة ويسرة ، بذهنك المرن والحذق ، لن تفلت من القانون التاريخي . لن تجعل الملكية التوحيدية تسلك الدرب التراجعي نحو منبعها ، نحو تجزؤات البداية . لن تمنع كون تلك الازمنة قد ولَّت.

اعتراض مخيف كانت برهنة توكفيل في **النظام القديم والثورة** تجعله تقريبا غير قابل لدحض ! الثورة كل ما فعلته هو انها اكملت العمل الوحدوي ، المركزي ، الموحِّد والممركز ، المشؤوم على «الحريات» ، الذي قام به ريشوليـــو ولويس الرابع عشر .

موراس لن يرد على الاعتراض المخيف إلا في شرح لطبعة ١٩٠٩ (مضـــاف كتعليق على الجواب الذي أرسله الفيلبر الملكي اموريتي **Amouretti** الـــى **التحقيق**) . نعم ، لويس الرابع عشر ، بالواقع ، قد مركز . الا انه لم يخلق بكل

قطعها وبموجب مذهب مسبّق منظومة جديدة . الا ان الاجسام كانت باقية ، ولو محرومة في معظم الاحيان من تمثيل نظامي ؛ ليس بالتالي مستحيلا ان يعاد اليها عزمها وقوتها . بينما الثورة ! اية مجزرة مرادة ، متعمّدة ، اجرت ! لقد هجمت على الاجسام ذاتها ، واكثر بكثير على فكرة الاجسام بالذات ...

***

موراس يختم الكتاب الثاني من **التحقيق** على نغم عالم رياضي ظافر :

> لقد تجرأنا ولفظنا اسم المونارشية **العلمية** ... ، لم يكفنا ان نقول او ان نكتب ، لقد **برهنّا** ... . فرنسا **مجبورة** ، هذه هي الكلمة ، للمونارشية . بالفعل هذا ليس تابعا لاراداتها ، هذا تابع لضروراتها ... . **إما فرنسا والملك . او لا ملك ، ولكن لا فرنسا بعد الان .**

جمهوريون يرثى لهم ، أعلنوا عن تحقيق ــ مضاد ، ثم انكشفوا عاجزين عن معارضة العقل الملكي بحجج عقلية des raisons . رجوع للاشياء رائع وعادل: الذين لم يكن في فمهم سوى العقل و العلم ، اللذين كان دور التعليم الابتدائي والمجاني ، العلماني والالزامي ، ان يؤمن انتشارهما في كل مكان ، يرون انفسهم مدانين من قبل السلطات «الاقل تدينا» ، من وجهة النظر العلمية والوضعية الاشد وثوقا وحصرا ! لقد خلقوا «صنمية العلم» مسانَدة للصنمية الجمهورية ، وبذلك قدموا للملكي المدرسة الجديدة «السياط المجانية ، العلمانية ، الالزامية» التي ستجلد جمهوريتهم حتى الدم . هذا في نظام الاشياء . «بما انها التناقض والشر ، ستكون الجمهورية الديمقراطية قد أعدت ، من هذا الجانب ، بأيديها ذاتها ، وسيلة تدميرها الامينة ... . اذاً مثل وبقدر جرائم الجمهوريين وتبذيرهم، يسهم بؤسهم المنطقي في المونارشية» .

***

تيبوده Thibaudet أضاء بشكل جيد ، في **افكار شارل موراس** ، التأثير الفكري الذي كان **التحقيق** سيمارسه . «بضعة مبادىء بسيطة» ، لكن خصبة ، مضاءة بعزم ، بذكاء ، ليس بدون مغالطة في المناسبة ، كانت تقدّم للاذهان الباحثة عن مذهب سياسي جدير بهذا الاسم . في سنة ١٩٠٠ ، فيما عدا الاشتراكية ، لم يكن هناك شيء ، من هذه الحيثية . لكن سنة ١٩٠٠ كانت بالضبط السنة التي كان فيها نفوذ الاشتراكية ، حسب شهادة تيبوده الجديرة بالثقة ،

يبلغ في فرنسا نقطة الذروة : ثلاثة ارباع دار المعلمين كانـــوا ينتسبون اليها . «جريدة **الأومانيته** كانت تبدأ حياتها مع هيئة تحرير من حملة شهادات التدريس الجامعية» . بعد عشر سنوات ، بفضل مواهب جوريس **Jaures** في الخطابة والمناورة ، كانت نفس الاشتراكية قد اقتطعت شطرا انتخابيا وبرلمانيا مرموقا ، ولكنها فكريا كانت قد فقدت في الشبيبة المثقفة ارضـــا ليست اقل حجما . والنيو مونارشوية هي التي كانت ، بالدرجـــة الاولى ، قد استفادت من هذا السقوط .

يجب القول ان ذاك كان من صنع ، ليس فقط افكار **التحقيق** بذاتها ، بـــل اخراجها الاوركسترالي الماهر والنافذ ، على يد **العمل الفرنسي** . هـذه النشرة النصف ـ شهرية في ١٨٩٩ لـ هنري فوجوا ، القوموي الجمهوري ، كانت قد انتقلت منذ ١٩٠١ ، مع مؤسسها ، الى النيو ـ مونارشوية . في ٢١ اذار ١٩٠٨ ، كانت تتحول الى جريدة يومية ، تحركها شخصية ليون دوده **Léon doudet** الثائرة (١٣) ، الذي لم يكن قد اشترك في **التحقيق** ولكنه جاء «لوحده الى الحقيقة السياسية» ، يقول لنا موراس . في نفس اليوم ، في العدد الاول من الصحيفة اليومية الجديدة ، كان جول لوميتر **Jules Lemaître** يضع حدا لتردداتـــه الطويلة باعلانه انضمامه الى المونارشية .

الا انه كان هناك ضعف ستراتيجي في الموقف الاصلـــي للنيو مونارشيين . الملكيون الكاثوليك والكاثوليك حسب أمكنهم ان يصدموا بوضعويتهم او علمويتهم العدوانية ، بفكرهم ـ الحر ، بحرصهم على التميز عـــن «الاناس الاخلاقيين» ، بعقلانيتهم التي كانت تبرهن المونارشية مع تنحية كل حق إلهي (هكذا كان هوبز بماديته ، بطبيعانيته السياسية ، قد صدم الملكيين ، انصار آل ستوارت) . ولكن كومبيئة (سياسة كومب Combes) سنوات ١٩٠٠ ، بإغضابها الكاثوليك الفرنسيين، اكباش فداء الجمهورية المناهضة للاكليريكية، جاءت تدبّر الامـــور (١٤) . نعم ،

---

١٣ ـ **ليون دوده** : ابن الاديب المعروف صاحب الروايات والقصص اللطيفة ، الفونس دوده. كاتب وصحفي رجعي شريك موراس الى النهاية .

١٤ ـ **كومب Combes** : رئيس الوزراء ، خلف والديك ـ روسو . في زمنه بلـــغ الصراع بين الجمهورية الفرنسية والكنيسة اشدّه . ـ والدك روسو ، ثم كومب خاصة ، والبرلمان أخضعوا المؤسسات الدينية (الجمعيات ، الرهبنات) لترخيـــص مسبق ، حلوا المؤسساب غـــير المرخصة ، ثم حرموا اعضاء الرهبنات حتى المرخصة من حق التدريس ، فسخوا الكونكوردا (الميثاق المعقود في سنة ١٨٠١ بين نابوليون والبابا) ، اقروا فصل الكنيسة والدولة (١٩٠٥) : فقـــدت كنيسة فرنسا طابعها الرسمي نهائيا . البابا احتج بقوة الخ ... بعد الحرب العالمية الاولى اعيدت العلاقات الدبلوماسية بين وزارة الخارجية الفرنسية ودولة الفاتيكان . غامبيتـــا ، (جول فيري ، والديك ـ روسو ، كومب ، كليمنصو الخ ، رجال الجمهورية الثالثة الحاكمون اشتهروا بمعارضتهم للكنيسة ، بحربهم الآنتي ـ كليريكالية .

موراس ـ الصحفي **الملحد ومع ذلك الكاثوليكي** ، الذي يتحدث عنه بيت من الشعر ساخر ـ موراس عليه ان يقر في ١٩٠٩ : مفردات **التحقيق** كانت تشهد على استعدادات مقلقة بالنسبة للكنيسة . «ليس هكذا سيجري الحديث عن الكاثوليكية بعد الان في **العمل الفرنسي** . الاضطهاد الجمهوري من جهة ، الفكرة الملكية من الجهة الاخرى ، عملا عملهما» . اعتناق ماهر ، بالمعنى لا الديني ، بل التاكتيكي للكلمة !

موراس كان ايضا قد داوى ، منذ كتابي **التحقيق** ، نقطة ضعف اخرى . في ١٩٠٠ كان قد اعطى جوابا للسؤال : **ما العمل ؟** عمل المونارشية التقليدية ، الخ . كان باقيا السؤال المتمم : **عمل المونارشية كيف ؟** في ١٩٠٣ ، بمناسبة ترددات جول لوميتر على وجه التحديد ، كانت تعطى اجابة على هذه النقطة ، في كتاب ثالث من **التحقيق** . المذهب الخالص كان يتواصل بذلك في مخطط عمل مباشر لصالح المونارشية .

عملها **كيف** ؟ «كما عملت كل حكومات العالم منذ ان العالم عالم : بالقوة» . استخدام القوة ، أمام العجز القانوني الشرعي ، تشرّعه بآن ضرورات السلامة العامة والطموحات اللاواعية لفرنسا الى المونارشية الضرورية . حوار موراس مع الوطنيين : «ما العمل اذاً ؟ ـ المونارشية . ـ كيف نعملها ؟ ـ بالقوة . ـ كيف نكون اقوياء ؟ ـ بالاتحاد . ـ كيف نتحد ؟ ـ على الحقيقة السياسية . ـ ما هي ؟ ـ المونارشية .» الامل في النجاح ضرورة «وضعية» . الم يكن هناك حاكم فرنسي في برلين حين كان يعلن فيشته فيها «... العبقرية الكونية للدم والروح الجرمانيّين» ؟ الامم خالدة ؛ حتى محطمة ، مقسومة ، انها تنبعث وتعيش ؛ فرنسا ستدوم اكثر من «الحزب الاجنبي الذي يمسكها» .

اذاً دعوة الى ضربة القوة ، تهيئها حركة راي على ما يكفي من الكثافة «لتثير ، حين سيأتي اليوم ، ظهور رجال انقضاض» ، ـ كان يثبت ، في ١٩٠٧ ، هنري فوجوا . **هل ضربة القوة ممكنة** : موراس و دوتري ـ كروزون ، طارحَين هذا السؤال في مطلع ١٩٠٨ في **العمل الفرنسي** التي ما زالت نصف ـ شهرية ، كانا يجيبان بالايجاب . كانا يفكران بـ «ضربة رقم واحد» ، بـ «ضربة رقم ٢» . كانا يهرسان الاعتراضات . صلابة النظام الجمهوري ، المقام في سنة ١٨٧٧ ، المثبّت بسبعة انتخابات عامة متعاقبة ؟ مزاح لا اكثر ! والمونارشية القديمة ؟ الم تكن حائزة السلطة منذ قرون ؟ والامبراطورية الثانية ، التي ايّدت في استفتاء ايار ١٨٧٠ بأكثرية ملايين الاصوات ؟ «لكن في هذه الحال انتم تحسبون اخبار السوء ! تعوّلون على البروسيين ، كما غداة هزيمة سيدان Sedan !» (١٥) . ترهات ! اليس واجب الوطنيين المتبصرين ان يحسبوا ، دون ان يتمنوها ، المصائب ، الغزو الاجنبي ، الثورة ، اللواتي لا بد لنظام سيء البناء وسيء القيادة ان يأتي بها ؟

---

١٥ ـ كارثة معركة سيدان امام جيش بروسيا ادت الى سقوط الامبراطورية الثانية (١٨٧٠) .

«اينبغي ان نتجنب ان نقول لانفسنا ان عدو الداخل يمكن ان تنهال عليه ذات يوم عواقب اخطائه او جرائمه وأنه سيكون بامكاننا ان نستفيد من لحظة ذهول كــي نتخلص منه ؟» (سؤال موح ، مقلق ، ينير بشكل عجيب ، سلفا ، موقف موراس في ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤ : سنرى عندئذ ، كما هو معلوم ، الحقد على النظام المهــزوم موقتا يغلب اخيرا ، عند الزعيم القوموي ، الحس القومي .) (١٦) .

هكذا النيو مونارشوية ، المسلحة مذهبيا من راسها الى اخمص قدميها ، التي عندها جواب على كل شيء ، كانت تخطو خطوات اكيدة في الاذهان الشابة . في حين ان التطور السياسي كان يشتد في الاتجاه المعاكس ، وأن «امكانات» ضربة القوة كانت تتراجع عمليا بدلا من ان تزداد . تأتي حرب ١٩١٤ ، حيث لجماعة **العمل الفرنسي** مأثرة مساعدة الجمهوري العجوز كليمنصو Clémenceau ، الذي كان من اول عهدهما دائبتها السوداء ، على صيره «الاب ـ النصر» . عواقب هذه الحرب لا تبدو ملائمة للفكرة المونارشية في اوروبا وبالتالي في فرنسا . شيء من كآبة يتصاعد من الجمل التي بها يبدأ **الخطاب التمهيدي** الطويل جدا الذي يمهد للطبعة الثانية والنهائية **للتحقيق** في ١٩٢٤ :

> يعاد طبع هذا الكتاب القديم في السنة نفسها التي فيها انصرم ربع قرنه ، وطول عمره يدهشني ولا يسرني . فهو يؤكد طول الازمة وإنكار او جهل الدواء الوحيد الصالح . لقد مر جيلان او ثلاثة من البشر ، وآخر مواليدهم مضطرون الى دراسة انتقادات صدرت في سنة ١٩٠٠ .

ومع ذلك ، ان **هذا الخطاب** ، الذي يحوي العديد من الصفحات المرموقـــة بالفن الموراسي في «التفكير بأفكار مربوطة» ، ليس بأي حال مؤلَّف رجل فقدَ الشجاعة . موراس لم يكن يفهم اليأس السياسي ، كان عصيًا عنه . **الخطـــاب** يتنفس غرور زعيم المدرسة ، القوي بربع قرن من الصحافة السياسية ، مـــن التحليل السياسي المبلور في مجلدات عديدة (بينها **كيل وطنجه** ، **مستقبل الذكاء**، **خيار مارك سانيه**) فضلا عن **التحقيق** .

زعيم مدرسة ، لكن اية مدرسة ؟ المدرسة النيومونارشوية لا ريب ، لكن بشكل اصح وأحق بكثير المدرسة المضادة للثورة ، التي باتت قوموية . والحال ، لئن كانت الفكرة المونارشية ذاتها ستضعف مثل شعلة لم يعد يغذيها طعامها الطبيعي ، وهو اللامعقول ، لم تعد تساندها «طاقات العاطفة» التي كان بارس ، الذي ظل جمهوريا مكابرا ، يتحدث عنها بذلك الشكل الممتاز ـ فبالمقابل ان الهوى المضاد ـ

---

١٦ ـ هذا الوطني القومي والثأري انتهى الى التعاون مع ... الالمان . في ١٩٤٥ حوكم وحكم بالحبس المؤبد ، ومات في ١٩٥٢ .

للثورة ، المتضافر مع الهوى القوموي ، كان يمتد ، في ١٩٢٤ ، مثل حريق ...

كان موراس ، في **الخطاب** ، يحيي بحماس «انفجار الشباب الرائع» لايطاليا : الفاشية . وبالواقع ، كان يوما مشهودا في تاريخ الافكار المضادة ـ للثورة يوم ٢١ حزيران ١٩٢١ ، اليوم الذي كان فيه بنيتو موسوليني ، الاشتراكي القديم الذي صار زعيم الحزم faisseaux ، المنتخب نائبا ، قد بدأ عهده كخطيب برلماني في المجلس الايطالي . في كتابه **درس موسوليني** ، هنري ماسول H. Massoul وصف المشهد واظهر رجل الثامنة والثلاثين ، المربوع ، الاجـــرد ، ذا الفكين المربعين ، والقحف القوي والمعرى ، قحف امبراطور روماني ، ينزل من مقاعـــد اليمين ـالاقصى ، ليلفظ بعنف بارد الاقوال التالية : «انا اعلن مباشرة ان خطابي سيكون يمينيا . سيكون خطابا ـ سأقول الان كلمة فظيعة ـ **رجعيا** ، لانه سيكون مناهضا للبرلمانية ، مناهضا للديمقراطية ، مناهضا للاشتراكية ...» (تصفيقات ساخرة من جانب الاشتراكيين) .

موسوليني ، التلميذ النابغ ، دون ان يعترف بذلك ، لـ موراس ، التلميذ الذي كان قد حفظ من المعلم الشيء الجوهري ، الا وهو «عكس كتاب اصول الليبرالية»، مناهضة البرلمانية ، والذي كان يترك هناك كل ذلك الحشو من وراثة وتقليـــد ولامركزية لصالح «الثورة القومية» الفاشية !

تلميذ ايضا ، موسوليني ، ويعلنها عالية ، لهذا الكاتب السياسي الفرنسـي الآخر ، الذي هو من اليسار ـ الاقصى مبدئيا ، جورج سوريل ، الرجل المثير للفضول ، صاحب ـ بين مؤلفات اخرى ـ هذا الكتاب الغريب ذي المصير الغريب: **تاملات عن العنف** .

الفصل الثالث

الـ « تأملات عن العنف » ،
لـ جورج سوريل (١٩٠٨)

«السابوتاج اسلوب من النظام القديم ولا ينزع
بتاتا الى توجيه الشغيل في طريق الانعتاق» .
ج. سوريل

في عزيزنا بيغي Péguy ، بكثير من المهارة ، الاخوة تارو Tharaud يقدمون لنا هذا المرتاد للدكان الصغير المغبّر مقر **دفاتر الاسبوعين** ، ألذي كـــان يأتي كل يوم خميس ، يحتل الكرسي الوحيد في هذه المملكة البيغيّة ، والذي كان يدعى جورج سوريل G. Sorel (ابن عم البير سوريل المؤرخ الشهير) .

كان شيخا قوي البنية ، ذا سحنة نضرة كسحنة طفل ، شعره أبيض ، لحيته قصيرة وبيضاء ، مع عينين رائعتين ، بلون بنفسج بارم ... . مهنته ، مهنة مهندس جسور ، كانت قد احتفظت به طيلة حياته في الاقاليم حيث كان قد تلهّى من الضجر بقراءتـــه

وتنويطه جميع الكتب التي كانت تقع تحت يده ... . بشكل لا ينضب ، كانت تنطلق من شفتيه ، كأنها ماء فتحة سد ، الافكار التي كانت منذ ستين سنة قد تراكمت وراء السد . هذا كله بدون اي ترتيب . ثروة بغير نظام ... . لكنه حقا رائع حين ، بصوته الرفيع المزماري ، حانيا الرأس قليلا الى الامام ، وازنا أقوالـــه بضربات صغيرة من مسطرة ، كان يلقي حيص بيص الافكار التـــي ظهرت ذات يوم في الـ **تأملات عن العنف** ، وهو احد هذه الكتب المجهولة تماما من الجمهور الكبير ، لكنه ذو قوة انفجارية نادرة وسيبقى بلا ريب احد الكتب الكبيرة في هذا الزمن ، اذ كان لــه الحظ الفريد في إلهام بولشفية لينين وفاشية موسوليني بآن معا .

كيف نموقع فكر رجل مثل سوريل ؟ امزجوا معا ماركس ــ جعالة قوية من مادية تاريخية ــ ، برودون بمقدار عال ، برغسون سائلا ونيتشه متفجرا ، تحصلوا تقريبا على هذا الفكر الغني والمشوش ، الجذاب والمنفر بآن . ان هاوي غرابات في تاريخ الافكار قد يغرى بالاجابة على السؤال المطروح بالحدود والمفردات الآنفة. يتصور القارىء بسهولة تنوع الموضوعات التي اتاحها لبصيرة ، لحذاقة ، للمعان شرّاحه هذا الـ سوريل، مؤلف (بدون انحسب مقالات وتقريرات بعدد لا يحصى) حوالي خمسة عشر مجلدا ، بدءا بـ **اسهام في الدراسة الدنيوية للكتاب المقدس** (١٨٨٩) وصولا الى **مواد من اجل نظرية للبروليتاريا** (١٩١٩ ــ ١٩٢١) ، مرورا بـ **تفسخ الماركسية** ، **أوهام التقدم** ، **التأملات** ، الخ . ليس بسهولة أقل يشتبه القارىء بكَم من الجوانب معا في آن اتيح لشرّاحه ان ينفروا بشد فكر بمثل هذا اللاتجانس (على الاقل ظاهرا) . لاسيما وأن تعاقب المواقف العملية لصاحبنا يقدم مشهدا ليس أقل تحييرا. كان اول الامر اشتراكيا ديمقراطيا او برلمانيا على طريقة **جوريس** ، زمن قضية دريفوس . اصبح نقابويا ثوريا وألد عدو للاشتراكيـــة السياسية حوالي سنة ١٩٠٥ : **التأملات** توافق هذه المرحلة الثانية . حول ١٩١٠ اذا به في تغانج مع موراس والعمل الفرنسي والقوموية الكاملة . نحو ١٩١٤ كانت تنبعث عنده ، للبروليتاريا ، حمية خامدة الشجاعة الى حد كاف ، لكن جـــاء يحرضها ويحمسها في ١٩١٧ ظفر البولشفية في روسيا غير المتوقع . عندئذ لن ينقطع سوريل عن الاعجاب بلينين ، عن الدفاع من اجله ، ليس بدون ان يشهد في الوقت نفسه ، في نفس المحادثات احيانا ، بتقدير حاد لـ موسوليني ، الذي كان يبدأ صعوده السياسي (وفاة سوريل حدثت في آب ١٩٢٢ ؛ الزحف على روما يقع فيّ تشرين الاول التالي) .

هذا كله يفسر انه كتب كثيرا ــ اكثر مما يجب ــ عن سوريل . هذه الكمية من الكتابة لم تكن بدون ان تضفي ظلاما اضافيا على حالته . لحسن الحظ ، ان عدة صفحات ، حوالي خمسين ، من هذا الامير للوضوح الفكري الذي كانه عالـــم

الاقتصاد غايتان بيرو G. Pirou ، استطاعت ان تعري ، بسلطة حاسمة ، الجذر المزدوج للفكر السوريلي المحير المذهل ، وأن تفسر ، بالضربة نفسها ، المراحل المتناقضة لطريقه السياسي .

سوريل ، انه من جهة مهندس ، فني تقني ، ومن هنا «فيلسوف للتقنية» . انه من جهة اخرى ، واكثر ايضا ، أخلاقي ، «قاس وصارم» ، رجل اخلاق « مولع » .

خريج معهد البوليتكنيك ، مدة ربع قرن مهندس جسور (كان قد استقال في ١٨٩١ ، في الخامسة والاربعين من عمره ، ليكرس نفسه لدراسة المسائل الاجتماعية) ، انه يحفظ و سم الـ homo faber ، **الانسان الصانع** ، الانسان الذي يفعل على المادة . يؤمن بالانتاج ، بتقدم الانتاج (في هذا الميدان على الاقل ، لا «أوهام تقدم» ، بالنسبة له) . هذه التركيبة الذهنية تحمله ، حتى الافراط ، الى العثور «تحت البناءات الايديولوجية ... على الاساس التكنولوجي التي تغطيه» (بيرو Pirou) . مثلا : ان شغل الاجسام الصلبة هو الذي قد اعطى الاغريق الروح الهندسية . من هنا الى المادية التاريخية لماركس لم تكن هناك سوى خطوة .

لكنَ فوق التقنية الاخلاق . سوريل ، الاخلاقي الصارم ، النصير الذي لا يلين للاخلاق التقليدية المغترفة في مسيحية امه ، سوريل ، الذي يكتب «ان العالم لن يصبح اكثر عدلا الا بالقدر الذي سيصير فيه اكثر عفة» ، ينتسب ، بهذه الشواغل ، الى برودون (يه) . ليس فقط يكره كل تراخ للاخلاق العامة ، بل يطلب اكثر من الاخلاق العادية لذوي ــ التفكير ــ الجيد ، التي يدعوها «الاخلاق الكاثوليكية الصغيرة» ، والتي يعتبرها «مسطحة الى حد كاف» . يطلب السمو ، هذا التوتر للنفس الذي يجعل الانسان يحقق الاشياء الكبيرة ، الاعمال العالية .

اذ ان سوريل ، حسب تقاليد اعمق الاخلاقيين ، **متشائم** (هذا يبعده الى ما لا نهاية عن القرن الثامن عشر) . يعلم ان السعادة لن تحصل تلقائيا ، لكل الناس، في مستقبل قريب جدا . عنده الاقتناع المتجذّر بالضعف الطبيعي للانسان ، بقوة الحواجز التي تعترض تلبية خيالاته . ينظر الى الشروط الاجتماعية بوصفها «تشكل منظومة مقيّدة بقانون حديدي ، لا بد من تحمل ضرورته ، كما هي معطاة كتلة واحدة ، والتي لا يمكن ان تختفي الا **بانهيار** يجرفها برمتها» . يؤمن بأنه قدر البشرية ، التي يرمز اليها من هذه الحيثية اليهودي التائه ، ان تكون محكومة بأن تمشي على الدوام دون ان تعرف الراحة ، ان تجهد دوما ، ان توتر نفسها نحو العظمة ، نحو الرفعة ــ الامر الذي هو ، بالمعنى الحقيقي ، السمو . يجاهر بانه خارج التشاؤم المفهوم على هذا النحو «لم يَعمل اي شيء عالٍ جدا في العالم» !

(يه) انظر «سوريل وبرودون» في برودون الصادر مؤخرا ، تأليف إد. دوليان

هذا **الاب سوريل** (كما كان يدعى عند بيغي Péguy مملوك هو ايضا من قِبل هذا الحرص على النوعية الانسانية الذي كان قد سكن توكفيل امام المد المساواتي ، والذي كان قد عاناه نيتشه حتى جنون أرستقراطوية لا انسانية .

وهذا الحرص ، هذا الاشتراط ، سوريل ، الذي خيبته الطبقة التي ينتمي اليها ، البرجوازية (لا بالمعنى الماركسي ، بل بالمعنى العادي للكلمة) ، ينقلهما الى جهة البروليتاريا ، جمهور المنتجين اليدويين . مسيرة فكرية وعاطفية تعلّل تماما بطبيعة تجربة سوريل المهنية ، بتركيبة ذهنه «الانتاجوية» او «التكنولوجية» ، بالحادث الجوهري ، اخيرا ، في حياته الشخصية : زواجه . سوريل كان قـــد تزوج امرأة من الشعب ، فقدها في ١٨٩٧ ، ذكراها لم تفارقه قط ، وإليهـــا **التأملات** مهداة بهذه المفردات المؤثرة : «الى ذكرى رفيقة شبابي ... هذا الكتاب الملهَم بروحها» .

حين هذا الاشتراكي، هذا الدريفوسي ، يغادر صافقا الابواب، بعد «القضية»، الاشتراكية الديمقراطية ، فلأنه مصدوم بعنف ــ مثل بيغي ــ في شعوره الاخلاقي من قِبل الانتقال ، المقرف بقدر ما هو محتوم ، مـــن **الصوفية** الى **السياسة** . صوفية الذين هم مستعدون للموت ، ويموتون ، من اجل الافكار . سياسة الذين يعيشون منها ، ويعيشون جيدا . لمّا كان مؤرخا بشكل غير كاف ليعلم ، او ربيبا بشكل غير كاف ليقبل ، ان الازمات الاخلاقية الكبرى لحياة الجماعة تعقبها حتما حصص بعيدة جدا عن الاخلاق ، فان سوريل لن يغفـــر للاشتراكيين البرلمانيين الشيء الذي يسميه كلبيّتهم . **جوريس** سيصير دابّته السوداء و«رأس تركيّه».

من جهة اخرى كانت الاممية الثانية ، الاشتراـديمقراطية ، المؤسسة كما هو معلوم في ١٨٨٩ ، تمر في السنوات الاخيرة من القرن بأزمة مذهبيـــة خطيرة . ماركس وانجلز كانا قد توفيا . تأويل الماركسية كان مسلَّمـــا لنزوة التلاميذ ، الحقيقيين او لا . في المانيا كان **برنشتاين** يطلق ، مثل قنبلـــة ، اعادة النظر ، المراجعة ، التحريفية : «نيو ــ ماركسية اصلاحية» كانت تهدد بإفـــراغ مذهب **البيان** من مادته الثورية . طريق «الانتهازية» كان مفتوحا : اليس هو طريـــق «تفسّخ الماركسية» ؟ قطعا ، ــ كان منساقا الى التفكير سوريل مجروح معنويا بعد «القضية» ، ــ قطعا ان تنسيق الاشتراكية والديمقراطية البرلمانية آخذ في افلاس كئيب. هذا المشهد الذليل ليس ما اراده ماركس. الاشتراكية والديمقراطية يجب ان تنفكا ، اذا اردنا منع الاشتراكية من الغرق في المستنقع البرجوازي ، اذا اردنا ، حسب تعابير سوريل ذاتها ، «الاحتفاظ للايديولوجيا الثورية بالعلو الذي يجب ان يكون لها حتى تستطيع البروليتاريا ان تحقق رسالتها التاريخية» . ان مستقبل الاشتراكية المعنوي لا يمكن ان يكون قائما في حقارات الاحزابالسياسية.

اين اذاً بات سوريل يبحث عنه ؟ في «التطور الذاتي المستقل لنقابات العمال». ذاتي مستقل ، اي في استقلال تام عن الاحزاب السياسية . **النقابية** الحقة ، التي ورثت من هذه الزاوية برودون والفوضوية ، كان يسيطر عليها الحذر الاشد حدةً

ازاء ليس فقط السياسيين ، بل ايضا سلطة الدولة بذاتها ، «جهاز الدولة» ، كما كان يقول المنظّرون الالمان . من هذا الى النقابية ـ **الثورية** ، التي تحقق التحول العنيف للمجتمع ، الثورة الاجتماعية ، بالعمل ـ النموذج لنقابات العمال: الاضراب ، الاضراب ليس الجزئي بعد الان ، بل **العام** ، ـ لم تكن المسافة كبيرة الى هذا الحد . سوريل قطعها ، تحت التأثير الحاسم عليه ، تأثير فرنان بلوتيه Fernand Pelloutier ، المناضل العمالي للنقابوية ـ الثورية ، الرسول (المتوفي قبل الاوان في ١٩٠١ ، في الرابعة والثلاثين من عمره) الذي كان هو ايضا يشدد على التربية الاخلاقية للبروليتاريا . هوذا سوريل اذاً ـ هذه مرحلته الثانية ـ زعيم **المدرسة الجديدة** ، التي تعلن نفسها ماركسية ونقابوية وثورية ، التي تحركها شواغل اخلاقية حارة ، والتي تنادي بفكرة الإضراب العام . انها «النيوماركسية النقابوية» ، على طرفَي نقيض مع «النيوماركسية الاصلاحية» لبرنشتاين. بين حواريي سوريل، نجد في الصف الاول ادوار برت Ed Berth الذي تطفح منه الموهبة ، ثم مدير مجلة **الحركة الاشتراكية** ، هوبر لاغارديل H. Lagordelle ، الذي قطع معه سوريل وبرت في ١٩٠٨ .

الـ **تاملات عن العنف**، سلسلة مقالات نشرت عام١٩٠٦ في **الحركة الاشتراكية**، ثم صدرت ، بعد اعادة معالجة ، في مجلد عام ١٩٠٨ ، مع مدخل تحت شكل رسالة طويلة الى دانييل هاليفي Daniel Halévy ، هي نوعا ما بيان «المدرسة الجديدة» . بيان عدواني ، سيء التأليف ، مشوش ، تملؤه تراكبات الفصول وتكرارات ، يدع تتجاور حكايات لا تليق بسوسيولوجي مع احد النظرات عن الطبيعة الانسانية والصيرورة الاجتماعية .

سوريل لم يكن يخفي عن نفسه ، من جهة اخرى ، ان عيوب تقديمه تحكم عليه بـ «أن لا يكون له سبيل الى الجمهور الكبير» . يشرح ، في الرسالة الى د. هاليفي ، ان هذه العيوب تأتي من طريقته في العمل ، طريقة عصامي قاتَل خلال عشرين سنة لـ «التخلص» من الذي كان حفظه من تربيته . الكتب التي كان يلتهمها حول شتى انواع المواضيع كانت تلهمه »تاملات« ، «تفكيرات» ، reflexions ، كان يسجلها على دفاتر كما كانت تأتي ، عائدا مرارا على نفس المسألة ، « مع تحريرات تتطاول بل واحيانا تتحول بالكامل» . وهذه الدفاتر ، التي خدمت تعلمه الخاص ، يقدمها لقرائه . لتبرير طريقته ، يستدعي نظرية برغسون الشهيرة ـ وكان قد تابع دروس هذا الاخير بشغف ـ عن التصور الحدسي ، الحي والشخصي ، للاشياء ، المعارض للاشخصي ، للذي صار مجتمعيا ـ مشتركا ، **المصنوع ، الجاهز** .

التاملات تظهر مسيطرا عليها ، ان لم يكن مبنية ، من قِبل فكرتين اثنتين (اذا كان مسموحا لنا ، بدون ارتكاب جريمة «انتهاك ـ سوريل» ، ان نحول خلطَها شبه ـ البرغسوني الى حدود وضوح ديكارتي) . فكرة سلبية ، هي كالظل. فكرة ايجابية ، هي كالضوء . الفكرة السلبية ، هي الرفض العنيف ، الكلي ،

المر ، للتسوية الديمقراطية وللاشتراكية البرلمانية ، شكلها الاشنع . الفكرة الايجابية ، هي تمجيد العنف البروليتاري (بالمعنى السوريلي لكلمة عنف : الايديولوجي قبل اي شيء ، ان لم يكن حصرا) . وحده هذا العنف ، الذي ترشده فكرة او بشكل ادق اسطورة الاضراب العام ، سينكشف قادرا على تسبيب الاخلاق الجديدة التي ستنقذ الاشتراكية من الغرق في الرمال المتحركة ، والتي ستبقي الايديولوجيا الثورية في العلو الضروري : المقصود «اخلاق المنتجين» (عنوان الفصل الاخير من المؤلّف) .

***

في التسوية الديمقراطية والبرلمانية ، سوريل يسخر ويدين كل شيء ، بلا ظروف مخففة ، ولا تأجيل : الفلسفة الساندة تحت ، والآليات والاساليب ، والتاكتيك ازاء التنظيمات البروليتارية ، على حد سواء .

الفلسفة : انها فلسفة القرن الثامن عشر ، فلسفة متفائلة ومثالية ، تعلل نفسها بالحق الطبيعي ، ب «الحقوق الاولية للبشر» . لا شيء اكثر خطأ ، اقل تلاؤما مع السياسة . «المتفائل ، في السياسة ، رجل غير مستقر او حتى خطِر» . يتصور ان التحولات الاجتماعية سهلة التحقيق ، وانه لقاء بضعة اصلاحات في الدستور وخصوصا في اشخاص الحكم يمكن لكل ما يقدمه العالم الراهن من اشياء فظيعة في نظر النفوس الحساسة ان يخفّف بسهولة . ما ان يكون اصدقاؤه في السلطة قليلا حتى يصرح «بأنه يجب ترك الامور تجري ، عدم الاستعجال كثيرا ، والاكتفاء بما توحيه لهم ارادتهم الطيبة» . الى هذا تقود أوهام فلسفة مسطّحة ، بمساعدة حب الذات وربما المصلحة : «الى المسالمة الاجتماعية الاكثر سخفا» . لكن نفس الشخص يمكن بسهولة مرموقة ان ينتقل الى الغضب الثوري الاكثر دموية . يكفي ان يثور ، اذا كان ذا مزاج متحمس ومسلحا لسوء الحظ بسلطة كبيرة ، امام العقبات التي تضعها في وجهه الضرورات التاريخية . عندئذ، بدلا من التعرض لهذه الضرورات ، يتعرض لمعاصريه : سوء نيتهم تمنع سعادة الجميع ؛ فليزولوا ! مثال : عهد الارهاب . «الرجال الذين اراقوا الدم الاكثر هم الذين كانت عندهم الرغبة الاشد في تمتيع أقرانهم بالعصر الذهبي الذي حلموا به » .

اما الحق الطبيعي ، المشتق من نفس المصدر المتفائل ، فكيف يوفّق مع هذه الواقعة المجرّبة : «ان نظمة اجتماعية جيدة التنسيق تدمَّر من قِبل ثورة وتحل محلها نظمة اخرى يجدها المرء هي ايضا معقولة تماما ؛ وما كان في الماضي عادلا قد صار غير عادل» ؟ مسالة قوة ــ باسكال كان قد رأى ذلك جيدا ــ يراد ، رغم انف الوقائع ، جعلها ظفرا للحق . ويجيئوننا يدللون على ان القوة ، ابان الثورات، قد وضعت في خدمة العدالة ! مغالطات سخيفة !

الآليات والاساليب المسماة ديمقراطية ليست أقل كذبا من هذه الفلسفة . لننظر الى الانتخابات . «ما ان تنوا بانتخابات حتى يكون عليكم ان ترضخوا لبعض الشروط العامة التي تفرض نفسها بطريقة حتمية على جميع الاحزاب ، في كل البلدان وفي كل الازمنة» . بيانات انتخابية ، تسويات بين ذوي النفوذ ؛ بيع مصالح ؛ شراء مساهمة الصحافة الكبرى ؛ «مساعدة كيفما اتفق» بما لا نهاية له من الحِيَل ؛ مضاربة على سذاجة الجماهير : كم تشبه الديمقراطية الانتخابية عالم البورصة ! كم يشبه السياسي ، الذي يعد مواطنيه بما لا نهاية له من الاصلاحات التي لا يعلم كيف يحققها ، كم يشبه رجل المال ، الذي يُدخل على السوق مشاريع طنانة مآلها الغرق في غضون سنوات قليلة ! لكن في جو كهذا ، من اذاً يستطيع ان يحفظ الحرص على «الارغامات الاخلاقية التي من شأنها ان تمنع الانسان من الذهاب الى حيث تتجلى مصلحته الاوضح ؟» . من ايـن للاشتراكيين ان يربكوا انفسهم بدراسة المعضلات الإثيقية ، حين يعيّنون لعملهم كهدف رئيسي الاستيلاء على المقاعد في الجمعيات السياسية ؟

لذا فالحملات الانتخابية ليست قدوة . تتصورون انها مسيَّرة على اساس مبدأ صراع الطبقات ، لانها تؤسس نجاحاتها الانتخابية «على عداءات المصالح التي توجد في الحالة الحادة بين بعض الجماعات ، ولانها عند الحاجة تتكفل بجعلها اكثر حدة» . بلى ، كان ديماغوجيو المدن الاغريقية يسلكون نفس السبيل ، حين كانوا يهاجمون ، كما يقول ارسطو ، بشكل مستمر الاغنياء ، ويقطعون المدينة هكذا الى معسكرين . «مصطلح **بروليتاري** ينتهي الى صيره مرادفا لـ مضطهَد ؛ ويوجد مضطهَدون في جميع الطبقات» . لكن بالتأكيد ليس على هذا النحو كان ماركس يفهم صراع الطبقات . وبكل بساطة انه لمن اطهر المذاهب الديماغوجية مستوحاة الادبيات الانتخابية لـ اشباه ـ الماركسيين الحاضرين .

> الاشتراكية البرلمانية تتكلم من اللغات بقدر ما عندها من انواع الزبائن . تخاطب العمال ، أرباب العمل الصغار ، الفلاحين ... ، تارة هي وطنية ، وطورا تلقي الخطب ضد الجيش . ما من تناقض يوقفها ـ حيث ان التجربة قد برهنت انه يمكن ، خلال حملة انتخابية ، جمع قوى يجب ان تكون طبيعيا متنافية متناحرة بموجب التصورات الماركسية .

لننظر الان الى اللعبة البرلمانية نفسها : استجوابات للوزراء القائمين ، تصويت على القوانين ، علاقة المنتخَبين مع الناخبين ، مؤتمرات الاحزاب . هنا ينتشر السياسي ، الرجل الفطن ، الذي لا يعمل شيئا للاشيء ، الذي لا يمنح تسهيلا الا لقاء زبون ، ولكن الذي «شهواته الشرهة تشحذ بشكل عجيب بصيرته ، وعنده صيد المراكز الجيدة ينمي حِيَل اباش apache » . هل نعجب اذا كان ، حيثما

يتدخل ، هناك «تقريبا بالضرورة ... انخفاض للاخلاقية» ! ها نحن «بعيدون عن طريق السمو» ! آه ! ان اشتراكيينا البرلمانيين بعيدون جدا عن طريق كهذا ، ولكن انظروا كم ، تحت قيادة جوريس مثلا ، يلعبونها جيدا ، مع كل ارهافاتها الدنيئة ، هذه اللعبة البرلمانية ، مع ادخالهم فيها من العنف ما يلزم بالضبط لِفلفلتها :

> جوريس بات استاذا في فن استخدام الغضبات الشعبية . ان تحريضا مضبوطا وموجَّها في آقنيـة بشكل ذكي بالغ النفع للاشتراكيين البرلمانيين ، الذين يفاخرون لدى الحكومة والبرجوازية الغنية بأنهم يعدلون ويلطفون الثورة ... . يلزم ... ان يكون هناك دائما بعض التحرك وأن يكون بالامكان تخويف البرجوازيين ... . جعل العمال يعتقدون اننا نحمل لواء الثورة ، البرجوازية اننا نوقف الخطر الذي يهددها ، البلاد اننا نمثل تيار رأي لا يقاوَم ... ، هذه الديبلوماسية تلعب في كل الدرجات : مع الحكومة ، مع زعماء المجموعات في البرلمان ، مع الناخبين المتنفذين ...

اما التاكتيك السياسَوي ازاء التنظيمات البروليتارية ، فهو بالضبط جزء من «حِيَل الأباش» هذه العزيزة على الرجـال السياسيين . «انهم يستفظعـون التنظيمات محض البروليتارية ، ويحقرونها بقدر ما يستطيعون ؛ بل كثيرا مـا ينكرون جدواها وفعاليتها ، بأمل تحويل العمال عن تجمعات هي ، على حد قولهم، بلا مستقبل . ولكن ، حين يلاحظون ان أحقادهم عاجزة ، ان توبيخاتهم لا تمنع سير عمل العضويات المكروهة ، وأن هذه الاخيرة صارت قوية ، عندئذ يحاولون ان يديروا لصالحهم القوى التي تظاهرت في البروليتاريا» . بهذه السطور الخالية من الوداعة يبدأ الفصل الخامس من التأملات ، وعنوانه «الاضراب العام **السياسي**». اضراب سياسي لا يجب بأي ثمن أن يُخلط مع الاضراب العام **البروليتاري** ، اذ ما هو الا شكل من هذا الميل الكريه لدى السياسيين الى وضع اليد على النقابات العمالية . يحلمون بأن يثيروا ، تحت شكل اضراب عام ، البروليتاريا المؤطَّـرة بالتمام في نقابات رسمية جيدا ، مطيعة جيدا لدفع اللجان السياسية . ثـورة شعبية ليس لها من هدف آخر ومن نتيجة اخرى سوى تمرير السلطة من مجموعة سياسيين الى مجموعة اخرى ، بدون ان تفقد الدولة شيئا من قوتها ، «مع بقاء الشعب دائما الدابّة الطيبة التي تحمل البردعة» .

هذه المقاضاة للديمقراطية : يميل المرء الى القول ان رنتها موراسيَّة بشكـل عجيب وان لهجة هذا الـ سوريل ، المناهض للديمقراطية من اليسار ، تذكّر على نحو فريد بلهجة مناهضي الديمقراطية من اليمين . الا ان المشابهة ليست الا سطحية . ثمة فرق جذري . مناهضو الديمقراطية من اليمين ، التقليديون ، رجال الثورة ــ المضادة ، القوميون ، كانوا يهلعون للتدمير البطيء لبعض القيم ، وطن ، ملكية ، هيرارخية ، سلطة ، ولتدهور مفهوم الدولة الصحيح . لامركزيين،

كانوه من اجل معالجة الدولة في الوقت نفسه مع الفرد ، من اجل تحسين سير عملها . بالعكس ، ان مناهضي ـ الديمقراطية اليساريين ، هؤلاء النقابويين الثوريين طراز سوريل و برت ، في نقدهم القارض للديمقراطية ، كانوا يستهدفون في آخر تحليل الدولة ، نتاج الايديولوجيا البرجوازية الوخيم و«جهاز»ها المضطهِد . ما لم يكونوا يغفرونه للاشتراكية السياسية ، كان ، تحت مظاهر ثورية زائفة ، مع استخدام البروليتاريا بدلا من خدمتها ، شراكتها العملية مع أرباب العمل ورجال المال والبرجوازيين من كل نوع . هم ايضا ، الاشتراكيون ، كانوا يعملون على تعزيز الدولة ، «الآلة الكبيرة» البغيضة ، لانهم كانوا يأملون جيدا ان يكونوا يوما الدولة . يا للسخرية : تغيير محتوى الدولة ، استبدال رجال حكم بآخرين ، «أقلية حاكمة» ، كما كان يقول ماركس ، بأقلية اخرى ، بينما يجب ، حسب تعبير انجلز ، نقل كل آلة الدولة «الى متحف الانتيكات ، الى جانب المغزل القديم والفأس البرونزي» . ليس اصلاح الدولة ، انما تدميرها ! تخليص المجتمع الاقتصادي من غلافه السياسي اليابس !

لكن هذه القطيعة الجذرية ، في الذهن ، مع إيديولوجيا الدولة ؛ هذه الارادة التي لا تساوم ، ارادة الانشقاق ، التمرد ، الجاهزة للمضي الى الافعال : هي على وجه التحديد هذا **العنف** ، الذي للبروليتاريا كرسالة تاريخية ان تضطلع به، و لسوريل ان يقدم الان تبريره وتمجيده .

***

تمجيد العنف : سوريل اعطى هذا العنوان الاستفزازي لمقال جريدة **الصباح**، بتاريخ ١٨ أيار ١٩٠٨ ، الذي كان يلخص فيه **تأملاته** لانتفاع الجمهور الكبير . كانت تبرز فيه الجملة التالية : «اليوم لا اتردد عن التصريح بأن الاشتراكية لا يمكن ان تبقى بدون تمجيد للعنف» .

«عنف» يجب ان تميَّز بعناية عن **«قوة»** ، كما وعن **«شراسة»** . في مفردات جيدة حسب سوريل ، يجب الاحتفاظ ـ هذا ما لم يفعله ماركس ولا انجلز ـ بمصطلح «قوة» لافعال السلطة ، ومصطلح «عنف» لافعال الثورة . «نقول اذاً ان القوة لها كغرض فرض تنظيم نظام اجتماعي ما فيه اقلية تحكم ، في حين ان العنف يتجه الى تدمير هذا النظام . البرجوازية استخدمت القوة منذ بداية الازمنة الحديثة ، بينما البروليتاريا ترد الان ضدها وضد الدولة بالعنف» . ان هذا العنف هو من جهة اخرى متميز عن الشراسة بالتمام ، غريب بالتمام ، مثلا ، عن افعال متوحشين كتلك التي اوصى بها «وسواس الدولة» لثوريي ١٧٩٣ . مع انه ـ هكذا غايتان بيرو يترجم ، cumgrano salis ، «مع حبته من ملح» ، فكر سوريل ـ «من الجيد خبط الخصم فعليا ، لكن على سبيل الرمز وبدون وضع اي حقد في ذلك» . مسألة حد يجب عدم تخطيه . سوريل نفسه يريد جيدا ان يؤكد لنا ان

تحقيق المستقبل الذي يتمناه لا يقتضي قط «ان يكون هناك انبساط كبير للشراسة وان يراق الدم امواجا» . لا يوضح حجم الدم المناسب والكافي . يا له من مثقف لطيف ما كان شخصيا ليؤذي ذبابة !

العنف مفهوما هكذا «اصبح عاملا جوهريا في الماركسية» ؛ انه ضرورة . ومن جهة اخرى انه في المقام الاول اخلاقي ــ معنوي .

«النظرية الماركسية للثورة تفترض ان الراسمالية ستضرب في القلب ، حينما لا تزال في تمام الحيوية ، حين تكمل تحقيق رسالتها التاريخية مع طاقتها الصناعية الكاملة ، حين لا يزال الاقتصاد آخذا في التقدم» . لكن ماذا سيحصل في حال اقتصاد آخذ في الانحطاط ، رأسمالية في ذبول وتشك في نفسها ؟ ألن تخطأ الثورة الاجتماعية بحكم ذلك ؟ سوريل ، مستندا الى غاستون/بواسيه G. Boissier و فوستل دو كولانج ، يستحضر «تجربة تاريخية مخيفة» : تجربة الفتح المسيحي وسقوط الامبراطورية الرومانية الذي تلاه . هذا التحول الكبير ، هذه الثورة ، لانها وقعت في زمن انحطاط اقتصادي ، «أجبرت العالم على ان يجتاز من جديد طورا حضاريا بدائيا تقريبا وأوقفت كل تقدم طيلة قرون» . نفس الخطر الفظيع يهدد ثورة الغد اذا كانت ستكون من صنع الاشتراكيين البرلمانيين ، الاصلاحيين والسلاميين المهدئين الاجتماعيين من كل لون (تضامنيين ، كاثوليك اجتماعيين ، الخ) . لحسن الحظ ، النقابية الثورية هي هنا لكي تربي من جديد في الطريق الصحيح ، طريق العنف ، البروليتاريين المخدوعين !

> الخطر الذي يهدد مستقبل العالم يمكن ان ينحّى اذا انكبّت البروليتاريا بعناد على الافكار الثورية بطريقة تحقق معها ، قدر المستطاع ، تصور ماركس . كل شيء يمكن ان يُنقَذ، اذا، بالعنف، توصلت الى اعادة توطيد الانقسام الى طبقات والى اعادة للبرجوازية شيء من قدرتها وعزيمتها ... . ليس فقط العنف البروليتاري يمكن ان يؤمن الثورة البروليتارية ، بل ايضا يبدو هو الوسيلة الوحيدة لدى الامم الاوروبية ، التي خبلتها النزعة الانسانية ، كي تجد عزيمتها القديمة . هذا العنف ... اتجاهه ان يعيد للراسمالية الصفات المحاربة التي كانت لها في الماضي . **ان طبقة عاملة متعاظمة ومتينة التنظيم يمكن ان ترغم الطبقة الراسمالية على ان تبقى حامية في الصراع الصناعي ؛ في وجه برجوازية جائعة الى الفتوحات وغنية ، اذا انتصبت بروليتاريا متحدة وثورية، فان المجتمع الراسمالي سيبلغ كماله التاريخي...** . فلنحيي الثوريين كما حيّا الاغريق أبطال سبارطة الذين دافعوا عن الترموبيل Thermopyles وأسهموا في إبقاء النور في العالم

القديم »(١) .

اخلاقية العنف : هذا عنوان الفصل السادس . سوريل يريد النضال ضد «الاحكام ـ المسبقة» (عنوان فصل سابق) المعادية للعنف ، باسم مثل أعلى زائف من سلام ولطف . سوريل يرى بعض البلاهة في الاعجاب المعاصر باللطف والعذوبة. ضد الفكرة الصائرة غريزية التي مفادها ان كل فعل للعنف هو «مظهر تقهقر نحو البربرية» ، يستدعي ليس حتى نيتشه («لنكن قساة») ، بل كاثوليك غيوريـــن منشغلين بالاخلاق ، أبا اسمه بورو ، وأبا اسمه دو روزيه . الاول ، بصدد فلاحي خلجان نروج ، كان يخلص الى ان ضربة السكين التي يضربها رجل ذو حيـــاة مستقيمة ، «لكن عنيف» ، هي داء اجتماعي اقل خطورة واسهل شفاء مـــن «فيضانات الفسق عند شبان يشتهرون بأنهم اكثر تمدنا» . الثاني ، متكلما عن الولايات المتحدة ، كان يبرر قانون لينش **Lynch** ، الذي في البلدان الجديدة يمكّن الناس الشرفاء من الدفاع عن انفسهم بفعالية ضد اللصوص المجرمين »(٢) : في فرنسا يعتبرون هذا القانون «قرينة على البربرية» ، انهم على باطل .

بماذا خشونة الازمنة القديمة او بعض البلدان الراهنة تميل الى ان تستبدل في الامم التي يقال لها متطورة ؟ بالمكر ــ المكر ، سلاح البائع وثأره من شجاعـة المحارب . أهذا تقدم ، يسأل سوريل ، من وجهة نظر الاخلاق ؟ في السياســة بخاصة ، هل تمثل تقدما على العنف الصريح ، هذه الجمعيــات «السياسية ـ الاجرامية» التي بالتناوب ، إما كليريكالية كجمعية القديس فنسان دو بول ، او مناهضة للاكليروس كالماسونية (تلميح الى قضية البطاقات **fiches** في الجيش في عهد وزارة كومب **Combes**) تمارس رقابة خبيثة على آراء الموظفين ؟ ان يكون قد بات امرا مكتسبا ان لجمعيات كهذه «تسير بالمكر» مكانها المعترَف به في ديمقراطية متطورة ، أهذا تقدم ؟ الانتقال من العنف الى المكر ، الى تاكتيـــك «يليق ب إسكوبار» (٣) ، الذي يتجلى في الاضرابات التي تقودهـــا في انكلترة اتحادات ـ الشغل ، هل هو تقدم ؟ هل هناك شيء اكثر لاأخلاقية من كل الذي

---

١ ـ في ممر **الترموبيل** ، مفتاح قلب شبه جزيرة اليونان ، حاول ليونيداس وثلاثمئة سبارطي ايقاف جيش فارس (٤٨٠ ق م) الذي استطاع بعد ذلك ان يفتح آلينا ، ولكن الحرب انتهت بانتصار اليونان ، اول انتصار للغرب على الشرق .

٢ ـ **قانون لينش** : أسلوب قضائي سريع ، بموجبه الجمهور يقبض على المذنب او المتهم ، يحاكمه ، يحكمه بالاعدام شنقا ، وينفذ الحكم . استعمل ضد لصوص مجرمين ، ضـــد متهمين ابرياء ، ضد الزنوج الخ .

٣ ـ **إسكوبار** : جيزويت اسباني (ق ١٧) شهرّته حملة **باسكال** ضده ، (ضد اساليبه وتحفظاته وتبريراته وتفصيلاته لصالح مخالفي الدين والاخلاق) ، في كتابه الشهير **provinciales** الموجه ضد الجيزويت .

فنضح لتوّه ، شيء أبعد عن درب السمو من كل هذا النفاق ؟ «في البلدان التي توجد فيها فكرة الاضراب العام [البروليتاري ، لا السياسي] ، الضربات المتبادلة اثناء الاضرابات بين العمال وممثلي البرجوازية لها مدى آخر تماما : عواقبها بعيدة ويمكن ان تولّد سمواً» .

هذه الجملة الاخيرة من شأنها ان تحير وتدهش اكثر من قارىء . كل ما تفعله مع ذلك هو انها تترجم بدقة عن وجه جوهري في أطروحة سوريل الايجابية ، الا وهو ان هذا العنف البروليتاري الذي يمجده انما توجهه وتغذيه فكرة او بالاصح **أسطورة** الاضراب العام .

★★★

الفصل الرابع من الكتاب ، وعنوانه **الاضراب البروليتاري** ، يبدأ هكذا : «في كل المرات التي فيها نسعى الى تكوين صورة صحيحة عن الافكار التي تتعلق بالعنف البروليتاري ، نحن مسوقون الى الرجوع الى مفهوم الاضراب العام» . المؤلف يضيف على الفور ان المفهوم نفسه يمكن عدا ذلك ان يسدي خدمات اخرى وان يقدم ايضاحات غير منتظرة حول كل الاجزاء «المظلمة» في الاشتراكية .

ما الاسطورة ؟ ليست **يوتوبيا** Utopie ، اختراعا ذهنيا لمؤسسات خيالية ، تكوّن مثلا اعلى ، موديلا اجتماعيا يمكّن بالمقارنة ، من محاكمة المجتمع الموجود . ليست كذلك تنبؤاً متفاوت القرب بالمستقبل . «لا يوجد اي أسلوب يمكّن من رؤية المستقبل سلفا بكيفية علمية» ، لذا فان اعظم الرجال ، بدءاً بماركس ، قد ارتكبوا اخطاء عجيبة «بارادتهم ، هكذا ، السيطرة على المستقبلات، حتى الاكثر قربا» . ومع ذلك فان الانسان لا يستطيع ان يفعل بدون الخروج من الحاضر ، بدون المحاكمة على هذا المستقبل الذي يبدو دوما خارج قبض عقله . ما السبيل الى حل المعضلة ؟ على وجه التحديد **بالأسطورة** ، اي (طبقا لفلسفة برغسون المناهضة للفكرية) مجموعة مترابطة لا من افكار ، بل من **صور** محرّكة ، قادرة على ان تستحضر «في كتلة واحدة وبالحدس وحده ، قبل اي تحليل متفكّر» ، كل العواطف او المشاعر الموافقة لعمل مقصود . الاسطورة لا تفصّل ، لا تناقَش عقليا . «ان جملة الاسطورة هي وحدها التي تهم» . لدينا هنا ، اذا صدّقنا سوريل ، كل المزايا التي ، حسب برغسون ، لـ «المعرفة التامة» على التحليل .

والحال ، ان النقابية الثورية ، التي فتحت الحرب صريحة ضد المجتمع الحديث ، بحاجة الى أسطورة ، الى تنظيم من صور قادرة على ان تستدعي بشكل غريزي ، عند البروليتاريين ، كل العواطف او المشاعر التي توازي مختلف تجليات هذه الحرب . الاضراب العام هو هذه الاسطورة : سوريل يشبّهه بـ «المعركة النابوليونية» التي كانت تسحق الخصم نهائيا ، «المخرج الانهياري للنزاعات

الدولية». كل المشاعر التي امكن للاضرابات الجزئية ان تولّدها في البروليتاريا، ــ «الاكثر نبلا وعمقا وتحريكا التي في حوزتها» ، ــ الاضراب العام يجمعها في لوحة اجمالية ، وبتقريبها يعطي كلا منها اقصى شدته . حاشداً ذكريات اليمة من نزاعات خاصة ، «يلوّن بحياة شديدة التوتر كل تفاصيل التأليف المعروض على الوجدان» . هكذا نحصل على هذا الحدس للاشتراكية الذي تعجز اللغة بمفردها عن اعطائه بشكل واضح ؛ ونحصل عليه «في جملة تدرَك بشكل آني فوري» [٤] .

كل عناصر صراع الطبقات المعترَف بها من قِبل الاشتراكية الحديثة ــ المقصود المذهب الحق الاصيل ، وليس كاريكاتوره الجوريسي ــ نجدها ثانية في اللوحة التي تقدمها اسطورة الاضراب العام . بين هذه اللوحة ، الكاملة حقاً ، والاطروحات الرئيسية للماركسية ، يوجد ، حسب سوريل ، تماثل اساسي .

«ماركس يتكلم عن المجتمع وكأنه مقسوم الى جماعتين اثنتين متنافيتين بالاساس ... ، وهي أطروحة شطر ثنائي كثيرا ما كوفحت باسم الملاحظة» . والحال ، ما ان نفترض النزاعات مضخمة الى نقطة الاضراب العام ، حتى يكون المجتمع عندئذ مقسوما فعلا الى معسكرين «والى اثنين فقط» فوق ساحة قتال . ــ هذا الشعور الثوري الملتهب الذي يجب ان يسكن بلا انقطاع النفس العمالية لكي تزول الآمرية الرأسمالية ، ان فكرة الاضراب العام الاسطورية تبقيه فتيا دوما و حيا لا يقتلع ومحركا . «بفضلها تبقى الاشتراكية دوما شابة ، والمحاولات المبذولة لتحقيق السلم الاجتماعي تبدو طفلية ، وفرارات رفاق يتبرجزون ، بعيدا عن ان تثبط عزيمة الجماهير ، تحرضها اكثر على الثورة ؛ **بكلمة ، لا يكون الانقسام ابدا في خطر أن يزول»** . ــ ماركس ، في **رأس المال** ، صوّر الطبقة العاملة التي تحس يزن عليها نظام فيه «يتنامى البؤس ، الاضطهاد ، العبودية ، السقوط ، الاستغلال» ، والتي تنظم ضد هذا النظام مقاومة متنامية دوما ، الى ان تنهار كل البنية الاجتماعية . على هذا اعترضوا بقولهم الحق ان هذا الوصف ، الذي كان صحيحا في زمن **البيان** ، لم يعد كذلك في زمن **رأس المال** (١٨٧١) . الاعتراض يسقط اذا أوّلنا المقطع في حدود أسطورة : بدلا من البحث «عن معاينات مادية ، مباشرة ، ومحددة في الزمان» ، لنحفظ **المجموع** ، **الجملة** ، الواضحة بالتمام . «ماركس يريد ان يفهمنا ان كل استعداد البروليتاريا انما يتوقف فقط على تنظيم

---

٤ ــ تأثير برغسون واضح ... . لنذكر ان عمله الاول ، «المعطيات المباشرة للوعي» ، صدر في ١٨٨٩ ، «المادة والذاكرة» في ١٨٩٧ ، «الضحك» في ١٩٠٠ ، «التطور المبدع» في ١٩٠٧ ، وأن عدد طبعات هذه المؤلفات والمؤلفات التالية («الطاقة الروحية» ١٩١٩ ، «مَصدرا الاخلاق-والدين» ١٩٣٢ ، «الفكر والمتحرك» ١٩٣٤) بلغ وسطيا الخمسين حتى سنة ١٩٤٨ . ــ في سوريا ، ترجموا Conscience (وعي) بـ «شعور» . وبالفعل هذا اقرب الى «وعي» برغسون («مباشَر» وتأمّل فيه لا ينتهي ...) .

مقاومة عنيدة ، متنامية ومولعة ضد نظام الاشياء الموجود» . بقول آخر ، لا سبل اخرى غير النقابية الثورية . لا «توسيع» للاشتراكية مخادعا على طريقة جوريس، الرسول الطيب . هذا التوسيع مضاد للنظرية الماركسية كما ولتصور الاضراب العام» . وهكذا دواليك .

في الحاصل ، هوذا ماركس قد انقذ ، قد برّر ببرغسون ، بالاساطير ، بكل العتاد الفكري المعقد لـ **المدرسة الجديدة** . يخلص سوريل الى ما يلي :

> لا يوجد ربما دليل افضل يعطى للبرهنة على عبقرية ماركس من التوافق المرموق الذي نجده موجودا بين نظراته والمذهب الذي تبنيه اليوم النقابية الثورية ببطء ، بجهد ، واقفة بشكل دائم على ارض ممارسة الاضرابات .

***

اخيرا ، العنف وحده ، مضاءاً بفكرة ـ اسطورة الاضراب العام ، قادر على ايجاد الاخلاق الجديدة الضرورية ، **اخلاق المنتجين** .

سوريل يذكّر بأن برودون قبل خمسين عاما كان يشير الى ضرورة أعطاء الشعب أخلاقا موافقة للحاجات الجديدة وكان يكتب هذه الجملة المخيفة : «فرنسا فقدت اخلاقها» . برودون كان على حق فيما يتصل بالضرورة المشار اليها ، ولكنه كان يرى بشكل سيء ، حسب سوريل ، ان لا شيء أصعب من خلق اخلاق خالصة تماما من كل معتقد ديني . ان اخلاقا مجردة ، مثل اخلاق كبار رجال التربية العلمانيين في الجمهورية الثالثة ، ف. بويسون F. Buisson ، بول برت Paul Bert ، ما كان يمكن ان تكون الا عديمة الفعالية بشكل عجيب : «أتذكّر انني قرأت فيما مضى ، في كتاب لـ بول برت ، ان المبدأ الاساسي للاخلاق يستند الى تعاليم زرادشت والى دستور سنة ٣ [في تقويم الثورة الفرنسية ، اي ١٧٩٥]؛ أعتقد انه ليس ثمة هنا سبب جدي لجعل انسان يفعل» . يقينا كان الماركسيون على حق في استهزائهم بـ «عدالة خيالية خرجت من خيال الطوبابويين» ، «حصان عجوز عائد ـ كانت تقول روزا لوكسمبورغ ـ يركبه منذ قرون جميع مصلحي العالم» ؛ كانوا محقين في تأكيدهم ان اخلاقا لا تخلق قط «بتبشيرات رقيقة ، باصطناعات مبتكرة لايديولوجيا ، أو بوقفات جميلة» . ومع ذلك ، يؤكد سوريل، ينبغي تحسين الاخلاق .

> ان تقدم البروليتاريا الخلقي لضروري بقدر ضرورة تقدم الادوات المادي ، لحمل الصناعة الحديثة الى المستوى الارفع دوما الذي يسمح العلم التكنولوجي ببلوغه ... . واذا كان العالم المعاصر لا

يحوي **جذورا من اجل اخلاق جديدة** ، فماذا سيحل به ؟ ان أثاث برجوازية متباكية لن تنقذه ، اذا كان حقا فقد اخلاقه الى الابد .

لكن لحسن الحظ هذه الجذور موجودة : لاعداد شغل المستقبل ، العالم المعاصر يحوي هذه القوة التربوية الكبيرة : النقابية الثورية . اذ في هذه تتضافر **اخلاق الشغل الحسن** مع قوى الحماس التي تطلقها أسطورة الاضراب العام .
المنتج الحر ، قادرا على بسط فردويته الجامحة ـ الشبيهة بفردوية جندي من جنود **حروب الحرية** ـ في مشغل عالي التقدم ، يطيع غريزيا اخلاق شغل . شغل معمول على نحو افضل دوما ، محسَّن دوما كيفا وكماً . هذا الجهد نحو الافضل ، الذي يسير جنبا الى جنب مع حرص اكبر دوما «على الدقة» ، على الصدق في التنفيذ ، نزيه : في كونه يتجلى ـ مثل بسالة جندي **حروب الحرية** المقاتل في سبيل المجد وحده ، مجد العمل الملحمة خالدة ـ يتجلى «رغم غياب كل مكافأة شخصية ، مباشرة ومناسبة» . وان النزاهة في الجهد هي **الفضيلة** الخفية التي تؤمن التقدم المتصل في العالم .
من جهة اخرى ، بدون احتياطي خفي من الحماسة القادرة «على هزم جميع الحواجز التي تضعها الروتين والاحكام المسبقة والحاجة الى تمتعات مباشرة» ، ليس ثمة اخلاق ناجعة ، ليس عندنا سوى مجموعة من الاحكام الميتة . لكن ، هذه القوة الاحتياطية الخفية والسيدة ، من المؤكد اننا لن نجدها في محاكاة الماضي، في مناداة أشباح مؤسسات «شاعرية ، مسيحية وبرجوازية» ، انعكاسات «بنى اجتماعية ملغاة» ، «اقتصادات للانتاج» معها الاقتصاد ـ في ـ صيرورة سيكون اكثر فأكثر في تناقض . الخلاصة تفرض نفسها : ان قوة وحيدة تستطيع اليوم ان تنتج هذا الحماس الذي بدونه لا اخلاق ممكنة ، وهي القوة التي تنتج عن الدعاوة لصالح الاضراب العام .

لنا اذاً حق تأييد ان العالم الحديث يحوز المحرك الاول الذي يستطيع ان يؤمّن اخلاق المنتجين ... . في الخراب التام للمؤسسات والاخلاق العامة ، يبقى شيء قوي ، جديد ، لم يُمَسّ ، انه يؤلف بحقيقة الكلام نفس البروليتاريا الثورية ؛ وهذا لن ينجرف في الانحلال العام للقيم الاخلاقية ، اذا كان للشغيلة ما يكفي من العزيمة لسد الطريق على المفسدين البرجوازيين بالرد على عروضهم بالشراسة الاكثر قابلية لان تفهَم .

★★★

ان مفارقة مزدوجة تميز الاستقبال الذي لقيه المؤلف عند صدوره . في اليسار سقط تماما على الارض ، و ، لئن استطاع مع ذلك ان «يثقب» قبل ١٩١٤ ،

فبفضل اليمين ـ الاقصى الموراسي .

بالطبع ، الذين دعوناهم آنفا رجال الاشتراكية الجديين ، امثال اوائل جوقة الحزب في البرلمان ، مثلا جوريس ، المفعم بالسلطان وبالتشريفات الدنيوية ؛ ما كان يمكن ان يكون لهم سوى هزة اكتاف امام كتاب كهذا ، وان يضحكوا من سخريات العاجز التي كان يحتوي عليها ازاءهم . لكن افضل بكثير ، او اسوأ بكثير ، ان مناضلي النقابية الثورية ، «العمال الحقيين» ، اظهروا استياءهم او تجاهلهم لهذه **التاملات** غير المفهومة . حسب شهادة جيدة ، ليس اكيدا انه كان يمكن ان نجد بينهم «نصف ـ دزينة» من القراء . يجب ان نرى جيدا ان اكثر من وجه في المذهب السوريلي كان يصدم جبهيا احر مطامح الاوساط المناضلة ، المشبعة بالفوضوية الحرة . لعله كان رهانا التبشير بـ «الشغل الحسن» للذين كانوا ينادون بالسابوتاج ؛ بالاخلاق التقليدية في مضمار الحياة الخاصة ـ مثلما يفعل «خوري» ـ للذين كانوا يقومون بدعاية صريحة من اجل الحرية الجنسية والاساليب النيو ـ مالتوسية و«اضراب البطون» ؛ بزرع البطولة بالاضراب العام للذين كانوا ينتظرون قبل كل شيء من الاضراب ، كما هو طبيعي ، تحسين شروط حياتهم ، نتائج بالدرجة الاولى «مادية وملموسة» . تأثير سوريل على النقابية العمالية في فرنسا كان «معدوما» ، كما كتب بصواب في صحيفة **الحياة العمالية** بعد وفاة مؤلف **التاملات** ؛ كان تأثيره محسوسا اكثر بكثير في ايطاليا ، حيث كان مقروءا اكثر بكثير .

بالمقابل ، ان اوساط العمل الفرنسي ، وهم على الدوام يترصدون إلحاقات فكرية ، صنعوا نجاحا لكتاب سوريل ، المستشرس ضد فلسفة الديمقراطية وضد واقعها العملي على حد سواء . احد حواريي سوريل ، ج. فالوا G. Valois ، كان قد انضم منذ ١٩٠٦ الى جماعة العمل الفرنسي التي سيغادرها فيما بعد بضجيج . كان يحاول ان يجلب للمونارشية المنشودة ركائز عمالية جديدة ، لم تكن واردة على الاطلاق في **التحقيق** ، الذي كان طفليا في هذا الميدان . كان مؤهلا ليخدم كعميل ارتباط . بالواقع ، حوالي ١٩١٠ ، ان اشارات متنوعة ـ منها ظهور مجلتين ، **الاستقلال** ، التي أسسها سوريل و فاريو Variot ، **ودفاتر حلقة برودون** ـ تظهر تقاربا لا بأس به بين مناهضي الديمقراطية من اليمين ومناهضي الديمقراطية من اليسار (سوريل ، برت) . ذاك هو الزمن الذي كان فيه سوريل يسر" الى فاريو ان موراس للمونارشية بمداه المذهبي ما كانه ماركس للاشتراكية. ذاك هو الزمن الذي كان فيه بول بورجه يقدم مسرحية **المتراس** ، وهي اخراج اتجاهي ـ في الاتجاه البرجوازي ـ **للتاملات** . سوريل سر بشكل مرئي من تكريم الكاتب الشهير . «القنفذ» ، كما دعاه بارس ، لم يخرج اشواكه . مخيبا ، في هذه المرحلة الثالثة من حياته ، من قبل مناضلي هذه البروليتاريا التي كانت حبه الاول وستكون حبه الاخير ، كان يحلم على نحو غامض في ان البرجوازية ، تحت الكرباج المزدوج الموراسي والنيوماركسي ، ستطلق «جبنها» الطويل ، ستملك نفسها وتجد من جديد الحمية الحربية القديمة لـ «رؤساء الصناعة الفاتحين» .

امبريالية (حسب تعبير ب. لاسير P. Lasserre في كتاب مكرس لسوريل عام ١٩٢٨) ، **امبريالية** الطبقة العاملة ، اي ارادة القوة عندها ، ستبعث على سبيل رد الفعل ارادة القوة القديمة ، الامبريالية القديمة عند البرجوازية .

لكنها مجازَفة حقيقية ان نقول ان سوريل ، حتى في هذه الحقبة من حياته، اعتقد ممكنا وتمنى انتصار البرجوازية إثر هذا الصدام الجدلي . الحقيقة هي انه، في هذا التقارب العابر بين الموراسيين والسوريليين ، كان هناك الكثير من الاصطناع والكثير من الالتباس . على الاقل ، ان هذا الالتقاء الغريب ، السطحي والسريع الزوال بين نقابوية ثورية ذهنية تماما ومونارشوية ـ جديدة ليست أقل ذهنية ، كان قد منع **التأملات** من الغرق في عدم الاهتمام .

١٩١٤ ، الحرب . سوريل كان يعاند ـ كما قد كتب لتوّه ـ «في ان يظل ، كما فعل برودون ، خادما نزيها للبروليتاريا» . ر. جوهانه R. Johannet يظهره لنا ، في هذه المرحلة الجديدة ، مفكرا عاذ الى الوحدة و«تعبا من جديد» . الحرب ، التي يخوضها الحلفاء باسم المبادىء الديمقراطية التي يكرهها ، تبدو له حرب نفاق مقرف .

ايار ١٩١٧ : انهيار روسيا القيصرية ، ظفر لينين ودكتاتورية البروليتاريا .

١٩١٩ ـ ١٩٢٢ : فترة ما بعد الحرب ونفضاتها ـ تشنجاتها ؛ حلف الحلفاء ضد البولشفية ؛ ظهور الحزَم faisceaux في ايطاليا تحت دفع الاشتراكي القديم موسوليني الذي كان سوريل تعرّف عليه قبل الحرب ؛ وفاة سوريل في آب ١٩٢٢ . **العنف** ليس فقط الايديولوجي ، بل المادي حتى التوحش ، **العمل المباشر** هما الان في امر اليوم . الموضة السياسية والسياسية ـ الفكرية هي ل مناهضة ـ البرلمانية . لكنها ايضا للمسألة البروليتارية ، يضيئها نور الثورة الروسية الاحمر. الازمنة اذاً ناضجة من اجل اكتشاف رجوعي ، من اجل نبش خطابي بعض الشيء لسوريل ، نبي العصور الجديدة ب **تأملاته** . يؤلفون له شخصا شديد الطعم من سقراط حديث مطعّم ب ديوجين ، موقظا الاذهان ، باحثا ان لم يكن عن رجل ، عن **بطل** ، فعلى الاقل عن **طبقة** بطلة . وتولد الصورة العامة المبتذلة الادبية في موضوع الشيخ الجميل الذي له بشرة طفل غضة ، «الاب سوريل» : فيه سيحيّون اباً ، «بآن» ، للينين ولموسوليني . اختصار فاتن أخاذ ! ماذا يجب ان نفكر ؟

رابطة «البنوّة المباشرة» ، يوضح غايتان بيرو ، مع موسوليني ، لا جدال فيها. مع لينين انها مشكوك فيها : تعاطفات affinités فكر كبيرة ، اجل (دكتاتورية البروليتاريا ، تمجيد «المنتج» ، بغض الديمقراطية «البرجوازية») ، اما بنوّة فلا.

مجاهرات موسوليني السوريلية معروفة جيدا : «لسوريل انا مدين اكثر مني لأي شخص آخر» . «بالنسبة لي العنف اخلاقي ... ، اخلاقي اكثر من التسويات والصفقات» . «الفاشيّة ستكون سوريلية» . يعتقد عموما ان سوريل ، لو عاش، لاعطى «بركته» للفاشية الظافرة ، كما كان قد اعطاها للبولشفية المنتصرة . لكن ما علمنا ؟ لا شيء أبعد عن سوريل **التأملات** ، على الاقل ، من العبادة الفاشية للدولة، من «دولتولاترية» Statolâtrie الفاشية !

أما لينين ، فان سوريل قد كانت له فرصة ان ينفي الأبوة المطرية او المفزعة التي نسبها البعض له . في من اجل لينين المكتوب كملحق للطبعة الرابعة من التاملات ، في ايلول ١٩١٩ ، نقرأ : «ليس عندي اي سبب يدعوني الى الافتراض ان لينين اخذ افكارا في كتبي» . ولكن لو كان ذلك ، يتابع سوريل ، فيا له من اعتزاز يشعر به ! ويعلن لينين «اكبر منظّر عرفته الاشتراكية منذ ماركس ، ورئيس دولة تذكر عبقريته بعبقرية بطرس الاكبر . ويلعن بلهجة ملوّعة «الديمقراطيات البلوتوقراطية» ، اي الحلفاء ، الذين «كانوا يجوّعون روسيا : «لست سوى عجوز وجوده تحت رحمة حوادث صغيرة ؛ لكن ليتني ، قبل نزولي في القبر ، ارى إذلال الديمقراطيات البرجوازية المغرورة ، الظافرة اليوم بكلبية»».

أكانت تلك كلمة سوريل الاخيرة ؟ لعله — كما يعتقد ر. جوهانه — لم يقلها لاحد ، هذه الكلمة الاخيرة لاحلامه ، ولعله كان يترك «للعمل عناية ان يظهر المعنى الخفي لمذهبه» . أما كلمة لينين الاخيرة عن سوريل، هل يجب ان نعتقد انها التالية» وقد اخذناها من المادية والنقد التجريبي ، الصادر في ١٩٠٩ : «الذهن المشوّش المعروف جيدا ، ج. سوريل» ؟ بدهي ، بالنسبة للينين ، وهو أقل الاذهان تشوشا في الوجود — كما سيرى القارىء بعد قليل — ، أن دعوى سوريل انشاء تركيب الماركسية والبرودونية ، الهيغلي في كثير او قليل ، لا يمكن ان تصدر الا عن دماغ صالح فقط لـ «يفكر العبث» والمخلوطة !

الفصل الرابع

« الدولة والثورة » ، لِ لينين (١٩١٧)

«كل الثوريين يعلنون على التوالي الثورات الماضية لم تفض في النهاية الا الى خدع الشعب، وحدها الثورة التي يرمون اليها ستكون الثورة الحقة » .

فيلفريدو باريتو V. Pareto

أزمة الماركسية ، كما رأينا لتو"نا بصدد ج. سوريل ، حول سنة ١٩٠٠.- خطر تفسخ مذهبي . في قلب الاممية الثانيـــة تتجابه التطورية او اصلاحيـــة او «انتهازية» ، والثورية . اطروحة الاستخدام الصبور للوسائل الشرعية ، موقوتا على ايقاع التطور التدريجي المحتوم ، ضد اطروحة الاستيلاء العنيف على السلطة بالعمل المباشر . ماركس وانجلز ، في ١٨٤٨ ، في **البيان** ، كانا قد بشّرا بالثورة السافرة العلنية . لكن منذ ذلك الحين ، في ضوء الحوادث ، أمام ظهور عامـل جديد بأهمية الاقتراع العام ، ألم يغيرا موقفهما ؟ تلاميذهم ، او الذين يعتقدون انفسهم كذلك ، كانوا يتشاجرون ، والشتيمة في فمهم ، على النصوص المقدسة.

كان التطوريون يدّعون اخذ حجة ، حجة ــ مِطرقة ، من جملة لانجلز مقدّما في ١٨٩٥ لكتاب ماركس عن **صراعات الطبقات في فرنسا** :

> نحن ، الثوريين ، المطوّحين ، نزدهر افضل بكثير بالوسائل الشرعية منا بالوسائل اللاشرعية والتطويح . احزاب النظام ، كما تسمّى ، يهلكون من الحالة الشرعية التي خلقوها بانفسهم ... ، بينما نحن ، بهذه الشرعية ، نصنع لانفسنا عضلات مفتولة وخدودا وردية ونتنفس الشباب الابدي .

الثورويون كانوا يردون ، ليس بدون اساس ، ان هذه الجملة ، معادة في سياقها ، لا تبرهن على شيء ، الا ان الوقائع كانت هنا : خصومهم كانوا يكسبون ارضا ، مع تمتعهم شخصيا بمزايا الاشتراكية البرلمانية . وهم ، الثورويون ، هم «الصلدون كالصخر» الذين اختاروا الطريق الاصعب ، كانوا يصيرون اكثر فأكثر، بين ١٩٠٠ و١٩١٤ ، اقلية يسار ــ اقصى معزولة .

تنشب حرب ١٩١٤ . تبلور الخلافات بشكل دراماتيكي . انها كارثة بالنسبة للاممية الثانية . في كل البلدان المحاربة الكتلة الضخمة في الاحزاب الاشتراكية تعلن نفسها مع الدفاع عن الوطن . الكاوتسكية ، نسبة الى الالماني كاوتسكي Kautsky ، الذي كان قبل الحرب يمثل الماركسية الاورثوذكسية ويدين الانتهازية بالمذهب دون ان يقطع عمليا معها ، تتمسك امام هذه الوضعية ، بنفس السياسة الحذرة : سياسة وسط . تلتجيء ، امام مسألة التصويت على قروض الحرب ، في التحفظات والتمييزات . سياسة بيلاطس البنطي ، على حد استنكار الثورويين ، شراكة لئيمة مع «الاشترا ــ شوفينيين» ، «الاشترا ــ خونة» !

اول تشرين الثاني ١٩١٤ ، اللسان المركزي للحزب الماركسي الروسي الاكثر تقدما (او الحزب **البولشفي**)، الصادر فيجنيف وعنوانه **الاشتراكي ــ الديمقراطي**، ينشر مقالا فتاكا . الكاتب يستعرض فيه موقف مختلف الاحزاب الماركسية في الغرب وفي روسيا ، ثم ينفجر كما يلي :

> إفلاس الاممية بدهي ... . جهود كاوتسكي لحجب هذا الافلاس ما هي الا مهرب جبان . وهذا الافلاس هو على وجه التحديد افلاس الانتهازية ، اسيرة البرجوازية ... . مسألة الوطن ... لا يمكن ان تطرح مع تجاهل الطابع العياني للحرب الراهنة . انها حرب امبريالية ، اي من عصر ذروة الراسمالية ، من عصر **نهاية** الراسمالية ... . و ، عن هذا العصر ... يقول كارل ماركس بوضوح وتحديد : العمال ليس لهم وطن ... . الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر في الاطار القديم ، اطار الوطن ... .

البرجوازية تخدع الشعوب بإلقائها على اللصوصية الامبريالية قناع الايديولوجيا القديمة للحرب القومية . البروليتاريا تنزع القناع عن هذه الاكذوبة معلنة **تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية...** . لنرفع لواء الحرب الاهلية !... الاممية الثانية ماتت ، مهزومة من قبل الانتهازية . لتسقط الانتهازية ولتعش الاممية مطهرة ... ، **الاممية الثالثة** .

اسم الكاتب : فلاديمير إيلتش أوليانوف ، الذي يقال له لينين . في الاسطر التي قرأناها لتوّنا يظهر جيدا اسلوبه الخاص ، نبرته الخاصة ، ويتعبر جوهري «أطروحاته الحربية» .

***

«ذاك هو قدَري . حملة نضال تلو اخرى ، ضد الحماقات والبلاهات السياسية ، ضد الانتهازية ، الخ . هذا منذ ١٨٩٣» . لينين كتب هذه السطور في ١٩١٦ . **منذ ١٨٩٣** ... ، اي منذ ان كان في الثالثة والعشرين ، وكان نوعا ما قد تزوج الماركسية . خلق حزب ماركسي في روسيا الاوتوقراطية ، طليعة للطبقة العاملة ، تعيين برنامج واضح محدد وخطة ناجعة فعالة له ، تصفية كل «انحراف» عن الماركسية «الحقة الصحيحة» تصفية لا رحمة فيها ، تلك كانت من البداية الى النهاية المهمة التي عيّنها لينين لنفسه . موجها محوّلا لا يتعب ، كان يعيد بعناد وبلا مراعاة للاشخاص القطار الماركسي في الطريق الجيد ، اي في طريق لينين . لم يوجد في يوم من الايام رجل عمل ذو عناد مذهبي اكمل ، ولا رجل اكثر ثقة بأنه على حق و«بأنه وحده على حق» . على هذا النحو تقاد الى نهاية جيدة ، دون نظر الى الاعطاب ـ وهي نفقات عامة لا مفر منها ـ الثورات الكبرى .

بالنسبة له ، طبقا لروح الماركسية الصميمي ، النظرية والعمل لا ينفصلان . «بدون نظرية ثورية ، لا عمل ثوري» . النظرية تسمح بالعمل ، لكن العمل يدفع النظرية الى الامام محوّلا اياها . اذ ان النظرية يجب ان لا تكون ابدا متأخرة عن الحياة . لينين كان يحب أن يذكر الحكم الذي يضعه غوته Gœthe في فم مفستوفيليس : «النظرية رمادية ؛ أما شجرة الحياة فهي ابدا خضراء» . نظرية ماركس (وانجلز الذي لا ينفصل عنه) ليست شيئا ناجزا مكتملا ، سرمديا لا يتبدل: روح المادية الجدلية عينه يعارض ذلك . ماركس كان ببساطة ـ ولكن هذا جبار وعبقري ـ قد وضع «احجار الزاوية» لعلم المجتمعات : للماركسيين ان يمدوا ويتابعوا في كل الاتجاهات ، مع مراعاة الزمان والمكان ، المعطيات الاساسية التي كشفها المعلم . لكن «نقاء» هذه المعطيات يجب مهما بلغ الثمن ان يُحمى داخل عمل التكييف الجدلي الضروري عينه . لينين ، الى النهاية ، اعلن نفسه «مغرما بماركس

وانجلز» ، غير قادر على «ان يتحمل بهدوء اي لوم حيالهما» . كان يصرخ : «آه ! هذان رجلان! يجب ان نضع انفسنا في مدرستهما. يجب ان لا نغادر هذه الارض».

و ، ضد جميع الذين كانوا يغادرون ، على رأيه ، هذه الارض ، كان لينين ينتصب ، مسلحا بمنطق لا ينثني وبسخرية . ابـــدا لم يفكر بأن يشيـــد ، كـ بليخانوف مثلا ، منظّر الماركسية الروسية المعترَف به ، مؤلفا فكريا لذاته . لينين منظّرا ولينين مناضلا ، رجل واحد بعينه. كان يذهب الى الاكثر استعجالا. ما ان يلحظ في مكان ما تعديا على الماركسية «الحقة الصحيحة» حتـــى يهجم . وقلمه الرشيق ، كلامه الملحّ والجاف يطاردان المذنب ويرميانه ارضا . منع الاممية الثانية من بندقة الماركسية بالانتهازية ، بعث الاقوال الماركسية «المنسية» طوعا ، ذاك كان الامر الجوهري في جهده المذهبي . اذا حدث له ان يكتب دراسة فلسفية ضخمة كـ **المادية والنقد التجريبي** ، فلأنه ، كما يقول لنا ، اتخذ «كمهمة ان يبحث عن سبب هذيان أناس يقدمون لنا تحت لون الماركسية شيئا ما فاقد التلاحـــم بشكل لا يصدَّق ، ومبلبلا ورجعيا» .

في ١٩١٤ ، حين نشبت الحرب ، كان الانشقاق قد تم نهائيا بين الفئتين ، **المنشفيك** و **البولشفيك** ، في الحزب الاشتراكي ــ الديمقراطي لروسيا المؤسس في ١٨٩٨ . هذا الانقسام كان قد بدأ في مؤتمر بروكسل ــ لندن عام ١٩٠٣ على مسألة تنظيم الحزب . لينين وجماعته ، انصار انضباط صارم ، كانوا قد احرزوا الاكثرية ، من هنا اسم **بولشفيك** (من كلمة «بولشنستفو» ، أكثرية) ، بينمـــا خصومهم كانوا ينالون اسم **منشفيك** او جماعة الاقلية . هكذا فان هذه التسمية المدعوة الى شهرة فائقة توقفت في اصلها على واقعة ، كما يقول لينين ، «محض عرضية» . ما كان للقطيعة الا ان تشتد بين ١٩٠٣ و١٩١٢ : في هذه السنة الاخيرة نجح البولشفيك ، في كونفرانس براغ ، في طرد المنشفيك من الحزب الاشتراـ ديمقراطي الروسي . كوّنت لجنة مركزية جديدة ، يسيطر عليها لينين (ستالين ، المنفي المعتقل آنذاك في سيبيريا ، كان جزءا منها) . أسست جريدة يوميـــة ، **البرافدا** او «الحقيقة» . إثر هذا التطهير العالي الطراز ، بوسع الحزب أن يجابه ، متينا ومتلاحما ، امتحان حرب ١٩١٤ المخيف .

حرب **امبريالية** : هذا هو الوصف الذي يعطيه لينين لها ؛ كما رأينا ، في مقال جريدة **الاشتراكي ــ الديمقراطي** الجدير بالذاكرة بتاريخ اول تشرين الثاني ١٩١٤ . احد اشهر مؤلفات لينين (الذي كان سيكتبه في زوريخ في ربيع ١٩١٦) عنوانه : **الامبريالية ، اعلى مراحل الراسمالية** . حسب المؤلف ، الراسمالية المزدهـــرة و«التقدمية» لعصر ماركس كانت قد تحولت الى امبريالية ، بحلول المونوبول محل المزاحمة الحرة . المونوبول (كارتيلات ، ترستات ، تمركز مصرفي ، وبالتالـــي هيمنة الراسمال المالي) كان بالفعل ساق التجمعات المونوبولية الى الاستيلاء ، بعد السوق الداخلية ، على الاسواق الخارجية . و ، بحكم التوازي الذي تضعـــه الماركسية كمسلّمة بين الاقتصادي والسياسي ، كان اقتسام العالم ــ مستعمرات ،

مناطق نفوذ ـ بين الدول الكبرى قد رافق بالضرورة تقاسم العالم بين التجمعات المونوبولية . تلك هي الامبريالية الخارجة من خاصرة الرأسمالية . لكن المونوبول كان يولّد بشكل لا يخطىء ميلا الى الركود والى «التعفن» ؛ كان يشدد كل تناقضات الرأسمالية . بهذا المعنى كان الانتقال من النظام الرأسمالي الطفيلي ، المنازع ، المتعفن ، نحو نظام اقتصادي واجتماعي اعلى ؛ كان «المرحلة العليا للرأسمالية» و«عشية الثورة الاشتراكية» .

حرب ١٩١٤ كانت من الجهتين حربا «امبريالية» ، اي «حرب استيلاء ونهب ولصوصية ، حربا من اجل تقاسم العالم ، توزع واعادة توزع المستعمرات ، مناطق النفوذ ، الرأسمال المالي ، الخ» . اذاً فاشترا ـ شوفينية الاممية الثانية ، «وهي اشتراكية بالاقوال ، شوفينية بالفعل» ، لم تكن سوى خيانة «برجوازية» حقيرة . ورسالة الاحزاب طلائع الطبقة العاملة والثورة البروليتارية ، كالحزب البولشفي، هي تحويل هذه الحرب الامبريالية للامم الى حرب اهلية على غرار كومونة باريس. هذا سيكون عمل الاممية المطهّرة ، الاممية الثالثة «الشيوعية» القادمة («شيوعية»: كلمة ـ سيدةمنسية ، ولينين يبعثها ، في الماركسية الحقة الاصلية) .

نعلم ذلك : ما كان لينين يكتبه في الاشهر الاولى من الحرب ، قد عمله فيما بعد . مهما كان مهما الدور الذي لعبه الزعماء البولشفيك الآخرون ، فان احدا لم يشكك يوما في ان القسط الاولي ، الحاسم ، في انتصار البولشفية النهائي في روسيا يعود للينين .

في ١٦ نيسان ١٩١٧ ، بعد مدة طويلة في المنفى ، لينين يعود الى روسيا ، من سويسرة ، عن طريق المانيا الراضية . على الفور ، بـ **اطروحاته النيسانية** الشهيرة ، يملي الدرب الواجب اتباعه . دربا ثوريا لدرجة ان القسم الكبير من الحزب البولشفي يصاب بالهلع . لينين «اكثر يسارا من اليسار» . «هذا هذيان». لينين يقدّر ان الثورة الديمقراطية ـ البرلمانية او البرجوازية (ثورة الحكومة الموقتة ، ثورة ميليوكوف ، كيرنسكي) قد تمت ، ويجب ان تتحوّل مباشرة الى ثورة اشتراكية ، بروليتارية . والحال كان بالكاد مضى شهر على اسقاط القيصرية .

لينين يصمد ، بطريقته الساخرة . يكتب في **البرافدا** : «بطبيعة الحال، لأسهل بما لا نهاية ان يصرخ المرء ، ان يشتم ، أن يطلق الصيحات العالية ، من ان يحاول رواية وشرح وتذكير كيف فكر او حاكم ماركس وانجلز ... بصدد كومونة باريس و**نوع الدولة** اللازمة للبروليتاريا» . لينين يؤسس محاججته على واقع ان السلطة الجنينية لكن المتعاظمة **للسوفييتات او مجالس** ، اي اللجان الثورية للنواب العمال والجنود ، «هي من نفس نموذج كومونة باريس ١٨٧١» . جميع الذين يشمئزون من أطروحات نيسان ، يلومهم على كونهم لا يريدون «التفكير بما هي مجالس السوفيات» ، لا يريدون رؤية هذه الحقيقة البديهية الا وهي انه بالقدر الذي فيه توجد مجالس السوفيات ، **بالقدر الذي فيه** هي السلطة ، توجد في روسيا «دولة من **نموذج** كومونة باريس» .

ما كانته كومونة باريس ؛ كيف ماركس وانجلز حاكما عليها ؛ ما هو نوع الدولة

اللازم للبروليتاريا ؛ و ، بشكل اوسع ، ما هو الموقف المذهبي للماركسية الجذرية، اي الثوروية ، اي «الحقة الاصيلة» ، ازاء المعضلة الاساسية ، معضلة الدولة ، ـ لينين ، بعد شهور قليلة من أطروحاته لشهر نيسان ، كان «يرويه ، يشرحه ، يذكر به» في **الدولة والثورة** .

***

لينين كان قد جمع ودوّن في دفتر غلافه أزرق ، معروف تحت اسم «الماركسية والدولة» ، كل ما كان ماركس وانجلز قد كتباه عن الدولة . ذاك كان توثيق مؤلفه ، المؤلف في آب ـ ايلول ١٩١٧ ، ابان انزوائه القسري في فنلندة . المؤلف كان شديد الحرص على وثائق الدفتر الازرق كما وعلى مخطوطة المؤلف عينه . كان قد اتخذ اجراءات لكي ، اذا ما اوقفته حكومة كيرنسكي ، يستطيع الحزب الدخول في حيازة هذه الاوراق الثمينة . بعد بعثه المذهب المنسي او المشوّه من قِبل الانتهازية ، مذهب ماركس وانجلز عن الدولة ؛ بعد قوله بشكل خاص واقعه لكاوتسكي ، «الصانع الرئيسي لهذه التشويهات» ، لهذا «الإذلال للماركسية» ـ كان للكتاب ، في فصل سابع واخير ، ان يدرس التعاليم التي يجب استخلاصها من تجربة الثورتين الروسيتين لعام ١٩٠٥ وخصوصا لشباط ١٩١٧ . كان مخطط هذا الفصل الاخير جاهزا ، ولكن الازمة السياسية الحاسمة التي أدت الى ثورة اوكتوبر ١٩١٧ لم تترك للينين وقت كتابة سطر واحد منه . لينين قال بنفسه انه لا يسع المرء ان يَسَرّ بـ «مانع» من هذا النوع ، وانه «لأعذب وأنفع ان يقوم المرء بتجربة ثورة من ان يكتب عن الموضوع» .

في مقدمة الطبعة الاولى ، تاريخ آب ١٩١٧ ، يشرح المؤلف كيف الحرب الامبريالية تزيد «وحشية على الدوام الاضطهاد الوحشي لجماهير الشغيلة من قبل الدولة ، التي تتطابق في الهوية اكثر فاكثر مع المجموعات الراسمالية الكلية ـ القدرة» ؛ كيف ، من جراء ذلك ، تصعد بشكل جلي الثورة البروليتارية الدولية ؛ وكيف مسألة موقفها حيال الدولة ترتدي بآن دلالة سياسية عملية وطابع راهنية ملتهبة : «اذ ان القضية ، بالمناسبة ، هي ان نشرح للجماهير ماذا عليها ان تفعل في مستقبل قريب كي تتحرر من نير الراسمال» .

لنقرأ من جديد ، عن مسألة الدولة هذه ، **البيان الشيوعي** . انه لا يقدم سوى رسم تخطيطي نحيل الى حد كاف . الدولة ، السلطة السياسية ، يؤكد لنا فيه، ما هي الا السلطة المنظمة لطبقة بغية اضطهاد طبقة اخرى . هذه الطبقة المضطهدة والمستغلة هي حاليا البرجوازية . لكن البروليتاريا ستقلب البرجوازية بالعنف ، ـ هذا سيكون حركة اكثرية جبارة ضد أقلية لصالح الاكثرية الجبارة ؛ البروليتاريا ستتكون في طبقة مهيمنة ، ستستولي على الديمقراطية . لها الدولة . السلطة السياسية ، هي . ستستفيد منها كي تحذف «بشكل استبدادي» شروط الانتاج

القديمة . لكن حذف هذه الاخيرة هو في الوقت نفسه حذف شروط وجود تنافي الطبقات المؤسس على التملك الخاص لوسائل الانتاج ؛ هو حذف الطبقات ، اذاً البروليتاريا نفسها ، بوصفها الحامل الاخير للسلطة السياسية ، بوصفها دولة . اذاً **فدكتاتورية البروليتاريا** (حسب التعبير الذي لن يستخدمه ماركس الا في عام ١٨٥٢) يجب ان لا تكون هي نفسها سوى مرحلة ، **انتقال** نحو هذا الهدف الاخير: المجتمع بلا طبقات ولا دولة . في نهاية السيرورة الجدلية ، الدولة البرجوازية القديمة التي صارت انتقاليا بروليتارية ستكون قد اختفت ليحل محلها **تشارك** «فيه التطور الحر لكل واحد هو شرط التطور الحر للجميع» .

لكن ماركس وانجلز لم يبقيا ، على مسألة الدولة ، عند **البيان** . كانا قد عمقا هذه المسألة عيانيا في مؤلفاتهما اللاحقة . على أحداث زمنهما ، – ثورة ١٨٤٨ وانقلاب ديسمبر – كانون الاول ١٨٥١ ؛ كومونة باريس ؛ تكوّن الاممية الثانية مع الفرع الالماني القوي ، – كانا قد طبقا التحليل الماركسي ، الذي هو «مرشد للعمل» اكثر منه عقيدة – دوغما . الى هذه الاعمال اللاحقة لماركس وانجلز يستند لينين . يغرف منها ، في كل خطوة من عرضه ذاته ، شواهد نصية مسهبة تثقله كثيراً . لكن هذه الشواهد تبدو له ضرورية بشكل مطلق لتمكين القارىء من تقدير اتساع النسيانات والتزويرات المقترفة من قِبل الانتهازيين .

> كل المقاطع الحاسمة ، يكتب لينين ، في أعمال ماركس وانجلز عن الدولة ، يجب ان تنقل بشكلٍ مطلق على أتم نحو ممكن ، لكي يستطيع القارىء بنفسه ان يكوّن فكرة عن مجموع تصورات مؤسسَي الاشتراكية العلمية ، عن تطور هذه التصورات ، وأيضا لكي يكون تشويهها من قبل الكاوتسكية التي تسيطر اليوم مبرهَنا بوثائق ، موضوعا في جلاء .

الحقيقة ، لكي يستخلص من هذه المقاطع المبعثرة عند ماركس وانجلز (بالتضافر مع **البيان** ، القاعدة الاساسية) جسم مذهبي مترابط ، قادر على ان يخدم كدليل ناجع للعمل الثوري المباشر ، كان ثمة حاجة الى قوة ذهن بصفاء وبصيرة ذهن لينين .

لنرَه ، هذا الجسم المذهب ، يتخذ بالتدريج شكلا في **الدولة والثورة**، المؤلف القتالي ، الثقيل ، المثقّل بتفسير النصوص .



ما الدولة ، جهاز الدولة ، آلة الدولة ؟

الدولة لم توجد «في كل زمن ، من البداية» (انجلز) ، وهي ليست فوق وخارج

المجتمع كحكَمٍ غير متحيز . انها مشتقة من المجتمع ، انها نتاج له في مرحلة معينة من تطوره الاقتصادي ، يوازيها الانقسام الى طبقات متميزة ، «متعادية عداء لا صلح فيه» . المجتمع البدائي او البطريكي ، مجتمع الـ gens ، مجتمع القبيلة او العشيرة clan ، غير المنقسم الى طبقات ، كان يجهل الدولة . الدولة ، حسب انجلز ، هي بمثابة «الاعتراف» بأن المجتمع قد تشربَك في تناقض لا يُحل مع نفسه ، بأنه انقسم في تناحرات لا تقهر وهو عاجز عن التخلص منها . ينبغي فعلا ، حتى لا تلتهم الطبقات بعضها بعضا ولا تلتهم المجتمع في صراع عقيم ، ان توقفها قوة وان تبقيها في حدود النظام . الدولة هي هذه القوة ، المشتقة — يقول انجلز — من المجتمع ، «ولكن المبتعدة عنه اكثر فأكثر» . لئن كانت تعدّل نزاع الطبقات ، فبتشريعها وتوطيدها سيطرة طبقة على الطبقات الاخرى . انها التنظيم **الخاص** للقوة ، للعنف ، من اجل قمع الطبقات المسيطَر عليها والمستغَلة . النظام الذي تخلقه قوامه من جهة في ان تنزع من هذه الطبقات الوسائل التي قد تمكنها من قلب مضطهِديها ، ومن جهة اخرى في ان تدّخر للمضطهدين وسائل فرض وإبقاء ارادتهم الطبقية . هذا التراكم يؤلف **جهاز سلطة الدولة او آلة الدولة** ، «اداة السيطرة الطبقية» . نرى اذاً ، يستطيع لينين أن يقول ، الى اي درجة خطأ وبرجوازي — صغير ومنشفي الزعم بأن الدولة توفق الطبقات . بالعكس انها لا تظهر الا من جراء عدم قابلية التنافيات الاجتماعية للتوفيق والمصالحة .

بالضبط ما قوام هذا الجهاز او آلة الدولة هذه ، الاداة **الخاصة** لقمع طبقة او عدة طبقات من قِبل طبقة اخرى ، و ، ما هو اكثر ، لقمع الاكثرية من قبل الاقلية؟

جيش دائم ، بيروقراطية ، مع توابعهما المادية المتنوعة (سجون ومؤسسات قمعية من جميع الانواع) ، هما الدولابان المركزيان لجهاز الدولة .

الجيش الدائم والشرطة يتألفان من مفارز **خاصة** من رجال مسلحين . **خاصة**، بمعارضة التنظيم **العام** والتلقائي للسكان في قوة مسلحة ، التنظيم الذي كان ممكنا قبل انقسام المجتمع الى طبقات ، ولكنه اصبح مستحيلا منذ ذلك الانقسام (لان التسلح التلقائي سيؤدي الى صراع مسلح بين الطبقات المتعادية) .

بيروقراطية ، اي مجموع الموظفين المقطوعين عن الجماهير ، الموضوعين فوق المجتمع الذي هم اعضاؤه ، المتمتعين بوضعية ممتازة ، الذين تحميهم قوانين **خاصة** . اذ ان الاحترام الحر ، الطوعي ، الذي ، اذا صدّقنا انجلز ، كان يحاط به اعضاء مجتمع الـ gens — العشيرة «لا يكفيهم حتى لو كان بامكانهم الحصول عليه» . الامر الذي يعلق لينين عليه هكذا : «اتعس رجل شرطة له من السلطة اكثر مما لممثلي العشيرة ؛ لكن حتى رئيس السلطة العسكرية لدولة متمدنة يستطيع ان يحسد رئيس العشيرة الذي كان المجتمع البطريكي يحيطه باحترام طوعي وليس مفروض بالعصا». لنضف انه ، من اجل اعالة هذه السلطة العامة **الخاصة** الموضوعة فوق المجتمع والتي تسمى الدولة ، يلزم ضرائب ودَين عام . الموظفون ، بجباية الضرائب ، يحوزون وسائل اعالة السلطة العامة وبالتالي السلطة العامة نفسها .

ماركس ، في ١٨ برومير لوي بونابارت ، تكلم ، بصدد فرنسا ١٨٥١ عن

هذه السلطة التنفيذية ، مع تنظيمها البروقراطي والعسكري الجبار، مع آلتها الدولتية ، المعقدة والمصطنعة ، مع هذا الجيش من الموظفين الذي يعد نصف مليون رجل ، الى جانب جيش يعد هو ايضا نصف مليون من الرجال ، هذه العضوية الطفيلية المخيفة التي تغلف كما بشبكة جسم المجتمع الفرنسي وتسد كل مساماته .

لينين يلح ، بعد ماركس وانجلز ، على هذا وهو ان آلة الدولة هي آلة اضطهاد طبقة من قبل طبقة اخرى (عمليا البروليتاريا من قبل البرجوازية) ، **في الجمهورية الديمقراطية وفي الونارشية سواء بسواء** . اذ «في جمهورية ديمقراطية ، الدولة تبقى هي الدولة ، اي تحتفظ بطابعها المميز الرئيسي : تحويل الموظفين ، هؤلاء الخادمين للمجتمع ، اعضائه ، الى **أسياد** لهذا الاخير» . هذا لا يعني ــ لنأخذ حذرنا ــ ان شكل الاضطهاد يجب ان يكون لا فرق فيه بالنسبة للبروليتاريا ، «كما يعلّم بعض الفوضويين» . بالفعل هناك فكرة اساسية تسم كما بخط أحمر ، حسب لينين ، كل مؤلفات ماركس : هي ان **«الجمهورية الديمقراطية هي اقصر طريق الى دكتاتورية البروليتاريا»** . فالجمهورية الديمقراطية تمثل شكلا «أرحب ، اكثر حرية ، أصرح ، للصراع الطبقي والاضطهاد الطبقي» ؛ تعطي السيرورة التاريخية اندفاعا بحيث ان امكان تلبية المصالح الجوهرية للجماهير المضطهَدة تظهر اخيرا ، هذا الامكان ، كما هو معلوم ، «يتحقق حتما وفقط في دكتاتورية البروليتاريا ، في قيادة هذه الجماهير من قِبل البروليتاريا». و ، من وجهة نظر الثورة البروليتارية هذه عينها ، ان افضل شكل للجمهورية الديمقراطية هو الشكل **الممركز** ، الواحد والذي لا ينقسم : «جمهورية وحدوية ديمقراطية ممركزة» . مركزية ديمقراطية ، يلحظ لينين بحسب انجلز ، يجب ان لا تفهَم بالمعنى البروقراطي ، لانها «لا تستبعد البتة استقلالا اداريا محليا واسعا».

***

ما هي ، في وجه آلة الدولة المعرّفة هكذا ، مهام البروليتاريا ؟

البروليتاريا يجب ان تبدأ بالاستيلاء على هذه الآلة ، بواسطة الثورة العنيفة «التي لا مفر منها» . العنف ، قال ماركس ويكرر انجلز (*) ، العنف هو «مولدة كل مجتمع قديم حامل مجتمع جديد ، الاداة التي بمساعدتها الحركة الاجتماعية تصنع لنفسها مكانا وتحطم الاشكال السياسية الميتة والمجمّدة» . لينين يلح :

ان وجوب تربية الجماهير بشكل منهجي في هذه **الفكرة** ...

(*) رغم سوريل ، لينين لا يميز **العنف والقوة** اكثر مما فعل ماركس وانجلز من قبله .

فكرة الثورة العنيفة هو في قاعدة كل مذهب ماركس وانجلز . ان خيانة مذهبهما من قبل الاتجاهات الاشتراكية ـ الشوفينية والكاوتسكية ، المسيطرة اليوم ، تتمثل ببروز فريد في نسيان هذه الدعاوة ...

التربية المنهجية ، التي يدعو اليها لينين ، قوامها قبل كل شيء تشكيل حزب عمالي ، طليعة البروليتاريا ، «قادر على اخذ السلطة **وقيادة الشعب باسره** الى الاشتراكية ، على قيادة وتنظيم نظام جديد ، قادر على ان يكون مربي ومرشد وزعيم كل الشغيلة والمستغلين في سبيل تنظيم حياتهم الاجتماعية ، بدون البرجوازية وضد البرجوازية» . ها نحن بعيدون عن الانتهازية حيث نرى يربى في الحزب العمالي

ممثلو الشغيلة الذين يتقاضون افضل الاجور ، الذين ينفصلون عن الجمهور ، يقتطعون موقعا مناسبا في النظام الراسمالي ويبيعون لقاء طبق عدس حقهم ، حق البكرية ، اي يتخلون عن دورهم كزعماء ثوريين للشعب في النضال ضد البرجوازية .

البروليتاريا ، وقد استولت على آلة الدولة ، تتحول الى طبقة مهيمنة ؛ تقيم **دكتاتوريتها** ، اي سلطة لا تشاطرها مع احد . الدولة ، هذه القوة **الخاصة** للقمع، هذا التنظيم **الخاص** للعنف ، تصير بروليتارية ، بدلا من ان تكون برجوازية . قمع ملايين الشغيلة من قبل حفنة من الاغنياء يعقبه قمع البروليتاريا لهذه الحفنة من الاغنياء ، الذين مقاومتهم «الحتمية ، اليائسة» ، يجب ان تسحق بلا غفران . جيد لسذاجة الانتهازيين والديمقراطيين البرجوازيين ـ الصغار الزائفة ، حلم «خضوع الاقلية السلمي للاكثرية الواعية مهامها» ! نفس الدكتاتورية ستسمح للبروليتاريا بتحويل كل وسائل الانتاج الى ملكية للدولة ، وبتنظيم كل الجماهير الكادحة والمستثمَرة بغية النظام الاقتصادي الجديد .
ضد اليوتوبيا الفوضوية ، التي تدّعي الاستغناء ، من اجل الثورة ، عن الدولة ، تجسيد السلطة والارغام ، التي تدّعي الغاء الدولة على الفور ، «بين عشية وضحاها» ، لينين يذكّر بتعليم ماركس وخصوصا انجلز .

البروليتاريا ، يقول لينين ، لا تحتاج الى الدولة الا لمدة من الزمن . لسنا بتاتا على خلاف مع الفوضويين فيما يتصل بالغاء الدولة ، **كهدف** . نؤكد انه لبلوغ هذا الهدف من الضروري استخدام ادوات ... سلطة الدولة **موقتا** ضد المستثمِرين ، كما انه لالغاء الطبقات لا غنى عن الدكتاتورية **الموقتة** للطبقة المضطهَدة.

لينين يستشهد مطولا بانجلز الذي يلقي الهزء على اختلاط افكار «الآنتي سلطويين anti - autoritaires الذين كانهم البرودونيون ، الذين يكونهم الفوضويون : فهم نافون لكل سلطة ، لكل تبعية ، لكل رئاسة . من سيُسيِّر آلة تقنية معقدة بعض الشيء ، مصنعا ، سكة حديد ، سفينة في عرض البحر ، بدون تبعية ما ، بدون سلطة او رئاسة ما ؟ آنتي – سلطة مجانين ، الذين يطلبون حذف الدولة بضربة واحدة ، «قبل حذف الشروط الاجتماعية التي خلقت الدولة» ! انجلز يهز كتفيه تهكما :

> هل راوا ذات يوم ثورة ، هؤلاء السادة ؟ ان ثورة لهي بالتأكيد الشيء الاكثر سلطية في الوجود ، فعلٌ به قسم من السكان يفرض على القسم الآخر ارادته بضربات البنادق والحراب والمدافع ، وهي وسائل سلطية تسلطية اذا كان ثمة وسائل بهذا الاسم . الحزب الذي انتصر مضطر الى ابقاء سيطرته بالخوف الذي توحي بــه اسلحته للرجعيين ... . هكذا فمن شيئين واحد : إما الآنتي – سلطة لا يعلمون هم انفسهم ما يقولون ، وفي هذه الحال هم لا يخلقون سوى البلبلة . او يعلمونه ، وفي هذه الحال هم يخدمون الرجعية فقط .

لكن سؤالا رئيسيا ينطرح ، كان قد أفلت في ١٨٤٨ من مؤلفَي **البيان** . هل تنظيم دكتاتورية البروليتاريا ، اي العنف السلطوي ، بغية قمع مقاومــة المستثمِرين وارشاد الجماهير في تهيئة الاقتصاد الاشتراكي ، هدفا مزدوجا ، – هل تنظيم كهذا يمكن ان يَخلق **بدون ان تدمَّر اولا وتباد آلة الدولة التــي كانت البرجوازية قد خلقتها لنفسها** ؟ لينين يجيب بشكل قاطع : كلا .

عندئذ سؤال جديد ، توام السابق : **ماذا نحل محلها** ، هذه الآلة الدولتيــة البرجوازية ؟

***

حطم الآلة القديمة اولا ... . لئن كان **البيان** صامتا حول هذا الموضوع ، فان ماركس ، منذ ١٨٥٢ ، **في ١٨ برومير** ، كان قد اتخذ موقفا . كان يلاحظ ان تطور ، تحسن ، توطد الجهاز البيروقراطي والعسكري قد تَواصَلن عبر كل الثورات البرجوازية التي عرفتها اوروبا منذ سقوط الاقطاعية . كان يقدِّر ، مثل توكفيل ، ان التمركز الفرنسي ابن المونارشية المطلقة ، وأن الثورة ، ثم نابوليون ، انميا واكملا آلة الدولة الممركزة . كان يكتب : «كل الانقلابات والتحولات الكبيرة انما فقــط جعلت هذه الدولة اكمل بدلا من ان تحطمها» . جملة يشدد عليها لينين ، يعلــق عليها باعجاب وقوة .

في هذه اللمحة المرموقة ، تخطو الماركسية خطوة كبيرة الى الامام بالنسبة الى **البيان الشيوعي** . هناك ، مسألة الدولة ما زالت مطروحة بشكل مجرد جدا ، في مفاهيمها وحدودها الاكثر عمومية. هنا ، المسألة مطروحة على نحو عياني والاستنتاج واضح محدد تماما ، ملموس عمليا : كل الثورات السابقة قد حسنت آلة الدولة ؛ والحال ينبغي حطمها ، تحطيمها . هذا الاستنتاج هو الشيء الرئيسي ، الجوهري ، في المذهب الماركسي عن الدولة . وبالضبط هذا الشيء الجوهري هو الذي اصابه ليس فقط **النسيان** التام على يد الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية الرسمية المهيمنة بل **التشويه** الصريح ... على يد أبرز منظّري الاممية الثانية ، ك. كاوتسكي .

لكن كان يلزم ، من اجل حسم المسألة نهائيا ، التجربة العينية لاحدى الحركات الجماهيرية الاكثر جدارة بالاهتمام ، من وجهة نظر الماركسية ، في التاريخ الاجتماعي : كومونة باريس ١٨٧١ . لاول مرة مسكت البروليتاريا عندئذ «في ايديها مدة شهرين السلطة السياسية» . الكومونة ، ـ يكتب ماركس وانجلز في مقدمة ١٨٧٢ لطبعة المانية جديدة **للبيان** ، ـ «الكومونة برهنت ان الطبقة العاملة لا تستطيع بشكل بسيط ان تستولي على آلة الدولة **الجاهزة** وأن تضعها في سير لتجعلها تخدم غاياتها هي الخاصة» . هنا احدى النقاط ، بين نقاط اخرى ، التي يجب فيها تجاوز **البيان** . وهنا ، يصرخ لينين (الذي يعطي هذه الجملة دلالة «عملاقة» تتخطى ، على ما يبدو ، نوايا مؤلفَيها) ، هنا مع ذلك تجرأ سوء قصد المزوّرين الانتهازيين واتخذ مجالا حرا . حسب هؤلاء ، «يكون ماركس قد شدد في هذا المقطع على فكرة التطور البطيء بمعارضة اخذ السلطة» . سهل جدا ان ينسوا رسالة ماركس الوضاءة الى كوجلمان في ١٢ نيسان ١٨٧١ ، بالضبط اثناء الكومونة :

> اذا اعدتَ قراءة الفصل الاخير من كتابي **١٨ برومير** ، رأيتني فيه اؤكد ان الثورة في فرنسا يجب قبل كل شيء ان تسعى لا الى نقل الآلة البروقراطية والعسكرية الى أيد اخرى ، ـ هذا ما حدث حتى الان ، ـ بل الى حطمها (مشددة من قِبل ماركس ؛ في الاصل الالماني **Zerbrechen** ، تحطيم) . هنا على وجه التحديد الشرط الاولي لكل ثورة **شعبية** حقا ... . هذا ايضا ما يسعى اليه رفاقنا الحزبيون الابطال في باريس .

أهذا تطورية ، ايها الرسل الكاوتسكيون الطيبون ؟ وهذه الكلمة «شعبية» الا

تجعلكم ترتجفون ، ايها المنشفيك الروس الذين «شوّهتم الماركسية الى مذهب ليبرالي بهذا الشكل المسكين» ؟ (١) . ماركس ، باستخدامه هذه الكلمة ، قد سوّغ سلفا أطروحات نيسان ١٩١٧ للينين ؛ لقد لاحظ ان «تحطيم آلة الدولة تمليه مصالح العمال والفلاحين ويوحّدهم ، يطرح أمامهم مهمة مشتركة ، هي حذف هذا **الطفيلي** واستبداله بشيء جديد» .

«بماذا تحديدا ؟» .

الحق ! ما كان من الممكن معرفة بماذا في ١٨٤٨ ، في حقبة **البيان** ، وما كان واردا الاختراع (الماركسي الحق لا يخترع شيئا ، وليس ثمة شيء للاختراع) : لذا كان **البيان** يقتصر على الكلام بشكل مجرد عن تنظيم البروليتاريا في طبقة مسيطِرة ، عن «فتح الديمقراطية» . في ١٨٥٢ ، لم يكن معلوما كذلك بماذا ، ولم يكن واردا الاختراع . «بدون الانزلاق في اليوتوبيا ، كان ماركس ينتظر من تجربة حركة جماهيرية الجواب ...» . الكومونة هي التجربة المنتظَرة : مفيدة معلّمة بعمق ، مهما كانت مقتضبة . لاول مرة حققت

الانعطاف من الديمقراطية البرجوازية الى الديمقراطية البروليتارية، من ديمقراطية المضطهِدين الى ديمقراطية الطبقات المضطهَدة ، من الدولة كـ **قوة خاصة** مكرسة لاضطهاد طبقة معينة الى قمع المضطهِدين بـ**القوة العامة** لاكثرية الشعب ، للعمال والفلاحين .

حذف الجيش الدائم والاستعاضة عنه بالشعب المسلح . حذف البيروقراطية بانتخاب جميع الموظفين بلا استثناء ، بما فيهم القضاة (هؤلاء يفقدون استقلالهم «الظاهر») بالاقتراع العام ، وبامكان عزلهم في اية لحظة . تخفيض جميع المرتبات، من اعضاء الكومونة حتى اسفل السلّم ، الى الاجر الطبيعي لعامل . زوال «جميع امتيازات ونفقات تمثيل اصحاب مقامات الدولة ... مع هؤلاء انفسهم» . انزال الشرطة الى مرتبة الادارات الاخرى (اي انها «تجرّد مباشرة من صلاحياتها السياسية» وتصبح «الاداة المسؤولة والقابلة للعزل في اية لحظة ، للكومونة») . حذف البرلمانية ، لكن لا المؤسسات التمثيلية : «الكومونة كان مفروضا ان تكون جمعية لا برلمانية ، بل **فاعلة**، تحوز بآن معا السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية».

---

١ ـ لعله من المفيد ان نذكّر ، وفقا لسياق عمل لينين ، بما يلي :

«الشعب» مفهوم بولشفي لينيني ـ يؤكدونه من البداية ـ ، انه حلف العمال والفلاحين ، الثورة الديمقراطية ، جبهة العمال والفلاحين والبرجوازية الصغيرة المدينية والخ (واستثنائيا البرجوازية الليبرالية ، في اطوار ، في معارك محددة) . المنشفية تنفيه ، كمتمد «الطبقة العاملة» ، «الطبقات»، كأنها ـ فلسفيا ـ تعتبر الطبقة والطبقات كائنات ، والشعب كلمة .

تلك هي السمات الرئيسية التي يكشفها ، حسب ماركس في **الحرب الاهلية في فرنسا** ، تحليل هذه التجربة العيانية المرموقة لعام ١٨٧١ .

من جميع هذه النواحي ، الكومونة لم تكن ، لم تعد ، حسب تعبير لانجلز ، «الدولة بالمعنى الحقيقي» . او بمفردات ادق ، مأخوذة ايضا عن انجلز ، كانت دولة هي سلفا بداية **تلاش** للدولة .

تلاش : لينين يضع التشديد ، بقوته في البرهان والتكرار غير المبالية بأي فن ادبي ، على هذه الفكرة . انها عنده النظير الضروري لدكتاتورية البروليتاريا الانتقالية . لينين يؤول بلا كلل ، على نحو خلاّق اكثر منه حرَفي ، صفحة ال **آنتي دوهرنغ** الشهيرة التي فيها يبيّن انجلز كيف ـ بعد اخذ حيازة وسائل الانتاج من قِبل البروليتاريا باسم المجتمع ـ تدخل سلطة الدولة «يغدو نافلا في ميدان تلو الآخر» ، لعدم وجود تناحر طبقي ، لعدم وجود طبقة لتضطهد وتقمع؛ وكيف هذا التدخل «يضمحل تلقائيا» : «حكومة الاشخاص تحل محلها ادارة الاشياء وقيادة سيرورة اعادة الانتاج . الدولة لا **تلغى** . انها **تتلاشى** .» . هنا يجدر بنا ، على حد تنبيه لينين ، ان نميز جيدا ما خلطه بشكل فظ الانتهازيون من كل لون ، الا وهو مرحلة **استبدال الدولة البرجوازية بالدولة البروليتارية** ، «المستحيل بدون ثورة عنيفة» ، **ومرحلة حذف الدولة البروليتارية** ، «أي حذف كل دولة ، وهو غير ممكن الا بطريق التلاشي» .

على هذا ، لينين ، مستندا باستمرار الى ماركس وانجلز ، ولكن مكملا اياهما او متجاوزا اياهما ، يأخذ على عاتقه تبيان كيف يجب ان تتواصل سيرورة تلاشي او اضمحلال الدولة ، السيرورة السياسية التي في درجة ما منها يمكن ان تسمى الدولة المتلاشية دولة «غير سياسية» . لينين يحرص على تسليط الضوء على الترابط او التوازي الوثيق الذي سيوجد بين التطور الاقتصادي للشيوعية والتلاشي التدريجي للدولة . **الركائز الاقتصادية لتلاشي الدولة** ، ذلك عنوان الفصل الخامس ، المشهور بالتمييز الذي نجده فيه بين المرحلة الاولى او المرحلة **الدنيا** للمجتمع الشيوعي ، والمرحلة الثانية او المرحلة **العليا** لهذا المجتمع .

المرحلة الاولى او المرحلة الدنيا هي التي اثناءها المجتمع الشيوعي ، وقد خرج لتوّه من خاصرة الراسمالية «بعد ولادة طويلة ومؤلمة» ، ما زال يحمل في جميع الميادين ، الاقتصادي والاخلاقي والفكري ، «بصمات المجتمع القديم» (ماركس) . خلال هذه المرحلة الاولى ، عند هذه الدرجة الاولى ، الشيوعية التي هي ، طبقا للجدل ، **«شيء ما ينبسط من الراسمالية»** ، لا يمكن بعد ان تكون محررة تماما من تقاليد وبقايا الراسمالية المذكورة . بقول آخر ، لا يمكن ان تكون ناضجة تماما من وجهة النظر الاقتصادية . لا ريب وسائل الانتاج هي الان ملك للمجتمع بأسره ، فقد نزعت ملكية جميع الراسماليين وحوّل جميع المواطنين الى شغيلة ومستخدمين لكارتيل كبير وحيد ، هو الدولة بأسرها ، «دولة العمال المسلحين» . لقد انتهى بذلك عينه امر هذا الاجحاف البرجوازي الذي هو التملك الخاص لوسائل الانتاج . لكن إجحافا آخر ، جوهره ليس أقل برجوازية ، باق : الاجحاف

الذي قوامه توزيع موضوعات الاستهلاك **حسب الشغل المبذول** («لكمية متساوية من الشغل ، كمية متساوية من المنتجات») وليس **حسب الحاجات** .

إجحاف ، لان البشر ليسوا متساوين : هذا اقوى وذاك أضعف ، هذا متزوج وذلك لا ، هذا عنده اولاد اكثر من الآخر ، الخ . اذن هذا تساعده القاعدة الآنفة اكثر مما تساعد الآخر . عدا ذلك ، كل حقوق انما «تفترض مسبقا اللامساواة»، لان كل حقوق ، كل حق ، قوامه في تطبيق قاعدة واحدة على أفراد مختلفين . لذا فالحق في المنتوج يجب ان يكون ، على حد قول ماركس ، «لا متساويا ، بل غير متساو» . لكن هذا مستحيل خلال المرحلة الاولى (اذاً الدنيا) من الشيوعية : «الحقوق لا يمكن ان تكون ابدا اعلى من النظام الاقتصادي ومن درجة المدنية الموازية » .

من هنا ينجم ، اولا ، ان الحق البرجوازي ، ان الدولة البرجوازية ، بلا برجوازية ، بتعبير آخر جهاز القَسر ــ ولكن المدَمقرط ، المبسّط ، الذي بدأ يتلاشى ــ تبقى خلال وقت ما . لا يمكن اذاً ، طوال هذا الوقت كله ، الكلام عن الحرية : فتزويج كلمتَي «حرية» و«دولة» حماقة بالتمام . «طالما البروليتاريا بحاجة الى الدولة ، ــ كان يكتب انجلز الى ببل Bebel ، ــ فليس من اجل الحرية ، بل من اجل قمع خصومها ؛ ويوم نستطيع الكلام عن الحرية لن يكون هناك دولة » .

من هنا ينجم ، ثانيا ، انه ، طيلة هذه المرحلة الاولى كلها ، سيكون من الواجب ممارسة رقابة في غاية الدقة والصرامة على الانتاج والتوزيع ، على قياس الشغل وقياس الاستهلاك . رقابة تسير جنبا الى جنب مع احصاء دقيق للشغل والمنتجات .

احصاء ورقابة ، هوذا الامر الجوهري لتنظيم المجتمع الشيوعي ولسيره النظامي في مرحلته الاولى . هنا كل المواطنين يتحولون الى مستخدمين مأجورين للدولة، المكوّنةمن قِبل العمال المسلحين. . . . كل القضية هي الحصول على ان يعملوا بنفس المقياس ، ان يراعوا نفس مقياس العمل ، وأن ينالوا بنفس المقياس . الاحصاء والرقابة في كل هذه الميادين بسّطا الى الحد الاقصى من قبل الراسمالية التي حولتهما الى ابسط عمليات المراقبة والتسجيل ، الى اعطاء ايصالات موازية ، وهي أمور في متناول اي شخص يعرف القراءة والكتابة ويعرف عمليات الحساب الاربع . حين غالبية الشعب ستقوم بنفسها وفي كل مكان بهذا الاحصاء وهذه الرقابة على الراسماليين (المحوَّلين عندئذ الى مستخدمين) وعلى السادة المثقفين الذين يكونون بعد محتفظين بعادات راسمالية ، ستغدو هذه الرقابة حقا كلية ، عامة ، قومية ، ولن يستطيع احد التملص

منها . كل المجتمع لن يكون بعد ذلك سوى مكتب كبير ومشغل كبير مع مساواة شغل ومساواة أجر .

لينين ، معجبا بعد ماركس بكومونة باريس على كونها مثّلت الموظفين ب «عمال ومراقبي ومحاسبي» منشأة خاصة ، ومتذكرا كلمة لطيفة عن البريد ، «موديل مؤسسة اشتراكية» ، كان قد كتب في فصل سابق :

كل الاقتصاد القومي منظّما كالبريد ، الفنيون ، المراقبون ، المحاسبون ، **كل** الموظفين يتقاضون مرتبا لا يتخطى أجر عامل ، تحت رقابة وقيادة البروليتاريا المسلحة : ذاك هو هدفنا المباشر . هي ذي الدولة ، هي ذي القاعدة الاقتصادية للدولة التي تلزمنا .

اللوحة قليلة السحر ، في الحاصل . ولكنها ايضا توازي المرحلة «الدنيـــا» وحسب . ولينين نفسه يسارع الى توضيح ان هذا الانضباط ، انضباط مكتب كبير ومشغل كبير ، الذي تمده البروليتاريا الى كل المجتمع ، «ليس البتة مثلنا الاعلى ولا هدفنا الاخير» . ليس الا درجة على سلّم . ولكنه درجة ضروريـــة للتمكين من تخليص المجتمع جذريا «من دناءات وشناعات الاستثمار الرأسمالـــي ولتأمين السير اللاحق الى الامام» . الى الامام نحو جمالات المرحلة «العليا» ! الى الامام نحو تلاشي الدولة المتسارع حتى زوالها التام !

وبالفعل ، ان ممارسة تسيير الدولة ، الاحصاء والرقابة من قِبل كل اعضاء المجتمع او على الاقل من قبل غالبيتهم العظمى ، ستمهد بشكل طبيعي تماما السبل لزوال كل ادارة او مكتب بوجه عام . «كلما كانت الديمقراطية كاملة ، كانت قريبة لحظة صيرها نافلة . كلما كانت ديمقراطية الدولة المكوّنة بالعمال المسلحين والتي لم تعد دولة بالمعنى الحقيقي الخاص للكلمة ، اخذت بسرعة تتلاشى **كل** دولة» . اذ حين يكون التهرب من الاحصاء والرقابة التي يزاولها الشعب بأسره قد صار صعبا الى درجة لا تصدّق ، تغدو المحاولات في هذا الاتجاه نادرة للغاية ، وستعاقَب على نحو عاجل وخطير للغاية («العمال المسلحون ... ليسوا مثقفين صغـــارا عاطفيين ، ولن يسمحوا بأن يُمزَح معهم») ــ بحيث ان ضرورة المحافظة علـــى القواعد البسيطة لكل مجتمع بشري «ستصير بسرعة كبيرة **عادة**» . نعم ، العادة ، التعود ، سيؤديان بالتأكيد الى الطاعة «بلا عنف ، بلا ارغام ، بلا خضوع ، بدون هذا الجهاز **الخاص** للقهر الذي اسمه : الدولة» . الا نلاحـــظ ، يسأل لينين ، حولنا ، بشكل دائم ، كيف يعتاد البشر على مراعاة القواعد التي لا غنى لهم عنها ، قواعد الحياة في مجتمع ، «حين لا يكون ثمة استغلال ، حين لا يكون ثمة شيء يثير الاستنكار ، يسبب الاحتجاج والثورة ، يقتضي القمع» . نرى اذاً كيـــف التشكل التدريجي والاكيد للطاعة العفوية والعادية والتي كأنها منعكسة ، للقواعد الضرورية ، سيسمح بفتح الباب «على مصراعيه» ، الذي منه سيجري العبور من

المرحلة الاولى الى المرحلة العليا والى زوال الدولة الكامل .

هذه المرحلة العليا ، كان ماركس قد رآها كما يلي ، في صفحة من **نقد برنامجي غوتا وإرفورت :**

> حين سيكون قد اختفى خضوع الافراد لتقسيم الشغل ومعه التنافي بين الشغل الذهني والشغل اليدوي ... ، حين مع انبساط الافراد المتعدد ، ستنمو القوى المنتجة وستتدفق كل ينابيع الثروة الجماعية بغزارة ، حينئذ فقط الافق الضيق للحقوق البرجوازية يمكن ان يتخطى تماما والمجتمع يستطيع ان يسجل على راياته : **من كل حسب طاقاته ولكل حسب حاجاته .**

تعليق مالوف للينين : ستأتي لحظة فيها يكون البشر قد اعتادوا جيدا على مراعاة القواعد الاساسية للحياة في مجتمع ، فيها يكون عملهم قد صار منتجا للغاية ، بحيث انهم تلقائيا ، «اراديا» ، سيعملون حسب طاقاتهم . بدلا من ان يحسبوا بجشع ، على طريقة شيلوك . Shylock ، في أفق الحقوق البرجوازية الضيق ، لن يبالوا بأن يعملوا او لا «نصف ـ ساعة بالزائد عن آخر» ؛ اذ ان كل واحد سيغترف بحرية حسب حاجاته في كتلة المنتوجات . وعندئذ الدولة ، كل دولة ، وقد صارت بلا فائدة ، ستزول .

لنحترس من الاعتراض بأن هذا سباحة في عرض اليوتوبيا ومغادرة لكل ارض علمية . فلينين في هذه الحال يوبخنا بشدة . يوحدنا بهؤلاء النقاد البرجوازيين والجهلة ، المدافعين المصلحيين ، الذين يسخرون من الاشتراكيين على وعدهم كل مواطن بحق الحصول من المجتمع بلا اية رقابة على عمله ، «على ما يشاء من الكمأة، من السيارات ، من البيانوات ، الخ» . والحال ، ما من اشتراكي جدي وعد ذات يوم ب «مجيء» المرحلة العليا من الشيوعية . ما من اشتراكي جدي ، اي جدلي بالمعنى الماركسي ، تكلم عن «ادخال» الاشتراكية ، بمعنى المرحلة العليا التي تزول فيها الدولة ، «اذ على نحو عام من المستحيل ادخالها» . ان الجدل المادي للتاريخ، **بإنضاجه** الشيوعية اقتصاديا ، هو الذي سيؤدي الى هذه المرحلة العليا ، المكتوبة في صيرورة المرحلة الدنيا ـ التي هي نفسها محفورة في الصيرورة الرأسمالية . اما الماركسي ـ اللينيني فهو يكتفي بأن يؤكد ، «بيقين مطلق» ، انه سيكون هناك، بعد زوال الرأسمالية المحتوم ، تطور عملاق للقوى المنتجة ، وان هذا التطور سيكون له العواقب التي رأينا لتوّنا . لكن ماذا ستكون سرعة التطور المذكور ، متى سيفضي الى كل سلسلة من العواقب المذكورة ؟

> هذا ، لا نعلمه **ولا نستطيع** ان نعلمه . لذا ليس لنا حق الكلام الا عن تلاشي الدولة الحتمي ، مع التأكيد على دوام هذه السيرورة،

على تبعيتها لسرعة نمو المرحلة العليا من الشيوعية ، مع ترك مسالة مدد هذا التلاشي او اشكاله العيانية معلقة بالتمام . اذ ليس عندنا **مذهب** يمكننا من حسم هذه المسائل .

***

نرى كيف ، بهذا الكراس الذي سيصبح شهيرا ، كانت **الثورة** (الماركسية ـ اللينينية) تلقي **للدولة** اكثر التحديات جذرية ، بإنبائها موتها المحتوم ، خوَرا ، في خاتمة سيرورة تاريخية . نعلم عدا ذلك ان المؤلف ما كاد يكون قد كتب ، بل لم يكن قد انجز (كان ينقص فصل) ، حتى كانت الثورة الفعلية تنفجر ، ثورة اوكتوبر البولشفية ضد كيرنسكي تحت قيادة لينين . وتطور هذه الثورة ، من ١٩١٧ الى ايامنا ، كان سيمنح مراقبي او منظّري الحياة الاجتماعية «تجربة عيانية» اطول واكثر استهواء من جميع السابقات .

والحال ، اذا طبقنا على هذه التجربة الصفاء البارد للتحليل الماركسي الذي اعطانا لينين امثلة كثيرة عنه ، اضطررنا الى ملاحظة ان تعاليم كومونة ١٨٧١ المقتضبة تجد نفسها لا مثبتة بل مخطأة . سرعان ما رات نفسها روسيا الثورية في الضرورة الحيوية لاعادة تكوين «الجهاز العسكري والبيروقراطي» المكروه الملعون الى هذا الحد . ان المذاهب الاكثر طموحا تنتهي دوما الى تنكيس الاعلام امام طبيعة الاشياء ، وان برات ذمتها بعدم الاقرار بهزيمتها وبتمويهها تحت زينات ايديولوجية مبتكرة .

منذ سنة ١٩٢٢ ، كان لينين ـ الذي استهلكته قبل الاوان سلسلة من جهود تفوق طاقة البشر ، والذي سيموت في ٢١-١-١٩٢٤ ، عن ثلاث وخمسين سنة من العمر ـ كان يعرب عن قلقه من «التشوه البيروقراطي» . لكن التطور كان له ان يشتد بصورة لا تقاوَم مع ستالين ؛ خليفة لينين مما كدّر كثيرا تروتسكي ، الملهم ثوريي اوكتوبر . ستالين ، الرجل «الفولاذي» ، وهو اصغر من لينين بتسع سنوات ، استطاع ان يصفي ، استنادا الى سيطرته الكاملة على بيروقراطية الحزب الشيوعي او البولشفي ، جميع الفئات المعارضة في الحزب . النظرية الستالينية عن **الاشتراكية في بلد واحد** ، روسيا ، «مع الفلاحين ، تحت قيادة الطبقة العاملة» ، كنّست النظرية التروتسكية عن **الثورة الدائمة** . حسب تروتسكي ، الثورة البروليتارية لا يمكن ان تنصان في اطار قومي الا وقتيا ، فهي بالجوهر دولية اممية وتستطيع ان تجد خلاصها «فقط في انتصار بروليتاريا البلدان المتقدمة» . من جهة اخرى ، ان كلية قدرة الاداة التي عدا ذلك خلقها لينين ، وهي **الحزب** ، محرك الدولة ، قلّصت اكثر فاكثر المجالس (السوفيات) ـ لجان «الشعب المسلح» الثورية ـ الى ان لا تكون بعد ذلك ، في كل الدرجات ، سوى ديكور كلامي يقنّع ، بشكل سيء ، هذه القدرة الكلية للحزب . جهاز الدولة ، مع

كل آلياته **الخاصة** : جيش دائم ، شرطة سياسية ، سجون ، موظفين يتمتعـون بامتيازات فوق الجمهور ، تعزّز اكثر يوما بعد يوم .

بمرارة وغضب ، تروتسكيّو روسيّا وغيرها (الاممية الرابعة) ، الاشتراكيون والنقابيون الـ فوضويو الميل ، المثقفون المثاليون من اقصى اليسار ، فضحوا هذه «الخيانة» للمثل الاعلى الاول ، وتباروا في هذا الفضح . وكثيرا جدا ما استنجدوا لمساندة استنكارهم بـ **الدولة والثورة** للينين .

في ١٩٣٦ ، في كتابه **الثورة المغدورة** ، يرعد تروتسكي ضد «الوحدة الصخرية البوليسية للحزب ... ، وجود البروقراطية فوق القصاص» ، الموظف الـذي سينتهي الى «التهام الدولة العمالية» . يسأل : اين تلاشي الدولة ، شرط تفتّح المدنية الاشتراكية ؟ الم يكن لينين قد علّم ان درجة «امتصاص وامّحاء» الدولة في المجتمع الاشتراكي هي افضل مؤشر على عمق وفعالية البناء الاشتراكي ؟ اذا كانوا حقا «وضعوا حدا والى الابد لاستثمار الانسان من قبل الانسان» (كما تؤكد بغرور جريدة **البرافدا** بتاريخ ٤ نيسان ١٩٣٦) ، اذا بالتالي كانوا فعلا داخلين في المرحلة الدنيا من الشيوعية ، القائدة الى المرحلة العليا ، فماذا ينتظرون لكي اخيرا يرموا ارضا «ثوب إكراه» الدولة ؟ «بدلا من ذلك ــ وهذا تضاد لا يكاد يتصور ــ تتخذ الدولة السوفياتية وجها بروقراطيا وتوتاليتاريا» . ما الستالينية ، ان لم تكن لونا من البونابارتية ، «الشكل البرجوازي» للقيصروية Césarisme : «لونا ، لكن على ركائز الدولة العمالية التي يمزقها التنافي بين البروقراطيـة السوفياتية المنظمة والمسلحة والجماهير الكادحة المنزوعة السلاح» ؟

في ١٩٣٧ ، التروتسكي فيكتور سرج Victor Serge ، في **مصير ثورة** ، يصف «الدولة ــ السجن» التي حلت حسب رأيه محل «الدولة ــ الكومونـة» العزيزة على لينين . يعتقد ملاحظة ان البناء الاضخم والاكثر هيبة ، في موسكو، كما في لينينغراد ، كما في كل مراكز الاتحاد السوفياتي ، هو دوما بناء الشرطة السياسية او غيبيو Guépéou . مسألة سلامة عامة ، سيقال . فيكتور سرج يستنكر : «في النظرية والعمل ، ليس للدولة ــ السجن شيء مشترك مع تدابير السلامة العامة للدولة ــ الكومونة في طور المعارك ؛ انها نتاج البروقراطيين الظافرين ، المضطرين ، من اجل فرض اغتصابهم ، الى القطيعـة مع المبادىء الجوهرية للاشتراكية» .

بينما اندره جيد André Gide ، «العائد» من الاتحاد السوفياتي ــ بدون افتتانه السابق ــ ، كان يعلن ان كل قواعد اللعبة الاشتراكية تنتهكها روسيـا الستالينية ، عابدة «الزعيم» ، وأنه هو ، جيد ، لم يعد يلعب اللعبة . مقدما في ١٩٣٨ ، لكتاب **الاتحاد السوفياتي كما هو** ، تأليف إيفون Yvon ، وهـو مناضل شيوعي فرنسي خاب أمله بشكل مأساوي («من بعيد ، ذاك يمكن ان يبدو عظيما ، ... من قريب هذا مؤلم تماما»)، اندره جيد يذكر بحنين **الدولة والثورة**، «الكتاب الصغير الذي لم يكمله لينين ... المهم جدا ، الثقيل جدا» . ويحلم على «الجملة الصغيرة» لماركس حول الثورات التي تحسّن آلة الدولة «بدلا من ان

تحطمها» . ويتأوه : لقد مضى عشرون عاما على انتصار الثورة بفضل لينين ، «والآن اين وصل الاتحاد السوفياتي ؟ البروقراطية الادارية ، هذه الآلة المخيفة ، لم تكن في يوم من الايام اقوى ؛ ... الجملة الصغيرة تبقى صحيحة ، وما كان لينين قد كتبه في ١٩١٧ يستطيع ان يكتبه اليوم ايضا» .

ليس هنا مكان التأوه ولا الاستنكار ولا اتخاذ موقف ، من وجهة نظر الحقيقة او الاصالة الماركسية ، مع النظرية الستالينية او النظرية التروتسكية . ثمة شيء اكيد : جملة ماركس الصغيرة «تبقى صحيحة» ؛ **الدولة** رفعت بانتصار تحدي **الثورة** الماركسية – اللينينية ، كما تحديات الثورات السابقة الاقل جذرية ؛ مرة اخرى ، الثورة حسَّنت – وفي اية نسب ومقاييس ! – آلة الدولة بدلا من ان تحطمها . لنتذكر المشهد الذي قدمته في الماضي فرنسا النظام القديم . على نحو مشابه ، انتقلت روسيا العجوز اخيرا من أيد ضعيفة ، ايدي القيصر الاخير ، الى ايد حديدية ، او افضل «فولاذية» . بهذه الضربة ، تجددَ شبابها ، حرّكها اندفاع جديد وحار وقوي على يد الثورة . الثورة المؤولة في الاتجاه الستاليني : «الاشتراكية في بلد واحد» . بعد ١٩١٧ ، كما بعد ١٧٨٩ (ومع اسباب افضل ايضا) ، يستطيع العملاق لوياثان ان يحتفظ على شفتيه بابتسامته الغريبة ...

لكن ، طبقا للجدل الهيغلي – الماركسي الاكثر اورثوذكسية ، البولشفية او الشيوعية – **الاطروحة** – قد ولدت شقيقتها العدوة ، **نقيضتها** : القومية – الاشتراكية . كيف ؟ هذا ما سيقوله لنا هتلر .

الفصل الخامس

« ماين كامبف » (كفاحي) ،
لـ أدولف هتلر (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧)

«هذه المحاولة لتأليه جماعة بشرية من قبل نفسها » .

فرانسوا بيرو François Perroux

ان مرسوما سعيدا من القدر جعلني أولد في براوناو ، على نهر إين . هذه المدينة الصغيرة توجد على حدود هاتين الدولتين الالمانيتين اللتين يبدو لنا جمعهما ، نحن رجال الجيل الفتي ، العمل الذي يجب ان نحققه بكل الوسائل الممكنة . النمسا الالمانية يجب ان تعود الى الوطن ـ **الأم** الالماني الكبير... . **رجال دم واحد يجب ان ينتموا لرايش واحد**، لدولة واحدة... . لذا تبدو لي مدينة براوناو الحدودية الصغيرة رمز رسالة كبيرة .

تلك هي السطور الاولى من المؤلف السميك في مجلدين المعنون Mein

. Kampf ، كفاحي ، الذي ينكبّ عليه ، في قلعة لاندسبرغ ــ على ــ نهر ليش، في بافاريا ، ادولف هتلر ــ زعيم الحزب العمالي ــ الالماني ــ القومي ــ الاشتراكي، المحكوم بخمس سنوات من السجن بعد فشل محاولة الانقلاب في مونيخ ، بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٢٣ . هذه السطور الاولى تذهب مباشرة الى الواقعة . المؤلف يريد البدء بسيرة حياته ، لانه يعتبرها ذات صفة تمثيلية بارزة . رسالة كل حياته مكتوبة سلفا في مكان ولادته عينه . وهذه الرسالة هي ضد كل القوانين الباطلة والمصطنعة نصرة قانون طبيعي ومقدس : قانون **اشتراك الدم** .

بهذه السيرة الذاتية ، يستطيع المؤلف ان يبين لنا تشكله الشخصي ، «بقدر ما هذا ضروري لفهم الكتاب وبقدر ما يمكن ان يخدم في تدمير الخرافة المبنيـــة حول شخصي من قِبل الصحافة اليهودية» (المقدمة) . يستطيع ايضا ان ينفهم على نحو افضل الحركة Bewegung القومية ــ الاشتراكية ، بعرضه نشوءها ، تاريخها ، في الوقت نفسه مع اهدافها . فلا يندهش احد اذا كان المجلد الاول ، وعنوانه جردة عامة A. brechnung ، هو جوهريا سيرة ذاتية وتاريخية ، وان كانت تقطعه استطرادات مذهبية مسهبة ؛ واذا كان الثاني ، وعنوانه **الحركة**، مذهبيا بشكل جوهري ، وان كان يخصص العديد من الصفحات لـ «النضال ضد الجبهة الحمراء» من ١٩٢٠ الى ١٩٢٢ ، لاعادة تنظيم ولنمو الحركة اثناء الفترة نفسها ، لاحتلال الرور Ruhr من قِبل فرنسا في ١٩٢٣ .

السيرة الذاتية

في ١٨٨٩ يولد ، في هذه البلدة الرمزية على الحدود ، براوناو ــ على ــ الإين، الرجل الذي يقول انه «مصطفى من السماء» ليعلن ارادة الخالق العرقية . يتابع، على حد قوله ، دروسا تقنية وضيعة في مدرسة Realschule مدينة لينتس Linz ، حاضرة النمسا ــ العليا . الرسم وحده يجذبه ، و ، اذ يرفض ان يصير موظفا نمسويا مثل أبيه ، يحلم بمستقبل فنان ــ رسام . ان استاذا عجوزا للتاريخ ، بانجرامانيا ، يعلّم ابن الثالثة عشر الحقد على دولـــة آل هابسبورج ، الخائنة للجرمانية . وها ان الاستماع الى أوبرا **لوهنغرين** Lohengrin ، فـــي مسرح لينتس ، تجعل من الفتى أدولف محبا ورعا لـ ريتشارد فاغنر Richard Wagner ، امير الموسيقا الجرمانية .

وفاة ابيه . وفاة أمه ، بعد سنتين : هتلر في الخامسة عشر . لا يلبث ان يرحل الى العاصمة فيينا ، مع حقيبة ثياب وملابس داخلية ، وفي الفؤاد ، على حد قوله ، «ارادة لا تتزعزع» ، ارادة ان يصير «شخصا ما» .

الخيبات تتراكم . الفتى ، الذي لم تقبله مدرسة الفنون ــ الجميلة في فيئا طالبا ــ رساما ، مصمم على ان يصير معماريا ــ فنانا ، كاسبا حياته ، بانتظار ذلك

وهو يدرس ، كعامل يدوي ، متحملا الجوع . يجري «في شوارع المدينة الكبيرة»، هذه الـ فيينا «الالمانية أقل فأقل» ، حيث يصادف في كل خطوة سلافا (بولونيين، تشيك ، كروات) غير ــ المان ، يأخذون مكان وخبز الالمان . فضلا عن ذلك ، «هذه المدينة الكبيرة القاسية ، التي لم تكن تجذب اليها الرجال الا لكي تهرسهم على نحو افضل» ، تبدو له عاصمة الظلم الاجتماعي ، حيث يتجاور الغنى والبؤس بــلا انتقال او تدرّج . اي علاج لهذا ؟ الاحسان ، اعمال العون والبر الاجتماعي ؟ ترّهات سخيفة ، غير ناجعة ، يتهكم هتلر : لإلى «العيوب العميقة والعضوية» في المجتمع يجب التعرض . عندئذ الاشتراكية ؟ مدينة فيينا اقطاع كبير للاشتراكية ــ الديمقراطية الماركسية . «فوق الورشة» عينها ، هتلر يحتك ، على حد ما يرويه لنا ، بالعمال الاشتراكيين ــ الديمقراطيين ؛ يريدون اجباره على الانضمام للنقابة . يرفض . ويبقى جانبا ، «يشرب زجاجته من الحليب ويأكل قطعته من الخبز أينما كان» ، ولكنه يسمع رغما عنه محادثات الآخرين . يحقرون كل شيء ، ينبذون كل الذي كان الفتى هتلر ، البرجوازي ــ الصغير الالماني محترم السلطات (ما عدا آل هابسبورغ) ، تعلم احترامه . كل شيء :

> الامة ، اختراع من الطبقات «الراسمالية» ، ــ كم مرة كان لي ان أسمع هذه الكلمة ؛ الوطن ، اداة البرجوازية من اجل استغلال الطبقة العاملة ؛ سلطة القوانين ، وسيلــة اضطهاد البروليتاريا ؛ المدرسة ، مؤسسة مكرسة لانتاج عتاد بشري من عبيد ، وايضا من حراس ؛ الدين ، وسيلة لإضعاف الشعب من اجل استغلاله على نحو افضل بعد ذلك ؛ الاخلاق ، مبدأ صبر أحمق لانتفاع الخراف، الخ : لم يكن ثمة شيء طاهر الا وجرّ في الوحل .

سرعان ما لم يستطع هتلر التزام الصمت ؛ يهددونه بأن يدحرجوه من اعلــى العمارة التي يعمل فيها ، يضطر الى الانتقال الى ورشة اخرى . المغزى : النجاح في السياسة ملك لما هو شرس ومتعصب ، فقط ؛ الجمهور ، مثل امراة ، ينفر من الضعفاء ، من الفاترين ؛ يرضخ للرجل القوي ، التام ، المتعصب ، الذي يخيف ، الذي يرهب .

> الارهاب على الورشة ، في المصنع ، في اماكن اللقاء وبمناسبة الاجتماعات ، سيكون له دائما نجاح مليء ما لم يسد عليه الطريق ارهاب مساو ... . اذا ما وقف في وجه الاشترا ـديمقراطيــة مذهب مؤسّس على نحو افضل ، فان هذا المذهب سوف ينتصر حتى اذا كان الصراع حاميا ، **لكن شريطة ان يفعل بنفس القدر من الشراسة .**

لكن ـ كان يتساءل ، اذا صدّقناه ، هتلر الشاب ـ ماذا كان يمكن ان يكون سر هذا المذهب الباطل ذي الاساليب الارهابية ؟ عبثا يبحث عنه في ادبيات الحزب الرسمية . المفردات الماركسية ، «الغامضة وغير المفهومة» ، تنفرّه . رغم زعمها احتواء «افكار عميقة» ، لا تحوي اية فكرة . باطلة ، الاستنتاجات الاقتصادية للاشترا-ديمقراطيين ! عارية عن اي صدق ، الاهداف السياسية التي يعلنونها. بالتأكيد ، ثمة شيء آخر غير المادية والجدل . ثمة هدف مخفي . ما هو ؟ الومضات الاولى للوحي الذي ، الى الابد ، سينيره ، ترشّح في دماغ العصامي ـ ابن العشرين الساقط من طبقته . «عندئذ ، استولت عليّ مشاعر مقلقة وخشية مؤلمة. كنت في حضرة مذهب تلهمه الانانية والبغضاء ، محسوب ليحرز النصر رياضيا ، ولكن ظفره سيسدّد للبشرية ضربة مميتة» . ايديولوجيا الدمار هذه ، من كان يمكن ان تكون له مصلحة في التبشير بها ؟ فكر هتلر المحموم يعمل على هذه المسألة. يجمع مؤشرات ، انطباعات متسلطة يسيطر عليها الالتقاء في شوارع فيينا («أهذا ايضا هو ألماني ؟») بيهودي شاب أجعد الشعر اسوده ، يرتدي قفطان طويل . واذا به مؤشر حاسم ، واذا بهتلر يكتشف ان «زعيم الاشتراكية ـ الديمقراطية» ، هو «اليهودي» .

يهود جميع مؤلفي الكراسات الاشترا-ديمقراطية التي يستطيع الفتى الحصول عليها : «أوسترليتز ، دافيد ، آدلر ، إلِنبوغن ، الخ» ، يهود مثل كارل ماركس ! «اخيرا» عرف هتلر «شيطان» شعبه ، «جنيّه الشرير» . «الحراشف» كانت شيئا فشيئا تسقط من عن عيونه . عمال فيّنا غير مذنبين ؛ انهم تائهون مضلّلون . كل الشر كان يأتي من الماركسية ، مذهب يهودي ، صنع لاقامة سيطرة اليهود على جميع الشعوب . لهذا السبب والقصد تنبذ الماركسية المبدأ الارستقراطي الموافق وحده للطبيعة ؛ لهذا السبب والقصد تضع العدد ، وزن الكتلة العاطل ، ضد حق الاقوياء المتفوق ازليا ، تنفي قيمة الشخصية الانسانية وخصوصا اهمية عوامل العرق او الدم الإثنية السلالية ، سارقة هكذا من الانسان الشرط الاول لوجوده وحضارته . ليجيء اليهودي ، بفضل جهره بالايمان الماركسي ، الى الظفر ، وسيكون ذلك موت البشرية . ستعود الارض كوكبا يتدحرج فارغا من البشر في الاثير . اذ «ان الطبيعة الازلية تنتقم بلا رحمة حين تنتهك أوامرها . ـ لذا انا اعتقد انني أفعل بموجب روح القوي الجبار، خالقنا، اذ: **بدفاعي عن نفسي ضد اليهودي ، اقاتل دفاعا عن عمل الرب»** .

هتلر يزعم انه ، حتى هذا الوحي ، كان ، فيما يتصل بالمسألة اليهودية ، «كوسموبوليتياً فاقد العزم» ، لا يرى في اليهودي سوى رجل من دين مختلف . لهجة الصحافة اللاسامية كانت تنفرّه ، لانه كان يشجب كل تعصب مستوحى من اسباب دينية . حتى يصير «لاساميًا متعصبا» توجب عليه ، على حد قوله ، ان يمر بأعمق واضنى ثورة داخلية كان له ان يقودها الى نهايتها . الان ، وقد خرج من هذه الازمة القاسية ، باتت عيناه ، بفضل فينّا ، المدينة المسمومة ، ولكن المفيدة للغاية ، مفتوحتَين نهائيا على الخطرَين الاثنين، الوجه المزدوج للعبقرية الشيطانية،

اللذين يتهددان عين وجود الشعب الالماني : **الماركسية** و **اليهودية** .

فيننا تكشف له ايضا خطرا ثالثا : **البرلمانية** .

هتلر يقول لنا انه كان يكن في شبابه الاول «اعجابا حقيقيا» للبرلمان الانكليزي: «فهل كان ممكنا وجود شكل أرفع لحكم شعب نفسه» ؟ لكنه يدخل ، على سبيل الفضول ، الى رايشسرات (برلمان) فيننا . عندئذ يشعر بشعور نفور في منتهى القوة والحدة . مشهد مثير للرثاء والضحك : «كتلة مرتبلة من رجال يشبرون ، يتنادون بكل اجراس الصوت ، و ، مهيمنا على الكل ، شيخ مثير للرثاء سابح في عرقه ، يهز بعنف جرسه ، ويجهد تارة بنداءات الى الهدوء وطورا بوعظات ، ليعيد الى اللهجة شيئا من الكرامة البرلمانية» . بعض هؤلاء السادة لم يكونوا حتى يتكلمون الالمانية ، بل لغة سلافية او لسانا محليا . ذلك كان الشكل المضحك الذي اتخذته البرلمانية في النمسا !

لكن الفتى فكّر اكثر الى الامام ، وذاك ليخلص الى ان الشر لا يكمن فقط في واقع عدم وجود اكثرية المانية في البرلمان النمسوي . الشر اعمق . انه في عين شكل وطبيعة المؤسسة . الديمقراطية البرلمانية في ذاتها هي المعيوبة جذريا . قاعدة «قرار الاكثرية» تقتل اية فكرة مسؤولية . تذهب ضد «مبدأ الطبيعة الارستقراطي» ـ شأنها شأن الماركسية ؛ عدا ذلك الديمقراطية تفرش حتما سرير الماركسية : «انها بالنسبة لهذا الطاعون العالمي ارض الزرع التي عليها يمكن للوباء ان ينتشر» . فكرة خرقاء ، ان العبقرية يمكن ان تكون ثمرة الاقتراع العام :

> اولا ان أمة من الامم لا تعطي رجل دولة حقيقيا الا في الايام المباركة ، وليس مئة واكثر دفعة واحدة ؛ ثم ان الجمهور معادٍ بالغريزة لكل عبقري لامع . لنا حظوظ اكبر ان نرى جملا يمر من خرم ابرة من ان «نكتشف» رجلا عظيما بواسطة انتخاب . كل ما حقّق من أمور عظيمة خارقة منذ ان العالم عالم انما حقق بأعمال فردية .

هتلر في فيننا راقب مع ذلك بتعاطف ـ وكسب ـ زعيمين حزبيّين ، هما شونرر Schoenerer ، رئيس الحزب القومي الالماني او البانجرماني ، و لوجر Lueger ، رئيس الحزب المسيحي ـ الاجتماعي (ومختار العاصمة) . هتلر يمتدح الحزب المسيحي ـ الاجتماعي على كونه يرى جيدا اهمية المسألة العمالية ولكنه يلومه على كونه يجهل قوة الفكرة القوموية . أما الحزب البانجرماني فلئن كان له مأثرة كونه قومويا ، الا أنه لم يكن على ما يكفي من الاجتماعية ليكسب الجماهير ، لينتزعها من الماركسية ، و ، بالضبط ، **ليؤممها** . ان قارىء **هذا المقطع** المتعمّد بالتأكيد ، من **كفاحي** ، مسوق على نحو طبيعي تماما الى التفكير بأن هتلر قد وضع على طريق الحل السياسي بمعاينته نقص كل من هذين الحزبين

النمسويين الجديرين بالاحترام . ان الحل كان في وصل القومية والاشتراكية ، اشتراكية على النمط الالماني ، بدون صراع طبقات . الحـــل كان في القومية ــ الاشتراكية .

نفهم ان عن هذه الاقامة خمس سنوات ، المؤلمة جداً ولكـــن المكوّنة جدا ، يكتب هتلر :

> فينـا كانت وظلّت بالنسبة لي المدرسة الاقسى ولكن ايضا الاكثر إثمارا في حياتي . وصلت الى هذه المدينة وأنا بعد شبه-طفل وحين غادرتها كنت رجلا صموتا وجدّيا . نلت فيها أسس تصوري العام للحياة و ، بخاصة ، طريقة تحليل سياسي ؛ لقد اكملتهمـــا فيما بعد من بعض الحيثيات والنواحي ، ولكنني لم اتخلّ عنهما في يوم من الايام .

كان مسرعا ، مع ذلك ، الى مغادرة هذه الـ **بابل من العروق** وهذه الدولـــة الهابسبورجية المحكوم عليها ، التي سيكون انحلالها السعيد «بداية تحرر الامـــة الالمانية» . في ربيع ١٩١٢ ــ كان عمره ثلاثة وعشرين عاما ــ يقيم ، والفرح في فؤاده ، في مونيخ . «هي ذي مدينة المانية !» . يكسب فيها حياته اكثر منه في فينـا ، ولكن قليلا بعد ، راسما ، على ما يروى ، أكواريلات وبائعا اياها ، مـــع متابعته حلمه في ان يكون ذات يوم مهندسا معماريا . لا كبير شان للعوز ! مونيخ تمنحه متعا وطنية وفنية بآن .

تنشب حرب ١٩١٤ . لم تكن ، يصرخ هتلر ، «والله شاهد ، البتة مفروضة على الجماهير ، بل بالعكس مرغوبة من قبل كل الشعب» . فرَح الشاب في رؤية العمال الالمان يستيقظون وطنيين (الامر الذي يثير ، كما يذكر القارىء ، غضب لينين) ، يفلتون من شباك الاممية الماركسية ، يتخلون عن «كوم القادة اليهود» لينضموا الى الوطن الالماني . ليس واردا بالنسبة لـ هتلر ان يقاتل في خدمـــة الدولة الهابسبورجية : لكن من اجل «شعبه» ومن اجل الامبراطورية الالمانية ذات النواة البروسية التي تشخصه ، انه مستعد «للموت في اية لحظة» . يجعل نفسه يتقبّل كجندي متطوع في فوج مشاة بافاريا السادس عشر . جندي الصف الثاني ادولف هتلر يصبح عريفا ويكسب الصليب الحديدي .

اوكتوبر ١٩١٨ . الهزيمة والثورة . «مجالس جنود» ، سوفييتات المانية . نزول غليوم الثاني عن العرش . الجمهورية ، التي ستسمّى جمهورية فايمار . الهدنة . العريف هتلر ، الذي احترقت عيناه بالغازات ونقل الى مستشفى في المؤخرة ، يعلم هنا في يوم ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر ، ان المانيا استسلمت ، ان الامبراطورية انتهت : يجب ، يقول القسيس العجوز الذي يكشف هذا الخبر الفظيع للمرضى ، يجب «أن نصلي للعلي-القدير كي يمنح النظام الجديد بركته» ،

يجب ان نتوقع إكراهات قاسية ، وان لا ننتظر اي شيء الا من «كرم العدو» .
عندئذ هتلر لا يتمالك نفسه ، يعود الى سريره متلمسا طريقه ، يدفن رأسه تحت اللحاف ، ويبكي ، يسكب دموعا ساخنة لاول مرة منذ وفاة امه .

تبعت نهارات فظيعة وليال اسوأ ايضا ... . في تلك الليالي ولد في نفسي البغض ، البغض ضد صانعي هذه الحادثة ... — اخيرا رايت بوضوح انه قد حدث الان ما كنت قد توجست منه مرات ومرات لكنني مع ذلك لم استطع مرة تصديقه برباطة جاش. الامبراطور غليوم الثاني كان اول امبراطور لالمانيا مد يده للمصالحة الى زعماء الماركسية ، دون ان يشك في ان الخونة كانوا بلا شرف . بينما كانوا بعد يمسكون يد الامبراطور في يدهم ، كانت اليد الاخرى تبحث عن الخنجر . — مع اليهودي لا مجال للتعاقد ، بل فقط للقرار : كل شيء او لا شيء . أما انا فقد قررت ان أصير رجل سياسة .

وها هو يروي كيف ، وقد عيَّنه الرايشسفير (جيش الرايش) «ضابطا مربّيا» مكلفا برفع معنويات الجنود ، اتصل ، بناء على امر رؤسائه العسكريين ، بـ «الحزب العمالي الالماني» التافه بمونيخ ؛ اصبح عضوا فيه (العضو رقم ٧) ؛ اخذ وعي قوته الخطابية الشخصية ؛ اعاد تنظيم الحزب وغيَّر اسمه الى اسم الحزب العمالي الالماني القومي — الاشتراكي Nationalszialistiche Deutscharbeiterpartei جذب الى الحركة الجديدة جمهورا من المستمعين انتقل من ١١١ شخصا الى عدة آلاف ؛ حدد للحزب برنامجا من خمس وعشرين نقطة ؛ زوّده بالراية ذات الصليب المعقوف ؛ كوّن فرق انقضاض ؛ ضاعف مظاهرات التحدي للماركسيي بافاريا ، مثلا مظاهرة مدينة كوبورغ في أوكتوبر ١٩٢٢ . «شيئا فشيئا القلاع الحمراء في بافاريا سقطت الواحدة تلو الاخرى امام الدعاوة القومية — الاشتراكية» .
هتلر يحترس من شرح المكائد ، ذات الخفايا المعقدة ، بين العناصر «القومية» في بافاريا ، التي ساقته الى ان يحاول ، مع شراكة الجنرال لودندورف Ludendorff. ، الانقلاب — البوتش السابق لاوانه في مونيخ ، يوم ٩ نوفمبر تشرين الثاني ١٩٢٣ ، والى ان يخطئه . يكتب :

ليس هناك اية مصلحة في اعادة فتح جراح تبدو اليوم بالكاد مندملة ؛ من غير المفيد غدا ذلك اتهام رجال عندهم ربما في اعماق قلبهم من الحب لشعبهم ما عندي انا ، وكان خطؤهم عدم سلوك نفس الطريق الذي سلكت او عدم معرفة سلوكه .

من المعلوم ان الزحف في ٩ نوفمبر ١٩٢٣ (وهو موعد اختير لكونه يوم ذكرى

ثورة واستسلام ١٩١٨) ، الزحف القومي – الاشتراكي على فلدهِرنهال feldherrnhalle او «رواق أعمدة مارشالات» مونيخ ، تقليد الزحف على روما، فشل فشلا مشفقا . افضى الى موت ستة عشر من اعضاء الحزب ، الى اعتقال هتلر الذي جرح واعتقال نوابه الرئيسيين ، الى محاكمة مونيخ ، الى الاحكام . في نداء حكومة فايمار ، يوم البوتش ، الى الامة الالمانية ، أمكن قراءة هذه الجملة : «عصابة من الثوار المسلحين ... سلّمت مصير المانيا للسيد هتلر الذي نال منذ قليل صفة التابعية الالمانية» .

الحزب يحلّ ، يحظّر في كل الرايش ، املاكه تصادَر (كانت قد بلغت منذئذ، حسب هتلر ، اكثر من ١٧٠ الف مارك ذهب) . المغامرة قد انتهت . هتلر لن يكون موسوليني المانيا .

المغامرة ، بالحقيقة ، بدأت فعلا . كان للحزب شهداؤه ؛ زعيمه ؛ ولزعيمه هالة بطل لم يحالفه الحظ وغدر به ؛ المحاكمة كانت عممت اسمه في كل المانيا ووراء الحدود الالمانية . هتلر – وقد اعيد حكمه بالسجن من خمس سنوات الى ثلاثةعشر شهرا – كان يستطيع الاستفادة من اقامته العذبة بل والمريحة في قلعة لاندسبرغ، ليحقق مشروعا قديما : مشروع كتابة كتاب ينقل تشكل فكره ويعرض مذهبه . كان ، على ما يقال لنا ، قد بدأ هذا العمل سنة ١٩١٩ ، في فندق هادىء في برشتسغادن Berchtesgaden على الـ أوبرسالزبرغ ، في جبال الألب البافارية . ثم وقد اخذه العمل السياسي اضطر الى قطعه . الان ، في القلعة ، يتمتع بكل الفراغ الضروري . عنده سكرتير طوعي ، الشاب رودولف هس R. Hess ، وهو مناضل قومي – اشتراكي اعتقل معه ومتعصب في اخلاصه له . الزيارات مسموح بها . سيدة بشستاين Bechstein تأتي كل يوم ، ولا تذهب ابدا بدون ان تحمل معها بضع اوراق مخطوطة ، لمطبعة الحزب ، من المؤلف الذي سيدعى Mein Kampf ، **كفاحي** – والذي هو ، بادىء بدء ، نوعا ما في نصفه ، سيرة ذاتية ، رمزية وممثلة ، لاغراض الدعاوة ، **للزعيم** .

بالطبع ، يكون مخاطرة ان تعتبر بمثابة حقيقة تاريخية الرواية التي لخصناها لتوّنا . من جهة اخرى لا نعرف بعد الا بشكل ناقص نشوء القومية – الاشتراكية الدقيق . ان كان هتلر بادىء ذي بدء عميلا ، من الدرجة الثانية عدا ذلك ، لجيش الرايش ، القوة الوصية على المانيا عبر تقلباتها ؛ ان «اخترعه» جيش الرايش ، هذا اكيد ، و**كفاحي** يثبته . ان ساعد صعود هتلر وحزبه ، ان موّله ، البارونات ، كبار الصناعيين ، كل الزمر «الرجعية» المنغمسة ، مطلقة كل سهامها ، في تهيئة هلاك جمهورية فايمار المكروهة ، بنت الهزيمة ، الاشتراكية الميل ، التي تساندها جميع الامميات – هذا مرجح . لكن بأي مقدار والى اية لحظة كان هتلر ، ظل ، اسير ، او كما يكتب ادمون فرمي Edmond Vermeil ، «وكيل اعمال «الطبقة» القائدة المصممة جيدا على تسيير الجماهير بواسطته» – هذا ما لا نعلمه بشكل يقيني .

رواية كفاحي تبقى مع ذلك ثمينة جدا ، في كونها تبين لنا هتلر ، ليس لا ريب بالضبط كما كان ، بل كما يرغب ان يراه الشعب الالماني . كم هي محسوبة بشكل جيد ، هذه الرواية ، لعبرة المؤمنين بالقومية ـ الاشتراكية ، لزعزعة الآخرين اذا كان في قلبهم حب الوطن المهزوم ، المشوّه ، المهان ! اليكم كيف وصل المني جيد، صادق النية ، مستقيم الحس ، قادر على الرؤية ، كيف وصل ، بانحدار طبيعي، ان لم يكن جبريا ، الى صيغة المانية فعلا توحد بشكـــل لا ينفصم القومويـــة والاشتراكية الحقة . اليكم كيف ، وقد أثارته سنواته في فينّا ، ثم خيانة ١٩١٨ («ضربة الخنجر في الظهر» المعطاة لالمانيا من قِبل الحمر ، تعلّم ، وعلم للحزب ، المجدّد من قبله ، ضرورة وكيفية معارضة الماركسية ـ قناع اليهودي الوخيم ـ ، عنفا ضد عنف ، دعاوة ضد دعاوة ، ايديولوجيا ضد ايديولوجيا .

المذهب : تصور العالم

بعد السيرة الذاتية ، بعد الرواية ، المذهب : نصنف كفاحي الآخر .

في ٢٥ شباط ١٩٢٠ ، ابان اول لقاء شعبي كبير ، في «هوف براوهاوس» مونيخ ، للحزب القومي ـ الاشتراكي «الذي ما زال مجهولا» ، كان هتلر قد عرض على الجمهور ، نقطة نقطة ، برنامج الحركة في **خمس وعشرين نقطة** . هذا البرنامج كان اول بيان للعرقية ، المليء ، كما في السابق **البيان الشيوعي** ، بالـ «بذور» .

نجد فيه ، على الصعيد القوموي ، في المضمار الداخلي : التجديد العرقـــي (التمييز بين البشر ذوي الدم الالماني ، مواطني الرايش وحدهم ، المقبولين وحدهم في الوظائف العامة ، وغير ـ الالمان ، ومنهم اليهود ، غير المواطنين ، الخاضعين لاحتمال الطرد ؛ حماية الأم والطفل ، إلزامية التربية البدنية والرياضيـــة) ؛ ـ الاصلاح العميق لكل منظومة التعليم ، في اتجاه اكثر عملية ومع تلقين فكرة الدولة في القاعدة ؛ ـ فضح الفساد البرلماني ، الروح اليهودي ـ المادي ، الكـــذب السياسي الارادي في الصحافة (التي ستحل محلها صحافة المانية حقا) ؛ ـ كذلك بدلا من الحقوق الرومانية الكلية والمادية اقامة حقوق مشتركة المانية ؛ ـ اعلان ضرورة مركزة قوية للرايش ؛ ـ اخيرا تأكيد «مسيحية وضعية ـ ايجابية» مستقلة عن كل مذهب خاص او طائفة خاصة : عدا ذلك ، حرية ايـــة طوائف او مذاهب دينية في الدولة «طالما لا تضع وجود الدولة في خطر او تخالف شعور اللياقـــة والاخلاقية للعرق الجرماني» .

على نفس الصعيد القوموي ، لكن في المضمار الخارجي ، نجد الاهـــداف الاساسية الثلاثة : جمع كل الالمان (المان النمسا ، الخ) في المانيا كبرى ، علـــى اساس حق الشعوب في تقرير مصيرها ؛ مساواة الحقوق للأمة الالمانيـــة ، اذن

حذف قيود فرساي [1] (هتلر كان يدعو دائما جمهورية فايمار «حكومة فرساي»)؛ اعادة المستعمرات الالمانية ، في المفردات التالية : «الارض اللازمة لإطعام شعبنا ولتصريف فائضنا السكاني عن طريق الاستعمار Colonisation » .

على الصعيد الاجتماعي (أو الاشتراكي او المناهض للراسمالية) ، البرنامج يعلن نفسه مع خلق وحماية طبقة وسطى سليمة ، بعكس الماركسية التي تضع في قدر تاريخي زوال هذه الطبقة ؛ بالتالي مع اجراءات معادية للمخازن الكبرى ولصالح الحرفيين الصغار ؛ مع الاصلاح الزراعي ، نزع الملكية المجاني للارض الزراعية في سبيل المصلحة العامة ، وحظر كل مضاربة عقارية ؛ مع حذف كل الدخول المكسوبة بلا شغل ، الغاء عبودية النسب والفوائد ، جعل التروستات للدولة . في هذه الايحاءات الاخيرة ، نتعرف على أفكار فيدر Feder ، اقتصادي الحزب ، العدو الرسمي لكبار رجال المال : كان يميز الراسمال المالي «الدائن» ، الراسمال «الاحتكاري» ، **اليهودي** بالطبع ، والراسمال الصناعي «الخلاّق» ، الخيّر ، محض الالماني او **الآري** كما كان يجب .

برنامج أخرق ، مخلوطة ديماغوجية ، لملمة من أفكار متناقضة : كم كانت جميلة ، على ما يبدو ، لعبة الخصوم ! لكن منطق العمل ، لاسيما السياسي ، ليس منطق الفكر : «كم من الخطأ – يصرخ فرمي Vermeil – القول ان هذا البرنامج لا يعني شيئا !» . كيف يمكن ان توفّق بمهارة اكبر المطامح المتناقضة للطبقات المتوسطة ؟ كيف يمكن ان تقوّض على نحو افضل هيبة حزبَي الوسط الكاثوليكي والاشتراكية – الديمقراطية ، اللذين كان تحالفهما العجيب يتيح لجمهورية فايمار حياة بلا جذور ؟ بالواقع ، هذه النقاط الخمس والعشرون لسنة ١٩٢٠ ، «الكاتيشيسم النازي الاول» Catéchisme ، كانت تقدم للتطريزات الايديولوجية اللاحقة «كانفا» Canevas (هيكلا) رائعا . بدءا بتطريزا تهتلر ، الغزيرة والملونة بعنف في احيان كثيرة ، في **كفاحي** .

---

١ – **صلح فرساي** (١٩١٩) فرضه الحلفاء كليمنصو ، لويد جورج ، ويلسون ، على المانيا المهزومة . بنود المعاهدة : اعادة الالزاس – لورين الى فرنسا ، شليسفيغ الى الدانمارك ، ترك الاقاليم البولونية ، التخلي عن جميع المستعمرات في افريقيا وآسيا والبحار لصالح انكلترة وفرنسا وبلجيكا الخ ؛ التعهد بالتعويض عن اضرار الحرب وتسليم كل الاسطول التجاري تقريبا وتجهيزات وسلع مختلفة ، مع تعويضات مالية تحددها لجنة تعويضات ؛ نيل فرنسا ملكية مناجم فحم اقليم السار ووضع الاقليم لمدة ١٥ سنة تحت اشراف دولي ، منع الخدمة العسكرية الالزامية وتخفيض تعداد الجيش الالماني الى ١٠٠,٠٠٠ رجل فقط ، احتلال ضفة نهر الراين اليسرى لمدة ٥ – ١٥ سنة، وتحييد قطاع عرضه ٥٠ كم في الضفة اليمنى . – اربع معاهدات اخرى انهت الحرب مع النمسا والمجر وبلغاريا وتركيا كرست فك امبراطورية النمسا – المجر والامبراطورية التركية ، قلبت جذريا الوضع الإقليمي القانوني في اوروبا الوسطى وفي الشرق الادنى ، لصالح مبدأ القوميات (ونفوذ فرنسا وبريطانيا ، وانتدابهما في بلاد الشام والعراق) ؛ لكن النمسا المتبقية ، الالمانية الجمهورية، مُنعت من الانضمام لالمانيا ، واعطيت السوديت الالمانية لتشيكوسلوفاكيا .

كفاحي هو ، كما يجدر ، اكثر طموحا بكثير ، من وجهة نظر المذهب ، **الايديولوجيا**، من برنامج الدعاية المباشرة لعام ١٩٢٠ . الزعيم القومي ـ الاشتراكي، بخلاف زعماء الاحزاب الفايماريين ، يقصد الاتيان لا بشعار انتخابي جديد ، بل ب «تصور فلسفي جديد ذي اهمية اساسية» ، ب **رؤية العالم** Weltanschaucng جديدة او تصور للعالم جديد . **رؤية العالم** مصاغة ، مثل دين حقيقي ، في **عقائد ـ دوغمات** واضحة محددة ، ـ ليس ثمة شيء قليل الفائدة بل ومؤذ مثل «دينية اشكالها سيئة التحديد» ، ـ في عقائد حزبية مقدّر لها ان تصير بالنسبة للشعب «قوانين ـ اساس اشتراكه» . **رؤية العالم** سيكون للدولة الجديدة ، الاداة وحسب ، كعلة وجود ان تخدمها ، في الداخل والخارج على حد سواء .

ما قوام هذا التصور للعالم ؟ هتلر يعرضه بشكل منهجي في الفصل الحادي عشر الشهير من المجلد الاول ، وعنوانه «الشعب والعرق» Volk and Rasse ، احد الاستطرادات المذهبية الغزيرة التي تقطع السيرة الذاتية . لكن هذا التصور كائن في كل مكان في المؤلَّف ، كامن وراء كل سطر ، يعصف مثل ريح طاعونية على الاقتراحات الاسلم ظاهرا .

لا شيء ابسط ـ يؤكد المؤلف في السطور الاولى من هذا الفصل الحادي عشر ـ لم يكن يلزم سوى التفكير في الامر ، انه مثل بيضة كريستوف كولومب ، «لكن بالضبط الرجال من طراز عبقرية كولومب هم الذين نادرا ما نصادفهم» . اليكم اذاً «بيضة» أدولف هتلر :

> الملاحظة الاكثر سطحية تكفي لتبيان كيف الاشكال التي لا حصر لها التي تتخذها ارادة حياة الطبيعة تخضع لقانون اساسي ولا ينخرق تقريبا تفرضه عليها سيرورة التوالد والتكاثر . **كل حيوان لا يتزاوج الا مع مجانس من نفس النوع** : القرقف مع القرقف ، البرقش مع البرقش ، اللقلق مع اللقلق ، فأرة الحقل مع فأرة الحقل ، الفأر مع الفأر ، الذئب مع الذئبة ، الخ . وحدها ظروف خارقة يمكن ان تأتي بمخالفات لهذا المبدأ : بالدرجة الاولى الإرغام المفروض من قِبل حاجز ما يعترض تزاوج افراد ينتمون الى نفس النوع . **لكن في هذه الحال تطبق الطبيعة جميع الوسائل للنضال ضد هذه المخالفات** ، واحتجاجها يتجلى على الشكل الاوضح ، إما بكونها ترفض للانواع المبندقة القدرة على ان تتوالد بدورها ، او بحدها على نحو ضيق خِصوبة الاعقاب ؛ في معظم الحالات ، تحرمهم من القدرة على مقاومة الامراض او هجمات الاعداء . ـ هذا ليس الا طبيعيا جدا . ـ كل تصالب لكائنَيْن متفاوتَين في القيمة يعطي كناتج حدا ـ أوسط بين قيمة الابوَيْن ... . ان تزاوجا كهذا لفي تناقض مع ارادة الطبيعة التي تنزع الى رفع سوية الكائنات . هذا الهدف لا يمكن ان يبلغ الا باتحاد أفراد مختلفين في القيمة ، ولكن

فقط بالانتصار الكامل والنهائي للذين يمثلون القيمة الاعلى . ان دور الاقوى هو ان يسيطر لا ان ينصهر مع الاضعف ، مضحيا هكذا بعظمته الخاصة . وحده الضعيف بالولادة يمكن ان يجد هذا القانون قاسيا ، لكن هذا انه ليس سوى رجل ضعيف ومحدود...

والحال هناك نوع من البشرية متفوق ، هو العرق الآري . هتلر لا يعرّفه ، لا يقيم حسابا للمناقشات حول وجوده بالذات . انه كائن . وجوده هو المسلّمة غير المبرهَنة والتي لا يمكن ان تبرهن التي عليها يرتكز كل البناء النازي . تفوّقه متضمَّن في كائنيته عينها . انه «مستودَع تطور الحضارة البشرية» ، حامل مشعل هذه الحضارة . لنستمع الى الثناء ـ ابتهالات حقيقية ـ على الآري . الآري ، «بروميثيوس البشريّة» ، جبهته الوضاءة ترسل شرارة العبقرية ، نار المعرفة الذي يضيء الليل ويبيّن للانسان الدرب الذي عليه أن يصعده ليصبح سيد الكائنات الاخرى . الآري ، شعب الاسياد ، الذي باستيلائه على رجال العرق الادنى جعلهم «اول اداة تقنية» في خدمة الحضارة الوليدة . الآري ، الذي قدم «احجار النحت القوية ، ومخطّط كل صروح التقدم البشري» . الآري ، الذي ليست عظمته في ثروة مواهبه الفكرية بقدر ما هي في **مثاليته**، اي في قدرته العالية التطور «على التضحية بذاته في سبيل الجماعة ، في سبيل اقرانه» . وها هنا بالضبط يقدم اليهودي التضاد الاكثر أخذا مع الآري . اليهودي «بلا مثالية» : والحال ما من حضارة يمكن ان تنخلق بدون مثالية . ذكاء اليهودي لن يخدمه ابدا «في التشييد بل فعلا في التدمير» . في التدمير من اجل السيطرة ، اقرؤوا **بروتوكولات حكماء صهيون** (*) ، كشوفا غير مأمولة قدمها اليهود انفسهم عن مقاصدهم المظلمة .

لنطبق الان على الآري ، العرق المتفوق ، قواعد الطبيعة الاساسية المعرّفة سابقا . سنرى ، كما التاريخ يقيمه «بجلاء مخيف ، سنرى انه حين خلط الآري دمه مع دم شعوب دنيا ، كانت نتيجة هذا التخالط هلاك الشعب الممدّن» .

في أوروبا ، لسوء الحظ ، هذا التدنيس يهدد الآري ، من جراء اليهودي ، الذي ـ لفرط ما يبدو له قريبا يوم انتصاره ـ يتصرف الان ، ازاء ابناء الشعوب الاخرى ، ب «تبسّط مخيف» . انظروا بالاحرى

اليهودي الشاب الاسود الشعر يترصد طيلة ساعات ووجهه ينيره فرح شيطاني ، الفتاة غير الواعية للخطر ، التي يلوثها بدمه ويخطفها هكذا من الشعب الذي تخرج منه ... . كما يفسد بتصميم ومنهجية النساء والفتيات ، لا يخشى اسقاط ...

(*) بالحقيقة ، مختلقة . (انظر في صفحة لاحقة من هذا الفصل) .

الحواجز التي يضعها الدم بين الشعوب الاخرى . يهوّدا كان وما زال الذين استقدموا الزنجي [زنوج قوات الاحتلال الفرنسية] على نهر الراين ، دوما مع نفس الفكرة الخفية والهدف الجلي : تدمير ، بالإفساد الناتج عن التخالس ، تدمير هذا العرق الابيض الـــذي يبغضونه ، جعله يسقط من مستواه العالي في المدنية والتنظيم السياسي ، وصيرهم أسياده .

التخالس ، هو ذا الإثم الاعلى ضد ارادة الخالق ، التي يماثلها هتلر مـــع الطبيعة . الطبيعة المهانة تثأر . نسيان وازدراء قوانين الدم والعرق ، هو اعتراض الزحف الظافر للعرق المتفوق وبالتالي التقدم الانساني ، هو سقوط الى مستوى الحيوان العاجز عن الارتقاء على سلم الكائنات . لا شيء في هذا العالم بلا دواء ، ما عدا هذا .

كل شيء في هذه الدنيا يمكن ان يصير افضل . كل هزيمة يمكن ان تكون أماً لنصر مقبل . كل حرب خسّرت يمكن ان تكون سبب نهوض تال . كل نكبة يمكن ان تجعل خصبة العزيمة البشرية ، وكل اضطهاد يمكن ان يثير القوى التي تنتج بعثا معنويا ، **طالما الـــدم حفظ نقيا. لكن خسارة نقاء الدم تدمر الى الابد السعادة الداخلية، تخفض الانسان الى الابد ، وعواقبهـــا الجسدية والمعنويـــة لا تمحى** ... . في الدم ، وحده ، تكمن قوة او ضعف الانسان . الشعوب التي لا تعترف ولا تقدّر أهمية أسسها العرقية تشبـــه اناسا يريدون ان يمنحوا نوع كلاب الوبر الطويل المجعد Caniches صفات الكلاب السلوقية ، دون ان يفهموا أن سرعة الكلب السلوقي وطواعية كلب الوبر الطويل ليستا صفتين مكتسبتين بالترويض ، بل هما **ملازمتان للعرق نفسه . الشعوب التي تتخلى عن صـــون نقاء عرقها تتخلى بذلك عينه عن وحدة نفسها** ... . تفكك كيانها هو العاقبة الطبيعية والحتمية لمغايرة وتشوّه دمها .

هكذا فمسالة الدم والعرق هي «مفتاح تاريخ العالم» ، مفتاح الحضـــارة البشرية ايضا . ضد التأويل المادي للتاريخ بتناحر الطبقات ، الاختراع «اليهودي» هتلر ينصّب الحقيقة المثالية «الآرية» ، النظرة او الرؤية النورانية العرقية . يعلن قانون الطبيعة هذا ، الاقدم من اي تفسير للتاريخ ، الذي يرسم تفاوت العروق ، الذي يريد أن تطرد الانواع العليا الانواع الدنيا ، والذي حفظ للعرق الآري دور تمدين العالم والهيمنة عليه . خرق هذا القانون الاول والمقدس ، ذاك هو ـ وليس انقسام المجتمع الى طبقات ـ الخطيئة الاصلية الحقيقية للبشرية .

و ، من وجهة النظر هذه ، وجهت الكنائس المسيحية ضربة خطيرة لعمل الله.

ليس فقط نرى العقيدة الدينية تلحق من قِبل احزاب ــ الوسط الكاثوليكي ــ تجعلها اداة لمصالحها الشخصية ؛ بل الكنائس نفسها ، البروتستانتية والكاثوليكية، المنهمكة في انقساماتها ، قد اهملت الواجب الاساسي : السهر على سلامة الانسان الآري . حاكمت وتفاصحت عن ارادة الله بدلا من ان تتمّها فعليا بالحيلولة دون تدنيس العمل الالهي . («تتكلم دوما عن الروح وتترك يسقط الى مصاف بروليتاري منحل" كرسي الروح») . اكثر من ذلك ، بسماحها بالزيجات المختلطة ، بعدم رؤيتها في اليهودية سوى دين يمكن تركه ، وليس عرقا لا يّمحى ، ساعدت على هــــذا التدنيس . اخيرا خسرت وقتا وجهودا ثمينة في ملاحقتها وإزعاجها «زنوجا لا يتمنون ولا يستطيعون فهم تعليمها» . و ، في هذا الوقت ، شعوبنا الاوروبية ، «الأكبر مجد الله سبحانه وتعالى ، منخورة بجذام معنوي ومادي» .

رسالة الدولة

ما هي اذاً ، في هذا المنظور العرقي ، في هذه الرؤية للعالم الآمرة والجديدة ، رسالة الدولة ــ دولة الغد المصهورة من قِبل الحزب القومي ــ الاشتراكي سيد السلطة ؟

الدولة حسب **ماين كامبف** ليست بالطبع الدولة الليبرالية ، «الفارغة» من المحتوى الاخلاقي ــ المعنوي moral ، الخاليـــــة من كل أمر أمري ، مـــن كل مطلق ، المسلّمة لشهوات احزاب متعددة ، تقنّع هي نفسها مصالح خاصة . انها دولة ذات رسالة ، دولة «إتيقية» ، تنتسب الى مطلق . انها دولة مناهضة لليبرالية ، مناهضة للبرلمانية ، مناهضة للاحزاب ؛ دولة مؤسسة على مبــــدأ وصوفية الزعيم ، القائد (الفهرر Fuehrer) ، ومحركها حزب واحد احد ، وسيط بين الجماهير والزعيم . انها دولة آنتي ــ ماركسية بالجوهـــر والاساس (مع تأكيد نفسها آنتي ــ برجوازية) ، آنتي مساواتية ، هيرارخية تسلسليـــة ونقاباتية أجسامية ، اخيرا منكبّة على «تأميم» الجماهير ، على جعل ليس «قومية» بتسطح بل «قوموية» بعدوانية ، هذه الجماهير التي كانت الماركسية اليهوديـــة تريد أن تجردها من القومية ، ان تجعلها مشاعا أمميا .

لكن الا نجد مجموعة هنا كل مميزات دولة موسوليني الفاشستية ؟ النازية ــ مع ، بالاضافة الى ما سبق ، قمصانها البنية ، سلامها بالذراع الممدود ، عرضاتها ــ الا تظهر صورة عن الفاشية الطليانية الفتية ؟ **الفهرر** ادولف هتلر هل هو شيء آخر سوى تلميذ جرماني جيد **للدوتشه** ، يزاود بضرب من جنون ثقيل على تعليـــم أستاذه اللاتيني (الذي كان ، من جهته ، ــ وهو اشتراكي سابق ، ــ قد غرف في اللينينية بعض الاسلحة ، منها الحزب الواحد ، ليكافحها) ؟ ان هتلر لا يخفي ، في كتابه ، اعجابه العميق «بالرجل العظيم الذي كان ، في جنوب جبال الألب ، وقد الهمه الحب الملتهب لشعبه ، وبعيداً عن ان يســـاوم مع اعداء ايطاليـــا الداخليين ، كان يسعى الى تدميرهم بجميع الوسائل» . انه يعلن ان «الذي سيضع

موسوليني في مصاف كبار رجال هذه الدنيا ، هو تصميمه على عدم مشاطـــرة ايطاليا مع الماركسية ، بل بالعكس ، مع تدمير الماركسية ، حماية وطنه من الامميةِ».

ومع ذلك ان مماثلة الفاشية والنازية تكون ضد ـ المعنى . ثمة بالواقع مسافة بعيدة من الدولة النازية الى الدولة الفاشية . هذه الاخيرة هي القيصروية مدفوعة الى ذروة الشدة : **كل شيء** tout في الدولة ، لا شيء خارج الدولة (من هنا النعت الجديد : totalitaire ، توتاليتاري وتوتاليتارية) . دولة الفاشيـــة ـ التي تنسب نفسها الى ماكيافل ـ غاية في ذاتها ؛ تحيط بها هالة من هيبـــة صوفية ؛ انها وثن ، انها تمثل الإله الحق للذين ليس عندهم إله . الفاشيـــة «ستاتولاترية» ، عبادة الدولة ، وثنية الدولة . فيها نتعرف على أشكال فكـــر روماني وغربي بالتمام ، عولجت بشراسة «كوندوتييري» (بشراسة قائد جنـــد مأجورين في ايطاليا عصر النهضة) ، وزينت ـ بشكل مصطنع ، في حاصـــل الامور ـ بفكرات هيغلية و سوريلية . لا **رؤية للعالم** جديـــدة ، مع الامتدادات الميتافيزيقية إلتي يتضمنها المصطلح ، تتعبر فيها .

الدولة حسب هتلر ، بالعكس ، ليست غاية في ذاتها ، بل هي أداة وحسب، «وعاء» لا اكثر ؛ والمهم هو «المحتوى» . الدولة في ذاتها لا تزوّد بأي هيبة خاصة . ما من سحر يجليها . سحر ، هيبة ، عبادة وثنية ، هذا محفوظ لل **فولـــك** Volk . ، الفولكشتوم ، Volkstum : ما كلمـــة «شعب» peuple تترجمه بشكل ناقص ، اذ يجب ان نفهم ، على نحو جرماني نوعي : **وحدة عرقية ترتكز على اشتراك الدم** . هوذا الواقع الصميمي ، هوذا «المحتوى» الذي ليست الدولة الا وعاءه . وليس لوعاء علة وجود ، الا بقدر ما هو قادر على حفظ وصون محتواه . الدولة ، بالنسبة لهتلر كما بالنسبة للينين (ولماركس ولانجلز) ، ليست **الا جهازا** ، ـ وهو تعبير عدا ذلك عزيز على الحقوقيين الالمان ؛ ـ جهازا اداريا من حكام ، من مكاتب ، من وسائل إرغام . جهازا ، آلية ، او تنظيما تقنيا بشكـــل حصري في خدمة غاية ، هي بقاء وتطور جماعة من كائنات بشرية من نوع واحد ماديا وخلقيا . الملاحظات المبسوطة في الفصل الاساســـي عن الشعب والعرق ، Wolk und Rasse ، هي حسب هتلر «القاعدة الغرانيتية التي عليها يمكن ان ترتفع ذات يوم دولة ، دولة لا تكون آلية غريبة عن شعبنا ، في خدمة حاجات ومصالح اقتصادية ، بل تكون عضوية نابعة من الشعب Voelkisch ، شعبية)، دولة جرمانية لأمة المانية» .

هكذا يجيب كتاب **الدولة والثورة** للينين مذهب «الدولة والعرق» لهتلر عبر **كفاحي** .

مزدوجة تظهر رسالة الدولة الاداة العرقية : في الداخل ، حفظ وتحسين العرق ، ان لم يكن اعادة صنعه ؛ في الخارج ، الاستيلاء على المجال الضروري لحياة هذا العرق وهيمنته الطبيعية .

«لسوء الحظ» ، يعترف هتلر ، ان الشعب الالماني لم يعد له كقاعدة عرق متجانس . ان تلويثات متعاقبة ، لاسيما منذ حرب الثلاثين عاما ، قد فسخت دمه ونفسه ، حارمة اياه هكذا من هذه الغريزة الجمعية ـ القطيعية الجبارة ، ثمـرة هوية الدم ، التي تتيح لشعب من الشعوب ، في الساعات الخطيرة ، ان يجابـه العدو المشترك «بالجبهة المتحدة لقطيع متجانس» . اذا اخذنا كل الامور فـي حسابنا ، هذا النقص كلف الشعب الالماني «السيطرة على العالم» . لو امتلك هكذا وحدة قطيعية ، لكانت الكرة الارضية اليوم ملكا له . وبفضله لربما كان قد بلغ هذا الهدف

الذي يأمل في الوصول اليه اليوم العديد من المسالمين العميـان بزقزقاتهم وانتحاباتهم : **سلام لا تؤمّنه اغصان الزيتون التي تهزها، والدموع منهمرة ، بكّاءات" محبة للسلام، بل يضمنه السيف المنتصر لشعب اسياد يضع العالم كافة في خدمة حضارة متفوقة .**

لحسن الحظ ، ان قسما على الاقل من افضل ما يوجد في الدم الالماني ظـل بكرا طاهرا . هذه «الاحتياطيات الكبيرة» من رجال العرق الخالـص الآري ـ الشمالي او **الشمالي** Nordique ، هذه العناصر الطاهرة التي هي انبل عناصر ليس فقط الشعب الالماني ، بل كل البشرية ، ان الهدف الاسمى للدولة هو جمعها، حفظها ، حمايتها ، جعلها اخيرا تصل ، ببطء ولكن بأمان ، الى وضعية مهيمنة . على الدولة اذاً ان تسهر على **الحؤول بشكل مطلق دون اي تهاجن جديد** . متروك لعديمي المروءة أن يطلقوا الصيحات العالية ، ان يحتجوا ويؤلولوا ضـد المساس بحقوق الانسان المقدسة ! «لا ، ليس للانسان الا حق واحد مقدس ، وهذا الحق هو في الوقت نفسه اكثر الواجبات قدسية ، انه السهر على بقاء دمه نقيا ، كي تجعل المحافظة على افضل ما في البشرية ممكنا تطور اكمل لهذه الكائنات الممتازة». الزواج ، الذي غرق في الذل بالبندقة الدائمة للعرق ، سيجد من جديد ، بفضل الدولة العرقية ، «قدسية مؤسسة هدفها خلق كائنات على صورة الرب ، وليس مسوخ يقعون في الوسط بين الانسان والقرد» .

الدولة العرقية ستعمل بحيث وحده الفرد السليم يستطيع الانجاب . مـن الآخرين ستنزع ماديا (بالتعقيم) القدرة على التناسل . «اذا طيلة ستمئة سنة وضع الافراد المنحلون فيزياً او الذين يعانون من امراض عقلية خارج امكانيـة التوليد ، فان البشرية ... ستنعم بصحة من الصعب اليوم ان تكوّن فكرة عنها». بالمقابل ان الدولة العرقية ستؤمن وتجاهر بأن رفض اعطاء الامة اولادا سليمـي التكوين لفعل ذميم معيب . هكذا سنحصل على هذا الخير الاسمى : عرق نابع ، حسب كل قواعد علم تحسين النسل ، من الخصوبة ، المساعدة بوعي وتصميم ،

للعناصر الاقوى بنية في الشعب . سنكون قد عملنا اخيرا للعرق البشري مـــا نحفظه حاليا لانواع «الكلاب والخيول والهررة» ، سنكون قد حسنّاه بالتربيـــة البيولوجية . سنكون قد وضعنا حدا للخطيئة الاصلية الحقيقية . سيكون عهد جديد قد وُلد .

اجل ان قطيع البرجوازيين الصغار الحاليين الكئيب لن يستطيع ان يفهم ذلك في يوم من الايام . سيضحكون او سيرفعون اكتافهم السيئة الصنع ، وسيرددون بتنهد العذر الذي يعطونه دائما : هذا يكون جميلا جدا من حيث المبدأ ولكنه مستحيل . معهم هذا بالفعل مستحيل ، عالمهم ليس معمولا لذلك . همهم الوحيد : حياتهـــم الشخصية ، وإلههم الوحيد : مالهم ! الا اننا ليس اليهم نتوجه ، بل الى الجيش الكبير ، جيش الذين هم على درجة من الفقر لا تسمح بأن تظهر لهم حياتهم الخاصة اكبر سعادة موجودة في العالم ، الى الذين لا ينظرون الى الذهب على انه السيد الذي يضبط وجودهم بل يؤمنون بآلهة اخرى . **نتوجه قبل كل شيء الى الجيش القوي لشبيبتنا الالمانية** . انها تكبر في حقبة هي منعطف كبير في التاريخ، وان كسل ولامبالاة آبائها ترغمانها على الكفاح . **ان الالمان الشبان سيكونون ذات يوم مهندسي دولة جديدة عرقية او سيكونـــون الشهود الاخيرين على انهيار تام ، على موت العالم البرجوازي .**

كي تؤدي في الداخل رسالتها العرقية ، الدولة لها وسيلتان : الدعاوة التي تخاطب الجماهير ، التربية التي تستهدف الافراد .

الدعاوة . ــ مسألة الدعاوة كانت دوما قد استهوت هتلر . المهارة الناجزة لماركسيي فينـّا كانت قد ادهشته . عدا ذلك ، الم يكن لينين ، في كتاباتـــه وخطاباته المختلفة ، قد أحكم تماما الدعاية تجاه الجماهير ؟ بيد ان دعاية الحرب الانكليزية ، من ١٩١٤ الى ١٩١٨ ، المنهجية الى هذا الحد ، الامينة سيكولوجيا الى هذا الحد ، بالمقارنة مع الدعاية الالمانية ــ الطفلية والخرقاء ، اذا صدّقنا هتلر ، ــ كانت بالنسبة له كشفا . الدعاية السياسية من الطراز الفاشستـــي حملت اليه بالتأكيد ايحاءات اضافية . يبقى أن صفحات **كفاحي** المكرسة ، فـــي المجلد الاول ، بصدد حرب ١٩١٤ ثم الاستيلاء على الجماهير من قِبل الحـــزب النازي ، للدعاية بوجه عام ، هي من اشهر صفحات الكتاب ؛ والمؤلف ، باعتراف فلان من اعدائه الألداء ، يكون قد استخلصها حقا من رأسماله الخاص . لنجدها هنا ملخصة :

اولا بأول ان دعاية شعب يناضل من اجل وجوده يجب أن لا تربك نفسها بأي اعتبار من انسانية ولا من صدق نية فكرية . اذا كان السؤال الاول المتصـــل

بالدعاية هو مسألة معرفة ما اذا كانت «وسيلة او هدفا» ، فان الجواب لا شك فيه : نحن أمام وسيلة ، يجب الحكم عليها تبعا للهدف . اذا كان هذا الهدف هو الكفاح من اجل الوجود ، فان الاسلحة «الاكثر قسوة» تصبح «الاكثر انسانية» ، لانها شرط انتصار أسرع وتساعد على تأمين «عزة الحرية» للأمـــــة . احترام الحقيقة ؟ «ان اقوى رافع للثورات كان على الدوام تعصبا يجلد نفس الجمهور ويدفعه الى الامام ، ولو بعنف هيستيري ، لا المعرفة الموضوعية لحقائق علمية» .

الى من ــ سؤال ثان ــ يجب ان تتوجه الدعاية ؟ الى الجماهير ، هذا معلوم : الى «الانسان ــ الكتلة» ، الى «الانسان ــ الجمهور» ، لتصهر في وجدانه المظلم يقينات لا تتزعزع ــ لا الى «الانسان ــ الفرد» . اذاً فكل دعاية يجب ان تكـــون شعبية وأن تكيف حججها مع ابسط اولئك الذين يؤلفون الجمهور . كلما ستصيب عددا كبيرا من الافراد ، يجب ان يكون مستواها الفكري منخفضا . ما تسعى اليه هو الفعالية وليس رضى حفنة من هواة فن او محبي علم دقيق وسعة اطلاع . لذا فهي لا تخاطب دماغ الجمهور بقدر ما تخاطب مشاعره . هذه المشاعر بسيطة: هو مع ، او هو ضد ؛ كل حل وسط يهرب منه ؛ الموضوعية ، اللاتحيز ، هما في نظره ضعف . المفاتيح التي تفتح ابواب قلبه هي «الارادة والقوة» . الجمهور الكبير، كالطبيعة التي ليس هو الا «قطعة» منها ، يريد انتصار الاقوى وهزيمة الاضعف ، او بالاقل «رضوخه المطلق» .

ماذا يجب ان يكون ــ سؤال اخير ــ محتوى الدعاية ؟ أحادي الجانب بصراحة وبلا تنوّع ايا كان . من العبث زعم اصابة أوساط مختلفة ؛ ذاك مجازفة بأن لا يفهمنا احد ؛ وحدها فعالة الدعاية التي تمارس «في اتجاه واحد» . قوة انتشار الماركسية كانت ترتكز بالدرجة الاولى «على الوحدة وبالتالي على طريقة الكـــون الوحيدة الرتيبة للجمهور الذي كانت تخاطبه» . لئن نجحت الدعاوة النازية ، فلأنها تركزت على زبانية الماركسية ذاتها ، على «الأنتي قوميين» . لئن اختارت اللون الاحمر من اجل اعلاناتها ، من اجل قاع العلَم ، من اجل ستائرها ، فبقصد وعن خطة : الاحمر هو لون العدو ذاته ، وله فضلا عن ذلك مفاعيل حسية مرموقة على الجماهير وعلى النساء . هلع البرجوازيين ، فزع «هؤلاء البرجوازيين البلهاء في جلد أرنب» ، حين رأوا هؤلاء «القوميين» الذين كانوا قد لقبوا انفسهـــــم «اشتراكيين» يتبنون احمر البولشفيك ! تلكم دعاية مركزة كما يجب !

أن تجد نفسها الجماهير ، المشتغلة ، المضروبة بمدق دعاية كهذه ، مؤممة من جديد ، معادة الى معنى الـ فولك ، الشعب ــ العرق ، هذا لا يكفي ! الدولة العرقية تريد ان تفعل ايضا في العمق على الافراد ، أن تصهر وتضع في مكانهم «الشخصيات» .

هنا تتدخل التربية .

الدولة العرقية لا تبالي كثيرا بادخال العلم في الادمغة «بضربات مضخة» . أولا بأول اجساد سليمة تماما بتربية حيوانية élevage مناسبة . ثم تكوين الطباع : انماء قوة الارادة والقدرة على التقرير ، تذوّق المسؤولية والمجازفة .

في المقام الاخير فقط التعايم بالمعنى الخاص للكلمة ، اي تثقيف الملكات الفكرية . الى «مكافحين» سيحتاج الرايش الجديد ، لا الى مثقفين . ان فكرة واحدة ــ لكنها الفكرة او المثال على سبيل الامتياز ، الفكرة ــ الام لكل الباقي ، النواة المركزية لـ «المثالية» النازية ــ يجب ان تغرَس بلا كلل في الادمغة الفتية : فكرة العرق . «ينبغي ان لا يحدث ان يغادر صبي واحد او بنت واحدة المدرسة دون ان يكون قد اقتيد الى تمام معرفة ما هما نقاء العرق وضرورته» . نفس العرق ذاتها يجب ان تخفق في كل نفس فردية .

في هذه التربية ، سينظّم كل شيء منهجيا لكي يكون الفتى عند مغادرتـــه المدرسة «المانيا كاملا» ، مقتنعا بتفوّق الالمان المطلق على الشعوب الاخرى ، وفي الوقت نفسه بضرورة «العدالة الاجتماعية» داخل الجماعة القومية . عندئذ ، فيما يتخطى فروق الطبقات ،

> سيولد ذات يوم شعب من المواطنين ، متحد ومتمازج بحب مشترك وعزة مشتركة ، لا تزعزَع ولا تقهر الى الابد . الخوف الذي توحي به الشوفينية في عصرنا هو علامة عجز هذا الاخير . كل همة فياضة تنقصه ، بل هي بالنسبة له ثقيلة مزعجة . المصير لن يدعوه بعـد الان الى انجاز اشياء كبيرة . اذ ان اعظم الانقلابات التي حصلت على هذه الارض كانت تكون غير قابلة لفهم أو تصور ، لو أن نوابضها كانت ، بدلا من أهواء متعصبة بل هستيرية ، الفضائل البرجوازية التي تستسيغ الهدوء والنظام الجيد . **من المؤكد ان عالمنا يسير نحو ثورة جذرية . كل المسألة هي ان نعلم ما اذا كانت ستتم من اجل خلاص البشرية الآرية او من اجل مصلحة اليهودي الازلي .** سيكون على الدولة العرقية ، بتربية صالحة للشبيبة ، أن تسهر على حفظ العرق ، الذي يجب ان يكون ناضجا لتحمل هذا الامتحان الاعلى والحاسم . **لكن للشعب الذي سيكون الاول في سلوك هذا الطريق سيعود النصر .**

ان تكريس هذه التربية سيكون في تسليم الشاب الالماني الجيد الصحة والجيد التربية ديبلوم **مواطن** الرايش ، حين سيكون أتم خدمته العسكرية . اذ لا **يولد** المرء مواطنا للرايش ، بل **تابعيا** وحسب . يصير مواطنا اذا استحق . هذا الديبلوم سيكون أهم وثيقة لكل الوجود ؛ سيكون رابطة توحد كل اعضاء الجماعة وتردم الهوة بين الطبقات . **«الان كنّاس الشوارع يجب ان يشعر بانه لشرف اكبر ان يكون مواطنا لهذا الرايش من لو كان ملكا لبلد اجنبي» .**

لكن الاعتراف باهمية العرق ، بتفاوت العروق ، يؤدي ايضا بشكل منطقي الى اخذ حساب قيمة الفرد الخاصة ، قيمة الشخصية ، وحساب تفاوت الافراد.

داخل جماعة عرقية بالذات ، ليس رأس من الرؤوس مماثلا لرأس آخر : «العناصر المكوّنة تنتمي الى نفس الدم ، لكنها تقدم في التفصيل الف فرق دقيق» . القول بأن **انسانا يساوي آخر** هو وجهة نظر ماركسية ، يهودية . «ليست الكتلة هي التي تخلق ولا الاكثرية هي التي تنظم او تفكر ، بل دائما وفي كل مكان الفرد المنفرد» ، الفرد المتفوق . من الضروري اذاً في الجماعة ، فيما يخص الآمرية والنفوذ ، مساعدة العناصر المعترف بانها متفوقة ، والاهتمام بزيادة عددها على نحو خاص . لا تعود المسألة الارتكاز على فكرة **الاكثرية** ، بل على فكرة **الشخصية**.

رسالة الدولة في الخارج

رسالة الدولة العرقية **في الخارج** ، بتعبير آخر اهداف سياستها الخارجية، ليست سوى قذف او إسقاط **رؤية العالم** التي هذه الدولة خادمتها ، والتي عرّفت او حددت كما رأينا لتوّنا مهمتها الداخلية .

الحسام ، الروحي والمادي ، القادر على انزال ضربات ظافرة من اجل فتح المجال الضروري ، تصنعه السياسة الداخلية . والسياسة الخارجية لها ، بالتوازي ، كمهمة «تمكين الحداد من العمل بأمان وتجنيد رفاق سلاح» .

اي رفاق سلاح ؟ وأين سيضرب ، حين سيحين الحين ، هذا الحسام ؟

ان تحليلا باردا على طريقة ماكيافل لا يحفظ الا رفيقَي سلاح ممكنَين : انكلترة وايطاليا . اذ ، بين اسباب اخرى ، هذان البلدان قلقان من السيادة السياسية والعسكرية لفرنسا في اوروبا . والحال فرنسا هي وتبقى العدو الذي يجب على المانيا ان تخشاه اكثر من اي عدو سواه . هتلر ، عدا ذلك ، لا يغضب من استشراس الحقد الذي يعيره لفرنسا ضد المانيا : لا شيء طبيعي اكثر من هذا الاستشراس ، ان هو الا يعبر عن غريزة بقاء الامة الفرنسية . هذه الاخيرة ، اذ هي تموت موتا بطيئا ، ليس من جراء انخفاض عدد السكان بقدر ما «بالزوال التدريجي لافضل عناصر العرق» ، لا تستطيع الاستمرار في ان يكون لها شأن في العالم الا بإسقاطها المانيا . «**لو كنت فرنسيا** ، يكتب هتلر ، **ولو بالتالي كانت عظمة فرنسا عزيزة عليّ بقدر ما عظمة المانيا هي مقدسة بالنسبة لي ، لما استطعت ولما اردت ان اسلك سلوكا آخر غير الذي يسلكه ، في نهاية الحساب ، كليمنصو Clémenceau مثلا**» . لا فائدة اذاً من التعويل على تغير لمشاريع الدمار التي تغذيها فرنسا حيال المانيا . لاسيما وأن الحقد الكليب من جانب هذا «العدو المميت» انما يوجهه بشكل مصمم ومنهجي اليهود . ثمة في فرنسا ، وفي فرنسا وحدها ، اتفاق سري ومضاد للطبيعة بين المال اليهودي الدولي الذي يريد هلاك المانيا والشوفينية القومية الفرنسية . هنا ، في هذا التماثل غير العادي للنظرات، كائن بالنسبة لالمانيا الخطر الهائل . يا فرنسا الفاسقة ؛ ايها الشعب الخائن للعرق

الابيض والذي «يسقط اكثر فاكثر الى مستوى الزنوج» ؛ ايتها الامة شريكة اليهود او الدمية بين ايديهم !

هذه الـ فرنسا ، هذه العدوة المميتة ، يجب ان تعزل ، ان تسحب منها المبادرة السياسية ، ان تتحالف معا ضدها جميع البلدان اللواتي تقلقهن . في المستوى الثاني كل الاسباب العاطفية (مثلا ضم اقليم تيرول الجنوبي من قبل ايطاليا) التي قد تكون عائقا امام هذه الضرورة .

كل دولة تعتبر معنا امرا لا يطاق الجموح السيادي لفرنسا في القارة انما هي اليوم حليفتنا الطبيعية . ما من مسلك ازاء هذه الدول يجوز ان يظهر لنا قاسيا اكثر من اللازم ، ما من تخل يجوز ان يبدو لنا مستحيلا ، اذا كان لنا في النهاية امكان اسقاط العدو الذي يبغضنا بهذا الشكل الكلب . وسوف يمكننا ان نترك للزمن ان يشفي بهدوء جراحنا الخفيفة ، حين ستكون الجراح الاشد خطورة مندملة وملتئمة .

انكلترة ، ايطاليا ، «اعظم قوة عالمية ودولة قومية فتية مزدهرة» ، ذلكم ما سيقدم موارد اخرى ، من اجل حرب اوروبية ، غير التي تقدمها «جثث الدول العفنة» ، النمسا ــ المجر ، تركيا ، التي معها كانت المانيا قد تحالفت في ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ! «الحلف الاوروبي الجديد انكلترة ــ المانيا ــ ايطاليا هو الذي ستكون في ايديه المبادرة السياسية وليس فرنسا» . ستكون المانيا محرّرة بضربة واحدة من وضعيتها الستراتيجية غير الملائمة : «من جهة ، اقوى الأسناد على الجوانب ، ومن الجهة الاخرى ، التأمين الكامل لتزوّدنا بالاغذية والمواد الاولية» . وامكانية ان نتخذ «بكل هدوء ، الاجراءات التمهيدية المطلوبة ، في اطار هكذا تحالف ، بغية تصفية حسابات مع فرنسا !» .

اذاً هكذا هم ، ويرى القارىء لماذا ، رفاق السلاح الذين يعيّنهم **ماين كامبف** لالمانيا المتعطشة الى الثأر . هو ذا اذاً اين ، على من ، سيضرب الحسام الالماني ، **بالاقل كبداية** : على فرنسا المرتجة ، المهوّدة .

(حين هتلر يكتب ، الفرنسيون يحتلون الرور Ruhr على سبيل العقاب ، رغم انكلترة اللائمة : الا يفسر ذلك كل هذا الجموح الحاقد على فرنسا ؟ لكن فيما بعد ، وقد صار مستشارا للرايش ، هتلر سيتجنب دائما الايحاءات المقدمة اليه، «مرارا» ، من قبل سفير فرنسا ، أ. فرانسوا ــ بونسه A. Francois - Poncet في اتجاه تخفيف المقاطع الآنفة ، وذلك بشرح هامشي يرجع الى قضية الرور) (٢).

---

٢ ــ لم تستطع او رفضت جمهورية فايمار دفع التعويضات ، فاحتلت القوات الفرنسية حوض

على فرنسا ، **بالاقل كبداية** ، قلنا . اذ ينبغي ان نتفاهم . ليست المسألة في آخر تحليل ثأرا عاديا لعام ١٩١٤ ، عائدا الى هزيمة ، حيث فرنسا ، من جهتها ، كانت ترى ثأرا لعام ١٨٧٠ . فلنغلق فمهم الابله للذين لا يريدون الا اعادة الحدود السياسية الالمانية لما قبل ١٩١٨ ! غباوة خالصة ! تلك الحدود ليس فقط كانت سيئة من وجهة النظر العسكرية ، بل لم تكن تشمل في الدولة جميع رجـــال **الفولك** (نمسويين ، الخ) . والحال الم يضع هتلر ، منذ السطور الاولى لكتابه ، ان جميع رجال «دم واحد يجب ان ينتموا لرايش واحد» ؟ تلك الحدود لم تكن لا حماية الماضي ولا قوة للمستقبل ، ليست اعادتها هي التي تستطيع ان تقصر جديا المسافة ، التي توجد فيها المانيا ، عن **القوى العالمية الحقيقية** . ولا تعظوا اكثر باستئناف السياسة الاستعمارية Coloniale والتجارية لما قبل ١٩١٤ ، التي لم تكن صالحة الا لاقلاق انكلترة واثارة أعصابها . المسألة شيء آخر تماما . اللحن الذي سيعزفه الان هتلر اوركستراليا ، بشراسته وجموحه العاديين ، للجمهور اللاهث ، هو اللحن المألوف للبانجرمانيين ، لحن **الشعب الذي ليس له مكان ـ مجال** . لنستمع .

اذا كانت الحركة القومية ـ الاشتراكية تريد فعلا ان تحصل امام التاريخ على تكريس رسالة كبيرة لصالح شعبنـــا ... يجب عليها ، بلا مراعاة لـ «تقاليد» و«أحكام مسبقة» ، أن تجد شجاعة حشد شعبنا وطاقته من اجل اطلاقه على الطريق التي ستخرجه من مسكنه الضيق الراهن وستقوده نحو اقاليم جديدة ... يجب على الحركة القومية ـ الاشتراكية ان تسعى الى ازالة التنافر بين رقم تعداد سكاننا ومساحة اقليمنا ـ حيث هذه معتبرة مصـــدر الرزق والبقاء ونقطة استناد للطاقة السياسية ، ـ وهكذا الـــى حذف التنافر الموجود بين ماضينا التاريخي وعجزنا الراهن الـــذي ليس له مخرج . يجب عليها ان تعي اننا ، **بوصفنا حراسا لاعلى بشرية على هذه الارض** ، لنا ايضا اكبر الإلزامات ؛ وانها ستستطيع ان تلبي ذلك على نحو أفضل كلما كانت أحرص على **جعل الشعب الالماني ياخذ وعي عرقه** .

الرور قلب المانيا الصناعي (١٩٢٣) . بلغ النهب والاذلال القومي ذروتهما . كانت هذه المسألة القومية الالمانية رافدا شعبيا قويا لهتلر . الرافد الآخر سيكون الازمة الاقتصادية والبطالة المخيفة بعـــد ١٩٢٩ . ـ السفير اندره فرانسوا ـ بونسه ، صاحب **ذكريات سفارة في برلين** ، ثمينة ، كـــان يسعى الى التقريب بين المانيا الهتلرية وفرنسا (والغرب عموما) كما فعل كثيرون غيره . «ايديولوجيا» استند الى الخط الرئيسي لتوجه هتلر و«كفاحي» : الزحف نحو الشرق ، المجال الحيوي ، ضـــد روسيا ـ السلاف ـ اليهود ـ البولشفية ـ الماركسية . لنتابع القراءة .

النتيجة العملية : النظر نحو الشرق ، ايقاف «زحف الجرمان الازلي» نحو جنوب (ايطاليا ، البلقان) ونحو غرب اوروبا . لكن الغرب ، هو فرنسا ، هو العدو الميت . نعم ! تصفية الحساب ضرورية ، كما رأينا ، ويجب وضع حد لهذا الصراع «الذي ليس له نهاية» ، ولكن «العقيم» . الا ان «ابادة فرنسا» ما هي الا تمهيد ، الا بداية ، «تغطية لمؤخرتنا من اجل توسع سكننا في اوروبا» ، وسيلة «لإعطاء شعبنا اخيرا ، على مسرح آخر ، كل الاتساع الذي يقدر عليه» . وهذا المسرح الآخر هو في الشرق ، وهو روسيا ذات السهول الجبارة .

القدر نفسه يبدو يعيّنها بإصبعه للالماني المحروم من المكان . بالفعل ، ما معنى ظفر البولشفية في روسيا ، ان لم يكن هو التالي : ابادة «النواة الجرمانية» للطبقات العليا القائدة ، النواة التي على حسابها كانت تعيش روسيا ، غير القادرة بذاتها على خلق دولة ـ والاستعاضة عن هذه النواة «من العرق الخالق للدولة» باليهودي . لكن اليهودي خميرة تفسّخ ، لا عنصر تنظيم . اذن «دولة الشرق العملاقة ناضجة للانهيار . ونهاية السيطرة اليهودية في روسيا ستكون ايضا نهاية روسيا كدولة . لقد اصطفانا المصير لنشهد كارثة ، ستكون الدليل الأمتن على صواب النظريات العرقية» .

وصية سياسية ـ ما لانكلترة ، ما لفرنسا (*) ، ما لم يكن لالمانيا في يوم من الايام ـ وصية سياسية للأمة الالمانية من اجل موقفها في الخارج :

> لا تسمحوا ابدا بأن تتشكل في اوروبا قوتان قارّيتان . في كل محاولة لتنظيم قوة عسكرية ثانية على حدود المانيا ، روا هجوما ضد المانيا ... . احرصوا على ان لا يكون مصدر قوة بلدنا في مستعمرات ، بل في اوروبا ، في تراب الوطن . لا تعتبروا ابدا الرايش مضمونا ما لم يتمكن من اعطاء كل فرد او فرخ من شعبنا ، لقرون ، قطعته من الارض ...

بوضوح ـ اذا كنا نعرف القراءة ـ لا يترك مزيدا لمستزيد ، هتلر ، مسيح الفداء الالماني ، الوسيط بين الإله الآري وشعبه المختار ، عيّن لعمل الدولة هدفه المزدوج : «الاقليم ، هدف سياستنا الخارجية ، ومذهب فلسفي جديد ، هدف سياستنا الداخلية» . بالحقيقة ، لنكرر ذلك ، المذهب الفلسفي الجديد او رؤية العالم الجديدة ـ العرق ـ تأمر السياسة الخارجية ايضا بنفس القدر . المطلوب ان يؤمّن لعرق الأسياد ، مكانه تحت الشمس ، مجاله «الحيوي» ـ مجالا مميتا للعروق الدنيا الصائرة الى العبودية . اذ ، كما يعلن هتلر في السطور الاخيرة من **خلاصته** ، ـ المكتوبة في تشرين الثاني ١٩٢٦ ، وقت كان ، منذ اطلاق سراحه ،

(*) منذ ريشوليو : هتلر ، ككثير من الالمان ، كان يعتقد ، خطأ ، ان وصية الكاردينال الكبير تعالج السياسة الخارجية .

قد اعاد تنظيم الحزب النازي ، وجدده ، وكيّف تاكتيكه مع العمل البرلماني :

ان دولة ، في عصر تلوّث العروق ، تسهر بغيرة على صون افضل عناصر عرقها ، لا بد ان تصبح ذات يوم سيدة الكرة الارضية . ــ على منتسبي حركتنا ان لا ينسوا ذلك ابدا ...

مصير المؤلف

اذا صدّقنا اوتو شتراسر Oto Strasser ، في **هتلر وانا** ، كان المؤلف في حالته الاولى ، «في الوضع الخام» ، مخلوطة حقيقية من افكار شائعة مبتذلة ، من ذكريات مدرسية ، من قراءات سياسية هُضمت بشكل سيء ومن احقاد شخصية. كان يوجد فيه ايضا صدى احاديث يوليوس شترايشر Julius Streicher ، وهو وحش مختل ، تتسلط عليه اللاسامية والجنس ، و روزنبرغ Rosenberg ، البلطيقي العرقي الذي كان سينشر في ١٩٣٠ **اسطورة القرن العشرين** . كل ذلك «مكتوبا في اسلوب تلميذ صف سادس» . المؤلف لم يصبح قابلا لان يقدّم الا بفضل رجل اكليروس واسع الاطلاع ، هو الاب شتمبفل Staempfle ، الذي اشتغل عليه طيلة شهور ، نظّم ونسّق فكره ، مستبعدا منه «الاخطاء الصارخة والسخافات الصبيانية الزائدة» .

اوتو شتراسر ، الذي امر هتلر باغتيال شقيقه غريغور Gregor في مجزرة ٣٠ حزيران ١٩٣٤ ، المصمّمة بماكيافيلية ، يمكن ان يكون موضع شك . الامر الاكيد هو ان **كفاحي** ، في حالته النهائية ، مصحّحا او لا من قبل الاب شتمبفل (الذي «صُفّي» هو ايضا في ٣٠ حزيران) ، لا ينمّ عن اية سيطرة فكرية. نحن حقا امام حالة ــ حد ، حيث اعطى حظ تاريخي عجيب قوة نفوذ وشهرة خارقيتن لعمل متواضع بحد ذاته ــ حتى خارج كونه يثير اشمئزاز الروح البشري **من حيثيات كثيرة** .

«في حاكمتنا كفرنسيين ، مؤلف ثقيل لا يُهضم ، اتفاقي ، خال من الحياة» (آ. ريفو A. Rivaud . لا شيء اصح ، بوجه الاجمال . يحدث مع ذلك ــ والمقاطع المنقولة آنفا شاهدة ــ ان يجتاز الانماءات الثقيلة والعجينية ، المليئة بالتكرار ، العسراء ، الطويلة الى ما لا نهاية في احيان كثيرة ، أن يجتازها فجاة هوى محرق وملتهم . عندئذ حقا ، وننقل جملة من الكتاب ، «ينشعّل جمر» ، في لهيبه المحرق سينصهر «الحسام الذي سيعيد لـ سيغفريد Siegfried الجرماني (٣) الحرية وللامة الالمانية الحياة» ــ بانتظار ان يدفنها، هذه الامة الالمانية،

---

٣ ــ زيغفريد بطل «اغاني الـ Niebelungen » اساطير جرمانية قديمة في عنوان اوبرا للموسيقار فاغنر ، الدراما الثالثة في رباعيته الشهيرة ، ثم اسم خط التحصين الذي اقامته المانيا على حدودها الغربية في ١٩٣٧ ــ ١٩٤٠ .

في نهاية الحساب ، تحت رماد اسوأ كارثة في تاريخها . هذا الانطباع من نار ، من حرق ، لدى قراءة مقاطع كهذه ــ حتى في الترجمة الفرنسية ــ هو من طبيعة فيزيقية ، لحمية ، اكثر منها بكثير ذهنية . هكذا أ. فرانسوا ــ بونسه ، مستمعا الى هتلر يخطب في الجمهور في يوم اول من ايار ، قد لفت نظره بشكل خاص «الهوى الذي كان يحمله ، النفَس الذي كان يحركه والذي حرفيا كان يوسع منخرَيه» . كان هذا فعلا المقاتل السياسي ، الكاسر الكامل في الغابة السياسية، الذي كان يجاهر في **كفاحي** ان الكفاح لا يقاد جيدا والى النهاية الا في الهوى وبالهوى .

عن جوهر وصميم المؤلف ، وعن مصادره ، لنحتفظ مرة اخرى حكم سفير فرنسا : «لباس من قِطع ، مخلوطة» . نجد ، بجوار عناصر مستعارة من اللينينية الروسية والفاشستية الايطالية ، كل الموضوعات المضادة للثورة صميميا والقوموية، التي اعتاد المختصون بالجرمانيات على رؤيتها تتداول منذ فيخته عبر الفكر الالماني. موضوعات حملتها الحرب والهزيمة والثورة الى أقصى شدتها .

بانجرمانية ، **عرقية** ، **لاسامية** ، تلك هي اكثر هذه الموضوعات طنينا . انها تعبر عن تصور للعالم ارستقراطي ، هيرارخي ، آنتي مساواتي ، آنتي ديمقراطي، وفي جذره العميق آنتي مسيحي . يغرى المرء بأن يستدعي ، ببعض التسرع ، فكر نيتشه . والحال ، لشيء عجيب ، ان خارج المانيا ، ان في فرنسا ، وقبل نيتشه، قد وُلد السيل العرقي العكر ، الذي جاء يرفد ويكبر في اواخر القرن التاسع عشر نهر البانجرمانية العريض . كتاب الكونت دو غوبينو Gobineau ، **محاولة عن تفاوت العروق البشرية** (١٨٥٣ ــ ١٨٥٥) ، المستوحى هو نفسه من «الآريانية» التي كانت الهندولوجيا indologie قد روجتها ، كان الكتاب الاساسي .

حسب غوبينو ، المسألة الإثنية او السلالية تقدم مفتاح كل التاريخ البشري . التفاوت الإثني اصلي ودائم . رفعة المقام ملك للعرق الابيض ، وداخله **للآريين** Arians ، ابناء يافث ، و ، بين هؤلاء ، للفرع **الجرماني** ، الذي بقي مدة **طويلة بغير خليط** ، في حين ان الفرعين السلتي والسلافي كانا قد تهجنا بالاصفر. الجرمن ، العرق النبيل على سبيل الامتياز ، المستودَعون الصحيحون للتفوق الابيض ، استولوا على الامبراطورية الرومانية . ولكنهم بدورهم انحطوا باختلاط الدماء ، بالتخالس . الالمان الحاليون «قليلو الجرمانية» . هكذا فالبشرية ، من جراء أن قسط الدم الآري يستنفد فيها بلا رحمة ، تسير بلا مغفرة نحو الانحطاط.

الا انه بعد قليل ، كان فرنسي آخر ، هو فاشه دو لا بوج Vacher de La Pouge ، مؤسس الانتروبوسوسيولوجيا، مؤلف كتاب **الآري ودوره الاجتماعي** (١٨٩٩) ، بين كتب اخرى ، يصحح تشاؤم غوبينو . كان يجهر بأن اساليب اصطفاء منهجية ، كتلك التي يطبقونها على النبات والحيوان ، تستطيع ان تجدد النوع الانساني باستخدام ما بقي من آريين أصلاء ــ وبذلك ان تؤخر على الاقل الانحطاط

الذي انذر به غوبينو . «المفتاح رُمي في الحقل المغلّق . من سيستولي عليه ، سيستخدمه ؟ » .

اخيرا ، كان انكليزي ، هو هوستون ستيوارت تشمبرلين H.S. Chamberlain صهر ريشارد فاغنر R. Wagner ومؤلف **مداميك القرن التاسع عشر** (١٨٩٩) كان اكثر تعزية ايضا . حسب رايه ، العلائم البدنية (الشقار ، العيون الزرقاء ، استطالة الجمجمة او «دوليكوسيفاليا» العزيزة على لابوج) ليست كل شيء . الامر الجوهري هو حيازة المرء عرقه في وجدانه ذاته» . الامة ، فضلا عن ذلك ، بوصفها بناء سياسيا ، لها ان تلعب دورا حاسما ، بخلقها «الشروط الضرورية لحياة العروق» . لذا كان تشمبرلين ينفصل بترفع عن غوبينو الذي رفض للالمان الحديثين لقب ورثة الآريين ــ الجرمان .

ليس ذا شأن كبير ان يكون هتلر قد عرف عن يد أولى او ثانية او ثالثة مؤلفات هؤلاء الاجانب الثلاثة الساجدين امام الآري ، والذين كانوا على هذا الاساس يتمتعون في المانيا بشهرة ليست بتاتا لكل منهم في وطنه . بمادتهم الّف عسله العرقي الحرّيف . لدى قراءته نجد كلمة بكلمة ، احيانا ، تأكيدات من غوبينو . «المفتاح» الذي القاه لابوج ، استولى عليه . اخيرا ، جعل ملكه تفاؤل تشمبرلين ، ملكه ايمان هذا الاخير بوجدان العرق وبالجهد العرقي الواعي للتنظيم السياسي. المذهب القومي ــ الاشتراكي للعرق ، كما يعرضه **كفاحي** (روزنبرغ سيوضحه ويضبطه ؛ غونتر Guenther ، منظّر «الشمالية» سيحسّنه) ناتج عن مزج أفكار أمبيريقية ونفعية بشكل خالص ، طبخة دعاية ناجزة المهارة .

أما اللاسامية الالمانية ، ــ السابقة كثيرا لهتلر ، ولكن كان لهذه العرقية الآرية ان تشددها الى حد هيستيريا القتل ، ــ فهي تمثل بوصفها وجها في نضال الفكر الجرماني ، القوموي في صميمه منذ فيخته ، ضد كل الاممياتِ او الدوليات : الدولية الكاثوليكية ، الدولية البرجوازية ، الرأسمالية والليبرالية ، الدولية الاشتراكية او الماركسية . «بما ان اليهودي يعلَن حاضرا وفاعلا في قلب كل هذه الدوليات ، فان اللاسامية تتخذ هنا صورة مذهب اساسي ، وان سلبي» (فرمي Vermeil) .

منذ ١٩١٧ ، والحرب على أشدها ، قبل الهزيمة والمهانات ، قبل الثورة والجمهورية ، كان قد شن هجوم لاسامي في شكل خديعة ادبية . انها نشر هذه الـ **بروتوكولات حكماء صهيون** ، المصنوعة بالتمام من قِبل بارون الماني ، والتي يتعلل بها هتلر صراحة في كتابه . في هذه الوثيقة المختلقة ، اليهود يتهمون انفسهم بالسعي سرا الى هدف سيطرة عالمية عن طريق تدمير الدول المسيحية ، إما بفضل الديمقراطية ، التي تليها الاشتراكية ، ثم الشيوعية ثم الفوضى او بفضل الحرب . هكذا فهم قد اثاروا ، من اجل استنفاد الشعوب وتأمين حكم المال اليهودي ، حرب ١٩١٤ ! ــ هذه **البروتوكولات** كانت اذاً ، منذ ما قبل التبشير القومي ــ الاشتراكي ، قد خدمت كـ «مجرور جامع» ، حسب تعبير إ. فرمي ، لشتى انواع التهم التي كان التصديق الالماني يقبلها كعملة رنانة . ماذا يفعل هتلر

في **كفاحي** ، كما في خطبه ، سوى ابتذاله بـ «عنف هيستيري» (ونتكلم بلغته) الأطروحة الرئيسية في هذه الوثيقة الأكذوبة ؟

سواء كان الامر ، من جهة اخرى ، هو اللاسامية او الآريانية او اي موءال آخر عزيز على الجمهور الالماني ، فان لفي هذا — الابتذال — تقوم عبقرية المؤلف الديماغوجية . بعد الهزيمة ، كان عقول المان عالون ، من عرق نيتشه ، ارستقراطيو الفكر ، قد عبروا في كتب عالية متغطرسة وقاسية (مثلا أوسفالد شبنغلر O.Spengler في **افول الغرب** ، مولر فان دِن بروك Moeller Vanden Brcck في **الرايش الثالث**) عن توترهم الداخلي ، عن يأسهم ، عن هواهم القومي ، وأحلامهم الاسطورية . بتعبير آخر لقد ظهر آخرون من **مذاهبة الثورة الالمانية** (هذا عنوان كتاب لـ إ. فِرمي) ، و ذوو طيران فكري آخر تماما ، غير زعيم القومية — الاشتراكية وملازميه . لكن صاحب **كفاحي** — كي لا نتحدث الا عنه — قد استطاع بشكل يثير الاعجاب ان يستخلص من فكرات معقدة ومتوترة ، لا يطالها البسطاء ، غذاء فكريا تتمثله ذكاءات «ابتدائية» .

ابتدائية élémentaires ، او ، وهذا نفس الشيء ، اظلمها ، اعماها الغرور المجروح ، الغضب الوطني ، الحقد المدني ، عطش الانتقام او التغيير ، اليأس والفراغ المعنوي ، الحاجة المجنونة الى سراب . ان مشاعر كهذه تولّد النشاطوية المصرة ، — الفعل من اجل الفعل ، — الهرب الاعمى الى الامام ، «ثورة العدَمية» ، لهي شائعة بعد الهزات الاجتماعية الكبرى ، بعد الحروب الكبرى . انها تختفي حين المجتمع نفسه يتعافى ، حين الدولة تستقر في القوة (لا في العنف) .

بحيث على المسار نفسه الذي كان سيتخذه ، اعتبارا من ١٩٢٥ — ١٩٢٧ ، التاريخ الالماني ، كان سيتوقف مصير **ماين كامبف** . اذا «حمل» التاريخ ، كما يحمل البحر سفينة ، الحزب القومي — الاشتراكي وزعيمه المتعصب ، فانه سيحمل في الوقت نفسه توراته المتموجة بالاحقاد ، قرآنه المسعور : **ماين كامبف، كفاحي** . اذا بالعكس لفظ التاريخ الحزب وزعيمه ، عندئذ فان احدا في المستقبل، عدا بعض اخصائيي الاطلاع التاريخي — هم عدا ذلك سيعتبرونه غير قابل للقراءة — ، لن يفتح هذا الكتاب الصادر عن مجرض مهووس .

في **ايضاحاته عن ماين كامبف** ... ، «الكتاب الذي غيَّر وجه العالم» ، بنوا — ميشان Benoist - Méchin يرسم منحنى نجاح المؤلف .

بادىء بدء هذا الاخير يمر دون ان يلحَظ تقريبا . لا تحييه سوى حماسة جماعة صغيرة من المعدين ، الذين يرون فيه «الانجيل الجديد» السياسي . الانكليزي المتجرمن ، كبير اساتذة العرقية ، هوستون ستيورت تشمبرلين ، يكتب للمؤلف (كان قد التقى به سابقا في بايروت Bayreuth ، عند سيغفريد فاغنر، ابن الموسيقار) :

هناك عنف يبدأ وينتهي في الفوضى ، ولكن هناك ايضا عنف يخلق العوالم الجديدة . اعتقد ان التاريخ سيعدك ذات يوم بين كبار

البنائين لا بين المدمرين . ان تكون المانيا قد اظهرتك في ساعة نكبتها الاكبر ، فأي دليل آخر نريد على حيويتها ! وكأن عينيك مزودتان بأياد : تقبضان على الرجال ثم لا تتركانهم ... .

ثم ، ببطء ، انتشر المؤلف من قريب الى ابعد ، مثل بقعة الزيت . في الصحافة البرجوازية والاشتراكية ، استنكار وضحك صاخب : ترهات «مجنون عظمة» هستيري ، مكانه «مستشفى المجانين» : المانيا ذات يوم يحكمها هذا الرجل: من يستطيع تصور هذا الحلم المضحك على وجه الافراط والغلاظة ؟ انها الفترة ، ١٩٢٥ — ١٩٢٩ ، التي تبدو فيها جمهورية فايمار واقفة على قدميها : كان شائعا آنذاك ان يقول برجوازي الماني هادىء بضحكة كبيرة لفرنسي يصادفه: «انا وزوجتي ذاهبان هذا المساء لسماع هذا المجنون» .

لكن ، من ١٩٢٩ الى ١٩٣٣ ، بفضل ازمة مفزعة موسومة ب «البطالة» والتحول الى بروليتاريا ، والبؤس» ، يتقدم الحزب القومي — الاشتراكي بخطى عملاقة ، ومعه انتشار توراته . انتشار عدا ذلك منظم بشكل منهجي من قبل دار إهرـفرلاغ ب مونيخ ، صاحبة مونوبول وذات الوسائل التجارية الجبارة . في ١٩٣٣ ، حين يصبح هتلر مستشارا للرايش ، كانت ثمانمئة الف نسخة قد بيعت . هتلر ، الذي كان قليل الايمان بفضيلة المكتوب وشديد الايمان الى ما لا حد له بفضيلة القول الجامح ، كان هو نفسه بلا كلل قد ساند كتابه «بعمله الشخصي ، مسترجعا وموسعا موضوعاته في آلاف من الخطب» ، — كما سبق له ان سمع الماركسيين يفعلون بالنسبة لنصوص ماركس وانجلز ولينين . كان قد وضع ، في خدمة نشر المذهب المبسوط في الكتاب ، كل جهاز — الحزب المتزايد الضخامة والقوة . «رايات الصليب المعقوف ، رايات الميليشيات السوداء والسمراء ، جرفت هذا الكتاب معها في صعودها الى السلطة» .

اللايقينات الالمانية ، التي حللها تحليلا نفسيا بيار فيينو Pierre Viénot في أواخر ١٩٣٠ بذكاء حاد للغاية ، كانت قد اخلت المكان ، على الاقل في وسط الشبيبة المعصَّبة ، ليقين جماعي وحشي ، تبلور لدى قراءة هذا الكتاب التافه ولكن المحرق . الا ان وصول المؤلف الى السلطة كان يمكن ان يكسر هذا الاندفاع الجامح ، لو ان هتلر فعل — كما كانت تحلم بسذاجة بعض الاوساط الفرنسية والانجلوسكسونية — مثل الزعماء السياسيين للبلدان الليبرالية ، الذين ينسون في السلطة ، لحسن الحظ ، مزاوداتهم في المعارضة . لكن ، بالنسبة لهتلر ، لم تكن مستشارية الرايش الا وسيلة المضي منهجيا من النظرية الى التطبيق العملي، و ، بمراحل متدرجة وامينة ، تحقيق المذهب ، البرنامج الداخلي والخارجي ، المعروضَيْن في **كفاحي** .

لذا يصبح الكتاب بشكل إلزامي كتاب — راس كل الماني شاء او لم يشأ . حتى الاشخاص غير — النازيين او المناهضون للنازية يعتبرون من الفطنة ان يحوزوه ؛ حتى بدون ان يقرؤوه . ما من مكتبة عامة او شبه — عامة تستطيع تجنب امتلاك

الكتاب بنسخ عديدة . كل عريسين ينالان «رسميا وبأبهة» نسخة منه ، يوم زفافهما ، الامر الذي يجبر الكومونات ــ البلديات بأن تتمون به سلفا على نحو واسع . مقاطع منه هي «نظاميا موضع شرح وتعليق» في كل خلية Cellule Zelle قومية ــ اشتراكية . رسل من الحزب لا حصر لهم ، مسلحين بكراسات لا حصر لها ، تساعدهم الصحافة والاذاعة والسينما ، ينشرون في كل مكان مادة هذا الانجيل رقم واحد ، مع عدا ذلك في الوقت نفسه مادة الانجيل رقم ٢ (**أسطورة القرن العشرين** لـ روزنبرغ) . المطلوب انفاذ هذه المادة المزدوجة في كل الحياة الالمانية ، خلق نفاس psychose في روح كل الماني وأيضا كل المانية ، وسواس متسلط ، تقليص الذكاء الالماني الى طاعة منفعلة ، عمياء ، نوعا ما ميكانيكية ، لقوانين ، لاوامر الفهرر» .

بنيتجة ذلك ، تصعد أرقام مبيع الكتاب صعود سهم . مليون وخمسمئة الف نسخة في ١٩٣٤ ؛ مليونان وخمسمئة الف في ١٩٣٦ ؛ ثلاثة ملايين ومئتا الف في ١٩٣٧ ؛ اكثر من اربعة ملايين عشية الحرب ؛ اكثر من ستة ملايين في نيسان ١٩٤٠ ؛ «اعظم نجاح طباعي عرفه العالم» . حقوق المؤلف بلغت في ١٩٣٨ ثلاثين مليون فرنك . هتلر ــ يكتب في ١٩٣٩ بنوا ــ ميشان ــ «لا يتقاضى ماركا واحدا من الدولة الالمانية ، يعيش حصراً مما يدر عليه كتابه» ...

قرانا أعلاه حكم عالم ــ الجرمانيات الثقة الذي أصدره ا. فرانسوا ــ بونسه عن **ماين كامبف** . في نفس الـ **ذكريات من سفارة في برلين** التي تتوسع بشكل دائم الى التاريخ الكبير ، لنقرأ ايضا ، قبل تركنا الكتاب ــ المقدس القومي ــ الاشتراكي ، هذه السطور التي ترسم عن مؤلفه لوحة لا تنسى :

> كان على اتصال مع شعبه كما بواسطة أنتينات antennes تعلمه عما الجمهور يرغب او يخشى ، يؤيد او يلوم ، يعتقد او لا يعتقد . كان هكذا يستطيع ان يوجه دعايته بأمانة وكلبية متساويتين واحتقار غير مقنّع للجماهير . الى العنف والشراسة كان يضم كفاءة في الدهاء ، في النفاق ، في الكذب ، تشحذها الخصومات والحزازات التي كان حزبه بلا انقطاع فريسة لها . كان يعرف ان ينوّم خصمه، الى اللحظة التي يستطيع فيها التخلص منه، و ، عند امضائه معاهدات ، أن يفكر بكيفية تهربه منها .

في هذه اللوحة القوية ، الا نرى مجتمعة كل قسمات «الامير الجديد» حسب ماكيافل ؟ **امير جديد** مكيّف للقرن العشرين ؛ قرن **الجماهير والاساطير** الاجتماعية او القومية المنفلتة من عقالها ؛ قرن الوحشية العلمية الباردة ايضا .

خاتمة

الروح ضد لوياثان

«ان قرننا ، تجاه القرن التاسع عشر ، يبدو انبعاثا للقدر» .

اندره مالرو André Malraux

تعيينية **العرق** الوحشية ، زهرة القوموية السامية والمسمومة ؛ تعيينية **الطبقة** القليلة الانسانية ، زبدة الاشتراكية ، مع ان هذه نبعت من اكثر الاحتجاجات انسانية : هكذا تعود الى التكوّن القدَرية الجبرية القديمة . الاساطير نازلة بنا ، فيها يتراكب يقين علمي — زائف ويقين ديني — زائف ، مؤسس على شبه — وحي او كشف نوراني . ضد هذه الميتولوجيات الجديدة ، الانسان الحديث ، الذي هي تسحق فرديته وشخصيته ، يتخبط كما يستطيع ، حين يستطيع . الا اذا كان، وقد خدرته الدعاوات ، أفيون الجماهير حيث هو غاطس ، لا يعود يتخبط . هذا النوع من موت رخو ، كان توكفيل ، أمام مد المركزية الصاعد ، قد لمحه باستفظاع. وتجاه منظور كهذا ، كان روحه البصير والرفيع يثور ، ولكن يريد ان يأمل .

خلال العشرين سنة الاخيرة ، بين الحربين العملاقتين ، نفس ثورة الروح عبرت عن ذاتها في عدد من المؤلفات الجيدة ، المرشحة لتكريس التاريخ — الذي له نزوات ، كما هو معلوم . ان مكان توكفيل ، هذا الـ مونتسكيو — القرن التاسع

عشر ، له بعد ان ينشغل في القرن العشرين ، العصر الحديدي الذي لا يشير الامل كثيرا .

★★★

ثورة الروح ضد مادية ماركس التاريخية وكل الفلسفة التي تقتضيها وتتضمنها .

ابعد من الماركسية ، **Au delà de Marxisme** ، ذاك هو العنوان ، الرنان ، والذي كان صداه قويا ، الذي اختاره البلجيكي هنري دومان **Henri de Man** الترجمة الفرنسية(١٩٢٧) للكتاب الذي كتبه بالالمانية عن«سيكولوجيا الاشتراكية». المؤلف نفسه يصف عمله بأنه «قطعة من سيرة ذاتية روحية» . لطالما كان ماركسيا حتى نخاع العظم ، لكنه ــ يقول لنا ــ شعر نفسه مضطرا ، بعد سجال قاس ، الى القطع مع ماركس ليضع ذاته في وفاق مع نفسه .

القطع مع ماركس ، بالنسبة له ، ليس انكاره . انه «تجاوز» مذهب لم يكن في زمنه «غلطا» بل صاره . عقلانية وتعيينية ــ حتمية ماركس ، المؤلف يرفضهما كذلك بوصفهما فات أوانهما ، بوصفهما موافقتين لذهنية علموية خاصة بالقرن التاسع عشر ومتجاوزة في القرن العشرين ، «قرن السيكولوجيا» . لم يعد الناس، على حد قوله ، يؤمنون بأن المعرفة الانسانية يمكن ان تتلخص في الفكر المنطقي (برغسون ، بين آخرين ، مر من هنا) . **الدوافع** **Mobiles** هي المهم . والحال ان كثيرا من هذه الدوافع ، في الطبقة العاملة ، ذات طبيعة لا اقتصادية بل إثيقية ، معنوية ، فكرية . بعضها يصل الى توجيه التطور الاقتصادي نفسه ، بعيدا تماما عن ان يكون محض انعكاسه . الماركسية لا تعطي سوى «كاريكاتور» عن ذهنية العمال الحقيقية . هنري دو مان ، بتماسه اليومي مع واقع الحياة العمالية ، قد اضطر ، رغما عنه تقريبا ، الى التسليم للبداهة ، الى اعادة أوليتها للمشاعر ، للعواطف . محض تطيّر عقلاني تمرير المعرفة قبل الشعور ــ العاطفة . الارادة الطبقية تنبثق ، حسب ماركس ، من الوعي الطبقي . كلا : الشعور الطبقي، وهو حالة عاطفية ــ انفعالية ، يسبق الوعي الطبقي ، وهو حالة معرفة . المفتاح الجوهري للذهنية الطبقة العاملة موجود **في مركب الدونية الاجتماعية** ، ــ مسالة كرامة ، اذاً ، ــ مركبها المتولد من جملة اسباب واسعة . باطلة تماما ، من هذه الزاوية ، أذكى وأصح المضاربات الفكرية الماركسية عن القيمة وفضل ــ القيمة . ان «في وسطهم الحياتي الواقعي والمتغير تاريخيا» ينبغي النظر الى العمال ــ هذه الكائنات الحية ، التي لا تعرف الماركسية ان ترى فيها سوى الابطال المجرّدين لدراما تاريخية ، لرسالة تاريخية ثورية .

تعيُّنية ماركس ، حتميته ، «ضرورته التاريخية» ، هـ. دو مان يعارضها بقول شيلر **Sehiller** : «الانسان **يريد** ... الاشياء **يجب عليها** .» . أجل ماركس يؤيد ان الانسان «يريد» وان ارادته تؤثر على ايقاع الصيرورة التاريخية ؛

لكنه يعتبر ان هذه الارادة هي نفسها معيّنة مسبقا من قبل **التطور الاقتصادي** . بتصميم ومنهجية يضع ، في تشكل هذه الارادة ، الدوافع المصلحية ، «الغريزة الكسبية» ، قبل وفوق الدوافع الإتيقية . اطروحة مجانية تماما . خلط ، في الحاصل ، ومواز للخلط الذي ارتكبه داروين ، في البيولوجيا ، بصدد تأثير البيئة على تحول الانواع الحيوانية ، خلط بين **الاسباب والشروط** .

> الانسان يريد ــ يصحح هنري دو مان ــ **وان مشيئته هي التي تحول المجتمع** ؛ الا ان التغييرات المرادة الوحيدة القابلة للنجاح والبقاء هي التغييرات التي يمكن ان تتفق مع الشروط المادية التي تؤلف البيئة . هذه الشروط تنبع ، في شطر ، من الطبيعة البشرية ، وفي شطر آخر ، من الوضعية الاجتماعية للّحظة .

في الاساس ، حسب مؤلفنا ، الماركسية نقلت وبدلت فكرة الله طبقا لحاجات عصر ملحد وعلموي . الاجيال المؤمنة كانت تدعو «الله» القانون السري المهيمن على المصائر البشرية . انها الان «قوانين طبيعية مزعومة للتطور الاجتماعي ، مستنتَجة علميا ، تلعب هذا الدور المعطى لله . انها تقوم بوظيفة إله صارم وعنيف وقاس على نحو خاص : «يَهوه العهد القديم وإله الكالفينيين» اكثر منه اله القديس فرنسيس الأسيزي ! ما الذي امامنا هنا ، ان ليس الخلق المصطنع لـ «وهم سحري» ، إلتماس «قوة فوق الطبيعة» ، هي الضرورة التاريخية ؟ لا شيء اصلح، على الارجح ، لتخويف الخصوم ولتشجيع وتحميس الانصار : لكن بثمن اية تشويهات للذهن والحس الاخلاقي عند هؤلاء الاخيرين ! بجملة ثاقبة ، ه. دو مان يتنادى من أفكار ماركس الى ذات دوافع ماركس ، الذي **«لم يقدم الاشتراكية على انها ضرورية الا لانه كان يعتبرها ، إثر حكم إخلاقي افترضه بشكل مسبق وبدون ان يصرح به ، مرغوبة»** .

نتيجة قاسية : ان اشتراكية **علمية** ، بالمعنى الماركسي ، اي مؤسسة على معرفة الماضي ومعرفة المستقبل الضروري الحتمي ، استحالة وحماقة . **مثلها** الحديث عن «الحب العلمي» . المؤلف يفضح هنا وجها لهذه **«العبادة الوثنية»** ، القليلة العلمية الى هذه الدرجة ، للعلم ، التي عادت وجعلت من الانسان البربري الذي كشفته حرب ١٩١٤ (بانتظار ما هو افضل !) . ويطلب : فلتنبذ هذه الاغلاط القاتلة ، ولتنتقل الاشتراكية من صعيد **العلم** الى صعيد **الوجدان** .

> ليس ثمة الا علم واحد يمكن ان يزعم قيادة واجبنا : انه علم الخير والشر ، الوجدان ــ الضمير . ان اعلى هدف تستطيع الاشتراكية العلمية ان تأمل في بلوغه هو ان تكون علما اجتماعيا في خدمة الوجدان الاجتماعي ... . **انا لست ماركسيا بعد الان** ،

ليس لان هذا التأكيد او ذاك من تأكيدات الماركسية يبدو لي خاطئا، بل لانني منذ ان تحررت من طريقة التفكير الماركسية ، **احس** نفسي أقرب الى تفهم الاشتراكية ، بوصفها تظاهرا ، يتغير حسب العصور ، لطموح أزلي نحو نظام اجتماعي موافق لحسّنا الاخلاقي.

★★★

ثورة الروح ضد الماكيافيلية الجديدة ، سواء نسبت نفسها الى الطبقة ، الى العرق ، او الى الدولة ــ الامة .

في مؤلّفه **مبادىء سياسة انسانوية** (١٩٤٤) ، الفيلسوف جاك ماريتان J. Maritain يصدي بشكل مثير للفضول ــ صدى كاثوليكيا ــ جملة موحية من **ابعد من الماركسية** عن الوحدة الصميمية التي تربط في نظرهما المسيحية والديمقراطية والاشتراكية ، «ثلاثة أشكال لفكرة واحدة» . ان مثلا اعلى من عدالة ومن حرية ، المثل الاعلى الديمقراطي ، المثل الاعلى الاشتراكي ، يحتاج اكثر من اي سواه كي يتساند ، يؤكد ماريتان ، الى أسس ميتافيزيقية ودينية جبارة. اذا كانت الديمقراطية هي انسانوية ، فهي لا تستطيع ان تعلن نفسها ملحدة ، أن تنبذ كل تعال بدون ان تغذي في جنباتها أفلاسها وهلاكها . اذ هي تطلب من المواطن إكراها قاسيا على نفسه ، اذ هي تتطلب منه عملا دائما من الذات على الذات ، الديمقراطية تنتسب في الاساس الى وحي «بطولي» وعكس وحي إبيقوري بالتمام . انها اذاً بحاجة الى طاقات الخميرة المسيحية . وحدها القوة الإلهية تستطيع ان تجري ما يدعوه جوزيف دو ميستر Joseph de Maistre (في كتابه **البابا**) نوع «التطعيم الروحي» الضروري لتدمير «الخشونة الطبيعية» للارادات الفردية العاملة في الدولة ولتمكينها من الفعل معا دون ان يؤذي بعضها بعضا .

جلي تماما ان الماكيافيلية ــ والهتلرية المنفلتة في الحرب تقدم ، حين كتابة ماريتان ، نوعا منها لم يخطر في بال ماكيافل نفسه ، ــ جلي تماما ان هذه الماكيافيلية تتجنب اية معضلة عمل من الذات على الذات ، اية معضلة خميرة مسيحية ، تطعيم روحي ، وديمقراطية «بطولية» الالهام او (كما يقول برغسون) «انجيلية الجوهر» ! الانسان ، بالنسبة لماكيافل وتلاميذه ، ليس الا المادة الاولية للسلطة . الامير يعالجها ، هذه المادة الانسانية ، «كما النحّات يشتغل الطين او الرخام» . إثيقا الدولة تكنس هذا الذي يدعوه المسيحي اثيقا «الشخص» . بعيدا عن ان يكون لها كغاية «الخير المشترك لشعب متحد» ، لا تستطيع السياسة ان تستهدف الا الاستيلاء على السلطة بكل الوسائل ، الا المحافظة بكل الوسائل على السلطة . عدا ذلك ، بالنسبة لجميع الذين القوا بأنفسهم في السياسة ، حتى الديمقراطية ، ايُّ اغراء الماكيافيلية ! بل أمن الممكن الافلات من هذا الاغراء اذا لم يكن المرء يؤمن بـ «وجود حكومة سامية **وإلهية حقا** للكون والتاريخ» ؟ ج. ماريتان لا يعتقد ذلك .

اذ ان اخلاقا سياسية محض طبيعية لا تكفي لتقدم لنا وسائل وضع قواعدها ذاتها موضع التطبيق . الوجدان الاخلاقي لا يكفي اذا لم يكن في الوقت نفسه وجدانا دينيا . ما هو قادر على مجابهة الماكيافيلية ... ليس سياسة محض طبيعية ، حتى اذا ارادت نفسها عادلة ، انه سياسة مسيحية .

سياسة تعلم ان العدالة لا تكفي بدون المحبة . سياسة تضع في المركز غاية «الشخص» وليس غاية **الدولة** : فالاولى وحدها غاية ازلية . «الدولة ليس لهـا نفس خالدة ، ولا الامة» (الا بقدر بقائهما الروحي «بميراثهما المعنوي في ذاكـرة البشر») : لا الطبقة ، ولا العرق ، ولا اي شكل لجماعة ، لهن نفس خالدة ــ يمكن ان نضيف بدون خيانة فكرة الفيلسوف الكاثوليكي ، ومع تثبيتها ، بالعكس ، بالاستشهاد بالقول البابوي : «وحده الانسان ، وحده الشخص الانساني ، وليس الجماعة في ذاتها ، مزود بالعقل وبالارادة الحرة اخلاقيا» (بيوس الحادي عشر) .

***

ثورة الروح ، بكلمة وقولا لكل شيء ، ضد السلطة المجتاحة .

ماذا تفعل ، في نهاية الحساب ، كل هذه الاساطير المتهمة ، **طبقة** ، **عرق** ، **دولة ــ امة** ، غير حمل ماء جديد لطاحونة السلطة لتمكينها من سحق الانسان على نحو افضل ؟ **السلطة** ، **لوياثان** ، مينوتور Minotaure حديث ، ذلك هو ، في تحليل اخير ، الموضوع الحقيقي لثورة الروح الاخيرة .

في عدد من **احاديثه** Propos الشهيرة (**عناصر مذهب راديكالي** ، ١٩٢٥ ؛ **المواطن ضد السلطات** ، ١٩٢٦ ؛ **احاديث في السياسة** ، ١٩٣٤) ، الفيلسوف الان Alain مرّس فكره العجيب الحدة والرشاقة على نصب حواجز ضـد السلطات . حواجز ناجعة ، دون ان تسيء مع ذلك الى الطاعة الواجبة للسلطات المذكورة : هذا الشرط المزدوج والمتناقض يصنع كل جمال وكل صعوبة لعبـة الان الفكرية .

عظمة الان ، ــ يكتب ر. كابيتان R. Capitant ، ــ «هي الفردوية . الان فردوي على نحو عميق ، تام ، حصري» . فردوية ، يجب ان نوضح ، فرنسية بشكل نوعي : فردوية الفرد الذي **يفكر** ؛ لا بتاتا (كالفردوية الإنجلوسكسونيـة) فردوية الفرد الذي **يفعل** . بالنسبة لـ الان ، الفكر فردي حصرا ، وبه يحصـل التقدم ، لا بالمجتمع الذي يتخلى ويسلّم له «المواطن الذي يمأمىء» . هذا المجتمع الذي يعارضه البعض بالفرد ليس له اي واقعية . لا شيء اكثر تقهقرا ولا اشد خطرا من ان نؤلهه . «ارادة ان يكون المجتمع الإله ، فكرة متوحش . المجتمع ما هو الا وسيلة . لكن من الصحيح ايضا انهيعطي نفسه بوصفه غاية ، ما ان نسمح له

بذلك . هذا طغيان» .

فوضوية ؟ لا ، بأي حال . ينبغي ، يعظ الان ، ان نطيع السلطات ، بلا تحفظات أو شروط وعلى افضل شكل . «إن نطيع القوانين اولا بأول ، لكن ايضا أن ننفذ بسرعة الاوامر المتلقاة» . النظام والحرية لا ينفصلان قط . اذ ان «لعب القوى» ، غير المراقَبَ ، «لا يحوي اية حرية» . الان يقبل بغير كرهٍ ان تتدخل الدولة بتقنيات «اجتماعية بل واشتراكية» ، اذا لم تكن هذه سوى وسائل ترمي الى الغاية الفردوية . مذهب فردوي ، في الحاصل ، «يعقوبي» اكثر منه « ليبرالي » .

لكن لئن كانت الطاعة ، شرط النظام ، مطلوبة من المواطن ، الا ان جسمه وحده، في الواقع ، يطيع ، أما روحه فيحفظ لذاته دائما **ان يقاوم** . طاعة «بلا حب» ، طاعة «بلا ايمان» . طاعة الرئيس ، كجندي جيد متأهب ، بدون تأييده في الروح وخصوصا بدون الهتاف له . هذه الحيطة من **مقاومة** ذهنية ، التي لا شأن لها مع الفوضى ، هي كل الان . انه يكتب : «مقاومة للسلطات بالافضلية عن عمل أصلاحي» . المونارشية ــ رمز السلطة غير المراقَبة ــ جاهزة دوما للانبعاث ، والمواطن يجب ان يسهر دوما ، ودوما أن يراقب . «عدم قبول اي شيء بدون مراقبة» . «ليس لنا بتاتا ان نمدح او ان نكرم رؤساءنا ؛ لنا ان نطيعهم ساعة الطاعة ، **وان نراقبهم ساعة المراقبة»** . الديمقراطية ، بالنسبة لـ الان ، هي «جهد دائم من المحكومين ضد تجاوزات السلطة» ، هي المراقبة ، هي القدرة على انزال ملوك وأخصائيين في الحال «اذا لم يسيِّروا الشؤون في مصلحة العدد الاكبر» . هذه القدرة التي طالما مورست بالثورات والمتاريس تتمارس اليوم بالاستجواب البرلماني .

لنميز هنا هوى ، شراسة اشتباه ضد الحكام ــ الذين مكرهم «قديم قِدم العالم» ، في حين ان مكر المحكومين فتي جدا ــ آتية من روسو . روسو ، يكتب الان ، هو «اول من حك السلطة حتى العظم ، وربما الوحيد» ، لدرجة لا يوجد معها «طامع لا يلعنه ثلاث مرات في اليوم» .

ضد هذه الحكومة المشتبه بها بالجوهر ، الرجعية بالجوهر ، الان يعوّل على نائب الدائرة الانتخابية ، المتحصن في دائرته كالاقطاعي في اقطاعه ، والذي يرصد السلطات بعينه . ذاك هو المنتدَب الى المقاومة الفردوية ، الى الرقابة اليقظة ، الى الاستجواب ضد الوزراء الذين يستسلمون لعفريتات السلطة . الاقتراع على اساس الدائرة والاكثرية هو ، خارج اي تمثيل نسبي (هذا الاخير ماكينة «استفتاء على الاحزاب» ، عبودية النائب للاحزاب) ، الاقتراع الوحيد الفردوي ، الديمقراطي ، الجمهوري . فهو وحده يقرب بشكل كاف الناخب من المنتخَب ، لتمكينه من ان يؤدي جيدا حرفته ، حرفة مدافع عن الافراد ، عن الصغار ، ضد السلطات ، ضد كل «الحيوانات الكبيرة» . وأحد أخطر هذه الحيوانات الضخمة هو **الحزب** المنضبط ، المنظَّم على النمط الانجلوسكسوني او الالماني ، الذي يؤطر كتلا من أفراد . «ما **الحزب** ، ان لم يكن آلة تفكير بصورة مشتركة ، بجماعة ،

بصف ونظام ، اذا ما أقسموا اليمين لرئيسه ، اي موت الفكر . ان الفرد لا يفكر الا حرا ووحيدا» (ر.كابيتان R. Capitant .

التناظر الوثيق يقفز امام البصر ، بين اللعبة الفكرية الكبيرة لـ الان واللعبة السياسية ، الركيكة غالبا ولكن الاكيدة الامينة ، للحزب الراديكالي في ظـــل الجمهورية الفرنسية الثالثة : الان كان بالفعل فيلسوف الحزب الراديكالي .

> أصوّت لراديكالي ... هذا النوع محتقَر جدا ؛ لكنه يخفف وزن السياسة . ما اذاً الراديكالي ؟ انه اولا رجل غير مصدّق... . سلطانات من فوق ، سلطانات من هنا ، كلها يحكم عليها بأنهـــا سلطانات ... . لا يمكن ان نثق الا بسياسة يومية من حذر ، من مقاومة ، من رقابة ... . فالخصم لا يتعب ... ، سيدنا ، حتى الاعذب ، يمسك بالضبط السكين على رقبتنا ... . الراديكالي يحمل في نفسه عدوه ، الذي هو مواطن مطيع . الراديكالي يعلم جيدا انه سيطيع القانون ... . انه يريد ان يكون وحدة غـــير مميّزة في كتلة المنفذين السيئي الحظ ... . هذه المطالة تثير اعصاب كريمي المعسكرَين الطرفَين : بهذا البرود يَخدم الوطن ، يقول الكولونيل . والآخر : بهذا الجبن يخان الاخوة !

نعم ، ذاك موقع من الصعب جدا البقاء فيه . اذ ان الاهواء الديمقراطية ، القومية ، الاجتماعية ، تتآمر كافة على اخراج الراديكالي العزيز على قلب الان من الموقع المذكور . انها ، مثل عاصفة حقيقية ، تكنس كل الحذرات الراديكالية ، هذه الحذرات التي تقضي بأن «يحرم المرء ذاته» من البطولة ، من الهتاف ، من الولاء ، «الذي هو بحد ذاته حلو عذب» . بحيث ان لوياثان ، بجسمه الجبـــار وراسه الصغير الصغير ، «راسه الصغير المخيف» الذي ينبغي فعلا على البشر ان يصلوا الى الحذر والاحتراز منه ؛ لوياثان ، «الحيوان الضخم والصغير الرأس ، الذي لم يعد بوسعه ان يتحرك دون ان يسحق شيئا ما» ؛ لوياثان الذي يبـــدو ضروريا جدا «كبح وتقسيم جسمه الكبير» ـ لوياثان ما زال يبتسم .

***

ان اية ثورة للروح ، في الظاهر ، لا تلهم المؤلف القوي الذي كرسه برتران دو جوفنيل B. de Jouvnel في ١٩٤٥ للسلطة . العنوان الكامل : **في السلطة، تاريخ طبيعي لنموها** ، يشير بصورة كافية ، عند المؤلف ، الى ارادة تحليـــل علمي بارد .

مسحورا ـ كما في الماضي توكفيل من قِبل نمو وتطور المساواة الديمقراطية ـ

من قبل نمو السلطة الدائم المستمر ، من قبل هذا «الانتفاخ للدولة» الذي وحده جعل ممكنة الحرب **الشاملة** totale التي قام بها هتلر وقلّبها ضده خصومه، ب. دو جوفنيل اعطى نفسه كمهمة دراسة هذا النمو ، هذا الانتفـــاخ . يبيّن «ميتافيزيقات السلطة» (نظريات السيادة ، التي تسوّغ السلطة باصلها ؛ النظريات العضوية ، التي تسوغها بالهدف الاجتماعي) اللواتي ينتهين دوما الى التحـــول لصالح السلطة ، حتى حين جرى تصورهن أو تصميمهن لمعارضتها بعقبات . يُري «الطابع التوسعي» للسلطة ، ولماذا تتخذ هذه في المجتمع مكانا متزايد الاتساع ، بفضل انانيتها الجوهرية التي تدفعها الى التفتح دوما بشكل اوسع وبفضل القناع المثالي الذي ترتديه بالمناسبة . اذ «ان القدرة الفتحية الاستيلائية مرتبطة بالسلطة ارتباط القوة الفتكية بالجرثومة ، ... لها مراحلها من خدر وسبات ، ولكنها تعود الى الظهور بمزيد من القوة» .

بعكس الافكار المتلقاة ، السلطة ، بعيدا عن ان تكون حامية النظام المجتمعي ، هي «المعتدي» عليه . المؤلف يبيّن **السلطة** Pouvoir «آيلة بشكل طبيعي الى قلب ، الى تجريد السلطات autorités المجتمعية» ، الرئاسات autorités او الارستقراطيات الطبيعية مع أنهن مساعداتها . فهي لا تستطيع ان تكبر ، ان تنمي وسائلها الا على حسابهن ، مقيمة محلهن «دولتوقراطيتها الخاصة» . لكن ذلك يؤمن لها بالضربة نفسها حلف العامة المساواتية . «هوى النظام المطلق لا بد ان يتآمر مع هوى المساواة» (هذه نبرة توكفيل عينها) . بموجب نفس الجدل الداخلي، **السلطة** مدفوعة الى تدمير الاخلاق ــ العادات والمعتقدات اللواتي تساندهن ــ رغم ان الاخلاق ــ العادات والمعتقدات هن لها دعائم ثمينة ــ لتحل محل نفوذهن سلطتها Son autorité ، «وعلى انقاضهن لتحقق وتتم ذاتها في إلهوقراطية» .

ها ان **الحق** نفسه يفقد طابعه العالي ، الضروري ، السرمدي ، ويكف بذلك عن كونه حاجزا غير قابل لان يُعبَر تقريبا امام **السلطة** ، لينخفض الى مرتبة نتاج عرَضي **للمجتمع** وقابل للتبديل دائما ، ناتج تنضجه **السلطة** نفسها . **«حـــق متحرك ، لعبة واداة الاهواء»** . لدرجة ان هذه **السلطة** ، وقد سبق ان تخلصت من القوى الاجتماعية العيانية التي كانت تعيقها ، تنعتق الان من سلطان **الحقـــوق** المجرد . تحت حكم نفس الاهواء ، تحت غطاء نفس الافكار التي كانت قد أسقطت السلطانات الاجتماعية ، **الحق (الحقوق)** يجرّد من استقلاله ، من كيانه الذاتي .

هل سنقول ان هذه **السلطة** المخيفة ، تعرف وتستطيع الثورات ان تسقطها ارضا ؟ يا له من وهم بصري ! الحقيقة ، ــ انظروا الثورة الاولى لانكلترة ؛ الثورة الفرنسية ؛ الثورة الروسية ، المجابهة في نتائجها مع تعليم ماركس وانجلز ولينين عن الدولة ، ــ الحقيقة ان الثورات تبدأ «بزعزعة **سلطة** غير كافية لتختتم بتوطيد **سلطة** اكثر اطلاقا» . رجال مثل كرامويل ، مثل ستالين ، عواقب محض عرضية، حوادث طارئة في سير العاصفة الاجتماعية ؟ لا : «بل النهاية المحتومة التي اليها كان يسير بشكل ضروري كل الانقلاب» . **الثورات تصفي الضعف وتلد القوة** . لا كبير اهمية للغتها المحرّرة : من اجل **السلطة** ، لا من اجل الحرية ، لا من اجـل

الانسان ، هي تعمل .

لكن ألم تصمّم **الديمقراطية** ، تحديدا ، بوصفها حصنا أمينا ضد **السلطة** ، ضد عسفها ، تجاوزاتها ؟ أجل ! لكن «الريح الاجتماعية» قلبت المنظومة . رأينا مرة اخرى **السلطة** تغير وجهها دون ان تغير طبيعتها . ميراث الملك السيد انتقل الى أيدي ممثلي الشعب ، ليس الا . **سيادة القانون** ، الحلم الديمقراطـي ، تحولت جبريا الى **سيادة برلمانية** ، وهذه الى **سيادة شعبية** . **السلطة** كسبت في ذلـك وحسب : قالت ذاتها «**شعب**» مع انها «بعد ودوما **سلطة**» ، كيف التجرؤ علـى وضع مكابح **للشعب** ، لسلطته ، الخيِّرَين بالجوهر ؟

وبلعبة الاحزاب المنظمة ، المتزايدة الوحدة ــ الصخرية (يا الان !) ، التـي تضع يدها بآن على الناخبين وعلى المنتخَبين ، تصير الانتخابات «استفتاء يعود به شعب بالكامل ويضع ذاته بين أيدي فريق» . واذا ما بمزيد من تنظيم ودعاية وسوء نية وشراسة ، اذا ما قام فريق من هذه الفرق المسماة «حزب» وقبض بقوة على «الفريسة المشتهاة» ، **السلطة** ، ثم رفض تسليمها ، ــ قامت وأقامت الديمقراطية التوتاليتارية **ذات الحزب الواحد** !

هكذا في ايامنا ، في كل التواءات الدرب السياسي ، **السلطة** متربصة . سواء تخفّى وراء مجهولية الديمقراطية الانتخابية ، او أعلن نفسه دكتاتورا سافر الوجه، ان «المينوتور» ــ **لوياثان** ، كان هوبز يقول ، والان يكرر ــ هو في كل مكان «حام الى ما لا حد» ، لكن ، بالمعية والترابط ، «متسلط الى ما لا حد» . في خاتمة مؤلّف يترجم هذا التحليل المقتضب ، يترجم بشكل سيء ، عن أهميته وثروتـه ونفاذه ، يكتب المؤلف :

> ان تيارا واحدا بعينه ، وان بسرعة متفاوتة ، يجرف اليوم كل الشعوب نحو نظام الحماية الاجتماعية . المصالح التي افزعهـا اللايقين ، العقل الذي صدمته البلبلة ، العاطفة التي اثارهـا البؤس ، الخيال الذي ألهبته رؤية المكنات ، كلها معا تنادي منظما وقاضيا بالعدل والقصاص . اندفاع الحاجات والرغبات والاهواء والاحلام يساعده على الاطاحة بكل الحواجز الدستورية او الحقوقية او الاخلاقية ، التي لغمها اصلا انحلال المطلقات ، الحقد على الحقوق المكتسبة ، روح الاحزاب الحربي والبربري . حتى تعمل كـل شيء ، ينبغي للسلطة ان تستطيع كل شيء . الشعوب يحسبون انها ستبقى مطواعة لاندفاعاتهم ، مع انتاجها في الوقت نفسه آثارا عيانية لا يمكن الحصول عليها الا بالمتابعة الدائمة لمخططات منهجية. الخبراء ينتظرون ان تضبط كل الآليات الاجتماعية حسب العقل الموضوعي ، حين هي فقط إما مركز دوراني او بؤرة ارادات ذاتية. ان كل شيء يدعو رجال السلطة الى أرحب الطموحات . وانبلهـا

ليست أقلها خطرا ؛ انهم يريدون أن يكونوا صانعي السعادة العامة والتقدم التاريخي .

كيف لا ندرك ، تحت هذه السطور الكثيفة ، رعشة صماء ــ تسري عدا ذلك ، متفاوتة الشدة ، في كل المؤلف ؟ كيف لا نتعرف هنا ، فيما يتخطى ارادة عالم الطبيعيات البارد (بعضهم قال : «عالم الاختلال والامراض») التي تحرك المؤلف ، على رعشة ثورة الروح ذاتها ؟ انها ، بحقيقة القول ، ليست ثورة روسو او الان بقدر ما هي ثورة مونتسكيو ، بنجامين كونستان ، توكفيل ، تين ، ضد جميع اشكال الاستبداد المركز ، الصريحة او المحتالة . هذه الثورة التي تسند بشكل صامت كتاب **في السلطة** ، يتركها المؤلف تنفجر بحرية في السطور الاخيرة من كتاب لاحق (**اية اوروبا** ، ١٩٤٧) . يفضح فيه «مينوتور الازمنة الحديثة» ، ــ الذي ما زال ينتظر «تيزه Thésée الازمنة الجديدة» ، ــ بقول آخر

> الدولة القومية ــ الوحدوية ، هذا التمركز الهائل الغولي لسلطات، الذي يربط بدولاب واحد ويخضع لدفع واحد كل قوى وكل حياة المجتمع ... ، **هذا الغول الذي حمل في عصر النهضة ، وولد على يد فريدريك و روبسبيير ، وتفتح في نابوليونية ، واحتقن في هتلرية ...**

نفضات لا طائل فيها ، ذلك كله ، قد يفكر القارىء ، امام الضغط الاقتصادي، التكنولوجي ، الذي يلعب في الاتجاه المعاكس ، امام الزحف المساواتي الذي يكنس كل الوجهاء ، يدفع كل أشكال الارستقراطيات الاجتماعية ! نفضات لا طائل فيها من جانب الانسان الفردي ، «الشخص» المأخوذ نهائيا في الفخ ! الغول ، لوياثان ، يستطيع ان يشدد تهكم ابتسامته . ما من تيزه Thésée جديد سيبيد المينوتور الجديد .

من يعلم ؟ لا نزعم هنا معرفة سر التاريخ ؛ بل لسنا واثقين من ان هناك سرا للتاريخ . نكتفي بتسجيل هذا النضال من الروح ضد لوياثان ، نضال ، كالبحر ، يعاوَد دائما . نقتصر على القول : اذا كان لهذا النضال ، ذات يوم ، ان لا يعاوَد، تحت ثقل دعاوات مبلّدة ، تحت كرباج ارهابات برقية او دامية ، اذا كان لهذا الاندفاع الروحي المتناقل من عصر الى عصر ان ينضب ذات يوم ، عندئذ فقط سيكون مسموحا به الاستسلام . والقبول بفتوى تين Taine المرة ، التي كان يلتذ بها بارس Barrès ، باريس **موت مدينة البندقية**: «ما من انسان متفكر يستطيع ان يأمل» .

الفهرست

هذا الكتاب

الفكر السياسي جزء هـام من مسيرة اوروبا في العصر الحديث والازمنة المعاصرة . وكتاب جـان جاك شفاليه اهم كتاب فرنسي في هذا الميدان ، بلا منازع .

ولقد اختـار المؤلف ان يعرض تاريخ هذا الفكر من خلال « المؤلفات السياسية الكبرى » التي هي « محطات » على هـذا الطريق . عرضها بأمانة وعمق ودقة ، لا نظير لهن ، في السياق التاريخي للتطورات والصراعات .

ماكيافل ، بودان ، هوبز ، بوسويه ، ينتمون لمرحلة الصعود الى المونارشية المطلقة ، لوك ، مونتسكيو ، روسو ، سييس ، يمثلون حركة رد ظافر ضد هذا النظام المطلق ، تبلغ ذروتهـا في الثـورة الفرنسية (١٧٨٩) برك ، فيشته ، توكفيل ، ثلاثة اتجاهات في ما بعد هذه الثورة . «البيان الشيوعي » ، موراس ، سوريل ، « الدولة والثورة » (لينين) ، « كفاحي » (هتلر) ، خمس اتجاهات تنتمي الى المرحـلة الطويلة والدراماتيكية التي بدأت في سنة ١٨٤٨ ».

هذا العرض يرتكز دائمـاً على اللحظة التاريخية المليئة التي ولد فيها العمل الفكري الكبير . لكن « بدون ان نهمل ما في كل مؤلف هو خاص بزمنه وبشخصية الكاتب ، فقد اكدنا على الصفحات التي تسهم في اثارة المعضلات السياسية الرئيسـية ، المطروحة منذ قرون على الذهن البشري . مهما بلغ عمق ارتباط مؤلف من المؤلفات ، في اصله ، بظروف التاريخ ، فان اجـود ما فيه واقواه فكراً وتعبيراً يتجه دوماً الى التحرر من «موضوع اللحظة » ، ليأخذ عبر الزمن طيرانه المستقل » (شفاليه).

دار الحقيقة - بيروت